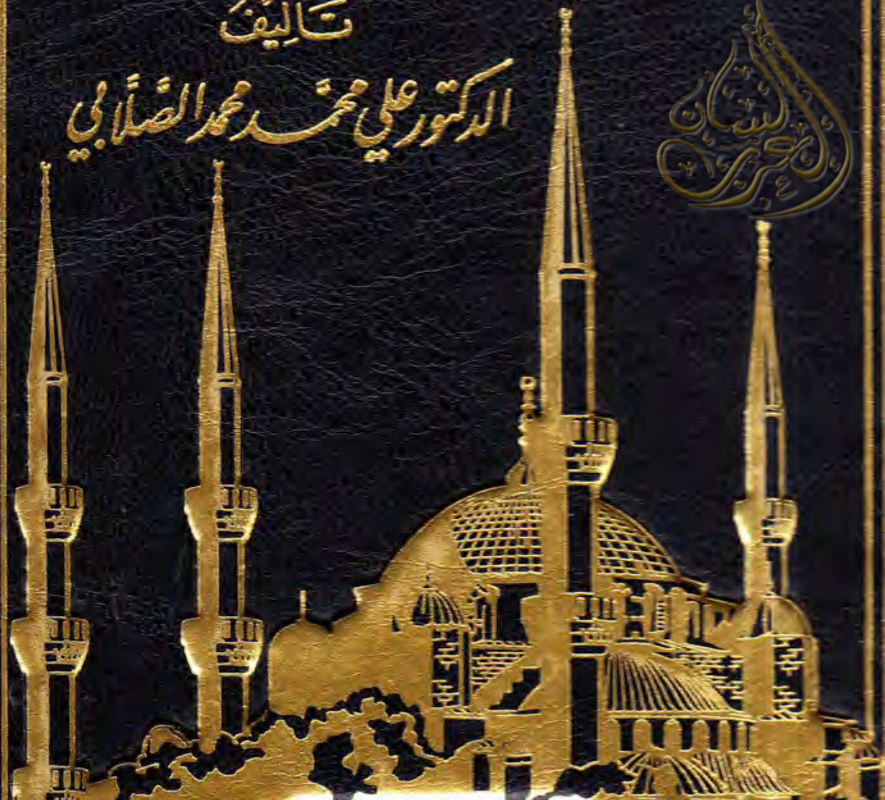
صفحات من التاريخ الإسلامي ، ٦ ،

الدولة العثمانية

عوامل النهوض وأسباب السقوط

تأليف

الدكتور علي محمد محمد الصلابي



دار ابن كثير
دمشق - بيروت

الدولة العثمانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية

1427 هـ ـ 2006 م

دار ابن كثير

للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق ـ بيروت

لسان العرب

الرقم الدولي :

الموضوع : تاريخ

العنوان : الدولة العثمانية عوامل النهضة و اسباب السقوط

التأليف : الدكتور علي محمد محمد الصلابي

نوع الورق : أبيض

ألوان الطباعة : لون واحد

عدد الصفحات : 640

القياس : 17×24

نوع التجليد : فني

الوزن : 1.1 كغ

التنفيذ الطباعي : دار القماطي للطباعة

التجليد : المؤسسة العالمية للتجليد

دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا ـ بناء الجابي
ص.ب : 311 ـ هاتف : 2225877 ـ 2228450 ـ فاكس : 2243502
بيروت ـ برج أبي حيدر ـ خلف دبوس الأصلي ـ بناء الحديقة
ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 ـ جوال : 03/204459
www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

دار ابن كثير

صفحات من التاريخ الإسلامي (٦)

الدولة العثمانية

عوامل النهوض وأسباب السقوط

تأليف

الدكتور علي محمد محمد الصلابي

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى العلماء العاملين ، والدُّعاة المخلصين ، وطلاب العلم المجتهدين ، وأبناء الأمَّة الغيورين :

أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى عزَّ وجلَّ بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يكون خالصاً لوجهه الكريم .

قال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف : ١١٠] .

مقدِّمة

إِنَّ الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله ؛ فلا مضلَّ له ، ومن يضلل ؛ فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ، ورسوله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ، ٧١] .

أمَّا بعد :

يا ربِّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، لك الحمد حتَّى ترضى ، ولك الحمد إذا رضيت .

هذا الكتاب السَّادس (صفحاتٌ من التَّاريخ الإسلامي) يتحدَّث عن الدَّولة العثمانيَّة « عوامل النُّهوض ، وأسباب السُّقوط » فيعطي صورةً واضحةً عن أصول الأتراك ، ومتى دخلوا في الإسلام ، وعن أعمالهم المجيدة عبر التَّاريخ ، ويستلُّ من بطون المصادر ، والمراجع بعض التَّراجم لشخصياتٍ تركيَّةٍ صهرها القرآن الكريم ، وساهمت في بناء الحضارة الإسلاميَّة ، ونصرت مذهب أهل السُّنَّة أمثال : السُّلطان سلجوق ، وألب أرسلان ، ونظام الملك ، وملكشاه .

ويتحدَّث الكتاب عن جهادهم ، ودعوتهم ، وحبِّهم للعلم ، والعدل ، ويبيِّن : أنَّ الأتراك الَّذين قاموا ببناء الدَّولة العثمانيَّة امتداداً للسلاجقة ، ويتحدَّث حديثاً منصفاً عن زعماء الدَّولة العثمانيَّة ، كعثمان الأوَّل ، وأورخان ، ومراد الأوَّل ، ومحمَّد جلبي ، ومراد الثَّاني ، ومحمَّد الفاتح ، ويبيِّن صفاتهم ، والمنهج الَّذي ساروا عليه ، وكيف تعاملوا مع سنن الله في بناء الدَّولة ، كسنَّة التَّدرُّج ، وسنَّة الأخذ بالأسباب ، وسنَّة تغيير النُّفوس ، وسنَّة التدافع ، وسنة الابتلاء ، وكيف حقَّق القادة الأوائل شروط التَّمكين ، وكيف أخذوا بأسبابه المادِّيَّة ، والمعنوية ؟

وما هي المراحل الَّتي مرَّت بها ؟ وكيف كان فتح القسطنطينية نتيجة لجهود تراكميَّة شارك فيها العلماء ، والفقهاء ، والجنود ، والقادة على مرِّ العصور ، وكرِّ الدُّهور ، وتوالي الأزمان ؟

ويبيِّن للقارئ الكريم : أنَّ النُّهوض العثماني كان شاملاً في كافة المجالات العلميَّة ، والسِّياسيَّة ، والاقتصادية ، والإعلاميَّة ، والحربيَّة ، وأنَّ للتَّمكين صفاتٍ لا بدَّ من توافرها في القادة ، والأمَّة ، وبفقدها يفقد التَّمكين .

ويوضِّح للقارئ حقيقة الدَّولة العثمانيَّة ، والأسس الَّتي قامت عليها ، والأعمال الجليلة الَّتي قدَّمتها للأمَّة ؛ كحماية الأماكن المقدَّسة الإسلاميَّة من مخطَّطات الصَّليبيَّة البرتغاليَّة ، ومناصرة أهالي الشَّمال الأفريقيِّ ضدَّ الحملات الصَّليبيَّة الأسبانيَّة ، وغيرها ، وإيجاد وحدة طبيعية بين الولايات العربيَّة ، وإبعاد الزَّحف الاستعماريِّ عن ديار الشَّام ، ومصر ، وغيرها من الأراضي الإسلاميَّة ، ومنع انتشار المذهب الاثني عشري الشِّيعي الرَّافضي إلى الولايات الإسلاميَّة التابعة للدَّولة العثمانيَّة ، ومنع اليهود من استيطان فلسطين ، ودورها في نشر الإسلام في أوربة . ويتحدَّث هذا البحث عن سلبيات الخلافة العثمانيَّة ، والَّتي كان لها الأثر في إضعاف الحكم ، كإهمال اللُّغة العربيَّة الَّتي هي لغة القرآن الكريم ، والحديث الشَّريف في آخر عهدها ، وعدم الوعي الإسلامي الصَّحيح ، وانحرافها عن شرع الله تعالى ، وتأثُّرها بالدَّعوات التَّغريبيَّة .

ويتكلَّم عن حقيقة الصِّراع بين الحركة الوهابيَّة ، والدَّولة العثمانيَّة ، وعن الدَّور المشبوه الَّذي قام به محمَّد علي لصالح بريطانيا ، وفرنسا في ضربه للتَّيَّار الإسلامي في مصر ، والحجاز ، والشَّام ، وعن حركته التَّغريبيَّة الَّتي كانت خطوةً نحو الانسلاخ عن المبادئ الإسلاميَّة الأصيلة ، ويتحدَّث عن الدَّعم الماسونيِّ الَّذي كان خلف سياسات محمَّد علي المدمِّرة للأمَّة الإسلاميَّة .

ويوضِّح الكتاب أنَّ محمد علي كان مخلباً ، وخنجراً مسموماً ، استعمله الأعداء في تنفيذ مخطَّطاتهم ، ولذلك وقفوا معه في نهضته العلميَّة ، والاقتصاديَّة ، والعسكريَّة بعد أن أيقنوا بضعف الجانب العقدي ، والإسلامي لديه ، ولدى أعوانه ، وجنوده ، وكيف ترتَّب على دور محمَّد علي في المنطقة بأسرها أن تنبَّهت

الدُّول الأوربيَّة إلى مدى الضَّعف الَّذي أصبحت عليه الدَّولة العثمانيَّة ، وبالتَّالي استعدادها لتقسيم أراضيها حينما تتهيَّأ الظُّروف السِّياسيَّة .

ويتكلَّم عن السُّلطان محمود الثَّاني الَّذي ترسم خطى الحضارة الغربيَّة في حركته الإصلاحيَّة ، ويتحدَّث عن ابنه عبد المجيد الَّذي تولَّى السَّلطنة من بعده ، والذي كان خاضعاً لتأثير وزيره رشيد باشا الذي وجد مُثُله ، وفلسفته في الماسونيَّة ، وكيف ساهم هذا الوزير مع أنصاره في دفع عجلة التَّغريب الَّتي كانت تدور حول نقاطٍ ثلاثةٍ هامَّةٍ :

الاقتباس من الغرب فيما يتعلَّق بتنظيم الجيش ، والاتِّجاه بالمجتمع نحو التَّشكيل العلمانيِّ ، والاتجاه نحو مركزية السُّلطة في إستانبول ، والولايات ، وكيف كانت الخطوات الجريئة الَّتي اتخذها الماسون الأتراك نحو علمنة الدَّولة ، وإظهار خَطَّيْ كلخانة ، وهمايون ، والوصول إلى دستور مدحت باشا عام (١٨٧٦م) وكان ذلك الحدث أوَّل مرَّة في تاريخ الإسلام ، ودولته يجري العمل بدستورٍ مأخوذٍ عن الدُّستور الفرنسي ، والبلجيكي ، والسويسري ، وهي دساتير وضعيةٌ علمانيَّةٌ .

ويوضِّح للقارئ كيف وضع حركة التَّنظيمات الدَّولة العثمانيَّة رسمياً على طريق نهايتها كدولة إسلاميَّة ، فعلمنت القوانين ، ووضعت مؤسَّساتٍ تعمل بقوانين وضعيَّةٍ ، وابتعدت الدَّولة عن التَّشريع الإسلامي في مجالات التِّجارة ، والسِّياسة ، والاقتصاد ، وبذلك سحب من الدَّولة العثمانية شرعيَّتها من أنظار المسلمين .

ويبيِّن للقارئ الكريم كيف هيمن رجال التَّغريب على الدَّولة العثمانيَّة في زمن السُّلطان عبد العزيز ، وعندما تعرَّض لكثيرٍ من مخطَّطاتهم ؛ عزلوه ، ثمَّ قتلوه .

ويتحدَّث عن الجهود العظيمة التي قام بها السُّلطان عبد الحميد خدمةً للإسلام ، ودفاعاً عن دولته ، وتوحيداً لجهود الأمَّة تحت رايته ، وكيف ظهرت فكرة الجامعة الإسلاميَّة في معترك السِّياسة الدَّوليَّة في زمن السُّلطان عبد الحميد ؟ ويفصِّل الكتاب في الوسائل الَّتي اتَّخذها السُّلطان عبد الحميد في تنفيذ مخططه للوصول إلى الجامعة الإسلاميَّة ، كالاتصال بالدُّعاة ، وتنظيم الطُّرق الصوفية ، والعمل على تعريب الدَّولة ، وإقامة مدرسة العشائر ، وإقامة خطِّ سكَّة حديد الحجاز ، وإبطال مخطَّطات الأعداء .

ويركِّز الكتاب على جهود الصُّهيونيَّة العالمية في دعم أعداء السُّلطان عبد الحميد كالمتمرِّدين الأرمن ، والقوميِّين البلقان ، وحركة حزب الاتحاد والتَّرقي ، والوقوف مع الحركات الانفصاليَّة عن الدَّولة العثمانيَّة ، وكيف استطاع أعداء الإِسلام عزل السُّلطان عبد الحميد ؟ وما هي الخطوات الَّتي اتُّخذت للقضاء على الخلافة العثمانية ؟ وكيف صُنِعَ البطل المزيَّف مصطفى كمال ؟ الَّذي عمل على سلخ تركيا من عقيدتها ، وإِسلامها ، وحارب التَّديُّن ، وضيَّق على الدُّعاة ، ودعا إِلى السُّفور ، والاختلاط .

ولم يترك الكتاب الحديث عن بشائر الإِسلام في تركيا ، ويشير إِلى الجهود العظيمة الَّتي قامت بها الحركة الإِسلامية في تركيا بفصائلها المتعدِّدة ، وتترك القارئ المسلم ينظر بنور الإِيمان إِلى مستقبل الإِسلام في تركيَّا ، والعالم أجمع .

وفي نهاية الكتاب يهتمُّ الباحث بإِبراز أسباب السُّقوط من المنظور القرآني ، ليبيِّن للقارئ : أنَّ أسباب السُّقوط عديدةٌ ، منها :

انحراف الأمَّة عن مفاهيم دينها ، كعقيدة الولاء ، والبراء ، ومفهوم العبادة ، وانتشار مظاهر الشِّرك ، والبدع ، والانحرافات ، وظهور الصُّوفيَّة المنحرفة ، كقوَّةٍ منظَّمةٍ في المجتمع الإِسلامي ، تحمل عقائد ، وأفكاراً ، وعباداتٍ بعيدةً عن كتاب الله ، وسنَّة رسوله ﷺ . وينبِّه القارئ المسلم عن الفرق الضَّالة المحسوبة على الإِسلام ، ويتحدَّث الكتاب عن غياب القيادة الرَّبَّانيَّة كسببٍ في ضياع الأمَّة ، وخصوصاً عندما يصبح علماؤها ألعوبة بيد الحكَّام الجائرين ، ويتسابقون على الوظائف ، والمراتب ، وغاب دورهم المطلوب منهم ، وكيف أصيبت العلوم الدِّينيَّة في نهاية الدَّولة العثمانيَّة بالجمود والتَّحجُّر ؟

وكيف اهتمَّ العلماء بالمختصرات ، والشُّروح ، والحواشي ، والتَّقريرات ؟ وتباعدوا عن روح الإِسلام الحقيقيَّة المستمدَّة من كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ ، ورفض كثيرٌ من العلماء فتح باب الاجتهاد ، وأصبحت الدَّعوة لفتح بابه تهمةً كبيرةً تصل إِلى الرَّمي بالكبائر ، وتصل عند المقلِّدين ، والجامدين إِلى حدِّ الكفر ، وتعرَّض الكتاب للظُّلم الَّذي انتشر في الدَّولة ، وما أصابها من التَّرف ، والانغماس في الشَّهوات ، وشدَّة الاختلاف ، والتَّفرُّق ، وما ترتَّب عن الابتعاد عن شرع الله من

آثار خطيرة ، كالضَّعف السياسيِّ ، والحربيِّ ، والاقتصاديِّ ، والعلميِّ ، والأخلاقيِّ ، والاجتماعيِّ ، وكيف فقدت الأمَّة قدرتها على المقاومة ، والقضاء على أعدائها ؟ وكيف استُعمرت ، وغُزيت فكريّاً نتيجةً لفقدها لشروط التَّمكين ، وابتعادها عن أسبابه المادِّيَّة ، والمعنوية ، وجهلها بسنن الله في نهوض الأمم ، وسقوطها ، قال تعالى :

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

إنَّ هذا الجهد المتواضع قابلٌ للنَّقد ، والتَّوجيه ، وفي حقيقته محاولةٌ جادَّةٌ للجمع ، والتَّرتيب ، والتَّفسير ، والتَّحليل للأحداث التَّاريخية الَّتي وقعت في زمن الدَّولة العثمانيَّة ، والَّتي تأثَّرت بحركة الشُّعوب في صراعها العنيف فيما بينها نتيجةً للاختلاف في العقائد والمناهج ، والأهداف ، والقيم ، والمثل ؛ فإن كان خيراً ؛ فمن الله وحده ، وإن أخطأت السَّبيل ؛ فأنا عنه راجعٌ ؛ إن تبيَّن لي ذلك ، والمجال مفتوحٌ للنَّقد ، والردِّ ، والتَّوجيه ، وهدفي من الكتاب :

١ ـ تسليط الأضواء على زعماء الدَّولة العثمانيَّة ، كعثمان الأوَّل ، وأورخان ، ومحمَّد الفاتح ، وغيرهم .

٢ ـ بيان المنهج الَّذي سارت عليه الدَّولة العثمانيَّة في مسيرتها الطَّويلة .

٣ ـ التَّركيز على العوامل الَّتي ساهمت في بناء الدَّولة العثمانيَّة ، والأسباب الَّتي نخرتها ، وساهمت في إضعافها ، ثمَّ سقوطها ، وزوالها .

٤ ـ تسهيل مبدأ الاعتبار ، والاتِّعاظ بمعرفة أحوال الدُّول ، والنَّظر في سنن الله في الآفاق ، وفي الأنفس ، والمجتمعات .

٥ ـ بيان الكيد العظيم الَّذي تعرَّضت له الدَّولة العثمانيَّة من قبل النَّصارى ، واليهود ، والعلمانيِّين الأتراك . . وغيرهم .

٦ ـ كشف الزُّور ، والبهتان الَّذي تعرَّضت له الدَّولة العثمانيَّة من الأقلام المسمومة ، وبيان بطلان من سمَّى الحكم العثماني استعماراً ، وقرنه بالاستعمار الغربيِّ ، كالاستعمار الفرنسيِّ ، والإنجليزيِّ .

٧ ـ الدِّفاع عن إِخواننا في العقيدة (العثمانيِّين) الَّذين تعرَّضوا للظُّلم ، ونُسب إِلى تاريخهم أباطيل ، وأكاذيب من قبل اليهود ، والنَّصارى ، والعلمانيِّين العرب ، والأتراك ، وترشيد الأجيال لمعرفة حقيقة العثمانيِّين .

٨ ـ إظهار صفحات الجهاد العظيم الَّذي قام به العثمانيُّون ، ومساهماتهم في الدَّعوة إِلى الله والَّتي حاول أعداء الأمَّة طمسها ، والتَّشكيك فيها ، والطَّعن في حقيقتها .

٩ ـ إثراء المكتبة الإِسلاميَّة التَّاريخيَّة بالأبحاث المنبثقة عن عقيدةٍ صحيحةٍ ، وتصوُّرٍ سليمٍ بعيداً عن سموم المستشرقين ، وأفكار العلمانيين ؛ الَّذين يسعون لقلب الحقائق التَّاريخيَّة من أجل خدمة أهدافهم .

١٠ ـ بيان : أنَّ حركات الإِصلاح الَّتي تستحقُّ التَّقدير ، والاحترام في الأمَّة هي الَّتي سارت وتسير على منهج القرآن الكريم ، وسنَّة سيِّد المرسلين ﷺ في العقائد ، والعبادات ، والأخلاق ، والمعاملات ، وجميع شؤون الحياة .

١١ ـ التَّعريف ببعض العلماء العاملين ، والفقهاء الرَّاسخين الَّذين ساهموا في بناء الدولة العثمانيَّة ، وتربية الأمَّة ، كالشيخ أحمد الكوراني ، وشمس الدِّين آق (محمَّد بن حمزة) وغيرهم .

* هذا وقد قمت بتقسيم الكتاب إِلى مدخلٍ ، وسبعة فصولٍ ، ونتائج البحث :

المدخل : المناهج المعاصرة في كتابة تاريخ الدولة العثمانيَّة .

الفصل الأوَّل : جذور الأتراك ، وأصولهم

ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأَول : أصل الأتراك ، وموطنهم .

المبحث الثاني : قيام الدَّولة السَّلجوقيَّة .

المبحث الثالث : نهاية الدَّولة السَّلجوقيَّة .

الفصل الثَّاني : قيام الدَّولة العثمانيَّة وفتوحاتها

ويشتمل على ستَّة مباحث :

المبحث الأوَّل : عثمان مؤسِّس الدَّولة العثمانيَّة .

المبحث الثَّاني : السُّلطان أورخان بن عثمان .

المبحث الثَّالث : السُّلطان مراد الأوَّل .

المبحث الرَّابع : السُّلطان بايزيد الأوَّل .

المبحث الخامس : السُّلطان محمَّد الأوَّل .

المبحث السَّادس : السُّلطان مراد الثَّاني .

الفصل الثالث : محمد الفاتح وفتح القسطنطينيَّة

ويشتمل على سبعة مباحث :

المبحث الأوَّل : السُّلطان محمَّد الفاتح .

المبحث الثَّاني : الفاتح المعنوي للقسطنطينية (الشَّيخ آق شمس الدِّين) .

المبحث الثالث : أثر فتح القسطنطينيَّة على العالم الأوروبِّي ، والإسلامي .

المبحث الرَّابع : أسباب فتح القسطنطينيَّة .

المبحث الخامس : أهم صفات محمَّد الفاتح .

المبحث السَّادس : شيءٌ من أعماله الحضاريَّة .

المبحث السَّابع : وصية السُّلطان محمَّد الفاتح لابنه .

الفصل الرَّابع : السَّلاطين الأقوياء بعد محمَّد الفاتح

ويشتمل على تسعة مباحث :

المبحث الأوَّل : السَّلطان بايزيد الثَّاني .

المبحث الثَّاني : السُّلطان سليم الأوَّل .

المبحث الثَّالث : السُّلطان سليمان القانوني .

المبحث الثَّاني : الجامعة الإِسلاميَّة .

المبحث الثَّالث : السُّلطان عبد الحميد واليهود .

المبحث الرَّابع : السُّلطان عبد الحميد ، وجمعية الاتِّحاد ، والترقِّي .

المبحث الخامس : الإِطاحة بحكم السُّلطان عبد الحميد الثاني .

المبحث السادس : حكم الاتحاديِّين ، ونهاية الدَّولة العثمانيَّة .

المبحث السابع : بشائر إِسلاميَّة في تركيا العلمانيَّة .

المبحث الثامن : أسباب السُّقوط .

ثمَّ نتائج البحث .

وأخيراً : أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يثيبني على كلِّ حرفٍ كتبته ، ويجعله في ميزان حسناتي ، وأن يثيب إِخواني الَّذين أعانوني بكلِّ ما يملكون من أجل إِتمام هذا الكتاب .

« سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك ، أشهد أن لا إِله إِلا أنت ، أستغفرك ، وأتوب إِليك » .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين .

الفقير إِلى عفو ربِّه ، ومغفرته
علي محمَّد محمَّد الصلابي

المدخل

المناهج المعاصرة في كتابة تاريخ الدَّولة العثمانيَّة

*** تمهيد :**

لم يتورَّع المؤرِّخون الأوربيُّون ، واليهود ، والنَّصارى ، والعلمانيُّون الحاقدون عن الهجوم على تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، فاستخدموا أساليب الطَّعن ، والتَّشويه ، والتَّشكيك فيما قام به العثمانيُّون من خدمةٍ للعقيدة ، والإسلام ، وسار على هذا النَّهج الباطل أغلب المؤرِّخين العرب بشتى انتماءاتهم ، واتِّجاهاتهم القوميَّة ، والعلمانيَّة ، وكذلك المؤرِّخون الأتراك الَّذين تأثَّروا بالتوجُّه العلماني ؛ الذي تزعَّمه مصطفى كمال ، فكان من الطَّبيعيِّ أن يقوموا بإدانة فترة الخلافة العثمانيَّة ، فوجدوا فيما كتبه النَّصارى ، واليهود ثروةً ضخمةً لدعم تحوُّلهم القومي العلماني في تركيا بعد الحرب العالمية الأولى .

كان الموقف من التَّاريخ العثماني بالنسبة للمؤرِّخ الأوربي بسبب تأثُّره بالفتوحات العظيمة الَّتي حقَّقها العثمانيُّون ، وخصوصاً بعد أن سقطت عاصمة الدَّولة البيزنطيَّة (القسطنطينيَّة) وحولها العثمانيُّون دار إسلام ، وأطلقوا عليها إسلام بول (أي : دار الإسلام) فتأثَّرت نفوس الأوربيِّين بنزعة الحقد ، والمرارة الموروثة ضدَّ الإسلام ، فانعكست تلك الأحقاد في كلامهم ، وأفعالهم ، وكتاباتهم ، وحاول العثمانيُّون مواصلة السَّير لضمِّ روما إلى الدَّولة الإسلاميَّة ، ومواصلة الجهاد حتَّى يخترقوا وسط أوربة ، ويصلوا إلى الأندلس ؛ لإنقاذ المسلمين فيها ، وعاشت أوربة في خوفٍ ، وفزعٍ ، وهلعٍ ، ولم تهدأ قلوبهم إلا بوفاة السُّلطان محمَّد الفاتح .

وكان زعماء الدِّين المسيحي من قساوسةٍ ، ورهبان ، وملوك يغذُّون الشَّارع الأوربيَّ بالأحقاد ، والضَّغائن ضدَّ الإسلام ، والمسلمين ، وعمل رجال الدِّين المسيحي على حشد الأموال ، والمتطوِّعين لمهاجمة المسلمين (الكفرة على حدِّ زعمهم) البرابرة ، وكلَّما انتصر العثمانيُّون على هذه الحشود ؛ ازدادت موجة

الكره ، والحقد على الإسلام ، وأهله ، فاتَّهم زعماء المسيحيين العثمانيين بالقرصنة ، والوحشيَّة ، والهمجيَّة ، وعلقت تلك التُّهم في ذاكرة الأوربيِّين .

لقد كانت الهجمات الإعلاميَّة المركَّزة من زعماء المسيحيَّة بسبب الحفاظ على مكاسبهم السِّياسيَّة والمادية ، وكرههم للإسلام وأهله ، وبالفعل استطاعت بعض الأسر الحاكمة في أوروبة أن يتربَّعوا على صدور المجتمعات الأوربيَّة في الحكم فترةً زمنيَّةً طويلةً ، وحقَّقوا مكاسب ضخمةً ، فأثروا ثراءً كبيراً ، ونصبوا حول أنفسهم هالةً كبيرةً ، اعتمدت في مجملها على الضَّلال والتَّضليل .

ومع أنَّ المجتمعات الأوربيَّة ثارت على هذه الفئات ، بعد أن اكتشفت ضلالها ، وتضليلها مع بداية عصر النَّهضة ، وبداية مرحلةٍ جديدة في التَّاريخ الأوروبيِّ ، إلا أنَّه لم يستطع وجدان المجتمع الأوربيِّ أن يتخلَّص من تلك الرَّواسب الموروثة من هذه الفئات تجاه العالم الإسلاميِّ بشكلٍ عامٍّ ، وتجاه الدَّولة العثمانيَّة بشكلٍ خاصٍّ . ولذلك اندفعت قوَّاتهم العسكريَّة المدعومة بحضارته المادِّية للانتقام من الإسلام ، والمسلمين ، ونزع خيراتهم بدوافع دينيَّة ، واقتصاديَّة ، وسياسيَّة ، وثقافيَّة ، وساندهم كتَّابهم ، ومؤرِّخوهم للطَّعن ، والتَّشويه ، والتَّشكيك في الإسلام ، وعقيدته ، وتاريخه ، فكان نصيب الدَّولة العثمانيَّة من هذه الهجمة الشَّرسة كبيراً .

وشارك اليهود الأوربيُّون بأقلامهم المسمومة ، وأفكارهم المحمومة في هذه الهجمات المتواصلة ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة خصوصاً ، والإسلام عموماً ، وازداد عداء اليهود للدَّولة العثمانيَّة بعد أن فشلت كافَّة مخطَّطاتهم في اغتصاب أيِّ شبرٍ من أراضي هذه الدَّولة لإقامة كيانٍ سياسيٍّ لهم طوال أربعة قرون ، هي عمر الدَّولة العثمانيَّة السَّنيَّة ، استطاع اليهود بمعاونة الصَّليبيَّة ، والدُّول الاستعماريَّة الغربيَّة ، ومن خلال محافلهم الماسونيَّة أن يحقِّقوا أهدافهم على حساب الأنظمة القوميَّة الَّتي قامت في العالم العربيِّ ، والإسلامي ، والتي وصفت نفسها بالتَّقدميَّة ، والتحضُّر ، واتَّهمت الخلافة العثمانيَّة على طول تاريخها بالتَّخلُّف ، والرَّجعيَّة ، والجمود ، والانحطاط ، وغير ذلك . واعتبرت المحافل الماسونيَّة ، والمنظَّمات الخفيَّة التَّابعة لليهود ، والقوى العالميَّة المعادية للإسلام ، والمسلمين : أنَّ مسألة تشويه

الفترة التّاريخيّة للدّولة العليّة العثمانيّة من أهمِّ أهدافها .

أمّا المؤرِّخون العرب في العالم الإسلاميِّ ؛ فقد ساروا في ركب الاتّجاه المهاجم لفترة الخلافة العثمانيّة مدفوعين إلى ذلك بعدّة أسبابٍ يأتي في مقدّمتها إقدام الأتراك بزعامة « مصطفى أتاتورك » على إلغاء الخلافة الإسلاميّة في عام ١٩٢٤م ، وأعقب ذلك إقدام الحكومة العلمانيّة التُّركيّة بالتحوُّل الكامل إلى المنهج العلمانيِّ في الجوانب الاجتماعيّة ، والاقتصاديّة ، والسِّياسيّة على حساب الشّريعة الإسلاميّة الّتي ظلّت سائدةً في تركيا منذ قيام الدّولة العثمانيّة ، وتحالفت هذه الحكومة مع السِّياسة الأوربيّة المعادية للدُّول الإسلاميّة والعربيّة ، واشتركت سلسلة الأحلاف العسكريّة الأوربيّة بعد نهاية الحرب العالميّة الثّانية ، والّتي رفضتها الشُّعوب العربيّة الإسلاميّة ، وبعض حكوماتها ، وقد كانت تركيا من أوائل الدُّول الّتي اعترفت بقيام الكيان السِّياسي الإسرائيلي في فلسطين عام (١٩٤٨م) ممّا جعل الشُّعوب العربيّة الإسلاميّة تندفع خلف حكوماتها القوميّة ، بعد غياب الدّولة العثمانيّة الّتي كانت تجاهد كلَّ من تسوّل له نفسه بالاعتداء على شبرٍ من أراضي المسلمين .

ويأتي سبب التّبعيّة البحثيّة لمدرسة التّاريخ العربيِّ لتاريخ المنهجيّة الغربيّة كعاملٍ هامٍّ في الاتجاه نحو مهاجمة الخلافة العثمانيّة ، خصوصاً بعد التقاء وجهات النّظر بين المؤرِّخين الأوربيِّين والمؤرِّخين العرب حول تشويه الخلافة الإسلاميّة العثمانيّة .

ولقد تأثّر كثيرٌ من مؤرِّخي العرب بالحضارة الأوربيّة المادِّيّة ، ولذلك أسندوا كلَّ ما هو مضيء في تاريخ بلادهم إلى بداية الاحتكاك بهذه الحضارة البعيدة كلَّ البعد عن المنهج الرّبّاني ، واعتبروا بداية تاريخهم الحديث من وصول الحملة الفرنسيّة على مصر ، والشّام ، وما أنجزته من تحطيم جدار العزلة بين الشّرق والغرب ، وما ترتّب عليه بعد ذلك من قيام الدّولة القوميّة في عهد محمد علي في مصر ، وصحب ذلك اتجاههم لإدانة الدّولة العثمانيّة التي قامت بالدفاع عن عقيدة الشُّعوب الإسلاميّة ودينها ، وإسلامها من الهجمات الوحشيّة ؛ التي قام بها الأوربيُّون النّصارى .

لقد احتضنت القوى الأوربيّة الاتِّجاه المناهض للخلافة الإسلاميّة وقامت بدعم المؤرِّخين ، والمفكِّرين في مصر ، والشَّام الدَّاعين إلى تأصيل الإطار القومي ، وتعميقه من أمثال البستاني ، واليازجي ، وجورج زيدان ، وأديب إسحاق ، وسليم نقَّاش ، وفرح أنطوان ، وشبلي شميل ، وسلامة موسى ، وهنري كورييل ، وهليل شفارتز ، وغيرهم ، ويلاحظ أنَّ معظمهم من النَّصارى ، واليهود ، كما أنَّهم في أغلبهم إن لم يكونوا جميعاً من المنتمين إلى الحركة الماسونيَّة الَّتي تغلغلت في الشَّرق الإسلاميِّ منذ عصر محمَّد علي ، والَّتي كانت بذورها الأولى مع قدوم نابليون في حملته الفرنسيَّة .

لقد رأى أعداء الأمَّة الإسلاميَّة ، أنَّ دعم التَّوجُّه القومي ، والوقوف مع دعاته كفيلٌ بتضعيف الأمَّة الإسلاميَّة ، والقضاء على الدَّولة العثمانيَّة .

واستطاعت المحافل الماسونيَّة أن تهيمن على عقول زعماء التَّوجُّه القومي في داخل الشُّعوب الإسلاميَّة ، وخضع أولئك الزُّعماء لتوجيه المحافل الماسونيَّة أكثر من خضوعهم لمطالب شعوبهم ، وبخاصَّةٍ موقفها من الدِّين الإسلامي الذي يشكل الإطار الحقيقي لحضارة المسلم ، وثقافته ، وعلومه ، ولم يتغيَّر هذا المنهج المنحرف لدى المؤرِّخين العرب بشكلٍ عامٍّ بعد قيام الانقلاب العسكري في مصر سنة ١٩٥٢م ، حيث اتَّجهت الحكومة العسكريَّة في مصر منذ البداية ، والتفَّت حولها أغلب الحكومات العسكريَّة إلى دعم التَّوجُّه القوميِّ ، كما أنَّ معظم هذه الحكومات ارتكزت على أسسٍ أكثر علمانيَّةً في جميع الجوانب بما في ذلك الجانب الثَّقافيِّ ، والفكريِّ ، فنظروا إلى الخلافة العثمانيَّة ، والحكم العثمانيِّ للشُّعوب الإسلاميَّة ، والعربيَّة بأنَّه كان غزواً ، واحتلالاً ، وأسندوا إليه كلَّ عوامل التَّخلف ، والضَّعف ، والجمود ، والانحطاط الَّتي ألمَّت بالعالم العربيِّ الإسلاميِّ ، واعتبروا حركات الانشقاق ، والتَّمرُّد الَّتي قامت إبَّان الفترة العثمانيَّة ، والَّتي كان دافعها الأطماع الشَّخصيَّة ، أو مدفوعة من القوى الخارجيَّة المعادية للخلافة الإسلاميَّة ، اعتبروها حركاتٍ استقلاليَّةً ذات طابعٍ قوميٍّ ، كحركة علي بك الكبير في مصر ، والقرمانليِّين في ليبيا ، وظاهر العمر في فلسطين ، والحسينيِّين في تونس ، والمعنيِّين ، والشِّهابيِّين في لبنان ، وغير ذلك من أجل تأصيل الاتِّجاه القوميِّ الَّذي

طرحوه . بل زعموا : أنَّ محمَّد علي كان زعيماً قوميّاً ، حاول توحيد العالم العربيِّ ، وأنَّه فشل بسبب : أنَّه لم يكن عربيَّ الجنس ، وتناسوا : أنَّ محمَّد علي كان ذا أطماعٍ شخصيةٍ ، جعلته يرتبط بالسِّياسة الاستعماريَّة الَّتي دعمت وجوده ، وحقَّقت به أهدافها الشِّرِّيرة من ضرب الدَّولة السُّعودية السَّلفيَّة ، وإضعاف الخلافة العثمانيَّة ، ومساندته المحافل الماسونيَّة في ضرب القوى الإسلاميَّة في المنطقة ، وتهيئتها بعد ذلك للاحتلال الغربيِّ المسيحيِّ الحاقد . لقد تحالفت المحافل اليهوديَّة الماسونيَّة مع القوى الاستعماريَّة الغربيَّة ، والقوى المحليَّة العميلة الَّتي أمكن تطويعها من خلال أطماعها ، والتقوا جميعاً في تدمير القوَّة الإسلاميَّة ، ومصادرة حرِّيات شعوبها ، وسلب خيراتها ، وإقامة حكمٍ ديكتاتوريٍّ مدعومٍ بالسِّلاح الغربيِّ الحديث ، وهو ما مثَّله محمَّد علي .

وقد شارك بعض المؤرِّخين السَّلفيين في المشرق العربيِّ في الهجوم على الفترة العثمانيَّة ؛ مدفوعين إلى ذلك بالرَّصيد العدائيِّ الَّذي خلَّفه دور الخلافة العثمانيَّة ضدَّ الدَّعوة السَّلفية في عديدٍ من مراحلها ؛ بسبب مؤامرات الدُّول الغربيَّة الاستعماريَّة الَّتي دفعت السلاطين العثمانيِّين للصِّدام بالقوَّة الإسلاميَّة في نجد قلب الدَّعوة السَّلفيَّة ، وكذلك لمساندة الخلافة للاتِّجاه الصُّوفي ، وبما يصاحبه من مظاهر تخلٍّ بالجوانب الأساسيَّة للشَّريعة الإسلامية ، فضلاً عن أنَّ دولة الخلافة في سنواتها الأخيرة قد سيطر عليها دعاة القوميَّة التُّركيَّة الَّذين ابتعدوا بها عن الالتزام بالمنهج الإسلاميِّ ؛ الَّذي تميَّزت به الدَّولة العثمانيَّة لفتراتٍ طويلةٍ في تاريخها ، وشجَّع كافة المسلمين بالارتباط بها ، وتأييدها ، والوقوف معها .

وأمَّا المؤرِّخون الماركسيُّون ؛ فقد شنُّوا حرباً لا هوادة فيها على الدَّولة العثمانيَّة ، واعتبروا فترة حكمها تكريساً لسيادة النِّظام الإقطاعي ؛ الذي هيمن على تاريخ العصور الوسطى السَّابقة ، وأنَّ العثمانيين لم يُحدثوا أيَّ تطوُّرٍ في وسائل ، أو قوى الإنتاج ، وأنَّ التَّاريخ الحديث يبدأ بظهور الطَّبقة البورجوازيَّة ، ثمَّ الرَّأسمالية الَّتي أسهمت في إحداث تغييرٍ في الجوانب الاقتصاديَّة ، والاجتماعيَّة في بداية القرن التَّاسع عشر ، والتقوا في ذلك مع المؤرِّخين الأوربيِّين من أصحاب الاتِّجاه الليبرالي ، وكذلك مع أصحاب المنظور القوميِّ .

وقام بعض المؤرِّخين ، والمفكِّرين من النَّصارى ، واليهود بترويج للاتِّجاهين : الغربيِّ ، والماركسي بواسطة التَّأليف ، والتَّرجمة لمؤلَّفاتهم ، والَّذي ساندته المحافل الماسونيَّة ، حيث إنَّهم حاولوا أن يبتعدوا عن أيِّ من الأطر الإسلاميَّة الوحدويَّة مفضِّلين عليها الدَّعوة القوميَّة بمفهومها المحلِّي ، أو العربيِّ ، كمشروع الهلال الخصيب في الشَّام ، أو مشروع وحدة وادي النيل بين مصر والسُّودان ، فضلاً عن نشاطهم في ترويج الاتجاهات القوميَّة المحدودة ، كالدَّعوة إلى الفرعونيَّة في مصر ، والآشورية في العراق ، والفينيقيَّة في الشَّام . . . إلخ .

وأمَّا المؤرِّخون الأتراك الَّذين برزوا في فترة الدَّعوة القوميَّة التُّركيَّة ؛ فقد تحاملوا كثيراً على فترة الخلافة العثمانيَّة ، سواءٌ لمجاراة الاتِّجاه السياسيِّ ، والفكريِّ الَّذي ساد بلادهم ، والَّذي حمَّل الفترة السَّابقة كلَّ جوانب الضَّعف ، والانهيار ، أو لتأثُّر الأتراك بالموقف المشين الَّذي بدت عليه سلطة الخلافة ، والَّتي أصبحت شكليَّةً بعد الإطاحة بالسُّلطان عبد الحميد سنة (١٩٠٩م) ، حيث انهزمت في معارك متعدِّدةٍ عندما دخلت الحرب العالمية الأولى ، وترتَّب على تلك الخسائر ضياع كثيرٍ من أراضيها ، وتسليمها بتوقيع معاهدة سيفر سنة (١٩١٨م) ، والَّذي في حقيقته هزيمةٌ لرجال الاتِّحاد والتَّرقي ، ونتيجةٌ لسياستها ، في حين استطاعت الحركة القوميَّة بزعامة مصطفى كمال أن تنقذ تركيا من هذه الإهانة ، وتستعيد الكثير من الأراضي التُّركيَّة وتجبر اليونان ، والقوى الَّتي تساندها ، إلى جانب تأثُّر المفكِّرين الأتراك بموقف بعض العرب الَّذين ساندوا الحلفاء الغربيِّين إبَّان الحرب الأولى ضدَّ دولة الخلافة ، وإعلان الثَّورة عليها سنة (١٩١٦م) .

وبرغم تفاوت الأسباب وتباينها ، إلا أنَّ كثيراً من المؤرِّخين التقوا على تشويه ، وتزوير تاريخ الخلافة الإسلاميَّة العثمانيَّة ، لقد اعتمد المؤرِّخون الَّذين عملوا على تشويه الدَّولة العثمانيَّة على تزوير الحقائق ، والكذب ، والبهتان ، والتَّشكيك ، والدَّسِّ ، ولقد غلب على تلك الكتب ، والدِّراسات طابع الحقِّ الأعمى ، والدَّوافع المنحرفة ، بعيدةً كلَّ البعد عن الموضوعيَّة ، وأدَّى ذلك إلى ظهور ردِّ فعلٍ إسلاميٍّ للردِّ على الاتِّهامات ، والشُّبهات الَّتي وُجِّهت للدَّولة العثمانيَّة ، ولعلَّ من أهمِّها وأبرزها تلك الكتابة المستفيضة الَّتي قام بها الدُّكتور عبد العزيز الشِّنَّاوي في ثلاثة

مجلَّدات ضخمةٍ تحت عنوان « **الدَّولة العثمانيَّة دولةٌ إسلاميَّةٌ مفترى عليها** » وبرغم الجهد الَّذي بذله ودافعه الإسلامي ، والموضوعيَّة الَّتي اتَّسم بها هذا العمل في أغلبه ، إلاَّ أنَّه لم يعالج جميع جوانب التَّاريخ العثماني ، وعليه بعض الملاحظات ، مثل حديثه عن حقيقة الانكشاريَّة ، والَّتي لا تثبت أمام البحث العلميِّ النَّزيه .

ومن الجهود المشكورة في هذا الميدان ما قام به الباحث الكبير ، والأستاذ الشَّهير المتخصِّص في تاريخ الدَّولة العثمانيَّة الدكتور محمَّد حرب ؛ الَّذي كتب للأمَّة الإسلاميَّة بعض الكتب القيِّمة ، مثل : « العثمانيُّون في التاريخ والحضارة » ، و« السُّلطان محمَّد الفاتح فاتح القسطنطينيَّة ، وقاهر الرُّوم » و« السُّلطان عبد الحميد آخر السَّلاطين العثمانيين الكبار » .

ومن الأعمال القيمة في تاريخ الدولة العثمانية ما قدَّمه الدُّكتور موفق بني المرجة كرسالةٍ علميَّةٍ لنيل درجة الماجستير تحت عنوان « **صحوة الرَّجل المريض ، أو السُّلطان عبد الحميد** » أو الخلافة الإسلاميَّة ، واستطاع هذا الكتاب أن يبيِّن كثيراً من الحقائق المدعومة بالوثائق والحجج الدَّامغة ، وغير ذلك من الكتَّاب المعاصرين . إلاَّ أنَّ هناك جوانب في تاريخ الخلافة العثمانيَّة ، وفي تاريخنا الإسلامي في العصر الحديث تحتاج إلى إعادة النَّظر من منظورٍ إسلاميٍّ يساهم في إبراز الحقائق ، والتئام تلك الشُّروخ ، الَّتي نتجت عن صياغة تاريخنا من منظورٍ قوميٍّ علمانيٍّ خدم أعداءنا في المقام الأوَّل ، واستخدموه كوسيلةٍ من وسائلهم في تمزيق الشُّعوب الإسلاميَّة .

وعلينا عندما نكتب التَّاريخ الحديث أن نبيِّن ، ونظهر دور المحافل الماسونيَّة ، والمخطَّطات الغربيَّة في توجيه هذه الصياغة التَّاريخيَّة الخبيثة ، والَّتي يقوم بها مجموعةٌ من عملاء اليهود ، والنَّصارى من أدعياء المنهج اللِّيبرالي والعلمانيِّ ، حيث يقومون بإبراز العناصر الماسونيَّة على السَّاحة التَّاريخيَّة ، ووضعهم في دور الحركة الماسونيَّة في الوقوف مع حركات التَّحرُّر .

إنَّ التَّاريخ الإسلاميَّ القديم ، والحديث علمٌ مستهدفٌ من قبل كلِّ القوى المعادية للإسلام باعتباره الوعاء العقدي ، والفكري ، والتَّربويِّ في بناء

وصياغة هوية الشُّعوب الإسلاميَّة[١] .

وهذه محاولةٌ متواضعةٌ للبحث في التَّاريخ العثمانيِّ في عمومه ، وتهتم بدَور الخلافة العثمانيَّة في الشَّمال الأفريقيِّ ، وتمتدُّ هذه الدِّراسة إلى الجذور القديمة الَّتي قامت عليها الدَّولة العثمانيَّة إلى أن سقطت الخلافة على يد العميل الإنجليزيِّ ، والملحد الكبير مصطفى كمال . وفي ثنايا هذه الدِّراسة يتعرَّض الباحث لأسباب القوة العثمانيَّة ، وأسباب ضعفهم ، وصفات رجالهم ، وسلاطينهم الأقوياء ، واهتمامهم بالعلماء ، وتطبيق شرع الله ، وجهادهم العظيم لنشر الإسلام ، والدِّفاع عن دياره ضدَّ الحملات الصَّليبيَّة الَّتي لا تنتهي ، ويلتزم الكاتب منهج أهل السُّنَّة عند عرض الأحداث محاولاً أن يتقيَّد بالعدل ، والإنصاف عند الحكم على الأحداث ، لعلَّه يساهم في تصحيح الكثير من الأحكام ، والمفاهيم الخاطئة ؛ التي ألمَّت بالدَّولة الإسلاميَّة العثمانية .

والله من وراء القصد ، وهو الهادي إلى الصِّراط المستقيم

* * *

(١) انظر : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، د. زكريا بيومي ص٧ ، ٨ ، ٩ إلى ١٦ ، ١٧ .

الفصل الأوَّل

جذور الأتراك وأصولهم

المبحث الأوَّل

أصل الأتراك ، ومواطنهم

في منطقة ما وراء النَّهر والَّتي نسمِّيها اليوم (تركستان) والَّتي تمتدُّ من هضبة منغوليا ، وشمال الصِّين شرقاً إِلى بحر الخزر (بحر قزوين) غرباً ، ومن السُّهول السِّيبريَّة شمالاً إِلى شبه القارة الهندية ، وفارس جنوباً استوطنت عشائر الغز[١] ، وقبائلها الكبرى تلك المناطق ، وعُرفوا بالتُّرك ، أو الأتراك[٢] .

ثمَّ تحرَّكت هذه القبائل في النِّصف الثَّاني من القرن السَّادس الميلادي في الانتقال من موطنها الأصلي نحو آسيا الصُّغرى في هجراتٍ ضخمةٍ ، وذكر المؤرِّخون مجموعةً من الأسباب الَّتي ساهمت في هجرتهم ، فالبعض يرى : أنَّ ذلك بسبب عوامل اقتصاديَّةٍ ، فالجدب الشَّديد ، وكثرة النَّسل جعلت هذه القبائل تضيق ذرعاً بمواطنها الأصليَّة ، فهاجرت بحثاً عن الكلأ ، والمراعي ، والعيش الرَّغيد[٣] . والبعض يعزو تلك الهجرات لأسبابٍ سياسيَّةٍ ، حيث تعرَّضت تلك القبائل لضغوطٍ كبيرةٍ من قبائل أخرى أكثر منها عدداً ، وقوَّةً ، وهي المغوليَّة ، فأجبرتها على الرَّحيل ، لتبحث عن موطنٍ آخر ، وترك أراضيها[٤] بحثاً عن نعمة الأمن ، والاستقرار . وذهب إِلى هذا الرأي الدُّكتور عبد اللَّطيف عبد الله بن دهيش[٥] .

---

(١) انظر : تاريخ التُّرك في آسيا الوسطى ، بارتولد ، ترجمة أحمد العيد ، ص(١٠٦) .
(٢) انظر : أخبار الأمراء والملوك السَّلجوقية ، تحقيق د . محمد نور الدِّين ، ص(٢ ـ ٤) .
(٣) انظر : قيام الدَّولة العثمانيَّة ، ص(٨) .
(٤) انظر : كتاب السُّلوك ، أحمد المقريزي ، ج١ ، قسم١ ، ص(٣) .
(٥) انظر : قيام الدَّولة العثمانيَّة للدُّكتور عبد اللطيف دهيش ، ص(٨) .

واضطرَّت تلك القبائل المهاجرة أن تتَّجه غرباً ، ونزلت بالقرب من شواطئ نهر جيحون ، ثمَّ استقرت بعض الوقت في طبرستان ، وجرجان[١] ، فأصبحوا بالقرب من الأراضي الإسلاميَّة ، والَّتي فتحها المسلمون بعد معركة نهاوند ، وسقوط الدَّولة السَّاسانيَّة في بلاد فارس سنة ٢١هـ/ ٦٤١م[٢] .

●● اتصالهم بالعالم الإسلامي :

في عام ٢٢هـ/ ٦٤٢م تحرَّكت الجيوش الإسلاميَّة إلى بلاد الباب لفتحها ، وكانت تلك الأراضي يسكنها الأتراك ، وهناك التقى قائد الجيش الإسلامي عبد الرحمن بن ربيعة بملك التُّرك شهر براز ، فطلب من عبد الرَّحمن الصُّلح ، وأظهر استعداده للمشاركة في الجيش الإسلاميِّ لمحاربة الأرمن ، فأرسله عبد الرَّحمن إلى القائد سراقة بن عمرو ، وقد قام شهربراز بمقابلة سراقة ، فقبل منه ذلك ، وكتب للخليفة عمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ يعلمه بالأمر ، فوافق على ما فعل ، وعلى إثر ذلك عقد الصُّلح ، ولم يقع بين التُّرك والمسلمين أيُّ قتالٍ ، بل سار الجميع إلى بلاد الأرمن لفتحها ، ونشر الإسلام فيها[٣] .

وتقدَّمت الجيوش الإسلاميَّة لفتح البلدان في شمال شرق بلاد فارس ، حتّى تنتشر دعوة الله فيها بعد سقوط دولة الفرس أمام الجيوش الإسلاميَّة ، والَّتي كانت تقف حاجزاً منيعاً أمام الجيوش الإسلاميَّة في تلك البلدان ، وبزوال تلك العوائق ، ونتيجةً للفتوحات الإسلاميَّة أصبح الباب مفتوحاً أمام تحرُّكات شعوب تلك البلدان ، والأقاليم ، ومنهم الأتراك ، فتمَّ الاتصال بالشُّعوب الإسلاميَّة ، واعتنق الأتراك الإسلام ، وانضمُّوا إلى صفوف المجاهدين لنشر الإسلام ، وإعلاء كلمة الله[٤] .

وفي عهد الخليفة الرَّاشد عثمان بن عفَّان ـ رضي الله عنه ـ تمَّ فتح بلاد

---

(١) انظر : الكامل في التاريخ (٨/ ٢٢) .

(٢) انظر : شوقي أبو خليل : نهاوند ، ص(٥٥ ـ ٧٠) .

(٣) انظر : تاريخ الأمم والملوك ، محمَّد بن جرير الطَّبري (٣/ ٢٥٦ ، ٢٥٧) .

(٤) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، والشَّرق العربيُّ ، محمد أنيس ، ص(١٢ ، ١٣) .

طبرستان ، ثمَّ عبر المسلمون نهر جيحون سنة ٣١هـ ، ونزلوا بلاد ما وراء النَّهر ، فدخل كثيرٌ من التُّرك في دين الإسلام ، وأصبحوا من المدافعين عنه ، والمشتركين في الجهاد لنشر دعوة الله بين العالمين(١) .

وواصلت الجيوش الإسلاميَّة تقدُّمها في تلك الأقاليم ، فتمَّ فتح بلاد بخارى في عهد معاوية بن أبي سفيان ، رضي الله عنه ؛ وتوغَّلت تلك الجيوش المظفَّرة ؛ حتَّى وصلت سمرقند ، وما أن ظهر عهد الدَّولة الإسلاميَّة حتى صارت بلاد ما وراء النَّهر جميعها تحت عدالة الحكم الإسلاميِّ ، وعاشت تلك الشُّعوب حضارةً إسلاميَّة عريقةً(٢) .

وازداد عدد الأتراك في بلاط الخلفاء ، والأمراء العباسيِّين ، وشرعوا في تولِّي المناصب القياديَّة ، والإداريَّة في الدَّولة ؛ فكان منهم الجند ، والقادة ، والكتَّاب ، وقد التزموا بالهدوء والطَّاعة ، حتَّى نالوا أعلى المراتب .

ولما تولَّى المعتصم العباسيُّ الخلافة ؛ فتح الأبواب أمام النُّفوذ التُّركيِّ ، وأسند إليهم مناصب الدَّولة القياديَّة ، وأصبحوا بذلك يشاركون في تصريف شؤون الدَّولة ، وكانت سياسة المعتصم تهدف إلى تقليص النُّفوذ الفارسي ، الَّذي كان له اليد المطلقة في إدارة الدَّولة العباسيَّة منذ عهد الخليفة المأمون(٣) .

وقد تسبَّب اهتمام المعتصم بالعنصر التُّركي إلى حالة سخطٍ شديدةٍ بين النَّاس ، والجند ، فخشي المعتصم من نقمة النَّاس عليه ، فأسَّس مدينةً جديدةً هي (سامراء) ، تبعد عن بغداد حوالي ١٢٥كم ، وسكنها هو ، وجنده ، وأنصاره .

وهكذا بدأ الأتراك منذ ذلك التَّاريخ في الظُّهور في أدوارٍ هامَّةٍ على مسرح التَّاريخ الإسلاميِّ ؛ حتَّى أسَّسوا لهم دولةً إسلاميةً كبيرةً ، كانت على صلةٍ قويَّةٍ بخلفاء الدَّولة العباسيَّة ، عُرفت بالدَّولة السَّلجوقيَّة(٤) .

* * *

---

(١) انظر : فتوح البلدان ، أحمد بن يحيى البلاذري ، ص(٤٠٥ ، ٤٠٩) .
(٢) انظر : خراسان ، لمحمود شاكر ، ص(٢٠ ـ ٣٥) .
(٣) انظر : قيام الدَّولة العثمانيَّة ، ص(١٢) .
(٤) انظر : المصدر السَّابق .

المبحث الثَّاني

قيام الدَّولة السَّلجوقيَّة

كان لظهور السَّلاجقة على مسرح الأحداث في المشرق العربيِّ الإسلاميِّ أثرٌ كبيرٌ في تغيُّر الأوضاع السِّياسيَّة في تلك المنطقة ؛ الَّتي كانت تتنازعها الخلافة العباسيَّة السُّنِّيَّة من جهةٍ ، والخلافة الفاطميَّة الشِّيعيَّة من جهة ثانيةٍ .

وقد أسَّس السَّلاجقة دولةً تركيَّةً كبرى ، ظهرت في القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر الميلادي) ، لتشمل : خراسان . وما وراء النَّهر ، وإيران ، والعراق ، وبلاد الشَّام ، وآسيا الصُّغرى ، وكانت الرَّيُّ في إيران ، ثمَّ بغداد في العراق مقرَّ السَّلطنة السَّلجوقية ، بينما قامت دويلاتٌ سلجوقيَّةٌ في خراسان ، وما وراء النَّهر (كرمان) وبلاد الشَّام (سلاجقة الشَّام) وآسيا الصُّغرى سلاجقة الرُّوم ، وكانت تتبع السُّلطان السَّلجوقي في إيران ، والعراق .

وقد ساند السَّلاجقةُ الخلافة العبَّاسيَّة في بغداد ونصروا مذهبها السُّنِّيَّ بعد أن أوشكت على الانهيار بين النُّفوذ البويهي الشِّيعي في إيران ، والعراق ، والنُّفوذ العبيدي (الفاطمي) في مصر ، والشَّام ، فقضى السَّلاجقة على النُّفوذ البويهيِّ تماماً ، وتصدَّوا للخلافة العبيديَّة (الفاطميَّة)[١] .

لقد استطاع طغرل بك الزَّعيم السَّلجوقي أن يُسقط الدَّولة البويهيَّة في عام ٤٤٧هـ في بغداد ، وأن يقضي على الفتن ، وأزال مِنْ على أبواب المساجد سبَّ الصَّحابة ، وقتل شيخ الرَّوافض أبي عبد الله الجلاَّب لغلُّوه في الرَّفض[٢] .

لقد كان النفوذ البويهيُّ الشِّيعيُّ مسيطراً على بغداد ، والخليفة العبَّاسيِّ ، فبعد أن أزال السَّلاجقة الدَّولة البويهيَّة من بغداد ، ودخل سلطانهم طغرل بك إلى عاصمة الخلافة العبَّاسيَّة ؛ استقبله الخليفة العبَّاسيُّ القائم بأمر الله استقبالاً عظيماً ، وخلع

---

(١) انظر : السَّلاطين في المشرق العربي د . عصام محمد شبارو ، ص(١٧١) .
(٢) انظر : أيعيد التَّاريخ نفسه ، محمد العبده ، ص(٦٧) .

عليه خلعة سنيَّةً ، وأجلسه إلى جواره ، وأغدق عليه ألقاب التَّعظيم ، ومن جملتها : أنَّه لقبه بالسُّلطان ركن الدِّين طغرل بك ، كما أصدر الخليفة العبَّاسيُّ أمره بأن ينقش اسم السُّلطان طغرل بك على العملة ، ويذكر اسمه في الخطبة في مساجد بغداد ، وغيرها ، ممَّا زاد من شأن السَّلاجقة ، ومنذ ذلك الحين حلَّ السَّلاجقة محل البويهيِّين في السَّيطرة على الأمر في بغداد ، وتسيير الخليفة العباسيِّ حسب إرادتهم[١] .

كان طغرل بك يتمتَّع بشخصيَّةٍ قويَّةٍ ، وذكاءٍ حادٍّ ، وشجاعةٍ فائقةٍ ، كما كان متديِّناً ، ورعاً ، عادلاً ، ولذلك وجد تأييداً كبيراً ، ومناصرةً عظيمةً من شعبه ، وقد أعدَّ جيشاً قويّاً ، وسعى لتوحيد السَّلاجقة الأتراك في دولةٍ قويَّةٍ[٢] .

وتوطيداً للرَّوابط بين الخليفة العباسيِّ القائم بأمر الله ، وبين زعيم الدَّولة السَّلجوقية طغرل بك ، فإنَّ الخليفة تزوَّج من ابنة جفري بك الأخ الأكبر لطغرل بك ، وذلك في عام ٤٤٨هـ/ ١٠٥٩م ثمَّ في شعبان عام ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م تزوَّج طغرل بك من ابنة الخليفة العباسيِّ القائم بأمر بالله ، لكن طغرل بك لم يعش طويلاً بعد ذلك ، حيث إنَّه تُوفِّي ليلة الجمعة لليوم الثامن من شهر رمضان عام ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م ، وكان عمره إذ ذاك سبعين عاماً ، بعد أن تمَّت على يده الغلبة للسَّلاجقة في مناطق : خراسان ، وإيران ، وشمال ، وشرق العراق[٣] .

أولاً : السلطان (محمَّد) الملقب : ألب أرسلان ، أي : الأسد الشُّجاع :

تولَّى ألب أرسلان زمام السُّلطة في البلاد بعد وفاة عمِّه طغرل بك ، وكانت قد حدثت بعض المنازعات حول تولِّي السُّلطة في البلاد ، لكن ألب أرسلان استطاع أن يتغلَّب عليها ، وكان ألب أرسلان ـ كعمه طغرل بك ـ قائداً ماهراً مقداماً ، وقد اتَّخذ سياسةً خاصَّةً تعتمد على تثبيت أركان حكمه في البلاد الخاضعة لنفوذ السَّلاجقة ، قبل التطلُّع إلى إخضاع أقاليم جديدةٍ ، وضمِّها إلى دولته ، كما كان متلهِّفاً للجهاد

---

(١) انظر : قيام الدَّولة العثمانيَّة ، ص(١٩) .
(٢) المصدر السَّابق ، ص(١٧) .
(٣) انظر : تاريخ الدَّولة العليَّة العثمانيَّة ، محمد فريد بك ، ص(٢٥) .

في سبيل الله ، ونشر دعوة الإسلام في داخل الدَّولة المسيحية المجاورة له ، كبلاد الأرمن ، وبلاد الرُّوم ، وكانت روح الجهاد الإسلاميِّ هي المحركة لحركات الفتوحات الَّتي قام بها ألب أرسلان ، وأكسبتها صبغةً دينيَّةً ، وأصبح قائد السَّلاجقة زعيماً للجهاد ، وحريصاً على نصرة الإسلام ، ونشره في تلك الدِّيار ، ورفع راية الإسلام خفَّاقةً على مناطق كثيرة من أراضي الدَّولة البيزنطيَّة[١] .

لقد بقي سبع سنوات يتفقَّد أجزاء دولته المترامية الأطراف ، قبل أن يقوم بأيِّ توسُّعٍ خارجيٍّ .

وعندما اطمأنَّ على استتباب الأَمن ، وتمكُّن حكم السَّلاجقة في جميع الأقاليم ، والبلدان الخاضعة له ، أخذ يخطِّط لتحقيق أهدافه البعيدة ، وهي فتح البلاد المسيحيَّة المجاورة لدولته ، وإسقاط الخلافة الفاطميَّة (العبيديَّة) في مصر ، وتوحيد العالم الإسلاميِّ تحت راية الخلافة العبَّاسيَّة السُّنِّيَّة ، ونفوذ السَّلاجقة ، فأعدَّ جيشاً كبيراً اتَّجه به نحو بلاد الأرمن ، وجورجيا ، فافتتحها ، وضمَّها إلى مملكته ، كما عمل على نشر الإسلام في تلك المناطق[٢] ، وأغار ألب أرسلان على شمال الشَّام ، وحاصر الدَّولة المرداسيَّة في حلب ، والَّتي أسَّسها صالح بن مرداس على المذهب الشِّيعي سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م ، وأجبر أميرها محمود بن صالح بن مرداس على إقامة الدَّعوة للخليفة العبَّاسي بدلاً من الخليفة (الفاطميِّ / العبيديِّ سنة ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م)[٣] ، ثمَّ أرسل قائده التُّركيَّ أتنسز بن أوق الخوارزمي في حملةٍ إلى جنوب الشَّام ، فانتزع الرَّملة ، وبيت المقدس من يد (الفاطميِّين) العبيديِّين ، ولم يستطع الاستيلاء على عسقلان التي تعتبر بوابة الدُّخول إلى مصر ، وبذلك أضحى السَّلاجقة على مقربةٍ من قاعدة الخليفة العبَّاسي ، والسُّلطان السَّلجوقي داخل بيت المقدس[٤] .

وفي سنة ٤٦٢هـ ورد رسول صاحب مكَّة محمد بن أبي هاشم إلى السُّلطان

---

(١) انظر : قيام الدَّولة العثمانيَّة ، ص(٢٠) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) انظر : السَّلاطين في المشرق العربي ، د . عصام محمَّد ، ص٢٥ .
(٤) انظر : مرآة الزَّمان لسبط ابن الجوزي ، ص(١٦١) .

يخبره بإِقامة الخطبة للخليفة القائم ، وللسُّلطان ، وإِسقاط خطبة صاحب مصر « العبيديِّ » وترك الأذان بـ« حيَّ على خير العمل » فأعطاه السُّلطان ثلاثين ألف دينار ، وقال له : إِذا فعل أمير المدينة كذلك أعطيناه عشرين ألف دينارٍ[١] .

لقد أغضبت فتوحات ألب أرسلان دومانوس ديوجينس إمبراطور الرُّوم ، فصمَّم على القيام بحركةٍ مضادَّة للدِّفاع عن إمبراطوريته ، ودخلت قوَّاته في مناوشاتٍ ، ومعارك عديدةٍ مع قوَّات السَّلاجقة ، وكان أهمُّها معركة « ملاذكرد » في عام ٤٦٣هـ الموافق أغسطس عام ١٠٧٠م[٢] .

قال ابن كثير : « وفيها أقبل ملك الرُّوم دومانوس في جحافل أمثال الجبال من الرُّوم ، والرَّخ ، والفرنج ، وعددٍ عظيمٍ ، وعُددٍ ، ومعه خمسةٌ وثلاثون ألفاً من البطارقة ، مع كلِّ بطريق مئتا ألف فارس ، ومعه من الفرنج خمسةٌ وثلاثون ألفاً ، ومن الغزاة الَّذين يسكنون القسطنطينية خمسة عشر ألفاً ، ومعه مئة ألف نقَّاب ، وحفَّار[٣] ، وألف روزجاري ، ومعه أربعمئة عجلة تحمل النِّعال ، والمسامير ، وألفا عجلة تحمل السِّلاح ، والسُّروج ، والعرادات ، والمجانيق ، ومنها منجنيقٌ عدَّة ألفٍ ومئتي رجلٍ ، ومن عزمه قبَّحه الله أن يبيد الإِسلام ، وأهله ، وقد أقطع بطارقته البلاد حتَّى بغداد ، واستوصى نائبها بالخليفة خيراً ، فقال له : ارفق بذلك الشَّيخ ، فإِنَّه صاحبنا ، ثمَّ إِذا استوثقت ممالك العراق ، وخراسان لهم مالوا على الشَّام ، وأهله ميلةً واحدةً ، فاستعادوه من أيدي المسلمين ، والقدر يقول : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : ٧٢] .

فالتقاه السُّلطان ألب أرسلان في جيشه ، وهم قريبٌ من عشرين ألفاً ، بمكانٍ يقال له : الزَّهوة في يوم الأربعاء لخمسٍ بقين من ذي القعدة ، وخاف السُّلطان من كثرة جند الرُّوم ، فأشار عليه الفقيه أبو نصر محمَّد بن عبد الملك البخاريُّ بأن يكون وقت الوقعة يوم الجمعة بعد الزَّوال حين يكون الخطباء يدعون للمجاهدين .

فلمَّا كان ذلك الوقت ، وتواقف الفريقان ، وتواجهت الفئتان ؛ نزل السُّلطان

---

(١) انظر : أيعيد التاريخ نفسه ، محمد العبده ، ص(٦٨) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢٠) .
(٣) النَّقاب والحفَّار : من ينقب ، ومن يحفر .

عن فرسه، وسجد لله عزَّ ، وجلَّ ، ومرَّغ وجهه في التُّراب ، ودعا الله ، واستنصره ، فأنزل نصره على المسلمين ، ومنحهم أكتافهم ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وأُسِرَ ملكُهم دومانوس ، أسره غلامٌ روميٌّ ، فلمَّا أوقف بين يدي الملك ألب أرسلان ضربه بيده ثلاثة مقارع ، وقال : لو كُنت أنا الأسير بين يديك ما كنت تفعل ؟ قال : كلَّ قبيح ، قال : فما ظنُّك بي ؟ فقال : إما أن تقتل ، وتشهِّرني في بلادك ، وإما أن تعفو ، وتأخذ الفداء ، وتعيدني . قال : ما عزمت على غير العفو ، والفداء . فافتدى منه بألف ألف دينارٍ ، وخمسمئة ألفِ دينار . فقام بين يدي الملك ، وسقاه شربةً من ماء ، وقبَّل الأرض بين يديه ، وقبَّل الأرض إلى جهة الخليفة إجلالاً ، وإكراماً ، وأطلق له الملك عشرة آلاف دينارٍ ؛ ليتجهَّز بها ، وأطلق معه جماعةً من البطارقة ، وشيَّعه فرسخاً ، وأرسل معه جيشاً يحفظونه إلى بلاده ، ومعهم رايةٌ مكتوبٌ عليها : لا إله إلا الله محمَّد رسول الله . . . »[1] .

لقد كان نصر ألب أرسلان بجيشه الَّذي لم يتجاوز خمسة عشر ألف محاربٍ على جيش الإمبراطور دومانوس الَّذي بلغ مئتي ألف ، حدثاً كبيراً ، ونقطة تحوُّل في التاريخ الإسلامي ؛ لأنَّها سهَّلت إضعاف نفوذ الرُّوم في معظم أقاليم آسيا الصُّغرى ، وهي المناطق المهمَّة الَّتي كانت من ركائز وأعمدة الإمبراطورية البيزنطيَّة . وهذا ساعد تدريجيَّاً للقضاء على الدَّولة البيزنطيَّة على يد العثمانيِّين .

لقد كان ألب أرسلان رجلاً صالحاً أخذ بأسباب النَّصر المعنويَّة ، والمادِّيَّة ، فكان يقرِّب العلماء ، ويأخذ بنصحهم ، وما أروع نصيحة العالم الرَّبانيِّ أبي نصر محمَّد بن عبد الملك البخاريِّ الحنفيِّ في معركة ملاذكرد عندما قال للسُّلطان ألب أرسلان : إنَّك تقاتل عن دينٍ وعد الله بنصره ، وإظهاره على سائر الأديان . وأرجو أن يكون الله قد كتب باسمك هذا الفتح ، فالقهم يوم الجمعة في السَّاعة الَّتي يكون الخطباء على المنابر ، فإنَّهم يدعون للمجاهدين .

فلمَّا كان تلك السَّاعة صلَّى بهم ، وبكى السُّلطان ، فبكى النَّاس لبكائه ، ودعا ، فأمَّنوا ، فقال لهم : من أراد الانصراف فلينصرف ، فما ها هنا سلطانٌ

---

(١) البداية والنِّهاية (١٢/١٠٨) .

يأمر ، ولا ينهى . وألقى القوس والنُّشاب وأخذ السَّيف ، وعقد ذنب فرسه بيده ، وفعل عسكره مثله ، ولبس البياض ، وتحنَّط وقال : إن قتلت ؛ فهذا كفني[١] . الله أكبر على مثل هؤلاء ينزل نصر الله .

وقُتل هذا السُّلطان على يد أحد الثَّائرين ، واسمه يوسف الخوارزمي ، وذلك يوم العاشر من ربيع الأول عام ٤٦٥هـ الموافق ١٠٧٢م ، ودُفن في مدينة « مرو » بجوار قبر أبيه ، فخلفه ابنه « ملكشاه »[٢] .

● شيءٌ من أخلاق السُّلطان ألب أرسلان :

(كان رحيم القلب ، رفيقاً بالفقراء ، وكثير الدُّعاء بدوام ما أنعم الله عليه ، اجتاز يوماً بمرو على فقراء الخرائسين ، فبكى ، وسأل الله تعالى أن يغنيه من فضله ، وكان يكثر الصدقة ، فيتصدَّق في رمضان بخمسة عشر ألف دينارٍ ، وكان في ديوانه أسماء خلقٍ كثير من الفقراء في جميع ممالكه يجري عليهم الإدرارات ، والصِّلات ، ولم يكن في جميع بلاده جنايةٌ ، ولا مصادرةٌ ، قد قنع من الرَّعايا بالخراج الأصليِّ ، يؤخذ منهم كلَّ سنةٍ دفعتين رفقاً بهم)[٣] .

كتب إليه بعض السُّعاة في شأن وزيره نظام الملك ، وذكروا ماله في ممالكه ، فاستدعاه ، فقال : خذ إن كان هذا صحيحاً ، فهذِّب أخلاقك ، وأصلحْ أحوالك ، وإن كان كذباً فاغفرْ له زلَّته .

● الحرص على حفظ مال الرَّعايا :

بُلِّغ أن غلاماً من غلمانه أخذ إزاراً لبعض أصحابه ، فصلبه ، فارتدع سائر المماليك خوفاً من سطوته[٤] .

وكان كثيراً ما يُقرأ عليه تواريخ الملوك، وآدابهم، وأحكام الشَّريعة، ولمَّا اشتهر

(١) انظر : تاريخ الإسلام للذَّهبي ، حوادث ووفيات : (٤٦١ ، ٤٧٠) ، ص(٢) .
(٢) انظر : قيام الدَّولة العثمانيَّة ، ص(٢١) .
(٣) الكامل لابن الأثير : (٦/٢٥٢) .
(٤) انظر : البداية والنِّهاية : (١٢/١١٤) .

بين الملوك حُسن سيرته، ومحافظتُه على عهوده؛ أذعنوا له بالطَّاعة، والموافقة بعد الامتناع ، وحضروا عنده من أقاصي ما وراء النَّهر إلى أقاصي الشَّام[١] .

ثانياً : ملكشاه وفشله في توحيد الخلافة والسَّلطنة :

تولَّى السَّلطنة بعد ألب أرسلان ابنه ملكشاه ، وعارضه عمُّه قاورد بن جفري حاكم سلاجقة كرمان ، وطالب بالسَّلطنة ، ووقع الصِّدام بينهما قرب همذان حيث انهزم قاورد ، وقتل ، وبذلك سيطر ملكشاه على دولة سلاجقة كرمان ، وعيَّن عليها سلطان شاه بن ألب أرسلان سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م .

واتَّسعت الدَّولة السَّلجوقيَّة في عهد السُّلطان ملكشاه لتبلغ أقصى امتدادٍ لها من أفغانستان شرقاً إلى آسيا الصُّغرى غرباً ، وبلاد الشَّام جنوباً ، وذلك بعد أن سقطت دمشق على يد قائده أتسز سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م ، وأقيمت الدَّعوة للخليفة العباسيِّ .

وأسند ملكشاه المناطق الَّتي سيطر عليها في بلاد الشَّام لأخيه تاج الدَّولة تتمش سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م ، وذلك من أجل متابعة الفتح . فأسَّس هذا الأخير دولة سلاجقة الشَّام ، كما عيَّن ملكشاه أحد أقاربه ، ويُدعى : سليمان بن قتلمش بن إسرائيل والياً على آسيا الصُّغرى ، الَّتي كانت تتبع بلاد الرُّوم لمتابعة الفتح سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م ، فأسَّس هذا أيضاً دولة سلاجقة الرُّوم[٢] .

وقد استمرَّت هذه الدَّولة ٢٢٤ سنة ليتعاقب على حكمها أربعة عشر من سلالة أبي الفوارس قتلمش بن إسرائيل ، وكان أوَّلهم سليمان بن قتلمش ؛ الَّذي يعتبر مؤسِّس هذه الدَّولة[٣] وقد تمكَّن من فتح أنطاكية سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م ، كما تمكَّن ابنه داود من السَّيطرة على قونية سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م ليتَّخذها عاصمةً له . وكانت قونية من أغنى وأجمل المدن البيزنطيَّة في آسيا الصُّغرى ؛ وقد حوَّلها السَّلاجقة من مدينةٍ بيزنطيَّةٍ مسيحيَّةٍ إلى مدينةٍ سلجوقيَّةٍ إسلاميَّةٍ ، وقد سقطت هذه الدَّولة على يد

---

(١) الكامل لابن الأثير : (٦/ ٢٥٣) .
(٢) انظر : السَّلاطين في المشرق العربيِّ ، ص (٢٨) .
(٣) المصدر السَّابق ، ص(٢٩) .

المغول سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م[١] وأصبحت فيما بعد من أملاك الدَّولة العثمانيَّة .

لقد كان سلاجقة الرُّوم حريصين على تتريك آسيا الصُّغرى ، ونشر الإسلام فيها على المذهب السُّنِّي ، وكانوا سبباً في نقل الحضارة الإسلاميَّة إلى تلك الأقاليم ، وأسقطوا الخطَّ الدِّفاعيَّ ؛ الَّذي كان يحمي المسيحيَّة من أوربة ضدَّ الإسلام في الشَّرق[٢] .

ورغم هذه السَّلطنة القويَّة زمن ملكشاه لم يفلح قائده أتسز في توحيد بلاد الشَّام، ومصر بعد أن شكَّل السَّلاجقة تهديداً فعليّاً للدَّولة العبيديَّة (الفاطميَّة) داخل مصر .

وعندما أراد أتسز غزو مصر حلَّت به الهزيمة على يد قوَّةٍ من العرب قبل مواجهة الجيش الكبير الَّذي أعدَّه الوزير بدر الجمالي في رجب ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م ، وقد أدَّى فشل أتسز إلى مزيد من التَّشرذم ، والتَّمزُّق السِّياسي ، والصِّراع الدَّامي ، لينتهي الأمر بمقتله سنة ٥٧١هـ/ ١٠٧٨م[٣] .

كذلك لم يفلح ملكشاه في جعل الخلافة العباسيَّة تتحوَّل إلى أسرته السَّلجوقيَّة ، عندما زوَّج ابنته إلى الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م ، فرزقت منه بولدٍ ، كما زوَّج ابنته الأخرى إلى المستظهر العبَّاسيِّ ، ولم يتمكَّن من حصر الخلافة ، والسَّلطنة في شخص حفيده[٤] .

●● وفاته :

توفِّي السُّلطان ملكشاه ، وانتهى دور القوَّة والمجد (٤٤٧ ـ ٤٨٥هـ/ ١٠٥٥ ـ ١٠٩٢م) الَّذي عرفته الدَّولة السَّلجوقيَّة في عهد السَّلاطين الثَّلاثة ، طغرل بك ، وألب أرسلان ، وملكشاه ، لتبدأ مرحلة الضَّعف ، والصِّراع ، ولقد ظهر في زمن ألب أرسلان ، وملكشاه الوزير نظام الملك الَّذي يهمُّنا معرفة سيرته ، ودوره في قوَّة الدَّولة السَّلجوقيَّة .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .
(٢) انظر : السَّلاطين في المشرق العربي ، ص(٢٩) .
(٣) انظر : مرآة الزَّمان ، سبط ابن الجوزي ، ص(١٨٢) .
(٤) انظر : السَّلاطين في المشرق العربيِّ ، ص(٣٠) .

ثالثاً : نظام الملك :

قال عنه الذَّهبيُّ : « الوزير الكبير ، نظام الملك ، قوام الدِّين ، أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطُّوسيُّ ، عاقلٌ ، سائسٌ ، خبيرٌ ، سعيدٌ ، متديِّنٌ ، محتشمٌ ، عامر المجلس بالقرَّاء ، والفقهاء .

أنشأ المدرسة الكبرى ببغداد ، وأخرى بنيسابور ، وأخرى بطوس ، ورغب في العلم ، وأدرَّ على الطَّلبة الصِّلات ، وأملى الحديث ، وبَعُد صيته »(١) .

تنقَّلت به الأحوال إلى أن وزر للسُّلطان ألب أرسلان ، ثمَّ لابنه ملكشاه ، فدبَّر ممالكه على أتمِّ ما ينبغي ، وخفَّف المظالم ، ورفق بالرَّعايا ، وبنى الوقوف ، وهاجرت الكبار إلى جانبه(٢) .

وأشار على ملكشاه بتعيين القوَّاد ، والأمراء الَّذين فيهم خلقٌ ، ودينٌ ، وشجاعةٌ ، وظهرت آثار تلك السِّياسة فيما بعد ، ومن هؤلاء القوَّاد الَّذين وقع عليهم الاختيار آق سنقر جدُّ نور الدِّين محمود ، الَّذي ولي على حلب ، وديار بكر ، والجزيرة ، قال عنه ابن كثير : « من أحسن الملوك سيرةً ، وأجودهم سريرةً »(٣) وقام ولده عماد الدِّين زنكي ببداية الجهاد ضدَّ الصَّليبيِّين ، ثمَّ قام من بعده نور الدِّين محمود ، هذه الأسرة هي الَّتي وضعت الأساس لانتصارات صلاح الدِّين ، والظَّاهر بيبرس ، وقلاوون ضدَّ الصَّليبيِّين ، وافتتحت عهد التَّوحيد ، والوحدة في العالم الإسلامي(٤) .

وكذلك كان آق سنقر البرسقي من قوَّاد السُّلطان محمود السَّلجوقي ، وكان أميراً للموصل ، واشتغل بجهاد الصَّليبيِّين ، وفي سنة ٥٢٠هـ قتله الباطنيُّون وهو يصلي في الجامع الكبير في الموصل ، قال عنه ابن الأثير : « وكان مملوكاً تركيّاً خيِّراً ، يحبُّ أهل العلم ، والصَّالحين ، ويرى العدل ويفعله ، وكان خير الولاة ،

---

(١) سير أعلام النُّبلاء (١٩/ ٩٤) .

(٢) المصدر السابق نفسه (١٩/ ٩٥) .

(٣) البداية والنِّهاية : (١٢/ ١٥٧) .

(٤) انظر : أيعيد التاريخ نفسه ، ص(٦٨) .

يحافظ على الصَّلوات في أوقاتها ، ويصلِّي من اللَّيل متهجِّداً »[١] .

ويحدِّثنا المؤرِّخ أبو شامة عن آثار السَّلاجقة ، لا سيما في زمن نظام الملك : « فلمَّا ملك السَّلجوقيَّة جدَّدوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس ، لا سيَّما في وزارة نظام الملك ، فإِنَّه أعاد النَّاموس ، والهيبة إلى أحسن حالاتها »[٢] .

●● ضبطه لأمور الدَّولة :

لمَّا تولَّى ملكشاه أمور الدَّولة ؛ انفلت أمر العسكر ، وبسطوا أيديهم في أموال النَّاس، وقالوا: ما يمنع السُّلطان أن يعطينا الأموال إلا نظام الملك ، وتعرَّض النَّاس لأذىً شديدٍ، فذكر ذلك نظام الملك للسُّلطان فبيَّن له ما في هذا الفعل من الضَّعف ، وسقوط الهيبة ، والوهن ، ودمار البلاد ، وذهاب السِّياسة ، فقال له : افعل في هذا ما تراه مصلحةً ! فقال له نظام الملك : ما يمكنني أن أفعل إلا بأمرك . فقال السُّلطان : قد رددت الأمور كلَّها كبيرها ، وصغيرها إليك ، فأنت الوالد ؛ وحلف له ، وأقطعه إقطاعاً زائداً على ما كان ، وخلع عليه ، ولقَّبه ألقاباً من جملتها : أتابك ، ومعناه الأمير الوالد ، فظهرت من كفايته ، وشجاعته ، وحسن سيرته ما أثلج صدور النَّاس ، فمن ذلك : أنَّ امرأة ضعيفةً استغاثت به ، فوقف يكلِّمها ، وتكلِّمه ، فدفعها بعض حجَّابه ، فأنكر ذلك عليه ، وقال : إنَّما استخدمتك لأمثال هذه ، فإِنَّ الأمراء والأعيان لا حاجة لهم إليك ، ثمَّ صرفه عن حجابته[٣] .

●● حبُّه للعلم ، واحترامه للعلماء ، وتواضعه :

كان يحبُّ العلوم وخصوصاً الحديث ، شغوفاً به ، وكان يقول : إنِّي أعلم بأني لست أهلاً للرِّواية، ولكنِّي أحب أن أُربط في قطار[٤] نقلة حديث رسول الله ﷺ[٥] ،

---

(١) الكامل : (١٠/ ٦٣٣) نقلاً عن : أيعيد التَّاريخ نفسه ، ص(٦٨) .
(٢) الرَّوضتان في أخبار الدَّولتين (١/ ٣١) نقلاً عن : أيعيد التَّاريخ نفسه .
(٣) انظر الكامل لابن الأثير (٢/ ٢٥٦) .
(٤) قطار : قافلة .
(٥) انظر : البداية والنِّهاية (١٢/ ١٥٠) .

فسمع من القشيريِّ أبي مسلم بن مهربزد ، وأبي حامدٍ الأزهريِّ[١] .

وكان حريصاً على أن تؤدِّي المدارس الَّتي بناها رسالتها المنوطة بها ، فعندما أرسل إليه أبو الحسن محمَّد بن علي الواسطيُّ الفقيه الشَّافعيُّ أبياتاً من الشِّعر يستحثُّه على المساعدة للقضاء على الفتن الَّتي حدثت بين الحنابلة والأشاعرة ؛ قام نظام الملك ، وقضى على الفتنة ، وممَّا قاله أبو الحسن الواسطيُّ من الشِّعر :

يَـا نِظَـامَ المُلْـكِ قَـدْ حَـلَّ ... بِبَغْـدَادَ النِّظَـام
وَابنُـكَ القَـاطِـنُ فِيْهَـا ... مُسْتَهَـانٌ مُسْتَضَـام
وَبِهَـا أَوْدَى لَـهُ قَتْلَـى ... غُـلامٌ ، وَغُـلام
وَالَّـذي مِنْهُـمْ تَبَقَّـى ... سَـالِمَـاً فِيْـهِ سِهَـام
يَـا قَـوَامَ الـدِّيْـنِ لَـمْ ... يَبْـقَ بِبَغْـدَاد مَقَـام
عَظُـمَ الخَطْـبُ وَلِلْحَـرْ ... بِ اتِّصَـالٌ وَدَوَام
فَمَتَـى لَـمْ تَحْسُـم الـدَّا ... ءَ أَيَـادِيْـكَ الحُسَـام
وَيَكُـفُّ القَـوْمَ فِـي ... بَغْـدَادَ قَتْـلٌ وانْتِقَـام
فَعَلَـى مَـدْرَسَـةٍ فِيْهَـا ... وَمَـنْ فِيْهَـا السَّـلام
وَاعْتِصَـامٌ بِحَـرِيْـمٍ ... لَـكَ مِـنْ بَعْـدُ حَـرَام[٢]

لقد كان مجلسه عامراً بالفقهاء والعلماء ، حيث يقضي معهم جُلَّ نهاره ، فقيل له : « إن هؤلاء شغلوك عن كثيرٍ من المصالح، فقال: هؤلاء جمال الدُّنيا، والآخرة، ولو أجلستهم على رأسي ؛ لما استكثرت ذلك ، وكان إذا دخل عليه أبو القاسم القشيريُّ ، وأبو المعالي الجوينيُّ ؛ قام لهما وأجلسهما معه في المقعد ، فإن دخل أبو علي الفارنديُّ ؛ قام ، وأجلسه مكانه ، وجلس بين يديه ، فعوتب في ذلك ، فقال : إنَّهما إذا دخلا عليَّ قالا : أنت ، وأنت ، يطريانني ، ويعظِّمانني ، ويقولان فيَّ مالا فيَّ فأزداد بهما ما هو مركوز في نفس البشر ، وإذا دخل عليَّ أبو علي الفارنديُّ ذكَّرني عيوبي ، وظلمي ، فأنكسر ، فأرجع عن كثيرٍ ممَّا أنا فيه . . »[٣] .

(١) انظر : سير أعلام النُّبلاء للذَّهبي (١٩/ ٩٥) .
(٢) انظر : الكامل (٦/ ٢٧٦) .
(٣) البداية والنِّهاية : (١٢/ ١٥٠) .

قال عنه ابن الأثير : « وأمَّا أخباره ، فإنَّه كان عالماً ، ديِّناً ، جواداً ، عادلاً ، حليماً ، كثير الصَّفح عن المذنبين ، طويل الصَّمت ، كان مجلسه عامراً بالقرَّاء ، والفقهاء ، وأئمَّة المسلمين ، وأهل الخير ، والصَّلاح . . . »(١) .

كان من حفظة القرآن ، ختمه وله إحدى عشرة ، واشتغل بمذهب الشَّافعيِّ ، وكان لا يجلس إلا على وضوءٍ ، وما توضَّأ إلا تنفَّل(٢) وإذا سمع المؤذن ؛ أمسك عن كلِّ ما هو فيه ، وتجنَّبه ، فإذا فرغ ؛ لا يبدأ بشيءٍ قبل الصَّلاة ، وكان إذا غفل المؤذن ، ودخل الوقت أمره بالأذان ، وهذا قمَّة حال المنقطعين للعبادة في حفظ الأوقات، ولزوم الصَّلوات(٣) ، وكانت له صلةٌ بالله عظيمةٌ ، وقال ذات مرَّةٍ : رأيت ليلةً في المنام إبليس، فقلت له : ويحك ! خلقك الله ، وأمرك بالسُّجود له مشافهةً ، فأبيت ، وأنا لم يأمرني بالسُّجود له مشافهةً ؛ وأنا أسجد في كلِّ يومٍ مرَّات ، وأنشأ يقول :

مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْوِصَالِ أَهْلاً فَكُلُّ إِحْسَانِهِ ذُنُوبُ(٤)

وكان يتمنَّى أن يكون له مسجدٌ يعبد الله فيه ، ومكفول الرِّزق ، قال في هذا المعنى : كنت أتمنَّى أن يكون لي قريةٌ خالصةٌ ، ومسجدٌ أتفرَّد فيه لعبادة ربي ، ثمَّ تمنَّيت بعد ذلك أن يكون لي رغيفٌ كلَّ يومٍ ، ومسجدٌ أعبد الله فيه(٥) .

ومن تواضعه : أنَّه كان ليلةً يأكل الطَّعام ، وبجانبه أخوه أبو القاسم ، وبالجانب الآخر عميد خُراسان ، وإلى جانب العميد إنسانٌ فقيرٌ مقطوع اليد ، فنظر نظام الملك ، فرأى العميد يتجنَّب الأكل مع المقطوع ، فأمره بالانتقال إلى الجانب الآخر ، وقرَّب المقطوع إليه ، فأكل معه .

وكانت عادته أن يُحضر الفقراء طعامه ، ويقرِّبهم إليه ، ويدنيهم(٦) .

---

(١) الكامل : (٦/ ٣٣٧) .
(٢) انظر : سير أعلام النُّبلاء (١٩/ ٩٦) .
(٣) انظر : الكامل (٦/ ٣٣٧) .
(٤) البداية والنِّهاية (١٢/ ١٥٠) .
(٥) انظر : الكامل ٦/ ٣٣٨ .
(٦) المصدر السَّابق نفسه . « الصبوة » : جَهْلَةُ الفتوة ، ولهوُها .

ومن شعره :

بَعْـدَ الثَّمَـانِيْـنَ لَيْـسَ قُـوَّةٌ قَـدْ ذَهَبَـتْ شَهْـوَةُ الصَّبْـوَةِ
كَـأَنَّنِـي وَالعَصَـا بِكَفِّـي مُـوْسَـىٰ وَلَكِـنْ بِـلا نُبُـوَّةِ[1]

وينسب إليه أيضاً :

تَقَـوَّسَ بَعْـدَ طُـوْلِ العُمْـرِ ظَهْـرِي وَدَاسَتْنِـي اللَّيَـالـي أيَّ دَوْسِ
فَـأَمْسِـي وَالْعَصَـا تَمْشِـي أَمَـامِـي كَـأَنَّ قَـوَامَهَـا وَتَـرٌ بِقَـوْسِ

وكان يتأثَّر بسماع الشِّعر ، فعندما دخل عليه أبو عليٍّ القومَسَانيُّ في مرضةٍ مرضها ، يعوده ، فأنشأ يقول :

إِذَا مَـرِضْنَـا نَـوَيْنَـا كُـلَّ صَـالِحَـةٍ فَـإِنْ شُفِيْنَـا فَمِنَّـا الـزَّيْـغُ والـزَّلَـلُ
نَـرْجُـو الإِلَـه إِذَا خِفْنَـا وَنَسْخَطُـه إِذَا أَمِنَّـا فَمَـا يَـزْكُـو لَنَـا عَمَـلُ

فبكى نظامُ الملك ، وقال : هو كما يقول[2] .

●● وفاته :

في عام ٤٨٥هـ من يوم الخميس في العاشر من شهر رمضان ، وحان وقت الإفطار ، صلَّى نظام الملك المغرب ، وجلس على السِّماط ، وعنده خلقٌ كثيرٌ من الفقهاء ، والقرَّاء ، والصُّوفيَّة ، وأصحاب الحوائج ، فجعل يذكر شرف المكان الَّذي نزلوه من أراضي نهاوند ، وأخبار الوقعة الَّتي كانت بين الفرس ، والمسلمين في زمان أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ ومن استشهد هناك من الأعيان ، ويقول : طوبى لمن لحق بهم !

فلمَّا فرغ من إفطاره ، خرج من مكانه قاصداً مَضْرب حَرَمه ، فَبَدَر إليه حدثٌ ديلميٌّ ، كأنَّه مُستميحٌ ، أو مستغيثٌ ، فعلق به ، وضربه ، وحُمِل إلى مضرب الحرم .

فيقال : إنَّه أوَّل مقتولٍ قتلته الإسماعيليَّة (الباطنيَّة) ، فانبثَّ الخبر في الجيش ، وصاحت الأصوات ، وجاء السُّلطان ملكشاه حين بلغه الخبر مظهراً الحزن ،

(١) تاريخ الإسلام حوادث ، ووفيات (٤٨١ ـ ٤٩٠) ص(١٤٧) .
(٢) طبقات الشَّافعيَّة الكبرى للسِّبكي (٤/ ٣٢٨) .

والنَّحيب ، والبكاء ، وجلس عند نظام الملك ساعةً ، وهو يجود بنفسه ؛ حتَّى مات ، فعاش سعيداً ، ومات شهيداً ، فقيداً ، حميداً[١] .

وكان قاتله قد تعثَّر بأطناب الخيمة ، فلحقه مماليك نظام الملك ، وقتلوه .

وقال بعض خدامه : كان آخر كلام نظام الملك أن قال : لا تقتلوا قاتلي ، فإنِّي قد عفوت عنه ، وتشهَّد ، ومات[٢] .

ولمَّا بلغ أهل بغداد موت نظام الملك ، حزنوا عليه ، وجلس الوزير ، والرُّؤساء للعزاء ثلاثة أيامٍ ، ورثاه الشُّعراء بقصائد ، منهم مقاتل بن عطيَّة ، حيث قال :

كَانَ الْوَزِيْرُ نِظَامُ المُلْكِ لُؤْلُؤَةً ... يَتِيمَةً صَاغَهَا الرَّحْمْنُ مِنْ شَرَفِ
عَزَّتْ فَلَمْ تَعْرِفِ الأَيَّامُ قِيْمَتَهَا ... فَرَدَّهَا غَيْرُه مِنْهُ إِلَى الصَّدَفِ[٣]

قال عنه ابن عقيل : بهر العقول سيرة النِّظام جوداً ، وكرماً ، وعدلاً ، وإحياء لمعالم الدِّين ، كانت أيَّامه دولة أهل العلم ، ثمَّ خُتم له بالقتل ، وهو مارٌّ إلى الحجِّ في رمضان ، فمات ملكاً في الدنيا ، ملكاً في الآخرة ، رحمه الله[٤] .

* * *

(١) انظر : طبقات الشَّافعية الكبرى (٤/ ٣٢٢ ، ٣٢٣) .
(٢) المصدر السابق نفسه (٤/ ٣٢٣) .
(٣) البداية والنِّهاية (١٢/ ١٥١) .
(٤) انظر : سير أعلام النُّبلاء (١٩/ ٩٦) .

المبحث الثَّالث

نهاية الدَّولة السَّلجوقيَّة

كان للسُّلطان ملكشاه عند وفاته أربعة أبناء ، هم : بركياق ، ومحمَّد ، وسنجر ، ومحمود ، وكان محمود ـ والَّذي عرف فيما بعد بناصر الدِّين محمود ـ طفلاً فبايعوه على تولِّي السُّلطة ؛ لأنَّ أمَّه تركان خاتون كانت ذات شأنٍ كبيرٍ أيَّام ملكشاه ، وقد استمرَّ حكمه حوالي العامين من ٤٨٥هـ/١٠٩٢م وإلى عام ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م ، حيث توفِّي هو وأمُّه ، ثمَّ جاء من بعده ركن الدِّين أبو المظفَّر بركياق بن ملكشاه ، واستمرَّ حكمه حتَّى ٤٩٨هـ/ ١١٠٥م ، ثمَّ تلاه ركن الدِّين ملكشاه الثَّاني ، وفي نفس العام تولَّى السُّلطة غياث الدِّين أبو شجاع محمَّد ، واستمرَّ حكمه حتَّى عام ٥١١هـ/ ١١٢٨م وكان آخر حكام الدَّولة السَّلجوقيَّة العظمى فيما وراء النَّهر ، والَّتي كانت لها السَّيطرة على خراسان ، وإيران ، والعراق . وقد انقرضت دولتهم عام ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م ، وذلك على يد شاهنات خوارزم[١] .

وبسقوط الدَّولة السَّلجوقيَّة العظمى فيما وراء النَّهر انفرط عقد السَّلاجقة ، وتمزَّقت وحدتهم ، وضعفت قوَّتهم حتَّى أصبح السَّلاجقة شيعاً ، وأحزاباً ، ومعسكراتٍ متباينةً تتصارع فيما بينها حول الظَّفر بالعرش ، وانقسمت على ضوء ذلك الدَّولة السَّلجوقيَّة العظمى إلى عدة دولٍ ، وإماراتٍ صغيرة . ولم تكن هذه الدَّولة ، والإمارات الصَّغيرة تخضع لحكم سلطان واحدٍ ، كما كان الحال في عهد كلٍّ من السُّلطان طغرل بك الأوَّل ، والسُّلطان ألب أرسلان ، والسُّلطان ملكشاه ، وأسلافهم . بل كان كلُّ جزءٍ من أجزاء الدَّولة السَّلجوقيَّة مستقلاً تحت قيادة منفصلة ، لا يوجد بينها أي تعاون يذكر[٢] .

ونتيجة لذلك خرجت الدَّولة الخوارزميَّة فيما وراء النَّهر ، وهي تلك الدَّولة الَّتي وقفت ردحاً من الزَّمن أمام الهجمات المغوليَّة ، وقد قامت معها إمارات

---

(١) انظر : تاريخ دولة آل سلجوق لمحمد الأصبهاني ص(٨١ ـ ١٥٤) .
(٢) انظر : قيام الدَّولة العثمانيَّة ص(٢٣) .

سلجوقيَّة في شمال العراق والشَّام عرفت بالأتابكيَّات ، وأثناء ذلك برزت سلطنة سلاجقة الرُّوم ، وهي السَّلطنة الَّتي قاومت الحملات الصَّليبيَّة ، واستطاعت أن تحصرها في الرُّكن الشَّمالي الغربيِّ من آسيا الصُّغرى . أمَّا سلطنة سلاجقة الرُّوم فقد دمَّرتها الغارات المغوليَّة المتلاحقة .

لقد تضافرت عوامل عديدةٌ في سقوط السَّلطنة السَّلجوقيَّة الَّتي مهَّدت بدورها لسقوط الخلافة العبَّاسيَّة .

*** ومن هذه العوامل :**

١ـ الصِّراع داخل البيت السَّلجوقيِّ بين الأخوة ، والأعمام ، والأبناء ، والأحفاد .

٢ـ تدخُّل النِّساء في شؤون الحكم .

٣ـ إذكاء نار الفتنة بين الحكَّام السَّلاجقة من قبل بعض الأمراء ، والوزراء ، والأتابك .

٤ـ ضعف الخلفاء العباسيِّين الَّذين تميَّزوا بالضَّعف أمام القوَّة العسكريَّة السَّلجوقيَّة ، فلم يتورَّعوا عن الاعتراف بشرعيَّة كلِّ مَنْ يجلس على عرش السَّلطنة السَّلجوقيَّة والخطبة لكلِّ منتصرٍ قوي(١) .

٥ـ عجز الدَّولة السَّلجوقيَّة عن توحيد بلاد الشَّام ، ومصر ، والعراق تحت راية الخلافة العبَّاسيَّة .

٦ـ الانقسام الدَّاخلي بين السَّلاجقة والَّذي وصل إلى حدِّ المواجهة العسكريَّة المستمرة ، وهذا ما أنهك قوَّة السَّلاجقة حتَّى انهارت سلطنتهم في العراق .

٧ـ المكر الباطنيُّ الخبيث بالدَّولة السَّلجوقيَّة ، وتمثل ذلك في حملة التَّصفيات ، والمحاولات المستمرَّة لاغتيال سلاطين السَّلاجقة ، وزعمائهم ، وقاداتهم .

٨ ـ الغزو الصَّليبيُّ القادم من وراء البحار ، وصراع الدَّولة السَّلجوقيَّة مع

---

(١) انظر : السَّلاطين في المشرق العربي ، ص(٥٠) .

جحافل الغزو الوحشيَّة القادمة من أوربة ، وغير ذلك من الأسباب ، والعوامل إلا أنَّ السَّلاجقة كانت لهم أعمالٌ جليلةٌ من أهمِّها :

(أ) كان لهم دورٌ في تأخير زوال الخلافة العباسيَّة ، حوالي قرنين من الزَّمان ، حيث أوشكت قبل مجيئهم على الانقراض في ظلِّ سيطرة البويهيِّين الشِّيعة الرَّوافض .

(ب) منعت الدَّولة السَّلجوقيَّة الدَّولة العبيديَّة في مصر من تحقيق أغراضها الهادفة إلى توحيد المشرق العربيِّ الإسلاميِّ تحت الرَّاية الباطنيَّة العبيديَّة الرَّافضيَّة .

(جـ) كانت الجهود الَّتي بذلتها الدَّولة السَّلجوقيَّة تمهيداً لتوحيد المشرق الإسلامي ، والَّذي تمَّ على يد صلاح الدِّين الأيُّوبيِّ ، وتحت راية الخلافة العبَّاسية السُّنيَّة[١] .

(د) قام السلاجقة بدورٍ ملموسٍ في النهوض بالمنطقة الخاضعة لهم علميَّاً ، وإداريَّاً ، ونشروا الأمن والاستقرار فيها .

(هـ) وقفوا في وجه التَّحرُّكات الصَّليبيَّة من جانب الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة ، وحاولوا صدَّ الخطر المغولي إلى حدٍّ كبير .

(و) رفعوا من شأن المذهب السُّنِّي ، وعلمائه في تلك المناطق[٢] .

هذه نبذةٌ موجزةٌ عن السَّلاجقة السُّنِّيِّين ، ودورهم في نصرة الإسلام ، وإنَّ من الظُّلم ، والزُّور ، والبهتان أن نطلق على أولئك الشُّجعان كلمة الشَّراذم ، كما فعل الأستاذ نجيب زبيب في الموسوعة العامَّة في تاريخ المغرب ، والأندلس[٣] .

* * *

---

(١) انظر : السَّلاطين في المشرق العربي ص(٥١) .

(٢) انظر : قيام الدَّولة العثمانيَّة ص(٢٤) .

(٣) انظر : الموسوعة العامَّة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ١٠) .

الفصل الثَّاني

قيام الدَّولة العثمانيَّة وفتوحاتها

ينتسب العثمانيُّون إلى قبيلةٍ تركمانيَّةٍ كانت عند بداية القرن السَّابع الهجري الموافق الثَّالث عشر الميلادي تعيش في كردستان ، وتزاول حرفة الرَّعي ، ونتيجة للغزو المغولي بقيادة جنكيز خان على العراق ، ومناطق شرق آسيا الصُّغرى ، فإنَّ سليمان جدَّ عثمان هاجر في عام ٦١٧هـ الموافق ١٢٢٠هـ مع قبيلته من كردستان إلى بلاد الأناضول ، فاستقرَّ في مدينة أخلاط[١] ، ثمَّ بعد وفاته في عام ٦٢٨هـ الموافق ١٢٣٠م خلفه ابنه الأوسط أرطغرل ، والَّذي واصل تحرُّكه نحو الشَّمال الغربيِّ من الأناضول ، وكان معه حوالي مئة أسرةٍ وأكثر من أربعمئة فارسٍ[٢] .

وحين كان أرطغرل والد عثمان فاراً بعشيرته الَّتي لم يتجاوز تعدادها أربعمئة عائلةٍ من ويلات الهجمة المغوليَّة ، فإذا به يسمع عن بعد جلبةً ، وضوضاء ، فلمَّا دنا منها ؛ وجد قتالاً حامياً بين مسلمين ، ونصارى ، وكانت كفَّة الغلبة للجيش البيزنطيِّ ، فما كان من أرطغرل إلا أن تقدَّم بكلِّ حماسٍ ، وثباتٍ لنجدة إخوانه في الدِّين ، والعقيدة ، فكان ذلك التقدُّم سبباً في نصر المسلمين على النَّصارى[٣] وبعد انتهاء المعركة قدَّر قائد الجيش الإسلاميِّ السَّلجوقي هذا الموقف لأرطغرل ، ومجموعته ، فأقطعهم أرضاً في الحدود الغربيَّة للأناضول بجوار الثُّغور في الرُّوم[٤] ، وأتاحوا لهم بذلك فرصة توسيعها على حساب الرُّوم ، وحقَّق السلاجقة بذلك حليفاً قويَّاً ، ومشاركاً في الجهاد ضدَّ الرُّوم ، وقد قامت بين هذه الدَّولة

---

(١) أخلاط مدينة في شرق تركيا الحاليَّة قريبة من بحيرة وآن في أرمينيا .
(٢) انظر : قيام الدَّولة العثمانيَّة ص (٢٦) .
(٣) انظر : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين ، زياد أبو غنيمة ص(٣٦) .
(٤) انظر : الفتوح الإسلاميَّة عبر العصور د . عبد العزيز العمري ص(٣٥٣) .

النَّاشئة ، وبين سلاجقة الرُّوم علاقةٌ حميمةٌ نتيجة وجود عدوٍّ مشتركٍ لهم في العقيدة ، والدِّين .

وقد استمرَّت هذه العلاقة طيلة حياة أرطغرل ، حتَّى إذا توفي سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م[١] ، خلفه من بعده في الحكم ابنه عثمان الَّذي سار على سياسة أبيه السَّابقة في التوسُّع في أراضي الرُّوم[٢] .

* * *

(١) تاريخ سلاطين آل عثمان للقرماني، تحقيق بسّام الجابي ، ص(١٠) .
(٢) انظر : تاريخ الدَّولة العليَّة ، محمَّد فريد ، ص(١١٥) .

المبحث الأوَّل

عثمان مؤسِّس الدَّولة العثمانيَّة

في عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، ولد لأرطغرل ابنه عثمان الَّذي تنتسب إليه الدَّولة العثمانيَّة[١] ، وهي السَّنة الَّتي غزا فيها المغول بقيادة هولاكو بغداد عاصمة الخلافة العثمانيَّة ، وكانت الأحداث عظيمةً ، والمصائب جسيمةً ، يقول ابن كثير : « ومالوا على البلد ، فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرِّجال ، والنِّساء ، والوِلدان ، والمشايخ ، والكهول ، والشُّبَّان ، ودخل كثيرٌ من النَّاس في الآبار ، وأماكن الحشوش ، وقنى الوسخ ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون ، وكان الجماعة من النَّاس يجتمعون إلى الحانات ، ويغلقون عليهم الأبواب فيفتحها التتار إمَّا بالكسر وإمَّا بالنَّار ، ثمَّ يدخلون عليهم ، فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة ، فيقتلونهم بالأسطحة ، حتَّى تجري الميازيب من الدِّماء في الأزقَّة ، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون ! وكذلك في المساجد ، والجوامع ، والربط ، ولم ينج منهم أحدٌ سوى أهل الذمَّة من اليهود ، والنَّصارى ، ومن التجأ إليهم»[٢] .

لقد كان الخطب عظيماً ، والحدث جللاً ، والأمَّة ضعفت ، ووهنت بسبب ذنوبها ومعاصيها ، ولذلك سُلِّط عليها المغول ، فهتكوا الأعراض ، وسفكوا الدِّماء ، وقتلوا الأنفس ، ونهبوا الأموال ، وخرَّبوا الدِّيار ، في تلك الظُّروف الصَّعبة ، والوهن المستشري في مفاصل الأمَّة ولد عثمان مؤسِّس الدَّولة العثمانيَّة ، وهنا معنى لطيف ألا وهو بداية الأمَّة في التَّمكين هي أقصى نقطة من الضَّعف ، والانحطاط ، تلك هي بداية الصُّعود نحو العزَّة ، والنَّصر ، والتَّمكين ، إنَّها حكمة الله ، وإرادته ، ومشيئته النَّافذة .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ

(١) انظر : السُّلطان محمَّد الفاتح لعبد السَّلام عبد العزيز ص(١٢) .
(٢) البداية والنِّهاية (١٣/ ١٩٢ ، ١٩٣) .

يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص : ٤] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص : ٥ ـ ٦] .

ولا شكَّ : أنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يمكِّن لعباده المستضعفين في عشيةٍ ، أو ضحاها ، بل في طرفة عينٍ ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النَّحل : ٤٠] .

فلا يستعجل أهل الحقِّ موعود الله ـ عزَّ ، وجلَّ ـ لهم بالنَّصر ، والتَّمكين ، فلابدَّ من مراعاة السُّنن الشَّرعيَّة ، والسُّنن الكونيَّة ، ولابدَّ من الصَّبر على دين الله عزَّ ، وجلَّ : ﴿ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ﴾ [محمَّد : ٤] .

والله إذا أراد شيئاً هيَّأ له أسبابه ، وأتى به شيئاً فشيئاً بالتدرُّج ، لا دفعةً واحدةً .

وبدأت قصَّة التَّمكين للدَّولة العثمانيَّة مع ظهور القائد عثمان الَّذي ولد في عام سقوط الخلافة العباسيَّة في بغداد .

أوَّلاً : أهم الصِّفات القيادية في عثمان الأوَّل :

عندما نتأمَّل في سيرة عثمان الأوَّل تبرز لنا بعض الصِّفات المتأصِّلة في شخصيَّته ، كقائدٍ عسكريٍّ ، ورجلٍ سياسيٍّ ، ومن أهمِّ هذه الصِّفات :

١ـ الشَّجاعة : عندما تنادى أمراء النَّصارى ـ في بورصة ، ومادانوس ، وأدره نوس ، وكته ، وكستله ـ البيزنطيُّون في عام ٧٠٠هـ/ ١٣٠١م لتشكيل حلف صليبي لمحاربة عثمان بن أرطغرل مؤسِّس الدَّولة العثمانيَّة ، واستجابت النَّصارى لهذا النِّداء ، وتحالفوا للقضاء على الدَّولة النَّاشئة ؛ تقدَّم عثمان بجنوده ، وخاض الحروب بنفسه ، وشتَّت الجيوش الصَّليبيَّة ، وظهرت منه بسالةٌ ، وشجاعةٌ ، أصبحت مضرب المثل عند العثمانيِّين(١) .

٢ـ الحكمة : بعدما تولَّى رئاسة قومه رأى من الحكمة أن يقف مع السُّلطان علاء الدِّين ضدَّ النَّصارى ، وساعده في افتتاح جملةٍ من مدنٍ منيعةٍ ، وعدَّة قلاعٍ

(١) انظر : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ص(١٩٧) .

حصينةٍ ، ولذلك نال رتبة الإمارة من السُّلطان السَّلجوقي علاء الدِّين صاحب دولة سلاجقة الرُّوم ، وسمح له سكَّ العملة باسمه ، مع الدُّعاء له في خطبة الجمعة في المناطق الَّتي تحته[(١)] .

٣ـ الإخلاص : عندما لمس سكان الأراضي القريبة من إمارة عثمان إخلاصه للدِّين ؛ تحرَّكوا لمساندته ، والوقوف معه لتوطيد دعائم دولةٍ إسلاميَّةٍ تقف سدَّاً منيعاً أمام الدَّولة المعادية للإسلام والمسلمين[(٢)] .

٤ـ الصبر : وظهرت هذه الصِّفة في شخصيَّته عندما شرع في فتح الحصون ، والبلدان ، ففتح في سنة ٧٠٧هـ حصن كته ، وحصن لفكه ، وحصن آق حصار ، وحصن قوج حصار . وفي سنة ٧١٢هـ فتح حصن كبوه ، وحصن يكيجه طرا قلوا ، وحصن تكرر بيكاري ، وغيرها . وقد توَّج فتوحاته هذه بفتح مدينة بروسة من الأمور السَّهلة ، بل كان من أصعب ما واجهه عثمان في فتوحاته ، حيث حدثت بينه وبين قائد حاميتها أقرينوس صراعٌ شديدٌ استمرَّ عدَّة سنواتٍ حتَّى استسلم ، وسلَّم المدينة لعثمان . قال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

٥ـ الجاذبيَّة الإيمانيَّة : وتظهر هذه الصِّفة عندما احتكَّ به أقرينوس قائد بروسة ، واعتنق الإسلام أعطاه السُّلطان لقب (بك) وأصبح من قادة الدَّولة العثمانيَّة البارزين فيما بعد ، وقد تأثَّر كثيرٌ من القادة البيزنطيِّين بشخصيَّة عثمان ، ومنهجه الَّذي سار عليه ، حتَّى امتلأت صفوف العثمانيِّين منهم[(٣)] ، بل إنَّ كثيراً من الجماعات الإسلاميَّة انخرطت تحت لواء الدَّولة العثمانيَّة كجماعة (غزياروم) أي : غزاة الرُّوم ، وهي جماعةٌ إسلاميَّة كانت ترابط على حدود الرُّوم ، وتصدُّ هجماتهم عن المسلمين منذ العصر العبَّاسي ، وقد أعطتها هذه المرابطة خبراتٍ في جهاد الرُّوم عمقت فيها انتماءها للإسلام ، والتزامها بكلِّ ما جاء به الإسلام من نظامٍ ،

---

(١) انظر : قيام الدَّولة العثمانيَّة ص(٢٥) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢٦) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢٨) .

وجماعة : (الإخيان) أي : (الإخوان) وهم جماعة من أهل الخير ، يعينون المسلمين ، ويستضيفونهم ، ويصاحبون جيوشهم لخدمة الغزاة .

وكان معظم أعضاء هذه الجماعة من كبار التُّجار الَّذين سخَّروا أموالهم للخدمات الإسلاميَّة مثل : إقامة المساجد ، والتَّكايا و« الخانات » الفنادق ، وكانت لهم في الدَّولة مكانةٌ عاليةٌ ، ومن هذه الجماعة علماء ممتازون ، عملوا في نشر الثَّقافة الإسلاميَّة ، وحبَّبوا النَّاس في التمسُّك بالدِّين ، وجماعة (حاجيات الروم) أي : حجاج أرض الرُّوم ، وكانت جماعةً على فقهٍ بالإسلام ، ومعرفةٍ دقيقةٍ بتشريعاته ، وكان هدفها معاونة المسلمين عموماً ، والمجاهدين خصوصاً ، وغير ذلك من الجماعات(١) .

٦ـ العدل : تروي معظم المراجع التُّركيَّة الَّتي أرَّخت للعثمانيين : أنَّ أرطغرل عهد لابنه عثمان مؤسِّس الدَّولة العثمانيَّة بولاية القضاء في مدينة قره جه حصار بعد الاستيلاء عليها من البيزنطيِّين في عام ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م وأنَّ عثمان حكم لبيزنطيٍّ نصرانيٍّ ضدَّ مسلمٍ تركيٍّ ، فاستغرب البيزنطيُّ ، وسأل عثمان : كيف تحكم لصالحي ، وأنا على غير دينك ؟ فأجابه عثمان : بل كيف لا أحكم لصالحك ؛ والله الَّذي نعبده ، يقول لنا : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء : ٥٨] ، وكان هذا العدل الكريم سبباً في اهتداء الرَّجل ، وقومه إلى الإسلام(٢) .

إنَّ عثمان الأوَّل استخدم العدل مع رعيته ، وفي البلاد الَّتي فتحها ، فلم يعامل القوم المغلوبين بالظُّلم ، أو الجور ، أو التعسُّف ، أو التجبُّر ، أو الطُّغيان ، أو البطش ، وإنَّما عاملهم بهذا الدُّستور الرَّبانيِّ : ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨٧ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾ [الكهف : ٨٧ ـ ٨٨] . والعمل بهذا الدُّستور الرَّبانيِّ يدلُّ على إيمانٍ ، وتقوى ، وفطنةٍ ، وذكاءٍ ، وعلى عدلٍ ، وبرٍّ ، ورحمةٍ .

---

(١) انظر : التَّراجع الحضاري في العالم الإسلامي د . علي عبد الحليم ص(٣٣١ ، ٣٣٢) .
(٢) انظر : جوانب مضيئة ص(٣٢) .

٧ـ **الوفاء** : كان شديد الاهتمام بالوفاء بالعهود ، فعندما اشترط أمير قلعة أولوباد البيزنطيَّة حين استسلم للجيش العثمانيِّ ألا يمرَّ من فوق الجسر أيُّ عثمانيٍّ مسلمٍ إلى داخل القلعة ؛ التزم بذلك ، وكذلك من جاء بعده[١] .

قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء : ٣٤] .

٨ ـ **التَّجرُّد لله في فتوحاته** : فلم تكن أعماله ، وفتوحاته من أجل مصالح اقتصاديَّةٍ ، أو عسكريَّةٍ ، أو غير ذلك ، بل كانت فرصة تبليغ دعوة الله ، ونشر دينه ، ولذلك وصفه المؤرِّخ أحمد رفيق في موسوعته (التَّاريخ العام الكبير) بأنَّه (كان عثمان متديِّناً للغاية ، وكان يعلم : أنَّ نشر الإسلام ، وتعميمه واجبٌ مقدَّسٌ ، وكان مالكاً لفكرٍ سياسيٍّ واسعٍ متينٍ ، ولم يؤسس عثمان دولته حبَّاً في السُّلطة ، وإنَّما حبَّاً في نشر الإسلام)[٢] .

ويقول مصر أوغلو : « لقد كان عثمان بن أرطغرل يؤمن إيماناً عميقاً بأنَّ وظيفته الوحيدة في الحياة هي الجهاد في سبيل الله ؛ لإعلاء كلمة الله ، وقد كان مندفعاً بكلِّ حواسِّه ، وقواه نحو تحقيق هذا الهدف »[٣] .

هذه بعض صفات عثمان الأوَّل ، والَّتي كانت ثمراتٍ طبيعيَّةً لإيمانه بالله تعالى ، والاستعداد لليوم الآخر ، وحبِّه لأهل الإيمان ، وبغضه لأهل الكفر ، والعصيان ، وحبِّه العميق للجهاد في سبيل الله ، والدَّعوة إليه ، ولذلك كان عثمان في فتوحاته يطلب من أمراء الرُّوم في منطقة آسيا الصُّغرى أن يختاروا أحد ثلاثة أمورٍ ، هي : الدُّخول في الإسلام ، أو دفع الجزية ، أو الحرب ، وبذلك أسلم بعضهم ، وانضمَّ إليه البعض ، وقبلوا دفع الجزية . أمَّا ما عداهم ؛ فقد شنَّ عليهم جهاداً لا هوادة فيه ، فانتصر عليهم ، وتمكَّن من ضمِّ مناطق كبيرةٍ لدولته .

لقد كانت شخصيَّة عثمان متَّزنة ، وخلابةً بسبب إيمانه العظيم بالله تعالى ، واليوم الآخر ، ولذلك لم تطغ قوَّته على عدالته ، ولا سلطانه على رحمته ،

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص(٣٣) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) المصدر السابق نفسه .

ولا غناه على تواضعه ، وأصبح مستحقّاً لتأييد الله ، وعونه ، ولذلك أكرمه الله تعالى بالأخذ بأسباب التَّمكين ، والغلبة ، وهو تفضُّلٌ من الله تعالى على عبده عثمان ، فجعل له مكنةً ، وقدرةً على التَّصرُّف في آسيا الصُّغرى من حيث التَّدبير ، والرَّأي ، وكثرة الجنود ، والهيبة ، والوقار . لقد كانت رعاية الله له عظيمةً ، ولذلك فتح له باب التَّوفيق وحقَّق ما تطلَّع إليه من أهدافٍ ، وغاياتٍ ساميةٍ . لقد كانت أعماله عظيمةً بسبب حبِّه للدَّعوة إلى الله ، فقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحدِّ السَّيف ، وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان ، فكان إذا ظفر بقومٍ ؛ دعاهم إلى الحقِّ ، والإيمان بالله تعالى ، وكان حريصاً على الأعمال الإصلاحيَّة في جميع الأقاليم ، والبلدان الَّتي فتحها ، فسعى في بسط سلطان الحقِّ ، والعدالة ، وكان صاحب ولاءٍ ومحبَّةٍ لأهل الإيمان ، مثلما كان معادياً لأهل الكفران .

ثانياً : الدستور الَّذي سار عليه العثمانيُّون :

كانت حياة الأمير عثمان مؤسِّس الدَّولة العثمانيَّة جهاداً ، ودعوةً في سبيل الله ، وكان علماء الدِّين يحيطون بالأمير ، ويشرفون على التَّخطيط الإداريِّ ، والتَّنفيذ الشَّرعيِّ في الإمارة . ولقد حفظ لنا التَّاريخ وصية عثمان لابنه أورخان ؛ وهو على فراش الموت ، وكانت تلك الوصيَّة فيها دلالةٌ حضاريَّةٌ ، ومنهجيَّةٌ شرعيةٌ سارت عليها الدَّولة العثمانية فيما بعد . يقول عثمان في وصيته : (يا بني ! إيَّاك أن تشتغل بشيءٍ لم يأمر به الله ربُّ العالمين ، وإذا واجهتك في الحكم معضلةٌ ؛ فاتخذ من مشورة علماء الدِّين موئلاً .

يا بني ! أحط مَنْ أطاعك بالإعزاز ، وأنعم على الجنود ، ولا يغرنَّك الشيطان بجندك ، وبمالك ، وإيَّاك أن تبتعد عن أهل الشَّريعة .

يا بني ! إنَّك تعلم : أنَّ غايتنا هي إرضاء الله ربِّ العالمين ، وأنَّ بالجهاد يعمُّ نور ديننا كلَّ الآفاق ، فتحدث مرضاة الله جلَّ جلاله .

يا بني ! لسنا من هؤلاء الَّذين يقيمون الحروب لشهوة حكمٍ ، و سيطرة أفرادٍ ، فنحن بالإسلام نحيا ، وللإسلام نموت ، وهذا يا ولدي ما أنت له أهلٌ)(١) .

---

(١) العثمانيون في التَّاريخ والحضارة ، د . محمَّد حرب ، ص(١٦) .

وفي كتاب (التَّاريخ السِّياسي للدَّولة العليَّة العثمانيَّة) تجد روايةً أخرى للوصيَّة : (اعلم يا بني ! أنَّ نشر الإسلام ، وهداية النَّاس إليه ، وحماية أعراض المسلمين ، وأموالهم أمانةٌ في عنقك ، سيسألك الله ـ عزَّ ، وجلَّ ـ عنها)[١] .

وفي كتاب « مأساة عثمان » نجد عباراتٍ أخرى من وصيَّة عثمان لابنه أورخان ، تقول : (يا بني ! إنَّني أنتقل إلى جوار ربِّي ، وأنا فخور بك بأنَّك ستكون عادلاً في الرَّعية ، مجاهداً في سبيل الله ، لنشر دين الإسلام .

يا بني ! أوصيك بعلماء الأمَّة ، أدم رعايتهم ، وأكثر من تبجيلهم ، وانزل على مشورتهم ، فإنَّهم لا يأمرون إلا بخير .

يا بنيَّ ، إيَّاك أن تفعل أمراً لا يرضي الله ، عزَّ وجلَّ ، وإذا صعب عليك أمرٌ ؛ فاسأل علماء الشَّريعة ، فإنَّهم سيدلُّونك على الخير .

واعلم يا بنيَّ ! أنَّ طريقنا الوحيد في هذه الدُّنيا هو طريق الله ، وأنَّ مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله ، وأنَّنا لسنا طلاب جاهٍ ، ولا دنيا)[٢] .

وفي « التَّاريخ العثمانيِّ المصوَّر » عباراتٌ أخرى من وصية عثمان ، تقول : (وصيتي لأبنائي ، وأصدقائي : أديموا علوَّ الدِّين الإسلاميِّ الجليل بإدامة الجهاد في سبيل الله . أمسكوا راية الإسلام الشَّريفة في الأعلى بأكمل جهادٍ . اخدموا الإسلام دائماً ؛ لأنَّ الله ـ عزَّ ، وجلَّ ـ قد وظف عبداً ضعيفاً مثلي لفتح البلدان . اذهبوا بكلمة التَّوحيد إلى أقصى البلدان بجهادكم في سبيل الله ، ومن انحرف من سلالتي عن الحقِّ ، والعدل ؛ حرم من شفاعة الرَّسول الأعظم يوم المحشر .

يا بني ! ليس في الدُّنيا أحدٌ لا يخضع رقبته للموت ، وقد اقترب أجلي بأمر الله ، جلَّ جلاله ، أسلِّمك هذه الدَّولة ، وأستودعك المولى ، عزَّ وجلَّ . اعدل في جميع شؤونك . . .)[٣] .

لقد كانت هذه الوصية منهجاً سار عليه العثمانيُّون ، فاهتمُّوا بالعلم ،

---

(١) انظر جوانب مضيئة ، ص(٢١) .
(٢) انظر : جوانب مضيئة ، ص(٣) .
(٣) انظر : السَّلاطين العثمانيُّون ، ص(٣٣) .

وبالمؤسَّسات العلميَّة ، وبالجيش ، وبالمؤسسات العسكريَّة ، وبالعلماء ، واحترامهم، وبالجهاد الَّذي أوصل فتوحاً إلى أقصى مكانٍ وصلت إليه راية جيش مسلمٍ ، وبالإمارة ، وبالحضارة)[١] .

هذه الوصيَّة الخالدة هي الَّتي سار عليها الحكَّام العثمانيُّون في زمن قوَّتهم ، ومجدهم ، وعزَّتهم ، وتمكينهم .

ترك عثمان الأوَّل الدَّولة العثمانيَّة ، وكانت مساحتها تبلغ ١٦,٠٠٠ كيلو متر مربع ، واستطاع أن يجد لدولته الناشئة منفذاً على بحر مرمرة ، واستطاع بجيشه أن يهدِّد أهمَّ مدينتين بيزنطيَّتين في ذلك الزَّمان ، وهي : أزنيق ، وبورصة[٢] .

* * *

(١) انظر : العثمانيون في التَّاريخ والحضارة ، ص(٢٦) .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص(١٥) .

المبحث الثَّاني

السُّلطان أورخان بن عثمان

٧٢٦ ـ ٧٦١هـ/ ١٣٢٧ ـ ١٣٦٠م

بعد وفاة عثمان تولَّى الحكم ابنه أورخان ، وسار على نفس سياسة والده في الحكم ، والفتوحات ، وفي عام ٧٢٧هـ الموافق ١٣٢٧م سقطت في يده نيقو ميديا ، وتقع في شمال غرب آسيا الصُّغرى قرب مدينة إستانبول ، وهي مدينة أزميت الحاليَّة ، فأنشأ بها أوَّل جامعة عثمانيَّة ، وعهد بإدارتها إلى داود القيصري أحد العلماء العثمانيين ؛ الَّذين درسوا في مصر[١] ، واهتمَّ ببناء الجيش على أسسٍ عصريَّةٍ ، وجعله جيشاً نظاميّاً[٢] .

وحرص السُّلطان أورخان على تحقيق بشارة رسول الله ﷺ في فتح القسطنطينية ، ووَضْع خطةٍ استراتيجيَّةٍ تستهدف محاصرة العاصمة البيزنطيَّة من الغرب ، والشَّرق في آنٍ واحدٍ ، ولتحقيق ذلك أرسل ابنه وولي عهده « سليمان » لعبور مضيق « الدَّردنيل » والاستيلاء على بعض المواقع في النَّاحية الغربيَّة .

وفي عام (٧٥٨هـ) اجتاز سليمان مضيق « الدَّردنيل » ليلاً مع أربعين رجلاً من فرسان الإسلام ، ولما أدركوا الضفَّة الغربيَّة ، استولوا على الزَّوارق الرُّوميَّة الرَّاسية هناك ، وعادوا بها إلى الضِّفة الشَّرقية ، إذ لم يكن للعثمانيِّين أسطولٌ حينذاك ، حيث لا تزال دولتهم في بداية تأسيسها ، وفي الضفَّة الشَّرقية أمر « سليمان » جنوده أن يركبوا في الزوارق حيث تنقلهم إلى الشَّاطىء الأوروبيِّ حيث فتحوا ميناء قلعة « ترنب » و« غاليبولي » الَّتي فيها قلعة « جنا قلعة » و« أبسالا » و« رودستو » وكلُّها تقع على مضيق « الدَّردنيل » من الجنوب إلى الشَّمال ، وبهذا خطا هذا السُّلطان خطوةً كبيرةً استفاد بها مَنْ جاء بعده في فتح « القسطنطينيَّة »[٣] .

---

(١) انظر : قيام الدَّولة العثمانيَّة ، ص(٢٩) .

(٢) انظر : العثمانيون في التَّاريخ والحضارة ، ص(١٧) .

(٣) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، الدُّكتور جمال عبد الهادي ، ص(٢٢) .

أوَّلاً : تأسيس الجيش الجديد (يني تشري) :

إنَّ من أهمِّ الأعمال الَّتي ترتبط بحياة السُّلطان أورخان تأسيسه للجيش الإسلاميِّ ، وحرصه على إدخال نظامٍ خاصٍّ للجيش ، فقسمه إلى وحدات تتكوَّن كلُّ وحدةٍ من عشرة أشخاص ، أو مئة شخصٍ ، أو ألف شخصٍ ، وخصَّص خمس الغنائم للإنفاق منها على الجيش ، وجعله جيشاً دائماً بعد أن كان لا يجتمع إلا وقت الحرب ، وأنشأ له مراكز خاصَّة ، يتمُّ تدريبه فيها[١] .

كما أنَّه أضاف جيشاً آخر عرف بالإنكشارية[٢] شكَّله من المسلمين الجدد الَّذين ازداد عددهم بعد اتِّساع رقعة الدَّولة ، وانتصاراتهم الكبيرة في حروبها مع أعدائها من غير المسلمين ، ودخول أعدادٍ كبيرة من أبناء تلك البلاد المفتوحة في الإسلام ، ثمَّ انضمامهم إلى صفوف المجاهدين في سبيل نشر الإسلام ، فبعد أن يعتنقوا الإسلام ويتمَّ تربيتهم تربيةً إسلاميَّةً فكريّاً ، وحربيّاً يعيَّنون في مراكز الجيش المختلفة ، وقد قام العلماء ، والفقهاء مع سلطانهم أورخان بغرس حبِّ الجهاد ، والذَّود عن الدِّين والشَّوق إلى نصرته ، أو الشَّهادة في سبيله ، وأصبح شعارهم (غازياً أو شهيداً) عندما يذهبون إلى ساحة الوغى[٣] .

ولقد زعم معظم المؤرِّخين الأجانب : أنَّ جيش الإنكشارية تكوَّن من انتزاع أطفال النَّصارى من بين أهاليهم ، ويجبرونهم على اعتناق الإسلام بموجب نظامٍ ، أو قانونٍ زعموا أنَّه كان يدعى بنظام (الدَّفشرية) ، وزعموا : أنَّ هذا النِّظام كان يستند إلى ضريبةٍ إسلاميَّةٍ شرعيَّةٍ أطلقوا عليها اسم « ضريبة الغلمان » وأسموها أحياناً « ضريبة الأبناء » وهي ضريبةٌ زعموا : أنَّها تبيح للمسلمين العثمانيِّين أن ينتزعوا خمس عدد أطفال كلِّ مدينةٍ ، أو قريةٍ نصرانيَّة باعتبارهم خمس الغنائم الَّتي هي حصَّة بيت مال المسلمين ، ومن هؤلاء المؤرِّخين الأجانب الَّذين افتروا على الحقيقة : كارل بروكلمان ، وجيبونز ، وجب[٤] .

---

(١) انظر : قيام الدولة العثمانيَّة ، ص(٣٠٢) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) انظر : جوانب مضيئة ، ص(١٢٢) .

إنَّ الحقيقة تقول : إنَّ نظام الدَّثرمة المزعوم ليس سوى كذبةٍ دُسَّت على تاريخ أورخان بن عثمان ، ومراد بن أورخان وانسحبت من بعده على العثمانيِّين قاطبةً ، فلم يكن نظام الدَّثرمة إلا اهتماماً من الدَّولة العثمانية بالمشرَّدين من الأطفال النَّصارى الَّذين تركتهم الحروب المستمرَّة أيتاماً ، أو مشرَّدين ، فالإسلام الَّذي تدين الدَّولة العثمانيَّة به يرفض رفضاً قاطعاً ما يسمَّى بضريبة الغلمان الَّتي نسبها المغرضون من المؤرِّخين الأجانب إليها .

لقد كانت أعدادٌ هائلةٌ من الأطفال فقدوا آباءهم ، وأمَّهاتهم بسبب الحروب ، والمعارك ، فاندفع المسلمون العثمانيُّون إلى احتضان أولئك الأطفال الَّذين هاموا في طرقات المدن المفتوحة بعد فقدانهم لآبائهم ، وأمَّهاتهم ، وحرصوا على تأمين مستقبلٍ كريمٍ لهم ، وهل من مستقبلٍ كريمٍ ، وأمينٍ إلا في الإسلام ، أفإن يحرص المسلمون على أن يعتنق الأطفال المشرَّدون التَّائهون الإسلام ؛ انبرى المفترون يزعمون : أنَّ المسلمين كانوا ينتزعونهم من أحضان آبائهم وأمَّهاتهم ، ويكرهونهم على الإسلام ؟! .

ومن المؤسف : أنَّ هذه الفرية الحاقدة ، وهذا الإفك المبين ، وهذا البهتان العظيم التقفه بعض المؤرِّخين المسلمين يدرِّسونه في مدارسهم ، وجامعاتهم ، وكأنَّه أمرٌ مسلَّمٌ به ويُطرح على الطُّلاب كأنَّه حقيقةٌ من الحقائق ، ولقد تأثَّر بكتب المؤرِّخين الأجانب مجموعةٌ من المؤرِّخين المسلمين ، ومن هؤلاء مَنْ يُشهد له بالغيرة على الإسلام ، فأصبحوا يردِّدون هذا البهتان في كتبهم من أمثال : المؤرخ محمَّد فريد بك المحامي في كتابه : « الدَّولة العليَّة العثمانيَّة » والدُّكتور علي حسُّون في كتابه : « تاريخ الدَّولة العثمانيَّة » والمؤرِّخ محمَّد كرد علي في كتابه : « خطط الشَّام » والدُّكتور عمر عبد العزيز في كتابه « محاضرات في تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة » والدُّكتور عبد الكريم غريبة في كتاب : « العرب والأتراك » .

الحقيقة تقول : كلُّ من ذكر ضريبة الغلمان ، أو أخذهم بالقوَّة من ذويهم تحت قانون أخذ خمس أطفال المدن والقرى ليس له دليلٌ إلا كتب المستشرقين ، كجب ، والمؤرِّخ النَّصرانيِّ سوموفيل ، أو بروكلمان ، وهؤلاء لا يُطمأنُّ إليهم في كتابة التَّاريخ الإسلامي ، ولا إلى نواياهم تجاه الإسلام ، وتاريخ الإسلام .

إنَّ الَّذين يربَّون تربيةً خاصَّةً على الجهاد لم يكونوا نصارى ، وإنَّما كانوا أبناء آباء مسلمين انخلعوا عن النَّصرانيَّة ، واهتدوا إلى الإسلام ، وشرعوا من أنفسهم ، وعن طواعية لا عن إكراه ، يقدِّمون أبناءهم للسُّلطان ليستكمل تربيتهم تربيةً إسلاميَّةً ، أمَّا باقي الأطفال فقد كانوا من الأيتام ، والمشرَّدين الَّذين أفرزتهم الحروب ، فاحتضنتهم الدَّولة العثمانيَّة .

إنَّ حقيقة الجيش الجديد الَّذي أنشأه أورخان بن عثمان هي تشكيل جيشٍ نظاميٍّ يكون دائم الاستعداد والتَّواجد قريباً منه في حالة الحرب ، أو السِّلم على حدٍّ سواءٍ ، فَشُكِّل من فرسان عشيرته ، ومن مجاهدي النَّفير الَّذين كانوا يسارعون لإجابة داعي الجهاد ، ومن أمراء الرُّوم ، وعساكرهم الَّذين دخل الإسلام في قلوبهم ، وحسن إسلامهم . وما كاد أورخان ينتهي من تنظيم هذا الجيش ؛ حتَّى سارع إلى حيث يقيم العالم المؤمن التَّقي الحاج بكتاش ، وطلب منه أن يدعو لهم خيراً ، فتلقَّاهم العالم المؤمن خير لقاء ، ووضع يده على رأس أحد الجنود ، ودعا لهم الله أن يبيِّض وجوههم ، ويجعل سيوفهم حادَّةً قاطعةً ، وأن ينصرهم في كلِّ معركةٍ يخوضونها في سبيل الله ، ثمَّ مال تجاه أورخان ، فسأله : هل اتَّخذت لهذا الجيش اسماً ؟ قال : لا ، قال : فليكن اسمه : « يني جري » وتلفظ « يني تشري » أي : الجيش الجديد .

وكانت راية الجيش الجديد من قماش أحمر ، وسطها هلال ، وتحت الهلال صورةٌ لسيفٍ أطلقوا عليه اسم «ذو الفقار» تيمُّناً بسيف الإمام عليٍّ ، رضي الله عنه[١] .

لقد كان علاء الدِّين بن عثمان أخو أورخان صاحب الفكرة ، وكان عالماً في الشَّريعة ومشهوراً بالزُّهد ، والتَّصوُّف الصَّحيح[٢] .

وعمل أورخان على زيادة عدد جيشه الجديد بعد أن ازدادت تبعات الجهاد ، ومناجزة البيزنطيين ، فاختار عدداً من شباب الأتراك ، وعدداً من شباب البيزنطيِّين ؛ الَّذين أسلموا ، وحسن إسلامهم ، فضمَّهم إلى الجيش ، واهتمَّ اهتماماً كبيراً بتربيتهم تربيةً إسلاميَّةً جهاديَّةً .

---

(١) انظر : جوانب مضيئة ، ص(١٤٧) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٤٤) .

ولم يلبث الجيش الجديد حتى تزايد عدده ، وأصبح يضمُّ آلافاً من المجاهدين في سبيل الله .

لقد كان أورخان ، وعلاء الدِّين متَّفقين على أنَّ الهدف الرَّئيسيَّ لتشكيل الجيش الجديد هو مواصلة الجهاد ضدَّ البيزنطيِّين وفتح المزيد من أراضيهم بهدف نشر الإسلام فيها ، والاستفادة من البيزنطيِّين ، الَّذين أسلموا في نشر الإسلام بعد أن يكونوا تلقَّوا تربيةً إسلاميَّةً جهاديَّةً ، وترسَّخت في قلوبهم مبادىء الإسلام سلوكاً ، وجهاداً .

وخلاصة القول : إنَّ السُّلطان أورخان لم ينتزع غلاماً نصرانيَّاً واحداً من بيت أبيه ، ولم يكره غلاماً نصرانيَّاً واحداً على اعتناق الإسلام ، وأنَّ كل ما زعمه بروكلمان ، وجب ، وجيبونز كذبٌ ، واختلاقٌ ، ينبغي أن تزال آثاره من كتب تاريخنا الإسلاميِّ[(١)] .

إنَّ مقتضيات الأمانة العلميَّة ، والأخوَّة الإسلاميَّة تضع في عنق كلِّ مسلم غيور ، وخاصَّةً العلماء ، والمثقَّفين ، والمفكِّرين ، والمؤرِّخين ، والمدرِّسين ، والباحثين ، والإعلاميِّين أمانة نسف هذه الفرية ، ودحض هذه الشُّبهة الَّتي ألصقت بالعثمانيِّين ، وأصبحت كأنَّها حقيقةٌ لا تقبل النقاش ، والمراجعة ، والحوار .

ثانيًا : سياسة أورخان الدَّاخليَّة والخارجيَّة :

كانت غزوات أورخان منصبَّةً على الرُّوم ، ولكن حدث في سنة (٧٣٦هـ ـ ١٣٣٦م) أن توفي أمير قره سي ـ وهي إحدى الإمارات الَّتي قامت على أنقاض دولة سلاجقة الرُّوم ، واختلف ولداه من بعده ، وتنازعا الإمارة . واستفاد أورخان من هذه الفرصة فتدخَّل في النِّزاع ، وانتهى بالاستيلاء على الإمارة ، وقد كان مما تهدف إليه الدَّولة العثمانيَّة النَّاشئة أن ترث دولة سلاجقة الرُّوم في آسيا الصغرى وترث ما كانت تملكه ، واستمرَّ الصِّراع لذلك بينها وبين الإمارات الأخرى حتَّى أيَّام الفاتح ، حيث تمَّ إخضاع آسيا الصُّغرى برمَّتها لسلطانه .

واهتمَّ أورخان بتوطيد أركان دولته ، فعمد إلى الأعمال الإصلاحيَّة والعمرانيَّة ، ونظَّم شؤون الإدارة ، وقوَّى الجيش ، وبنى المساجد ، وأنشأ المعاهد

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٥٥) .

العلميَّة[١] وأشرف عليها خيرة العلماء والمعلِّمين ، وكانوا يحظون بقدرٍ كبيرٍ من الاحترام في الدَّولة ، وكانت كلُّ قريةٍ بها مدارسها ، وكلُّ مدينةٍ بها كلِّيتها الَّتي تعلم النَّحو ، والتَّراكيب اللُّغوية ، والمنطق ، والميتافزيقا ، وفقه اللُّغة ، وعلم الإبداع اللُّغوي ، والبلاغة ، والهندسة ، والفلك[٢] وبالطَّبع تحفيظ القرآن ، وتدريس علومه ، والسُّنة ، والفقه ، والعقائد .

وهكذا أمضى أورخان بعد استيلائه على إمارة قره سي عشرين سنةً دون أن يقوم بأيِّ حروب ، بل قضاها في صقل النُّظم المدنيَّة ، والعسكريَّة الَّتي أوجدتها الدَّولة ، وفي تعزيز الأمن الدَّاخلي ، وبناء المساجد ، ورصد الأوقاف عليها ، وإقامة المنشآت العامَّة الشَّاسعة ، ممَّا يشهد بعظمة أورخان ، وتقواه ، وحكمته ، وبعد فإنَّه لم يشنَّ الحرب تلو الحرب طمعاً في التوسُّع ، وإنَّما حرص على تعزيز سلطانه في الأراضي الَّتي يتاح له ضمُّها . وحرص على طبع كلِّ أرضٍ جديدةٍ بطابع الدَّولة المدنيِّ ، والعسكريِّ ، والتَّربويِّ ، والثَّقافيِّ ، وبذلك تصبح جزءاً لا يتجزَّأ من أملاكهم . بحيث أصبحت أملاك الدَّولة في آسيا الصُّغرى متماثلةً ، ومستقرَّةً .

وهذا يدلُّ على فهم واستيعاب أورخان لسنَّة التدرُّج في بناء الدُّول ، وإقامة الحضارة ، وإحياء الشُّعوب .

وما أن أتمَّ أورخان البناء الدَّاخلي حتَّى حدث صراعٌ على الحكم داخل الدَّولة البيزنطيَّة ، وطلب الإمبراطور « كونتاكوزينوس » مساعدة السُّلطان أورخان ضدَّ خصمه ، فأرسل قوات من العثمانيِّين لتوطيد النفوذ العثماني في أوربة ، وفي عام ١٣٥٨ أصاب زلزالٌ مدينة تراقيا ، فانهارت أسوار غاليبولي ، وهجرها أهلها ممَّا سهل على العثمانيِّين دخولها . وقد احتجَّ الإمبراطور البيزنطي على ذلك دون جدوى ـ وكان ردُّ أورخان : أنَّ العناية الإلهية قد فتحت أبواب المدينة أمام قوَّاته ، وما لبث غاليبولي أن أصبحت أوَّل قاعدة عثمانيَّة في أوربة ، ومنها انطلقت الحملات الأولى الَّتي تُوِّجت في النهاية بالاستيلاء على كلِّ شبه جزيرة البلقان .

وحين انفرد حنَّا الخامس باليولوجس بحكم بيزنطة أقرَّ كلَّ فتوح أورخان في أوربة في مقابل تعهد السُّلطان بتسهيل وصول الطَّعام ، والمؤن إلى القسطنطينيَّة ،

(١) انظر : محمد الفاتح ، الدُّكتور سالم الرشيدي ، ص(٢٥) .
(٢) انظر : في أصول التَّاريخ العثماني ، محمَّد عبد الرَّحيم ، ص(٤٠) .

وأرسل أورخان أعداداً كبيرة من القبائل المسلمة بغية الدَّعوة إلى الإسلام ، ومنع تمكُّن النَّصارى من طرد العثمانيِّين من أوربة[١] .

ثالثاً : العوامل الَّتي ساعدت السُّلطان أورخان في تحقيق أهدافه :

١ـ المرحليَّة الَّتي سار عليها أورخان ، واسْتِفادتُه من جهود والده عثمان ، ووجود الإمكانيَّات المادِّيَّة ، والمعنويَّة الَّتي ساعدتهم على فتح الأراضي البيزنطيَّة في الأناضول ، وتدعيم سلطتهم فيها . ولقد تميَّزت جهود أورخان بالخطى الوئيدة، والحاسمة في توسيع دولته ، ومدِّ حدودها ، ولم ينتبه العالم المسيحيُّ إلى خطورة الدَّولة العثمانيَّة إلا بعد أن عبروا البحر ، واستولوا على غاليبولي[٢] .

٢ـ كان العثمانيُّون ـ يتميَّزون ـ في المواجهة الحربيَّة الَّتي تمَّت بينهم وبين الشُّعوب البلقانيَّة ـ بوحدة الصَّفِّ ، ووحدة الهدف ، ووحدة المذهب الدِّينيِّ ، وهو المذهب السُّنِّيُّ .

٣ـ وصول الدَّولة البيزنطيَّة إلى حالةٍ من الإعياء الشَّديد ، وكان المجتمع البيزنطيُّ قد أصابه تفكُّكٌ سياسيٌّ ، وانحلالٌ دينيٌّ واجتماعيٌّ ، فسهَّل على العثمانيِّين ضمَّ أقاليم هذه الدَّولة .

٤ـ ضعف الجبهة المسيحيَّة نتيجةً لعدم الثِّقة بين السُّلطات الحاكمة في الدَّولة البيزنطيَّة ، وبلغاريا ، وبلاد الصِّرب ، والمجر ، ولذلك تعذَّر في معظم الأحيان تنسيق الخطط السِّياسيَّة ، والعسكريَّة للوقوف في جبهةٍ واحدةٍ ضدَّ العثمانيِّين[٣] .

٥ـ الخلاف الدِّيني بين روما والقسطنطينيَّة ؛ أي : بين الكاثوليك ، والأرثوذكس ؛ الذي استحكمت حلقاته ، وترك آثاراً عميقة الجذور في نفوس الفريقين .

٦ـ ظهور النِّظام العسكري الجديد على أسسٍ عقديَّةٍ ، ومنهجيَّةٍ تربويَّةٍ ، وأهدافٍ ربَّانيَّةٍ ، وأشرف عليه خيرة قادة العثمانيِّين .

* * *

(١) انظر : أصول التَّاريخ العثماني ، ص(٤٧) .
(٢) انظر : الدَّولة العثمانيَّة في التَّاريخ الإسلاميِّ الحديث ، ص(٢٢) .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص(٢٣) .

المبحث الثَّالث

السُّلطان مراد الأوَّل

٧٦١ ـ ٧٩١هـ/ ١٣٦٠ ـ ١٣٨٩م

كان مراد الأوَّل شجاعاً ، مجاهداً ، كريماً ، متديِّناً ، وكان محبَّاً للنِّظام متمسِّكاً به ، عادلاً مع رعاياه ، وجنوده ، شغوفاً بالغزوات ، وبناء المساجد ، والمدارس ، والملاجىء ، وكان بجانبه مجموعةٌ من خيرة القادة ، والخبراء ، والعسكريِّين ، شكَّل منهم مجلساً لشورته ، وتوسَّع في آسيا الصُّغرى وأوربة في وقتٍ واحدٍ .

ففي أوربة هاجم الجيش العثمانيُّ أملاك الدَّولة البيزنطيَّة ، ثمَّ استولى على مدينة أدرنة في عام (٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م) وكانت لتلك المدينة أهمِّيةٌ استراتيجيَّةٌ في البلقان ، وكانت ثاني مدينة في الإمبراطورية البيزنطيَّة بعد القسطنطينيَّة . واتَّخذ مراد من هذه المدينة عاصمةً للدَّولة العثمانيَّة منذ عام (٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م) ، وبذلك انتقلت العاصمة إلى أوربة ، وأصبحت أدرنة عاصمةً إسلاميَّةً ، وكان هدف مراد من هذه النُّقلة :

١ ـ استغلال مناعة استحكامات أدرنة الحربيَّة ، وقربها من مسرح العمليَّات الجهاديَّة .

٢ ـ رغبة مراد ضمَّ الأقاليم الأوربيَّة الَّتي وصلوا إليها في جهادهم ، وثبَّتوا أقدامهم فيها .

٣ ـ جمَع مراد في هذه العاصمة كلَّ مقومات النُّهوض بالدَّولة ، وأصول الحكم ، فتكوَّنت فيها فئات الموظَّفين ، وفرق الجيش ، وطوائف رجال القانون ، وعلماء الدِّين ، وأقيمت دور المحاكم ، وشُيِّدت المدارس المدنيَّة ، والمعاهد العسكريَّة لتدريب الإنكشاريَّة .

واستمرَّت أدرنة على هذا الوضع السِّياسيِّ ، والعسكريِّ ، والإداريِّ ، والثَّقافيِّ ، والدِّينيِّ ، حتَّى فتح العثمانيُّون القسطنطينيَّة في عام (٨٥٧هـ ـ ١٤٥٣م) ، فأصبحت عاصمةً لدولتهم[1] .

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة في التَّاريخ الإسلامي الحديث ، د . إسماعيل ياغي ، ص(٣٨) .

أولاً : تحالفٌ صليبيٌّ ضدَّ مراد :

مضى السُّلطان مراد في حركة الجهاد ، والدَّعوة ، وفتح الأقاليم في أوربة ، وانطلق جيشه يفتح مقدونيا ، وكانت لانتصاراته أصداءٌ بعيدةٌ ، فتكوَّن تحالفٌ أوربيٌّ بلقانيٌّ صليبيٌّ ، باركه بابا أوربا الخامس ، وضمَّ الصِّربيِّين ، والبلغاريِّين ، والمجريِّين ، وسكان إقليم والاشيا . وقد استطاعت الدُّول الأعضاء في التَّحالف الصَّليبيِّ أن تحشد جيشاً بلغ عدده ستين ألف جنديٍّ تصدَّى لهم القائد العثمانيُّ « لالاشاهين » بقوَّة تقل عدداً عن القوَّات المتحالفة ، وقابلهم على مقربةٍ من « تشيرمن » على نهر مارتيزا ، حيث وقعت معركةٌ مروِّعةٌ ، وانهزم الجيش المتحالف ، وهرب الأميران الصِّربيان ، ولكنَّهما غرقا في نهر مارتيزا ، ونجا ملك المجر بأعجوبةٍ من الموت ، أمَّا السُّلطان مراد فكان في هذه الأثناء مشتغلاً بالقتال في بلاد آسيا الصُّغرى حيث فتح عدَّة مدنٍ ، ثمَّ عاد إلى مقرِّ سلطنته لتنظيم ما فتحه من الأقاليم ، والبلدان ، كما هو شأن القائد الحكيم(١) .

وكان من نتائج انتصار العثمانيِّين على نهر مارتيزا أمورٌ مهمَّةٌ ، منها :

١ـ تمَّ لهم فتح إقليم تراقيا ، ومقدونيا ، ووصلوا إلى جنوبي بلغاريا ، وإلى شرقي صربيا .

٢ـ أصبحت مدن وأملاك الدَّولة البيزنطيَّة ، وبلغاريا ، وصربيا تتساقط في أيديهم كأوراق الخريف(٢) .

أوَّلاً : معاهدة بين الدَّولة العثمانيَّة والمسيحية :

لمَّا اشتدَّ ساعد الدَّولة العثمانيَّة ؛ خاف مجاوروها ، خصوصاً الضُّعفاء منهم ، فبادرت جمهورية (راجوزه)(٣) وأرسلت إلى السُّلطان مراد رسلاً ؛ ليعقدوا مع السُّلطان مراد معاهدةً وديَّةً ، وتجاريَّةً تعاهدوا فيها بدفع جزيةٍ سنويَّةٍ قدرها ٥٠٠

---

(١) انظر : تاريخ الدولة العثمانية العلية ، ص (١٣١) .
(٢) انظر : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ص (٣٧) .
(٣) تطل على البحر الأدرياتيكي .

دوكا ذهب ، وهذه أوَّل معاهدةٍ عقدت بين الدَّولة العثمانيَّة ، والدُّول المسيحيَّة(١) .

●● معركة قوصوة :

كان السُّلطان مراد قد توغَّل في بلاد البلقان بنفسه عن طريق قوَّاده ممَّا أثار الصِّرب ، فحاولوا في أكثر من مرَّةٍ استغلال غياب السُّلطان عن أوربة في الهجوم على الجيوش العثمانيَّة في البلقان ، وما جاورها ، ولكنَّهم فشلوا في تحقيق انتصاراتٍ تذكر على العثمانيِّين ، فتحالف الصِّرب ، والبوسنيُّون البلغار ، وأعدُّوا جيشاً أوربيّاً صليبيّاً كثيفاً لحرب السُّلطان الَّذي كان قد وصل بجيوشه بعد إعدادها إعداداً قويّاً إلى منطقة كوسوفو في البلقان ، ومن الموافقات الَّتي تذكر : أن وزير السُّلطان مراد الَّذي كان يحمل معه مصحفاً فتحه على غير قصدٍ ، فوقع نظره على هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنفال : ٦٥] فاستبشر بالنَّصر ، واستبشر معه المسلمون ، ولم يلبث أن نشب القتال بين الجمعين ، وحمي وطيسه ، واشتدَّت المعركة ، وانجلت الحرب عن انتصار المسلمين انتصاراً باهراً حاسماً(٢) .

ثانياً : استشهاد السُّلطان مراد :

بعد الانتصار في قوصوه قام السُّلطان مراد يتفقَّد ساحة المعركة ، ويدور بنفسه بين صفوف القتلى من المسلمين ، ويدعو لهم ، كما كان يتفقَّد الجرحى ، وفي أثناء ذلك قام جندي من الصِّرب كان قد تظاهر بالموت ، وأسرع نحو السُّلطان ، فتمكَّن الحرَّاس من القبض عليه ، ولكنَّه تظاهر بأنه جاء يريد محادثة السُّلطان ، ويريد أن يعلن إسلامه على يديه ، وعند ذلك أشار السُّلطان للحرس بأن يطلقوه ، فتظاهر بأنَّه يريد تقبيل يد السُّلطان وقام بحركةٍ سريعةٍ بإخراج خنجرٍ مسموم ، طعن به السُّلطان ، فاستشهد رحمه الله في ١٥ شعبان ٧٩١هـ(٣) .

---

(١) انظر : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، د . محمد فريد ، ص (١٣٢) .

(٢) انظر : محمد الفاتح ، د . سالم الرَّشيدي ، ص(٣٠) الفتوح الإسلاميَّة عبر العصور ، ص(٣٨٩) .

(٣) انظر : تاريخ سلاطين آل عثمان للقرماني ، ص(١٦) .

(أ) الكلمات الأخيرة للسُّلطان مراد :

« لا يسعني حين رحيلي إلا أن أشكر الله ، إنَّه علاَّم الغيوب المتقبِّل دعاء الفقير ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وليس يستحقُّ الشُّكر ، والثَّناء إلا هو ، لقد أوشكت حياتي على النِّهاية ، ورأيت نصر جند الإسلام . أطيعوا ابني يزيد ، ولا تعذِّبوا الأسرى ، ولا تؤذوهم ، ولا تسلبوهم ، وأودِّعكم منذ هذه اللَّحظة ، وأودِّع جيشنا الظافر العظيم إلى رحمة الله ، فهو الَّذي يحفظ دولتنا من كلِّ سوء »[1] لقد استشهد هذا السُّلطان العظيم بعد أن بلغ من العمر ٦٥ عاماً .

(ب) دعاء السُّلطان مراد قبل اندلاع معركة قوصوه :

كان السُّلطان مراد يعلم : أنَّه يقاتل في سبيل الله ، وأنَّ النَّصر من عنده ، ولذلك كان كثير الدُّعاء ، والإلحاح على الله والتَّضرُّع إليه ، والتوكُّل عليه ، ومن دعائه الخانع نستدلُّ على معرفة السُّلطان مراد بربِّه ، وتحقيقه لمعاني العبوديَّة ، يقول السُّلطان مراد في مناجاته لربِّه : « يا الله ! يا رحيم ! يا ربَّ السَّموات ! يا من تتقبل الدُّعاء لا تخزني ! يا رحمن يا رحيم استجب دعاء عبدك الفقير هذه المرَّة ! أرسل السَّماء علينا مدراراً ، بدِّد سحب الظَّلام ، فنرى عدوَّنا ، وما نحن سوى عبيدك المذنبين ، إنَّك الوهَّاب ، ونحن فقراؤك . ما أنا سوى عبدك الفقير المتضرِّع ، أنت العليم يا علام الغيوب ، والأسرار ، وما تخفي الصُّدور ، ليس لي غاية لنفسي ، ولا مصلحة ، ولا يحملني طلب المغنم ، فأنا لا أطمع إلا في رضاك . يا الله ، يا عليم ، يا موجود في كلِّ الوجود[2] أفديك روحي فتقبل رجائي ، ولا تجعل المسلمين يبوء بهم الخذلان أمام العدو ! يا الله ، يا أرحم الرَّاحمين لا تجعلني سبباً في موتهم ، بل اجعلهم المنتصرين !

إنَّ روحي أبذلها فداءً لك يا ربِّ ! إنِّي وددت ، ولا زلت دوماً أبغي الاستشهاد من أجل جند الإسلام ، فلا ترني يا إلهي محنتهم ! واسمح لي يا إلهي هذه المرَّة أن

---

(١) انظر : الفتوح الإسلاميَّة عبر العصور ، ص(٣٩١) .

(٢) أي : موجود بعلمه في كلِّ الوجود .

أستشهد في سبيلك ، ومن أجل مرضاتك . . ! »[١] .

وفي رواية : (يا إلهي إنَّني أقسم بعزَّتك ، وجلالك أنَّني لا أبتغي من جهادي هذه الدُّنيا الفانية ، ولكنَّني أبتغي رضاك ، ولا شيء غير رضاك ، يا إلهي ! إنَّني أقسم بعزَّتك ، وجلالك أنَّني في سبيلك ! فزدني تشريفاً بالموت في سبيلك »[٢] .

وفي روايةٍ : « يا إلهي ، ومولاي ! تقبَّل دعائي ، وتضرُّعي ، وأنزل علينا برحمتك غيثاً يطفىء مِنْ حولنا غبار العواصف ، واغمرنا بضياءٍ يبدِّد مِنْ حولنا الظُّلمات ، حتَّى نتمكَّن من إبصار مواقع عدوِّنا ، فنقاتله في سبيل إعزاز دينك العزيز .

إلهي ، ومولاي ! إنَّ الملك ، والقوَّة لك ، تمنحها لمن تشاء من عبادك ، وأنا عبدك العاجز الفقير ، تعلم سري ، وجهري ، أقسم بعزَّتك وجلالك أنَّني لا أبتغي من جهادي حطام هذه الدُّنيا الفانية ، ولكني أبتغي رضاك ، ولا شيء غير رضاك !

إلهي ، ومولاي ! أسألك بجاه وجهك الكريم أن تجعلني فداءً للمسلمين جميعاً، ولا تجعلني سبباً في هلاك أحدٍ من المسلمين في سبيل غير سبيلك القويم !

إلهي ، ومولاي ! إن كان في استشهادي نجاةٌ لجند المسلمين ؛ فلا تحرمني الشَّهادة في سبيلك ، لأنعم بجوارك ، ونعم الجوار جوارك .

إلهي ، ومولاي ! لقد شرَّفتني بأن هديتني إلى طريق الجهاد في سبيلك ، فزدني شرفاً بالموت في سبيلك ! »[٣] .

إنَّ هذا الدُّعاء الخاشع دليلٌ على معرفة السُّلطان مراد لله عزَّ وجلَّ ، وعلى أنَّه حقَّق شروط كلمة التَّوحيد (لا إله إلا الله) ، ولقد اجتمعت شروطها في سلوكه ، وحياته ، فهو على :

ـ علم بمعناها المراد بها نفياً ، وإثباتاً المنافي للجهل بذلك ، قال تعالى : ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد : ١٩] .

وقال تعالى : ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزخرف : ٨٦] أي بـ « لا إله إلا الله »

---

(١) انظر : الفتوح الإسلاميَّة عبر العصور ، ص(٣٩٠) .
(٢) انظر : جوانب مضيئة ، ص(١٩٠) .
(٣) جوانب مضيئة ، ص(٤٠ ، ٤١) .

وهم يعلمون بقلوبهم ما نطقوا به بألسنتهم .

ـ اليقين المنافي للشَّكِّ ، فقد كان السُّلطان مراد مستيقناً بمدلول هذه الكلمة ، يقيناً جازماً ، فإنَّ الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظَّنِّ(١) . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥] .

ـ قبوله لما اقتضى هذه الكلمة بقلبه ، ولسانه ، وانقياده لما دلَّت عليه من أوامر واجتنابٍ للنَّواهي ، قال تعالى : ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان : ٢٢] .

قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] .

ـ كان صادقاً مع ربه ، مخلصاً إخلاصاً طهَّر به شوائب الشِّرك من نفسه ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة : ٥] .

ـ كان مخلصاً لخالقه ، مستعدّاً لبذل النَّفس ، والمال في سبيله ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

وفي الحديث الصَّحيح : « ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما ، وأن يحبَّ المرء لا يحبُّه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النَّار »(٢) .

لقد فهم السُّلطان مراد حقيقة الإيمان ، وكلمة التَّوحيد ، وذاق آثاره في حياته ، فنشأت في نفسه أنفةٌ ، وعزةٌ مستمدَّةٌ من الإيمان بالله ، فأيقن : أنَّه لا نافع إلا الله ، فهو المحيي ، والمميت ، وهو صاحب الحكم ، والسُّلطة ، والسِّيادة ، ومن ثمَّ

---

(١) معارج القبول (٢/٤١٩) .
(٢) البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان (١/١١) رقم (١٦) .

نزع من قلبه كلَّ خوفٍ إلا منه سبحانه ، فلم يطأطىء رأسه أمام أحدٍ من الخلق ، ولا يتضرَّع إليه ، ولا يرتع من كبريائه ، وعظمته ، لأنَّه على يقين بأنَّ الله هو القادر العظيم ، ولقد أكسبه الإيمان بالله قوَّةً عظيمةً من العزم ، والإقدام ، والصَّبر ، والثَّبات ، والتوكُّل ، والتطلُّع إلى معالي الأمور ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى ، فكان في المعارك الَّتي خاضها ثابتاً كالجبال الرَّاسية ، وكان على يقينٍ راسخٍ بأنَّ المالك الوحيد لنفسه ، وماله هو الله سبحانه ، وتعالى ، لذلك لم يبال بأن يضحِّي في سبيل مرضاة ربِّه بكلِّ غالٍ ، ورخيصٍ .

إنَّ السلطان مراد عاش حقيقة الإيمان ، ولذلك اندفع إلى ساحات الجهاد ، وبذل ما يملكه من أجل دعوة الإسلام .

لقد قاد السُّلطان مراد الشَّعب العثماني ثلاثين سنةً بكلِّ حكمةٍ ومهارةٍ لا يضاهيه ، فيها أحدٌ من ساسة عصره ، قال المؤرِّخ البيزنطيُّ هالكو نديلاس عن مراد الأوَّل : (قام مراد بأعمالٍ هامَّةٍ كثيرةٍ . دخل ٣٧ معركة سواء في الأناضول ، أو في البلقان ، وخرج منها جميعاً ظافراً ، وكان يعامل رعيَّته معاملةً شفوقةً دون النَّظر لفوارق العرق ، والدِّين)[١] .

ويقول عنه المؤرِّخ الفرنسي كرينارد : (كان مراد واحداً من أكبر رجالات آل عثمان ، وإذا قوَّمناه تقويماً شخصياً ؛ نجده في مستوى أعلى من كلِّ حكام أوربة في عهده)[٢] .

لقد ورث مراد الأوَّل عن والده إمارةً كبيرةً بلغت ٩٥,٠٠٠ كيلو متر مربع ، وعند استشهاده تسلَّم ابنه بايزيد هذه الإمارة العثمانية بعد أن بلغت ٥٠٠,٠٠٠ كيلو متر مربع ، بمعنى أنَّها زادت في مدى حوالي ٢٩ سنة أكثر من خمسة أمثال ما تركها له والده أورخان[٣] .

---

(١) انظر : العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، ص(١٩) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص(٢٠) .

*** أمَّا النَّتائج الَّتي ترتَّبت على انتصار المسلمين في معركة قوصوه مايلي :**

١ـ انتشار الإسلام في منطقة البلقان ، وتحوُّل عددٍ كبيرٍ من الأشراف القدامى ، والشُّيوخ إِلى الإِسلام بمحض إِرادتهم .

٢ـ اضطرت العديد من الدُّول الأوربيَّة إِلى أن تخطب ودَّ الدَّولة العثمانيَّة ، فبادرت بعضها بدفع الجزية لهم ، وقام البعض الآخر بإِعلان ولائه للعثمانيِّين ؛ خشية قوَّتهم ، واتقاء غضبهم .

٣ـ امتدَّت سلطة العثمانيِّين على أمراء المجر ، ورومانيا ، والمناطق المجاورة للأَدرياتيك ؛ حتَّى وصل نفوذهم إِلى ألبانيا[١] .

* * *

(١) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، د . عبد العزيز العمري ، ص (٣٨٨) .

المبحث الرّابع

السُّلطان بايزيد الأوّل

٧٩١ ـ ٨٠٥هـ/ ١٣٨٩ ـ ١٤٠٢م

بعد استشهاد السُّلطان مراد تولّى الحكم ابنه بايزيد ، وكان شجاعاً شهماً كريماً متحمِّساً للفتوحات الإسلاميَّة ، ولذلك اهتمَّ اهتماماً كبيراً بالشؤون العسكريَّة ، فاستهدف الإمارات المسيحيَّة في الأناضول ، وخلال عام أصبحت تابعةً للدَّولة العثمانيَّة ، وكان بايزيد كمثل البرق في تحرُّكاته بين الجبهتين البلقانيَّة ، والأناضوليَّة ، ولذلك أطلق عليه لقب « الصَّاعقة »[١] .

أولاً : سياسته مع الصِّرب :

شرع بايزيد في إقامة علاقاتٍ وِدِّيَّة مع الصِّرب ؛ مع أنَّهم كانوا السَّبب في قيام تحالفٍ بلقانيٍّ ضدَّ الدولة العثمانيَّة ، وكان غرض بايزيد من هذه العلاقة اتِّخاذ دولة الصِّرب كحاجزٍ بينه وبين المجر ، وكان يشعر بضرورة اتِّخاذ حليفٍ له في سياسته العسكريَّة النَّشطة الَّتي استهدفت الإمارات السَّلجوقيَّة التُّركيَّة الإسلاميَّة في آسيا الصُّغرى ، لذلك وافق بايزيد على أن يحكم الصِّرب ابنا الملك (لازار) الَّذي قتل في معركة قوصوة ، وفرض عليهما أن يكونا حاكمين على صربيا ، يحكمانها حسب قوانين بلاد الصِّرب ، وأعرافها ، وتقاليدها ، وعاداتها ، وأن يدينا له بالولاء ، ويقدِّما له جزيةً ، وعدداً معيَّناً من الجنود يشتركون في فرقةٍ خاصَّةٍ بهم في حروبه[٢] وتزوَّج ابنة الملك لازار .

ثانياً : إخضاع بلغاريا للسِّيادة العثمانيَّة :

بعد أن تمَّ التَّفاهم مع الصِّرب ؛ وجَّه بايزيد ضربةً خاطفةً في عام (٧٩٧هـ/ ١٣٩٣م) إلى بلغاريا ، فاستولى عليها ، وأخضع سكَّانها ، وبذلك فقدت

---

(١) انظر : الدولة العثمانيَّة في التَّاريخ الإسلامي الحديث ، ص(٤٠) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٤١) .

البلاد استقلالها السِّياسيَّ ، وكان لسقوط بلغاريا في قبضة الدَّولة العثمانيَّة صدىً هائلٌ في أوربة ، وانتشر الرُّعب ، والفزع ، والخوف أنحاءها ، وتحرَّكت القوى المسيحيَّة الصَّليبيَّة للقضاء على الوجود العثمانيِّ في البلقان[١] .

ثالثاً : التَّكتُّل المسيحي الصَّليبي ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة :

قام سيجسموند ملك المجر ، والبابا بونيفاس التَّاسع بالدَّعوة لتكتُّلٍ أوربيٍّ صليبيٍّ مسيحيٍّ ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة ، وكان ذلك التَّكتُّل من أكبر التكتُّلات الَّتي واجهتها الدَّولة العثمانيَّة في القرن الرَّابع عشر ، من حيث عدد الدُّول الَّتي اشتركت فيه ، ثمَّ أسهمت فيه بالسِّلاح ، والعتاد ، والأموال ، والقوَّات ، وبلغ العدد الإجمالي لهذه الحملة الصَّليبيَّة ١٢٠,٠٠٠ مقاتل من مختلف الجنسيَّات (ألمانيا ، وفرنسا ، وإِنجلترا ، واسكتلندا ، وسويسرا ، ولوكسمبرج ، والأراضي المنخفضة الجنوبيَّة وبعض الإمارات الإيطاليَّة)[٢] .

وتحرَّكت الحملة عام (٨٠٠هـ/١٣٩٦م) إلى المجر ، ولكنَّ زعماءها ، وقادتها اختلفوا مع سيجسموند قبل بدء المعركة . فقد كان سيجسموند يؤثر الانتظار حتَّى يبدأ العثمانيُّون الهجوم ، ولكنَّ قوَّاد الحملة شرعوا بالهجوم ، وانحدروا مع نهر الدَّانوب حتَّى وصلوا إلى نيكوبوليس شمال البلقان ، وبدؤوا في حصارها ، وتغلَّبوا في أوَّل الأمر على القوَّات العثمانيَّة ، إلا أَنَّ بايزيد ظهر فجأة ؛ ومعه حوالي مئة ألف جنديٍّ ، وهو عددٌ يقلُّ قليلاً عن التكتُّل الأوربيِّ الصَّليبيِّ ، ولكنَّه يتفوَّق عليهم نظاماً ، وسلاحاً ، فانهزم معظم النَّصارى ، ولاذوا بالفرار والهروب ، وقُتل ، وأُسر عددٌ من قادتهم .

وخرج العثمانيُّون من معركة نيكوبوليس بغنائم كثيرةٍ وفيرةٍ ، واستولوا على ذخائر العدوِّ[٣] . وفي نشوة النَّصر ، والظَّفر قال السلطان بايزيد : إِنَّه سيفتح إيطاليا ، ويطعم حصانه الشَّعير في مذبح القديس بطرس بروما[٤] .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٤١) .
(٢) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، د . علي حسون ، ص(٢٤ ، ٢٥) .
(٣) الدَّولة العثمانيَّة في التَّاريخ الإسلامي الحديث ، ص(٤٢) .
(٤) انظر : محمد الفاتح ، د . سالم الرَّشيدي ، ص(٣٣) .

لقد وقع كثيرٌ من أشراف فرنسا منهم الكونت دي نيفر نفسه في الأسر ، فقبل السُّلطان بايزيد دفع الفدية ، وأطلق سراح الأسرى ، والكونت دي نيفر ، وكان قد ألزم بالقسم على ألا يعود لمحاربته ، وقال له : إنِّي أجيز لك أن تحفظ هذا اليمين ، فأنت في حلٍّ من الرُّجوع لمحاربتي ؛ إذ لا شيء أحبُّ إليَّ من محاربة جميع مسيحيِّي أوربة ، والانتصار عليهم[١] .

أمَّا سيجسموند ملك المجر ـ الَّذي كان قد بلغ به الغرور ، والاعتداد بقوَّة جيشه أن قال : لو انقضَّت السَّماء من عليائها ؛ لأمسكناها بحرابنا ـ فقد ولَّى هارباً ، ومعه رئيس فرسان رودس ، ولمَّا بلغا في فرارهما شاطئ البحر الأسود ، وجدا هناك الأسطول النَّصرانيَّ ، فوثبا على إحدى السُّفن ، وفرَّت بهما مسرعةً لا تلوي على شيءٍ ، وتضاءلت مكانة المجر في عيون المجتمع الأوربيِّ بعد معركة نيكوبوليس ، وتبخَّر ما كان يحيط بها من هيبةٍ ، ورهبةٍ[٢] .

لقد كان ذلك النَّصر المظفَّر له أثرٌ على بايزيد ، والمجتمع الإسلاميِّ ، فقام بايزيد ببعث رسائل إلى كبار حكَّام الشَّرق الإسلاميِّ ، يبشِّرهم بالانتصار العظيم على النَّصارى ، واصطحب الرُّسل معهم إلى بلاطات ملوك المسلمين مجموعةً منتقاةً من الأسرى المسيحيِّين باعتبارهم هدايا من المنتصر ، ودليلاً مادِّياً على انتصاره ، واتَّخذ بايزيد لقب (سلطان الرُّوم) كدليل على وراثته لدولة السَّلاجقة ، وسيطرته على شبه جزيرة الأناضول .

كما أرسل إلى الخليفة العباسي المقيم بالقاهرة يطلب منه أن يقرَّ هذا اللَّقب حتَّى يتسنَّى له بذلك أن يسبغ على السُّلطة الَّتي مارسها هو ، وأجداده من قبل طابعاً شرعيّاً رسميّاً ، فتزداد هيبته في العالم الإسلاميِّ ، وبالطَّبع وافق السُّلطان المملوكي برقوق حامي الخليفة العبَّاسيِّ على هذا الطلب ؛ لأنه يرى بايزيد حليفه الوحيد ضدَّ قوات تيمورلنك الَّتي كانت تهدِّد الدَّولة المملوكيَّة والعثمانيَّة ، وهاجر إلى الأناضول آلاف المسلمين ؛ الَّذين قدموا لخدمة الدَّولة العثمانيَّة ، وكانت الهجرة مليئةً

(١) انظر : تاريخ الدولة العثمانيَّة العليَّة ، محمَّد فريد بك ، ص(١٤٤) .
(٢) انظر : محمَّد الفاتح ، د . سالم الرَّشيدي ، ص (٣٣) .

بالجنود ، وممَّن أسهموا في الحياة الاقتصاديَّة ، والعلميَّة ، والحكوميَّة في إيران ، والعراق ، وما وراء النَّهر ـ هذا بالإضافة إلى الجموع الَّتي فرَّت من أمام الزَّحف التيمورلنكي على آسيا الوسطى[١] .

رابعاً : حصار القسطنطينية :

استطاع بايزيد قبل معركة نيكوبوليس أن يشدِّد النَّكير على الإمبراطورية البيزنطيَّة ، وأن يفرض على الإمبراطور أن يعيِّن قاضياً في القسطنطينيَّة للفصل في شؤون المسلمين ، وما لبث أن حاصر العاصمة البيزنطيَّة ، وقبل الإمبراطور إيجاد محكمة إسلاميَّة ، وبناء مسجدٍ ، وتخصيص ٧٠٠ منزل داخل المدينة للجالية الإسلاميَّة ، كما تنازل لبايزيد عن نصف حيٍّ غلطة ؛ الَّذي وضعت فيه حاميةٌ عثمانيَّةٌ قوامها ٦,٠٠٠ جندي ، وزيدت الجزية المفروضة على الدَّولة البيزنطيَّة ، وفرضت الخزانة العثمانيَّة رسوماً على الكروم ، ومزارع الخضراوات الواقعة خارج المدينة . وأخذت المآذن تنقل الأذان إلى العاصمة البيزنطيَّة[٢] .

وبعد الانتصار العظيم الَّذي حقَّقه العثمانيُّون في معركة نيكوبوليس ثبَّت العثمانيُّون أقدامهم في البلقان ، حيث انتشر الخوف ، والرعب بين الشُّعوب البلقانيَّة ، وخضعت البوسنة وبلغاريا إلى الدَّولة العثمانيَّة ، واستمرَّ الجنود العثمانيُّون يتتبَّعون فلول النَّصارى في ارتدادهم . وعاقب السُّلطان بايزيد حكَّام شبه جزيرة المورة الَّذين قدَّموا مساعدةً عسكريَّةً للحلف الصَّليبي[٣] وعقاباً للإمبراطور البيزنطيِّ على موقفه المعادي طلب بايزيد منه أن يسلِّم القسطنطينيَّة ، وإزاء ذلك استنجد الإمبراطور مانويل بأوربة دون جدوى . والحقُّ : أنَّ الاستيلاء على القسطنطينية كان هدفاً رئيسياً في البرنامج الجهادي للسُّلطان بايزيد الأوَّل .

ولذلك فقد تحرَّك على رأس جيوشه ، وضرب حصاراً محكماً حول العاصمة البيزنطيَّة ، وضغط عليها ضغطاً لا هوادة فيه ، واستمرَّ الحصار حتَّى أشرفت المدينة

---

(١) انظر : في أصول التَّاريخ العثماني ، أحمد عبد الحليم ، ص(٥٤ ، ٥٥) .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص(٥٣) .
(٣) الدَّولة العثمانيَّة في التَّاريخ الإسلامي الحديث ، ص(٤٢) .

في نهايتها على السُّقوط ـ بينما كانت أوربة تنتظر سقوط العاصمة العتيدة بين يوم وآخر إذ السُّلطان ينصرف عن فتح القسطنطينيَّة لظهور خطرٍ جديدٍ على الدَّولة العثمانيَّة[1] .

خامساً : الصِّدام بين تيمورلنك وبايزيد :

ينتمي تيمورلنك إلى الأسر النَّبيلة في بلاد ما وراء النَّهر ، وفي عام ١٣٦٩م جلس على عرش خراسان ، وقاعدته سمرقند . واستطاع أن يتوسَّع بجيوشه الرَّهيبة ، وأن يهيمن على القسم الأكبر من العالم الإسلاميِّ ؛ فقد انتشرت قوَّاته الضَّخمة في آسيا من دلهي إلى دمشق ، ومن بحر آرال إلى الخليج العربي ، واحتلَّ فارس ، وأرمينيا ، وأعالي الفرات ، ودجلة والمناطق الواقعة بين بحر قزوين إلى البحر الأسود ، وفي روسيا سيطر على المناطق الممتدَّة بين أنهار الفولجا ، والدُّون ، والدنيبر ، وأعلن بأن سيسيطر على الأرض المسكونة ، ويجعلها ملكاً له ، وكان يردِّد : « أنَّه يجب ألا يوجد سوى سيِّد واحد على الأرض طالما أنَّه لا يوجد إلا إلهٌ واحدٌ في السَّماء »[2] .

وقد اتَّصف تيمورلنك بالشَّجاعة ، والعبقريَّة الحربيَّة ، والمهارة السِّياسيَّة ، وكان قبل أن يقرِّر أمراً كان يجمع المعلومات ، ويرسل الجواسيس ، ثمَّ يصدر أوامره بعد تروٍّ وتأنٍ بعيدةٍ عن العجلة ، وكان من الهيبة بحيث إنَّ جنوده كانوا يطيعون أوامره أيَّاً كانت .

وكان تيمور باعتباره مسلماً يرعى العلماء ، ورجال الدِّين وبخاصَّةٍ اتِّباع الطَّريقة النَّقشبنديَّة[3] .

* وكانت هناك عوامل ، وأسباب ساهمت في إيجاد صراعٍ بين تيمورلنك ، وبايزيد ، منها :

١ ـ لجأ أمراء العراق الَّذين استولى تيمور على بلادهم إلى بايزيد ، كما لجأ إلى تيمور بعض أمراء آسيا الصُّغرى ، وفي كلا الجانبين كان اللاجئون يحرِّضون من

---

(١) الدَّولة العثمانيَّة ، د . إسماعيل أحمد ، ص (٤٣) .
(٢) في أصول التَّاريخ العثماني ، ص(٥٦) .
(٣) المصدر السابق نفسه .

استجاروا به على شنِّ الحرب ضدَّ الطَّرف الآخر .

٢ ـ تشجيع النَّصارى لتيمورلنك ، ودفعه للقضاء على بايزيد .

٣ ـ الرَّسائل النَّاريَّة بين الطَّرفين ، ففي إحدى الرَّسائل الَّتي بعث بها تيمور إلى بايزيد أهانه ضمنيّاً حين ذكَّره بغموض أصل أسرته ، وعرض عليه العفو على اعتبار أنَّ آل عثمان قد قدَّموا خدماتٍ جليلةً إلى الإسلام ، ولو أنَّه اختتم رسالته ـ بصفته زعيماً للتُّرك ـ باستصغار شأن بايزيد الَّذي قبل التَّحدِّي ، وصرَّح بأنه سيتعقَّب تيمورلنك إلى تبريز ، وسلطانية[١] .

وكان الزَّعيمان تيمورلنك ، وبايزيد يسعى كلٌّ منهما لتوسيع دولته .

سادساً : انهيار الدَّولة العثمانيَّة :

تقدَّم تيمورلنك بجيوشه ، واحتلَّ سيواس ، وأباد حاميتها الَّتي كان يقودها الأمير أرطغرل بن بايزيد ، والتقى الجيشان قرب أنقرة في عام ٨٠٤هـ/ ١٤٠٢م وكانت قوات بايزيد تبلغ ١٢٠,٠٠٠ مجاهد لملاقاة خصمه ، وزحف تيمورلنك على رأس قوَّات جرارة في ٢٠ يوليو ١٤٠٢ (٨٠٤هـ) وانتصر المغول ، ووقع بايزيد في الأسر ، وظلَّ يرسف في أغلاله حتَّى وافاه الأجل في السَّنة التَّالية[٢] .

وكانت الهزيمة بسبب اندفاع ، وعجلة بايزيد ، فلم يحسن اختيار المكان الَّذي نزل فيه بجيشه ؛ الَّذي لم يكن يزيد عن مئة وعشرين ألف مقاتلٍ ، بينما كان جيش خصمه لا يقل عن ثمانمئة ألفٍ ، ومات كثير من جنود بايزيد عطشاً لقلَّة الماء ، وكان الوقت صيفاً شديد القيظ ، ولم يكد يلتقي الجيشان في أنقرة حتَّى فرَّ الجنود التَّتار ؛ الَّذين كانوا في جيش بايزيد ، وجنود الإمارات الآسيوية الَّتي فتحها منذ عهدٍ قريبٍ ، وانضمُّوا إلى جيش تيمورلنك ، ولم يُجْدِ السُّلطان العثماني بعد ذلك ما أظهره هو وبقيَّة جيشه من الشَّجاعة ، والاستماتة في القتال[٣] .

لقد فرحت الدُّول النَّصرانيَّة في الغرب بنصر تيمورلنك ، وهزَّها الطَّرب

---

(١) في أصول التَّاريخ العثماني ، ص(٥٧) .
(٢) الدَّولة العثمانيَّة في التَّاريخ الإسلامي الحديث ، ص(٢ ـ ٣) .
(٣) محمَّد الفاتح ، د . سالم الرَّشيدي ، ص(٣٥) .

لمصرع بايزيد ، وما آلت إِليه دولته من التفكُّك ، والانحلال ، وبعث ملوك إِنجلترا ، وفرنسا ، وقشتالة ، وإِمبراطور القسطنطينية إِلى تيمورلنك يهنئونه على ما أحرزه من النصر العظيم والظفر المجيد ، واعتقدت أوربة أنَّها تخلَّصت إِلى الأبد من الخطر العثمانيِّ الَّذي طالما روَّعها ، وهدَّدها[١] .

واستولى تيمورلنك بعد هزيمة بايزيد على أزنيق ، وبروسة ، وغيرها من المدن والحصون ، ثمَّ دك أسوار أزمير ، وخلَّصها من قبضة فرسان رودس[٢] (فرسان القدِّيس يوحنَّا) محاولاً بذلك أن يبرر موقفه أمام الرأي العام الإِسلاميِّ ؛ الذي اتَّهمه بأنَّه وجَّه ضربةً شديدةً إِلى الإِسلام بقضائه على الدَّولة العثمانيَّة ، وحاول تيمورلنك بقتاله لفرسان القدِّيس يوحنَّا أن يضفي على معارك الأناضول طابع الجهاد[٣] .

كما أعاد تيمورلنك أمراء آسيا الصُّغرى إِلى أملاكهم السَّابقة ، ومن ثمَّ استرجاع الإِمارات الَّتي ضمها بايزيد لاستقلالها ، كما بذر تيمور بذور الشِّقاق بين أبناء بايزيد المتنازعين على العرش[٤] .

سابعاً : الحروب الدَّاخليَّة :

لقد تعرَّضت الدَّولة العثمانيَّة لخطرٍ داخليٍّ تمثَّل في نشوب حربٍ أهليَّةٍ في الدَّولة بين أبناء بايزيد على العرش ، واستمرَّت هذه الحرب عشر سنوات (٨٠٦ ـ ٨١٦هـ/ ١٤٠٣ ـ ١٤١٣م)[٥] .

كان لبايزيد خمسة أبناء اشتركوا معه في القتال ، أمَّا مصطفى ؛ فقد ظُنَّ أنَّه قتل في المعركة ، وأمَّا موسى ؛ فقد أسر مع والده ، ونجح الثلاثة الآخرون في الفرار . أمَّا أكبرهم سليمان ؛ فقد ذهب إِلى أدرنة ، وأعلن نفسه سلطاناً هناك ، وذهب

---

(١) محمد الفاتح ، د . سالم الرشيدي ، ص (٣٦) .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص (٣٥) .
(٣) انظر : في أصول التاريخ العثماني ، ص (٥٩) .
(٤) المصدر السابق نفسه ، ص (٥٩) .
(٥) الدولة العثمانيَّة في التَّاريخ الإِسلامي الحديث ، ص (٤٣) .

عيسى إلى بروسة ، وأعلن للنَّاس أنَّه خليفة أبيه ، وأمَّا محمَّد ، وهو أصغرهم ؛ فقد انسحب مع بعض الجند إلى أماسيا في الشَّمال الشَّرقي من آسيا الصُّغرى ، ونشبت الحرب بين هؤلاء الأخوة الثلاثة يتنازعون بينهم أشلاء الدَّولة الممزَّقة ، والأعداء يتربَّصون بهم من كلِّ جانبٍ . ثمَّ أطلق تيمورلنك الأمير موسى ليؤجج به نار الفتنة ، ويزيدها ضراماً ، وشدَّةً ، وأخذ يحرِّضهم على القتال ، ويغري بعضهم ببعضٍ(١) .

وبعد عامٍ ارتحل تيمورلنك بجيشه بعد أن أحرقَ الأخضر ، واليابس ، وترك وراءه البلاد على أسوأ حالٍ من الدَّمار ، والخراب ، والفوضى(٢) .

لقد كانت هذه المرحلة في تاريخ الدَّولة العثمانيَّة مرحلة اختبارٍ وابتلاءٍ ، سبقت التَّمكين الفعليَّ المتمثِّل في فتح القسطنطينيَّة ، ولقد جرت سنة الله تعالى ألا يمكِّن لأمَّةٍ إلا بعد أن تمرَّ بمراحل الاختبار المختلفة ، وإلا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث ، فيميز الله الخبيث من الطَّيب ، وهي سنَّةٌ جاريةٌ على الأمَّة الإسلاميَّة لا تتخلَّف ، فقد شاء الله ـ تعالى ـ أن يبتلي المؤمنين ، ويختبرهم ، ليمحِّص إيمانهم ، ثمَّ يكون لهم التَّمكين في الأرض بعد ذلك .

وابتلاء المؤمنين قبل التَّمكين أمرٌ حتميٌّ من أجل التَّمحيص ؛ ليقوم بنيانهم بعد ذلك على تمكينٍ ، ورسوخٍ ، قال تعالى :

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت : ٢ ـ ٣] .

« الفتنة : الامتحان بشدائد التَّكليف من مفارقة الأوطان ، ومجاهدة الأعداء ، وسائر الطَّاعات الشَّاقَّة ، وهجر الشَّهوات ، وبالفقر ، والقحط ، وأنواع المصائب في الأنفس ، والأمور ، ومصابرة الكفَّار على أذاهم ، وكيدهم »(٣) .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : « والاستفهام في قوله تعالى : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ إنكاريٌّ ، ومعناه : أنَّ الله سبحانه لا بدَّ أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم

---

(١) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(٣٦) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) تفسير النَّسفي (٣/ ٢٤٩) .

من الإيمان »[1] كما جاء في الحديث الصّحيح : « **أشدُّ النّاس بلاء الأنبياء ، ثمَّ الصّالحون ، ثمَّ الأمثل ، فالأمثل . يُبتلى الرَّجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابةٌ ؛ زيد له في البلاء** »[2] .

ولقد بيّن رسول الله ﷺ : أنَّ الابتلاء صفةٌ لازمةٌ للمؤمن ، حيث قال : « **مثل المؤمن كمثل الزَّرع لا تزال الرِّيح تميله ، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء ، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتزُّ حتَّى تُسْتَحْصَدَ** »[3] .

إنَّ سنَّة الابتلاء جاريةٌ في الأمم والدُّول ، والشُّعوب ، والمجتمعات ، ولذلك جرت سنَّةُ الله بالابتلاء بالدَّولة العثمانيَّة .

صمد العثمانيُّون لمحنة أنقرة بالرَّغم ممَّا عانوه من خلافاتٍ داخليَّةٍ إلى أن انفرد محمَّد الأوَّل بالحكم في عام ١٤١٣م ، وأمكنه لمَّ شتات الأراضي الَّتي سبق للدَّولة أن فقدتها . إنَّ إفاقة الدَّولة من كارثة أنقرة يرجع إلى منهجها الرَّبانيِّ الَّذي سارت عليه ، حيث جعل من العثمانيّين أمَّةً متفوِّقةً في جانبها العقديِّ ، والدِّينيِّ والسُّلوكي ، والأخلاقيِّ ، والجهاديِّ ، وبفضل الله حافظ العثمانيُّون على حماستهم الدِّينيَّة ، وأخلاقهم الكريمة[4] .

ثمَّ بسبب المهارة النَّادرة الَّتي نظَّم بها أورخان وأخوه علاء الدِّين دولتهما الجديدة ، وإدارة القضاء المثيرة للإعجاب والتَّعليم المتواصل لأبناء وشباب العثمانيِّين ، وغير ذلك من الأسباب الَّتي جعلت في العثمانيِّين قوَّةً حيويَّةً كاملةً ، فما لبثت هذه الدَّولة بعد كارثة أنقرة إلا أن بعثت من جديدٍ من بين الأنقاض والأطلال ، وانتعشت ، وسرى في عروقها ماء الحياة ، وروح الشَّريعة ، واستأنفت سيرها إلى الأمام في عزمٍ ، وإصرارٍ حيَّر الأعداء ، والأصدقاء[5] .

* * *

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٥) .
(٢) سنن التِّرمذي (٤/ ٦٠١) حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .
(٣) مسلم شرح النَّووي ، كتاب صفة القيامة والجنَّة والنَّار (١٧/ ١٥١) .
(٤) في أصول التَّاريخ العثماني ، ص(٦١) .
(٥) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(٣٧) .

المبحث الخامس

السُّلطان محمَّد الأوَّل

ولد السُّلطان محمَّد الأول عام (٧٨١هـ/ ١٣٧٩م)[١] ، وتولَّى أمر الأمَّة بعد وفاة والده بايزيد ، وعرف في التَّاريخ « بمحمَّد جلبي » .

كان متوسِّط القامة ، مستدير الوجه ، متلاصق الحاجبين ، أبيض البشرة ، أحمر الخدَّين ، واسع الصَّدر ، صاحب بدنٍ قويٍّ في غاية النَّشاط ، وجسوراً ، يمارس المصارعة ، ويسحب أقوى أوتار الأقواس ، اشترك أثناء حكمه في ٢٤ حرباً ، وأصيب بأربعين جرحاً[٢] . استطاع السُّلطان محمَّد جلبي أن يقضي على الحرب الأهليَّة بسبب ما أوتي من الحزم ، والكياسة ، وبعد النَّظر ، وتغلَّب على أخوته واحداً واحداً حتَّى خلص له الأمر ، وتفرَّد بالسُّلطان ، وقضى سني حكمه الثَّمانية في إعادة بناء الدَّولة ، وتوطيد أركانها[٣] ، ويعتبره بعض المؤرخين المؤسِّس الثَّاني للدَّولة العثمانيَّة[٤] .

وممَّا يُؤثَر عن هذا السُّلطان : أنَّه استعمل الحزم مع الحلم في معاملة مَنْ قهرهم ممَّن شقَّ عصا طاعة الدَّولة ، فإنَّه لمَّا قهر أمير بلاد القرمان ، وكان قد استقلَّ ، عفا عنه بعد أن أقسم له على القرآن الشَّريف بأن لا يخون الدَّولة فيما بعد ، وعفا عنه ثانيةً بعد أن حنث في يمينه[٥] ، وكانت سياسته تهدف إلى إعادة بناء الدَّولة ، وتقويتها من الدَّاخل ، ولذلك سالم إمبراطور القسطنطينيَّة ، وحالفه ، وأعاد إليه بعض المدن على شاطئ البحر الأسود ، وفي تساليا ، وصالح البندقيَّة بعد هزيمة أسطوله أمام كليتبولي ، وقمع الفتن ، والثَّورات في آسيا ، وأوربة ، وأخضع بعض الإمارات الآسيويَّة الَّتي أحياها تيمورلنك ، ودانت له بالطَّاعة ، والولاء[٦] .

---

(١) انظر : أخطاء يجب أن تصحَّح (الدَّولة العثمانيَّة) ص(٣٣) .
(٢) انظر : السَّلاطين العثمانيُّون ، ص(٤١) .
(٣) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(٣٧) .
(٤) انظر : السَّلاطين العثمانيُّون ، ص(٤١) .
(٥) تاريخ الدولة العلية العثمانيَّة ، ص(٢٤٩) .
(٦) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(٣٧) .

وظهر في زمن السُّلطان محمَّد شخصٌ يسمَّى بدر الدِّين انتحل صفة علماء الدِّين الإسلاميِّ ، وكان في جيش موسى أخي السُّلطان محمَّد ، وتولَّى منصب قاضي العسكر أعلى مناصب الدَّولة العثمانيَّة وقتئذٍ ، وكان هذا القاضي قد احتضنه موسى بن بايزيد .

قال صاحب الشَّقائق النُّعمانيَّة : « الشَّيخ بدر الدِّين محمود بن إسرائيل . . المشهور بابن قاضي سيماونة ولد في قلعة سيماونة في بلاد الرُّوم إحدى قرى أدرنة الَّتي تقع في الجزء الأوربيِّ من تركيا ، كان أبوه قاضياً لها ، وكان أيضاً أميراً على عسكر المسلمين (فيها) وكان فَتْحُ تلك القلعة على يده أيضاً . . ولادة الشَّيخ بدر الدِّين كانت في زمن السُّلطان الغازي خداوندكار (مراد الأوَّل) من سلاطين آل عثمان ، ثمَّ أخذ الشيخ العلم في صباه عن والده . وحفظ القرآن العظيم ، وقرأ على المولى المشتهر بالشَّاهدي ، وتعلَّم الصَّرف ، والنَّحو عن مولانا يوسف ، ثمَّ ارتحل إلى الدِّيار المصريَّة ، وقرأ هناك مع « أي مزمل » السَّيد الشَّريف الجرجاني على مولانا مبارك شاه المنطقي المدرِّس بالقاهرة ، ثمَّ حجَّ مع مبارك شاه ، وقرأ بمكَّة على الشيخ الزيلعي ، ثمَّ قدم القاهرة ، وقرأ مع السَّيد الجرجاني على الشَّيخ أكمل الدِّين « البايبوري » وقرأ على الشَّيخ المذكور « أي : تعلَّم ، وتتلمذ على يد الشَّيخ بدر الدِّين » السُّلطان فرج بن السُّلطان برقوق ملك مصر « سلطان مصر المملوكي برقوق » .

ثمَّ أدركته « أي : الشَّيخ بدر الدِّين الجذبة الإلهيَّة ، والتجأ إلى كنف الشَّيخ سعيد الأخلاطي السَّاكن بمصر وقتئذٍ ، وحصل عنده ما حصل « أي : أصبح مريده » وأرسله الشَّيخ أخلاطي إلى بلدة تبريز للإرشاد « الصُّوفي » حكي : أنَّه لما جاء تيمورلنك تبريز . . نال « أي بدر الدِّين » من الأمير المذكور « تيمورلنك » مالاً جزيلاً بالغاً إلى نهايته . ثمَّ ترك الشَّيخ الكلَّ ، ولحق ببدليس ، ثمَّ سافر إلى مصر ، ثمَّ إلى حلب ، ثمَّ إلى قونية ، ثمَّ إلى تبرة من بلاد الرُّوم ، ثم دعاه رئيس جزيرة ساقز « وهو نصرانيٌّ » فأسلم على يدي الشَّيخ . . ثمَّ لمَّا تسلطن موسى من أولاد عثمان الغازي نصب الشَّيخ « أي جعل من الشَّيخ بدر الدِّين » قاضياً لعسكره ، ثمَّ إنَّ أخا موسى «محمَّداً» قتل موسى، وحبس الشَّيخ مع أهله، وعياله ببلدة أزنيق »(١) .

---

(١) انظر : العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، ص(١٣٣ ، ١٣٤) ، نقله عن الشَّقائق النعمانيَّة مخطوط (لا له لي) بالسّليمانيَّة رقم(٢٠٧٦) .

وفي أزنيق ـ وهي مدينة في تركيا ـ بدأ الشَّيخ بدر الدِّين محمود بن إسرائيل يدعو إلى مذهبه الفاسد، فكان يدعو إلى المساواة في الأموال، والأمتعة، والأديان، ولا يفرِّق بين المسلم وغير المسلم في العقيدة ، فالنَّاس أخوةٌ مهما اختلفت عقائدهم ، وأديانهم ، وهو ما تدعو إليه الماسونيَّة اليهوديَّة ، وانضمَّ إلى هذه الدَّعوة الباطلة كثيرٌ من الأغبياء ، والجهلة ، وأصحاب الأغراض الدَّنيئة ، وأصبح للمفسد بدر الدِّين تلاميذ يدعون إلى منهجه ، ومذهبه ، ومن أشهر هؤلاء الدُّعاة شخصٌ يسمَّى « بير قليجة مصطفى » وآخر يقال : إنَّه من أصل يهودي هو « طوره كمال » واليهود دائماً خلف المؤامرات من زمن النَّبيِّ ﷺ ، وحتَّى عصرنا هذا .

وشاع أمر هذا المذهب الفاسد ، وكثر أتباعه ، وتصدَّى السُّلطان محمَّد جلبي لهذا المذهب الباطل ، وأرسل أحد قوَّاده على رأس جيشٍ كبيرٍ لمحاربة بدر الدِّين ، وللأسف قتل القائد سيسمان الَّذي أرسله محمَّد جلبي على يد الخائن « بير قليجة » وهزم جيشه ، وأعدَّ السُّلطان محمَّد جلبي جيشاً آخر بقيادة وزيره الأوَّل « بايزيد باشا » فحارب « بير قليجة » وانتصر عليه في موقعة « قرة بورنو » وبعدها أقيم حد الحرابة على « بير قليجة مصطفى » امتثالاً لأمر الله[1] ؛ الَّذي يقول :

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٣] .

واستمرَّ الشَّيخ بدر الدِّين في غيِّه ، وظنَّ أنَّه سيتمكَّن من البلاد بسبب ما تمرُّ به من حالةِ تمزُّقٍ كاملٍ ، وفوضى ضربت بأطنابها في كلِّ أرجاء البلاد ، وكان بدر الدِّين يقول : « إنِّي سأثور من أجل امتلاك العالم ، وباعتقاداتي ذات الإشارات الغيبيَّة سأقسم العالم بين مريديَّ بقوَّة العلم ، وسرِّ التَّوحيد ، وسأبطل قوانين أهل التَّقليد ، ومذهبهم ، وسأحلِّل ـ باتساع مشاربي ـ بعض المحرَّمات »[2] .

وكان أمير الأفلاق « في رومانيا » يدعم هذا المنشق ، وهذا المبتدع ، وهذا الزِّنديق ماديّاً ، وعسكريّاً ، وكان السُّلطان محمَّد جلبي لهذه الدَّعوة الفاسدة

(١) انظر : أخطاء يجب أن تصحَّح (الدَّولة العثمانيَّة) ص(٣٥) .
(٢) انظر : العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، ص(١٤٠) .

بالمرصاد وضيَّق عليها الخناق ، حتَّى اضطر بدر الدِّين أن يعبر إِلى منطقة دلي أورمان « في بلغاريا الآن »[1] يقول محمَّد شرف الدِّين في مسألة توجُّه الشَّيخ بدر الدِّين إِلى دلي أورمان : « إِنَّ هذه المنطقة ، وما يحيط بها من مناطق هي مأوى الباطنيَّة ، وهي منطقةٌ تعجُّ بأتباع ثورة بابا إسحاق ؛ الَّتي قامت ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة في منتصف القرن السَّابع الهجري ، وأنَّ توجُّه الشَّيخ بدر الدِّين إِلى هذا المكان ، وتمكُّنه من جمع الآلاف المؤلَّفة من المؤيِّدين له ، ولحركته من هذه المناطق لفيه الدَّلالة الكافية لاختيار الشَّيخ هذا المكان بالذَّات »[2] .

وفي دلي أورمان بدأت المعونات الأوربيَّة تفد إِلى الشَّيخ ، واتَّسع نطاق الثَّورة ضدَّ السُّلطان العثماني محمَّد الأول ، ووصلت فلول المنشقِّين أعداء الإِسلام الصَّحيح إِلى ما بين ٧ ـ ٨ آلاف مقاتل[3] .

وكان السُّلطان محمَّد الأول يتابع الأمور بحذرٍ ، ويقظةٍ ، ولم يكن غافلاً عمَّا يفعله الثُّوَّار ، وقام السُّلطان بنفسه لحرب الشَّيخ بدر الدِّين ، وكان هذا على رأس جيشٍ عظيمٍ في دلي أورمان .

اتَّخذ السُّلطان محمَّد من سيروز « في اليونان الآن » مركزاً لقيادته . أرسل السُّلطان قوَّاته إِلى الثُّوار ، فهزمتهم ، وتوارى زعيمهم بدر الدِّين الثَّائر بعد هزيمته في منطقة دلي أورمان فراراً من السُّلطان[4] .

واستطاعت مخابرات السُّلطان محمَّد الأوَّل أن تخترق صفوف الثُّوار ، وأن تكيد مكيدةً محكمةً ، وقع على أثرها زعيم الثُّوار المبتدع بدر الدِّين في الأسر[5] .

وعندما قابل السُّلطان محمَّد الأوَّل بدر الدِّين ؛ قال له : مالي أرى وجهك قد اصفر؟

أجابه بدر الدِّين : إِنَّ الشَّمس يا مولاي ! تصفرُّ عندما تقترب من الغروب .

وقام علماء الدَّولة بمناظرة علميَّة حرَّة مع بدر الدِّين ، ثم أقيمت محكمةٌ

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص(١٤٠) .
(٢) انظر : العثمانيُّون في التَّاريخ ، والحضارة ، ص(١٤٠) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٤١) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه .
(٥) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٤١ ، ١٤٢) .

شرعيَّةٌ ، وأصدر حكم الإعدام بناءً على فتوى العلماء الَّتي استندت إلى توجيه رسول الله ﷺ : « من أتاكم وأمركم جميعاً على رجلٍ واحدٍ يريد أن يشقَّ عصاكم ويفرِّق جماعتكم ، فاقتلوه »(١) .

إنَّ المذهب الفاسد الَّذي كان يدعو إليه « بدر الدِّين » هو نفس مذهب الماسونيَّة اليهوديَّة المعاصرة « القرن الخامس عشر الهجري / العشرون الميلادي » وهو يقوم على إلغاء الحواجز بين أصحاب العقيدة الإسلاميَّة الصحيحة ، وأصحاب العقائد الفاسدة ؛ إذ إنَّه يقول بالأخوَّة بين المسلمين ، واليهود ، والنَّصارى ، وعبَّاد البقر ، والشُّيوعيين ، وهذا يخالف عقيدة الإسلام التي تؤكد : أنَّه لا أخوَّة بين المسلمين وبين غيرهم من أصحاب العقائد الفاسدة ؛ لأنَّه كيف يكون هناك أخوةٌ بين من يحاربون الله ورسوله ، وبين المؤمنين الموحِّدين(٢) .

كان السلطان محمَّد الأوَّل محباً للشِّعر ، والأدب ، والفنون ، وقيل : هو أوَّل سلطانٍ عثمانيٍّ أرسل الهدية السَّنويَّة إلى أمير مكَّة الَّتي يطلق عليها اسم الصُّرَّة ، وهي عبارة على قدرٍ معيَّنٍ من النقود يرسل إلى الأمير لتوزيعه على فقراء مكَّة ، والمدينة(٣) .

وقد أحبَّ الشَّعبُ العثمانيُّ السُّلطانَ محمَّداً الأوَّل ، وأطلقوا عليه لقب بهلوان « ومعناها البطل » وذلك بسبب نشاطه الجم ، وشجاعته ، كما أنَّ له أعماله العظيمة ، وعبقريته الفذَّة ؛ الَّتي قاد من خلالها الدَّولة العثمانيَّة إلى برِّ الأمان ، كما أنَّ جميل سجاياه ، وسلوكه ، وشهامته ، وحبَّه للعدل ، والحقِّ جعل شعبه يحبُّه ، ويطلق عليه لقب : جلبي أيضاً وهو لقبُ تشريفٍ ، وتكريمٍ فيه معنى الشَّهامة ، والرُّجولة .

حقيقةً إنَّ بعض حكام آل عثمان قد فاقوه شهرةً ، إلا أنَّ بالإمكان اعتباره من أنبل حكَّام العثمانيين ـ فقد اعترف المؤرِّخون الشَّرقيُّون ، واليونانيُّون بإنسانيَّته ، واعتبره المؤرِّخون العثمانيُّون(٤) بمثابة القبطان الماهر ؛ الَّذي حافظ على قيادة

---

(١) مسلم : كتاب الإمارة ، باب : إذا بويع لخليفتين (٣/ ١٤٨٠) ، رقم (١٨٥٢) .
(٢) انظر : أخطاء يجب أن تصحَّح في التَّاريخ (الدَّولة العثمانيَّة) ص(٣٨) .
(٣) انظر : تاريخ الدَّولة العلية العثمانيَّة ، ص(١٥٢) .
(٤) انظر : في أصول التَّاريخ العثماني ، ص(٦٢) .

سفينة الدَّولة العثمانيَّة حين هدَّدها طوفان الغزوات التَّتريَّة ، والحروب الدَّاخلية ، والفتن الباطنيَّة .

●● وفاته :

بعد أن بذل السُّلطان محمَّد الأوَّل قصارى جهده في محو آثار الفتن ؛ الَّتي مرَّت بها الدَّولة العثمانيَّة ، وشروعه في إجراء ترتيباتٍ داخليَّةٍ تضمن عدم حدوث شغبٍ في المستقبل ، وبينما كان السُّلطان مشتغلاً بهذه المهامِّ السَّليمة ، شعر بدنوِّ أجله فدعا الباشا بايزيد ، وقال له : « عيَّنت ابني مراداً خليفةً لي ، فأطعه ، وكن صادقاً معه ، كما كنت معي ، أريد منكم أن تأتوني بمراد الآن ؛ لأنَّني لا أستطيع أن أقوم من الفراش بعدُ . فإن وقع الأمر الإلهي قبل مجيئه حذارِ أن تعلنوا وفاتي حتَّى يأتي »[١] .

وفاجأه الموت في سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م في مدينة أدرنة ، وأسلم روحه لخالقه ، وعمره ٤٣ سنةً .

وخوفاً من حصول ما لا تُحمد عقباه لو عُلم موت السُّلطان محمَّد الأوَّل ؛ اتَّفق وزيراه إبراهيم ، وبايزيد على إخفاء موته على الجند حتَّى يصل ابنه مراد الثَّاني ، فأشاعا : أنَّ السُّلطان مريضٌ ، وأرسلا لابنه ، فحضر بعد واحد وأربعين يوماً ، وتسلَّم مقاليد الحكم[٢] .

ولقد كان السُّلطان محمَّد الأوَّل محبّاً للسَّلام ، والعلم ، والفقهاء ، ولذلك نقل عاصمة الدَّولة من أدرنة « مدينة الغزاة » إلى بروسة « مدينة الفقهاء »[٣] وكان على خُلُقٍ رفيعٍ ، وحزمٍ متينٍ ، وحلمٍ فريدٍ ، وسياسةٍ فذَّةٍ في معاملة الأعداء ، والأصدقاء .

* * *

(١) السَّلاطين العثمانيُّون ، ص(٤١) .
(٢) انظر : تاريخ الدَّولة العليَّة العثمانيَّة ، ص(١٥٢) .
(٣) انظر : في أصول التَّاريخ العثماني ، ص(٦٣) .

المبحث السَّادس

مراد الثَّاني

توَلّى السُّلطان مراد الثَّاني أمر الدَّولة بعد وفاة أبيه « محمَّد جلبي » عام (٨٢٤هـ/ ١٤٢١م) وكان عمره لا يزيد على ثماني عشرة سنةً ، وكان محبّاً للجهاد في سبيل الله ، والدَّعوة إلى الإسلام في ربوع أوربة(١) .

كان معروفاً لدى جميع رعيَّته بالتَّقوى ، والعدالة ، والشَّفقة(٢) ، استطاع السُّلطان مراد أن يقضي على حركات التَّمرُّد الدَّاخليَّة الَّتي قام بها عمُّه مصطفى والَّتي كانت تُدعم من قبل أعداء الدَّولة العثمانيَّة ، وكان الإمبراطور البيزنطي مانويل الثَّاني خلف الدَّسائس ، والمؤامرات ، والمتاعب الَّتي تعرَّض لها السُّلطان مراد ، فهو الَّذي دعم عمَّ السُّلطان مراد الَّذي اسمه مصطفى بالمساعدات حتَّى استطاع أن يحاصر مدينة غاليبولي ابتغاء انتزاعها من السُّلطان ، واتِّخاذها قاعدةً له ، إلا أنَّ السُّلطان مراداً قبض على عمِّه ، وقدَّمه للمشنقة ، ومع ذلك فقد مضى الإمبراطور مانويل الثَّاني يكيد للسُّلطان ، واحتضن شقيقاً لمراد الثاني ، ووضعه على رأس قوَّة استولت على مدينة نيقيا في الأناضول ، وسار إليه مراد ، واستطاع أن يقضي على قوَّاته ، واضطر خصمه للاستسلام ، ثمَّ قتل . ومن ثمَّ صمَّم السُّلطان مراد أن يلقن الإمبراطور درساً عمليَّاً ، فأسرع باحتلال سلونيك ، فهاجمها ، ودخلها عَنْوةً في مارس (١٤٣١م/ ٨٣٣هـ) وأصبحت جزءاً لا يتجزَّأ من الدَّولة العثمانيَّة .

وكان السُّلطان مراد يوجِّه الضَّربات الموجعة لحركات التَّمرُّد في بلاد البلقان ، وحرص على تدعيم الحكم العثمانيِّ في تلك الدِّيار ، واتَّجه الجيش العثمانيُّ نحو الشَّمال لإخضاع إقليم ولاشيا ، وفرض عليه جزيةً سنويَّةً ، واضطرَّ ملك الصِّرب الجديد « ستيف لازار ميتش » إلى الخضوع للعثمانيِّين والدُّخول تحت حكمهم ، وجدَّد ولاءه للسُّلطان ، واتَّجه جيشٌ عثمانيٌّ نحو الجنوب ، حيث قام بتوطيد دعائم

---

(١) انظر : أخطاء يجب أن تصحَّح (الدَّولة العثمانيَّة) ص(٣٨) .

(٢) انظر : السَّلاطين العثمانيُّون ص(٤٣) .

الحكم العثماني في بلاد اليونان .

ولم يلبث السُّلطان أن واصل جهاده الدَّعويَّ ، وقام بالقضاء على العوائق في كلٍّ من ألبانيا ، والمجر .

واستطاع العثمانيُّون أن يفتحوا ألبانيا عام (٨٣٤هـ/ ١٤٣١م) وركَّزوا هجومهم على الجزء الجنوبي من البلاد . أمَّا شمالي ألبانيا ؛ فقد خاض العثمانيُّون فيه جهاداً مريراً ، وتمكَّن الألبانيُّون الشَّماليُّون من القضاء على جيشين عثمانيِّين في جبال ألبانيا ، كما ألحقوا الهزيمة بحملتين عثمانيَّتين متعاقبتين ، كان يقودهما السُّلطان مراد بنفسه ، وتكبَّد العثمانيُّون خسائر فادحةً أثناء عمليَّة الانسحاب ، ووقفت الدُّول النَّصرانية خلف الألبان لدعمهم ضدَّ العثمانيِّين ، وخصوصاً من حكومة البندقيَّة ؛ الَّتي كانت تدرك خطورة الفتح العثماني لهذا الإقليم الهامِّ بشاطئيه ، وموانئه البحريَّة الَّتي تربط البندقيَّة بحوض البحر المتوسط ، والعالم الخارجي ، وأنَّهم في استطاعتهم حجز سفن البنادقة داخل بحرٍ مغلقٍ هو بحر الأدرياتيك . وهكذا لم يشهد السُّلطان مراد الثاني استقراراً للحكم العثماني في ألبانيا[1] .

وأمَّا ما يتعلَّق بجبهة المجر ؛ فقد استطاع العثمانيُّون في عام (٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م) أن يهزموا المجريِّين ، ويأسروا منهم سبعين ألف جنديٍّ ، وأن يستولوا على بعض المواقع ، ثمَّ تقدَّم لفتح بلغراد عاصمة الصِّرب ، ولكنه أخفق في محاولته ، وسرعان ما تكوَّن حلف صليبيٌّ كبير باركه البابا ، واستهدف هذا الحلف طرد العثمانيين من أوربة كليَّة ، وشمل الحلف البابوية ، والمجر ، وبولندا ، والصِّرب ، وبلاد الأفلاق ، وجنوة ، والبندقية ، والإمبراطوريَّة البيزنطيَّة ، ودوقية برجنديا ، وانضمَّت إلى الحلف أيضاً كتائب من الألمان ، والتّشيك . وأُعطيت قيادة قوات الحلف الصَّليبيِّ إلى قائدٍ مجريٍّ قديرٍ هو : يوحنَّا هنيادي .

وقد قاد هنيادي القوَّات الصَّليبيَّة البرِّيَّة ، وزحف جنوباً واجتاز الدَّانوب ، وأوقع بالعثمانيِّين هزيمتين فادحتين عام (٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م) واضطرَّ العثمانيُّون إلى طلب الصُّلح[2] وأبرمت معاهدة صلح لمدة عشر سنوات في « سيزجادن » وذلك في

---

(١) انظر : الدولة العثمانيَّة في التَّاريخ الإسلامي الحديث ، ص(٤٦) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

شهر يوليو عام (٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م) تنازل فيها عن الصِّرب ، واعترف « بجورج برانكوفيتش » أميراً عليها . كما تنازل السُّلطان مراد عن الأفلاق للمجر ، وافتدى زوج ابنته « محمود شلبي » الَّذي كان قائداً عاماً للجيوش العثمانيَّة ، بمبلغ ٦٠ ألف دوقية . وقد حُرِّرت هذه المعاهدة باللُّغتين العثمانيَّة ، والمجريَّة ، وأقسم « لاديسلاسي » ملك المجر على الإنجيل ، كما أقسم السُّلطان مراد بالقرآن على أن تراعى شروط المعاهدة بذمَّةٍ ، وشرفٍ .

وحين فرغ مراد من عقد الهدنة مع أعدائه الأوربيِّين ؛ عاد إلى الأناضول ، وفجع بموت ابنه الأمير علاء ، واشتدَّ حزنه عليه ، وزهد في الدُّنيا ، والملك ، ونزل عن السَّلطنة لابنه محمَّد ، وكان إذ ذاك في الرَّابعة عشرة من عمره ، ولصغر سنِّه أحاطه والده ببعض أهل الرَّأي والنَّظر من رجال دولته ، ثمَّ ذهب إلى مغنيسيا في آسيا الصُّغرى ليقضي بقيَّة حياته في عزلةٍ ، وطمأنينةٍ ، ويتفرَّغ في هذه الخلوة إلى عبادة الله ، والتأمُّل في ملكوته بعد أن اطمأنَّ إلى استتباب الأمن ، والسَّلام في أرجاء دولته ، ولم يستمتع السُّلطان طويلاً بهذه الخلوة ، والعبادة[١] حيث قام الكاردينال سيزاريني وبعض أعوانه بالدَّعوة إلى نقض العهود مع العثمانيِّين ، وطردهم عن أوربة ، خصوصاً وأنَّ العرش العثمانيَّ قد تركه السُّلطان مراد لابنه الفتى الَّذي لا خبرة له ، ولا خطر منه ، وقد اقتنع البابا أوجين الرَّابع بهذه الفكرة الشَّيطانيَّة[٢] ، وطلب من النَّصارى نقض العهد ، ومهاجمة المسلمين ، وبيَّن للنَّصارى : أنَّ المعاهدة الَّتي عقدت مع المسلمين باطلةٌ ؛ لأنَّها عقدت بدون إذن البابا وكيل المسيح في الأرض ، وكان الكاردينال سيزاريني عظيم النَّشاط ، دائم الحركة ، لا يكلُّ عن العمل ، يجدُّ ، ويسعى للقضاء على العثمانيِّين ، ولذلك كان يزور ملوك النَّصارى ، ويحرِّضهم على نقض المعاهدة مع المسلمين ، ويقنع كلَّ من يعترض عليه نكث المعاهدة ، ويقول له : إنَّه باسم البابا يبرئ ذمَّتهم من نكثها ، ويبارك جنودهم ، وأسلحتهم ، وعليهم أن يتَّبعوا طريقه ، فإنه طريق المجد ،

---

(١) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(٤٢ ، ٤٣) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ص(٤٣) .

والخلاص، ومن نازعه ضميره بعد ذلك، وخشي الإثم فإِنَّه يحمل عنه وزره، وإثمه[١].

لقد نقض النَّصارى عهودهم، وحشدوا الجيوش لمحاربة المسلمين، وحاصروا مدينة « فارنا » البلغاريَّة الواقعة على ساحل البحر الأسود، والَّتي كانت قد تحرَّرت على أيدي المسلمين، ونقض العهود هو سَمْتٌ ظاهرٌ لأعداء هذا الدِّين، ولذلك أوجب الله سبحانه وتعالى على المسلمين قتالهم، يقول سبحانه: ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢].

لا عهود، ولا مواثيق يرعونها، كما هو طابعهم دائماً. إِنَّهم لا يتورَّعون عن مهاجمة أيِّ أمَّةٍ، أيِّ إِنسانٍ يلمحون فيه ضعفاً، يقتلون، ويذبحون[٢] وصدق الله القائل في تصويرهم: ﴿ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ﴾ [التوبة: ١٠].

وعندما تحرَّك النَّصارى، وزحفوا نحو الدَّولة العثمانيَّة، وسمع المسلمون في أدرنة بحركة الصَّليبيِّين، وزحفهم؛ انتابهم الفزع، والرُّعب، وبعث رجال الدَّولة إِلى السُّلطان مراد يستعجلون قدومه لمواجهة هذا الخطر، وخرج السُّلطان المجاهد من خلوته ليقود جيوش العثمانيِّين ضدَّ الخطر الصَّليبي. واستطاع مراد أن يتَّفق مع الأسطول الجنوي لينقل أربعين ألفاً من الجيش العثمانيِّ من آسيا إِلى أوربة تحت سمع الأسطول الصَّليبي، وبصره في مقابل دينار لكلِّ جندي.

وأسرع السُّلطان مراد في السير، فوصل وارنه في نفس اليوم الَّذي وصل فيه الصَّليبيُّون، وفي اليوم التَّالي نشبت المعركة بين الجيشين النَّصرانيِّ، والإِسلاميِّ، وكانت عنيفةً حاميةً، وقد وضع السُّلطان مراد المعاهدة الَّتي نقضها أعداؤها على رأس رمح ليشهدهم، ويشهد السَّماء والأرض على الغدر والعدوان، وليزيد حماس جنده[٣].

واقتتل الفريقان، ودارت بينهما معركةٌ رهيبةٌ كاد يكون فيها النَّصر للنَّصارى نتيجة حميَّتهم الدِّينيَّة، وحماسهم الزَّائد، إِلا أنَّ تلك الحميَّة، والحماس الزَّائد

---

(١) انظر: المصدر السَّابق، ص(٤٤).
(٢) انظر: أخطاء يجب أن تصحَّح (الدَّولة العثمانيَّة) ص(٤١).
(٣) انظر: محمَّد الفاتح، د. سالم الرَّشيدي، ص(٤٥).

اصطدم بالرُّوح الجهاديَّة لدى العثمانيِّين ، والتقى الملك « لاديسلاس » ناقض العهود مع السُّلطان مراد الوفي بالعهود وجهاً لوجه ، واقتتلا ، ودارت بينهما معركة رهيبةٌ تمكَّن السلطان المسلم من قتل الملك المجريِّ النَّصرانيِّ ، فقد عاجله بضربةٍ قويَّةٍ من رمحه أسقطته من على ظهر جواده ، فأسرع بعض المجاهدين ، وحزُّوا رأسه ، ورفعوه على رمحٍ مهلِّلين مكبِّرين ، وفرحين[١] ، وصاح أحد المجاهدين في العدِّو : « أيُّها الكفَّار ! هذا رأس ملككم » .

وكان لذلك المنظر أثرٌ شديدٌ على جموع النَّصارى ، فاستحوذ عليهم الفزع ، والهلع ، فحمل عليهم المسلمون حملةً قويَّةً بدَّدت شملهم ، وهزموهم شرَّ هزيمةٍ ، وولَّى النَّصارى مدبرين ، يدفع بعضهم بعضاً ، ولم يطارد السُّلطان مراد عدوَّه ، واكتفى بهذا الحدِّ من النَّصر ، وإنَّه لنصرٌ عظيم[٢] .

كانت هذه المعركة في سهول قوصوه في ١٧ أكتوبر (٨٥٢هـ/١٤٤٨م) واستمرَّت المعركة ثلاثة أيام ، وانتهت بفوز ساحق للعثمانيِّين . وقد أخرجت هذه المعركة بلاد المجر لعشر سنوات على الأقل من عداد الدُّول التي تستطيع النهوض بعملياتٍ حربيَّةٍ هجوميَّة ضدَّ العثمانيِّين[٣] .

ولم تفارق السُّلطان مراداً زهادته في الدُّنيا ، والملك ، فنزل عن العرش مرَّةً أخرى لابنه محمَّد ، وعاد إلى عزلته في مغنيسيا كما يعود الأسد المنتصر إلى عرينه .

ولقد ذكر لنا التَّاريخ مجموعة من الملوك ، والحكَّام الَّذين نزلوا عن عروشهم ، وانقطعوا عن النَّاس ، وأبهة الملك إلى العزلة ، وأنَّ بعض هؤلاء الملوك قد عادوا إلى العرش ، ولكن لم يُذكر لنا أحدٌ منهم نزل عن العرش مرَّتين غير السُّلطان مراد، فإنَّه لم يكد يذهب إلى معتزله بآسيا الصُّغرى حتَّى ثار الإنكشاريَّة في أدرنة ، وشغبوا ، وهاجوا ، وماجوا ، وتمرَّدوا ، وطغوا ، وأفسدوا ، وكان السُّلطان محمَّد فتى يافعاً حديث السِّنِّ ، وخشي بعض رجال الدَّولة أن يستفحل الأمر ، ويعظم الخطر ، ويتفاقم الشَّرُّ ، وتسوء العاقبة ، فبعثوا إلى السُّلطان مراد يستقدمونه

---

(١) انظر : محمَّد الفاتح ، د . عبد السلام عبد العزيز ، ص(٢٢) .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص(٤٦) .
(٣) انظر : الدَّولة العثمانيَّة في التَّاريخ الإسلامي الحديث ، ص(٤٧) .

ليتولَّى الأمر بنفسه[١]، وجاء السُّلطان مراد، وقبض على زمام الأمر، وخضع له الإنكشاريَّة، وأرسل ابنه محمَّداً إلى مغنيسيا حاكماً عليها بالأناضول، وبقي السُّلطان مراد الثاني على العرش العثمانيِّ إلى آخر يومٍ في حياته، وقد قضاها في الغزو، والفتح[٢].

أولاً : مراد الثَّاني وحبُّه للشُّعراء ، والعلماء ، وفعل الخير :

يقول محمَّد حرب : « مراد الثاني ـ وإن كان مقلاً ، وكان ما لدينا من شعره قليلاً ـ لصاحب فضلٍ على الأدب والشِّعر لا يجحد ، لأنَّ نعمه حلَّت على الشُّعراء الَّذين كان يدعوهم إلى مجلسه يومين في كلِّ أسبوعٍ ليقولوا ما عندهم ، ويأخذوا بأطراف الأحاديث والأسمار بينهم وبين السُّلطان ، فيستحسن ، أو يستهجن ، ويختار ، أو يطرح ، وكثيراً ما كان يسدُّ عوز المعوزين منهم بنائلة الغمر ، أو بإيجاد حرفةٍ لهم تدرُّ الرِّزق عليهم حتَّى يفرغوا من هموم العيش ، ويتوفَّروا على قول الشِّعر ، وقد أنجب عصره كثيراً من الشُّعراء »[٣] .

لقد حوَّل القصر الحاكم إلى نوع من الأكاديميَّة العلميَّة ، ووصل به الأمر أن كان الشُّعراء يرافقونه في جهاده[٤] .

ومن أشعاره : « تعالوا نذكر الله لأنَّنا لسنا بدائمين في الدُّنيا »[٥] . كان سلطاناً عالماً ، عاقلاً ، عادلاً ، شجاعاً ، وكان يرسل لأهالي الحرمين الشَّريفين ، وبيت المقدس من خاصَّة ماله في كل عام ثلاثة آلاف وخمسمئة دينارٍ ، وكان يُعنى بشأن العلم ، والعلماء ، والمشايخ ، والصُّلحاء ، مهَّد الممالك ، وأمَّن السُّبل ، وأقام الشَّرع ، والدِّين ، وأذلَّ الكفَّار ، والملحدين[٦] ، وقال عنه يوسف آصاف : « كان تقيّاً صالحاً ، وبطلاً صنديداً ، محبّاً للخير ، ميّالاً للرَّأفة ، والإحسان »[٧] .

---

(١) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(٤٧) .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص(٢٣) .
(٣) العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، ص(٢٤٦) .
(٤) المصدر السابق نفسه .
(٥) السَّلاطين العثمانيُّون ، الكتاب المصوَّر ، ص(٤٣) .
(٦) انظر : تاريخ سلاطين آل عثمان للقرماني ، ص(٢٥) .
(٧) تاريخ سلاطين آل عثمان ، ص(٥٥) .

ثانياً : وفاته ، ووصيته :

قال صاحب النُّجوم الزَّاهرة : في وفيات عام (٨٥٥هـ) في مراد الثاني : « وكان خير ملوك زمانه شرقاً ، وغرباً ، ممَّا اشتمل عليه من العقل ، والحزم ، والعزم ، والكرم ، والشَّجاعة ، والسُّؤدد ، وأفنى عمره في الجهاد في سبيل الله تعالى ، وغزا عدَّة غزواتٍ ، وفتح عدَّة فتوحاتٍ ، وملك الحصون المنيعة ، والقلاع ، والمدن من العدوِّ المخذول . على أنَّه كان منهمكاً في اللَّذات الَّتي تهواها النُّفوس ، ولعلَّ حاله كقول بعض الأخيار ـ وقد سئل عن دينه ـ فقال : أُمزِّقه بالمعاصي ، وأُرقِّعه بالاستغفار ، فهو أحقُّ بعفو الله وكرمه ، فإنَّ له المواقف المشهورة ، وله اليد البيضاء في الإسلام ونكاية العدوِّ حتَّى قيل عنه : إنَّه كان سياجاً للإسلام والمسلمين ـ عفا الله عنه ، وعوَّض شبابه الجنَّة . . . »[(١)] .

توفي السُّلطان في قصر أدرنة عن عمرٍ يناهز ٤٧ عاماً ، وبناءً على وصيَّته ـ رحمه الله ـ دفن في جانب جامع مرادية في بورصة ، ووصَّى بأن لا يبنى على قبره شيءٌ ، وأن يعمل أماكن في جوانب القبر يجلس فيها الحفَّاظ لقراءة القرآن الكريم ، وأن يدفن في يوم الجمعة ، فنفِّذت وصيَّته[(٢)] .

وترك في وصيَّته شعراً ، بعد أن كان قلقاً يخشى أن يدفن في قبر ضخم ، وكان يريد ألا يبنى شيءٌ على مكان دفنه ، فكتبها شعراً ليقول : فليأتِ يومٌ يرى النَّاس فيه ترابي[(٣)] .

لقد قام السُّلطان مراد ببناء جوامع ، ومدارس ، وقصوراً ، وقناطر ، فمنها جامع أدرنة ذو ثلاثة شرف ، وبنى بجانب هذا الجامع مدرسةً ، وتكيَّةً يطعم فيها الفقراء ، والمساكين[(٤)] .

* * *

(١) النُّجوم الزَّاهرة (١٦/ ٣) لجمال الدِّين أبي المحاسن يوسف بن تغري .
(٢) انظر : السَّلاطين العثمانيُّون ، ص(٤٣) .
(٣) انظر : العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، ص(٢٤٦) .
(٤) انظر : السَّلاطين العثمانيُّون ، ص(٤٣) .

الفصل الثَّالث

محمَّد الفاتح وفتح القسطنطينيَّة

المبحث الأوَّل

السُّلطان محمَّد الفاتح

هو السُّلطان محمَّد الثَّاني (٨٣٣ ـ ٨٨٦هـ/ ١٤٢٩ ـ ١٤٨١م) ، ويعتبر السُّلطان العثماني السَّابع في سلسلة آل عثمان يلقَّب بالفاتح ، وأبي الخيرات . حكم ما يقرب من ثلاثين عاماً كانت خيراً وعزَّةً للمسلمين[1] . تولَّى حكم الدَّولة العثمانيَّة بعد وفاة والده في ١٦ محرم عام ٨٥٥هـ الموافق ١٨ فبراير عام ١٤٥١م ، وكان عمره آنذاك ٢٢ سنة ، ولقد امتاز السُّلطان محمَّد الفاتح بشخصيَّةٍ فذَّةٍ ، جمعت بين القوَّة ، والعدل ، كما أنَّه فاق أقرانه منذ حداثته في كثيرٍ من العلوم الَّتي كان يتلقَّاها في مدرسة الأمراء ، وخاصَّةً معرفته لكثيرٍ من لغات عصره ، وميله الشَّديد لدراسة كتب التَّاريخ ، ممَّا ساعده فيما بعد على إِبراز شخصيته في الإِدارة ، وميادين القتال ؛ حتَّى أنَّه اشتهر أخيراً في التَّاريخ بلقب محمد الفاتح ، لفتحه القسطنطينيَّة .

ولقد انتهج المنهج الَّذي سار عليه والده ، وأجداده في الفتوحات ، ولقد برز بعد تولِّيه السُّلطة في الدَّولة العثمانية بقيامه بإِعادة تنظيم إِدارات الدَّولة المختلفة ، واهتمَّ كثيراً بالأمور الماليَّة ، فعمل على تحديد موارد الدَّولة ، وطرق الصَّرف منها بشكلٍ يمنع الإِسراف ، والبذخ ، أو التَّرف . وكذلك ركَّز على تطوير كتائب الجيش ، وأعاد تنظيمها ، ووضع سجلات خاصَّةً بالجند ، وزاد من مرتَّباتهم ، وأمدَّهم بأحدث الأسلحة المتوافرة في ذلك العصر . وعمل على تطوير إِدارة الأقاليم ، وأقرَّ بعض الولاة السَّابقين في أقاليمهم ، وعزل من ظهر منه تقصيرٌ ، أو إِهمالٌ ، وطوَّر البلاط السُّلطانيَّ ، وأمدَّهم بالخبرات الإِداريَّة ، والعسكريَّة الجيِّدة

---

(١) انظر : العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، ص(٢٥٣) .

ممَّا ساهم في استقرار الدَّولة ، والتقدُّم إلى الأمام ، وبعد أن قطع أشواطاً مثمرةً في الإصلاح الدَّاخليِّ ؛ تطلَّع إلى المناطق المسيحيَّة في أوربة لفتحها ، ونشر الإسلام فيها ، ولقد ساعدته عوامل عدَّةٌ في تحقيق أهدافه ، منها : الضَّعف الَّذي وصلت إليه الإمبراطورية البيزنطيَّة بسبب المنازعات مع الدُّول الأوربيَّة الأخرى ، وكذلك بسبب الخلافات الدَّاخلية؛ الَّتي عمَّت جميع مناطقها، ومدنها، ولم يكتف السُّلطان محمَّد بذلك ، بل إنَّه عمل بجدٍّ من أجل أن يتوِّج انتصاراته بفتح القسطنطينيَّة عاصمة الإمبراطورية البيزنطيَّة ، والمعقل الاستراتيجيِّ الهامِّ للتَّحرُّكات الصَّليبيَّة ضدَّ العالم الإسلامي لفترةٍ طويلةٍ من الزَّمن، والَّتي طالما اعتزَّت بها الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة بصورةٍ خاصَّةٍ ، والمسيحيَّة بصورةٍ عامَّةٍ ، وجعلها عاصمةً للدَّولة العثمانيَّة، وتحقيق ماعجز عن تحقيقه أسلافه من قادة الجيوش الإسلاميَّة(١) .

أولاً : فتح القسطنطينيَّة :

تعدُّ القسطنطينيَّة من أهمِّ المدن العالميَّة ، وقد أُسِّست في عام (٣٣٠م) على يد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الأوَّل(٢) . وقد كان لها موقعٌ عالميٌّ فريدٌ ، حتَّى قيل عنها : « لو كانت الدُّنيا مملكةً واحدةً ؛ لكانت القسطنطينيَّة أصلح المدن ؛ لتكون عاصمةً لها »(٣) . ومنذ تأسيسها فقد اتَّخذها البيزنطيُّون عاصمةً لهم ، وهي من أكبر المدن في العالم ، وأهمِّها(٤) .

عندما دخل المسلمون في جهادٍ مع الدَّولة البيزنطيَّة كان لهذه المدينة مكانتها الخاصَّة في ذلك الصِّراع ، ولذلك فقد بشَّر الرسول ﷺ أصحابه بفتحها في عدَّة مواقف ، من ذلك ما حدث أثناء غزوة الخندق(٥) ، ولهذا فقد تنافس خلفاء المسلمين وقادتهم على فتحها عبر العصور المختلفة طمعاً في أن يتحقَّق فيهم حديث

---

(١) انظر : قيام الدَّولة العثمانيَّة ، ص(٤٣) .
(٢) انظر : أوربة في العصور الوسطى ، سعيد عاشور . ص(٢٩) .
(٣) فتح القسطنطينيَّة وسيرة السُّلطان محمد الفاتح ، د . محمد مصطفى ، ص(٣٦ ـ ٤٦) .
(٤) المجتمع المدني (الجهاد ضدَّ المشركين) د . أكرم ضياء العمري ، ص(١١٥) .
(٥) أحمد في مسنده (٤/ ٣٣٥) .

الرسول ﷺ : « **لتفتحنَّ القسطنطينية على يد رجلٍ ، فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش !** »[1] .

لذلك فقد امتدَّت إليها يد القوّات المسلمة المجاهدة منذ أيّام معاوية بن أبي سفيان في أولى الحملات الإسلاميّة عليها سنة ٤٤هـ ولم تنجح هذه الحملة ، وقد تكرّرت حملاتٌ أخرى في عهده ، حظيت بنفس النّتيجة .

كما قامت الدّولة الأمويّة بمحاولةٍ أخرى لفتح القسطنطينيّة ، وتعدُّ هذه الحملة أقوى الحملات الأمويّة عليها ، وهي تلك الحملة الّتي تمّت في أيّام سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨هـ[2] .

واستمرَّت المحاولة لفتح القسطنطينيّة حيث شهد العصر العباسيُّ الأوَّل حملاتٍ جهاديّةً مكثَّفةً ضدَّ الدّولة البيزنطيّة ، ولكنّها لم تتمكّن من الوصول إلى القسطنطينيّة نفسها وتهديدها ؛ مع أنّها هزّتها ، وأثّرت على الأحداث داخلها ، وبخاصّةٍ تلك الحملة الّتي تمّت في أيام هارون الرّشيد[3] سنة ١٩٠هـ .

وقد قامت فيما بعد عدّة دويلاتٍ إسلاميّة في آسيا الصُّغرى ، كان من أهمّها دولة السّلاجقة الّتي امتدت سلطتها إلى آسيا الصُّغرى . كما أنَّ زعيمها ألب أرسلان (٤٥٥ ـ ٤٦٥هـ/ ١٠٦٣ ـ ١٠٧٢م) استطاع أن يهزم إمبراطور الرُّوم ديمونوس في موقعة ملاذ كرد عام (٤٦٤هـ/ ١٠٧٠م) ثمَّ أسره ، وضربه ، وسجنه ، وبعد مدّةٍ أطلق سراحه بعد أن تعهّد بدفع جزيةٍ سنويّةٍ للسُّلطان السّلجوقي ، وهذا يمثّل خضوع جزءٍ كبيرٍ من إمبراطورية الرُّوم للدّولة الإسلاميّة السّلجوقيّة ، وبعد ضعف دولة السّلاجقة الكبرى ظهرت عدّة دول سلجوقيّة كان منها دولة سلاجقة الرُّوم في آسيا الصُّغرى ، والّتي استطاعت مدَّ سلطتها إلى سواحل بحر إيجة غرباً وإضعاف الإمبراطوريّة الرومانيّة .

---

(١) المصدر السّابق نفسه (٤/ ٣٣٥) .
(٢) ابن خلدون : العبر (٣/ ٧٠) تاريخ خليفة بن خيّاط ، ص(٣١٥) .
(٣) خليفة بن خياط ، تاريخه ص(٤٥٨) ، تاريخ الطّبري (١٠/ ٦٩) ، ابن الأثير : الكامل (٦/ ١٨٥ ، ١٨٦) .

وفي مطلع القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر الميلادي خلف العثمانيُّون سلاجقة الرُّوم[١] ، وتجدَّدت المحاولات الإسلاميَّة لفتح القسطنطينيَّة ، وكانت البداية حين جرت محاولة لفتحها في أيَّام السُّلطان بايزيد « الصَّاعقة » الَّذي تمكَّنت قوَّاته من محاصرتها بقوَّةٍ سنة (٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م)[٢] ، وأخذ السُّلطان يفاوض الإمبراطور البيزنطي لتسليم المدينة سلماً إلى المسلمين ، ولكنَّه أخذ يراوغ ، ويماطل ، ويحاول طلب المساعدات الأوربيَّة لصدِّ الهجوم الإسلامي عن القسطنطينيَّة ، وفي الوقت نفسه وصلت جيوش المغول يقودها تيمورلنك إلى داخل الأراضي العثمانيَّة ، وأخذت تعيث فساداً ، فاضطر السُّلطان بايزيد لسحب قوَّاته ، وفك الحصار عن القسطنطينيَّة لمواجهة المغول بنفسه ، ومعه بقيَّة القوَّات العثمانيَّة ، حيث دارت بين الطَّرفين معركة أنقرة الشَّهيرة ، والَّتي أسر فيها بايزيد « الصَّاعقة » ثمَّ مات بعد ذلك في الأسر سنة (١٤٠٢م)[٣] ، وكان نتيجة ذلك أن تفكَّكت الدَّولة العثمانيَّة مؤقَّتاً ، وتوقَّف التَّفكير في فتح القسطنطينيَّة إلى حين .

وما إن استقرَّت الأحوال في الدولة ؛ حتَّى عادت روح الجهاد من جديدٍ ، ففي أيَّام السُّلطان مراد الثاني الَّذي تولى الحكم في الفترة (٨٢٤هـ ـ ٨٦٣هـ/ ١٤٢١م ـ ١٤٥١م) جرت عدَّة محاولات لفتح القسطنطينيَّة ، وتمكَّنت جيوش العثمانيين في أيَّامه من محاصرتها أكثر من مرَّةٍ ، وكان الإمبراطور البيزنطيُّ في أثناء تلك المحاولات يعمل على إيقاع الفتنة في صفوف العثمانيِّين بدعم الخارجين على السُّلطان[٤] ، وبهذه الطَّريقة نجح في إشغاله عن هدفه الَّذي حرص عليه ، فلم يتمكَّن العثمانيُّون من تحقيق ما كانوا يطمحون إليه في زمن ابنه محمَّد الفاتح فيما بعد .

كان محمد الفاتح يمارس الأعمال السُّلطانيَّة في حياة أبيه ، ومنذ تلك الفترة وهو يعايش صراع الدَّولة البيزنطيَّة في الظُّروف المختلفة ، كما كان على اطلاعٍ تامٍّ

---

(١) قيام الدولة العثمانيَّة ، ص(٤٦) .
(٢) تاريخ سلاطين آل عثمان ، ص(١٨) .
(٣) انظر : الفتوح الإسلاميَّة عبر العصور ، د . عبد العزيز العمري ، ص(٣٥٨) .
(٤) المصدر السابق نفسه .

بالمحاولات العثمانيَّة السَّابقة لفتح القسطنطينيَّة ، بل ويعلم بما سبقها من محاولاتٍ متكرِّرةٍ في العصور الإسلاميَّة المختلفة ، وبالتَّالي فمنذ أن ولي السَّلطنة العثمانيَّة سنة (٨٥٥هـ الموافق ١٤٥١م)[١] كان يتطلَّع إلى فتح القسطنطينيَّة ، ويفكِّر في فتحها ، ولقد ساهمت تربية العلماء على تنشئته على حبِّ الإسلام ، والإيمان ، والعمل بالقرآن ، وسنَّة سيِّد الأنام ، ولذلك نشأ على حبِّ الالتزام بالشَّريعة الإسلاميَّة ، واتَّصف بالتُّقى ، والورع ، ومحبّاً للعلم ، والعلماء ، ومشجعاً على نشر العلوم ، ويعود تديُّنه الرَّفيع للتَّربية الإسلاميَّة الرَّشيدة الَّتي تلقَّاها منذ الصِّغر بتوجيهاتٍ من والده ، وجهود الشَّخصيات العلميَّة القويَّة الَّتي أشرفت على تربيته ، وصفاء أولئك الأساتذة الكبار ، وعزوفهم عن الدُّنيا ، وابتعادهم عن الغرور ، ومجاهدتهم لأنفسهم ، ممَّن أشرفوا على رعايته[٢] .

لقد تأثَّر محمَّد الفاتح بالعلماء الرَّبَّانيِّين منذ طفولته ، ومن أخصِّهم العالم الرَّبَّاني « أحمد بن إسماعيل الكوراني » وهو مشهودٌ له بالفضيلة التَّامَّة ، وكان مدرِّسه في عهد السُّلطان « مراد الثاني » والد « الفاتح » . وفي ذلك الوقت كان محمَّد الثَّاني ـ الفاتح ـ أميراً في بلدة « مغنيسيا » وقد أرسل إليه والده عدداً من المعلِّمين ، ولم يمتثل أمرهم ، ولم يقرأ شيئاً حتَّى أنَّه لم يختم القرآن الكريم ، فطلب السُّلطان المذكور رجلاً له مهابةٌ ، وحدَّةٌ ، فذكروا له المولى « الكوراني » فجعله معلِّماً لولده ، وأعطاه قضيباً يضربه بذلك إذا خالف أمره . فذهب إليه ، فدخل عليه ، والقضيب بيده ، فقال : أرسلني والدك للتَّعليم ، والضَّرب إذا خالفت أمري ، فضحك السُّلطان محمَّد خان من ذلك الكلام ، فضربه المولى الكوراني في ذلك المجلس ضرباً شديداً حتَّى خاف منه السُّلطان محمَّد خان ، وختم القرآن في مدَّةٍ يسيرةٍ[٣] .

هذه التَّربية الإسلاميَّة الصَّادقة ، وهؤلاء المربُّون الأفاضل ممَّن كان منهم

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٣٥٩) .
(٢) انظر : تاريخ الدولة العثمانيَّة ، د . علي حسون ص(٤٢) .
(٣) كتاب الشَّقائق النعمانيَّة في علماء الدَّولة العثمانيَّة ، ص(٥٢) نقلاً عن تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، ص(٤٣) ، .

بالأخصِّ هذا العالم الفاضل ، ممَّن يمزِّق الأمر السُّلطاني إِذا وجد به مخالفةً للشَّرع ، أو لا ينحني للسُّلطان ، ويخاطبه باسمه ، ويصافحه ، ولا يقبِّل يده ، بل السُّلطان يقبِّل يده من الطَّبيعي أن يتخرَّج من بين جنباتها أناسٌ عظماء كمحمَّد الفاتح ، وأن يكون مسلماً مؤمناً ملتزماً بحدود الشَّريعة ، مقيَّداً بالأوامر ، والنَّواهي معظماً لها ، ومدافعاً عن إجراءات تطبيقها على نفسه أوَّلاً ، ثمَّ على رعيته ، تقيَّاً صالحاً يطلب الدُّعاء من العلماء العاملين الصَّالحين[١] .

وبرز دور الشَّيخ آق شمس الدِّين في تكوين شخصيَّة محمد الفاتح ، وبث فيه منذ صغره أمرين هما :

١ ـ مضاعفة حركة الجهاد العثمانيَّة .

٢ ـ الإِيحاء دوماً لمحمَّد منذ صغره بأنَّه الأمير المقصود بالحديث النَّبويِّ : « **لتفتحن القسطنطينيَّة ، فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش !** »[٢] لذلك كان الفاتح يطمع أن ينطبق عليه حديث رسول الله ﷺ المذكور[٣] .

ثانياً : الإعداد للفتح :

بذل السُّلطان محمَّد الثاني جهوده المختلفة للتَّخطيط ، والتَّرتيب لفتح القسطنطينيَّة ، وبذل في ذلك جهوداً كبيرةً في تقوية الجيش العثمانيِّ بالقوى البشريَّة حتَّى وصل تعداده إلى قرابة ربع مليون مجاهد[٤] وهذا عددٌ كبيرٌ مقارنةً بجيوش الدُّول في تلك الفترة ، كما عُني عنايةً خاصَّة بتدريب تلك الجموع على فنون القتال المختلفة ، وبمختلف أنواع الأسلحة الَّتي تؤهِّلهم للعمليَّة الجهادية المنتظرة ، كما اعتنى الفاتح بإِعدادهم إعداداً معنوياً قويّاً ، وغرس روح الجهاد فيهم ، وتذكيرهم بثناء الرَّسول ﷺ على الجيش الذي يفتح القسطنطينيَّة ، وعسى أن يكونوا هم الجيش المقصود بذلك ، ممَّا أعطاهم قوَّةً معنويَّةً ، وشجاعةً منقطعة النَّظير . كما كان

---

(١) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، د . علي حسون ص(٤٣) .
(٢) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٣٣٥) .
(٣) انظر : الفتوح الإِسلاميَّة عبر العصور ، ص(٣٥٩) .
(٤) انظر : تاريخ الدَّولة العليَّة العثمانيَّة ، محمَّد فريد بك ص(١٦١) .

لانتشار العلماء بين الجنود أثرٌ كبيرٌ في تقوية عزائم الجنود ، وربطهم بالجهاد الحقيقيِّ وفق أوامر الله .

وقد اعتنى السُّلطان بإقامة قلعة « روملي حصار » في الجانب الأوربي على مضيق البسفور في أضيق نقطةٍ منه مقابل القلعة الَّتي أسِّست في عهد السُّلطان بايزيد في البرِّ الآسيوي ، وقد حاول الإمبراطور البيزنطي إثناء السُّلطان الفاتح عن بناء القلعة مقابل التزامات ماليَّة تعهَّد بها إلا أنَّ الفاتح أصرَّ على البناء ؛ لما يعلمه من أهميَّةٍ عسكريَّةٍ لهذا الموقع ، حتى اكتملت قلعةً عاليةً ، ومحصَّنةً ، وصل ارتفاعها إلى ٨٢ متراً ، وأصبحت القلعتان متقابلتين ولا يفصل بينهما سوى ٦٦٠م تتحكَّمان في عبور السُّفن من شرقيِّ البسفور إلى غربيِّه ، وتستطيع نيران مدافعهما منع أيِّ سفينةٍ من الوصول إلى القسطنطينيَّة من المناطق الَّتي تقع شرقها ، مثل مملكة طرابزون ، وغيرها من الأماكن الَّتي تستطيع دعم المدينة عند الحاجة[١] .

(أ) اهتمام السُّلطان بجمع الأسلحة الَّلازمة :

اعتنى السُّلطان عنايةً خاصَّةً بجمع الأسلحة اللازمة لفتح القسطنطينيَّة ، ومن أهمِّها المدافع الَّتي أخذت اهتماماً خاصَّاً منه ، حيث أحضر مهندساً مجريَّاً يُدعى « أوربان » كان بارعاً في صناعة المدافع ، فأحسن استقباله ، ووفَّر له جميع الإمكانيَّات الماليَّة ، والمادِّيَّة ، والبشريَّة ، وقد تمكَّن هذا المهندس من تصميم وتنفيذ العديد من المدافع الضَّخمة كان على رأسها المدفع السُّلطانيُّ المشهور ، والَّذي ذكر : أنَّ وزنه كان يصل إلى مئات الأطنان ، وأنَّه يحتاج إلىٰ مئات الثِّيران القويَّة لتحريكه ، وقد أشرف السُّلطان بنفسه على صناعة هذه المدافع ، وتجريبها[٢] .

(ب) الاهتمام بالأسطول :

ويضاف إلى هذا الاستعداد ما بذله الفاتح من عنايةٍ خاصَّةٍ بالأسطول العثماني ،

(١) انظر : سلاطين آل عثمان ، ص(٢٦) .
(٢) انظر : الفتوح الإسلاميَّة عبر العصور ، ص(٣٦١) .

حيث عمل على تقويته ، وتزويده بالسُّفن المختلفة ؛ ليكون مؤهَّلاً للقيام بدوره في الهجوم على القسطنطينيَّة ، تلك المدينة البحريَّة الَّتي لا يكمل حصارها دون وجود قوَّةٍ بحريَّةٍ تقوم بهذه المهمَّة ، وقد ذكر أنَّ السُّفن الَّتي أُعدَّت لهذا الأمر بلغت أكثر من أربعمئة سفينةٍ[١] .

(جـ) عقد معاهدات :

كما عمل الفاتح قبل هجومه على القسطنطينيَّة على عقد معاهداتٍ مع أعدائه المختلفين ؛ ليتفرَّغ لعدوٍّ واحدٍ ، فعقد معاهدة مع إمارة (غلطة) المجاورة للقسطنطينيَّة من الشَّرق ويفصل بينهما مضيق (القرن الذَّهبي) كما عقد معاهدات مع « المجد » و« البندقيَّة » وهما من الإمارات الأوربيَّة المجاورة ، ولكن هذه المعاهدات لم تصمد حينما بدأ الهجوم الفعلي على القسطنطينيَّة ، حيث وصلت قوَّات من تلك المدن ، وغيرها للمشاركة في الدِّفاع عن القسطنطينيَّة[٢] مشاركةً لبني عقيدتهم من النَّصارى متناسين عهودهم ، ومواثيقهم مع المسلمين .

في هذه الأثناء الَّتي كان السُّلطان يعدُّ العدَّة فيها للفتح استمات الإمبراطور البيزنطيُّ في محاولاته لثنيه عن هدفه ، بتقديم الأموال ، والهدايا المختلفة إليه ، وبمحاولة رشوة بعض مستشاريه ليؤثِّروا على قراره[٣] ولكنَّ السُّلطان كان عازماً على تنفيذ مخطَّطه ، ولم تثنه هذه الأمور عن هدفه ، ولمَّا رأى الإمبراطور البيزنطيُّ شدَّة عزيمة السُّلطان على تنفيذ هدفه عمد إلى طلب المساعدات من مختلف الدُّول ، والمدن الأوربيَّة وعلى رأسها البابا زعيم المذهب الكاثوليكيِّ ، في الوقت الَّذي كانت فيه كنائس الدَّولة البيزنطيَّة ـ وعلى رأسها القسطنطينية ـ تابعةً للكنيسة الأرثوذكسيَّة ، وكان بينهما عداءٌ شديدٌ .

وقد اضطر الإمبراطور لمجاملة البابا بأن يتقرَّب إليه ، ويظهر له استعداده للعمل على توحيد الكنيسة الأرثوذكسيَّة الشَّرقيَّة لتصبح خاضعةً له ، في الوقت الَّذي

---

(١) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(٩٠) ، سالم الرَّشيدي .
(٢) انظر : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ص(٥٨) .
(٣) انظر : فتح القسطنطينيَّة ، محمَّد صفوت ، ص(٦٩) .

لم يكن الأرثوذكس يرغبون في ذلك ، وقد قام البابا بناءً على ذلك بإرسال مندوبٍ منه إلى القسطنطينيّة ، خطب في كنيسة آيا صوفيا ، ودعا للبابا ، وأعلن توحيد الكنيستين ، ممّا أغضب جمهور الأرثوذكس في المدينة ، وجعلهم يقومون بحركةٍ مضادّةٍ لهذا العمل الإمبراطوري الكاثوليكي المشترك ، حتّى قال بعض زعماء الأرثوذكس : « إنّني أفضل أن أشاهد في ديار البيزنط عمائم التُّرك على أن أشاهد القبعة اللاتينيّة »(١) .

ثانياً : الهجوم :

كانت القسطنطينيّة محاطةً بالمياه البحريّة في ثلاث جبهاتٍ ، مضيق البسفور ، وبحر مرمرة ، والقرن الذّهبي الّذي كان محميّاً بسلسلةٍ ضخمةٍ جدّاً في دخول السُّفن إليه ، بالإضافة إلى ذلك فإنّ خطّين من الأسوار كانت تحيط بها من النّاحية البرّيّة من شاطئ بحر مرمرة إلى القرن الذّهبي ، يتخلّلها نهر ليكوس ، وكان بين السُّورين فضاءٌ يبلغ عرضه ٦٠ قدماً ويرتفع السُّور الدّاخلي منها ٤٠ قدماً ، وعليه أبراج يصل ارتفاعها إلى ٦٠ قدماً ، وأما السُّور الخارجي فيبلغ ارتفاعه قرابة خمسٍ وعشرين قدماً ، وعليه أبراجٌ موزّعةٌ مليئةٌ بالجند(٢) .

وبالتّالي فإنّ المدينة من النّاحية العسكريّة تعدُّ من أفضل مدن العالم تحصيناً ، لما عليها من الأسوار ، والقلاع ، والحصون إضافةً إلى التّحصينات الطّبيعية ، وبالتّالي فإنّه يصعب اختراقها ، ولذلك فقد استعصت على عشرات المحاولات العسكريّة لاقتحامها ومنها إحدى عشرة محاولة إسلاميّة سابقة . كان السّلطان الفاتح يكمل استعدادات القسطنطينيّة ، ويعرف أخبارها ، ويجهز الخرائط اللازمة لحصارها ، كما كان يقوم بنفسه بزياراتٍ استطلاعيّةٍ يشاهد فيها استحكامات القسطنطينيّة ، وأسوارها(٣) .

---

(١) انظر : محمد الفاتح للرّشيدي ، ص(٨٩) .
(٢) انظر : سلاطين آل عثمان ، ص(٢) ، محمّد الفاتح ، ص(٩٦) .
(٣) انظر : محمّد الفاتح ، سالم الرّشيدي ، ص(٨٢) ، فتح القسطنطينيّة ، محمّد صفوت ، ص(٥٧) .

وقد عمل السُّلطان على تمهيد الطريق بين أدرنة والقسطنطينيَّة ؛ لكي تكون صالحةً لجرِّ المدافع العملاقة خلالها إلى القسطنطينيّة ، وقد تحرَّكت المدافع من أدرنة إلى قرب القسطنطينيَّة في مدَّة شهرين حيث تمَّت حمايتها بقسم الجيش ، حتَّى وصلت الأجناد العثمانيَّة يقودها الفاتح بنفسه إلى مشارف القسطنطينيَّة في يوم الخميس ٢٦ ربيع الأوَّل ٨٥٧هـ الموافق ٦ أبريل ١٤٥٣م ، فجمع الجند ، وكانوا قرابة مئتين وخمسين ألف جندي ، فخطب فيهم خطبةً قويَّةً ، حثَّهم فيها على الجهاد ، وطلب النَّصر ، أو الشَّهادة ، وذكَّرهم فيها بالتَّضحية ، وصدق القتال عند اللِّقاء ، وقرأ عليهم الآيات القرآنيَّة الَّتي تحث على ذلك ، كما ذكر لهم الأحاديث النبويَّة الَّتي تبشِّر بفتح القسطنطينيَّة ، وفضل الجيش الفاتح لها ، وأميره ، وما في فتحها من عزٍّ للإسلام والمسلمين ، وقد بادر الجيش بالتَّهليل والتَّكبير ، والدُّعاء[١] .

وكان العلماء مبثوثين في صفوف الجيش مقاتلين ، ومجاهدين معهم ، ممَّا أثَّر في رفع معنويَّاتهم حتَّى كان كل جندي ينتظر القتال بفارغ الصَّبر ليؤدِّي ما عليه من واجبٍ[٢] .

وفي اليوم التَّالي قام السُّلطان بتوزيع جيشه البرِّي أمام الأسوار الخارجيَّة للمدينة ، مشكِّلاً ثلاثة أقسام رئيسيَّة ، تمكَّنت من إحكام الحصار البرِّيِّ حول مختلف الجهات ، كما أقام الفاتح جيوشاً احتياطيَّةً خلف الجيوش الرَّئيسية ، وعمل على نصب المدافع أمام الأسوار ، ومن أهمِّها المدفع السُّلطاني العملاق ، الَّذي أقيم أمام باب طب قابي ، كما وضع فرقاً للمراقبة في مختلف المواقع المرتفعة والقريبة من المدينة ، وفي نفس الوقت انتشرت السُّفن العثمانيَّة في المياه المحيطة بالمدينة ، إلا أنَّها لم تستطع الوصول إلى القرن الذَّهبي بسبب وجود السلسلة الضَّخمة الَّتي منعت أيَّ سفينةٍ من دخوله ، بل وتدمِّر كلَّ سفينةٍ تحاول الدُّنو ، والاقتراب ، واستطاع الأسطول العثماني أن يستولي على جزر الأمراء في بحر مرمرة[٣] .

---

(١) انظر : سلاطين آل عثمان ، ص(٢٤ ، ٢٥) .
(٢) انظر : الفتوحات الإسلاميَّة عبر العصور ، ص(٣٦٤) .
(٣) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(٩٨) ، العثمانيُّون والبلقان ص(٨٩) .

وحاول البيزنطيُّون أن يبذلوا قصارى جهدهم للدِّفاع عن القسطنطينيَّة ، ووزَّعوا الجنود على الأسوار ، وأحكموا التَّحصينات ، وأحكم الجيش العثماني قبضته على المدينة ، ولم يخلُ الأمر من وقوع قتال بين العثمانيِّين والبيزنطيِّين المدافعين منذ الأيَّام الأولى للحصار ، وفتحت أبواب الشَّهادة ، وفاز عددٌ كبير من العثمانيِّين بها خصوصاً من الأفراد الموكلين بالاقتراب من الأبواب .

وكانت المدفعيَّة العثمانيَّة تطلق مدافعها من مواقع مختلفة نحو المدينة ، وكان لقذائفها ولصوتها الرَّهيب دورٌ كبير في إيقاع الرُّعب في قلوب البيزنطيِّين ، وقد تمكَّنت من تحطيم بعض الأسوار حول المدينة ، ولكن المدافعين كانوا سرعان ما يعيدون بناء الأسوار ، وترميمها .

ولم تنقطع المساعدات المسيحيَّة من أوربة ، ووصلت إمداداتٌ من جنوة مكوَّنةً من خمس سفن ، وكان يقودها القائد الجنوي جستنيان ، يرافقه سبعمئة مقاتلٍ متطوِّعٍ من دول أوربيَّة متعدِّدة ، واستطاعت سفنهم أن تصل إلى العاصمة البيزنطيَّة العتيقة بعد مواجهة بحريَّةٍ مع السُّفن العثمانيَّة المحاصرة للمدينة ، وكان لوصول هذه القوة أثرٌ كبيرٌ في رفع معنويَّات البيزنطيِّين ، وقد عُيِّن قائدها جستنيان قائداً للقوَّات المدافعة عن المدينة(١) .

وقد حاولت القوات البحريَّة العثمانيَّة تخطِّي السِّلسلة الضَّخمة الَّتي تتحكَّم في مدخل القرن الذَّهبي والوصول بالسُّفن الإسلاميَّة إليه ، وأطلقوا سهامهم على السُّفن الأوربيَّة ، والبيزنطيَّة ، ولكنهم فشلوا في تحقيق مرادهم في البداية ، وارتفعت الرُّوح المعنوية للمدافعين عن المدينة(٢) .

ولم يكلَّ القسُّ ، ورجال الدِّين النَّصارى ، فكانوا يطوفون بشوارع المدينة ، وأماكن التَّحصين ، ويحرِّضون المسيحيِّين على الثَّبات ، والصَّبر ، ويشجِّعون النَّاس على الذَّهاب إلى الكنائس ، ودعاء المسيح ، والسَّيدة العذراء أن يخلِّصوا

---

(١) انظر : العثمانيُّون والبلقان ، د . علي حسون ، ص(٩٢) .
(٢) انظر : محمَّد الفاتح للرَّشيدي ، ص(١٢٠) .

المدينة ، وأخذ الإمبراطور قسطنطين يتردَّد بنفسه على كنيسة أيا صوفيا لهذا الهدف[١] .

ثالثاً : مفاوضات بين محمَّد الفاتح ، وقسطنطين :

استبسل العثمانيُّون المهاجمون على المدينة وعلى رأسهم محمَّد الفاتح ، وصمد البيزنطيُّون بقيادة قسطنطين صموداً بطوليّاً في الدِّفاع ، وحاول الإمبراطور البيزنطيُّ أن يخلِّص مدينته ، وشعبه بكلِّ ما يستطيع من حيلةٍ ، فقدَّم عروضاً مختلفةً للسلطان ليغريه بالانسحاب مقابل الأموال ، أو الطَّاعة ، أو غير ذلك من العروض الَّتي قدَّمها ، ولكنَّ الفاتح ـ رحمه الله ـ يردُّ بالمقابل طالباً تسليم المدينة تسليماً[٢] . وأنَّه في هذه الحالة لن يتعرَّض لأحد من أهلها ، ولا كنائسها للأذى .

وكان مضمون الرِّسالة : « فليسلِّم لي إمبراطوركم مدينة القسطنطينيَّة ، وأقسم بأنَّ جيشي لن يتعرَّض لأحدٍ في نفسه ، وماله ، وعرضه ، ومن شاء بقي في المدينة ، وعاش فيها في أمنٍ ، وسلامٍ ، ومن شاء رحل عنها حيث أراد في أمنٍ ، وسلامٍ أيضاً »[٣] .

كان الحصار لا يزال ناقصاً ببقاء مضيق القرن الذَّهبي في أيدي البحريَّة البيزنطيَّة ، ومع ذلك فإنَّ الهجوم العثمانيَّ كان مستمراً دون هوادةٍ حيث أظهر جنود الإنكشاريَّة شجاعةً فائقةً ، وبسالةً نادرةً ، فكانوا يقدمون على الموت دون خوفٍ في أعقاب كلِّ قصفٍ مدفعيٍّ ، وفي يوم ١٨ أبريل[٤] تمكَّنت المدافع العثمانيَّة من فتح ثغرة في الأسوار البيزنطيَّة عند وادي ليكوس في الجزء الغربي من الأسوار ، فاندفع إليها الجنود العثمانيُّون بكلِّ بسالةٍ محاولين اقتحام المدينة من الثَّغرة ، كما حاولوا اقتحام الأسوار الأخرى بالسَّلالم الَّتي ألقوها عليها ، ولكن المدافعين عن المدينة بقيادة جستنيان استماتوا في الدِّفاع عن الثَّغرة والأسوار ، واشتدَّ القتال بين

---

(١) انظر : محمَّد الفاتح للرَّشيدي ، ص(١٠٠) .
(٢) انظر : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ص(٥٨) .
(٣) محمَّد الفاتح ، عبد السَّلام فهمي ، ص(٩٢) .
(٤) انظر : الفتوح الإسلاميَّة عبر العصور ، ص(٣٦٧) .

الطَّرفين ، وكانت الثَّغرة ضيقةً ، وكثرت السِّهام ، والنِّبال ، والمقذوفات على الجنود المسلمين ، ومع ضيق المكان ، وشدَّة مقاومة الأعداء ، وحلول الظَّلام أصدر الفاتح أوامره للمهاجمين بالانسحاب بعد أن أثاروا الرُّعب في قلوب أعدائهم متحيِّنين فرصةً أخرى للهجوم(١) .

وفي اليوم نفسه حاولت بعض السُّفن العثمانيَّة اقتحام القرن الذَّهبي بتحطيم السِّلسلة الحاجزة عنه ، ولكنَّ السفن البيزنطيَّة ، والأوربيَّة المشتركة ، إضافةً إلى الفرق الدِّفاعية المتمركزة خلف السِّلسلة الضَّخمة من المدافعين عن مدخل الخليج ؛ استطاعوا جميعاً صدَّ السُّفن الإسلاميَّة ، وتدمير بعضها ، فاضطرَّت بقيَّة السُّفن إلى العودة بعد أن فشلت في تحقيق مهمَّتها(٢) .

رابعاً : عزل قائد الأسطول العثماني ، وشجاعة محمَّد الفاتح :

بعد هذه المعركة بيومين وقعت معركةٌ أخرى بين البحرية العثمانيَّة وبعض السُّفن الأوربيَّة الَّتي حاولت الوصول إلى الخليج ، حيث بذلت السُّفن الإسلاميَّة جهوداً كبيرةً لمنعها ، وأشرف الفاتح بنفسه على المعركة من على السَّاحل ، وكان قد أرسل إلى قائد الأسطول وقال له : « إما أن تستولي على هذه السُّفن ، وإمَّا أن تغرقها ، وإذا لم توفَّق في ذلك ؛ فلا ترجع إلينا حيَّاً »(٣) .

لكنَّ السُّفن الأوربيَّة نجحت في الوصول إلى هدفها ، ولم تتمكَّن السُّفن العثمانيَّة من منعها ، رغم الجهود العظيمة المبذولة لذلك ، وبالتَّالي غضب السُّلطان محمَّد الفاتح غضباً شديداً ، فعزل قائد الأسطول(٤) بعدما رجع إلى مقرِّ قيادته ، واستدعاه ، وعنَّف محمَّد الفاتح قائد الأسطول بالطه أوغلي ، واتَّهمه بالجبن ، وتأثَّر بالطة أوغلي لهذا ، وقال : « إني أستقبل الموت بجنانٍ ثابتٍ ، ولكن يؤلمني أن أموت وأنا متَّهم بمثل هذه التُّهمة . لقد قاتلت أنا ورجالي بكلِّ

---

(١) انظر : محمَّد الفاتح ، عبد السلام فهمي ، ص(١٢٣) .
(٢) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص(٣٦٨) .
(٣) انظر : محمَّد الفاتح للرَّشيدي ، ص(١٠١) .
(٤) انظر : مواقف حاسمة ، محمد عبد الله عنان ، ص(١٨٠) .

ما كان في وسعنا من حيلةٍ ، وقوَّةٍ ، ورفع طرف عمامته عن عينه المصابة »[١] .

أدرك محمَّد الفاتح عند ذلك أنَّ الرجل قد أعذر ، فتركه ينصرف ، واكتفى بعزله من منصبه ، وجعل مكانه حمزة باشا[٢] .

لقد ذكرت كتب التَّاريخ : أنَّ السُّلطان محمَّد الفاتح كان يراقب هذه المعارك البحريَّة ، وهو على جواده ، وقد اندفع نحو البحر حتَّى غاص حصانه إلى صدره وكانت السُّفن المتقاتلة على مرمى حجرٍ منه ، فأخذ يصيح لبالطة أوغلي بأعلى صوته : يا قبطان ! يا قبطان ! ويلوح له بيده ، وضاعف العثمانيُّون جهودهم في الهجوم دون أن يؤثِّروا في السُّفن تأثيراً بيِّناً[٣] .

كانت للهزائم البحريَّة للأسطول العثمانيِّ دورٌ كبيرٌ في محاولة بعض مستشاري السُّلطان وعلى رأسهم الوزير (خليل باشا) إقناعه بالعدول عن الاستيلاء على القسطنطينيَّة ، والرِّضا بمصالحة أهلها دون السَّيطرة عليها ، وبالتَّالي رفع الحصار عنها ، ولكنَّ السُّلطان أصرَّ على محاولة الفتح ، واستمرَّ في قصف دفاعات المدينة بالمدافع من كلِّ جانب ، وفي الوقت نفسه كان يفكِّر بجدِّيَّة في إدخال السُّفن الإسلاميَّة إلى القرن الذَّهبي ، خصوصاً : أنَّ الأسوار من ناحية القرن الذَّهبي متهاويةٌ ، وبالتَّالي سيضطر البيزنطيُّون إلى سحب بعض قوَّاتهم المدافعة عن الأسوار الغربيَّة من المدينة ، وبهذا التَّفريق للقوَّات المدافعة ستتهيَّأ فرصةٌ أكبر في الهجوم على تلك الأسوار بعد أن ينقص عدد المدافعين عنها[٤] .

خامساً : عبقريَّةٌ حربيَّة فذَّةٌ :

لاحت للسُّلطان فكرةٌ بارعةٌ ، وهي نقل السُّفن من مرساها في بشكطاش إلى القرن الذَّهبي ، وذلك بجرِّها على الطَّريق البرِّي الواقع بين الميناءين مبتعداً عن حي غلطة خوفاً على سفنه من الجنويِّين ، وقد كانت المسافة بين الميناءين نحو ثلاثة

(١) انظر : محمَّد الفاتح للرَّشيدي ، ص(١٠٣) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .
(٤) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص(٣٦٩) .

أميال ، ولم تكن أرضاً مبسوطة سهلةً ، ولكنَّها كانت وهاداً ، وتلالاً غير ممهَّدةٍ .

جمع محمد الفاتح أركان حربه ، وعرض عليهم فكرته ، وحدَّد لهم مكان معركته القادمة فتلقَّى منهم كلَّ تشجيعٍ ، وأعربوا عن إعجابهم بها .

بدأ تنفيذ الخطَّة ، وأمر السُّلطان محمَّد الثاني فمُهِّدت الأرض ، وسوِّيت في ساعاتٍ قليلةٍ وأتى بألواحٍ من الخشب دهنت بالزَّيت ، والشَّحم ، ثمَّ وضعت على الطَّريق الممهد بطريقةٍ يسهل بها انزلاج السُّفن ، وجرُّها ، وكان أصعب جزء من المشروع هو نقل السُّفن على انحدار التِّلال المرتفعة ، إلا أنَّه بصفةٍ عامَّةٍ كانت السُّفن العثمانية صغيرة الحجم ، خفيفة الوزن[١] .

وجُرَّت السُّفن من البسفور إلى البر حيث سحبت على تلك الأخشاب المدهونة بالزَّيت مسافة ثلاثة أميال ، حتَّى وصلت إلى نقطةٍ آمنةٍ ، فأنزلت في القرن الذَّهبي ، وتمكَّن العثمانيُّون في تلك اللَّيلة من سحب أكثر من سبعين سفينة ، وإنزالها في القرن الذَّهبي على حين غفلةٍ من العدوِّ بطريقةٍ لم يُسبق إليها السُّلطان الفاتح قبل ذلك ، وقد كان يشرف بنفسه على العمليَّة الَّتي جرت في اللَّيل بعيداً عن أنظار العدوِّ ، ومراقبته[٢] .

كان هذا العمل عظيماً بالنسبة للعصر الَّذي حدث فيه ، بل معجزةً من المعجزات ، تجلَّت فيه سرعة التَّفكير ، وسرعة التَّنفيذ ، ممَّا يدلُّ على عقلية العثمانيِّين الممتازة ، ومهارتهم الفائقة ، وهمتهم العظيمة . لقد دهش الرُّوم دهشةً كبرى عندما علموا بها ، فما كان أحد ليستطيع تصديق ما تمَّ . لكن الواقع المشاهد جعلهم يذعنون لهذه الخطَّة الباهرة .

ولقد كان منظر هذه السُّفن بأشرعتها المرفوعة تسير وسط الحقول كما لو كانت تمخر عباب البحر من أعجب المناظر ، وأكثرها إثارةً ، ودهشة ، ويرجع الفضل في ذلك إلى الله سبحانه وتعالى ، ثمَّ إلى همَّة السُّلطان ، وذكائه المفرط ، وعقليته الجبَّارة ، وإلى مقدرة المهندسين العثمانيِّين ، وتوافر الأيدي العاملة الَّتي قامت

---

(١) انظر : السُّلطان محمَّد الفاتح ، عبد السلام فهمي ، ص(١٠٠) .
(٢) الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص(٣٧٠) .

بتنفيذ ذلك المشروع الضَّخم بحماسٍ ونشاط .

وقد تمَّ كلُّ ذلك في ليلةٍ واحدةٍ ، واستيقظ أهل المدينة البائسة صباح يوم ٢٢ أبريل على تكبيرات العثمانيين المدوِّية ، وهتافاتهم المتصاعدة ، وأناشيدهم الإيمانيَّة العالية[١] ، في القرن الذَّهبي ، وفوجئوا بالسُّفن العثمانيَّة ، وهي تسيطر على ذلك المعبر المائي ، ولم يعد هناك حاجز مائي بين المدافعين عن القسطنطينيَّة وبين الجنود العثمانييِّن[٢] .

ولقد عبَّر أحد المؤرِّخين البيزنطيِّين عن عجبهم من هذا العمل ، فقال : « ما رأينا ، ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشَّيء الخارق ، محمَّد الفاتح يحوِّل الأرض إلى بحار ، وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج ، لقد فاق محمَّد الثَّاني بهذا العمل الإسكندر الأكبر »[٣] .

ظهر اليأس في أهل القسطنطينيَّة ، وكثرت الإشاعات ، والتنبُّؤات بينهم ، وانتشرت شائعةٌ تقول : « ستسقط القسطنطينيَّة عندما تُرى سفنٌ تمخر اليابسة »[٤] .

وكان لوجود السُّفن الإسلاميَّة في القرن الذَّهبي دورٌ كبيرٌ في إضعاف الرُّوح المعنويَّة لدى المدافعين عن المدينة ؛ الَّذين اضطروا لسحب قواتٍ كبيرةٍ من المدافعين عن الأسوار الأخرى لكي يتولَّوا الدِّفاع عن الأسوار الواقعة على القرن الذَّهبي ؛ إذ أنَّها كانت أضعف الأسوار ، ولكنَّها في السابق تحميها المياه ، ممَّا أوقع الخلل في الدِّفاع عن الأسوار الأخرى[٥] .

وقد حاول الإمبراطور البيزنطي تنظيم أكثر من عمليَّةٍ لتدمير الأسطول العثمانيِّ في القرن الذَّهبي ، إلا أنَّ محاولته المستميتة كان العثمانيُّون لها بالمرصاد ، حيث أفشلوا كلَّ الخطط ، والمحاولات .

---

(١) انظر : السُّلطان محمَّد الفاتح ، عبد السلام فهمي ، ص(١٠٢) .
(٢) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص(٣٧٠) .
(٣) تاريخ الدولة العثمانيَّة ، يلماز أوزتونا ، ص(١٣٥) .
(٤) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(١٠٦) .
(٥) المصدر السابق نفسه .

واستمرَّ العثمانيُّون في دكِّ نقاط دفاع المدينة ، وأسوارها بالمدافع ، وحاولوا تسلُّق أسوارها ، وفي الوقت نفسه انشغل المدافعون عن المدينة في بناء وترميم ما يتهدَّم من أسوار مدينتهم ، وردِّ المحاولات المكثَّفة لتسلُّق الأسوار مع استمرار الحصار عليهم ، ممَّا زاد في مشقَّتهم ، وتعبهم ، وإرهاقهم ، وشغل ليلهم مع نهارهم ، وأصابهم اليأس[١] .

كما وضع العثمانيُّون مدافع خاصَّةً على الهضاب المجاورة للبسفور ، والقرن الذَّهبي مهمَّتها تدمير السُّفن البيزنطيَّة ، والمتعاونة معها في القرن الذَّهبي ، والبسفور ، والمياه المجاورة ، ممَّا عرقل حركة سفن الأعداء ، وأصابها بالشَّلل تماماً[٢] .

سادساً : اجتماع بين الملك قسطنطين ومعاونيه :

عقد الملك قسطنطين ومعاونوه ومستشاروه ورجال النَّصرانية في المدينة اجتماعاً ، فأشاروا عليه بالخروج بنفسه من المدينة ، والتوجُّه لطلب النَّجدات من الأمم المسيحيَّة ، والدُّول الأوربيَّة ، ولعلَّه تأتي الجيوش النَّصرانيَّة ، فيضطر محمَّد الفاتح لرفع الحصار عن مدينتهم ، ولكنَّه رفض هذا الرأي ، وأصرَّ على أن يقاوم إلى آخر لحظةٍ ، ولا يترك شعبه في المدينة حتَّى يكون مصيره ، ومصيرهم واحداً ، وأنَّه يعتبر هذا واجبه المقدَّس ، وأمرهم أن لا ينصحوه بالخروج أبداً ، واكتفى بإرسال وفودٍ تمثِّله إلى مختلف أنحاء أوربة ؛ لطلب المساعدة[٣] ورجعت تلك الوفود تجرُّ خلفها أذيال الخيبة ، وكانت الأجهزة الاستخباراتية للدَّولة العثمانيَّة قد اخترقت القسطنطينيَّة وما حولها ، بحيث أصبحت القيادة العثمانيَّة على علمٍ تامٍّ بما يدور حولها .

---

(١) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص(٣٧١) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(١١٦) .

سابعاً : الحرب النفسيَّة العثمانيَّة :

ضاعف السَّلطان محمَّد الثَّاني الهجوم على الأسوار ، وجعله مركَّزاً عنيفاً ، ضمن خطة أعدها بنفسه أيضاً لإضعاف العدوِّ ، وكرَّرت القوَّات العثمانية عمليَّة الهجوم على الأسوار ومحاولة تسلُّقها مرَّاتٍ عديدةٍ بصورة بطوليَّةٍ بلغت غايةً عظيمةً من الشَّجاعة ، والتَّضحية ، والتَّفاني ، وكان أكثر ما يرعب جنود الإمبراطور قسطنطين صيحاتهم ، وهي تشقُّ عنان السَّماء ، وتقول : (الله أكبر ، الله أكبر) فتنزل عليهم كالصَّواعق المدمِّرة[١] .

وشرع السُّلطان محمَّد الفاتح في نصب المدافع القويَّة على الهضاب الواقعة خلف غلطة ، وبدأت هذه المدافع في دفع قذائفها الكثيفة نحو الميناء ، وأصابت إحدى القذائف سفينة تجاريَّة فأغرقتها في الحال ، فخافت السُّفن الأخرى ، واضطرت للفرار ، واتَّخذت من أسوار غلطة ملجأً لها ، وظلَّ الهجوم العثماني البرِّيّ في موجاتٍ خاطفةٍ وسريعةٍ هجمةً تلو الأخرى .

وكان السُّلطان محمَّد الفاتح يوالي الهجمات ، وإطلاق القذائف في البرِّ ، والبحر دون انقطاعٍ ليلاً ونهاراً ، من أجل إنهاك قوى المحاصرين ، وعدم تمكينهم من أن ينالوا أيَّ قسطٍ من راحةٍ ، وهدوء بالٍ ، وهكذا أصبحت عزائمهم ضعيفةً ، ونفوسهم مرهقةً كليلةً ، وأعصابهم متوتِّرةً مجهودةً تثور لأيِّ سبب ، وأصبح كلُّ واحدٍ من الجنود ينظر إلى صاحبه ، ويلاحظ على وجهه علامات الذُّلِّ ، والهزيمة ، والفشل ، وشرعوا يتحدَّثون علناً عن طرق النَّجاة ، والإفلات بأرواحهم ، وما يتوقَّعونه من العثمانيِّين إذا ما اقتحموا عليهم مدينتهم .

واضطرَّ الإمبراطور قسطنطين إلى عقد مؤتمرٍ ثانٍ ، اقترح فيه أحد القادة مباغتة العثمانيِّين بهجومٍ شديدٍ عنيفٍ لفتح ثغرةٍ توصلهم بالعالم الخارجي ، وبينما هم في مجلسهم يتدارسون هذا الاقتراح ، قطع عليهم أحد الجنود اجتماعهم ، وأعلمهم بأنَّ العثمانيين شنُّوا هجوماً شديداً مكثَّفاً على وادي ليكونس ، فترك قسطنطين الاجتماع ، ووثب على فرسه ، واستدعى الجند الاحتياطيَّ ، ودفع بهم إلى مكان

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٠٦) .

القتال ، واستمرَّ القتال إلى آخر اللَّيل حتَّى انسحب العثمانيُّون[١] .

وكان السُّلطان محمَّد ـ رحمه الله ـ يفاجئ عدوَّه من حينٍ لآخر بفنٍّ جديدٍ من فنون القتال ، والحصار ، وحرب الأعصاب ، وبأساليب جديدةٍ ، وطرق حديثةٍ مبتكرةٍ غير معروفةٍ للعدوِّ[٢] .

ففي المراحل المتقدِّمة من الحصار لجأ العثمانيُّون إلى طريقةٍ عجيبةٍ في محاولة دخول المدينة ، حيث عملوا على حفر أنفاق تحت الأرض من مناطق مختلفةٍ إلى داخل المدينة ، وسمع سكَّانها ضرباتٍ شديدةٍ تحت الأرض أخذت تقترب من داخل المدينة بالتَّدريج ، فأسرع الإمبراطور بنفسه ، ومعه قوَّاده ، ومستشاروه إلى ناحية الصَّوت ، وأدركوا أنَّ العثمانيِّين يقومون بحفر أنفاق تحت الأرض للوصول إلى داخل المدينة ، فقرَّر المدافعون الإعداد لمواجهتها بحفر أنفاق مماثلة مقابل أنفاق المهاجمين لمواجهتهم دون أن يعلموا ، حتَّى إذا وصل العثمانيُّون إلى الأنفاق الَّتي أعدَّت لهم ظنُّوا : أنَّهم وصلوا إلى سراديب خاصَّةٍ وسرِّيَّةٍ تؤدي إلى داخل المدينة ففرحوا بهذا ، ولكن الفرحة لم تطل إذ فاجأهم الرُّوم ، فصبُّوا عليهم ألسنة النِّيران ، والنَّفط المحترق ، والمواد الملتهبة ، فاختنق كثير منهم ، واحترق قسمٌ آخر ، وعاد النَّاجون منهم أدراجهم من حيث أتوا[٣] .

لكنَّ هذا الفشل لم يفتَّ في عضد العثمانيِّين ، فعاودوا حفر أنفاقٍ أخرى ، وفي مواضعٍ مختلفةٍ من المنطقة الممتدَّة بين « أكرى فبو » وشاطئ القرن الذَّهبي ، وكانت مكاناً ملائماً للقيام بمثل هذا العمل ، وظلُّوا على ذلك حتَّى أواخر أيام الحصار ، وقد أصاب أهل القسطنطينية من جرَّاء ذلك خوفٌ عظيمٌ ، وفزعٌ لا يوصف حتَّى صاروا يتوهَّمون : أنَّ أصوات أقدامهم ، وهم يمشون إنَّما هي أصواتٌ خفيَّةٌ لحفرٍ يقوم به العثمانيُّون ، وكثيراً ما كان يخيَّل لهم : أنَّ الأرض ستنشقُّ ويخرج منها الجند العثمانيُّون ويملؤون المدينة ، فكانوا يتلفَّتون يمنةً ، ويسرةً ، ويشيرون هنا ، وهناك في فزعٍ ، ويقولون : (هذا تركي ! هذا تركي !)

(١) انظر : السُّلطان محمَّد الفاتح ، ص(١٠٨) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ص(١٠٨) .
(٣) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص(٣٧٢) .

ويجرون هرباً من أشباحٍ يحسبونها أنَّها تطاردهم ، وكثيراً ما كان يحدث أن تتناقل العامَّة الإشاعة ، فتصبح كأنَّها حقيقةٌ واقعةٌ رآها أحدهم بعيني رأسه ، وهكذا داخل سكانَ القسطنطينيَّة فزعٌ شديدٌ أذهب وعيهم ، حتَّى لكأنَّهم سُكارى ، وما هم بسكارى ، فريقٌ يجري ، وفريقٌ يتأمَّل السَّماء ، ومجموعةٌ تتفحَّص الأرض ، والبعض ينظر في وجوه البعض الآخر في عصبيةٍ زائدةٍ ، وفشلٍ ذريع .

ولم يكن عمل العثمانيين هذا سهلاً ، فإنَّ هذه الأنفاق الَّتي حفروها قد أودت بحياة كثيرٍ منهم ، فماتوا اختناقاً ، واحتراقاً في باطن الأرض ، كما وقع الكثير منهم في بعض هذه المحاولات في أسر الرُّوم فقُطعت رؤوسهم ، وقذف بها إلى معسكر العثمانيِّين(١) .

● مفاجأة عسكرية عثمانيَّة :

لجأ العثمانيُّون إلى أسلوبٍ جديدٍ في محاولة الاقتحام ، وذلك بأن صنعوا قلعةً خشبيَّةً ضخمةً ، شامخةً ، متحرِّكةً ، تتكون من ثلاثة أدوار ، وبارتفاع أعلى من الأسوار ، وقد كسيت بالدُّروع ، والجلود المبلَّلة بالماء لتمنع عنها النِّيران ، وأعدَّت تلك القلعة بالرِّجال في كلِّ دورٍ من أدوارها ، وكان الَّذين في الدَّور العلويِّ من الرُّماة يقذفون بالنِّبال كلَّ مَنْ يطلُّ برأسه من فوق الأسوار ، وقد وقع الرُّعب في قلوب المدافعين عن المدينة حينما زحف العثمانيُّون بهذه القلعة ، واقتربوا بها من الأسوار عند باب رومانوس ، فاتَّجه الإمبراطور بنفسه ، ومعه قوَّاده ليتابع صدَّ تلك القلعة ، ودفعها عن الأسوار ، وقد تمكَّن العثمانيُّون من لصقها بالأسوار ودار بين مَن فيها وبين النَّصارى عند الأسوار قتالٌ شديدٌ ، واستطاع بعض المسلمين ممَّن في القلعة تسلُّق الأسوار ونجحوا في ذلك ، وقد ظنَّ قسطنطين : أنَّ الهزيمة حلَّت به إلا أنَّ المدافعين كثَّفوا من قذف القلعة بالنِّيران حتَّى أثَّرت فيها ، وتمكَّنت منها النِّيران فاحترقت ، ووقعت على الأبراج البيزنطيَّة المجاورة لها ، فقتلت من فيها من المدافعين ، وامتلأ الخندق المجاور لها بالحجارة والتُّراب(٢) .

(١) انظر : السُّلطان محمَّد الفاتح ، ص(١١٠) .
(٢) انظر : محمَّد الفاتح للرَّشيدي ، ص(١٤٤) .

ولم ييأس العثمانيون من المحاولة ، بل قال الفاتح ، وكان يشرف بنفسه على ما وقع : غداً نصنع أربعاً أخرى(١) .

زاد الحصار ، وقوي ، واشتدَّ ؛ حتَّى أُرهق من بداخل المدينة من البيزنطيِّين ، فعقد زعماء المدينة اجتماعاً ٢٤ مايو داخل قصر الإمبراطور ، وبحضوره شخصيَّاً ، وقد لاح في الأفق بوادر يأس المجتمعين من إنقاذ المدينة ، حيث اقترح بعضهم على الإمبراطور الخروج بنفسه قبل سقوط المدينة ؛ لكي يحاول جمع المساعدات ، والنَّجدات لإنقاذها ، أو استعادتها بعد السُّقوط ، ولكنَّ الإمبراطور رفض ذلك مرَّةً أخرى ، وأصرَّ على البقاء داخل المدينة ، والاستمرار في قيادة شعبه ، وخرج لتفقُّد الأسوار ، والتَّحصينات

وأخذت الإشاعات تهيمن على المدينة ، وتضعف من مقاومة المدافعين عنها ، وكان من أقواها عليهم ما حدث في يوم ١٦ جمادى الأولى الموافق ٢٥ مايو ، حيث حمل أهل المدينة تمثالاً للسَّيدة مريم العذراء (بزعمهم) ، وأخذوا يتجوَّلون به في ضواحي المدينة ، يدعونه ، ويتضرَّعون إلى العذراء أن تنصرهم على أعدائهم ، وفجأة سقط التِّمثال من أيديهم ، وتحطَّم فرأوا في ذلك شؤماً ، ونذيراً بالخطر ، وتأثَّر سكَّان المدينة ، وخصوصاً المدافعين عنها ، وحدث في اليوم التالي ٢٦ مايو هطول أمطارٍ غزيرةٍ مصحوبةٍ ببعض الصَّواعق ، ونزلت إحدى الصَّواعق على كنيسة آيا صوفيا ، فتشاءم البطريق ، وذهب إلى الإمبراطور ، وأخبره : أنَّ الله تخلَّى عنهم ، وأنَّ المدينة ستسقط في يد المجاهدين العثمانيِّين ، فتأثَّر الإمبراطور حتَّى أغمي عليه(٢) .

وكانت المدفعيَّة العثمانيَّة لا تنفكُّ عن عملها في دكِّ الأسوار ، والتَّحصينات ، وتهدَّمت أجزاءٌ كثيرةٌ من السُّور والأبراج ، وامتلأت الخنادق بالأنقاض الَّتي يئس المدافعون من إزالتها ، وأصبحت إمكانية اقتحام المدينة واردةً في أيِّ لحظةٍ ، إلا أنَّ اختيار موقع الاقتحام لم يحدَّد بعد(٣) .

---

(١) انظر : السُّلطان محمَّد الفاتح ، ص(١٢٢) .
(٢) انظر : محمَّد الفاتح للرَّشيدي ، ص(١١٨) .
(٣) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص(٣٧٥) .

ثامناً : المفاوضات الأخيرة بين محمَّد الفاتح ، وقسطنطين :

أيقن محمَّد الفاتح : أنَّ المدينة على وشك السُّقوط ، ومع ذلك حاول أن يكون دخولها بسلامٍ ؛ فكتب إلى الإمبراطور رسالةً دعاه إلى تسليم المدينة دون إراقة دماء ، وعرض عليه تأمين خروجه ، وعائلته ، وأعوانه ، وكلِّ من يرغب من سكَّان المدينة إلى حيث يشاؤون بأمانٍ[١] ، وأن تحقن دماء النَّاس في المدينة ، ولا يتعرَّضوا لأيِّ أذىً ، ويكونوا بالخيار في البقاء في المدينة ، أو الرَّحيل عنها ، ولمَّا وصلت الرِّسالة إلى الإمبراطور جمع المستشارين ، وعرض عليهم الأمر ، فمال بعضهم إلى التَّسليم ، وأصرَّ آخرون على استمرار الدِّفاع عن المدينة حتَّى الموت ، فمال الإمبراطور إلى رأي القائلين بالقتال حتَّى آخر لحظةٍ ، فردَّ الإمبراطور رسول الفاتح برسالةٍ ، قال فيها : « إنَّه يشكر الله إذ جنح السُّلطان إلى السِّلم ، وأنَّه يرضى أن يدفع له الجزية ، أما القسطنطينية فإنَّه أقسم أنه يدافع عنها إلى آخرِ نَفَسٍ في حياته ، فإمَّا أن يحفظ عرشه ، أو يدفن تحت أسوارها »[٢] . فلمَّا وصلت الرِّسالة إلى الفاتح ، قال : « حسناً عن قريبٍ سيكون لي في القسطنطينية عرشٌ ، أو يكون لي فيها قبرٌ »[٣] .

وعمد السُّلطان بعد اليأس من تسليم المدينة صلحاً إلى تكثيف الهجوم ، وخصوصاً القصف المدفعي على المدينة ، حتَّى أنَّ المدفع السُّلطاني الضَّخم انفجر من كثرة الاستخدام ، وقتل المشتغلين به ، وعلى رأسهم المهندس المجري أوربان الذي تولَّى الإشراف على تصميم المدفع ، ومع ذلك فقد وجه السُّلطان بإجراء عمليَّات التَّبريد للمدافع بزيت الزَّيتون ، وقد نجح الفنِّيُّون في ذلك ، وواصلت المدافع قصفها للمدينة مرَّةً أخرى ، بل تمكَّنت من توجيه القذائف بحيث تسقط وسط المدينة بالإضافة إلى ضربها للأسوار ، والقلاع[٤] .

---

(١) انظر : محمَّد الفاتح للرَّشيدي ، ص(١١٩) .
(٢) محمَّد الفاتح ، عبد السَّلام فهمي ، ص(١١٦) .
(٣) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص(٣٧٦) .
(٤) المصدر السَّابق ، ص(٣٧٦) .

تاسعاً : السُّلطان محمَّد الفاتح يعقد اجتماعاً لمجلس الشُّورى :

عقد السُّلطان محمَّد الفاتح اجتماعاً ضمَّ مستشاريه ، وكبار قوَّاده بالإضافة إلى الشُّيوخ ، والعلماء ، وقد طلب الفاتح من المجتمعين الإدلاء بآرائهم بكلِّ صراحةٍ دون تردُّدٍ ، فأشار بعضهم بالانسحاب ، ومنهم الوزير خليل باشا ؛ الَّذي دعا إلى الانسحاب ، وعدم إراقة الدِّماء ، والتَّحذير من غضب أوربة النَّصرانية فيما لو استولى المسلمون على المدينة ، إلى غير ذلك من المبررات الَّتي طرحها ، وكان متَّهماً بمواطأة البيزنطيين ، ومحاولة التَّخذيل عنهم(١) .

وقد قام بعض الحضور بتشجيع السُّلطان على مواصلة الهجوم على المدينة حتَّى الفتح ، واستهان بأوربة ، وقوَّاتها ، كما أشار إلى تحمُّس الجند لإتمام الفتح ، وما في التَّراجع من تحطيمٍ لمعنويَّاتهم الجهاديَّة ، وكان من هؤلاء أحد القواد الشُّجعان ، ويدعى « زوغنوش باشا » وهو من أصلٍ ألبانيٍّ ، كان نصرانيَّاً ، فأسلم حيث هوَّن من شأن القوَّات الأوربيَّة على السُّلطان(٢) .

وذكرت كتب التَّاريخ موقف زوغنوش باشا ، فقال : « ما أن سأله السُّلطان الفاتح عن رأيه حتَّى استوفز في قعدته ، وصاح في لغةٍ تركيَّةٍ تشوبها لكنةٌ أرناؤوطيَّة : حاشا ، وكلا أيُّها السُّلطان ، أنا لا أقبل أبداً ما قاله خليل باشا ، فما أتينا هنا إلا لنموت ، لا لنرجع . وأحدث هذا الاستهلال وقعاً عميقاً في نفوس الحاضرين ، وخيَّم السُّكون على المجلس لحظةً . ثمَّ واصل زوغنوش باشا كلامه ، فقال : إنَّ خليل باشا أراد بما قاله أن يخمد فيكم نار الحميَّة ، ويقتل الشَّجاعة ، ولكنَّه لن يبوء إلا بالخيبة ، والخسران . إنَّ جيش الإسكندر الكبير الَّذي قام من اليونان ، وزحف إلى الهند ، وقهر نصف آسيا الكبيرة الواسعة لم يكن أكبر من جيشنا ، فإن كان ذلك الجيش استطاع أن يستولي على تلك الأراضي العظيمة الواسعة ؛ أفلا يستطيع جيشنا أن يتخطَّى هذه الكومة من الأحجار المتراكمة .

وقد أعلن خليل باشا أنَّ دول الغرب ستزحف إلينا ، وتنتقم ، ولكن ما الدُّول

---

(١) انظر : فتح القسطنطينيَّة ، محمَّد صفوت ، ص(١٠٣) .
(٢) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص(٣٧٧) .

الغربيَّة هذه ؟ وهل هي الدول اللاتينية التي شغلها ما بينها من خصام وتنافس ؟ هل هي دول البحر المتوسط التي لا تقدر على شيء غير القرصنة، واللُّصوصية ؟ ولو أن تلك الدُّول أرادت نصرة بيزنطة ؛ لفعلت ، وأرسلت إليها الجند ، والسُّفن ، ولنفرض أنَّ أهل الغرب بعد فتحنا القسطنطينيَّة هبُّوا إلى الحرب ، وقاتلونا ؛ فهل سنقف منهم مكتوفي الأيدي بغير حراك ؟! أو ليس لنا جيشٌ يدافع عن كرامتنا ، وشرفنا ؟!

يا صاحب السلطنة أما وقد سألتني رأيي فلأعلنَها كلمةً صريحةً : يجب أن تكون قلوبنا كالصَّخر ، ويجب أن نواصل الحرب دون أن يظهر علينا أقلُّ ضعفٍ ، أو خورٍ ، لقد بدأنا أمراً فواجبٌ علينا أن نتمَّه ، ويجب أن نزيد هجماتنا قوَّةً ، وشدَّةً ، ونفتح ثغراتٍ جديدةً ، وننقضَّ على العدوِّ بشجاعةٍ ، لا أعرف شيئاً غير هذا ، ولا أستطيع أن أقول شيئاً غير هذا . . . »[(١)] .

وبدت على وجه الفاتح أمارات البشر ، والانشراح لسماع هذا القول ، والتفت إلى القائد طرخان يسأله رأيه ، فأجاب على الفور : إنَّ زوغنوش باشا قد أصاب فيما قال ، وأنا على رأيه يا سلطاني ! ثمَّ سأل الشيخ آق شمس الدِّين ، والمولى الكوراني عن رأيهما . وكان الفاتح يثق بهما كلَّ الثِّقة ، فأجابا أنَّهما على رأي زوغنوش باشا ، وقالا : « يجب الاستمرار في الحرب ، وبالغاية الصَّمدانيَّة سيكون لنا النَّصر ، والظَّفر »[(٢)] .

وسرت الحمية والحماس في جميع الحاضرين ، وابتهج السُّلطان الفاتح ، واستبشر بدعاء الشَّيخين بالنَّصر ، والظَّفر ، ولم يملك نفسه من القول : من كان من أجدادي في مثل قوَّتي ؟ ![(٣)] .

لقد أيَّد العلماء الرَّأي القائل بمواصلة الجهاد ، كما فرح السُّلطان حيث كان يعبِّر عن رأيه ، ورغبته في مواصلة الهجوم حتَّى الفتح ، وانتهى الاجتماع بتعليماتٍ من السُّلطان : أنَّ الهجوم العامَّ ، والتعليمات باقتحام المدينة باتت وشيكةً ،

---

(١) انظر : محمَّد الفاتح للرَّشيدي ، ص(١٢٢) .
(٢) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(١٢٢) .
(٣) المصدر السابق نفسه .

وسيأمر بها فور ظهور الفرصة المناسبة ، وأنَّ على الجنود الاستعداد لذلك[١] .

عاشراً : محمَّد الفاتح يوجِّه تعليماته ، ويتابع جنوده بنفسه :

في يوم الأحد ١٨ جمادى الأولى ٢٧ من مايو وجَّه السُّلطان محمَّد الفاتح الجنود إلى الخشوع ، وتطهير النُّفوس والتَّقرُّب إلى الله تعالى بالصَّلاة ، وعموم الطَّاعات والتَّذلُّل ، والدُّعاء بين يديه ، لعلَّ الله أن ييسِّر لهم الفتح ، وانتشر هذا الأمر بين عامَّة المسلمين ، كما قام الفاتح بنفسه ذلك اليوم بتفقُّد أسوار المدينة ، ومعرفة آخر أحوالها ، وما وصلت إليه أوضاع المدافعين عنها في النُّقاط المختلفة ، وحدَّد مواقع معينة يتمُّ فيها تركيز القصف العثمانيِّ ، تفقَّد فيها أحوالهم ، وحثَّهم على الجدِّ والتَّضحية في قتال الأعداء ، كما بعث إلى آل غلطة الَّتي وقفت على الحياد مؤكِّداً عليهم عدم التَّدخُّل فيما سيحدث ، ضامناً لهم الوفاء بعهده معهم ، وأنَّه سيعوِّضهم عن كلِّ ما يخسرونه من جرَّاء ما يحدث .

وفي مساء اليوم نفسه أوقد العثمانيُّون ناراً كثيفةً حول معسكرهم ، وتعالت صيحاتهم ، وأصواتهم بالتَّهليل ، والتَّكبير[٢] ، حتَّى خيِّل للرُّوم أن النَّار قد اندلعت في معسكر العثمانيين ، فإذا بهم يكتشفون : أنَّ العثمانيِّين يحتفلون بالنَّصر مقدَّماً ممَّا أوقع الرُّعب في قلوب الرُّوم ، وفي اليوم التَّالي ٢٨مايو كانت الاستعدادات العثمانيَّة على أشدِّها ، والمدافع ترمي البيزنط بنيرانها ، والسُّلطان يدور بنفسه على المواقع العسكريَّة المختلفة متفقِّداً ، وموجِّهاً ، ومذكِّراً بالإخلاص ، والدُّعاء ، والتَّضحية ، والجهاد[٣] .

وكان الفاتح كلَّما مرَّ بجمعٍ من جنده خطبهم ، وأثار فيهم الحميَّة ، والحماس ، وأبان لهم أنَّهم بفتح القسطنطينية سينالون الشَّرف العظيم ، والمجد الخالد ، والثَّواب الجزيل من الله تعالى ، وستسدُّ دسائس هذه المدينة التَّي طالما مالأت عليهم الأعداء ، والمتآمرين ، وسيكون لأوَّل جندي ينصب راية الإسلام[٤]

---

(١) انظر : تاريخ الدَّولة العليَّة ، محمد فريد ، ص(١٦٤) .
(٢) انظر : تاريخ سلاطين آل عثمان ، يوسف آصاف ، ص(٦٠) .
(٣) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص(٣٧٨) .
(٤) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(١٢٥) .

على سور القسطنطينيَّة الجزاء الأوفى ، والإقطاعات الواسعة .

وكان علماء المسلمين ، وشيوخهم يتجوَّلون بين الجنود ويقرؤون على المجاهدين آيات الجهاد والقتال ، وسورة الأنفال ، ويذكِّرونهم بفضل الشَّهادة في سبيل الله ، وبالشُّهداء السَّابقين حول القسطنطينيَّة ، وعلى رأسهم أبو أيوبٍ الأنصاري ، ويقولون للمجاهدين : لقد نزل سيِّدنا محمد ﷺ عند هجرته إلى المدينة في دار أبي أيوبٍ الأنصاري ، وقد قصد أبو أيوب إلى هذه البقعة ، ونزل هنا ، وكان هذا القول يلهب الجند ، ويبعث في نفوسهم أشدَّ الحماس ، والحميَّة[١] .

وبعد أن عاد الفاتح إلى خيمته ، ودعا إليه كبار رجال جيشه ؛ أصدر إليهم التَّعليمات الأخيرة ، ثمَّ ألقى عليهم الخطبة التَّالية : « إذا تمَّ لنا فتح القسطنطينيَّة ؛ تحقَّق فينا حديثٌ من أحاديث رسول الله ، ومعجزةٌ من معجزاته ، وسيكون من حظِّنا ما أشاد به هذا الحديث من التَّمجيد ، والتَّقدير ، فأبلغوا أبناءنا العساكر فرداً فرداً : أنَّ الظفر العظيم الَّذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدراً ، وشرفاً ، ويجب على كلِّ جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغرَّاء نصب عينيه فلا يصدر عن أحدٍ منهم ما يجافي هذه التَّعاليم ، وليتجنَّبوا الكنائس ، والمعابد ، ولا يمسُّوها بأذىً ، ويدعوا القسس ، والضُّعفاء ، والعجزة الَّذين لا يقاتلون . . . »[٢] .

وفي هذا الوقت كان الإمبراطور البيزنطيُّ يجمِّع النَّاس في المدينة لإقامة ابتهالٍ عامٍّ ، دعا فيه الرِّجال ، والنِّساء ، والصِّبيان للدُّعاء ، والتَّضرُّع ، والبكاء في الكنائس على طريقة النَّصارى لعلَّه أن يستجاب لهم ، فتنجو المدينة من هذا الحصار ، وقد خطب فيهم الإمبراطور خطبةً بليغةً كانت آخر خطبةٍ خطبها ، حيث أكَّد عليهم بالدِّفاع عن المدينة حتَّى لو مات هو ، والاستماتة في حماية النَّصرانيَّة أمام المسلمين العثمانيِّين ، وكانت خطبةً رائعةً كما يقول المؤرِّخون أبكت الجميع من الحاضرين ، كما صلَّى الإمبراطور ومن معه من النَّصارى الصَّلاة الأخيرة في

(١) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(١٢٦) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .

كنيسة آيا صوفيا أقدس الكنائس عندهم[١] ، ثمَّ قصد الإمبراطور قصره يزوره الزِّيارة الأخيرة ، فودَّع جميع من فيه ، واستصفحهم ، وكان مشهداً مؤثِّراً ، وقد كتب مؤرخو النَّصارى عن هذا المشهد ، فقال من حضره : « لو أنَّ شخصاً قلبُه من خشبٍ ، أو صخرٍ لفاضت عيناه بالدُّموع لهذا المنظر »[٢] .

وتوجَّه قسطنطين نحو صورةٍ (يزعمون : أنَّها صورة المسيح) معلَّقةٍ في إحدى الغرف ، فركع تحتها ، وهمهم ببعض الدَّعوات ، ثمَّ نهض ، ولبس المغفر على رأسه ، وخرج من القصر عند نحو منتصف اللَّيل مع زميله ، ورفيقه ، وأمينه المؤرِّخ فرانتزتس ، ثمَّ قاما برحلة تفقُّديَّةٍ لقوات النَّصارى المدافعة ، ولاحظا حركة الجيش العثمانيِّ النَّشطة المتوثِّبة للهجوم البرِّيِّ ، والبحريِّ . وقبيل ذلك اللَّيل بقليلٍ أرذَّت السَّماء رذاذاً خفيفاً ، كأنَّما كانت ترشُّ الأرض رشَّاً ، فخرج السُّلطان الفاتح من خيمته ، ورفع بصره إلى السَّماء ، وقال : « لقد أولانا الله رحمته ، وعنايته ، فأنزل هذا المطر المبارك في أوانه ، فإنَّه سيذهب الغبار ، ويسهِّل لنا الحركة »[٣] .

الحادي عشر : « فتح من الله ، ونصرٌ قريب » :

عند السَّاعة الواحدة صباحاً من يوم الثَّلاثاء ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ الموافق ٢٩ مايو ١٤٣٥م بدأ الهجوم العامُّ على المدينة بعد أن أُصدرت الأوامر للمجاهدين الَّذين علت أصواتهم بالتَّكبير ، وانطلقوا نحو الأسوار ، وخاف البيزنطيُّون خوفاً عظيماً ، وشرعوا في دقِّ نواقيس الكنائس ، والتجأ إليها كثيرٌ من النَّصارى ، وكان الهجوم النِّهائي متزامناً برِّيَّاً ، وبحريَّاً في وقتٍ واحدٍ حسب خطَّةٍ دقيقةٍ أُعدَّت بإحكامٍ ، وكان المجاهدون يرغبون في الشَّهادة ، ولذلك تقدَّموا بكلِّ شجاعةٍ ، وتضحيةٍ ، وإقدامٍ نحو الأعداء ، ونال الكثير من المجاهدين الشَّهادة ، وكان الهجوم موزَّعاً على كثير من المناطق ، ولكنَّه مركَّز بالدَّرجة الأولى في منطقة

---

(١) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(١٢٩) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٣٠) .

وادي ليكوس ، بقيادة السُّلطان محمَّد الفاتح نفسه ، وكانت الكتائب الأولى من العثمانيِّين تمطر الأسوار والنَّصارى بوابلٍ من القذائف والسِّهام محاولين شلَّ حركة المدافعين ، ومع استبسال البيزنطيِّين ، وشجاعة العثمانيِّين كان الضحايا من الطَّرفين يسقطون بأعدادٍ كبيرةٍ[١] ، وبعد أن أُنهِكت الفرقة الأولى الهجوميَّة ؛ كان السُّلطان قد أعدَّ فرقةً أخرى ، فسحب الأولى ، ووجَّه الفرقة الثَّانية ، وكان المدافعون قد أصابهم الإعياء ، وتمكَّنت الفرقة الجديدة من الوصول إلى الأسوار ، وأقاموا عليها مئات السَّلالم في محاولة جادَّةٍ للاقتحام ، ولكنَّ النَّصارى استطاعوا قلب السَّلالم واستمرَّت تلك المحاولات المستميتة من المهاجمين ، والبيزنطيُّون يبذلون قصارى جهودهم للتَّصدِّي لمحاولات التَّسلُّق .

وبعد ساعتين من تلك المحاولات أصدر الفاتح أوامره للجنود لأخذ قسط من الرَّاحة ، بعد أن أرهقوا المدافعين في تلك المنطقة ، وفي الوقت نفسه أصدر أمراً إلى قسمٍ ثالثٍ من المهاجمين بالهجوم على الأسوار من نفس المنطقة ، وفوجئ المدافعون بتلك الموجة الجديدة بعد أن ظنُّوا : أنَّ الأمر قد هدأ ، وكانوا قد أُرهقوا ، في الوقت الَّذي كان المهاجمون دماءً جديدةً معدَّةً ، ومستريحةً ، وفي رغبةٍ شديدةٍ لأخذ نصيبهم من القتال[٢] ، كما كان القتال يجري على قدمٍ وساقٍ في المنطقة البحريَّة ؛ ممَّا شتَّت قوَّات المدافعين ، وأشغلهم في أكثر من جبهةٍ في وقتٍ واحدٍ .

ومع بزوغ نور الصَّباح أصبح المهاجمون يستطيعون أن يحدِّدوا مواقع العدوِّ بدقَّةٍ أكثر ، وشرعوا في مضاعفة جهودهم في الهجوم ، وكان المسلمون في حماسةٍ شديدةٍ ، وحريصين على إنجاح الهجوم ، ومع ذلك أصدر السُّلطان محمَّد الأوامر إلى جنوده بالانسحاب ؛ لكي يتيحوا الفرصة للمَدافع ؛ لتقوم بعملها مرَّةً أخرى ، حيث أمطرت الأسوار ، والمدافعين عنها بوابلٍ من القذائف ، وأتعبتهم بعد سهرهم طوال اللَّيل ، وبعد أن هدأت المدفعيَّة ؛ جاء قسمٌ جديدٌ من شجعان الإنكشاريَّة يقودهم السُّلطان نفسه تغطِّيهم نبالُ وسهامُ المهاجمين الَّتي لا تنفكُّ عن محاولة منع

---

(١) الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص(٣٨٠) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٣٨١) .

المدافعين عنها ، وأظهر جنود الإنكشاريَّة شجاعةً فائقةً ، وبسالةً نادرةً في الهجوم ، واستطاع ثلاثون منهم تسلُّق السُّور أمام دهشة الأعداء ، ورغم استشهاد مجموعةٍ منهم بمن فيهم قائدهم ، فقد تمكنوا من تمهيد الطَّريق لدخول المدينة عند طوب قابي ، ورفعوا الأعلام العثمانيَّة(١) . ممَّا زاد في حماس بقيَّة الجيش للاقتحام كما فتُّوا في عضد الأعداء .

وفي نفس الوقت أصيب قائد المدافعين جستنيان بجراحٍ بليغةٍ دفعته إلى الانسحاب من ساحة المعركة(٢) ممَّا أثَّر في بقيَّة المدافعين ، وقد تولَّى الإمبراطور قسطنطين قيادة المدافعين بنفسه محلَّ جستنيان الَّذي ركب إحدى السُّفن فارَّاً من أرض المعركة ، وقد بذل الإمبراطور جهوداً كبيرةً في تثبيت المدافعين الَّذين دبَّ اليأس في قلوبهم من جدوى المقاومة ، في الوقت الَّذي كان فيه الهجوم بقيادة السُّلطان شخصياً على أشدِّه محاولاً استغلال ضعف الرُّوح المعنويَّة لدى المدافعين .

وقد واصل العثمانيُّون هجومهم في ناحيةٍ أخرى من المدينة حتَّى تمكَّنوا من اقتحام الأسوار والاستيلاء على بعض الأبراج ، والقضاء على المدافعين في باب أدرنة ، ورفعت الأعلام العثمانيَّة عليها ، وتدفَّق الجنود العثمانيُّون نحو المدينة من تلك المنطقة ، ولمَّا رأى قسطنطين الأعلام العثمانيَّة ترفرف على الأبراج الشَّماليَّة للمدينة ، أيقن بعدم جدوى الدِّفاع ، وخلع ملابسه حتَّى لا يعرف ، ونزل عن حصانه ، وقاتل حتَّى قتل في ساحة المعركة(٣) .

وكان لانتشار خبر موته دورٌ كبيرٌ في زيادة حماس المجاهدين العثمانيِّين ، وسقوط عزائم النَّصارى المدافعين ، وتمكَّنت الجيوش العثمانيَّة من دخول المدينة من مناطق مختلفةٍ ، وفرَّ المدافعون بعد انتهاء قيادتهم ، وهكذا تمكَّن المسلمون من الاستيلاء على المدينة ، وكان الفاتح ـ رحمه الله ـ مع جنده في تلك اللَّحظات

---

(١) انظر المصدر السابق نفسه ، ص(٣٨٢) .
(٢) محمَّد الفاتح ، ص(١٣٧) .
(٣) المصدر السابق نفسه ص(١٣٩) .

يشاركهم فرحة النَّصر ، ولذَّة الفوز بالغلبة على الأعداء من فوق صهوة جواده ، وكان قوَّاده يهنئونه ، وهو يقول : (الحمد لله ، ليرحم الله الشهداء ، ويمنح المجاهدين الشَّرف ، والمجد ، ولشعبي الفخر ، والشكر !)[١] .

كان هناك بعض الجيوب الدِّفاعية داخل المدينة الَّتي تسبَّبت في استشهاد عددٍ من المجاهدين ، وقد هرب أغلب أهل المدينة إلى الكنائس ، ولم يأت ظهيرة ذلك اليوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧هـ الموافق ٢٩ من مايو ١٤٥٣م ، إلا والسُّلطان الفاتح في وسط المدينة يحفُّ به جنده ، وقوَّاده ، وهو يردِّدون : ما شاء الله ! فالتفت إليهم ، وقال : لقد أصبحتم فاتحي القسطنطينيَّة الَّذين أخبر عنهم رسول الله ﷺ ، وهنَّأهم بالنَّصر ، ونهاهم عن القتل ، وأمرهم بالرِّفق بالنَّاس ، والإحسان إليهم ، ثمَّ ترجَّل عن فرسه ، وسجد لله على الأرض شكراً ، وحمداً ، وتواضعاً لله تعالى[٢] .

الثَّاني عشر : معاملة محمَّد الفاتح للنَّصارى المغلوبين :

توجَّه محمَّد الفاتح إلى كنيسة آيا صوفيا ، وقد اجتمع فيها خلقٌ كبيرٌ من النَّاس ، ومعهم القسس ، والرُّهبان الَّذين كانوا يتلون عليهم صلواتهم ، وأدعيتهم ، وعندما اقترب من أبوابها خاف النَّصارى داخلها خوفاً عظيماً ، وقام أحد الرُّهبان بفتح الأبواب له ، فطلب من الرَّاهب تهدئة النَّاس ، وطمأنتهم ، والعودة إلى بيوتهم بأمانٍ ، فاطمأنَّ الناس ، وكان بعض الرُّهبان مختبئين في سراديب الكنيسة ، فلمَّا رأوا تسامح الفاتح ، وعفوه ؛ خرجوا ، وأعلنوا إسلامهم ، وقد أمر الفاتح بعد ذلك بتحويل الكنيسة إلى مسجدٍ ، وأن يعدَّ لهذا الأمر حتَّى تقام بها أوَّلُ جمعةٍ قادمة ، وقد أخذ العمَّال يعدُّون لهذا الأمر ، فأزالوا الصُّلبان ، والتَّماثيل ، وطمسوا الصُّور بطبقةٍ من الجير ، وعملوا منبراً للخطيب ، وقد يجوز تحويل الكنيسة إلى المسجد ؛ لأنَّ البلد فتحت عنوةً ، والعنوة لها حكمها في الشَّريعة الإسلاميَّة .

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص(١٣١) .

(٢) الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص(٣٨٣) .

وقد أعطى السُّلطان للنَّصارى حرِّيَّة إقامة الشَّعائر الدِّينيَّة ، واختيار رؤسائهم الدِّينيِّين ؛ الَّذين لهم حقُّ الحكم في القضايا المدنيَّة ، كما أعطى هذا الحقَّ لرجال الكنيسة في الأقاليم الأخرى ، ولكنَّه في الوقت نفسه فرض الجزية على الجميع[١] .

لقد حاول المؤرِّخ الإنجليزيُّ إدوارد شيبردكريسي في كتابه : « تاريخ العثمانيِّين الأتراك » أن يشوِّه صورة الفتح العثمانيِّ للقسطنطينيَّة ، ووصف السُّلطان محمَّد بصفاتٍ قبيحةٍ حقداً منه ، وبغضاً للفتح الإسلاميِّ المجيد[٢] وسارت الموسوعة الأمريكيَّة المطبوعة في عام ١٩٨٠م في حمأة الحقد الصَّليبيِّ ضدَّ الإسلام ، فزعمت : أنَّ السلطان محمَّد قام باسترقاق غالبية نصارى القسطنطينيَّة ، وساقهم إلى أسواق الرَّقيق في مدينة أدرنة ، حيث تمَّ بيعهم هناك[٣] .

إنَّ الحقيقة التَّاريخيَّة النَّاصعة تقول : إنَّ السلطان محمَّداً الفاتح عامل أهل القسطنطينيَّة معاملةً رحيمةً ، وأمر جنوده بحسن معاملة الأسرى ، والرِّفق بهم ، وافتدى عدداً كبيراً من الأسرى من ماله الخاصِّ ، وخاصَّةً أمراء اليونان ، ورجال الدِّين ، واجتمع مع الأساقفة ، وهدَّأ من روعهم ، وطمأنهم إلى المحافظة على عقائدهم ، وشرائعهم ، وبيوت عبادتهم ، وأمرهم بتنصيب بطريرك جديدٍ ، فانتخبوا أجناديوس بطريركاً ، وتوجَّه هذا بعد انتخابه في موكبٍ حافلٍ من الأساقفة إلى مقرِّ السُّلطان ، فاستقبله السُّلطان محمَّد الفاتح بحفاوةٍ بالغةٍ ، وأكرمه أيَّما تكريمٍ ، وتناول معه الطَّعام ، وتحدَّث معه في موضوعاتٍ شتَّى ، دينيَّةٍ ، وسياسيَّةٍ ، واجتماعيَّةٍ ، وخرج البطريرك من لقاء السُّلطان ، وقد تغيَّرت فكرته تماماً عن السَّلاطين العثمانيِّين وعن الأتراك ، بل والمسلمين عامَّةً ، وشعر : أنَّه أمام سلطانٍ مثقَّفٍ صاحب رسالةٍ ، وعقيدةٍ دينيَّةٍ راسخةٍ ، وإنسانيَّة رفيعةٍ ، ورجولةٍ مكتملةٍ ، ولم يكن الرُّوم أنفسهم أقلَّ تأثراً ، ودهشةً من بطريركهم ، فقد كانوا يتصوَّرون : أنَّ القتل العامَّ لا بدَّ لاحقهم ، فلم تمض أيامٌ قليلةٌ حتَّى كان النَّاس

---

(١) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص(٣٨٤) .
(٢) انظر : جوانب مضيئة ، ص(٢٦٥) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢٦٧) .

يستأنفون حياتهم المدنيَّة العاديَّة في اطمئنانٍ ، وسلامٍ[١] .

كان العثمانيُّون حريصين على الالتزام بقواعد الإسلام ، ولذلك كان العدل بين النَّاس من أهمِّ الأمور الَّتي حرصوا عليها ، وكانت معاملتهم للنَّصارى خاليةً من أيِّ شكلٍ من أشكال التَّعصُّب ، والظُّلم ، ولم يخطر ببال العثمانيِّين أن يضطهدوا النَّصارى بسبب دينهم[٢] .

إنَّ مِلَلَ النَّصارى تحت الحكم العثمانيِّ تحصَّلت على جميع حقوقها الدِّينيَّة ، وأصبح لكلِّ ملَّةٍ رئيسٌ دينيٌّ لا يخاطب غير حكومة السُّلطان ذاتها مباشرةً ، ولكلِّ ملَّةٍ من هذه الملل مدارسها الخاصَّة ، وأماكن للعبادة ، والأديرة ، كما أنَّه كان لا يتدخَّل أحدٌ في ماليتها ، وكانت تطلق لهم الحرِّيَّة في تكلُّم اللُّغة الَّتي يريدونها[٣] .

إنَّ السُّلطان محمَّداً الفاتح لم يُظهر ما أظهره من التَّسامح مع نصارى القسطنطينيَّة إلا بدافع التزامه الصَّادق بالإسلام العظيم ، وتأسِّياً بالنَّبيِّ الكريم ﷺ ثمَّ بخلفائه الرَّاشدين من بعده ؛ الَّذين امتلأت صحائف تاريخهم بمواقف التَّسامح الكريم مع أعدائهم[٤] .

* * *

---

(١) انظر : السُّلطان محمَّد الفاتح ، ص(١٣٤ ، ١٣٥) .
(٢) انظر : جوانب مضيئة ، ص(٢٧٤) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢٨٣) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢٨٧) .

المبحث الثّاني

الفاتح المعنوي للقسطنطينيَّة

الشَّيخ آق شمس الدِّين

هو محمَّد بن حمزة الدِّمشقي الرُّومي ، ارتحل مع والده إِلى الرُّوم ، وطلب فنون العلوم ، وتبحَّر فيها ، وأصبح علماً من أعلام الحضارة الإِسلاميَّة في عهدها العثمانيِّ .

وهو معلِّمُ الفاتح ، ومربِّيه ، يتَّصل نسبه بالخليفة الرَّاشد أبي بكرٍ الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ كان مولده في دمشق عام (٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م) حفظ القرآن الكريم وهو في السَّابعة من عمره ، ودرس في أماسيا ، ثمَّ في حلب ، ثمَّ في أنقرة ، وتوفي عام ١٤٥٩م .

درَّس الشَّيخ آق شمس الدِّين الأمير محمَّد الفاتح العلوم الأساسيَّة في ذلك الزَّمن ، وهي القرآن الكريم ، والسُّنَّة النَّبويَّة ، والفقه ، والعلوم الإِسلاميَّة ، واللُّغات (العربيَّة ، والفارسيَّة ، والتُّركيَّة) وكذلك في مجال العلوم العلميَّة من الرِّياضيَّات ، والفلك ، والتَّاريخ ، والحرب . وكان الشيخ آق ضمن العلماء الَّذين أشرفوا على السُّلطان محمَّد عندما تولَّى إِمارة مغنيسيا ليتدرَّب على إِدارة الولاية ، وأصول الحكم .

واستطاع الشيخ آق شمس الدِّين أن يقنع الأمير الصَّغير بأنَّه المقصود بالحديث النَّبويِّ : « **لتفتحن القسطنطينية ، فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش!** »[1] .

وعندما أصبح الأمير محمَّد سلطاناً على الدَّولة العثمانية ، وكان شاباً صغير السِّنِّ وجَّهه شيخه فوراً إِلى التَّحرُّك بجيوشه لتحقيق الحديث النَّبويِّ ، فحاصر العثمانيُّون القسطنطينيَّة برّاً ، وبحراً . ودارت الحرب العنيفة (٥٤) يوماً .

وعندما حقق البيزنطيُّون انتصاراً مؤقَّتاً ، وابتهج الشَّعب البيزنطيُّ بدخول أربع

(١) سبق تخريج الحديث .

سفن أرسلها البابا إليهم ، وارتفعت روحهم المعنويَّة ، اجتمع الأمراء ، والوزراء العثمانيُّون ، وقابلوا السُّلطان محمد الفاتح ، وقالوا له : « إنَّك دفعت بهذا القدر الكبير من العساكر إلى هذا الحصار جرياً وراء كلام أحد المشايخ ـ يقصدون آق شمس الدِّين ـ فهلكت الجنود ، وفسد كثيرٌ من العتاد ، ثم زاد الأمر على هذا بأن أتى عونٌ من بلاد الأفرنج للكافرين داخل القلعة، ولم يعد هناك أملٌ في هذا الفتح»[١]. فأرسل السُّلطان محمَّد وزيره ولي الدِّين أحمد باشا إلى الشَّيخ آق شمس الدِّين في خيمته يسأله الحلَّ ، فأجاب الشَّيخ : (لا بدَّ من أن يمنَّ الله بالفتح)[٢].

ولم يقتنع السلطان بهذا الجواب ، فأرسل وزيره مرَّةً أخرى ليطلب من الشَّيخ أن يوضِّح له أكثر ، فكتب هذه الرِّسالة إلى تلميذه محمَّد الفاتح ، يقول فيها : (هو المعزُّ النَّاصر . . . إن حادث تلك السُّفن قد أحدث في القلوب التَّكسير ، والملامة ، وأحدث في الكفار الفرح والشَّماتة . إن القضيَّة الثَّابتة هي : إنَّ العبد يدبِّر ، والله يقدِّر ، والحكم لله . . ولقد لجأنا إلى الله ، وتلونا القرآن الكريم ، وما هي إلا سنةٌ من النَّوم بعد إلا وقد حدثت ألطاف الله تعالى ، فظهرت من البشارات ما لم يحدث مثلها من قبلُ)[٣] .

أحدث هذا الخطاب راحةً وطمأنينةً في الأمراء ، والجنود . وعلى الفور قرَّر مجلس الحرب العثمانيُّ الاستمرار في الحرب لفتح القسطنطينيَّة ، ثمَّ توجَّه السُّلطان محمَّد إلى خيمة الشَّيخ شمس الدِّين ، فقبَّل يده ، وقال : علِّمني يا سيدي دعاءً أدعو الله به ليوفِّقني! فعلَّمه الشَّيخ دعاءً ، وخرج السُّلطان من خيمة شيخه ليأمر بالهجوم العَّام[٤] .

أراد السلطان أن يكون شيخه بجانبه أثناء الهجوم ، فأرسل إليه يستدعيه ، لكنَّ الشيخ كان قد طلب ألا يدخل عليه أحدٌ الخيمة ، ومنع حرَّاسُ الخيمة رسول السُّلطان من الدُّخول ، وغضب محمَّد الفاتح ، وذهب بنفسه إلى خيمة الشَّيخ ليستدعيه ، فمنع الحراس السُّلطان من دخول الخيمة بناءً على أمر الشَّيخ ، فأخذ

---

(١) انظر : البطولة والفداء عند الصُّوفية ، أسعد الخطيب ، ص(١٤٦) .
(٢) انظر : العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، ص(٣٧٣) .
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) المصدر السابق نفسه .

الفاتح خنجره ، وشقَّ جدار الخيمة في جانبٍ من جوانبها ، ونظر إلى الدَّاخل ، فإذا شيخه ساجد لله في سجدة طويلةٍ ، وعمامته متدحرجةٌ من على رأسه ، وشعر رأسه الأبيض يتدلَّى على الأرض ، ولحيته البيضاء تنعكس مع شعره كالنُّور ، ثمَّ رأى السُّلطان شيخه يقوم من سجدته ، والدُّموع تنحدر على خدَّيه ، فقد كان يناجي ربَّه ، ويدعوه بإنزال النَّصر ، ويسأله الفتح القريب(١) .

وعاد السُّلطان محمَّد الفاتح عقب ذلك إلى مقرِّ قيادته ، ونظر إلى الأسوار المحاصرة ، فإذا بالجنود العثمانيين وقد أحدثوا ثغراتٍ بالسُّور تدفَّق منها الجنود إلى القسطنطينيَّة(٢) .

ففرح السُّلطان بذلك ، وقال : ليس فرحي لفتح المدينة ؛ إنَّما فرحي بوجود مثل هذا الرَّجل في زمني(٣) .

وقد ذكر الشَّوكاني في «البدر الطَّالع» أنَّ الشَّيخ شمس الدِّين ظهرت بركته، وظهر فضله، وأنَّه حدَّد للسُّلطان الفاتح اليوم الذي تفتح فيه القسطنطينيَّة على يديه(٤) .

وعندما تدفَّقت الجيوش العثمانيَّة إلى المدينة بقوَّةٍ ، وحماسٍ ، تقدَّم الشَّيخ إلى السُّلطان الفاتح ليذكِّره بشريعة الله في الحرب ، وبحقوق الأمَّة المفتوحة ، كما هي في الشَّريعة الإسلاميَّة(٥) .

وبعد أن أكرم السلطان محمد الفاتح جنود الفتح بالهدايا ، والعطايا ، وعمل لهم مأدبةً حافلةً استمرت ثلاثة أيَّامٍ ، أقيمت خلالها الزِّينات ، والمهرجانات ، وكان السُّلطان يقوم بخدمة جنوده بنفسه متمثِّلاً بالقول السَّائد : (سيِّد القوم خادمهم) . ثمَّ نهض ذلك الشَّيخ العالم الورع آق شمس الدِّين ، وخطبهم ، فقال : يا جنود الإسلام ! اعلموا ، واذكروا : أنَّ النَّبي ﷺ قال في شأنكم : « لتفتحنَّ القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش »(٦) .

---

(١) العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، ص(٣٧٤) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) انظر : البدر الطالع (٢/١٦٧) .
(٤) المصدر السابق نفسه (٢/١٦٦) .
(٥) انظر : العثمانيُّون في التاريخ والحضارة ، ص(٣٧٤) .
(٦) سبق تخريج الحديث .

ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفِّقنا ويغفر لنا . ألا لاتسرفوا فيما أصبتم من أموال الغنيمة ، ولاتبذِّروا ، وأنفقوها في البرِّ ، والخير لأهل هذه المدينة ، واسمعوا لسلطانكم ، وأطيعوه ، وأحبُّوه . ثمَّ التفت إلى الفاتح ، وقال : يا سلطاني ! لقد أصبحت قرَّة عين آل عثمان ، فكن على الدَّوام مجاهداً في سبيل الله ، ثمَّ صاح مكبراً بالله في صوتٍ جهوريٍّ جليدٍ[1] .

وقد اهتدى الشَّيخ آق شمس الدين بعد فتح القسطنطينية إلى قبر الصَّحابيِّ الجليل أبي أيوب الأنصاريِّ بموضع قريب من سور القسطنطينيَّة[2] .

وكان الشيخ آق شمس الدِّين أوَّل من ألقى خطبة الجمعة في مسجد آيا صوفيا[3] .

●● الشَّيخ شمس الدِّين يخشى على السُّلطان الغرور :

كان السُّلطان محمَّد الفاتح يحبُّ شيخه شمس الدِّين حبَّاً عظيماً ، وكانت له مكانةٌ كبيرةٌ في نفسه ، وقد بيَّن السُّلطان لمن حوله ـ بعد الفتح ـ : « إنَّكم ترونني فرحاً ، فرحي ليس فقط لفتح هذه القلعة ، إنَّ فرحي يتمثَّل في وجود شيخٍ عزيز الجانب في عهدي ، هو مؤدِّبي الشَّيخ آق شمس الدِّين » .

وعبَّر السُّلطان عن تهيُّبه لشيخه في حديثٍ له مع وزيره محمود باشا . قال السُّلطان الفاتح : « إنَّ احترامي للشيخ آق شمس الدِّين احترامٌ غير اختياريٍّ . إنَّني أشعر وأنا بجانبه بالانفعال والرَّهبة »[4] .

ذكر صاحب البدر الطَّالع أنَّه : « . . . ثمَّ بعد يومٍ جاء السُّلطان إلى خيمة صاحب التَّرجمة ـ أي « آق شمس الدِّين » ـ وهو مضطجعٌ ، فلم يقم له ، فقبَّل السُّلطان يده ، وقال له : جئتك لحاجةٍ . قال : وما هي ؟ قال : أن أدخل الخلوة عندك ، فأبى ، فأبرم عليه السُّلطان مراراً ، وهو يقول : لا ! فغضب السُّلطان ،

---

(١) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(١٤٩) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) انظر : العثمانيُّون في التاريخ والحضارة ، ص(٣٧٤) .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص(٣٧٥) .

وقال : إنَّه يأتي إليك واحد من الأتراك فتدخله الخلوة بكلمةٍ واحدة ، وأنا تأبى عليَّ . فقال الشيخ : إنَّك إذا دخلت الخلوة ؛ تجد لذَّةً تسقط عندها السَّلطنة من عينيك ، فتختلَّ أمورها ، فيمقت الله علينا ذلك ، والغرض من الخلوة تحصيل العدالة ، فعليك أن تفعل كذا ، وكذا ، وذكر له شيئاً من النَّصائح ، ثمَّ أرسل إليه ألف دينارٍ ، فلم يقبل ، ولمَّا خرج السُّلطان محمَّد خان ، قال لبعض مَنْ معه : ما قام الشَّيخ لي . فقال له : لعلَّه شاهد فيك من الزُّهوِّ بسبب هذا الفتح الَّذي لم يتيسَّر مثله للسَّلاطين العظام ، فأراد بذلك أن يدفع عنك بعض الزُّهوِّ . . . »[١] .

هكذا كان هذا العالم الجليل الَّذي حرص على تربية محمَّد الفاتح على معاني الإيمان ، والإسلام ، والإحسان ، ولم يكن هذا الشَّيخ متبحِّراً في علوم الدِّين ، والتَّزكية فقط ، بل كان عالماً في النَّبات ، والطِّبِّ ، والصَّيدلة ، وكان مشهوراً في عصره بالعلوم الدُّنيويَّة ، وبحوثه في علم النَّبات ، ومدى مناسبتها للعلاج من الأمراض . وبلغت شهرته في ذلك أن أصبح مثلاً بين النَّاس يقول : (إنَّ النَّبات ليحدِّث آق شمس الدِّين)[٢] .

وقال الشَّوكاني عنه : « . . . وصار مع كونه طبيباً للقلوب طبيباً للأبدان ، فإنَّه اشتهر أن الشَّجرة كانت تناديه ، وتقول : أنا شفاء من المرض الفلاني ، ثمَّ اشتهرت بركته ، وظهر فضله . . »[٣] .

وكان الشيخ يهتمُّ بالأمراض البدنيَّة قدر عنايته بالأمراض النَّفسيَّة .

واهتمَّ الشيخ آق شمس الدِّين اهتماماً خاصّاً بالأمراض المعديَة ، فقد كانت هذه الأمراض في عصره تسبِّب في موت الآلاف ، وألَّف في ذلك كتاباً بالتُّركيَّة بعنوان « مادَّة الحياة » قال فيه : « من الخطأ تصوُّر : أنَّ الأمراض تظهر على الأشخاص تلقائيّاً ، فالأمراض تنتقل من شخصٍ إلى آخر بطريق العدوى ، هذه العدوى صغيرةٌ ، ودقيقةٌ إلى درجة عدم القدرة على رؤيتها بالعين المجرَّدة . لكن هذا

---

(١) البدر الطَّالع (٢/ ١٦٧) .
(٢) العثمانيُّون في التاريخ والحضارة ، ص(٣٧٥) .
(٣) البدر الطَّالع (٢/ ١٦٦) .

يحدث بواسطة بذورٍ حيَّة »[١] .

وبذلك وضع الشَّيخ آق شمس الدين تعريف الميكروب في القرن الخامس عشر الميلادي ، وهو أوَّل مَنْ فعل ذلك ، ولم يكن الميكروسكوب قد خرج بعدُ . وبعد أربعة قرون من حياة الشَّيخ آق شمس الدِّين جاء الكيميائيُّ ، والبيولوجيُّ الفرنسيُّ لويس باستير ليقوم بأبحاثه ، وليصل إلى نفس النَّتيجة .

واهتمَّ الشيخ آق شمس الدِّين أيضاً بالسَّرطان ، وكتب عنه . وفي الطِّبِّ ألَّف الشَّيخ كتابين هما : « مادَّة الحياة » ، و« كتاب الطِّبِّ » وهما باللُّغة التُّركيَّة ، والعثمانيَّة . وللشَّيخ باللُّغة العربيَّة سبع كتب ، هي : حلُّ المشكلات ، الرِّسالة النُّوريَّة ، مقالات الأولياء ، رسالةٌ في ذكر الله ، تلخيص المتائن ، دفع المتائن ، رسالةٌ في شرح حاجي بايرام ولي[٢] .

●● وفاته :

عاد الشيخ إلى موطنه كونيوك بعد أن أحسَّ بالحاجة إلى ذلك ، رغم إصرار السُّلطان على بقائه في إستانبول ، ومات عام ٨٦٣هـ/١٤٥٩م فعليه من الله الرَّحمة ، والمغفرة والرِّضوان[٣] .

وهكذا سنَّة الله في خلقه لايخرج قائدٌ ربَّانيٌّ ، وفاتح مغوارٌ إلا كان حوله مجموعةٌ من العلماء الرَّبانيِّين ، يساهمون في تعليمه ، وتربيته ، وترشيده ، والأمثلة في ذلك كثيرة ، وقد ذكرنا دور عبد الله بن ياسين مع يحيى بن إبراهيم في دولة المرابطين ، والقاضي الفاضل مع صلاح الدِّين في الدَّولة الأيوبيَّة ، وهذا آق شمس الدِّين مع محمَّد الفاتح في الدَّولة العثمانيَّة . فرحمة الله على الجميع ، وتقبل الله جهودهم ، وأعمالهم ، وأعلى ذكرهم في المصلحين !

* * *

(١) العثمانيُّون في التاريخ والحضارة ، ص(٣٧٦) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) المصدر السابق نفسه .

المبحث الثَّالث

أثر فتح القسطنطينيَّة على العالم الأوربيِّ والإسلاميِّ

كانت القسطنطينيَّة قبل فتحها عقبةً كبيرةً في وجه انتشار الإِسلام في أوربة ، ولذلك فإِنَّ سقوطها يعني : فتح الإِسلام لدخول أوربة بقوَّةٍ وسلامٍ لمعتنقيه أكثر من ذي قبل . ويعتبر فتح القسطنطينيَّة من أهمِّ أحداث التَّاريخ العالمي ، وخصوصاً تاريخ أوربة ، وعلاقتها بالإِسلام حتَّى عدَّه المؤرِّخون الأوربيُّون ، ومن تابعهم نهاية العصور الوسطى ، وبداية العصور الحديثة[١] .

وقد قام السُّلطان بعد ذلك على ترتيب مختلف الأمور في المدينة ، وإِعادة تحصينها ، واتَّخذها عاصمةً للدَّولة العثمانيَّة ، وأطلق عليها لقب إِسلام بول ؛ أي : مدينة الإِسلام[٢] .

ولقد تأثَّر الغرب النَّصرانيُّ بنبأ هذا الفتح ، وانتاب النَّصارى شعورٌ بالفزع ، والألم ، والخزي ، وتجسَّم لهم خطر جيوش الإِسلام القادمة من إِستانبول ، وبذل الشُّعراء ، والأدباء ما في وسعهم لتأجيج نار الحقد ، وبراكين الغضب في نفوس النَّصارى ضدَّ المسلمين ، وعقد الأمراء ، والملوك اجتماعاتٍ طويلةً ، ومستمرَّةً ، وتنادى النَّصارى إِلى نبذ الخلافات ، والحزازات ، وكان البابا نيقولا الخامس أشدَّ النَّاس تأثُّراً بنبأ سقوط القسطنطينيَّة ، وعمل جهده ، وصرف وقته في توحيد الدُّول الإِيطاليَّة، وتشجيعها على قتال المسلمين، وترأس مؤتمراً عقد في روما أعلنت فيه الدُّول المشتركة عن عزمها على التَّعاون فيما بينها ، وتوجيه جميع جهودها ، وقوَّتها ضدَّ العدو المشترك . وأوشك هذا الحلف أن يتمَّ إِلا أن الموت عاجل البابا بسبب الصَّدمة العنيفة النَّاشئة عن سقوط القسطنطينيَّة في يد العثمانيين ، والَّتي تسبَّب في همِّه ، وحزنه ، فمات كمداً في ٢٥ مارس سنة ١٤٥٥م[٣] .

---

(١) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، يلماز أوزنتونا ، ص(٣٨٤) .
(٢) انظر : تاريخ الدَّولة العليَّة ، محمَّد فريد بك ، ص(١٦٤) .
(٣) انظر : السُّلطان محمَّد الفاتح ، ص(١٣٦ ، ١٣٧) .

وتحمَّس الأمير فيليب الطيب دوق بورجونديا ، والتهب حماساً ، وحميَّةً واستنفر ملوك النَّصارى إلى قتال المسلمين ، وحذا حذوه البارونات ، والفرسان ، والمتحمِّسون ، والمتعصِّبون للنَّصرانيَّة ، وتحوَّلت فكرة قتال المسلمين إلى عقيدةٍ مقدَّسةٍ تدفعهم لغزو بلادهم ، وتزعَّمت البابويةُ في روما حروبَ النَّصارى ضدَّ المسلمين ، وكان السُّلطان محمَّد الفاتح بالمرصاد لكلِّ تحرُّكات النَّصارى ، وخطَّط ، ونفَّذ ما رآه مناسباً لتقوية دولته ، وتدمير أعدائه ، واضطَّر النَّصارى الَّذين كانوا يجاورون السُّلطان محمَّداً ، أو يتاخمون حدوده في آماسيا ، وبلاد المورة ، وطرابزون ، وغيرهم أن يكتموا شعورهم الحقيقيَّ ، فتظاهروا بالفرح ، وبعثوا وفودهم إلى السُّلطان في أدرنة لتهنئته على انتصاره العظيم[١] .

وحاول البابا بيوس الثَّاني بكلِّ ما أوتي من مقدرةٍ خطابيَّةٍ ، وحنكةٍ سياسيَّةٍ تأجيج الحقد الصَّليبيَّ في نفوس النَّصارى شعوباً ، وملوكاً ، قادةً ، وجنوداً ، واستعدَّت بعض الدُّول لتحقيق فكرة البابا الهادفة للقضاء على العثمانيِّين ، ولمَّا حان وقت النَّفير اعتذرت دول أوربة بسبب متاعبها الدَّاخلية ، فلقد أنهكت حرب المئة عام إنكلترا ، وفرنسا ، كما أنَّ بريطانيا كانت منهمكةً في مشاغلها الدُّستوريَّة ، وحروبها الأهليَّة ، وأمَّا أسبانيا فهي مشغولةٌ بالقضاء على مسلمي الأندلس ، وأمَّا الجمهوريات الإيطاليَّة فكانت تهتمُّ بتوطيد علاقاتها بالدَّولة العثمانيَّة مكرهةً ، وحبَّاً في المال ، فكانت تهتمُّ بعلاقتها مع الدَّولة العثمانيَّة .

وانتهى مشروع الحملة الصَّليبية بموت زعيمها البابا ، وأصبحت المجر ، والبندقيَّة تواجه الدَّولة العثمانيَّة لوحدهما ؛ أمَّا البندقيَّة ، فعقدت معاهدةً صداقةً ، وحسن جوارٍ مع العثمانيِّين رعايةً لمصالحها ، وأمَّا المجر فقد انهزمت أمام الجيوش العثمانيَّة ، واستطاع العثمانيُّون أن يضمُّوا إلى دولتهم بلاد الصِّرب ، واليونان ، والأفلاق ، والقرم ، والجزر الرَّئيسيَّة في الأرخبيل . وقد تمَّ ذلك في فترةٍ قصيرة ، حيث داهمهم السُّلطان الفاتح ، وشتَّت شملهم ، وأخذهم أخذاً عظيماً[٢] .

وحاول البابا (بيوس الثاني) بكلِّ ما أوتي من مهارةٍ ، وقدرةٍ سياسيَّةٍ تركيز

---

(١) انظر : السُّلطان محمَّد الفاتح ، ص(١٤٠) .
(٢) المصدر السابق نفسه .

جهوده في ناحيتين اثنتين : حاول أوَّلاً أن يقنع الأتراك باعتناق الدِّين النَّصرانيِّ ، ولم يقم بإرسال بعثات تبشيريَّة لذلك الغرض ، وإنَّما اقتصر على إرسال خطابٍ إلى السُّلطان محمَّد الفاتح يطلب منه أن يعضد النَّصرانية ، كما عضدها قبله قسطنطين ، وكلوفيس ، ووعده بأنَّه سيكفر عنه خطاياه إن هو اعتنق النَّصرانية مخلصاً ، ووعده بمنحه بركته ، واحتضانه ، ومنحه صكّاً بدخول الجنَّة . ولما فشل البابا في خطَّته هذه لجأ إلى الخطَّة الثَّانية خطَّة التَّهديد ، والوعيد ، واستعمال القوَّة ، وكانت نتائج هذه الخطَّة الثَّانية قد بدأ فشلها مسبقاً بهزيمة الجيوش الصَّليبيَّة ، والقضاء على الحملة الَّتي قادها هونياد المجري[١] .

وأمَّا آثار هذا الفتح المبين في المشرق الإسلاميِّ ؛ فنقول : لقد عمَّ الفرح ، والابتهاج المسلمين في ربوع آسيا ، وأفريقية ، فقد كان هذا الفتح حلم الأجداد ، وأمل الأجيال ، ولقد تطلَّعت له طويلاً ، وها قد تحقَّق ، وأرسل السُّلطان محمَّد الفاتح رسائل إلى حكَّام الدِّيار الإسلاميَّة في مصر ، والحجاز ، وبلاد فارس ، والهند ، وغيرها ، يخبرهم بهذا النَّصر الإسلاميِّ العظيم ـ وأذيعت أنباء الانتصار من فوق المنابر ، وأقيمت صلوات الشُّكر ، وزُيِّنت المنازل ، والحوانيت ، وعلِّقت على الجدران ، والحوائط الأعلام ، والأقمشة المزركشة بألوانها المختلفة[٢] .

يقول ابن إياس صاحب كتاب « بدائع الزُّهور » في هذه الواقعة : « فلمَّا بلغ ذلك ، ووصل وفد الفاتح ؛ دُقَّت البشائر بالقلعة ، ونودي في القاهرة بالزِّينة ، ثمَّ إنَّ السُّلطان عيَّن برسباي أمير آخور ثاني رسولاً إلى ابن عثمان يهنِّئه بهذا الفتح »[٣] .

وندع المؤرِّخ أبا المحاسن بن تغري بردي يصف شعور النَّاس ، وحالهم في القاهرة عندما وصل إليها وفد الفاتح ، ومعهم الهدايا ، وأسيران من عظماء الرُّوم ، قال : « قلت : ولله الحمد والمنَّة على هذا الفتح العظيم ، وجاء القاصد المذكور ، ومعه أسيران من عظماء إستانبول ، وطلع بهما إلى السُّلطان (سلطان مصر إينال) وهما من أهل القسطنطينيَّة ، وهي الكنيسة العظيمة بإستانبول ، فسرَّ السُّلطان ،

---

(١) انظر : السُّلطان محمَّد الفاتح ، ص(١٤١) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٤٢) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه .

والنَّاس قاطبةً بهذا الفتح العظيم ، ودُقَّت البشائر لذلك ، وزُيِّنت القاهرة بسبب ذلك أيَّاماً ، ثمَّ طلع القاصد المذكور وبين يديه الأسيران إلى القلعة في يوم الإثنين خامس وعشرين شوَّال بعد أن اجتاز القاصد المذكور ، ورفقته شوارع القاهرة ، وقد احتفل النَّاس بزينة الحوانيت ، والأماكن ، وأمعنوا في ذلك إلى الغاية ، وعمل السُّلطان الخدمة بالحوش السُّلطاني من قلعة الجبل . . . »[١] .

وهذا الَّذي ذكره ابن تغري بردي من وصف احتفال النَّاس ، وأفراحهم في القاهرة بفتح القسطنطينيَّة ما هو إلا صورةٌ لنظائر لها قامت في البلاد الإسلاميَّة الأخرى . وقد بعث السُّلطان محمَّد الفاتح برسائل الفتح إلى سلطان مصر ، وشاه إيران ، وشريف مكَّة ، وأمير القرمان ، كما بعث بمثل هذه الرَّسائل إلى الأمراء المسيحيِّين المجاورين له في المورة ، والأفلاق ، والمجر ، والبوسنة ، وصربيا ، وألبانيا ، وإلى جميع أطراف مملكته[٢] .

●● من رسالة الفاتح إلى سلطان مصر :

وإليك مقتطفاتٍ من رسالة الفاتح إلى أخيه سلطان مصر الأشرف إينال ، وهي من إنشاء الشَّيخ أحمد الكوراني : « . . إنَّ من أحسن سنن أسلافنا ـ رحمهم الله تعالى ـ : أنَّهم مجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ونحن على تلك السُّنَّة قائمون ، وعلى تيك الأمنية دائمون ، ممتثلين قوله تعالى : ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة : ٢٩] ومستمسكين بقوله عليه السَّلام : « **من اغبرَّت قدماه في سبيل الله حرَّمه الله على النَّار** » فَهِمَمْنا في هذا العام عمَّمها الله بالبركة والإنعام ، معتصمين بحبل الله ذي الجلال ، والإكرام ، ومتمسِّكين بفضل الملك العلام إلى أداء فرض الغزاء في الإسلام مؤتمرين بأمره تعالى : ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة : ١٢٣] وجهَّزنا عساكر الغزاة ، والمجاهدين من البرِّ ، والبحر لفتح مدينةٍ ملئت فجوراً ، وكفراً ؛ الَّتي بقيت وسط الممالك الإسلاميَّة ، تباهي بكفرها فخراً .

---

(١) النُّجوم الزَّاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، (١٦/ ٧١) .
(٢) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(١٤٢) .

فَكَـأنَّهَـا حَصَـفٌ[1] عَلَى الخَدِّ الأَغَرِّ   وَكَـأَنَّهَـا كَلَـفٌ عَلَـى وَجْـهِ القَمَـر

.... هذه المدينة الواقع جانبٌ منها في البحر ، وجانب منها في البرِّ ، فأعددنا لها كما أمرنا الله بقوله : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال : ٦٠] كلَّ أهبة يعتدُّ بها ، وجميع أسلحةٍ يعتمد عليها من البرق ، والرَّعد ، والمنجنيق ، والنَّقب ، والحجور ، وغيرها من جانب البرِّ ، والفُلك المشحون ، والجوار المنشآت في البحر كالأعلام من جانب البحر ، ونزلنا عليها في السَّادس والعشرين من ربيع الأوَّل من شهور سنة سبع وخمسين وثمانمئة .

فَقُلْتُ لِلنَّفْسِ جِدِّي الآنَ فاجْتَهِدِي   وَسَـاعِـدِيْنـي فَهَـذَا مَـا تَمَنَيْـتُ

فكلَّما دُعوا إلى الحقِّ ؛ أصرُّوا ، واستكبروا ، وكانوا من الكافرين ، فأحطنا بها محاصرةً ، وحاربناهم ، وحاربونا ، وقاتلناهم ، وقاتلونا ، وجرى بيننا وبينهم القتال أربعةً وخمسين يوماً وليلةً .

إِذَا جَـاءَ نَصْـرُ اللهِ وَالْفَتْـحُ هَيِّـنٌ   عَلَـى الْمَـرْءِ مَعْسُـورُ الأُمُـورِ وصَعْبُهَـا

فمتى طلع الصُّبح الصَّادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من جمادى الأولى ؛ هجمنا مثل النُّجوم رجوماً لجنود الشَّياطين ، سخَّرها الحكم الصِّدِّيقيُّ ببركة العدل الفاروقيِّ بالضَّرب الحيدري لآل عثمان قد منَّ الله بالفتح قبل أن تظهر الشَّمس من مشرقها ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر : ٤٥ ـ ٤٦] وأوَّل من قُتل ، وقُطع رأسه تكفورهم اللَّعين الكنود ، فأهلكوا كقوم عاد ، وثمود ، فحفظهم ملائكة العذاب ، فأوردهم النَّار ، وبئس المآب ، فقُتل من قُتل ، وأُسر مَنْ به بقي ، وأغاروا على خزاينهم ، وأخرجوا كنوزهم ، ودفافينهم ، موفوراً ، فأتى عليهم حينٌ من الدَّهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام : ٤٥] فيومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله ، فلمَّا ظهرنا على هؤلاء الأرجاس الأنجاس الحلوس ؛ طهَّرنا القوس من القسوس ، وأخرجنا منه الصَّليب ، والنَّاقوس ، وصيَّرنا معابد عبدة الأصنام مساجد أهل الإسلام ، وتشرَّفت تلك الخطَّة بشرف السِّكَّة والخطبة ، فوقع أمر الله وبطل ما كانوا

(١) « حصف » : هو الجرب اليابس .

يعملون . . »[١] .

وأرسل السُّلطان الفاتح رسالة إلى شريف مكَّة عن طريق سلطان مصر ، وقد ردَّ سلطان مصر على خطاب السُّلطان محمَّد ، وهداياه بمقطوعةٍ من النَّثر الأدبيِّ الرَّفيع ، وجاءت فيها بعض الأبيات الشِّعريَّة المعبِّرة ، مثل قول الشَّاعر :

خَطَبْتُهَـــا بِكْـــراً وَمَـــا أَمْهَـــرْتُهَـــا إِلا قَنَـــاً وَقَـــوَاضِبَـــاً وَفَـــوَارِسَـــا
مَـنْ كَـانَـتِ السُّمْـرُ العَـوالـي مَهْـرَهُ جُلِبَـتْ لَـهُ بِيْـضُ الحُصُـونِ عَـرَايِسَـا
الله أَكْبَـــرُ مَـــا جَنَيْـــتَ ثِمَـــارَهَـــا إِلا وَكَـانَ أَبُـوْكَ قَبْلَـكَ غـارسـا[٢]

وقد جاء في رسالة سلطان مصر أيضاً هذا البيت : قال الشاعر :

الله أَكْبَـــرُ هَـــذَا النَّصْـــرُ والظَّفَـــرُ هَذَا هُوَ الفَتْحُ لاَ مَا يَزْعُمُ البَشَرُ[٣]

وقال شاعر سلطان مصر بمناسبة فتح القسطنطينيَّة :

كَـذَا فَلْيَكُـنْ فِـي اللهِ جُـلُّ العَـزَايِـمِ وَإِلا فَـلاَ تَجْفُـو الجُفُـوْنُ الصَّـوارِمُ
كَتَـائِبُـكَ البَحْـرُ الخِضَـمُّ جِيَـادُهـا إِذَا مَـا تَهَـدَّتْ مَـوْجُـه المُتَـلاطِـمُ
تُحِيْـــطُ بِمَنْصُـــورِ اللِّـــوَاءِ مُظَفَّـــرٌ لَـهُ النَّصْـرُ وَالتَّـأْيِيْـدُ عَبْـدٌ وَخَـادِمُ
فَيَـا نَـاصِـرَ الإِسْـلاَمِ يَـا مَـنْ بِغَـزْوِهِ عَلَـىٰ الكُفْـرِ أَيَّـامُ الـزَّمَـانِ مَـواسِـمُ
تهـنَّ بِفَتْـحٍ سَـارَ فِـي الأَرْضِ ذِكْـرُهُ سَرَىٰ الغَيْثُ يَحْدُوهُ الصَّبا والنَّعايِمُ[٤]

●● رسالة السُّلطان محمَّد الفاتح إلى شريف مكَّة :

وجَّه السُّلطان محمَّد الفاتح رسالةً إلى شريف مكَّة المكرَّمة بمناسبة فتح القسطنطينيَّة بشَّره فيها بالفتح ، وطلب الدُّعاء ، وأرسل له الهدايا من الغنائم ، وهذه بعض فقراتها :

بعد مقدِّمةٍ في المدح ، والثَّناء على شريف « مكَّة المكرَّمة » يقول : « فقد أرسلنا هذا الكتاب مبشِّراً بما رزق الله لنا في هذه السَّنة من الفتوح الَّتي لا عَينٌ

(١) محمَّد الفاتح ، ص(١٦٣ ـ ١٦٧) .
(٢) المصدر السابق نفسه : ص(١٧٥) .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص(١٧٦) .
(٤) المصدر السابق نفسه ، ص(١٧٧) .

رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، وهي تسخير البلدة المشهورة بالقسطنطينيَّة ، فالمأمول من مقرِّ عزِّكم الشَّريفة أن يُبشِّر بقدوم هذه المسرَّة العظمى ، والموهبة الكبرى ، مع سكان الحرمين الشَّريفين ، والعلماء ، والسَّادات المهتدين ، والزُّهاد ، والعبَّاد الصالحين ، والمشايخ ، والأمجاد الواصلين ، والأئمَّة الخيار المتَّقين ، والصِّغار ، والكبار أجمعين ، والمتمسِّكين بأذيال سرادقات بيت الله الحرام ، الَّتي كالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والمشرفين بزمزم ، والمقام ، والمعتكفين في قرب جوار رسول الله عليه التَّحيَّة والسَّلام ، داعين لدوام دولتنا في العرفات متضرِّعين من الله نصرتنا ، أفاض علينا بركاتهم ورفع درجاتهم ، وبعثنا مع المشار إليه هديةً لكم خاصَّةً ألفي فلوري من الذَّهب الخالص التَّامِّ الوزن ، والعيار المأخوذ من تلك الغنيمة ، وسبعة آلاف فلوري أخرى للفقراء ، منها ألفان للسَّادات ، والنُّقباء ، وألف للخدَّام المخصوصين للحرمين ، والباقي للمساكين المحتاجين في مكَّة ، والمدينة المنورَّة ، زادهما الله شرفاً ، فالمرجو منكم التَّقسيم بينهم بمقتضى احتياجهم ، وفقرهم ، وإشعار كيفيَّة السَّير إلينا ، وتحصيل الدُّعاء منهم لنا دائماً باللُّطف ، والإحسان إن شاء الله تعالى ، والله يحفظكم ، ويبقيكم بالسَّعادة الأبديَّة ، والسِّيادة السَّرمديَّة إلى يوم الدِّين »[1] .

وقد ردَّ شريف مكَّة على رسالة السُّلطان محمَّد الفاتح :

« وفتحناها بكمال الأدب ، وقرأناها مقابل الكعبة المعظَّمة بين أهل الحجاز ، وأبناء العرب ، فرأينا فيها من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ، وشاهدنا من فحاويها ظهور معجزة رسول الله خاتم النَّبيِّين ، وما هي إلا فتح « القسطنطينيَّة » العظمى ، وتوابعها الَّتي متانة حصنها مشهورةٌ بين الأنام ، وحصانة سورها معروفةٌ عند الخواصِّ والعوامِّ ، وحمدنا الله بتيسير ذلك الأمر العسير ، وتحصيل ذلك المهمِّ الخطير ، وبشَّنا ذلك غاية البشاشة ، وابتهجنا من إحياء مراسم آبائكم العظام ، والسُّلوك مسالك أجدادكم الكرام ، روَّح الله أرواحهم ، وجعل أعلى غرف الجنان مكانهم ، في إظهار المحبَّة لسكَّان الأراضي المقدَّسة »[2] .

* * *

---

(١) الدَّولة العثمانيَّة ، الدُّكتور جمال عبد الهادي ، ص(٤٧) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص(٤٨) .

المبحث الرَّابع

أسباب فتح القسطنطينيَّة

إن فتح المسلمين للقسطنطينيَّة لم يأت من فراغٍ ، وإنَّما هو نتيجةٌ لجهودٍ تراكميَّة قام بها المسلمون منذ العصور الأولى للإسلام ، رغبةً من تلك الأجيال في تحقيق بشارة رسول الله ﷺ . وزاد الاهتمام بفتح القسطنطينيَّة مع ظهور دولة بني عثمان ، ونلاحظ أنَّ سلاطين الدَّولة العثمانيَّة كانوا أصحاب فقهٍ عميقٍ لسنَّة الأخذ بالأسباب ، ومارس محمَّد الفاتح ذلك الفقه ، ويظهر ذلك من خلال سيرته الجهاديَّة ، وحرصه على العمل بقوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال : ٦٠]

لقد فهم محمَّد الفاتح من هذه الآية أنَّ أمر التَّمكين لهذا الدِّين يحتاج إلى جميع أنواع القوى على اختلافها ، وتنوُّعها ، ولقد قام بشرح هذه الآية شرحاً عمليّاً في جهاده الميمون ، فقام بحشد جيشٍ عظيمٍ لحصار القسطنطينية ، ولم يتوان في جلب كلِّ سلاحٍ معروف في زمانه من مدافع ، وفرسان ، ورماة . . . إلخ .

ولقد كان الجيش الَّذي حاصر القسطنطينيَّة بقيادة محمَّد الفاتح قد أُعدَّ إعداداً ربَّانياً ، فتربى على معاني الإيمان والتَّقوى ، وتحمَّل الأمانة ، وأداء الرِّسالة المنوطة به ، ولقد تربَّى على معاني العقيدة الصَّحيحة ، وأشرف العلماء الرَّبَّانيُّون على تلك التَّربية ، ولقد جعلوا من كتاب الله تعالى ، وسنَّة نبيِّه منهجاً لهم في تربية الأفراد ، فكانوا يربُّونهم على :

١ ـ أنَّ الله تعالى واحدٌ لا شريك له ، ولم يتَّخذ صاحبةً ، ولا ولداً ، وأنَّه منزَّهٌ عن النَّقائص ؛ وموصوف بالكمالات الَّتي لا تتناهىٰ .

٢ ـ وأنه سبحانه خالق كل شيء ، ومالكه ، ومدبر أمره ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ . [الأعراف : ٥٤] .

٣ ـ وأنَّه سبحانه وتعالى مصدر كلِّ نعمةٍ في هذا الوجود ، دقَّت ، أو عظمت ،

ظهرت ، أو خفيت ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النَّحل : ٥٣] .

٤ ـ وأنَّ علمه محيطٌ بكلِّ شيءٍ ، فلا تخفى عليه خافيةٌ في الأرض ، ولا في السَّماء ، وما يخفي الإنسان ، وما يعلن ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق : ١٢] .

٥ ـ وأنَّه سبحانه يقيِّد على الإنسان أعماله بواسطة ملائكته في كتابٍ لا يترك صغيرةً ، ولا كبيرة إلا أحصاها ، وسينشر ذلك في اللحظة المناسبة ، والوقت المناسب ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق : ١٨] .

٦ ـ وأنَّه سبحانه يبتلي عباده بأمورٍ تخالف ما يحبُّون ، وما يهوون ؛ ليعرف النَّاس معادنهم ، مَنْ منهم يرضى بقضاء الله وقدره ، ويسلِّم له ظاهراً ، وباطناً ، فيكون جديراً بالخلافة والإمامة والسِّيادة. وَمَنْ منهم يغضب، ويسخط، فلا يساوي شيئاً، ولا يسند إليه شيء : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك : ٢].

٧ ـ وأنَّه سبحانه يوفِّق ، ويؤيِّد ، وينصر مَنْ لجأ إليه ، ولاذ بحماه ، ونزل على حكمه في كلِّ ما يأتي ، وما يذر : ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأعراف : ١٩٦] .

٨ ـ وأنَّه سبحانه وتعالى حقُّه على العباد أن يعبدوه ، ويوحِّدوه ، فلا يشركوا به شيئاً ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [الزمر : ٦٦] .

٩ ـ وأنَّه سبحانه حدَّد مضمون هذه العبودية ، وهذا التَّوحيد في القرآن العظيم.

ولقد نهج علماء الدَّولة العثمانيَّة منهج الرَّسول ﷺ في تربية الأفراد ، والجنود على حقيقة المصير ، وسبيل النَّجاة ، وركَّزوا في البيان على الجوانب التَّالية :

١ ـ إنَّ هذه الحياة مهما طالت ؛ فهي إلى زوالٍ ، وإنَّ متاعها مهما عظم فإنَّه قليلٌ : ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس : ٢٤] .

﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النِّساء : ٧٧] .

٢ ـ وأنَّ كلَّ الخلق إلى الله راجعون ، وعن أعمالهم مسؤولون ، ومحاسبون ، وفي الجنَّة ، أو في النَّار مستقرُّون : ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة : ٣٦] .

٣ ـ وأنَّ نعيم الجنَّة ينسي كلَّ تعبٍ ومرارةٍ في الدُّنيا ، وكذلك عذاب النَّار ينسي كلّ راحةٍ وحلاوةٍ في هذه الدُّنيا : ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء : ٢٠٥ ـ ٢٠٧] .

٤ ـ وأنَّ النَّاس مع زوال الدُّنيا ، واستقرارهم في الجنَّة ، أو في النَّار سيمرُّون بسلسلةٍ طويلةٍ من الأهوال ، والشَّدائد : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج : ١ ـ ٢] .

وقال تعالى : ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ [المزمِّل : ١٧ ـ ١٨] .

٥ ـ وسبيل النَّجاة من شرِّ هذه الأهوال ، ومن تلك الشَّدائد ، والظَّفر بالجنَّة ، والبعد عن النار[1] بالإيمان بالله تعالى ، وعمل الصَّالحات ابتغاء مرضاته : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [البروج : ١١] .

ومضى العلماء الرَّبَّانيُّون في الدَّولة العثمانيَّة على منهج الرَّسول ﷺ في تبصير الأفراد ، والجنود ، والقادة ، والشَّعب بدورهم ، ورسالتهم في الأرض ، ومنزلتهم ، ومكانتهم عند الله . وظلُّوا على هذه الحال من التَّبصير ، والتَّذكير حتَّى انقدح في ذهنهم ما لهم عند الله ، وما دورهم ورسالتهم في الأرض . وتأثُّراً بهذه التَّربية الحميدة تولَّدت الحماسة ، والعزيمة في نفوس الأفراد ، والجنود ، والقادة ، فهذا محمَّد الفاتح نفسه الذي تربَّى على هذا المنهج يفتخر بهذه المعاني والقيم في أشعاره ، فنجده يقول :

وحماسي : بذل الجهد لخدمة ديني ، دين الله .

عزمي : أن أقهر أهل الكفر جميعاً بجنودي : جند الله .

وتفكيري : منصبٌّ على الفتح ، على النَّصر ، على الفوز ، بلطف الله .

---

(١) انظر : منهج الرَّسول في غرس الروح الجهاديَّة ، ص(١٩ ـ ٣٤) .

جهادي : بالنَّفس ، وبالمال ، فماذا في الدُّنيا بعد الامتثال لأمر الله ؟!

وأشواقي : الغزو مئات الآلاف من المرَّات لوجه الله .

رجائي : في نصر الله ، وسموِّ الدَّولة على أعداء الله[١] .

وعندما أراد السُّلطان محمَّد فَتْحَ مدينة طرابزون ، وكان حاكمها نصرانيّاً ، وكان يريد أن يباغتها على غرَّةٍ ، فأعدَّ العدَّة ، واستصحب معه عدداً كبيراً من العمَّال المتخصِّصين في قطع الأشجار ، وتعبيد الطُّرق . وقد صادف الفاتح في طريقه بعض الجبال العالية الوعرة فترجَّل عن فرسه ، وتسلَّقها على يديه ، ورجليه كسائر الجند (وكانت معه والدة حسن أوزون زعيم التُّركمان جاءت للإصلاح بين السُّلطان محمَّد وابنها) فقالت له : « فيم تشقى كلَّ هذا الشَّقاء يا بنيَّ ، وتتكبَّد كلَّ هذا العناء ، هل تستحقُّ طرابزون كلَّ هذا ؟ » . . فأجاب الفاتح : يا أماه ! إنَّ الله قد وضع هذا السَّيف في يدي لأجاهد به في سبيله ، فإذا أنا لم أتحمَّل هذه المتاعب ، وأؤدِّ بهذا السيف حقَّه ؛ فلن أكون جديراً بلقب الغازي الَّذي أحمله ، وكيف ألقى الله بعد ذلك يوم القيامة ؟![٢] وهكذا كان معظم الجنود ، والقادة بسبب تربيتهم الإيمانيَّة العميقة .

لقد كان جيش محمَّد الفاتح في حصار القسطنطينيَّة على جانبٍ عظيمٍ من التمسُّك بالعقيدة الصَّحيحية ، والعبادات ، وإقامة شعائر الدِّين ، والخضوع لله ربِّ العالمين[٣] .

لقد ذكر المؤرِّخون أسباباً كثيرةً في فتح القسطنطينيَّة ، كضعف الدَّولة البيزنطيَّة ، والصِّراعات العقديَّة بداخلها ، والتآكل الدَّاخلي للدُّول الأوربيَّة بسبب القتال ؛ الذي نشأ بين الدُّول الأوربيَّة لعقود طويلةٍ ، وغير ذلك من الأسباب .

●● أثر تحكيم شرع الله تعالى على الدَّولة العثمانيَّة في زمن السُّلطان محمَّد الفاتح :

إنَّ التأمُّل في كتاب الله ، وسنَّة رسوله ﷺ ، وفي حياة الأمم والشُّعوب تكسب

---

(١) انظر : العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، ص(٢٥٨) .

(٢) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(٢٦٣) .

(٣) انظر : الحسبة في العصر المملوكي ، د . حيدر الصَّافح ، ص(٢٠٦) .

العبد معرفةً أصيلةً بأثر سنن الله في الأنفس ، والكون ، والآفاق ، وكتاب الله تعالى مليءٌ بسننه ، وقوانينه المبثوثة في المجتمعات ، والدُّول ، والشُّعوب ، قال تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء : ٢٦] .

وسنن الله تتَّضح بالتَّدبر في كتاب الله ، وفيما صحَّ عن رسول الله ﷺ ، فقد كان ﷺ يقتنص الفرص ، ويستفيد من الأحداث ليرشد أصحابه إلى شيءٍ من السُّنن ، ومن ذلك : أنَّ ناقته ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ « العضباء » كانت لا تُسبق ، فحدث مرَّةً أن سبقها أعرابيٌّ على قعودٍ له ، فشقَّ ذلك على أصحاب النَّبيِّ ﷺ ، فقال لهم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ كاشفاً عن سنَّةٍ من سنن الله : « حقٌّ على الله أن لا يرفع شيئاً من الدُّنيا إلا وضعه »[(١)] .

وقد أرشدنا كتاب الله إلى تتبُّع آثار السُّنن في الأمكنة بالسَّعي ، والسَّيْر ، وفي الأزمنة من التَّاريخ ، والسِّير ، قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٧ ـ ١٣٨] .

وأرشدنا القرآن الكريم إلى معرفة السُّنن بالنَّظر ، والتَّفكُّر ، قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ [يونس : ١٠١ ـ ١٠٢] .

* ومن خلال آيات القرآن يظهر لنا أنَّ السُّنن الإلهيَّة تختصُّ بخصائص :

أوَّلاً : إنَّها قدرٌ سابقٌ :

قال تعالى : ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب : ٣٨] .

أي : أنَّ حكم الله تعالى وأمره الَّذي يقدِّره كائنٌ لا محالة ، وواقعٌ لا حياد عنه ، ولا معدل ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

---

(١) أخرجه البخاريُّ : كتاب الجهاد والسِّير ، باب : ناقة رسول الله (٦/ ٨٦) .

ثانيًا : إنَّها لا تتحوَّل ، ولا تتبدَّل :

قال تعالى : ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٦٠ ـ ٦١] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح : ٢٢ ـ ٢٣] .

ثالثًا : إنَّها ماضية لا تتوقَّف :

قال تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٨] .

رابعاً : إنَّها لا تخالف ، ولا تنفع مخالفتها :

قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٢ ـ ٨٥] .

خامساً : لا ينتفع بها المعاندون ، ولكن يتَّعظ بها المتَّقون :

قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٧ ـ ١٣٨] .

سادساً : إنَّها تسري على البرِّ والفاجر :

فالمؤمنون والأنبياء أعلاهم قدراً تسري عليهم سنن الله ، ولله سننٌ جاريةٌ تتعلَّق بالآثار المترتِّبة على من امتثل أمر الله ، أو أعرض عنه ، وبما أنَّ العثمانيِّين التزموا بشرع الله في كلِّ شؤونهم ، ومرُّوا بمراحل طبيعيَّةٍ في حياة الدُّول ، فإنَّ أثر حكم الله فيهم واضحٌ بيِّن .

وللحكم بما أنزل الله آثارٌ دنيويَّة ، وأخرى أخرويَّةٌ . أمَّا الآثار الدُّنيويَّة الَّتي ظهرت لي من خلال دراستي للدَّولة العثمانيَّة ؛ فإنَّها :

أوَّلاً : الاستخلاف ، والتَّمكين :

حيث نجد العثمانيِّين منذ زعيمهم الأوَّل عثمان حتَّى محمَّد الفاتح ، ومن بعده حرصوا على إقامة شعائر الله على أنفسهم ، وأهليهم ، وأخلصوا لله في تحاكمهم إلى شرعه ، فالله سبحانه وتعالى قوَّاهم ، وشدَّ أزرهم ، واستخلفهم في الأرض ، وأقام العثمانيُّون شريعة الله في الأرض الَّتي حكموها ، فمكَّن لهم المولى ـ عزَّ وجل ـ الملك ، ووطَّأ لهم السُّلطان .

وهذه سنَّةٌ ربَّانيَّةٌ نافذةٌ لا تتبدَّل في الشُّعوب والأمم ؛ الَّتي تسعى جاهدةً لإقامة شرع الله .

وقد خاطب تعالى المؤمنين من هذه الأمَّة واعداً إيَّاهم بما وعد به المؤمنين قبلهم ، فقال سبحانه في سورة النُّور : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النُّور : ٥٥] من بني إسرائيل .

ولقد حقَّق العثمانيُّون الإيمان ، وتحاكموا إلى شريعة الرَّحمن ، فأتتهم ثمرة ذلك ، وأثره الباقي ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ [النُّور : ٥٥] فحقَّقوا التَّحاكم إلى الدِّين ، فتحقَّق لهم التَّمكين .

ثانياً : الأمن والاستقرار :

كانت بلاد آسيا الصُّغرى مضطربةً ، وكثرت فيها الإمارات المتنازعة ، وبعد أن أكرم الله تعالى العثمانيِّين بتوحيد تلك الإمارات ، وتوجيهها نحو الجهاد في سبيل الله تعالى ؛ يسَّر الله للدَّولة العثمانيَّة الأمن ، والاستقرار في تلك الرُّبوع الَّتي حكم فيها شرع الله .

حيث نجد أنَّ الدَّولة العثمانيَّة بعد أن استُخلفت مكَّن الله لها ، وأعطاها دواعي الأمن ، وأسباب الاستقرار حتَّى تحافظ على مكانتها ، وهذه سنَّةٌ جاريةٌ ماضيةٌ ضَمِن الله لأهل الإيمان والعمل بشرعه ، وحكمه أن ييسِّر لهم الأمن ؛ الَّذي ينشدون

في أنفسهم ، وواقعهم ، فبيده سبحانه مقاليد الأمور ، وتصريف الأقدار ، وهو مقلِّب القلوب ، والله يهب الأمن المطلق لمن استقام على التَّوحيد ، وتطهَّر من الشِّرك بأنواعه ، قال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام : ٨٢] .

فنفوسهم في أمنٍ من المخاوف ، ومن العذاب ، والشَّقاء إذا خلصت لله من الشِّرك : صغيره ، وكبيره . إنَّ تحكيم شرع الله فيه راحةٌ للنُّفوس ؛ لكونها تمسُّ عدل الله ، ورحمته ، وحكمته .

إنَّ الله تعالى بعد أن وعد المؤمنين بالاستخلاف ، ثمَّ التَّمكين لم يحرمهم بعد ذلك من التأمين ، والتَّطمين ، والبعد عن الخوف ، والفزع .

إنَّ العثمانيِّين عندما حقَّقوا العبوديَّة لله ، ونبذوا الشِّرك بأنواعه ؛ حقَّق الله لهم الأمن في النُّفوس على مستوى الشَّعب والدَّولة .

ثالثاً : النَّصر ، والفتح :

إنَّ العثمانيِّين حرصوا على نصرة دين الله بكلِّ ما يملكون ، وتحقَّقت فيهم سنَّة الله في نصرته لمن ينصره ؛ لأنَّ الله ضمن لمن استقام على شرعه أن ينصره على أعدائه بعزَّته ، وقوَّته ، قال تعالى : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج : ٤٠ ـ ٤١] .

« وما حدث قطُّ في تاريخ البشريَّة أن استقامت جماعةٌ على هدى الله إلا منحها القوَّة ، والمنعة ، والسِّيادة في نهاية المطاف . . إنَّ الكثيرين ليشفقون من اتِّباع شريعة الله ، والسَّير على هداه ، يشفقون من عداوة أعداء الله ، ومكرهم ، ويشفقون من تألُّب الخصوم عليهم ، ويشفقون من المضايقات الاقتصاديَّة ، وغير الاقتصادية ، وإن هي إلا كأوهام قريش يوم قالت لرسول الله ﷺ : ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص : ٥٧] فلمَّا اتَّبعت هدى الله ؛ سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرنٍ ، أو أقلَّ من الزَّمان »[1] .

---

(١) في ظلال القرآن : (٤/ ٢٧٠٤) .

إنَّ الله تعالى أيَّد العثمانيِّين على الأعداء ومنَّ عليهم بالفتح ، فَتْح الأراضي ، وإخضاعها لحكم الله تعالى ، وفَتْح القلوب وهدايتها لدين الإسلام .

إنَّ العثمانيِّين عندما استجابوا ، وانقادوا لشريعة الله ؛ جلبت لهم الفتح ، واستنزلت عليهم نصر الله .

إنَّ الشعوب الإسلاميَّة الَّتي تبتعد عن شريعة الله تذلُّ نفسها في الدُّنيا والآخرة .

إنَّ مسؤوليَّة الحكَّام، والقضاة، والعلماء، والدُّعاة في الدَّعوة إلى تحكيم شرع الله مسؤوليَّةٌ عظيمةٌ يُسألون عنها يوم القيامة أمام الله: (إذا حكم ولاة الأمر بغير ما أنزل الله ، وقع بأسهم بينهم . . .) وهذا أعظم أسباب تغيُّر الدُّول كما جرى هذا مرَّةً بعد مرَّةٍ في زماننا ، وغير زماننا ، ومن أراد الله سعادته جعله يعتبر بما أصاب غيره، فيسلك مسلك مَنْ أيَّده الله، ونَصَره، ويجتنب مسلك مَنْ خذله الله، وأهانه؛ فإنَّ الله يقول في كتابه : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج : ٤٠ ـ ٤١] فقد وعد بنصره مَنْ ينصره ، ونصره هو نصر كتابه ، ودينه ، ورسوله ، لا نصر من يحكم بغير ما أنزل الله ، ويتكلَّم بما لا يعلم »[١] .

رابعاً : العزُّ والشَّرف :

إنَّ عزَّ العثمانيِّين ، وشرفهم العظيم الَّذي سُطِّر في كتب التَّاريخ يرجع إلى تمسُّكهم بكتاب الله ، وسنَّة رسوله ﷺ . إنَّ من يعتزُّ بالانتساب لكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ ـ الَّذي به تشرف الأمَّة، وبه يعلو ذكرها ـ وضع رجله على الطَّريق الصَّحيح ، وأصاب سنَّة الله الجارية في إعزاز ، وتشريف من يتمسَّك بكتابه ، وسنَّة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

قال ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ في تفسير هذه الآية : « فيه شرفكم »[٢] إنَّ العثمانيِّين استمدُّوا شرفهم ، وعزَّهم من استمساكهم بأحكام الإسلام ، كما قال عمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ : « إنَّا كنَّا أذلَّ قوم ، فأعزَّنا الله بالإسلام ، فمهما

(١) مجموع الفتاوى لابن تيميَّة : (٣٥/ ٣٨٨) .
(٢) انظر : تفسير ابن كثير (٣/ ١٧٠) .

نطلب العز بغير ما أعزَّنا الله ؛ أذلَّنا الله »[١] .

فعمر ـ رضي الله عنه ـ كشف لنا بكلماته عن حقيقة الارتباط بين حال الأمَّة عزّاً وذُلاً مع موقفها من الشَّريعة إقبالاً ، وإِدباراً ، فما عزَّت في يوم بغير دين الله ، ولا ذلَّت في يوم إِلا بالانحراف عنه . قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر : ١٠] يعني : من طلب العزَّة ، فليعتزَّ بطاعة الله عزَّ وجل[٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : ٨] .

إِنَّ سيرة سلاطين العثمانيِّين من أمثال عثمان الأوَّل ، ومراد ، ومحمَّد الفاتح تبيِّن لنا اعتزازهم بالإِسلام ، وحبَّهم للقرآن ، واستعدادهم للموت في سبيل الله ، ولقد عاشوا في بركةٍ من العيش ، ورغد من الحياة الطَّيبة ، وما نالوا ذلك إِلا بإِقامة دين الله . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

خامساً : انتشار الفضائل ، وانزواء الرَّذائل :

لقد انتشرت الفضائل في زمن محمَّد الفاتح ، وانحسرت الرَّذائل ؛ فخرج جيلٌ فيه نبلٌ ، وكرمٌ ، وشجاعةٌ ، وعطاءٌ ، وتضحيةٌ من أجل العقيدة والشَّريعة ، متطلعاً إِلى ما عند الله من الثَّواب ، ويخشى من عقاب الله ، لقد استجاب ذلك المجتمع بشعبه ، ودولته ، وحكَّامه إِلى ما يحبُّه الرحمن ، وإِلى تعاليم الإِسلام .

إِنَّ آثار تحكيم شرع الله في الشُّعوب ، والدُّول الَّتي نفَّذت أوامر الله ، ونواهيه ظاهرةٌ بيِّنةٌ لدارس التَّاريخ ، وإِنَّ تلك الآثار الطَّيبة الَّتي أصابت الدَّولة العثمانيَّة لهي من سنن الله الجارية ، والَّتي لا تتبدَّل ، ولا تتغيَّر ، فأيُّ شعبٍ يسعى لهذا المطلب الجليل ، والعمل العظيم ؛ يصل إِليه ولو بعد حينٍ ، ويرى آثار ذلك التَّحكيم على أفراده ، وحكَّامه ، ودولته .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك : كتاب الإِيمان (١/ ٦٢) .
(٢) ابن كثير (٢/٥٢٦) .

إنَّ الغرض من الأبحاث التَّاريخيَّة الإسلاميَّة الاستفادة الجادَّة من أولئك الَّذين سبقونا بالإيمان في جهادهم، وعلمهم، وتربيتهم، وسعيهم الدَّؤوب لتحكيم شرع الله، وأخذهم بسنن التَّمكين، وفقه ومراعاة التَّدرُّج والمرحليَّة، والانتقاء من أفراد الشَّعب، والارتقاء بهم نحو الكمالات الإسلاميَّة المنشودة.

إنَّ الانتصارات العظيمة في تاريخ أمَّتنا يجريها الله تعالى على يدي من أخلص لربِّه، ودينه، وأقام شرعه، وزكَّى نفسه، ولهذا لن يأتيَ فتحٌ عظيمٌ، وفتحٌ مبينٌ إلا لمن توافرت فيهم صفات جيل التَّمكين؛ الَّتي ذكرت في القرآن الكريم.

* * *

المبحث الخامس

أهمُّ صفات محمَّد الفاتح

لقد ظهرت بعض الصِّفات القياديَّة في شخصيَّة محمَّد الفاتح عند البحث والدِّراسة ، ومن أهمِّ هذه الصِّفات :

١ ـ الحزم :

وظهر ذلك عندما غلب على ظنِّه أنَّ هناك تقصيراً ، أو تكاسلاً من جانب قائد الأسطول العثمانيِّ بالطة أوغلي عند حصاره للقسطنطينيَّة ، فأرسل إليه ، وقال : « إمَّا أن تستولي على هذه السُّفن وإمَّا أن تغرقها ، وإذا لم توفق في ذلك ؛ فلا ترجع إلينا حيَّاً »(١) .

ولما لم يحقِّق بالطة أوغلي مهمَّته ، عزله ، وجعل مكانه حمزة باشا .

٢ ـ الشَّجاعة :

وكان رحمه الله يخوض المعارك بنفسه ، ويقاتل الأعداء بسيفه ، وفي إحدى المعارك في بلاد البلقان تعرَّض الجيش العثمانيُّ لكمينٍ من قبل زعيم البوغدان أستفان حيث تخفَّى مع جيشه خلف الأشجار الكثيفة المتلاصقة ، وبينما المسلمون بجانب تلك الأشجار انهمرت عليهم نيران المدافع الشَّديدة من بين الأشجار ، وانبطح الجنود على وجوههم ، وكاد الاضطراب يسود صفوف الجيش لولا أن سارع السُّلطان الفاتح ، وتباعد عن مرمى المدافع ، وعنَّف رئيس الإنكشاريَّة محمَّد الطرابزوني على تخاذل جنده ، ثمَّ صاح فيهم : « أيُّها الغزاة المجاهدون ! كونوا جند الله ، ولتكن فيكم الحميَّة الإسلاميَّة »(٢) .

وأمسك بالتُّرس ، واستلَّ سيفه ، وركض بحصانه ، واندفع به إلى الأمام لا يلوي على شيء ، وألهب بذلك نار الحماس في جنده ، فانطلقوا وراءه ،

(١) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(١٠١) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢٤٦) .

واقتحموا الغابة على مَنْ فيها ، ونشب بين الأشجار قتالٌ عنيفٌ بالسُّيوف استمرَّ من الضُّحى إلى الأصيل .

ومزَّق العثمانيُّون الجنود البوغدانيَّة شرَّ ممزَّقٍ ، ووقع أستفان من فوق ظهر جواده ، ولم ينج إلا بصعوبةٍ ، وولَّى هارباً ، وانتصر العثمانيُّون ، وغنموا غنائم وفيرةً(١) .

٣ـ الذَّكاء :

ويظهر ذلك في فكرته البارعة ، وهي نقل السُّفن من مرساها في بشكطاش إلى القرن الذَّهبي ، وذلك بجرِّها على الطَّريق البرِّي الواقع بين الميناءين مبتعداً عن حيٍّ غلطة خوفاً على سفنه من الجنويِّين ، وقد كانت المسافة بين الميناءين نحو ثلاثة أميال ، ولم تكن أرضاً مبسوطةً سهلةً ، ولكنَّها كانت وهاداً ، وتلالاً غير ممهَّدةً ، وشرع في تنفيذ الخطَّة ؛ ومُهِّدت الأرض ، وسوِّيت في ساعاتٍ قليلةٍ ، وأُتي بألواح من الخشب ، دُهنت بالزيت والشحم ، ثم وُضعت على الطريق المُمَهَّد بطريقة يسهل بها انزلاج السُّفن ، وجرها ، لقد كان هذا العمل عظيماً بالنِّسبة للعصر الَّذي حدث فيه ، بل تجلَّت فيه سرعة التَّفكير ، وسرعة التَّنفيذ ممَّا يدلُّ على ذكاء محمَّد الفاتح الوقَّاد(٢) .

٤ـ العزيمة والإصرار :

فعندما أرسل السُّلطان محمَّد الفاتح إلى الإمبراطور قسطنطين يطلب منه تسليم القسطنطينيَّة حتَّى يحقن دماء النَّاس في المدينة ، ولا يتعرَّضوا لأي أذىً ، ويكونوا بالخيار في البقاء في المدينة ، أو الرَّحيل عنها ، فعندما رفض قسطنطين تسليم المدينة ؛ قال السُّلطان محمَّد : « حسناً ! عن قريبٍ سيكون لي في القسطنطينية عرشٌ ، أو يكون لي فيها قبر »(٣) .

وعندما استطاع البيزنطيُّون أن يحرقوا القلعة الخشبيَّة الضَّخمة المتحرِّكة كان ردُّه : « غداً نصنع أربعاً أخرى »(٤) .

وهذه المواقف تدلُّ على عزيمته ، وإصراره في الوصول إلى هدفه .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢٤٧) .
(٢) انظر : السُّلطان محمَّد الفاتح ، ص(١٠٢) .
(٣) انظر : الفتوح الإسلاميَّة عبر العصور ، ص(٣٧٦) .
(٤) السلطان محمَّد الفاتح ، ص(١٢٢) .

٥ـ عدله :

حيث عامل أهل الكتاب وفق الشَّريعة الإسلاميَّة ، وأعطاهم حقوقهم الدِّينية ، ولم يتعرَّض أحدٌ من النَّصارى للظُّلم ، أو التَّعدي ، بل أكرم زعماءهم ، وأحسن إلى رؤسائهم ، وكان شعاره : العدلُ أساسُ الملكُ[1] .

٦ـ عدم الاغترار بقوَّة النَّفس ، وكثرة الجند ، وسعة السُّلطان :

نجد السُّلطان محمَّد عند دخول القسطنطينيَّة يقول : « حمداً لله ، ليرحم الله الشهداء ، ويمنح المجاهدين الشَّرف والمجد ، ولشعبي الفخر والشُّكر ! »[2] .

فهو أسند الفضل إلى الله ؛ ولذلك لهج لسانه بالحمد والثناء والشكر لمولاه الذي نصره وأيده ، وهذا يدل على عمق إيمان محمد الفاتح بالله سبحانه وتعالى .

٧ـ الإخلاص :

إنَّ كثيراً من المواقف الَّتي سجِّلت في تاريخ الفاتح تدلُّنا على عمق إخلاصه لدينه ، وعقيدته في إشعاره ، ومناجاته لربِّه سبحانه وتعالى ، حيث يقول :

نيَّتي : امتثالي لأمر الله ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ ﴾ [المائدة : ٣٥] .

وحماسي : بذل الجهد لخدمة ديني ، دين الله .

عزمي : أن أقهر أهل الكفر جميعاً بجنودي ، جند الله .

وتفكيري : منصبٌّ على الفتح ، على النَّصر ، على الفوز ، بلطف الله .

جهادي : بالنَّفس ، والمال ، فماذا في الدُّنيا بعد الامتثال لأمر الله ؟!

رجائي : في نصر الله ، وسموِّ الدَّولة على أعداء الله[3] .

٨ـ علمه :

اهتمَّ والده به منذ الطُّفولة ، ولذلك خضع السُّلطان محمَّد الفاتح لنظامٍ تربويٍّ أشرف عليه مجموعةٌ من علماء عصره المعروفين ، فتعلَّم القرآن الكريم ،

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٥٢) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٣١) .
(٣) انظر : العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، ص (٢٥٨) .

والحديث ، والفقه ، والعلوم العصريَّة ـ آنذاك ـ من رياضيَّات ، وفلك ، وتاريخ ، ودراساتٍ عسكريَّة نظريَّةٍ ، وتطبيقيَّةٍ .

وكان من كرم الله للسُّلطان محمَّد الفاتح أن أشرف على تعليمه مجموعةٌ من أساطين العلماء في عصره ، وفي مقدِّمتهم الشَّيخ آق شمس الدِّين ، والملا الكوراني (عالم الدِّين عند العثمانيين الأوائل يكون موسوعيَّاً في شتَّى العلوم المعروفة في عصره) ولقد تأثَّر محمَّد الفاتح بتربية شيوخه ، وظهرت تلك التَّربية في اتجاهاته الثَّقافية ، والسِّياسية ، والعسكريَّة[1] .

ولقد تبحَّر السُّلطان محمَّد في اللُّغات الإسلاميَّة الثَّلاثة ؛ الَّتي لم يكن يستغني عنها مثقفٌ في ذلك العصر ، وهي : العربيَّة ، والفارسيَّة ، والتُّركيَّة ، ولقد كان السُّلطان محمَّد الفاتح شاعراً ، وترك ديواناً باللُّغة التُّركيَّة[2] .

* * *

(١) السُّلطان محمَّد الفاتح ، ص(١٣١) .
(٢) انظر : العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، ص(٢٥٤ ـ ٢٥٩) .

المبحث السَّادس

شيءٌ من أعماله الحضاريَّة

●● اهتمامه بالمدارس والمعاهد :

كان السُّلطان محمَّد الفاتح محبّاً للعلم ، والعلماء ، ولذلك اهتمَّ ببناء المدارس ، والمعاهد في جميع أرجاء دولته . وقد كان السُّلطان أورخان أوَّل من أنشأ مدرسةً نموذجيَّةً في الدَّولة العثمانيَّة ، وسار بعده سلاطين الدَّولة على نهجه ، وانتشرت المدارس ، والمعاهد في بروسة ، وأدرنة ، وغيرهما من المدن .

ولقد فاق محمَّد الفاتح أجداده في هذا المضمار ، وبذل جهوداً كبيرةً في نشر العلم ، وإنشاء المدارس ، والمعاهد ، وأدخل بعض الإصلاحات في التَّعليم ، وأشرف على تهذيب المناهج ، وتطويرها ، وحرص على نشر المدارس ، والمعاهد في جميع المدن الكبيرة والصَّغيرة ، وكذلك القرى ، وأوقف عليها الأوقاف العظيمة .

ونظَّم هذه المدارس ، ورتَّبها على درجاتٍ ، ومراحل ، ووضع لها المناهج ، وحدَّد العلوم ، والموادَّ الَّتي تدرَّس في كلِّ مرحلةٍ ، ووضع لها نظام الامتحانات ، فلا ينتقل طالبٌ من مرحلةٍ إلى أخرى إلا بعد إتقانه لعلوم المرحلة السَّابقة ويخضع لامتحانٍ دقيقٍ ، وكان السُّلطان الفاتح يتابع هذه الأمور ، ويشرف عليها ، وأحياناً يحضر امتحانات الطَّلبة ، ويزور المدارس بين الحين والحين ، ولا يأنف من استماع الدُّروس الَّتي يلقيها الأساتذة ، وكان يوصي الطَّلبة بالجدِّ ، والاجتهاد ، ولا يبخل بالعطاء للنَّابغين من الأساتذة ، والطَّلبة ، وجعل التَّعليم في كلِّ مدارس الدَّولة بالمجَّان ، وكانت الموادُّ الَّتي تدرَّس في تلك المدارس : التَّفسير ، والحديث ، والفقه ، والأدب ، والبلاغة ، وعلوم اللُّغة من المعاني ، والبيان ، والبديع ، والهندسة . . . إلخ .

وأنشأ بجانب مسجده الَّذي بناه بالقسطنطينيَّة ثماني مدارس ، على كلِّ جانبٍ من جوانب المسجد أربع مدارس ، يتوسَّطها صحنٌ فسيحٌ ، وفيها يقضي الطَّالب المرحلة الأخيرة من دراسته ، وألحقت بهذه المدارس مساكن للطَّلبة ، ينامون

فيها ، ويأكلون فيها طعامهم ، ووضعت لهم منحة ماليَّة شهريَّة ، وكان الموسم الدِّراسي على طول السَّنة في هذه المدارس ، وأنشأ بجانبها مكتبةً خاصَّةً ، وكان يشترط في الرَّجل الَّذي يتولَّى أمانة هذه المكتبة أن يكون من أهل العلم ، والتَّقوى ، متبحِّراً في أسماء الكتب والمؤلِّفين .

وكان المشرف على المكتبة يعير الطَّلبة ، والمدرِّسين ما يطلبونه من الكتب بطريقةٍ منظَّمةٍ دقيقةٍ ، ويسجل أسماء الكتب المستعارة في دفترٍ خاصٍّ ، وهذا الأمين مسؤولٌ عن الكتب التي في عهدته ، ومسؤولٌ عن سلامة أوراقها(١) ، وتخضع هذه المكتبة للتَّفتيش كلَّ ثلاثة أشهر على الأقلِّ ، وكانت مناهج هذه المدارس تتضمَّن نظام التَّخصُّص ، فكان للعلوم النَّقليَّة ، والنَّظرية قسمٌ خاصٌّ ، وللعلوم التَّطبيقيَّة قسمٌ خاصٌّ أيضاً ، وكان الوزراء والعلماء من أصحاب الثَّروات يتنافسون في إنشاء المعاهد ، والمدارس ، والمساجد ، والأوقاف الخيريَّة(٢) .

●● اهتمام السُّلطان محمَّد الفاتح بالعلماء :

لقد كان للعلماء ، والأدباء مكانةٌ خاصَّةٌ لدى محمَّد الفاتح ، فقرَّب إليه العلماء ، ورفع قدرهم ، وشجَّعهم على العمل ، والإنتاج ، وبذل لهم الأموال ،ووسَّع لهم في العطايا ، والمنح ، والهدايا ؛ ليتفرَّغوا للعلم ، والتَّعليم ، ويكرمهم غاية الإكرام ، ولو كانوا من خصومه ؛ فبعد أن ضمَّ إمارة القرمان إلى الدَّولة أمر بنقل العمَّال ، والصُّنَّاع إلى القسطنطينيَّة ، غير أنَّ وزيره روم محمَّد باشا ظلم النَّاس ومن بينهم بعض العلماء ، وأهل الفضل ، ومن بينهم العالم أحمد جلبي ابن السُّلطان أمير علي ، فلمَّا علم السُّلطان محمَّد الفاتح بأمره ؛ اعتذر إليه ، وأعاده إلى وطنه مع رفقائه معزَّزاً مكرَّماً .

وبعد أن هُزم أوزون حسن زعيم التُّركمان ، وكان هذا الزَّعيم لا يلتزم بعهدٍ ، ويناصر أعداء العثمانيِّين من أيِّ ملَّةٍ كانت ، فبعد أن هزمه محمَّد الفاتح وقع في يده عددٌ كبير من الأسرى ، فأمر السُّلطان الفاتح بقتلهم (إلا مَنْ كان من العلماء ،

---

(١) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(٣٨٤ ، ٣٨٥) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٣٨٤) .

وأصحاب المعارف مثل القاضي محمد الشُّريحي ، وكان من فضلاء الزَّمان ، فأكرمه السُّلطان غاية الإكرام) .

وكان السُّلطان الفاتح يحترم العلماء ، وأهل الورع ، والتُّقى ، وقد تستبدُّ به في بعض الأحيان نزوةٌ جامحةٌ ، أو غضبةٌ طارئةٌ ، ولكنه ما يلبث أن يعود إلى وقاره ، واحترامه لهم .

وتحدِّثنا كتب التَّاريخ : أنَّ السُّلطان محمَّد بعث مع أحد خدامه بمرسومٍ إلى الشَّيخ أحمد الكوراني ـ وكان حين ذاك يتولَّى قضاء العسكر ـ فوجد فيه أمراً يخالف الشَّرع ، فمزَّقه ، وضرب الخادم . وشقَّ ذلك على السُّلطان محمَّد ، وغضب من فعل الشَّيخ ، وعزله من منصبه ، ووقع بينهما نفورٌ ، وجفوةٌ ، ورحل الكوراني إلى مصر حيث استقبله سلطانها قيتباي ، وأكرمه غاية الإكرام ، وأقام عنده برهةً من الزَّمن ، وما لبث الفاتح أن ندم على ما كان منه ، فكتب إلى السُّلطان قيتباي يطلب منه أن يرسل إليه الشَّيخ الكوراني (فحكى السُّلطان قيتباي كتاب السُّلطان محمَّد خان للشَّيخ الكوراني ، ثمَّ قال له : لا تذهب إليه فإنِّي أكرمك فوق ما يكرمك هو . قال : نعم هو كذلك إلا أنَّ بيني وبينه محبَّةٌ عظيمةٌ كما بين الوالد والولد ، وهذا الَّذي جرى بيننا شيءٌ آخر ، وهو يعرف ذلك منِّي ، ويعرف أنِّي أميل إليه بالطَّبع ، فإذا لم أذهب إليه يفهم أنَّ المنع من جانبك ، فتقع بينكما عداوةٌ . فاستحسن السُّلطان قيتباي هذا الكلام ، وأعطاه مالاً جزيلاً ، وهيَّأ له ما يحتاج إليه من حوائج السَّفر ، وبعث معه هدايا عظيمةً إلى السُّلطان محمَّد خان . وأسند إليه الفاتح القضاء ثمَّ الإفتاء ، وأجزل له من العطاء ، وأكرمه إكراماً لا مزيد عليه[١] .

قال عنه الشَّوكاني : « . . وانتقل من قضاء العسكر إلى منصب الفتوى ، وتردَّد إليه الأكابر ، وشرح (جمع الجوامع) وكثر تعقُّبه للمَحَلِّي (جلال الدِّين المحلِّي المفسِّر) وعمل تفسيراً ، وشرحاً للبخاري ، وقصيدةً في علم العروض نحو ستِّمئة بيت . وأنشأ بإستانبول جامعاً ، ومدرسةً سمَّاها دار الحديث ، وانثالت عليه الدُّنيا ، وعمر الدُّور ، وانتشر علمه ، فأخذ عليه الأكابر ، وحجَّ في سنة ٨٦١هـ

---

(١) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(٣٨٩) .

إِحدى وستين وسبعمئة ، ولم يزل على جلالته حتَّى مات في أواخر سنة ٧٩٣هـ ثلاث وتسعين وسبعمئة ، وصلَّى عليه السُّلطان فَمَنْ دونه . ومن مطالع قصائده في مدح سلطانه :

هُوَ الشَّمْسُ إِلا أَنَّه اللَّيْثُ بَاسِلاً هُو البَحْرُ إِلا أَنَّه مَالِكُ البَرِّ

وقد ترجمه صاحب « الشَّقائق النعمانية » ترجمةً حافلةً . . وإِنَّه كان يخاطب السلطان باسمه ، ولا ينحني له ، ولا يقبِّل يده ، بل يصافحه مصافحة ، وإِنَّه كان لا يأتي إِلى السُّلطان إِلا إِذا أرسل إِليه ، وكان يقول له : مطعمك حرامٌ ، وملبسك حرام ، فعليك بالاحتياط . وذكر له مناقب جمَّةً تدلُّ على أنَّه من العلماء العاملين . . . »(١) .

وكان السُّلطان محمَّد الفاتح لا يسمع عن عالم في مكانه أصابه عوزٌ ، وإِملاقٌ إِلا بادر إِلى مساعدته ، وبذل له ما يستعين به على أمور دنياه .

وكان من عادة الفاتح في شهر رمضان أن يأتي إِلى قصره بعد صلاة الظُّهر بجماعةٍ من العلماء المتبحِّرين في تفسير القرآن ، فيقوم في كلِّ مرَّةٍ واحدٌ منهم بتفسير آياتٍ من القرآن الكريم ، وتقريرها ، ويناقشه في ذلك سائر العلماء ، ويجادلونه ، وكان الفاتح يشارك في هذه المناقشات ، ويشجِّع هؤلاء العلماء بالعطايا ، والهدايا ، والمكافآت الماليّة الجزيلة .

●● اهتمامه بالشُّعراء والأدباء :

ذكر مؤرِّخ الأدب العثمانيّ : أنَّ السُّلطان محمَّد الفاتح (راعٍ لنهضةٍ أدبيَّةٍ وشاعرٌ مجيدٌ ، حكم ثلاثين عاماً كانت أعوام خصبٍ ، ورخاء ، وبركةٍ ، ونماءٍ ، وعُرف بأبي الفتح ؛ لأنه غلب على إِمبراطوريتين ، وفتح سبع ممالك ، واستولى على مئتي مدينةٍ ، وشاد دور العلم ، ودور العبادة . فعُرف كذلك بأبي الخيرات)(٢) .

وكان الفاتح مهتمّاً بالأدب عامَّةً ، والشِّعر خاصَّةً ، وكان يصاحب الشُّعراء ، ويصطفيهم ، واستوزر الكثير منهم مثل : أحمد باشا محمود ، ومحمود باشا ،

---

(١) البدر الطَّالع : (١/١٤) .
(٢) العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، ص(٢٤٧) .

وقاسم الجزري باشا ، وهؤلاء شعراء[١] . وكان في بلاط الفاتح ثلاثون شاعراً يتناول كلٌّ منهم راتباً شهرياً قدره ألف درهم ، وكان طبيعيَّاً بعد هذا الاهتمام أن يتفنَّن الشُّعراء ، والأدباء في مدح السُّلطان محمَّد لما قدَّمه إلى العلم ، والأدب من كريم الرِّعاية ، وجميل التَّشجيع .

وكان محمَّد الفاتح ينكر على الشُّعراء التبذُّل ، والمجون ، والدَّعارة ، ويعاقب الَّذي يخرج عن الآداب بالسَّجن ، أو يُطرد من بلاطه[٢] .

●● اهتمامه بالتَّرجمة :

كان السُّلطان محمَّد الفاتح متقناً لِلُّغة الرُّوميَّة ، ومن أجل أن يبعث نهضةً فكريَّةً في شعبه أمر بنقل كثيرٍ من الآثار المكتوبة باليونانيَّة ، واللاتينية ، والعربيَّة ، والفارسيَّة إلى اللُّغة التُّركيَّة ، من ذلك كتاب : « مشاهير الرِّجال » لبلوتارك ، ونقل إلى التُّركيَّة كتاب « التَّصريف في الطبِّ » لأبي القاسم الزَّهراوي الطبيب الأندلسيِّ مع زياداتٍ في صور آلات الجراحة ، وأوضاع المرضى أثناء إجراء العمليَّات الجراحيَّة .

وعندما وجد كتاب بطليموس في الجغرافيا ، وخريطةً له قام بمطالعته ، ودراسته مع العالم الرُّومي جورج أميروتزوس ، ثمَّ طلب إليه الفاتح ، وإلى ابنه (ابن العالم الرُّومي) الَّذي كان يجيد اللُّغتين الرُّوميَّة والعربيَّة بترجمة الكتاب إلى العربيَّة وإعادة رسم الخريطة مع التَّحقيق في أسماء البلدان ، وكتابتها باللُّغتين العربيَّة ، والرُّوميَّة ، وكافأهما على هذا العمل بعطايا واسعةٍ جمَّةٍ . وكان العلاَّمة علي القوشجي ـ وهو من أكبر علماء عصره في الرِّياضيَّات ، والفلك ـ كلَّما ألَّف كتاباً بالفارسيَّة نقله إلى العربيَّة ، وأهداه إلى الفاتح .

وكان الفاتح مهتمّاً باللُّغة العربيَّة ؛ لأنَّها لغة القرآن الكريم ، كما أنَّها من اللغات العلميَّة المنتشرة في ذلك العهد . وليس أدلَّ على اهتمام الفاتح باللُّغة العربيَّة من أنَّه طلب إلى « المدرسين بالمدارس الثَّمانية أن يجمعوا بين الكتب السِّتَّة

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص(٢٤٧) .

(٢) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(٣٩٣) .

في علم اللُّغة كالصِّحاح ، والتَّكملة ، والقاموس ، وأمثالها » . ودعم الفاتح حركة التَّرجمة ، والتَّأليف لنشر المعارف بين رعاياه بالإكثار من نشر المكتبات العامَّة ، وأنشأ له في قصره خزانةً خاصَّةً ، احتوت على غرائب الكتب ، والعلوم ، وعيَّن الشَّيخ لطفي أميناً عليها ، وكان بها اثنا عشر ألف مجلدٍ عندما احترقت عام ١٤٦٥م؛ وقد وصف الأستاذ ديزمان هذه المكتبة بأنَّها بمثابة نقطة تحوُّل في العلم بين الشَّرق ، والغرب(١) .

●● اهتمامه بالعمران ، والبناء ، والمستشفيات :

كان السُّلطان محمَّد الفاتح مغرماً ببناء المساجد ، والمعاهد ، والقصور ، والمستشفيات ، والخانات ، والحمَّامات ، والأسواق الكبيرة ، والحدائق العامَّة ، وأدخل المياه إلى المدينة بواسطة قناطرٍ خاصَّةٍ ، وشجَّع الوزراء ، وكبار رجال الدَّولة ، والأغنياء ، والأعيان على تشييد المباني ، وإنشاء الدَّكاكين ، والحمَّامات ، وغيرها من المباني الَّتي تعطي المدن بهاءً ورونقاً . واهتمَّ بالعاصمة (إستانبول) اهتماماً خاصَّاً ، وكان حريصاً على أن يجعلها أجمل عواصم العالم ، وحاضرة العلوم ، والفنون . وكثر العمران في عهد الفاتح ، وانتشر ، واهتمَّ بِدُور الشِّفاء، ووضع لها نظاماً مثالياً في غاية الرَّوعة، والدِّقَّة، والجمال، فقد كان يعهد بكلِّ دارٍ من هذه الدُّور إلى طبيبٍ ـ ثمَّ زيد إلى اثنين ـ من حذَّاق الأطباء من أيِّ جنسٍ كان ، يعاونهما كحَّالٌ ، وجرَّاحٌ ، وصيدليٌّ ، وجماعةٌ من الخدم ، والبوَّابين .

ويشترط في جميع المشتغلين بالمستشفى أن يكونوا من ذوي القناعة ، والشَّفقة ، والإنسانيَّة ، ويجب على الأطباء أن يعودوا المرضى مرَّتين في اليوم وألا تصرف الأدوية للمرضى إلا بعد التَّدقيق من إعدادها ، وكان يشترط في طبَّاخ المستشفى أن يكون عارفاً بطهي الأطعمة والأصناف الَّتي توافق المرضى منها ، وكان العلاج والأدوية في هذه المستشفيات بالمجَّان ، ويغشاها جميع النَّاس بدون تمييزٍ بين أجناسهم ، وأديانهم(٢) .

---

(١) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(٣٩٦) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٤١٣) .

●● الاهتمام بالتِّجارة والصِّناعة :

اهتمَّ السُّلطان محمَّد الفاتح بالتِّجارة ، والصِّناعة ، وعمل على إنعاشهما بجميع الوسائل ، والعوامل ، والأسباب ، وكان بذلك مقتفياً خطَّ آبائه ، وأجداده السَّلاطين ؛ الَّذين (كانوا دائماً على استعدادٍ لإنعاش الصِّناعة ، والتِّجارة بين رعاياهم ، وأنَّ كثيراً من المدن الكبرى قد ازدهرت ازدهاراً كبيراً عندما خلَّصها الفتح العثمانيُّ ممَّا أصابها في عهد الدَّولة البيزنطيَّة من طغيان الثَّروة الحكوميَّة الَّتي عرقلت نهضتها ، وشلَّت حركتها ، ومن هذه المدن : نيقية ، وكان العثمانيُّون على درايةٍ واسعةٍ بالأسواق العالميَّة ، وبالطُّرق البحريَّة ، والبرِّيَّة ، وطوَّروا الطُّرق القديمة ، وأنشؤوا الكباري الجديدة ؛ ممَّا سهل حركة التِّجارة في جميع أجزاء الدَّولة ، واضطرت الدُّول الأجنبيَّة من فتح موانيها لرعايا الدَّولة العثمانيَّة ؛ ليمارسوا حرفة التِّجارة في ظلِّ الرَّاية العثمانيَّة .

وكان من أثر السِّياسة العامَّة للدَّولة في مجال التِّجارة ، والصِّناعة أن عمَّ الرَّخاء وساد اليسر ، والرَّفاهية في جميع أرجاء الدَّولة ، وأصبحت للدَّولة عملتها الذَّهبيَّة المتميزة[١] ، ولم تهمل الدَّولة إنشاء دور الصِّناعة ، ومصانع الذَّخيرة ، والأسلحة ، وأقامت القلاع ، والحصون في المواقع ذات الأهمِّيَّة العسكريَّة في البلاد)[٢] .

●● الاهتمام بالتَّنظيمات الإداريَّة :

عمل السُّلطان محمَّد الفاتح على تطوير دولته ، ولذلك قنَّن القوانين حتَّى يستطيع أن ينظم شؤون الإدارة المحلِّيَّة في دولته ، وكانت تلك القوانين مستمدَّةً من الشَّرع الحكيم ، وشكَّل السُّلطان محمَّد لجنةً من خيار العلماء لتشرف على وضع (قانون نامه) المستمدِّ من الشَّريعة الغرَّاء ، وجعله أساساً لحكم دولته ، وكان هذا القانون مكوَّناً من ثلاثة أبواب ، يتعلَّق بمناصب الموظفين ، وببعض التَّقاليد ، وما يجب أن يُتَّخذ من التَّشريفات ، والاحتفالات السُّلطانية ، وهو يقرِّر كذلك العقوبات ، والغرامات ، ونصَّ صراحةً على جعل الدَّولة حكومةً إسلاميَّةً قائمةً

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص(٤١٤) .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص(٤١٠) .

على تفوق العنصر الإسلامي أيّاً كان أصله ، وجنسه[١] .

واهتمَّ محمَّد الفاتح بوضع القوانين الَّتي تنظِّم علاقة السُّكان من غير المسلمين بالدَّولة ومع جيرانهم من المسلمين ، ومع الدَّولة الَّتي تحكمهم ، وترعاهم ، وأشاع العدل بين رعيَّته ، وجدَّ في ملاحقة اللُّصوص ، وقطَّاع الطُّرق ، وأجرى عليهم أحكام الإسلام، فاستتبَّ الأمن، وسادت الطُّمأنينة في ربوع الدَّولة العثمانيَّة . وأبقى السُّلطان محمَّد النِّظام الَّذي كان سائداً لحكم الولايات أيام أسلافه ، وأدخل عليه بعض التَّعديلات الطَّفيفة الَّتي تناسب عصره ، ودولته .

وكانت الدَّولة تنقسم إلى ولاياتٍ كبرى ، يحكمها أمير الأمراء ، وكان يسمَّى « بكلر بك » وإلى ولاياتٍ صغرى ، ويحكمها أمير اللِّواء ، وكان يسمَّى « سنجق بك » وكلا الحاكمين كان يقوم بأعمالٍ مدنيَّةٍ ، وعسكريَّةٍ في آنٍ واحدٍ ، وترك لبعض الإمارات الصِّقلبية في أوَّل الأمر بعض مظاهر الاستقلال الدَّاخلي ، فكان يحكمها بعض أمراء منها ، ولكنَّهم تابعون للدَّولة ينفذون أوامر السُّلطان بكلِّ دقَّةٍ ، وهو يعزلهم ، ويعاقبهم إذا خالفوا أوامره ، أو فكَّروا في الثَّورة على الحكومة العثمانيَّة .

وعندما تعلن الدَّولة الجهاد ، وتدعو أمراء الولايات ، وأمراء الألوية ، كان عليهم أن يلبُّوا الدَّعوة ، ويشتركوا في الحرب بفرسانٍ يجهِّزونهم تجهيزاً تامّاً ، وذلك حسب نسبٍ مبيَّنةٍ ، فكانوا يجهِّزون فارساً كامل السِّلاح قادراً على القتال عن كلِّ خمسة آلاف آقجة من إيراد إقطاعه ، فإذا كان إيراد إقطاعه خمسمئة ألف آقجة مثلاً كان عليه أن يشترك بمئة فارسٍ . وكان جنود الإيالات مؤلفةً من مشاةٍ ، وفرسان ، وكان المشاة تحت قيادة وإدارة باشوات الإيالات ، وبكوات الألوية[٢] .

وقام محمَّد الفاتح بحركة تطهيرٍ واسعةٍ لكلِّ الموظَّفين القدماء غير الأكفاء ، وجعل مكانهم الأكفاء ، واتخذ الكفاية وحدها أساساً في اختيار رجاله ، ومعاونيه ، وولاته . واهتمَّ بالنِّظام المالي ، ووضع القواعد المحكمة الصَّارمة في جباية أموال الدَّولة ، وقضى على إهمال الجباة ، وتلاعبهم ؛ ممَّا كان يضيِّع على الدَّولة ثرواتٍ هائلةً .

---

(١) السُّلطان محمَّد الفاتح ، ص(١٥٤) .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص(١٥٥) .

لقد أظهر السُّلطان محمَّد في النَّاحية الإداريَّة كفايةً ، ومقدرةً لا تقلان عن كفايته ، ومقدرته في النَّاحيتين السِّياسيَّة ، والحربيَّة[١] .

●●اهتمامه بالجيش ، والبحريَّة :

لقد أنشىء الجيش النِّظامي من زمن السُّلطان أورخان ، واهتمَّ مَنْ جاء بعده من السَّلاطين بتطوير الجيش ، وخصوصاً السُّلطان محمَّد الَّذي أولى الجيش رعايةً خاصَّةً ، فالجيش في نظره من أسس الدَّولة ، وأركانها المهمَّة ، فأعاد تنظيمه ، وتربيته ، وجعل لكلِّ فرقةٍ (آغا) يقودها وجعل لقيادة الإنكشاريَّة حقَّ التقدُّم على بقية القوَّاد ، فهو يتلقى أوامره من الصَّدر الأعظم الَّذي جعل له السُّلطان القيادة العليا للجيش .

وقد تميَّز عصر السُّلطان محمَّد الفاتح بجانب قوَّة الجيش البشريَّة ، وتفوُّقه العدديِّ ، بإنشاءات عسكريَّةٍ عديدةٍ ، ومتنوِّعةٍ ، فأقام دور الصِّناعة العسكريَّة لسدِّ احتياجات الجيش من الملابس ، والسُّروج ، والدُّروع ، ومصانع الذَّخيرة ، والأسلحة ، وأقام القلاع ، والحصون في المواقع ذات الأهمِّيَّة العسكريَّة ، وكانت هناك تشكيلاتٌ عسكريَّةٌ متنوِّعةٌ في تمام الدِّقَّة ، وحسن التَّنظيم من فرسان ، ومشاةٍ ومدفعيَّةٍ وفرقٍ مساعدةٍ ، تمدُّ القوَّات المحاربة بما تحتاجه من وقودٍ ، وغذاءٍ ، وعلفٍ للحيوان ، وإعداد صناديق الذَّخيرة ، حتَّى ميدان القتال .

وكان هناك صنفٌ من الجنود يسمَّى « لغمجية » وظيفته الحفر للألغام ، وحفر الأنفاق تحت الأرض أثناء محاصرة القلعة المراد فتحها ، وكذلك السَّقاؤون كان عليهم تزويد الجنود بالماء ، ولقد تطوَّرت الجامعة العسكريَّة في زمن الفاتح ، وأصبحت تخرِّج الدّفعات المتتالية من المهندسين ، والأطبَّاء ، والبيطريِّين ، وعلماء الطَّبيعيات ، والمساحات ، وكانت تمدُّ الجيش بالفنِّيِّين المتخصِّصين ، وقد أكسب هؤلاء العثمانيِّين شهرةً عريضةً في الدِّقَّة ، والنِّظام[٢] .

لقد حرص السُّلطان محمَّد على تطوير الجيش البرِّيِّ ، والقوَّة البحريَّة ، وظهرت أهميَّتها منذ فتح القسطنطينيَّة ، حيث كان للأسطول البحريِّ العثمانيِّ دورٌ

---

(١) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(٤٠٦ ، ٤٠٧) .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص(١٦٢) .

واضحٌ في إحكام حصارها ، وتطويقها من البحر ، والبرِّ جميعاً . وبعد فتح القسطنطينيَّة ضوعفت العناية بالسِّلاح البحريِّ ، فلم تمض إلا مدَّةٌ من الزَّمن حتَّى سيطر الأسطول العثمانيُّ على البحرين الأسود والأبيض ، وعندما نطالع كتاب « حقائق الأخبار عن دول البحار » لمؤلِّفه إسماعيل سرهنك ، نلاحظ اهتمام السُّلطان محمَّد الفاتح بالبحريَّة العثمانيَّة ، وإنَّه كان اهتماماً بالغاً استحقَّ معه أن يعدَّه المؤرخون مؤسس الأسطول البحريِّ العثمانيِّ ، ولقد استفاد من الدُّول الَّتي وصلت إلى مستوىً رفيعٍ في صناعة الأساطيل ، مثل الجمهوريات الإيطاليَّة ، وبخاصَّةٍ البندقيَّة ، وجنوا أكبر الدُّول البحريَّة في ذلك الوقت(١) ، وعندما وجد في سيئوب سفينةً ضخمةً نادرة المثال ؛ أمر السلطان محمَّد بأخذها ، وبناء سفنٍ على نمطها مع إدخال التَّحسينات عليها(٢) .

وكان الأسطول العثمانيُّ تشرف التَّرسانة على إدارته ، وكانت أحد الفروع الخاصَّة ، وتسمَّى بطافة العزب ، ويبلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف جنديٍّ بحريٍّ تتألف من : القبطان ، وقوَّاد السُّفن ، والضُّباط ، والبحَّارة(٣) .

●● اهتمامه بالعدل :

إنَّ إقامة العدل بين النَّاس كان من واجبات السَّلاطين العثمانيِّين ، وكان السُّلطان محمَّد ـ شأنه في ذلك شأن مَنْ سلف من آبائه ـ شديد الحرص على إجراء العدالة في أجزاء دولته ، ولكي يتأكَّد من هذا الأمر كان يرسل بين الحين والحين إلى بعض رجال الدِّين من النَّصارى بالتَّجوال والتَّطواف في أنحاء الدَّولة ، ويمنحهم مرسوماً مكتوباً يبيِّن مهمَّتهم ، وسلطتهم المطلقة في التَّنقيب ، والتَّحرِّي ، والاستقصاء لكي يطَّلعوا كيف تساس أمور الدَّولة ، وكيف يجري ميزان العدل بين النَّاس في المحاكم ، وقد أعطى هؤلاء المبعوثين الحرِّيَّة الكاملة في النَّقد ، وتسجيل ما يرون ، ثمَّ يرفعون ذلك كلَّه إلى السُّلطان .

---

(١) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(٤١١) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٤١١) .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص(١٦٢) .

وقد كانت تقارير هؤلاء المبعوثين النَّصارى تشيد بحسن سير المحاكم ، وإجراء العدل بالحقِّ ، والدِّقَّة بين النَّاس بدون محاباةٍ ، أو تمييزٍ ، وكان السُّلطان الفاتح عند خروجه إلى الغزوات يتوقَّف في بعض الأقاليم ، وينصب خيامه ليجلس بنفسه للمظالم ، ويرفع إليه من شاء من النَّاس شكواه ، ومظلمته .

وكان على إدراكٍ تامٍّ بأنَّ رجال الفقه ، والشَّريعة هم أعرف النَّاس بالعدالة ، وأبصرهم بمواقعها ، وأشدُّ النَّاس حرصاً على إنفاذها ، وكان يرى : أنَّ العلماء في الدَّولة بمنزلة القلب في البدن ، إذا صلحوا ؛ صلحت الدَّولة ، ولذلك اعتنى الفاتح بالعلم ، وأهله ، ويسَّر سبل العلم على طالبيه ، وكفاهم مؤونة التَّعيُّش ، والتَّكسُّب ليتفرَّغوا للدَّرس ، والتَّحصيل ، وأكرم العلماء ، ورفع منزلتهم . وقد اعتنى الفاتح بوجهٍ خاصٍّ برجال القضاء الَّذين يتولَّون الحكم ، والفصل في أمور النَّاس ، فلا يكفي في هؤلاء أن يكونوا من المتضلِّعين في الفقه ، والشَّريعة ، والاتِّصاف بالنَّزاهة ، والاستقامة وحسب ، بل لابدَّ إلى جانب ذلك أن يكونوا موضع محبَّةٍ ، وتقديرٍ بين الناس ، وأن تتكفَّل الدَّولة بحوائجهم المادِّيَّة حتَّى تسدَّ طرق الإغراء ، والرَّشوة ، فوسَّع لهم الفاتح في عيشهم كلَّ التَّوسعة ، وأحاط منصبهم بهالة وهيبةٍ من الحرمة ، والجلالة ، والقداسة ، والحماية[١] .

وتُحدِّثنا كتب التَّاريخ : أنَّ أحد غلمان محمَّد الفاتح ظهر منه بعض الفساد بأدرنة ، فأرسل إليه القاضي بعض الخدم لمنعه ، فلم يمتنع ، فركب إليه القاضي بنفسه ، فاعتدى عليه الغلام ، وضربه ضرباً شديداً ، فما أن سمع السُّلطان الفاتح بذلك حتَّى أخذه الغضب ، واستطار به ، وأمر بقتل ذلك الغلام لتحقيره نائب الشَّريعة . وتشفَّع الوزراء للغلام لدى السُّلطان الفاتح ، فلم يقبل شفاعتهم ، فالتمسوا من المولى محيي الدِّين محمَّد أن يصلح هذا الأمر لدى السُّلطان ، ولكنَّ الفاتح أعرض عنه ، وردَّ كلامه ، فقال له المولى محيي الدِّين : إنَّ النَّائب (أي : القاضي) بقيامه عن مجلس القضاء بسبب الغضب سقط عن رتبة القضاء ، فلم يكن هو عند الضَّرب قاضياً ، فلم يلزم تحقير الشَّرع حتَّى يحلَّ قتله « قتل الغلام » فسكت السُّلطان محمَّد خان .

(١) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(٤٠٩) .

ثمَّ جاء الغلام إلى قسطنطينيَّة فأتى به الوزراء إلى السُّلطان محمَّد خان لتقبيل يده شكراً للعفو عنه . فأحضر السُّلطان محمَّد خان عصاً كبيرةً ، فضربه بنفسه ضرباً شديداً حتَّى مرض الغلام أربعة أشهر ، فعالجوه ، فبرىء ، ثمَّ صار الغلام وزيراً للسُّلطان بايزيد خان ، واسمه داود باشا . وكان يدعو للسُّلطان محمَّد خان ، ويقول : إنَّ رشدي هذا ما حصل إلا مِنْ ضربه(١) . أمَّا القاضي المرتشي ، فلم يكن له عند الفاتح من جزاءٍ غير القتل .

وكان السُّلطان الفاتح ـ برغم اشتغاله بالجهاد ، والفتوحات ـ إلا أنَّه يتتبَّع كلَّ ما يجري في أرجاء دولته بيقظةٍ ، واهتمام ، وأعانه على ذلك ما حباه الله من ذكاءٍ قويٍّ ، وبصيرةٍ نفَّاذةٍ ، وذاكرةٍ حافظةٍ ، وجسمٍ قويٍّ ، وكان كثيراً ما ينزل باللَّيل إلى الطُّرقات ، والدُّروب ؛ ليتعرَّف على أحوال النَّاس بنفسه ، ويستمع إلى شكاواهم بنفسه(٢) . كما ساعده على معرفة أحوال النَّاس جهاز أمن الدَّولة الَّذي كان يجمع المعلومات ، والأخبار الَّتي لها علاقة بالسَّلطنة ، وترفع إلى السُّلطان الَّذي كان يحرص على دوام المباشرة لأحوال الرَّعيَّة ، وتفقُّد أمورها ، والتماس الإحاطة بجوانب الخلل في أفرادها ، وجماعتها . وقد استنبط السُّلطان الفاتح هذه المعاني من حال سليمان عليه السَّلام في قوله تعالى : ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ [النمل : ٢٠] وذلك بحسب ما تقتضيه أمور الملك ، والاهتمام بكلِّ جزءٍ فيه ، والرِّعاية بكلِّ واحدةٍ فيه ، وخاصَّةً الضُّعفاء(٣) .

* * *

(١) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(٤٠٩) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٤١٠) .
(٣) انظر : تفسير القرطبي (١٣/ ١٧٧) .

المبحث السَّابع

وصيَّة السُّلطان محمَّد الفاتح لابنه

هذه وصيَّة محمَّد الفاتح لابنه ؛ وهو على فراش الموت ، والَّتي تعبِّر أصدق التَّعبير عن منهجه في الحياة ، وقيمه ، ومبادئه الَّتي آمن بها ، والَّتي يتمنَّى من خلفائه من بعده أن يسيروا عليها : « ها أنذا أموت ، ولكنِّي غير آسفٍ ؛ لأنِّي تاركٌ خلفاً مثلك . كن عادلاً ، صالحاً ، رحيماً ، وابسط على الرَّعية حمايتك بدون تمييز ، واعمل على نشر الدِّين الإسلاميِّ ، فإنَّ هذا هو واجب الملوك على الأرض ، قدِّم الاهتمام بأمر الدِّين على كلِّ شيءٍ ، ولا تفتر في المواظبة عليه ، ولا تستخدم الأشخاص الَّذين لا يهتمُّون بأمر الدِّين ، ولا يجتنبون الكبائر ، وينغمسون في الفحش ، وجانِبِ البدعَ المفسدة ، وباعِدِ الَّذين يحرِّضونك عليها ، وسِّع رقعة البلاد بالجهاد ، واحرس أموال بيت المال من أن تتبدَّد ، إيَّاك أن تمدَّ يدك إلى مال أحدٍ من رعيتك إلا بحقِّ الإسلام ، واضمن للمعوزين قوتهم ، وابذل إكرامك للمستحقِّين .

وبما أنَّ العلماء هم بمثابة القوَّة المبثوثة في جسم الدَّولة ، فعظِّم جانبهم ، وشجِّعهم ، وإذا سمعت بأحدٍ منهم في بلدٍ آخر ، فاستقدمه إليك ، وأكرمه بالمال . حذارِ حذارِ لا يغرنَّك المال ، ولا الجند ، وإيَّاك أن تبعد أهل الشَّريعة عن بابك ! وإيَّاك أن تميل إلى أيِّ عملٍ يخالف أحكام الشَّريعة ، فإنَّ الدِّين غايتنا ، والهداية منهجنا ، وبذلك انتصرنا .

خذ منِّي هذه العبرة : حضرت هذه البلاد كنملةٍ صغيرةٍ ، فأعطاني الله تعالى هذه النِّعم الجليلة ، فالزم مسلكي ، واحْذُ حذوي ، واعمل على تعزيز هذا الدِّين ، وتوقير أهله ، ولا تصرف أموال الدَّولة في ترفٍ ، أو لهو ، أو أكثر من قدر اللُّزوم ، فإنَّ ذلك من أعظم أسباب الهلاك »[١] .

---

(١) السُّلطان محمَّد الفاتح ، ص(١٧١ ، ١٧٢) .

١ ـ (كن عادلاً ، صالحاً ، رحيماً) :

لقد قام محمَّد الفاتح بهذه المبادىء مع النَّصارى الَّذين أصبحوا من رعايا دولته ، وعندما دخل القسطنطينيَّة فاتحاً كان يحارب حرب الإسلام (الَّتي لا تُهتك فيها حرمةٌ ، ولا يُقتل فيه صبيٌّ ، ولا شيخٌ ، ولا امرأةٌ ، ولا يحرق فيها زرعٌ ، ولا يتلف فيها ضرعٌ ، ولا يُمَثَّل فيها بإنسانٍ ، ولا تصيب إلا المقاتلين الَّذين يحملون السِّلاح في وجه المسلمين)[١] .

كان محمد الفاتح وهو يمثل إسلامه ، وعقيدته ، ومنهجه الإسلاميَّ في الحرب على تعاليم الصِّدِّيق أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ في معاملته للرُّوم : « لا تخونوا ، ولا تغلُّوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثِّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأةً ، ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرةً مثمرة ، ولا تذبحوا شاةً ، ولا بعيراً إلا لمأكلةٍ ، وسوف تمرُّون بأقوامٍ قد فرَّغوا أنفسهم في الصَّوامع ، فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له . . اندفعوا باسم الله »[٢] .

لقد دخل محمد الفاتح إلى قلب العاصمة البيزنطيَّة ، وأعطى عالم الغرب النَّصرانيَّ دروساً في العدالة ، والرَّحمة ، وأصبحت مَعْلَماً من معالم التَّاريخ العثمانيِّ .

إنَّ الدولة العثمانيَّة سارت على منهج الإسلام ، فأخذت منه العدالة ، والرَّحمة بالرَّعايا الَّذين حكموهم ، ولقد تحدَّث عبد الرحمن عزَّام عن رحمة العثمانيِّين ، وعدالتهم بالشُّعوب الَّتي حكموها ، فقال : « وقد يظنُّ بعض النَّاس بما يتناقلون من أحاديث ، أو فكاهات عن بعض العهود للدَّولة العثمانيَّة : أنَّها كانت دولةً عظيمةً ، ولكن لم تكن صفة الرَّحمة من مميِّزاتها . وهو خطأٌ شائعٌ لا يقف أمام البحث والتَّدقيق .

ولقد سمعت بنفسي حديث هذه الرَّحمة في « بسرابيا » من رومانيا على نهر « الدنيستز » وقيل لي : إنَّ أمثلة الفلاحين في هذه الأطراف النَّائية للملك العثمانيِّ لا تزال تعبر عن رحمة التُّركي ، وعدله . ومنها ما يشير إلى أنَّ العدل ينزع مع

---

(١) المسألة الشَّرقية : محمود ثابت الشَّاذلي ، ص(١٠٤) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٠٦) .

الأتراك من الأرض ، وقد لفت نظري في بولونيا ، وورومانيا ، وفي بلاد البلقان في رحلاتي المتعدِّدة أمثلةٌ ، وأساطير لا تزال تشير إِلى ما استقرَّ في نفوس هذه الأمم المسيحيَّة من احترام التُّركيِّ المسلم كرحيمٍ عادلٍ .

وفي سنة ١٩١٧م كنت في فيينا فروي لي أنَّ البولونيِّين مستبشرون بوصول العساكر العثمانيَّة إِلى جاليسيا مدداً للنِّمساويين »[1] .

« . . . بأنَّ العدل والرَّحمة الإِسلاميَّة هما اللَّذان مكَّنا للعثمانيِّين في أوربة ، وبالعدل والرَّحمة خرجت هذه الأمم من همجيَّتها ، وقسوتها ، وعرفت المساواة ، والإِنصاف ، ويكفي أن تعلم : أنَّ استرقاق الطَّوائف بأشنع صورةٍ كان نظاماً دوليَّاً متعاهداً عليه في أوربة الوسطى والجنوبيَّة ، إِلى أن قضى عليه العثمانيُّون ، وكانت هناك عهودٌ دوليَّةٌ بين الملداف ، والبولونيين ، والمجر لتسليم كلِّ فلاحٍ يرحل من مزرعة سيِّده من « البويار » إِلى أحد هذه الأوطان ، وكانت المزارع تباع بما عليها من الحيوانات والفلاحين .

جاء العثمانيُّون إِلى أوربة يحملون بين صدورهم بين عاطفة الرَّحمة كما أرادها صاحب الدَّعوة ﷺ ، ولم يكن الأتراك أكثر عدَّةً ، ولا عدداً من أيَّة أمَّةٍ من الأمم الَّتي سادوها ، فوصلوا على رؤوسهم جميعاً إِلى فيينا ، تمهد لهم الرَّحمة صعاب الجبال ، والبحار ، والوهاد ، كما مهَّدت للعرب قبلهم إِفريقية ، وآسيا »[2] .

إِنَّ محمداً الفاتح سار على منهج الرَّحمة ، والعدالة ، وأوصى أحفاده من بعده أن يلتزموا نفس المنهج ؛ الَّذي يمثل حقيقة الإِسلام .

٢ـ (وابسط على رعيتك حمايتك دون تمييز) :

وهذا ما قام به السُّلطان محمَّد بنفسه حيث حرص على حماية كلِّ رعايا الدَّولة سواءٌ مسلمين ، أو نصارى ، ومن القصص اللَّطيفة في هذا المعنى : أنَّه كان على أهل جزيرة خيوس ديْنٌ قدره أربعون ألف دوقة لتاجر من تجار « غلطة » يدعى فرانسسكوا درا بيريو ، ولما عجز هذا الدَّائن عن استرداد دينه من أهل الجزيرة رأى

---

(١) الرِّسالة الخالدة ، ص(٢٢ ، ٢٤) .

(٢) انظر : المسألة الشَّرقية ، ص(١٠٧) .

السُّلطان الفاتح أن يقوم هو بهذا الأمر بوصف هذا التَّاجر من رعاياه ؛ الَّذين يجب على الدَّولة العثمانية حمايتهم ، واستيفاء حقوقهم ، وأرسل إلى الجزيرة عدَّة سفن بقيادة حمزة باشا إلا أنَّ أهالي جزيرة خيوس قتلوا بعض الجنود ، ورفضوا الانقياد ، ودفع الحقوق . فقال محمَّد الفاتح للتَّاجر درابيريو : « أنا الَّذي سيتحمل دَيْنك من أهل الجزيرة ، وسأطلب به مضاعفاً ثمناً لدم الجنود الَّذين هلكوا »(١) .

وسيَّر السلطان إلى هذه الجزيرة أسطولاً ، وقام هو بقيادة الجيوش بنفسه إلى الجزر القريبة منها ، وفتح خيوس بغير حرب ، ولا قتال ، وبادرت جزيرتا إيمبروس وساموتراس إلى الاستسلام ، وفتحتا أبوابهما على مصاريعها للعثمانيِّين ، فاضطرت جزيرة خيوس إلى دفع ما عليها من دين للتَّاجر الجنوي ، ودفعت للسُّلطان جزيةً سنويَّةً قدرها ستة آلاف دوقة ، ودفعت له فوق ذلك تعويضاً للسُّفن العثمانيَّة الَّتي غرقت(٢) .

إنَّ حماية الرَّعية ، والحفاظ على حقوقهم من واجبات الدَّولة الإسلاميَّة .

٣ـ (واعمل على نشر الدِّين الإسلاميِّ ، فإنَّ هذا هو واجب الملوك على الأرض) :

كان السُّلطان محمَّد الفاتح في حروبه لا ينسى أنَّه داعيةٌ إلى الإسلام ، ولذلك كان يشجِّع قوَّاده ، وجنوده على نشر الدِّين ، والعقيدة ، والإسلام ، ويثني على القادة الَّذين تفتح المدن على أيديهم ، فعندما أمر قائده عمر بن طرخان أن يزحف بجيشه إلى أثينا ، واستولى عليها ، وضمَّها إلى الدَّولة العثمانيَّة ، وتحرَّك القائد عمر بجيشه ، واضطرت المدينة للتَّسليم ، زار السُّلطان الفاتح المدينة بعد عامين من فتحها ، وقال : « ما أعظم ما يدين به الإسلام لابن طرخان ! » .

لقد اهتمَّت الدَّولة العثمانيَّة بالدَّعوة إلى الله ، وتركت بصماتها قويَّةً واضحةً في مجال نشر الدَّعوة في أوربة ؛ فعلى امتداد قرونٍ ، وتعاقب عصورٍ ، ودهورٍ ظلَّت جماعاتٌ إسلاميَّة تقاوم شتَّى أنواع الضُّغوط الَّتي بذلت لتحويلها إلى المسيحيَّة ،

(١) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(٢١٧) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢١٨) .

ولا زالت هذه الأقلِّيَّات الإسلاميَّة تعيش إلى يومنا هذا في بلغاريا، ورومانيا، وألبانيا، واليونان، ويوغسلافيا يصل أعدادها إلى الملايين من البشر(١)، وهذا يرجع إلى فضل الله على تلك الشُّعوب، ثمَّ إلى سياسة السَّلاطين العثمانيِّين الَّذين يحرصون على هداية النَّاس، ودخولهم في الإسلام.

٤ ـ (قدَّم الاهتمام بأمر الدِّين على كلِّ شيءٍ ولا تفتُر في المواظبة عليه):

إنَّ سلاطين الدَّولة العثمانيَّة قبل زمن محمَّد الفاتح، وبعده، نشؤوا نشأةً إسلاميَّة، خالصةً، مشوبةً بإيمانٍ عميقٍ، متوجِّهةً إلى أهدافٍ عقائديَّةٍ صريحةٍ، خاضوا من أجلها حروباً دينيَّة شديدةً، وكانت أجمل عبارة على ألسن العثمانيِّين عند التنادي للجهاد: الزَّحف إلى الفتوحات إمَّا غازياً وإمَّا شهيداً، فمنذ بداية تأسيسها أطلق على زعيمها لقب الغازي ـ أي: المجاهد في سبيل الله ـ وظلَّ هذا اللَّقب الرَّفيع يتقدَّم كل الألقاب، والنُّعوت بالنِّسبة للسَّلاطين العظماء، وكانت غاية الدَّولة العثمانيَّة (الدفاع عن الإسلام، ورفع رايته على الأنام).

لذلك صُبِغَتِ الدَّولة شعباً وسلطاناً، حكومةً وجيشاً، ثقافةً وتشريعاً، نهجاً وضميراً، هدفاً ورسالةً، بصبغةٍ إسلاميَّةٍ خالصةٍ منذ النَّشأة، وعلى مدى سبعة قرون. لقد كان اهتمام السَّلاطين بأمر الدِّين عظيماً، وقدَّموه على كلِّ شيءٍ، وواظبوا عليه إلى أقصى الحدود، وأكَّدوا: أنَّهم لا ينتسبون إلا للإسلام، وتراثه، وحضارته، وكان الوطن عندهم هو كلُّ أرضٍ يسكنها المسلمون، وكلمة الملَّة تعني الأمَّة، والدِّين معاً، وذلك كان هدف المنهج التَّربويِّ في جميع المدارس، والجامعات، والمعاهد، تصاغ به نفوس الناشئة منذ بداية تعليمهم في الكتاتيب، وجميع المسلمين كانوا يُسجَّلون في دوائر النُّفوس ـ سجلات المواليد ـ وفي التَّذاكر العثمانيَّة ـ بطاقة الهويَّة ـ كمسلمين فحسب. دون أن يذكر إلى جانب ذلك فيما إذا كانوا من الأتراك، أو من العرب، أو من الشَّراكسة، أو الألبان، أو الأكراد. إنَّ ما يهمُّ الدَّولة كان ينحصر في ملَّتهم، في ديانتهم؛ إنَّهم مسلمون، وكفى. واعتبر العثمانيُّون أيَّ مقاتلٍ مسلمٍ جاهد في سبيل الله ميراثهم البطوليَّ، وخلفيَّتهم

---

(١) انظر: الدَّولة العثمانيَّة دولةٌ إسلاميَّة، د. عبد العزيز الشنَّاوي (١/ ٢٩، ٣٠).

التَّاريخيَّة ، وإن تباينت الأنساب ، وتباعدت الأزمان ، من هؤلاء : المجاهد « عبد الله البطَّال » الَّذي استشهد في معركة أكرنيون في آسيا الصُّغرى عام ١٢٢ للهجرة زمن الدَّولة الأمويَّة ، والَّذي يقول عنه الطَّبري وهو يعلِّق على حوادث سنة ١٢٢هـ : « وفيها قتل عبد الله البطَّال في جماعةٍ من المسلمين بأرض الرُّوم »(١) .

يعتبره العثمانيُّون بطلهم القومي ، وبين « عبد الله البطَّال » العربي ، وقيام الدَّولة العثمانيَّة ما يقرب من سبعمئة عام ، لقد كان تاريخ العثمانيِّين ، وأبطال العثمانيِّين نسب الإسلام ، وتاريخ الإسلام ، ومجاهدي الإسلام(٢) .

إنَّ سلاطين الدَّولة العثمانيَّة كانوا يلقَّبون بكثيرٍ من الألقاب، والنُّعوت الَّتي تبيِّن: أن هدفهم الأكبر، ومقصدهم الأسمى هو خدمة دين الله تعالى، فكانوا يلقَّبون بمثل: سلطان الغزاة، والمجاهدين، وخادم الحرمين الشَّريفين، وخليفة المسلمين(٣) .

٥ـ (ولا تستخدم الأشخاص الَّذين لا يهتمُّون بأمر الدِّين ، ولا يجتنبون الكبائر ، وينغمسون في الفحش) :

ولذلك اهتمَّ سلاطين الدَّولة العثمانيَّة بإنشاء جامعاتٍ لتخريج قادةٍ للجيش ، وللوظائف المهمَّة في الدَّولة ، ووضعوا منهجاً تربويّاً لإعداد القادة ، وخصوصاً في داخل الجيوش ، وحرصوا على أن يختاروا لمناصب الدَّولة الأمناء ، والأكفاء أصحاب العقول ، والنُّهى ، والتُّقى ، وأسندوا إليهم الولايات ، والقيادات في الجيوش ، ومناصب القضاة ، وباعدوا عنهم كلَّ من لا يهتمُّ بأمر الدِّين ، ويجتنب الكبائر ، والفواحش . هكذا كان السَّلاطين الأوائل .

٦ـ (جانبِ البدع المفسدة ، وباعدِ الَّذين يحرِّضونك عليها) :

إنَّ السلاطين العثمانيِّين الأوائل ساروا على منهج أهل السُّنَّة والجماعة ، وعرفوا خطورة البدع ، والاقتراب من أصحابها ، واكتفوا بكتاب الله ، وسنَّة رسوله ﷺ ، وإجماع الأمَّة ، واجتهادات العلماء الرَّاسخين .

---

(١) تاريخ الطَّبري : الجزء الثاني حوادث سنة (١٢٢)هـ .
(٢) المسألة الشَّرقية ، ص(٥٧) .
(٣) المصدر السابق نفسه .

٧ـ (وسّع رقعة البلاد بالجهاد) :

إنَّ السلاطين العثمانيِّين الأوائل قاموا بتوسيع رقعة الدَّولة بالجهاد ، وبسطوا الأمن ، وقمعوا الأخطار الَّتي هدَّدت دولتهم ، وعملوا على تحصين الثُّغور بالعدَّة المانعة ، والقوَّة الدَّافعة حتَّى لا يستطيع الأعداء أن يظفروا بثغرةٍ ، أو ينتهكوا محرَّماً ، ويسفكوا دماً مسلماً ، أو معاهداً ، وعمل السُّلطان محمَّد ومن قبله على إعداد الأمَّة إعداداً جهادياً ، وقام بواجبه في جهاد الكفرة المعاندين للإسلام حتَّى يسلموا ، أو يدخلوا في ذمَّة المسلمين ، ولقد صُبِغَ المجتمعُ العثمانيُّ بالصَّبغة الإسلاميَّة الجهاديَّة الدَّعويَّة ، وكان أفراد الجيش يُعدُّون للحياة الجهاديَّة العنيفة ـ منذ نعومة أظفارهم ـ إعداداً دقيقاً ، كاملاً .

ولقد حقَّقت الجيوش العثمانيَّة انتصاراتٍ رفيعةً في السَّاحات الأوربيَّة(١) ، لقد (حقَّقت الدَّولة العثمانيَّة إلى عهد سليمان القانوني آمالاً عظيمةً كان يستهدفها المسلمون منذ تسعة قرون برفع الرَّاية المحمَّديَّة على قلاع كثيرٍ من العواصم الكبرى في أوربَّة ، وإخضاع كثيرٍ من الممالك ، والإمارات للحكومة الإسلاميَّة ، وأخذ ظلُّ الإسلام يمتدُّ حتَّى أوشكت جيوش المسلمين في شرق أوربة ، وغربها أن تلتقي في الأرض الكبيرة)(٢) .

ومن المؤتمر السَّابع لوزراء خارجيَّة الدُّول الإسلاميَّة في إستانبول ألقى المجاهد البروفسور المهندس نجم الدِّين أربكان خطاباً استرجع فيه صدى الماضي الإسلاميِّ ، الَّذي مثَّلته الدَّولة العثمانية ، فقال : « . . . إنَّ هذا القصر الَّذي شاء الله أن يعقد فيه هذا المؤتمر الإسلاميُّ الكبير ، وقد نقشت على بابه كلمة الإسلام الجامعة : « لا إله إلا الله » . . هو قصر السُّلطان محمَّد الفاتح الَّذي بناه عقب فتح إستانبول .

كيف لا يكون هذا المكان تاريخيَّاً ، ومنه كانت تدبَّر شؤون العالم الإسلاميِّ ردحاً من الزَّمن ؟ وكيف لا يكون تاريخيَّاً ، ومنه كانت تنطلق جيوش المسلمين إلى

---

(١) انظر : المسألة الشَّرقية ، ص(٦٠) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٦٣) .

جميع أنحاء الدُّنيا مجاهدةً في سبيل الله ، تنشر النُّور ، والهداية ، والعدل أينما حلَّت ، وحيثما ضربت .

كيف لا يكون تاريخيّاً ، وفوق هذا الحجر الَّذي يرتكز عليه الميكروفون كانت تنصب رايات الجيوش الإسلاميَّة المنطلقة للذَّبِّ عن ديار المسلمين جميعاً . . وأذكر على سبيل المثال لا الحصر : أنَّ قرار إرسال الأسطول الإسلامي للحيلولة دون وقوع كلٍّ من أندونيسيا ، والفلبين في براثن الاستعمار الهولندي اتُّخذ من هذا المكان ، وفيه أيضاً اتُّخذت قرارات إرسال الجيوش والأساطيل لحماية شمال أفريقية من الغزاة الطَّامعين .

وفوق هذا كلِّه فإنَّ هذا البناء التَّاريخيَّ يضمُّ بين جدرانه لواء الرَّسول الأعظم ﷺ ، وبردته المباركة ، وسيوفه ، وكثيراً من آثاره الشَّريفة »[(١)] .

لقد كانت الدَّولة تعطي لمبدأ الجهاد أهمِّيَّةً قصوى ، ولذلك أعدَّت شعبها ، وجيشها لتحقيق هذا المبدأ الرَّبانيِّ ، وحقَّقت من خلاله ثمراتٍ مهمَّةٍ للإسلام والمسلمين .

٨ـ (واحرس أموال بيت المال من أن تتبدَّد) :

إنَّ السَّلاطين العثمانيِّين كانوا يرون : أنَّ الدَّولة هي الهيئة التَّنفيذيَّة ، والمعبِّرة عن رأي الأمَّة ، والمكلَّفة بحماية مصالحها ، فمسؤوليَّة الدَّولة ليست خاصَّةً بالأمن ، والدِّفاع ، وإنَّما هي مسؤولة عن رعاية المصالح الاجتماعيَّة ، وحماية بيت المال من الإسراف والتَّبذير ، والمحافظة على مصادر ، وموارد بيت المال .

٩ـ (وإيَّاك أن تمدَّ يدك إلى مال أحدٍ من رعيَّتك إلا بحقِّ الإسلام) :

إنَّ وظيفة الدَّولة تنفيذ أوامر الشَّريعة ، والشَّريعة جاءت لحفظ أموال النَّاس ؛ الَّتي هي قوام حياتهم ، وقد حرَّم الإسلام كلَّ وسيلةٍ لأخذ المال بغير حقٍّ شرعيٍّ .

ووظيفة الحاكم حماية أموال الرَّعيَّة من السَّرقة ، والنَّهب ، لا أن يمدَّ يده بغير وجه حقٍّ ، ويعتدي على أموال النَّاس .

---

(١) المسألة الشرقية ، ص(٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥) .

١٠ ـ (واضمن للمعوزين قوتهم ، وابذل إكرامك للمستحقين) :

كان السَّلاطين العثمانيُّون يتسابقون في الإحسان للفقراء والمساكين ، وأبناء السَّبيل . . وكلٌّ من هو محتاجٌ إلى البرِّ ، والإحسان ، وقامت الدَّولة بأعمالٍ جليلةٍ في هذا الباب ، بل أوقف السَّلاطين ، والوزراء أوقافاً عظيمةً على طلاب العلم ، والفقراء ، والمساكين ، والأرامل ، وغير ذلك . وكان الوقف ركناً أساسيّاً في اقتصاد الدَّولة . يقول الأستاذ محمَّد حرب : « . . .نشطت الحركة العلميَّة في جوامع إستانبول[١] . . وكان صقوللي محمد باشا ـ على سبيل المثال ـ ينفق على الحركة العلميَّة في إستانبول من دخل وقف ٢٠٠٠ قرية عثمانيَّة في تشيكوسلوفاكيا (وكانت تابعةً للدَّولة العثمانيَّة) وأسعد أفندي قاضي عسكر الرُّوملي « يعني البلقان » أوقف وقفين كبيرين على تجهيز الفتيات المعدمات ؛ اللاتي يصلن إلى سنِّ الزواج ، وكان لدى العثمانيِّين أوقافٌ كثيرةٌ ، ومتعدِّدة .

مثلٌ آخر : كانت هناك أوقافٌ بصرف مرتَّبات للعائلات المعوزة ـ غير الأكل ـ لأنَّ الأكل المجاني له أوقافٍ عامَّةٌ أخرى ، تسمَّى « عمارات وقفي » أي : وقف المطاعم الخيريَّة ، وكانت الـ« عمارات » تقدِّم أكلاً مجانيّاً لعددٍ يبلغ ٢٠٫٠٠٠ شخص يومياً مجَّاناً ، وكان مثل هذا في كلِّ الولايات[٢] .

وكان المطعم الخيري بجامع السُّليمانيَّة تبلغ ميزانيَّته عام ١٥٨٦م ما يعادل (١٠) عشرة ملايين دولار أمريكي إلا قليلاً[٣] .

وهكذا كانت سياسة الدَّولة على مستوى السَّلاطين ، والأمراء ، والوزراء تضمن للمعوزين قوتهم ، وتكرم المستحقِّين بالإكرام .

١١ ـ (وبما أنَّ العلماء هم بمثابة القوَّة المبثوثة في جسم الدَّولة فعظِّمْ جانبهم ، وشجِّعْهم ، وإذا سمعت بأحدٍ منهم في بلدٍ آخر ؛ فاستقدمه إليك ، وأكرمه بالمال) :

لقد اهتمَّ السُّلطان محمَّد الفاتح بترتيب وظائف العلماء في الجوامع الكبرى ،

(١) الجامع في النِّظام العثمانيِّ معمارياً ، وإدارياً وحدةٌ دينيةٌ وعلميَّةٌ متكاملةٌ ، فيها الجامع ، والمدرسة ، والمكتبة ، ومدينة الطلاَّب ، والمطعم الخاصُّ بهم ، والمطعم الخيري العامُّ ، والحمَّام ، ومدرسة الطِّبِّ ، والمستشفى .
(٢) العثمانيُّون في التاريخ ، والحضارة ، ص(٤٤٢) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٤٢٢) .

ووضع لها تقاليد سابقةً ، ونظَّمها بمرسومٍ خاصٍّ ، وأهمُّ الوظائف في المساجد الكبرى : الخطيب ، والإمام ، والقيِّم ، والمؤذِّن، ويقوم المرشَّحون لهذه الوظائف بطلب العلم في المدارس الدِّينيَّة الكبيرة الَّتي كثيراً ما كان السَّلاطين ، والوزراء يتنافسون على تشييدها تنافساً نبيلاً ، ويخضع الموظَّفون الدِّينيون في العاصمة لسلطة المفتي مباشرةً ، وكان ينوب عنه في الولايات الكبرى قضاة العسكر ، أمَّا في الولايات الصُّغرى ؛ فكان الإمام يقوم بجميع المهام الدِّينيَّة وخاصَّة في الأرياف .

وكانت المدارس الَّتي تُعِدُّ الموظفين الدِّينيِّين يوجد بها ثلاث فئاتٍ من طلبة العلم فـ(الصُّوفتا) وهي أدناها ، تليها فئة المعيدين الَّتي يحمل الطَّالب عند التخرُّج منها لقب « دانشمند » أو عالم . أمَّا الفئة الأعلى ؛ فهي منصب المدرِّس ، وبلغ عدد الصُّوفتا في عهد السُّلطان مراد الثاني ٩٠ ألفاً . وكانوا كثيراً ما يكون لهم أثرٌ في شؤون الدَّولة(١) .

١٢ـ (حذارِ حذارِ لا يغرَّنك المال ، ولا الجند ، وإيَّاك أن تبعد أهل الشَّريعة عن بابك ، وإيَّاك أن تميل إلى أيِّ عملٍ يخالف أحكام الشَّريعة ، فإنَّ الدِّين غايتنا ، والهداية منهجنا ، وبذلك انتصرنا) :

إنَّ السُّلطان محمَّداً الفاتح يحذِّر وليَّه من بعده أن ينغمر بالمال ، أو الجند ، ويبيِّن له خطورة إبعاد العلماء والفقهاء عن الحاكم ، كما يحذِّره من أن يخالف أحكام الشَّريعة ؛ لأنَّ ذلك يجلب للأفراد والأمَّة تعاسةً ، وضنكاً في الدُّنيا ، وهلاكاً ، وعذاباً في الآخرة ، وإنَّ آثار الابتعاد عن شرع الله ، وأحكامه تبدو على حياة الأمَّة في وُجهتها الدِّينيَّة ، والاجتماعيَّة ، والسِّياسيَّة ، والاقتصاديَّة .

إنَّ السِّرَّ في قوَّة العثمانيِّين ، وعزِّهم ، وشرفهم كامنةٌ في طاعة الله ، وتنفيذ أحكامه ، والالتزام بشريعته ، والجهاد في سبيله ، والدَّعوة إليه ، ولذلك قال محمَّد الفاتح لابنه : « فإنَّ الدِّين غايتنا ، والهداية منهجنا ، وبذلك انتصرنا » .

١٣ـ (واعمل على تعزيز هذا الدِّين ، وتوقير أهله) :

إنَّ تعزيز هذا الدِّين ، وإقامته في الأرض يحقِّق نتائج طيِّبةً في حياة الأمَّة ،

(١) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، د . علي حسون ، ص(٤٠٥) .

والدَّولة ، ومن هذه النَّتائج تهذيب النَّفس من الشُّرور ، والآثام ، وترويضُها على الخير ، لذا كان الوازع الدِّينيُّ ثمرةً من ثمار تعزيز هذا الدِّين ، ويكون مانعاً من ارتكاب الجريمة ، ومحاسبة النَّفس عليها ، ويكون ماثلاً أمام العين ممَّا يجعل النَّفس تخشى الله ، وتتَّقيه دائماً ، وأبداً ، كما أنَّ تعزيز الدِّين ، وإقامة الشَّرع يحقِّق المساواة بين الرَّاعي والرَّعيَّة في الحقوق ، والواجبات ، وتنشر العدالة في الدَّولة الإسلاميَّة لجميع ساكنيها ، كما أنَّ في تطبيق الشَّريعة نزول البركة ، وتوالي النِّعم ؛ إذ ليس هناك طريقٌ مستقلٌّ لحسن الجزاء في الآخرة ، وطريقٌ مستقلٌّ لصلاح الحياة في الدُّنيا ، إنَّما هو طريقٌ واحدٌ تصلح به الدُّنيا والآخرة ، وفي تطبيقها بركاتٌ في النُّفوس ، وبركاتٌ في المشاعر ، وبركاتٌ في طيِّبات الحياة ، فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به .

ومن نتائج تطبيقها بناء مجتمع إسلاميٍّ معتزٍّ بدينه ، وعقيدته ؛ بما التزمه من سلوكٍ مصدرُه : كتابُ الله ، وسنَّة رسوله ﷺ ، ففيها الموادُّ اللازمة لبناء الفرد المسلم ، والجماعة المسلمة ، والأمَّة المسلمة والدَّولة المسلمة ، كما أنَّ من النتائج حفز الهمم ، وبعث النُّفوس إلى الأخذ بأسباب العلم ، والحضارة ، والرُّقي ، والتقدُّم لما تضمَّنته تلك الشَّريعة من الدَّعوة إلى الحياة ، كما أنَّها تتضمَّن نَبْذَ عَفَنِ الحياة الحضاريِّ لمجتمعات الرَّذيلة أيّاً كانت ، وأينما وُجدت[(١)] .

إنَّ النَّاس يحتاجون إلى العلماء الرَّبَّانيِّين ؛ ليعلِّموهم دينهم ، ويربُّوا نفوسهم على طاعة الله ، ولذلك لابدَّ من القيادة الإسلاميَّة من احترامهم ، وتقديرهم ، وإكرامهم ، فهم الَّذين يبيِّنون للناس حكم الله ، ورسوله ، وتفسير النُّصوص الشَّرعيَّة وفق قواعد الإسلام الكلِّيَّة ، قال تعالى : ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل : ٤٣] .

١٤ـ (ولا تصرف أموال الدَّولة في ترفٍ ، أو لهوٍ ، أو أكثر من قَدْرِ اللُّزوم ، فإنَّ ذلك من أعظم أسباب الهلاك) :

إنَّ هذه الوصيَّة ترشد ولي العهد السُّلطان محمَّد الفاتح إلى الاعتدال والتَّوسُّط

---

(١) انظر : تطبيق الشَّريعة الإسلاميَّة للطّريقي ، ص(٦٠ ، ٦١) .

في الاستهلاك ، وهذه الوصيَّة فهمٌ لأمر الله ، ورسوله بالقصد ، والتَّوسُّط .

إِنَّ السُّلطان محمَّداً الفاتح يرى وجوب ابتعاد الحاكم ، ودولته عن الإسراف ؛ لأنَّ فيه معصية الله ورسوله .

●● وفاة السُّلطان محمَّد الفاتح ، وأثرها على الغرب ، والشَّرق :

في شهر ربيع من عام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م غادر السُّلطان الفاتح القسطنطينيَّة إلى آسيا الصُّغرى ، حيث كان قد أُعدَّ في إسكدار جيشٌ آخر كبير . وكان السُّلطان محمَّد الفاتح قبل خروجه من إستانبول قد أصابته وعكةٌ صحِّيَّةٌ إلا أنَّه لم يهتمَّ بذلك لشدَّة حبِّه للجهاد ، وشوقه الدَّائم للغزو ، وخرج بقيادة جيشه بنفسه ، وقد كان من عادته أن يجد في خوض غمار المعارك شفاءً لما يلمُّ به من أمراض ، إلا أنَّ المرض تضاعف عليه هذه المرَّة ، وثقلت وطأته بعد وصوله إلى إسكدار ، فطلب أطباءه ، غير أنَّ القضاء حمَّ به ، فلم ينفع تطبيبٌ ولا دواء ، ومات السُّلطان الفاتح وسط جيشه العرمرم يوم الخميس الرَّابع من ربيع الأوَّل ٨٨٦هـ(٣ مايو ١٤٨١م) وهو في الثَّانية والخمسين من عمره بعد أن حكم نيِّفاً وثلاثين عاماً(١) .

وبعد أن ذاع نبأ الوفاة في الشَّرق ، والغرب ؛ أحدث دويَّاً هائلاً اهتزَّت له النَّصرانيَّة ، والإسلام ، أمَّا النَّصرانية فقد غمرها الفرح ، والابتهاج ، والبشرى ، وأقام النَّصارى في رودس صلوات الشُّكر على نجاتهم من هذا العدوِّ المخيف(٢) .

وكانت جيوش الدَّولة العثمانية قد وصلت إلى جنوب إيطاليا لفتح كلِّ إيطاليا ، وضمِّها للدولة العثمانيَّة ، إلا أنَّ خبر الوفاة وصلهم ، فانتاب الجنود همٌّ شديدٌ ، وحزنٌ عميقٌ ، واضطرَّ العثمانيُّون في الدُّخول لمفاوضاتٍ مع ملك نابولي ؛ لينسحبوا آمنين على حياتهم ، وأمتعتهم ، وعتادهم ، وتمَّ الاتِّفاق على ذلك ؛ إلا أنَّ النصارى لم يفوا بما تعهَّدوا ، واعتقلوا بعض الجنود الذين كانوا في المؤخِّرة ، وصفَّدوهم بالحديد(٣) .

---

(١) انظر : محمَّد الفاتح ، ص(٣٧٢) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٣٧٣) .
(٣) المصدر السابق نفسه .

وعندما وصل خبر وفاة السُّلطان إلى روما ؛ ابتهج البابا ، وأمر بفتح الكنائس ، وأقيمت فيها الصَّلوات ، والاحتفالات ، وسارت المواكب العامَّة تجوب الشَّوارع ، والطُّرقات ، وهي تنشد أناشيد النَّصر ، والفرح بين طلقات المدافع ، وظلَّت هذه الاحتفالات والمهرجانات قائمةً في روما طيلة ثلاثة أيام ، لقد تخلَّصت النَّصرانيَّة بوفاة محمَّد الفاتح من أعظم خطرٍ يهدِّدها(١) .

لم يكن أحدٌ يعلم شيئاً عن الجهة الَّتي كان سيذهب إليها السُّلطان الفاتح بجيشه ، وذهبت ظنون النَّاس في ذلك مذاهب شتَّى ، فهل كان يقصد رودس ليفتح هذه الجزيرة التي امتنعت على قائده مسيح باشا ؟ أم كان يتأهَّب للحاق بجيشه الظافر في جنوبي إيطاليا ، ويزحف بنفسه بعد ذلك إلى روما ، وشمالي إيطاليا ، ففرنسا ، وإسبانيا ؟

لقد ظلَّ ذلك سراً طواه الفاتح في صدره ، ولم يبح به لأحدٍ ، ثمَّ طواه الموت بعد ذلك(٢) .

لقد كان من عادة الفاتح أن يحتفظ بالجهة الَّتي يقصدها ، ويتكتَّم أشدَّ التكتُّم ، ويترك أعداءه في غفلةٍ ، وحيرةٍ من أمرهم لا يدري أحدهم متى تنزل عليه الضَّربة القادمة ، ثمَّ يُتبع هذا التكتُّم الشَّديد بالسُّرعة الخاطفة في التَّنفيذ ، فلا يدع لعدوِّه مجالاً للتأهُّب ، والاستعداد(٣) . وذات مرَّةٍ سأله أحد القضاة : أين تقصد بجيوشك ؟ فأجابه الفاتح : « لو أن شعرةً في لحيتي عرفت ذلك ؛ لنتفتها ، وقذفت بها في النَّار . . . »(٤) .

كان من أهداف الفاتح أن يمضي بفتوحات الإسلام من جنوب إيطاليا إلى أقصاها في الشَّمال ، ويستمرُّ في فتوحاته بعد ذلك إلى فرنسا ، وإسبانيا ، وما وراءها من الدُّول ، والشُّعوب ، والأمم .

---

(١) انظر : محمد الفاتح ، ص(٣٧٤) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٣٧٧) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢٥٩) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢٦٠) .

لقد تأثَّر المسلمون في العالم الإسلامي لوفاة محمَّد الفاتح ، وحزنوا عليه حزناً عميقاً ، وبكاه المسلمون في جميع أقطار المعمورة ، بهرتهم انتصاراتُه ، وأعاد إليهم سيرة المجاهدين الأوائل من السَّلف الصَّالح(١) .

قال عن وفاته عبد الحي بن العماد الحنبليُّ في وفيات سنة ستَّةٍ وثمانين ، وثمانمئةٍ : « . . كان من أعظم سلاطين بني عثمان ، وهو الملك الفاضل ، النَّبيل ، العظيم ، الجليل ، أعظم الملوك جهاداً ، وأقواهم إقداماً ، واجتهاداً ، وأثبتهم جأشاً ، وقياداً ، وأكثرهم توكُّلاً على الله ، واعتماداً ، وهو الَّذي أسَّس ملك بني عثمان ، وقنَّن لهم قوانين صارت كالأطواق في أجياد الزَّمان . وله مناقب جميلةٌ ، ومزايا فاضلةٌ جليلةٌ ، وآثار باقيةٌ في صفحات اللَّيالي ، والأيَّام ، ومآثر لا يمحوها تعاقب السِّنين والأعوام ، وغزواتٌ كسر بها أصلاب الصُّلبان، والأصنام، من أعظمها : أنَّه فتح القسطنطينيَّة الكبرى ، وساق إليها السُّفن تجري رخاءً برّاً ، وبحراً ، هجم عليها بجنوده ، وأبطاله ، وأقدم عليها بخيوله ، ورجاله ، وحاصرها خمسين يوماً أشدَّ الحصار ، وضيَّق على مَنْ فيها من الكفَّار الفجَّار ، وسلَّ على أهلها سيف الله المسلول ، وتدرَّع بدرع الله الحصين المسبول ، ودقَّ باب النَّصر ، والتَّأييد ، ولجَّ ، ومن قرع باباً ولجَّ ؛ وَلَجَ ، وثبت على متن الصَّبر إلى أن أتاه الله تعالى بالفرج ، ونزلت عليه ملائكة الله القريب الرَّقيب بالنَّصر العزيز من الله تعالى ، والفتح القريب ، ففتح إستانبول في اليوم الحادي والخمسين من أيَّام محاصرته ، وهو يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وثمانمئة، وصلَّى في أكبر كنائس النَّصارى صلاة الجمعة ، وهي آيا صوفيا ، وهي قبَّةٌ تسامي قبَّة السَّماء ، وتحاكي في الاستحكام قبب الأهرام ، ولاوَهَتْ كبراً ، ولا هرماً .

وقد أسَّس في إستانبول للعلم أساساً راسخاً لا يُخشى على شمسه الأفول ، وبنى مدارس كالجفان لها ثمانية أبوابٍ سهلة الدُّخول ، وقنَّن بها قوانين تطابق المعقول والمنقول ، فجزاه الله خيراً عن الطُّلاب ، ومنحه بها أجراً ، وأكبر ثواب ،

---

(١) انظر : السُّلطان محمَّد الفاتح ، ص(١٦٨) .

فإنه جعل لهم أيَّام الطلب ما يسدُّ فاقتهم ، ويكون به من خمار الفقر إفاقتهم ، وجعل بعد ذلك مراتب يترقَّون إليها ويصعدون بالتَّمكُّن ، والاعتبار عليها ؛ إلى أن يصلوا إلى سعادة الدُّنيا ، ويتوسَّلون بها أيضاً إلى سعادة العقبى ، وأنَّه رحمه الله تعالى استجلب العلماء الكبار من أقصى الدِّيار ، وأنعم إليهم ، وعطف بإحسانه إليهم ، كمولانا علي القوشجي ، والفاضل الطُّوسي ، والعالم الكوراني ، وغيرهم من علماء الإسلام ، وفضلاء الأنام ، فصارت إستانبول بهم أمَّ الدُّنيا ، ومعدن الفخار ، والعلياء ، واجتمع فيها أهل الكمال من كلِّ فنٍّ ، فعلماؤها إلى الآن أعظم علماء الإسلام ، وأهل حِرَفها أدقُّ الفطناء في الأنام ، وأرباب دولتها هم أهل السَّعادة العظام ، فللمرحوم المقدَّس قلادة مِنَنٍ لا تحصى في أعناق المسلمين لا سيَّما العلماء الأكرمين »[1] .

فرحمة الله ، ومغفرته ، ورضوانه على السُّلطان محمَّد الفاتح ، وأعلى ذكره في المصلحين .

* * *

(١) شذرات الذَّهب (٧/ ٣٤٥) .

الفصل الرَّابع
السَّلاطين الأقوياء
بعد
محمَّد الفاتح

المبحث الأوَّل
السُّلطان بايزيد الثَّاني

بعد وفاة السُّلطان محمَّد الفاتح تولَّى ابنه بايزيد الثاني (٨٨٦هـ ـ ٩١٨هـ) السُّلطة في البلاد ، وكان سلطاناً وديعاً ، نشأ محبّاً للأدب ، متفقِّهاً في علم الشَّريعة الإسلاميَّة ، شغوفاً بعلم الفلك . واستعان بالخبراء الفنِّيِّين اليونانيِّين ، والبلغاريِّين في تحسين شبكة الطُّرق ، والجسور ؛ لربط أقاليم الدَّولة ببعضها[١] .

أولاً : الصراع على السُّلطة مع أخيه :

كان الأمير جم عندما بلغه وفاة أبيه يقيم في بروسة ، وقد استطاع أن يتحصَّل على اعتراف السُّكان به سلطاناً على الدَّولة العثمانيَّة في المناطق الخاضعة له ، وبعد أن استتبَّ له الأمر في بروسة وما حولها ؛ أرسل إلى أخيه بايزيد يطلب منه عقد الصُّلح ، ويقترح عليه التَّنازل ، ورفض السُّلطان بايزيد ذلك ؛ لأنَّ والده أوصى له بالحكم من بعده ، ولكنَّ الأمير جم لم يقتنع بذلك ، فعاد ، واقترح على أخيه بايزيد تقسيم الدَّولة العثمانيَّة إلى قسمين : القسم الأوربيّ لبايزيد ، والقسم الآسيويّ له ، لكن بايزيد رفض أيضاً مبدأ التَّقسيم من أساسه ؛ لأنَّ ذلك سوف يعمل على تفتيت الدَّولة الَّتي سهر أسلافه على بنائها ، وتوحيدها ، وأصرَّ على أن تبقى الدَّولة موحَّدةً

(١) انظر : الدولة العثمانيَّة في التَّاريخ الإسلامي الحديث ، ص(٥٠) .

تحت سلطته ، وأعدَّ جيشاً ضخماً سار به إلى بروسة ، وهاجمها ، وفرَّ منها جم إلى سلطان المماليك قايتباي في مصر(١) فرحَّب به ، وأكرمه ، وأمدَّه بجميع ما احتاجه من أموالٍ للسَّفر مع أسرته إلى الحجاز لأداء فريضة الحجِّ .

ولما عاد من الأراضي المقدَّسة إلى مصر أرسل إليه السُّلطان بايزيد يقول له : (بما أنَّك اليوم قمت بواجباتك الدِّينية في الحجِّ ، فلماذا تسعى إلى الأمور الدُّنيويَّة ، من حيث إنَّ المُلك كان نصيبي بأمر الله ، فلماذا تقاوم إرادة الله ؟ فأجابه بقوله : هل من العدل أن تضطجع على مهد الرَّاحة ، والنَّعيم ، وتقضي أيامك بالرَّغد واللَّذات ، وأنا أحرم من اللَّذة والرَّاحة وأضع رأسي على الشَّوك(٢) ؟ وقام جم بالاتِّصال بكبار أتباعه في الأناضول ، وأثارهم ضدَّ بايزيد ، وتقدَّم بأتباعه ليغتصب العرش ، ولكنَّه هزم ، واستأنف المحاولة ، فهزم أيضاً .

والتجأ جم إلى رودس حيث يوجد بها فرسان القدِّيس يوحنا ، وعقد مع رئيس الفرسان اتفاقاً إلا أنَّه نقضه تحت ضغط بايزيد ، وأصبح جم سجيناً في جزيرة رودس ، وكسب فرسان القدِّيس يوحنا بهذه الرَّهينة الخطيرة امتيازاتٍ ، طَوْراً من بايزيد الثَّاني ، ومرَّةً أخرى من أنصار جم بالقاهرة ، فلمَّا تحصَّل على أموالٍ ضخمةٍ باع رهينته للبابا أنوست الثَّامن ، فلمَّا مات هذا البابا ترك جم لخلفه إسكندر السَّادس ، ولكنَّ الأخير لم يبق على جم كثيراً ، حيث قُتل ، واتُّهم في ذلك بايزيد الثَّاني ؛ الَّذي تخلَّص من خطر أخيه(٣) .

ثانياً : موقف السُّلطان بايزيد من المماليك :

حدثت معارك بين العثمانيِّين والمماليك على الحدود الشَّاميَّة ، إلا أنَّها لم تحتدم إلى حدِّ التهديد بحدوث حربٍ شاملةٍ بينهما ، وإن كانت قد أسهمت في أن يخيِّم شعورٌ بعدم الثِّقة بينهما ، الأمر الَّذي أدَّى إلى تعثُّر مفاوضات الصُّلح سنة ١٤٩١م ومع أنَّ السُّلطان المملوكي « قايتباي » قد ساورته مخاوف من احتمال قيام

---

(١) قيام الدولة العثمانيَّة ، ص(٥٧) .
(٢) انظر : تاريخ سلاطين آل عثمان ، يوسف آصاف ، ص(٦٣ إلى ٦٥) .
(٣) انظر : الدولة العثمانيَّة في التَّاريخ الإسلامي الحديث ، ص(٥١) .

حربٍ واسعةٍ بينه وبين العثمانيِّين سواءٌ لإدراكه ما كان عليه العثمانيُّون من قوَّةٍ ، أو لانشغال جزءٍ هامٍّ من قوَّاته في مواجهة البرتغاليِّين ، إلا أن السلطان العثمانيَّ « بايزيد الثاني » قد بدَّد له هذه المخاوف ، حيث قام بإرسال رسولٍ من قبله إلى السُّلطان المملوكي سنة ١٤٩١م ومعه مفاتيح القلاع الَّتي استولى عليها العثمانيُّون على الحدود : وقد لقي هذا الأمر ترحيباً لدى السُّلطان المملوكي ، فقام بإطلاق سراح الأسرى العثمانيِّين ، وأسهمت سياسة بايزيد السِّلميَّة في عقد صلحٍ بين العثمانيِّين والمماليك في السَّنة نفسها (١٤٩١م) وظلَّ هذا الصُّلح سارياً حتَّى نهاية عهد السُّلطان بايزيد الثَّاني عام ١٥١٢م ، وأكَّد هذا الحدث حرص السُّلطان بايزيد على سياسة السَّلام مع المسلمين(١) .

ثالثاً : السُّلطان بايزيد الثَّاني والدبلوماسية الغربيَّة :

استمرَّت راية الجهاد مرفوعةً طيلة عهد السُّلطان بايزيد ، وأدرك الأعداء أنَّهم لا يستطيعون مواجهة القوَّات الجهاديَّة في حربٍ نظاميَّة يحقِّقون فيها أطماعهم ، لهذا لجؤوا إلى أسلوبٍ خبيث تستَّروا به تحت مسمَّى العلاقات الدِّبلوماسيَّة لكي ينخروا في عظام الأمَّة ويدمِّروا المجتمع المسلم من الدَّاخل ، ففي عهد السُّلطان بايزيد وصل أوَّل سفيرٍ روسيٍّ إلى (إستانبول) عام (٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م) .

إنَّ وصول السَّفير الرُّوسي عام (١٤٩٢م) على عهد دوق موسكو (إيفان) وما تابع ذلك ، وما أعطى له ، ولغيره من حصانةٍ ، وامتيازاتٍ فتح الباب أمام أعداء الأمَّة الإسلاميَّة لكشف ضعفها ، ومعرفة عوراتها ، والعمل على إفسادها ، والتآمر عليها بعد تدميرها ، وإضعاف سلطان العقيدة في نفوس أبنائها .

وفي عهد بايزيد الثَّاني في عام (٨٨٦هـ) استطاع دوق موسكو (إيفان الثَّالث) أن ينتزع إمارة (موسكو) من أيدي المسلمين العثمانيِّين ، وبدأ التوسُّع على حساب الولايات الإسلاميَّة(٢) .

لا يعني ذلك : أنَّ السُّلطان (بايزيد) وقف موقفاً ضعيفاً أمام هذه الظُّروف ،

---

(١) انظر : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيِّين ، ص(٦٦) .
(٢) الدولة العثمانيَّة د . جمال عبد الهادي ، ص(٤٩ ، ٥٠) .

ولكنَّ الدَّولة كانت تمرُّ بظروفٍ صعبةٍ في محاربتها لأعداء الإسلام على امتداد شبه جزيرة الأناضول ، وأوربة الشَّرقية كلِّها ، فانشغلت بها[(١)] .

رابعاً : وقوفه مع مسلمي الأندلس :

تطوَّرت الأحداث في شبه الجزيرة الأيبريَّة في مطلع العصور الحديثة ، فأصبح اهتمام الأسبان ينحصر في توحيد أراضيهم ، وانتزاع ما تبقى للمسلمين بها خصوصاً بعدما خضعت لسلطةٍ واحدةٍ بعد زواج إيزابيلا ملكة قشتالة ، وفرديناند ملك أراغون ، فاندفعت الممالك الإسبانيَّة المتَّحدة قبيل سقوط غرناطة في تصفية الوجود الإسلامي في كلِّ إسبانيا ، حتَّى يفرِّغوا أنفسهم ، ويركِّزوا اهتمامهم على المملكة الإسلاميَّة الوحيدة غرناطة ، الَّتي كانت رمزاً للمملكة الإسلاميَّة الذَّاهبة[(٢)] .

وفرضت إسبانيا أقصى الإجراءات التَّعسُّفيَّة على المسلمين في محاولةٍ لتنصيرهم ، وتضييق الخناق عليهم حتَّى يرحلوا عن شبه الجزيرة الأيبريَّة .

نتيجةً لذلك لجأ المسلمون ـ المورسكيون ـ إلى القيام بثوراتٍ ، وانتفاضاتٍ في أغلب المدن الإسبانية والَّتي يوجد بها أقليَّةٌ مسلمةٌ، وخاصَّة غرناطة ، وبلنسية ، وأخمدت تلك الثَّورات بدون رحمةٍ ، ولا شفقةٍ من قبل السُّلطات الإسبانيَّة الَّتي اتُّخذت وسيلةً لتعميق الكره والحقد للمسلمين ، ومن جهةٍ أخرى كان من الطَّبيعي أن يرنو المورسكيون بأنظارهم إلى ملوك المسلمين في المشرق ، والمغرب لإنقاذهم ، وتكرَّرت دعوات وفودهم ، ورسائلهم إليهم للعمل على إنقاذهم ممَّا يعانونه من ظلمٍ ، وخاصَّةً من قبل رجال الكنيسة ، ودواوين التَّحقيق الَّتي عاثت في الأرض فساداً ، وأحلت لنفسها كلَّ أنواع العقوبات ، وتسليطها عليهم[(٣)] .

وكانت أخبار الأندلس قد وصلت إلى المشرق ، فارتجَّ لها العالم الإسلاميُّ[(٤)] . وبعث الملك الأشرف بوفودٍ إلى البابا ، وملوك النَّصرانيَّة يذكِّرهم

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٥٠) .

(٢) انظر : جهود العثمانيِّين لإنقاذ الأندلس ، د . نبيل عبد الحي ، ص(١٢٥) .

(٣) انظر : رسالة من مسلمي غرناطة للسُّلطان سليمان عبد الجليل التَّميمي ، المجلة المغربيَّة العدد : (٣) ص(٣٨) .

(٤) انظر : خلاصة تاريخ الأندلس ، شكيب أرسلان ، ص(٢١٣) .

بأنَّ النَّصارى الذين هم تحت حمايته يتمتَّعون بالحرِّيَّة ، في حين أنَّ أبناء دينه في المدن الإسبانيَّة يعانون أشدَّ أنواع الظُّلم، وقد هدَّد باتباع سياسة التَّنكيل، والقصاص تجاه الرَّعايا المسيحيين ، إذا لم يكف ملك قشتالة ، وأراغون عن هذا الاعتداء ، وترحيل المسلمين عن أراضيهم ، وعدم التَّعرض لهم ، وردّ ما أخذ من أراضيهم ، ولم يستجب البابا ، والملكان الكاثوليكيَّان لهذا التَّهديد من قبل الملك الأشرف ، ومارسوا خطَّتهم في تصفية الوجود الإسلامي في الأندلس، وجُدِّدت رسائل الاستنجاد لدى السُّلطان العثماني بايزيد الثَّاني، فوصلته هذه الرِّسالة : (. . الحضرة العليَّة ، وصل الله سعادتها ، وأعلى كلمتها ، ومهَّد أقطارها ، وأعزَّ أنصارها ، وأذلَّ عداتها ، حضرة مولانا ، وعمدة ديننا ، ودنيانا السُّلطان الملك النَّاصر ، ناصر الدُّنيا والدِّين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، قامع أعداء الله الكافرين ، كهف الإسلام ، وناصر دين نبيِّنا محمَّد عليه السَّلام ، محيي العدل ، ومنصف المظلوم ممَّن ظلم ، ملك العرب والعجم ، والتُّرك والدَّيلم ، ظلُّ الله في أرضه ، القائم بسنَّته ، وفرضه ، ملك البرَّين ، وسلطان البحرين ، حامي الذِّمار ، وقامع الكفَّار ، مولانا ، وعمدتنا ، وكهفنا ، وغيثنا ، لا زال ملكه موفور الأنصار ، مقروناً بالانتصار ، مخلَّد المآثر ، والآثار ، مشهور المعالي والفخار ، مستأثراً من الحسنات بما يضاعف به الأجر الجزيل في الدَّار الآخرة ، والثَّناء الجميل ، والنَّصر في هذه الدَّار ، ولا برحت عزماته العليَّة مختصَّةً بفضائل الجهاد ، ومجرَّدةً على أعداء الدِّين من بأسها ما يروي صدور السَّحر ، والصِّفاح ، وألسنة السِّلاح باذلةً نفائس الذَّخائر في المواطن الَّتي تألف فيها الأخاير مفارقة الأرواح للأجساد ، سالكةً سبيل السَّابقين الفائزين برضا الله ، وطاعته يوم يقوم الأشهاد)[(١)] .

وكانت ضمن الرِّسالة أبيات قصيدةٍ يمدح صاحبها فيها الدَّولة العثمانيَّة والسُّلطان بايزيد ، ويدعو للدَّولة بدوام البقاء قائلاً :

سَــلامٌ كَــرِيْــمٌ دَائِــمٌ مُتَجَــدِّدٌ   أَخُـصُّ بِـهِ مَـوْلايَ خَيْـرَ خَلِيفَـةِ
سَلامٌ عَلَىٰ مَوْلايَ ذِي الْمَجْدِ وَالْعُلا   وَمَـنْ أَلْبَسَ الْكُفَّـارَ ثَـوْبَ الْمَـذَلَّـةِ

(١) انظر : أزهار الرِّياض في أخبار عياض ، التِّلمساني (١٠٨/١ ، ١٠٩) .

سَلامٌ عَلَىٰ مَنْ وَسَّعَ الله مُلْكَهُ ... وَأَيَّدَهُ بِالنَّصْرِ فِي كُلِّ وُجْهَةِ
سَلامٌ عَلَىٰ مَوْلاي مِنْ دَارِ مُلْكِهِ ... قُسْطَنْطِينِيَّةَ أَكْرِمْ بِهَا مِنْ مَدِيْنَةِ
سَلامٌ عَلَىٰ مَنْ زَيَّنَ مُلْكَهُ ... بِجُنْدٍ أَتْرَاكٍ مِنْ أَهْلِ الرِّعَايَةِ
سَلامٌ عَلَيْكُمْ شَرَّفَ الله قَدْرَكُمْ ... وَزَادَكُمْ مُلْكاً عَلَىٰ كُلِّ مِلَّةِ
سَلامٌ عَلَىٰ القَاضِي وَمَنْ كَانَ مِثْلَهُ ... مِنَ العُلَمَاءِ الأَكْرَمِيْنَ الأَجِلَّةِ
سَلامٌ عَلَى أَهْلِ الدِّيَانَةِ وَالتُّقَىٰ ... وَمَنْ كانَ ذَا رَأْيٍ مِنْ أَهْلِ المَشُوْرَةِ

بعد ذلك وصفت القصيدة الحالة الَّتي يعاني منها المسلمون ، وما تعرَّض له الشُّيوخ والنِّساء من هتكٍ للأعراض ، وما يتعرَّض له المسلمون في دينهم ، حيث استطرد قائلاً :

سَلامٌ عَلَيْكُمْ مِنْ عَبِيْدٍ تَخَلَّفُوا ... بِأَنْدَلُسٍ بِالغَرْبِ فِي أَرْضِ غُرْبَةِ
أَحَاطَ بِهِمْ بَحْرٌ مِنَ الرَّدْمِ زَاخِرٌ ... وَبَحْرٌ عَمِيْقٌ ذو ظَلامٍ وَلُجَّةِ
سَلامٌ عَلَيْكُمْ مِنْ عَبِيدٍ أَصَابَهُمْ ... مُصَابٌ عَظِيْمٌ يَا لَهَا مِنْ مُصِيْبَةِ
سَلامٌ عَلَيْكُمْ مِنْ شُيُوخٍ تَمَزَّقَتْ ... شُيُوخُهُمْ بِالنَّتْفِ مِنْ بَعْدِ عِزَّةِ
سَلامٌ عَلَيْكُمْ مِنْ وُجُوهٍ تَكَشَّفَتْ ... عَلَى جُمْلَةِ الأَعْلاجِ مِنْ بَعْدِ سُتْرَةِ
سَلامٌ عَلَيْكُمْ مِنْ بَنَاتٍ عَوَائِقٍ ... يَسُوْقُهُمُ اللَّبَّاطُ قَهْراً لِخَلْوَةِ
سَلامٌ عَلَيْكُمْ مِنْ عَجَائِزَ أُكْرِهَتْ ... عَلَىٰ أَكْلِ خِنْزِيْرٍ وَلَحْمِ جِيْفَةِ

بعد ذلك الوصف ، أخذت القصيدة تعالج شكلاً آخر ؛ إذ أخذت توضِّح شعور المسلمين نحو الدَّولة العثمانيَّة ، وتقدِّم الشَّكوى للسُّلطان قائلةً :

نُقَبِّلُ نَحْنُ الكُلُّ أَرْضَ بِسَاطِكُمْ ... وَنَدْعُو لَكُمْ بِالْخَيْرِ فِيْ كُلِّ سَاعَةِ
أَدَامَ الإِلٰـهُ مُلْكَكُمْ وَحَيَاتَكُمْ ... وَعَافَاكُمْ مِنْ كُلِّ سُوْءٍ وَمِحْنَةِ
وأَيَّدَكُمْ بِالنَّصْرِ وَالظَّفرِ بالعِدَا ... وَأَسْكَنَكُمْ دَارَ الرِّضَا وَالْكَرَامَةِ
شَكَوْنَا لَكُمْ مَوْلايَ مَا قَدْ أَصَابَنَا ... مِنَ الضُّرِّ وَالْبَلْوَىٰ وَعِظَمِ الرَّزِيَّةِ

ثمَّ تعود القصيدة في شرح المأساة ، وتغيير الدِّين ، وما إلى ذلك ، فاستطردت بقولها :

غُدِرْنَا وَنُصِّرْنَا وَبُدِّلَ دِيْنُنَا ... ظُلِمْنَا وعُومِلْنَا بِكُلِّ قَبِيْحَةِ

وكنَّا عَلَى دِيْنِ النَّبي مُحَمَّدٍ ... نُقَاتِلُ عُمَّالَ الصَّلِيْبِ بِنِيَّةِ
وَنَلْقَى أُمُوراً في الجِهَادِ عظِيْمَةً ... بِقَتْلٍ وَأَسْرٍ ثُمَّ جُوعٍ وَقِلَّةِ
فَجَاءَتْ عَلَيْنَا الرُّوْمُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ... بِسَيْلٍ عَظِيْمٍ جُمْلَةً بَعْدَ جُمْلَةِ
وَمَالُوا عَلَيْنَا كَالْجَرَادِ بِجَمْعِهِمْ ... بِجِدٍّ وَعَزْمٍ مِنْ خُيُولٍ وَعُدَّةِ
فَكُنَّا بِطُولِ الدَّهْرِ نَلْقَى جُمُوْعَهُمْ ... فَنَقْتُلُ فِيْهَا فِرْقَةً بَعْدَ فِرْقَةِ
وَفُرْسَانُهَا تَزْدَادُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ ... وَفُرْسَانُنَا فِي حَالِ نَقْصٍ وَقِلَّةِ
فَلَمَّا ضَعُفْنَا خَيَّمُوا فِي بِلادِنَا ... وَمَالُوا عَلَيْنَا بَلْدَةً بَعْدَ بَلْدَةِ
وَجَاؤُوا بِأَنْفَاطٍ عِظَامٍ كَثِيْرَةٍ ... تُهَدِّمُ أَسْوَارَ البِلادِ الْمَنِيْعَةِ
وَشَدُّوا عليها الحِصَارَ بِقُوَّةٍ ... شُهُوراً وَأَيَّاماً بِجِدٍّ وَعَزْمَةِ
فَلَمَّا تَفَانَتْ خَيْلُنَا وَرِجَالُنَا ... وَلَمْ نَرَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنْ إِغَاثَةِ
وَقَلَّت لَنَا الأَقْوَاتُ اشْتَدَّ حَالُنَا ... أَحَطْنَاهُم بِالْكُرْهِ خَوْفَ الفَضِيْحَةِ
وَخَوْفاً عَلَى أَبْنَائِنَا وَبَنَاتِنَا ... مِنْ أَنْ يُؤْسَرُوا ، أَوْ يُقْتَلُوا شَرَّ قِتْلَةِ
عَلَى أَنْ نَكُوْنَ مِثْلَ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا ... مِنَ الدَّجْنِ مِنْ أَهْلِ الْبِلادِ القَدِيْمَةِ

ثُمَّ تحدَّثت القصيدة عن الخيار في مثل هذه الحالة ، فإمَّا القبول بالوضع السَّابق ، أو الارتحال ؛ إذ استطردت قائلةً :

وَنَبْقَى عَلَى أَذانِنَا وَصلاتِنَا ... وَلا نَتْرُكَنْ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ الشَّرِيْعَةِ
وَمَنْ شَاءَ مِنَّا الجَرَّ جَازَ مُؤَمَّناً ... بِمَا شَاءَ مِنْ مَالٍ إِلى أرضٍ عَدُوَّةِ
إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شُرُوطٍ كَثِيْرَةٍ ... تَزِيْدُ عَلَى الخَمْسِيْنَ شَرْطاً بِخَمسَةِ
فَقَالَ لَنَا سُلْطَانُهُمْ وَكَبِيْرُهُمْ ... لَكُمْ مَا شَرَطْتُمْ كَامِلاً بِالزِّيَادَةِ
فَكُونُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ وَدِيَارِكُمْ ... كَمَا كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ دُوْنَ أَذِيَّةِ

إلا أنَّ الملكين الكاثوليكيَّين لم يفيا بتلك المواثيق ؛ إذ بدأ غدرهما على المسلمين ، فقال :

فَلَمَّا دَخَلْنَا تَحْتَ عَقْدِ ذِمَامِهِمْ ... بَدَا غَدْرُهُمْ فِيْنَا بِنَقْضِ العَزِيْمَةِ
وَخَانَ عُهُوداً كَانَ قَدْ غَرَّنَا بِهَا ... وَنَصَّرَنَا كُرْهاً بِعُنْفٍ وَسَطْوَةِ
وَأَحْرَقَ مَا كَانَتْ لَنَا مِنْ مَصَاحِف ... وَخَلَّطَهَا بِالزِّبْلِ أَوْ بِالنَّجَاسَةِ
وَكُلُّ كِتَابٍ كَانَ فِي أَمْرِ دِيْنِنَا ... فَفِي النَّارِ أَلْقَوْهُ بِهُزْءَةٍ وَحُقْرَةِ

وَلَـمْ يَتْـرُكُـوا فِيْهَـا كِتَـابـاً لِمُسْلِـمٍ ... وَلا مُصْحَفـاً يُخْلَـىٰ بِـهِ لِلْقِـرَاءَةِ
وَمَـنْ صَـامَ أَوْ صَلَّـىٰ يُعْلَـمُ حَـالُـهُ ... فَفِـي النَّـارِ يُلْقُـوْهُ كُـلَّ حَـالَـةِ
وَمَنْ لَمْ يَجِيءْ مِنَّا لِمَوْضِعِ كُفْرِهِمْ ... يُعَـاقِبُـهُ اللَّبَّـاطُ شَـرَّ العُقُـوْبَـةِ
وَيَلْطِـمُ خَـدَّيْـهِ وَيَـأْخُـذُ مَـالَـهُ ... وَيَجْعَلُهُ فِي السِّجْنِ فِي سُوْءِ حَالَةِ
وَفِـي رَمَضَـانَ يُفْسِـدُونَ صِيَـامَنَـا ... بِـأَكْـلٍ وَشُـرْبٍ مَـرَّةً بَعْـدَ مَـرَّةِ

وهكذا مضت المسيحيَّة في هتك الإسلام ، وذلِّ المسلمين ، فَمِن تدخُّلٍ في عبادة المسلم إلى شتم الإسلام ، فقالت القصيدة في ذلك :

وَقَـدْ أَمَـرُوْنَـا أَنْ نَسُـبَّ نَبِيَّنَـا ... وَلا نَـذْكُـرَنَّـه فِـي رَخَـاءٍ وَشِـدَّةِ
وَقَـدْ سَمِعُـوا قَـومَـاً يُغَنُّـونَ بِـاسْمِـهِ ... فَـأَدْرَكَهُـمْ مِنهُـمْ أَلِيْـمُ المَضَـرَّةِ
وَعَـاقَبَهُـمْ حُكَّـامُهُـمْ وَوُلاتُهُـمْ ... بِضَـرْبٍ وَتَغْـرِيْـمٍ وَسِجْـنٍ وَذِلَّـةِ
وَمَنْ جَاءَهُ الْمَوْتُ وَلَمْ يُحْضِرِ الَّذِي ... يُـذَكِّـرُهُـمْ لَـمْ يَـدْفِنُـوْهُ بِحِيْلَـةِ
وَيُتْـرَكُ فـي زِبْـلٍ طَـرِيْحَـاً مُجَـدَّلاً ... كَمِثْـلِ حِمَـارٍ مَيْـتٍ أَوْ بَهِيْمَـةِ
إِلـى غَيْـرِ هَـذَا مِـنْ أُمُـورٍ كَثِيْـرَةٍ ... قِبَـاحٍ وَأَفعَـالٍ غِـزَارٍ رَدِيَّـةِ[1]

بعد ذلك أخذ الملوك الكاثوليك في إذابة المجتمع المسلم ، وذلك بتغيير الهويَّة الإسلاميَّة ؛ إذ قالت القصيدة :

وَقَـدْ بُـدِّلَـتْ أَسْمَـاؤنَـا وَتَحَـوَّلَـتْ ... بِغَيْـرِ رِضَـاً مِنَّـا وَغَيْـرِ إِرَادَةِ
فَـآهـاً عَلَـىٰ تَبْـدِيْـلِ دِيْـنِ مُحَمَّـدٍ ... بِـدِيْـنِ كِـلابِ الـرُّومِ شـرِّ البَـرِيَّـةِ
وَآهـاً عَلَـىٰ أَسْمَـائِنَـا حِيْـنَ بُـدِّلَـتْ ... بِـأَسْمَـاءِ أَعْـلاجٍ مِـنْ أَهْـلِ القِيَـادَةِ
وَآهـاً عَلَـىٰ أَبْنَـائِنَـا وَبَنَـاتِنَـا ... يَـرُوْحُـونَ لِلْبَـاطِ فِـي كُـلِّ غَـدْوَةِ
يُعَلِّمُهُـمْ كُفْـرَاً وَزُوْرَاً وَفِـرْيَـةً ... وَلا يَقْـدِرُوا أَنْ يَمْنَـعُ ، هُـمْ بِحِيْلَـةِ
وَآهـاً عَلَىٰ تِلْـكَ الْمَسَـاجِدِ سُـوِّرَتْ ... مَـزَابِـلَ لِلْكُفَّـارِ بَعْـدَ الطَّهَـارَةِ
وَآهـاً عَلَـىٰ تِلْـكَ الصَّـوَامِعِ عُلِّقَـتْ ... نَـوَاقِيْسُهُـمْ فِيْهَـا نَظِيْـرَ الشَّهَـادَةِ
وَآهـاً عَلَـىٰ تِلْـكَ البِـلادِ وَحُسْنِهَـا ... لَقَـدْ أَظْلَمَـتْ بِـالْكُفْـرِ أَعْظَـمَ ظُلْمَـةِ
وَصَـارَتْ لِعُبَّـادِ الصَّلِيْـبِ مَعَـاقِـلاً ... وَقَـدْ أَمِنُـوا فِيْهَـا وُقُـوعَ الإِغَـارَةِ
وَصِـرْنَـا عَبِيْـداً لا أَسَـارَىٰ فَنَفْتَـدِي ... وَلا مُسْلِمِيْـنَ مَنْطِقُهُـمْ بِـالشَّهَـادَةِ

---

(١) انظر : جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس ، ص(١٣٠) .

ثمَّ تتوجَّه القصيدة باستجداء السُّلطان لإنجادهم ، وإنقاذهم من تلك المحنة ، فتقول :

فَلَوْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ مَا صَارَ حَالُنَا ... إِلَيْهِ لَجَادَتْ بِالدُّمُوعِ الغَزِيْرَةِ
فَيَا وَيْلَنَا يَا بُؤْسَ مَا قَدْ أَصَابَنَا ... مِنَ الضُّرِّ وَالْبَلْوَىٰ وَثَوْبَ الْمَذَلَّةِ
سَأَلْنَاكَ يَا مَوْلاَيَ بِاللهِ رَبِّنَا ... وَبِالْمُصْطَفَىٰ الْمُخْتَارِ خَيْرِ البَرِيَّةِ
عَسَىٰ تَنْظُرُوا فِيْنَا وَفِيْمَا أَصَابَنَا ... لَعَلَّ إِلٰهَ العَرْشِ يَأْتِي بِرَحْمَةِ
فَقَوْلُكَ مَسْمُوعٌ وَأَمْرُكَ نَافِذٌ ... وَمَا قُلْتَ مِنْ شَيْءٍ يَكُوْنُ بِسُرْعَةِ
وَدِيْنُ النَّصَارَىٰ أَصْلُهُ تَحْتَ حُكْمِكُمْ ... وَمِنْ ثَمَّ يَأْتِيْهِمْ إِلَىٰ كُلِّ كُوْرَةِ
فَبِاللَّهِ يَا مَوْلاَيَ مُنُّوا بِفَضْلِكُمْ ... عَلَيْنَا بِرَأْيٍ أَوْ كَلاَمٍ بِحُجَّةِ
فَأَنْتُمْ أُولُو الأَفْضَالِ وَالْمَجْدِ وَالْعُلا ... وَغَوْثُ عِبَادِ اللهِ فِي كُلِّ آفَةِ

كما طلب المسلمون أن يتوسَّط السُّلطان بايزيد الثَّاني لدى البابا في روما ، وذلك لما للسُّلطان من ثقلٍ سياسيٍّ في أوربة ، فقال :

فَسَلْ بَابَهُمْ أَعْنِي المُقِيْمَ بِرُوْمَةَ ... بِمَاذَا أَجَازُوا الْغَدْرَ بَعْدَ الأَمَانَةِ
وَمَا لَهُمْ مَالُوا عَلَيْنَا بِغَدْرِهِمْ ... بِغَيْرِ أَذَىً مِنَّا وَغَيْرِ جَرِيْمَةِ
وَجِنْسُهُمُ المَغْلُوبُ فِي حِفْظِ دِيْنِنَا ... وَأَحْسَنِ مُلُوكٍ ذِيْ وَفَاءٍ أَجِلَّةِ
وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِيْنِهِمْ وَدِيَارِهِمْ ... وَلاَ نَالَهُمْ غَدْرٌ وَلاَ هَتْكُ حُرْمَةِ
وَمَنْ يُعْطِ عَهْداً ثُمَّ يَغْدِرْ بِعَهْدِهِ ... فَذَاكَ حَرَامُ الفِعْلِ فِي كُلِّ مِلَّةِ
وَلا سِيمَا عِنْدَ المُلُوكِ فَإِنَّهُ ... قَبِيْحٌ شَنِيْعٌ لا يَجُوزُ بِوُجْهَةِ
وَقَدْ بَلَغَ المَكْتُوْبُ مِنْكُمْ إِلَيْهِمُ ... فَلَمْ يَعْلَمُوا مِنْهُ جَمِيْعَاً بِكِلْمَةِ
وَمَا زَادَهُمْ إلا اعْتِدَاءً وَجُرْأَةً ... عَلَيْنَا وَإِقْدَاماً بِكُلِّ مَسَاءَةِ

ويشير المسلمون أن توسُّط ملوك مصر لدى المسيحيِّين لم يجد شيئاً ، بل زادوا تعنُّتاً ، فقالوا :

وَقَدْ بَلَغَتْ أَرْسَالُ مِصْرَ إِلَيْهِمُ ... وَمَا نَالَهُمْ غَدْرٌ وَلا هَتْكُ حُرْمَةِ
وَقَالُوا لِتِلْكَ الرُّسلِ عنَّا بِأَنَّنا ... رَضِيْنَا بِدِيْنِ الكُفْرِ مِنْ غَيْرِ قَهْرَةِ
وَسَاقُوا عُقُودَ الزُّورِ مِمَّن أَطَاعَهُم ... ووالله مَا نَرْضَى بِتِلْكَ الشَّهَادَةِ
لَقَدْ كَذَبُوا فِي قَوْلِهِمْ وَكَلامِهِم ... عَلَيْنَا بِهَذا القَوْلِ أَكْبَرَ فِرْيَةِ

وَلٰكِـنَّ خَـوْفَ القَتْـلِ وَالْحَـرقِ بنـا ... نَقُـولُ كَمَـا قَـالُـوه مِـنْ غَيْـرِ نِيَّـةِ
وَدِيْـنُ رَسُـولٍ مَـا زَالَ عِنْـدَنَـا ... وَتَـوْحِيْـدُنَـا للهِ فِـي كُـلِّ لَحْظَـةِ

بعد ذلك أوضح المسلمون للسُّلطان بايزيد : أنَّه مع كلِّ ذلك فإنَّهم متمسِّكون بالدِّين الإسلاميِّ ، ويؤكِّدون ذلك بقولهم :

وَوَاللهِ مَـا نَـرْضَـى بِتَبْـدِيْـلِ دِيْنِنَـا ... وَلا بِـالَّـذِي قَـالُـوا مِـنْ أَمْـرِ الثَّـلاثَـةِ
وَإِنْ زَعَمُـوا أَنَّـا رَضِيْنَـا بِـدِيْنِهِـمْ ... بِغَيْـرِ أَذىً مِنْهُـمْ لَنَـا وَمَسَـاءَةِ
فَسَلْ وَحَراً عَنْ أَهْلِهَا كَيْفَ أَصْبَحُوا ... أُسَـارىٰ وَقَتْلَـىٰ تَحْـتَ ذُلٍّ وَمِهْنَـةِ
وَسَـلْ بَلْفِيْقـاً عَـنْ قَضِيَّـةِ أَمْـرِهَـا ... لَقَدْ مَزَّقُوا بِالسَّيْفِ مِنْ بَعْدِ حَسْرَةِ
وَضِيَـافَـة بِـالسَّيْـفِ مَـزَّقَ أَهْلَهَـا ... كَـذَا فَعَلُـوا أَيْضـاً بِـأَهْـلِ البَشْـرَةِ
وَأَنْـدَرُشَ بِـالنَّـارِ أُحْـرِقَ أَهْلُهَـا ... بِجَـامِعِهِـمْ صَـارُوا جَمِيْعـاً كَفَحْمَـةِ

ويكرِّر المسلمون ، ويجدِّدون الاستغاثة بالدَّولة العثمانيَّة بعد تقديم هذه الشَّكوى :

فَهَـا نَحْـنُ يَـا مَـوْلانَـا نَشْكُـو إِلَيْكُـمُ ... فَهَـذَا الَّـذِي نِلْنَـاهُ مِـنْ شَـرِّ فِـرْقَـةِ
عَسَـى دِيْنُنَـا يَبْقَـى لَنَـا وَصَـلاتُنَـا ... كَمَـا عَـاهَـدُونَـا قَبْـلَ نَقْـضِ العَـزِيْمَـةِ
وَإِلا فَيُجْلُـونَـا جَمِيْعـاً عَـنْ أَرْضِهِـمْ ... بِـأَمْـوَالِنَـا لِلْغَـرْبِ دَارِ الأَحِبَّـةِ
فَـإِجـلاؤنـا خَيْـرٌ لَنَـا مِـنْ مَقَـامِنَـا ... عَلَـىٰ الكُفْـرِ فِـي عِـزٍّ علـى غَيْـرِ مِلَّـةِ
فَهَذا الَّذي نَرْجُوهُ مِنْ عِزِّ جَاهِكُمْ ... وَمَـنْ عِنْـدَكُـمْ تُقْضَـى لَنَا كُلُّ حاجَـةِ
وَمِـنْ عِنْـدِكُـمْ نَـرْجُـو زَوَالَ كُـرُوبِنَـا ... وَمَـا نَـالَنَـا مِـنْ سُـوءِ حَـالٍ وَذِلَّـةِ
فَـأَنْتُـمْ بِحَمْـدِ اللهِ خَيْـرُ مُلُـوكِنَـا ... وَعِـزَّتُكُـمْ تَعْلُـو عَلَـىٰ كُـلِّ عِـزَّةِ
فَنَسْـأَلُ مَـوْلانَـا دَوَامَ حَيَـاتِكُـمْ ... بِمُلْـكٍ وَعِـزٍّ فِـي سُـرُورٍ وَنِعْمَـةِ
وَتَهْدِيْـنِ أَوْطَـانٍ وَنَصْـرٍ علـى العِـدَا ... وَكَثْـرَةِ أَجْنَـادٍ وَمَـالٍ وَثَـرْوَةِ
وَثُـمَّ سَـلامُ اللهِ قُلْتُـهُ وَرَحْمَـةٌ ... عَلَيْكُمْ مَدَى الأَيَّامِ فِي كُلِّ ساعَةِ(١)

---

(١) رسالة أهل الجزيرة بعد استيلاء أهل الكفر على جميعها إلى السُّلطان بايزيد . المكتبة الوطنيَّة بالجزائر برقم (١٦٢٠) . وانظر : أخبار عياض (١/١٠٩ إلى ١١٥) . نقلاً عن جهود العثمانيِّين لاسترداد الأندلس .

كانت هذه هي رسالة الاستنصار الَّتي بعث بها المسلمون في الأندلس ، لإنقاذ الموقف هناك ، وكان السُّلطان بايزيد يعاني من العوائق الَّتي تمنعه من إرسال المجاهدين ، بالإضافة إلى مشكلة النِّزاع على العرش مع الأمير جم ، وما أثار ذلك من مشاكل مع البابويَّة في روما وبعض الدُّول الأوربيَّة ، وهجوم البولنديِّين على مولدافيا ، والحروب في ترانسلفانيا ، والمجر ، والبندقيَّة ، وتكوين التَّحالف الصَّليبي الجديد ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة من البابا جويلس الثَّاني وجمهورية البندقيَّة ، والمجر ، وفرنسا ، وما أسفر عنه هذا التَّحالف(١) من توجيه القوَّة العثمانيَّة لتلك المناطق ، ومع ذلك قام السُّلطان بايزيد بتقديم المساعدة ، وتهادن مع السُّلطان المملوكي الأشرف لتوحيد الجهود من أجل مساعدة غرناطة ، ووقَّعا اتفاقاً بموجبه يرسل السُّلطان بايزيد أسطولاً على سواحل صقلِّية باعتبارها تابعةً لمملكة إسبانيا ، وأن يجهِّز السُّلطان المملوكي حملاتٍ أخرى من ناحية أفريقية(٢) .

وبالفعل أرسل السُّلطان بايزيد أسطولاً عثمانيّاً تحوَّل إلى الشَّواطئ الإسبانيَّة ، وقد أعطى قيادته إلى كمال رايس الَّذي أدخل الفزع، والخوف، والرُّعب في الأساطيل النَّصرانية في أواخر القرن الخامس عشر(٣) ، كما شجَّع السُّلطان بايزيد المجاهدين في البحر بإبداء اهتمامه ، وعطفه عليهم ، وكان المجاهدون العثمانيُّون قد بدؤوا في التَّحرُّك لنجدة إخوانهم المسلمين ، وفي نفس الوقت كانوا يغنمون الكثير من الغنائم السَّهلة الحصول من النَّصارى ، كذلك وصل عددٌ كبيرٌ من المجاهدين المسلمين أثناء تشييد الأسطول العثمانيِّ، ودخلوا في خدمته. بعد ذلك أخذ العثمانيُّون يستخدمون قوَّتهم البحريَّة الجديدة في غرب البحر المتوسط بتشجيع من هؤلاء المجاهدين(٤) ، وهذا الَّذي كان في وسع السُّلطان بايزيد الثَّاني فعله .

لا شكَّ أنَّ تصرفات جم المشينة كانت سبباً أعاق حركة التوسُّع الإقليمي ، وعرقلت السُّلطان بايزيد عن العمل الخلاق ، وأصبح اهتمام السُّلطان منصبّاً على تعقُّب أخبار أخيه ، والعمل على التخلُّص منه بكلِّ الوسائل(٥) .

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة دولةٌ إسلاميَّةٌ مفترى عليها (٢/ ٩٠٣) .
(٢) انظر : علاقات بين الشَّرق والغرب ، عبد القادر أحمد ، ص(٢٥٦) .
(٣) انظر : خلاصة تاريخ الأندلس لشكيب أرسلان ، ص(٢١٣) .
(٤) انظر : في أصول التَّاريخ العثماني ، ص(٧٤) .
(٥) انظر : الدَّولة العثمانيَّة في التاريخ الإسلامي ، ص(٥٢) .

وعلى العموم ، فقد استطاع بايزيد أن يحرز نصراً بحرياً على البنادقة في خليج لبانتو ببلاد اليونان عام ١٤٩٩م/ ٩٠٥هـ وفي العام التَّالي استولى على مدينة لبانتو ، وباستيلاء العثمانيين على مواقع البنادقة في اليونان ، أقام البابا (إسكندر السَّادس) ـ بناءً على طلب البنادقة ـ حلفاً ضدَّ العثمانيِّين مكوَّناً من فرنسا ، وإسبانيا . وتعرَّض العثمانيُّون لهجوم الأساطيل الثلاثة : الفرنسي ، والإسباني ، والبابوي ، واستطاعت الدَّولة العثمانيَّة أن تعقد صلحاً مع البنادقة[١] .

وكان بايزيد ميَّالاً للسَّلام ، ونشطت العلاقات الدِّبلوماسيَّة بين الدَّولة العثمانيَّة وأوربة ، وكانت من قبل مقصورةً على البلاد الواقعة على حدودها ، ولكنَّها أقيمت بينها وبين البابوية، وفلورنسا، ونابلي، وفرنسا، وعقد صلحاً مع البنادقة، والمجر.

اهتمَّ بايزيد بإنشاء المباني العامَّة ، وفعل الخيرات ، فبنى الجوامع ، والمدارس ، والعمارات ، ودور الضِّيافة ، والتَّكايا ، والزَّوايا ، والمستشفيات للمرضى ، والحمامات ، والجسور ، ورتَّب للمفتي ومن في رتبته من العلماء في زمنه كلَّ عام عشرة آلاف عثماني ، ولكلِّ واحدٍ من مدرسي المدارس السُّلطانيَّة ما بين سبعة آلاف ، وألفي عثماني ، وكذلك رتَّب لمشايخ الطُّرق الصُّوفيَّة ، ومريديهم ، ولأهل الزَّوايا كلُّ واحدٍ على قدر رتبته ، وصار ذلك أمراً جارياً ومستمرَّاً ، وكان يحبُّ أهل الحرمين الشَّريفين : مكة ، والمدينة[٢] .

وحدثت في زمانه زلازل عظيمةٌ في القسطنطينيَّة ، فأخربت ألفاً وسبعين بيتاً ، ومئةً ، وتسعةَ جوامع ، وجانباً عظيماً من القصور ، وأسوار المدينة ، وعطَّلت مجاري المياه ، وصعد البحر إلى البر ، فكانت أمواجه تتدفَّق فوق الأسوار ، ولبثت تلك الزَّلزلة تحدث يومياً مدَّة ٤٥ يوماً ، وما أن سكنت الأمور ؛ كلَّف السُّلطان ١٥ ألفاً من العمَّال بإصلاح ما تهدَّم[٣] .

عاش سبعاً وستِّين عاماً ، وكان قوي البنية ، أحدب الأنف ، أسود الشَّعر ، رقيق الطَّبع ، محبَّاً للعلوم ، مواظباً للدَّرس ، وشاعراً أديباً ، ورعاً تقيَّاً ، يقضي العشرة الأخيرة من شهر رمضان في العبادة ، والذِّكر ، والطَّاعة ، وكان بارعاً في

---

(١) المصدر السابق نفسه .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٥٣) .
(٣) انظر : تاريخ سلاطين آل عثمان ، يوسف آصاف ، ص(٦٦) .

رمي السِّهام ، ويباشر الحروب بنفسه[١] وكان يجمع في كلِّ منزلٍ حلَّ من غزواته ما على ثيابه من الغبار ، ويحفظه ، ولمَّا دنا أجل موته ، أمر بذلك الغبار فضرب منه لبنةٌ صغيرةٌ ، وأمر أن توضع معه في القبر تحت خدِّه الأيمن ، فَفُعِلَ ذلك ، فكأنَّه أراد بذلك فحوى قوله ﷺ : « **من اغبرَّت قدماه في سبيل الله ؛ حرَّم الله عليه النَّار** » . وكانت مدَّة ملكه إحدى وثلاثين سنة إلا أيَّاماً[٢] .

كان السُّلطان بايزيد الثَّاني عالماً في العلوم العربيَّة والإسلاميَّة ، كما كان عالماً في الفلك ، مهتمَّاً بالأدب ، مكرماً للشُّعراء ، والعلماء ، وقد خصَّص مرتباتٍ لأكثر من ثلاثين شاعراً وعالماً ، كما كان هو نفسه شاعراً ، يمتاز شعره بعمق الإحساس بعظمة الله ، وقدرته ، وكانت له أشعارٌ في الحكمة ، توصي بالاستيقاظ من نوم الغفلة ، والنَّظر في جمال الطَّبيعة الَّتي أبدعها الله ، وفي ذلك يقول :

استيقظ من نوم الغفلة وانظر إلى الزِّينة في الأشجار .

انظر إلى قدرة الله الحقِّ . . انظر إلى رونق الأزهار .

وافتح عينيك لتشاهد حياة الأرض بعد الممات[٣] .

وفي ١٨ صفر ٩١٨هـ الموافق ٢٥ أبريل ١٥١٢م ترك حكم الدَّولة لابنه سليم الأوَّل (٩١٨ ـ ٩٢٦هـ/ ١٥١٢ ـ ١٥١٩م) وذلك بدعمٍ من الجيش ، الَّذي كان ينظر إليه على أنَّه الأمل المرتجى في بعث النَّشاط الحربيِّ للدَّولة العثمانيَّة بصورةٍ أوسع ، ودفع حركة الفتوحات إلى الأمام ، ولذلك بادر الجيش إلى معارضة والده ، وتولية ابنه سليم مكانه[٤] .

وتوفي السُّلطان بايزيد الثَّاني ، وهو ذاهبٌ إلى ديمتوقة[٥] فنقل نعشه إلى إستانبول ، حيث دفن بجوار جامعه الشَّريف[٦] .

* * *

(١) انظر : تاريخ سلاطين آل عثمان ، يوسف آصاف ، ص(٦٦) .
(٢) انظر : تاريخ سلاطين آل عثمان ، للقرماني ، ص(٣٦) .
(٣) انظر : العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، ص(٢٤٩) .
(٤) انظر : قيام الدَّولة العثمانيَّة ، ص(٥٨) .
(٥) ديمتوقة = ديموتيقا .
(٦) انظر : تاريخ سلاطين آل عثمان ، يوسف آصاف ، ص(٦٦) .

المبحث الثَّاني

السُّلطان سليم الأوَّل

(٩١٨ ـ ٩٢٦هـ/ ١٥١٢ ـ ١٥٢٠م)

تربَّع السُّلطان سليم الأول على العرش العثمانيِّ في عام ٩١٨هـ ، وقد أظهر سليم منذ بداية حكمه ميلاً إِلى تصفية خصومه ولو كانوا إِخوته ، وأبناءهم ، وكان يحبُّ الأدب ، والشِّعر الفارسي ، والتَّاريخ ، ورغم قسوته فإِنَّه كان يميل إِلى صحبة رجال العلم ، وكان يصطحب المؤرِّخين ، والشُّعراء إِلى ميدان القتال ليسجلوا تطوُّرات المعارك ، وينشدوا القصائد الَّتي تحكي أمجاد الماضي(١) .

عندما ارتقى السُّلطان سليم الأوَّل العرش العثماني كانت الدَّولة العثمانيَّة قد وصلت إِلى مفترق الطُّرق ، هل تظلُّ على هذا الوضع ، وهذا القدر من الاتساع دولةً بلقانيَّة أناضوليَّةً ؟ أم تستمرُّ في التوسُّع الإِقليميِّ في أوروبا ؟ أو تتَّجه نحو المشرق الإِسلامي ؟

والواقع : أنَّ السُّلطان سليم الأول قد أحدث تغييراً جذرياً في سياسة الدَّولة العثمانيَّة الجهاديَّة ، فقد توقَّف في عهده الزَّحف العثمانيُّ نحو الغرب الأوربيِّ ، أو كاد أن يتوقَّف ، واتَّجهت الدَّولة العثمانيَّة اتجاهاً شرقيَّاً نحو المشرق الإِسلامي ، وقد ذكر بعض المؤرِّخين الأسباب الَّتي أدَّت إِلى تغيُّر السِّياسة العثمانيَّة ، منها :

١ ـ التَّشبُّع العسكري العثماني في أوربة ؛ إِذ يرى أصحاب هذا الرأي : أنَّ الدولة العثمانيَّة كانت قد بلغت مرحلة التَّشبُّع في فتوحاتها الغربيَّة بنهاية القرن الخامس عشر ، وأنَّه كان عليها في أوائل القرن السَّادس عشر أن تبحث عن ميادين جديدة للنَّشاط ، والتوسُّع ، وهذا الرأي يخالفه الصَّواب ؛ لأنَّ الفتوحات العثمانيَّة لم تنقطع تماماً من الجبهة الغربية ، ولكن لا ريب في أنَّ مركز الثِّقل في التوسُّع

(١) انظر : في أصول التَّاريخ العثماني ، ص(٧٦) .

العثماني قد انتقل نهائياً من الغرب إلى الشَّرق[١] ليس بسبب التَّشيُّع ، كما تقول بعض المصادر غير المدركة للواقع .

٢ ـ كان تحرُّك الدَّولة العثمانيَّة نحو المشرق من أجل إنقاذ العالم الإسلامي بصورةٍ عامَّةٍ والمقدَّسات الإسلاميَّة بصورةٍ خاصَّةٍ من التَّحرُّك الصَّليبي الجديد من جانب الإسبان في البحر المتوسِّط ، والبرتغاليِّين في المحيط الهندي ، وبحر العرب ، والبحر الأحمر ؛ الَّذين أخذوا يطوِّقون العالم الإسلامي ، ويفرضون حصاراً اقتصادياً حتَّى يسهل عليهم ابتلاعه[٢] .

٣ ـ سياسة الدَّولة الصَّفويَّة في إيران، والمتعلِّقة بمحاولة بسط المذهب الشِّيعي في العراق، وآسيا الصُّغرى هي الَّتي دفعت الدَّولة العثمانيَّة إلى الخروج إلى المشرق العربي ؛ لحماية آسيا الصُّغرى بصفةٍ خاصَّةٍ ، والعالم السُّنِّي بصفةٍ عامَّةٍ[٣] .

إنَّ سياسة الدَّولة العثمانيَّة في زمن السُّلطان سليم سارت على هذه الأسس ، ألا وهي القضاء على الدَّولة الصَّفويَّة الشِّيعيَّة ، وضمُّ الدَّولة المملوكيَّة ، وحماية الأراضي المقدَّسة وملاحقة الأساطيل البرتغاليَّة ، ودعم حركة الجهاد البحري في الشَّمال الأفريقي للقضاء على الإسبان ، ومواصلة الدَّولة جهادها في شرق أوربة .

أولاً : محاربة الدَّولة الصَّفويَّة الشِّيعيَّة :

يعدُّ نسب الصَّفويِّين إلى الشيخ صفي الدِّين الأردبيلي ٦٥٠ ـ ٧٣٥هـ/ ١٢٥٢ ـ ١٣٣٤م الجدُّ الأكبر لشَّاه إسماعيل الصَّفوي مؤسِّس الدَّولة الصَّفوية .

وقد التفَّ حول الشَّيخ صفي الدِّين الأردبيلي عددٌ كبير من الأتباع المريدين نتيجةً للدَّعوة القويَّة ، أو الدِّعاية المؤثِّرة الَّتي قام بها هو وأتباعه من المتصوِّفة ، والدَّراويش ؛ الَّذين استطاعوا نشر دعوتهم لا في إيران وحدها ، وإنَّما في بعض أقاليم الدَّولة العثمانيَّة ، وفي العراق ، وبلاد الشام[٤] .

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة في التَّاريخ الإسلامي الحديث ، ص(٢٦) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢٦) .
(٣) انظر : الإسلام في آسيا منذ الغزو المغولي ، د . محمد نصر . ص(٢٤٠) .
(٤) انظر : الإسلام في آسيا منذ الغزو المغولي ، ص(٢٤٠) .

استطاع الشَّيخ صفي الدِّين عن طريق إحدى الفرق الَّتي تزعَّمها أن يشقَّ طريقه في المجتمع الإيراني ، كما استطاع أن يكسب تأييد ومساندة الكثيرين من الإيرانيِّين ممَّا أدَّى إلى تحوُّل هذه الفرقة إلى الدَّعوة للمذهب الشِّيعيِّ ، حيث أُشيع أنَّ الشَّيخ صفي الدِّين وأولاده ينتمون إلى عليِّ بن أبي طالبٍ ، رضي الله عنه ، ومن ثمَّ لهم الحقُّ في المطالبة بالحكم .

وكان صفيُّ الدِّين قد لجأ إلى التَّقيَّة ؛ إذ كان مظهره يوحي بأنَّه سنِّيُّ الاتِّجاه ، بل إنَّه من أتباع المذهب الشَّافعيِّ ، ولما تمهَّدت السُّبل أمام هذه الدَّعوة الشِّيعيَّة أعلن أحد أحفاده الشَّاه إسماعيل الدَّعوة الشِّيعيَّة ، بل إنَّ السلطان حيدر أكَّد صلة نسبه بالإمام موسى الكاظم ، ومن ثَمَّ أصبحت الدَّولة الصَّفويَّة في إيران تعدُّ نفسها من آل بيت رسول الله ﷺ[(١)] .

صمَّم إسماعيل الصَّفوي على فرض المذهب الشِّيعيِّ على شعبه ، وأعلنه مذهباً رسميّاً للدَّولة في إيران ، وقضى بالقوَّة المسلَّحة على معارضيه، واستطاع الصَّفويُّون أن يجمعوا حولهم أعداداً غفيرةً من الأتباع ، والمريدين ، وتكاتفت الدِّعاية الشِّيعيَّة القويَّة سواءٌ في بقايا (العبيديين) الفاطميِّين في مصر ، أو الإسماعيليَّة ، أو الأسرة الصَّفويَّة نفسها في إعلان المذهب الشِّيعيِّ في إيران لتتحوَّل كلُّها من بعد ذلك من المذهب السُّنِّي إلى مذهب الدَّولة الجديدة ، وهو المذهب الشِّيعيُّ .

وكانت ردود الفعل عنيفةً خاصَّةً أنَّ كثيرين من سكان المدن الرَّئيسيَّة في إيران مثل تبريز كانوا من السُّنَّة ، بل إنَّ علماء الشِّيعة أنفسهم كانوا يخشون على المذهب من رفض السُّنَّة له ، وإعلان عصيانهم على الحاكم الصَّفوي شيعيِّ المذهب .

بذل الشَّاه إسماعيل الصَّفويُّ جهوداً ضخمةً في فرض المذهب الشِّيعيِّ في إيران ، فعلى الرَّغم من التَّهيئة الرُّوحيَّة للدَّعوة الشِّيعيَّة بين سكَّان إيران الَّذين كانوا في غالبيتهم من السُّنَّة ؛ فقد رأى إسماعيل الصَّفوي أن يواجه هذا الموقف بتجنيد العناصر الشِّيعيَّة للغرض هذا ، ووجد منها تأييداً ، ومناصرةً ، واستغلَّ حميَّتهم لمناصرتهم ، فدفعهم لضرب معارضيه ، والتَّأكيد لمذهبه في إيران .

---

(١) انظر : الإسلام في آسيا منذ الغزو المغولي ، د . محمد نصر . ص(٢٤٠) .

لجأ الشَّاه إسماعيل الصَّفويُّ إلى سياسةٍ ماهرةٍ في تأكيد دعوته السِّياسيَّة، والمذهبيَّة، فاعتمد على قبائل الترلباش التُّركيَّة الأصل لتكون نواةً لقوَّته العسكريَّة، ذلك: أنَّ المجتمع الإيراني في ذلك الوقت كان يتكوَّن من عناصر مختلفةٍ نتيجةً لموجات الغزو المتعاقبة على البلاد، ممَّا كان يصعب معه صهر كلِّ هذه العناصر في بوتقةٍ واحدةٍ. لقد استطاع إسماعيل الصَّفوي بهذه السِّياسة أن يجنِّد الطَّاقة المذهبيَّة عند هذه العناصر؛ لتكون المحور الذي تلتفُّ حوله، وتذوب فيها الفوارق العرقيَّة، وتحلُّ محلَّها وحدةٌ مذهبيَّةٌ، يمكن له أن يقيم عليها الكيان السِّياسيَّ الجديد[1].

لقد كان إسماعيل الصَّفوي شرساً في حروبه شديد الفتك بمعارضيه، وخصوصاً إن كانوا من أهل السُّنَّة (.. افتتح ممالك العجم جميعاً، وكان يقتل من ظفر به، وما نهبه من الأموال قسَّمه بين أصحابه، ولا يأخذ منه شيئاً، ومن جملة ما ملك: تبريز، وأذربيجان، وبغداد، وعراق العجم، وعراق العرب خراسان، وكاد أن يدَّعي الرُّبوبيَّة، وكان يسجد له عسكره، ويأتمرون بأمره.

قال قطب الدِّين الحنفيُّ في الأعلام: إنَّه قتل زيادة على ألف ألف نفسٍ، بحيث لا يُعهد في الجاهليَّة، ولا في الإسلام، ولا في الأمم السَّابقة من قبل في قتل النفوس ما قتله شاه إسماعيل، وقتل عدَّةً من أعاظم العلماء، بحيث لم يبق من أهل العلم أحدٌ من بلاد العجم، وأحرق جميع كتبهم، ومصاحفهم، وكان شديد الرَّفض بخلاف آبائه، ومن جملة تعظيم أصحابه له: أنَّه سقط مرَّة منديلٌ من يده إلى البحر، وكان على جبل شاهق مشرف على ذلك البحر فرمى بنفسه خلف المنديل فوق ألف نفسٍ تحطَّموا، وتكسَّروا، وغرقوا، وكانوا يعتقدون فيه الألوهيَّة. ذكر ذلك القطب المذكور، ولم تنهزم له رايةٌ حتَّى حاربه السُّلطان سليم المتقدِّم ذكره، فهزمه)[2].

لقد تزعَّم الشَّاه إسماعيل المذهب الشِّيعي، وحرص على نشره، ووصلت

---

(١) انظر: الإسلام في آسيا منذ الغزو المغولي، د. محمد نصر. ص(٢٤٢، ٢٤٣).
(٢) البدر الطَّالع (١/ ٢٧١).

دعوته إلى الأقاليم التَّابعة للدَّولة العثمانيَّة ، وكانت الأفكار والعقائد الَّتي تنشر في تلك الأقاليم يرفضها المجتمع العثمانيُّ السُّنِّيُّ ، حيث كان من عقائدهم الفاسدة : تكفير الصَّحابة ، لعن العصر الأوَّل ، تحريف القرآن الكريم ، وغير ذلك من الأفكار والعقائد . فكان من الطَّبيعي أن يتصدَّى لتلك الدَّعوة السُّلطان سليم زعيم الدَّولة السُّنِّيَّة ، فأعلن في اجتماع لكبار رجال الدَّولة ، والقضاة ، ورجال السِّياسة ، وهيئة العلماء في عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م أنَّ إيران بحكوماتها الشِّيعيَّة ، ومذهبها الشِّيعيِّ يمثِّلان خطراً جسيماً لا على الدَّولة العثمانيَّة وحدها ، بل على العالم الإسلامي كلِّه ، وأنَّه لهذا يرى الجهاد المقدَّس ضدَّ الدَّولة الصَّفويَّة ، وكان رأي السُّلطان سليم هو رأي علماء أهل السُّنَّة في الدَّولة ، لقد قام الشَّاه إسماعيل عندما دخل العراق بذبح المسلمين السُّنِّيين على نطاقٍ واسعٍ ، ودمَّر مساجدهم ، ومقابرهم ، وازداد الخطر الشِّيعيُّ ضراوةً في السَّنوات الأخيرة من عهد السُّلطان بايزيد ، وعندما تولَّى السُّلطان سليم السَّلطنة قامت أجهزة الدَّولة العثمانيَّة الأمنيَّة بحصر الشِّيعة التابعين للشَّاه إسماعيل ، والمناوئين للدَّولة العثمانيَّة ثمَّ قام بتصفية أتباع الشَّاه إسماعيل ، فسجن وأعدم عدداً كبيراً من أنصار الشَّاه إسماعيل في الأناضول ، ثمَّ قام بمهاجمة إسماعيل نفسه ، فتداولت الرَّسائل الخشنة بينهما ، حسب المعتاد .

وكتب السُّلطان سليم رسالة إلى إسماعيل الصَّفوي قال فيها : (. . . إنَّ علماءنا ، ورجال القانون قد حكموا عليك بالقصاص يا إسماعيل ! بصفتك مرتدّاً ، وأوجبوا على كل مسلمٍ حقيقيٍّ أن يدافع عن دينه ، وأن يحطِّم الهراطقة في شخصك ، أنت وأتباعك البلهاء ، ولكن قبل أن تبدأ الحرب معكم ، فإنَّنا ندعوكم لحظيرة الدِّين الصَّحيح قبل أن نشهر سيوفنا ، وزيادةً على ذلك فإنَّه يجب عليك أن تتخلَّى عن الأقاليم الَّتي اغتصبتها منا اغتصاباً ، ونحن حينئذٍ على استعدادٍ لتأمين سلامتك . . .)[(١)] .

وكان ردُّ إسماعيل الصَّفوي على هذا الخطاب أن بعث للسُّلطان العثماني هديةً من الأفيون قائلاً : إنَّه اعتقد أنَّ هذا الخطاب كتب تحت تأثير المخدِّر[(٢)] .

---

(١) انظر : جهود العثمانيِّين لإنقاذ الأندلس ، ص(٤٣٥) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٤٣٥) .

كذلك جاء في خطابٍ آخر مشابهٍ : (. . . أنا زعيم وسلطان آل عثمان ، أنا سيِّد فرسان هذا الزَّمان ، أنا الجامع بين شجاعة وبأس أفريدون الحائز لعز الإسكندر ، والمتَّصف بعدل كسرى ، أنا كاسر الأصنام ، ومبيد أعداء الإسلام ، أنا خوف الظَّالمين ، وفزع الجبَّارين المتكبِّرين ، أنا الَّذي تذلُّ أمامه الملوك المتَّصفون بالكِبْر ، والجبروت ، وتتحكَّم لدى قوتي صوالج العزَّة والعظموت ، أنا الملك الهُمام السُّلطان سليم خان بن السُّلطان الأعظم مراد خان ، أتنازل بتوجيهٍ إليك أيُّها الأمير إسماعيل ، يا زعيم الجنود الفارسيَّة . . ولمَّا كنتُ مسلماً من خاصَّة المسلمين ، وسلطاناً لجماعة المؤمنين السُّنِّيين الموحِّدين . . وإذ قد أفتى العلماء ، والفقهاء الَّذين بين ظهرانينا بوجوب قتلك ، ومقاتلة قومك ؛ فقد حقَّ علينا أن ننشط لحربك وتخليص النَّاس من شَرِّك[(١)] .

أعدَّ السُّلطان سليم الأوَّل لمعركةٍ فاصلةٍ مع الدَّولة الصَّفويَّة ، حيث وصل إلى إستانبول ، وبدأ في التَّحرك مع إستانبول تجاه الأراضي الإيرانيَّة ، وبعد أن غادر إسكوتراي أرسل يهدِّد الشَّاه إسماعيل الصَّفوي في رسالة ، يقول فيها : (بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم ، قال الله الملك العلام ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران : ١٩] ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] اللَّهمَّ اجعلنا من الهادين غير المضلِّين ، ولا الضَّالين ، وصلَّى الله على سيِّد العالمين محمدٍ المصطفى النَّبيِّ ، وصحبه أجمعين)[(٢)] .

وفي الوقت نفسه أرسل السُّلطان سليمان الأوَّل إلى أحد أفراد أسرة آق قويونلو ، وهو محمَّد بن فرج شاه بيك يحثُّه على الاشتراك معه في قتال إسماعيل الصَّفوي ، وبدأت حربُ الاستطلاع بين المعسكرين المتحاربين ، إلا أنَّ سليماً الأول قد بدأ التَّحرُّك نحو الدُّخول في القتال ، حيث عسكر في صحراء ياس جمن على مقربة من أذربيجان ، ووصلت الأنباء الَّتي أتت بها عيون ياس جمن تقول : إنَّ الشاه إسماعيل الصَّفوي لا ينوي القتال ، وأنَّه يؤخِّره إلى أن يحلَّ فصل الشِّتاء حتَّى

---

(١) فتح العثمانيِّين عدن ، محمد عبد اللطيف البحراوي ، ص(١١٣) .
(٢) انظر : الإسلام في آسيا منذ الغزو المغولي ، ص(٢٤٦) .

يهلك العثمانيُّون برداً ، وجوعاً[١] .

وبدأ سليم الأوَّل يسرع في تحريك الصِّراع بينه وبين الشَّاه إسماعيل ، فأرسل إليه للمرَّة الثَّانية ، وأرسل مع رسالته خرقةً ، ومسبحةً ، وكشكولاً ، وعصاً رمز فرق الدَّراويش ، وهو بهذا يقصد إلى أن يذكره بأصله ، وبأهل الأسرة الصَّفويَّة الَّتي لا تستطيع الصُّمود في الحرب ، ومع ذلك فقد ردَّ الشاه إسماعيل بطلب المهادنة ، وتجديد علاقات السِّلم ، والصَّداقة بين الدَّولتين ، ولم يقبل سليم الأوَّل هذا من شاه الصَّفويِّين ، وأهان رسوله ، وأمر بقتل رسول الشَّاه الصَّفوي ، وقد أدرك سليم الأوَّل أنَّ خطَّة أعدائه تتلخَّص في المهادنة ، والتَّباطؤ لتأجيل موعد اللِّقاء حتَّى يحين فصل الشتاء ، واستمرَّ السُّلطان سليم في تحرُّكه ، ووصلته الأخبار : أنَّ إسماعيل الصَّفوي قد بدأ الاستعداد للقتال ، والحرب ، بل إنَّه على وشك الوصول إلى صحراء جالديران ، فبدأ سليم الأوَّل المسير نحوها ، فوصلها في أغسطس عام ١٥١٤م ، واحتلَّ المواقع الهامَّة بها ، واعتلى الأماكن الهضبيَّة فيها ، ممَّا مكَّنه من إيقاع الهزيمة بإسماعيل الصَّفوي ، وجنوده ، وكانت هزيمةً ساحقةً حلَّت بالجيش الصَّفوي الشِّيعي على أرضه[٢] .

واضطرَّ إسماعيل إلى الفرار في الوقت نفسه الَّذي كان سليم الأوَّل يستعدُّ فيه للدُّخول إلى تبريز عاصمة الصَّفويين .

ودخل سليم الأول تبريز ، وحصر أموال الشَّاه الصَّفوي ، ورجال القلزباس ، واتَّخذها مركزاً لعملياته الحربيَّة[٣] .

لم ينته الصِّراع بين السُّنَّة في الدَّولة العثمانيَّة ، والشِّيعة في إيران بانتهاء معركة جالديران ، وإنَّما ازداد العداء حدَّةً ، وازداد الصِّراع ضراوةً ، وظلَّ الطَّرفان يتربَّص كلٌّ منهما بالآخر .

لقد انتصر السُّلطان سليم بفضل الله تعالى ، وعقيدته السَّليمة ، ومنهجه الصَّافي ، وأسلحته المتطوِّرة ، وجيشه العقدي المتدرِّب ، وعاد إلى بلاده بعد أن

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢٤٦) .
(٢) انظر : الإسلام في آسيا منذ الغزو المغولي ، ص(٢٤٧ ، ٢٤٨) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢٤٧) .

استولى على كردستان ، وديار بكر ، ومرغش ، وإبلسين ، وباقي أملاك دلفاود ، وبذلك صارت الأناضول مأمونةً من الاعتداء من الشَّرق ، وصارت الطُّرق إلى أذربيجان ، والقوقاز مفتوحةً للعثمانيِّين(١) .

وما أن هزمت فارس في موقعة جالديران السَّابقة أمام السُّلطان سليم حتَّى كان الفرس أنفسهم أكثر استعداداً وتقبُّلاً من قبلُ للتَّحالف مع البرتغاليِّين ، وبدأت تلك الاستعدادات للارتباط بالبرتغال عقب استيلاء البوكرك على هرمز ، عندها وصل سفير من لدى شاه إسماعيل ، وتمَّ الدُّخول في اتفاقيَّةٍ محدودةٍ ما بين البرتغاليِّين ، والصَّفويِّين نصَّت على ما يلي : أن يقدِّم البرتغال أسطوله ليساعد الفرس في غزو البحرين ، والقطيف ، كما يقدِّم البرتغال المساعدة للشَّاه إسماعيل لقمع الثَّورة في مكران ، وبلوجستان ، وأن يكوِّن الشَّعبان البرتغاليُّ والفارسيُّ اتِّحاداً ضدَّ العثمانيِّين ، إلا أنَّ وفاة البوكرك الَّتي أتت بعد ذلك قد أعاقت ذلك التَّحالف(٢) .

لقد أظهر البرتغاليُّون تودُّداً للشَّاه إسماعيل قبل معركة جالديران ، وكانوا يهدفون من وراء تودُّدهم للصَّفويِّين أن تتاح لهم فرصة تحقيق أهدافهم في إيجاد مراكز لهم في الخليج العربي ، وكانوا يدركون : أنَّهم إذا لم يكسبوا ود الصَّفويِّين فإنَّ تعاون قوَّتهم مع القوى المحلِّيَّة في الخليج قد يؤدِّي إلى فشل البرتغاليِّين في تحقيق أهدافهم ، ولا سيما أنَّ مشروعاتهم في إيجاد مراكز نفوذ في البحر الأحمر منيت بالفشل إلى حدٍّ كبير(٣) .

وتبدو سياسة البرتغال الرَّامية إلى التَّحالف مع الفرس في رسالةٍ أرسلها « البوكرك » إلى الشَّاه « إسماعيل الصَّفوي » جاء فيها :

(إنِّي أقدر لك احترامك للمسيحيِّين في بلادك ، وأعرض عليك الأسطول ، والجند ، والأسلحة لاستخدامها ضدَّ قلاع التُّرك في الهند ، وإذا أردت أن تنقضَّ على بلاد العرب ، أو تهاجم مكَّة فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدَّة ، أو في عدن ، أو في البحرين ، أو القطيف ، أو البصرة ، وسيجدني الشَّاه بجانبه على

---

(١) انظر : جهود العثمانيِّين لإنقاذ الأندلس ، ص(٤٣٦) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٤٣٧) .
(٣) انظر : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيِّين ، ص(٦٣) .

امتداد السَّاحل الفارسي ، وسأنفِّذ له كلَّ ما يريد)[١] .

لقد أدَّت هزيمة الشَّاه إسماعيل أمام العثمانيِّين إلى حرصه الشَّديد للتَّحالف مع النَّصارى ، وأعداء الدَّولة العثمانيَّة ، ولذلك تحالف مع البرتغاليِّين ، وأقرَّ استيلاءهم على هرمز في مقابل مساعدته على غزو البحرين ، والقطيف إلى جانب تعهُّدهم بمساندتهم ضدَّ القوات العثمانيَّة ، وقد تضمَّن مشروع التَّحالف البرتغالي الصَّفوي تقسيم المشرق العربي إلى مناطق نفوذ بينهما ، حيث اقترح أن يحتلَّ الصَّفويُّون مصر ، والبرتغاليُّون فلسطين[٢] .

يقول الدُّكتور عبد العزيز سليمان نواز : (. . . إنَّ الشَّاه لم يتوقف عن البحث عن حلفاء ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة الَّتي أصبحت القوَّة الكبرى الَّتي تحول بينه وبين الوصول إلى البحر المتوسط ، وكان مستعدّاً لأن يتحالف حتَّى مع البرتغاليين أشدِّ القوى خطراً على العالم الإسلامي حينذاك ، وهكذا بينما كان البرتغاليُّون يخشون من وجود جبهةٍ إسلاميَّةٍ قويَّةٍ ضدَّهم في المياه الإسلاميَّة ، وجدوا : أنَّ هناك من يريد أن يتعاون معهم .

ومع أنَّ ملك هرمز ـ الجزيرة الصَّغيرة الَّتي أضيرت بشدَّةٍ في اقتصاديَّاتها التِّجارية بمجيء البرتغاليين المريع ، إلا أنَّ الشَّاه وضع مصالحه الخاصَّة ، وحقده الشَّديد على الأتراك العثمانيِّين في مقدِّمة أيَّة تسويةٍ ، أو تحالفٍ مع البرتغاليِّين ، فلا غرو أن وافق على أن تظلَّ هرمز تحت السيطرة البرتغاليَّة في مقابل حصوله على الإحساء ، ولكن حتَّى هذه الفرصة لم يتحها البرتغاليُّون لحليفهم الشَّاه . وكانت النتيجة أن ساعدت سياسة الشَّاه هذه على تقوية التسلُّط البرتغالي على الخليج . .)[٣] .

اكتفى السُّلطان العثماني بانتصاره في جالديران ، واضطر إلى الرُّجوع إلى بلاده ، وترك مطاردة الشَّاه إسماعيل لعدَّة أسبابٍ :

١ ـ حدوث نوع من التمرُّد بين صفوف ضباط الجيش العثماني على متابعة الحرب في فارس بعد أن حقَّق السُّلطان هدفه ، وأضعف شوكة إسماعيل الصَّفوي .

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص(٦٣) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٦٤) .
(٣) الشُّعوب الإسلاميَّة ، ص(٢٢٦) .

٢ ـ خوف السُّلطان سليم من أن يقع جيشه في كمائن للصَّفويِّين إذا توغَّل في بلادهم .

٣ ـ رأى أن يهتمَّ بالقضاء على المماليك ؛ لأنَّ جهاز أمن الدَّولة العثمانيَّة ضبط رسائل بين المماليك والصَّفويِّين تدلُّ على وجود تعاونٍ ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة[١] .

*** وكانت نتيجة الصِّراع بين العثمانيين والصَّفويِّين :**

١ ـ ضمَّ شمالي العراق ، وديار بكر إلى الدَّولة العثمانيَّة .

٢ ـ أمَّن العثمانيُّون حدود دولتهم الشَّرقيَّة .

٣ ـ سيطرة المذهب السُّنِّي في آسيا الصُّغرى بعد أن قضى على أتباع ، وأعوان إسماعيل الصَّفوي ، ثمَّ هزيمة الشِّيعة في جالديران ، وهذا أشعر الدَّولة بمسؤوليَّتها تجاه العالم الإسلامي ، وبخاصَّةٍ بعد أن أعلن نفسه حامياً للمسلمين[٢] .

٤ ـ شعور الدَّولة العثمانيَّة بضرورة القضاء على القوَّة الثانية ، ألا وهي دولة المماليك[٣] .

٥ ـ أثَّر الصِّدام المسلح بين الدَّولة العثمانيَّة والصَّفويِّين على قيمة إيرادات جمارك الدَّولة العثمانية من الطُّرق القديمة في الأناضول . لقد هبطت الإيرادات بعد سنة ٩١٨هـ/ ١٥١٢م نتيجة الحروب القائمة بين الصَّفويِّين ، والعثمانيِّين ؛ إذ أقفلت معظم الطُّرق التِّجارية القديمة ، كما سادها الأخطار ، وصار التَّبادل التِّجاري بين الأقاليم الإيرانية والعثمانيَّة محدوداً ؛ إذ انخفض إيراد الدَّولة العثمانيَّة من الحرير الفارسي[٤] .

٦ ـ استفاد البرتغاليُّون من صراع الصَّفويين مع الدَّولة العثمانيَّة ، وحاولوا أن يفرضوا على البحار الشَّرقيَّة حصاراً عامّاً على كلِّ الطُّرق القديمة بين الشَّرق ، والغرب[٥] .

---

(١) الشُّعوب الإسلاميَّة ، ص(٢٢٥) .
(٢) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، د . علي حسون ، ص(٥٦ ، ٥٧) .
(٣) انظر : تاريخ العرب ، مجموعة من العلماء ، ص(٣) .
(٤) انظر : جهود العثمانيِّين لاسترداد الأندلس ، ص(٤٣٧) .
(٥) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٤٣٨) .

٧ ـ دخل السُّرور على الأوربيِّين بسبب الحروب بين العثمانيِّين والصَّفويِّين ، وعمل الأوربيُّون على الوقوف مع الشِّيعة الصَّفويَّة ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة لإرباكها حتَّى لا تستطيع أن تستمرَّ في زحفها على أوربة[١] .

ثانياً : ضمُّ دولة المماليك :

بعد أن تغلَّب السُّلطان سليم الأوَّل على الصَّفويِّين في شمال وغربي إيران بدأ السُّلطان العثمانيُّ يستعدُّ للقضاء على دولة المماليك ، ولقد ساهمت عدَّة أسباب في توجه العثمانيين لضمِّ الشَّام ، ومصر منها :

١ ـ موقف المماليك العدائيُّ من الدَّولة العثمانيَّة ، حيث قام السُّلطان قانصوه الغوري (٩٠٧ ـ ٩٢٢هـ/ ١٥٠١ ـ ١٥١٦م) سلطان الدَّولة المملوكيَّة بالوقوف مع بعض الأمراء العثمانيِّين الفارِّين من وجه السُّلطان سليم ، وكان في مقدِّمتهم الأمير أحمد أخو السُّلطان سليم ، وأرادت السُّلطات المملوكيَّة أن تتَّخذ من وجود هؤلاء الأمراء لديها أداةً لإثارة مزيد من المتاعب في وجه السُّلطان سليم ، كما كان الموقف السَّلبي للدَّولة المملوكية في وقوفها المعنوي مع الشَّاه إسماعيل الصَّفوي ، فهي لم تلتزم الحياد التَّامَّ بين العثمانيِّين والصَّفويِّين ، وهي لم تتَّخذ موقفاً عدائيَّاً صريحاً من السُّلطان سليم .

٢ ـ الخلاف على الحدود بين الدَّولتين في طرسوس في المنطقة الواقعة بين الطَّرف الجنوبي الشَّرقي لآسيا الصُّغرى ، وبين شمالي الشَّام . فقد تناثرت في هذه المنطقة إماراتٌ ، وقبائلُ تأرجحت في ولائها بين الدَّولة العثمانيَّة ، ودولة المماليك . وكان هذا التأرجح مبعث اضطرابٍ في العلاقات بين الدَّولتين ، ومصدر نزاعٍ مستمرٍّ . وأراد السُّلطان سليم الأوَّل بادئ ذي بدء أن يحسم مسألة الحدود بالسَّيطرة التامَّة على منطقتها ، وسكَّانها .

٣ ـ تفشِّي ظلم الدَّولة المملوكيَّة بين النَّاس ، ورغبة أهل الشَّام ، وعلماء مصر في التخلُّص من الدَّولة المملوكيَّة ، والانضمام إلى الدَّولة العثمانيَّة ، فقد اجتمع العلماء ، والقضاة ، والأعيان ، والأشراف ، وأهل الرَّأي مع الشَّعب ، وتباحثوا

---

(١) انظر : القوة العثمانيَّة بين البرِّ والبحر ، د . نبيل رضوان ، ص(١١١) .

في حالهم ، ثمَّ قرروا أن يتولَّى قضاة المذاهب الأربعة ، والأشراف كتابة عريضةٍ نيابةً عن الجميع ، يخاطبون فيها السُّلطان العثماني سليم الأوَّل ، ويقولون : إنَّ الشعب السُّوري ضاق « بالظُّلم » المملوكي ، وإنَّ حكام المماليك « يخالفون الشَّرع الشَّريف » ، وإنَّ السُّلطان إذا قرر الزَّحف على السَّلطنة المملوكيَّة ؛ فإنَّ الشعب سيرحِّب به ، وتعبيراً عن فرحته ، سيخرج بجميع فئاته ، وطوائفه إلى عينتاب ـ البعيدة عن حلب ـ ولن يكتفوا بالتَّرحيب به في بلادهم فقط ، ويطلبون من سليم الأوَّل أن يرسل لهم رسولاً من عنده ، وزيراً ثقةً ، يقابلهم سرَّاً ، ويعطيهم عهد الأمان ، حتَّى تطمئنَّ قلوب النَّاس[(١)] .

ولقد ذكر الدُّكتور محمَّد حرب : أنَّ هذه الوثيقة موجودةٌ في الأرشيف العثماني في متحف طوب كابي في إستانبول ، رقم ١١٦٣٤ (٢٦) وبيَّن أنَّ ترجمة الوثيقة من العثمانيَّة إلى العربيَّة كما يلي : (يقدِّم جميع أهل حلب : علماء ، ووجهاء ، وأعيان ، وأشراف ، وأهالي ، بدون استثناء طاعتهم ، وولاءهم ـ طواعيةً ـ لمولانا السُّلطان ـ عزَّ نصره ـ وبإذنهم جميعاً ، كتبنا هذه الورقة لترسل إلى الحضرة السُّلطانية العالية . إنَّ جميع أهل حلب ، وهم الموالون لكم ، يطلبون من حضرة السُّلطان ، عهد الأمان ، وإذا تفضَّلتم بالتَّصريح فإنَّنا نقبض على الشَّراكسة ، ونسلِّمهم لكم ، أو نطردهم ، وجميع أهل حلب مستعدُّون لمقابلتكم ، واستقبالكم ، بمجرَّد أن تضع أقدامكم في أرض عينتاب ، خلِّصنا أيُّها السُّلطان من يد الحكم الشَّركسي ، إحمنا أيضاً من يد الكفَّار ، قبل حضور التُّركمان ، وليعلم مولانا السُّلطان : أنَّ الشَّريعة الإسلاميَّة ، لا تأخذ مجراها هنا ، وهي معطَّلةٌ . إنَّ المماليك إذا أعجبهم أيُّ شيءٍ ليس لهم يستولون عليه ، سواءٌ كان هذا الشيء مالاً ، أو نساءً ، أو عيالاً ، فالرَّحمة لا تأخذهم بأحدٍ ، وكلٌّ منهم ظالمٌ ، وطلبوا منَّا رجلاً من ثلاثة بيوت ، فلم نستجب لطلبهم ، فأظهروا لنا العداء ، وتحكَّموا فينا ، (ونريد) قبل أن يذهب التُّركمان أن يقدم علينا وزيرٌ من عندكم أيُّها السُّلطان صاحب الدولة ، مفوَّضٌ بمنح الأمان لنا ، ولأهلينا ، ولعيالنا ، أرسلوا لنا رجلاً حائزاً على ثقتكم يأتي سرَّاً ، ويلتقي بنا ، ويعطينا عهد الأمان ، حتَّى تطمئنَّ قلوب

(١) انظر : العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، د . محمد حرب ، ص(١٧٠) .

هؤلاء الفقراء ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّدٍ ، وعلى آله أجمعين)[١] .

أمَّا علماء ، وفقهاء مصر فقد ذكر عبد الله بن رضوان في كتابه : تاريخ مصر (مخطوط رقم ٤٩٧١) بمكتبة بايزيد في إستانبول : إنَّ علماء مصر (وهم نفس الشَّعب المصري وممثِّلوه) يلتقون سرَّاً بكلِّ سفيرٍ عثمانيٍّ يأتي إلى مصر ، ويقصُّون عليه (شكواهم الشَّريف) و(يستنهضون عدالة السُّلطان العثماني لكي يأتي ، ويأخذ مصر) .

لقد كان علماء مصر يراسلون السُّلطان سليماً الأوَّل لكي يقدم إلى مصر على رأس جيشه ، ليستولي عليها ، ويطرد منها الجراكسة (المماليك)[٢] .

٤ ـ رأى علماء الدَّولة العثمانيَّة : أنَّ ضمَّ مصر ، والشَّام يفيد الأمَّة في تحقيق أهدافها الاستراتيجيَّة ، فإنَّ الخطر البرتغالي على البحر الأحمر ، والمناطق المقدَّسة الإسلاميَّة ، وكذلك خطر فرسان القدِّيس يوحنا في البحر المتوسط كان على رأس الأسباب الَّتي دعت السُّلطان العثماني لأن يتوجَّه نحو الشرق ، فتحالف مع القوَّات المملوكيَّة لهذا الغرض في البداية ، ثمَّ تحمَّل العبء الكامل في مقاومة هذه الأخطار بعد سقوط الحكم المملوكي[٣] .

ونستدلُّ على ذلك بما قاله السُّلطان سليم الأوَّل العثمانيُّ لطومان باي آخر سلاطين المماليك بعد أن هزمه في معركة الرَّيدانيَّة (أنا ما جئت عليكم إلا بفتوى علماء الأعصار والأمصار ، وأنا كنت متوجِّهاً إلى جهاد الرَّافضة (يعني : الصفويِّين) والفجَّار (يعني بهم : البرتغاليِّين ، وفرسان القدِّيس يوحنا) ، فلمَّا بغى أميركم الغوري ، وجاء بالعساكر إلى حلب واتَّفق مع الرَّافضة ، واختار أن يمشي إلى مملكتي الَّتي هي موروث آبائي ، وأجدادي ، فلمَّا تحقَّقتُ تركت الرَّافضة ، ومشيت إليه)[٤] .

---

(١) انظر : العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، ص(١٧٠ ، ١٧١) .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص (١٦٩) .
(٣) انظر : قراءة جديدة في التاريخ العثماني ، ص(٧٠) .
(٤) انظر : العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، ص(٧١) .

(أ) وقوع الصِّدام :

بعد التطوُّرات الَّتي حدثت بين الدَّولة العثمانيَّة والدَّولة الصَّفوية كان على السُّلطان المملوكي قانصوه الغوري أن يتَّخذ أحد المواقف تجاه الحدث ، إمَّا :

١ ـ أن يأخذ جانب العثمانيِّين ضدَّ الصَّفويِّين .

٢ ـ أن يأخذ جانب الصَّفويِّين ضدَّ العثمانيِّين .

٣ ـ أن يقف على الحياد بين الطَّرفين .

وفضَّل الغوري أن يقف على الحياد في ظاهره ، إلا أنَّ المخابرات العثمانيَّة عثرت على خطاب تحالفٍ سرِّي يؤكِّد العلاقة الخفيَّة بين المماليك والفرس ، والخطاب محفوظٌ في أرشيف متحف طوب قابو في إستانبول .

وكان السُّلطان سليم يريد الكرَّة على الشِّيعة الصَّفويَّة في بلاد فارس ، ومع توتُّر الأحداث ؛ رأى السُّلطان سليم تأمين ظهره ، وذلك بضمِّ الدولة المملوكيَّة إلى أملاكه .

والتقى الجمعان على مشارف حلب في مرج دابق عام ١٥١٧م وانتصر العثمانيُّون ، وقُتِل الغوري سلطان المماليك، وأكرم العثمانيُّون الغوري بعد مماته ، وأقاموا عليه صلاة الجنازة ، ودفنوه في مشارف حلب . ودخل سليم حلب ، ثمَّ دمشق ، ودُعي له في الجوامع ، وسُكَّت النُّقود باسمه سلطاناً ، وخليفةً[١] . ومن الشَّام أرسل السُّلطان سليم إلى زعيم المماليك في مصر طومان باي أن يلتزم بالطَّاعة للدَّولة العثمانيَّة ، وكان ردُّ المماليك السُّخرية برسول السُّلطان ، ثمَّ قتله .

وقرر السلطان سليم الحرب ، وتحرَّك نحو مصر ، وقطع صحراء فلسطين قاصداً مصر ، ونزلت الأمطار على أماكن سير الحملة ممَّا يسَّرت على الجيش العثماني قطع الصَّحراء النَّاعمة الرِّمال بعد أن جعلتها الأمطار الغزيرة متماسكةً يَسهل اجتيازها .

يروي المؤرِّخ سلاحثور صاحب مخطوطة فتح نامه ديار العرب ـ وكان مصاحباً

---

(١) انظر : العثمانيُّون في التاريخ والحضارة ، ص(٢٩) .

لسليم ـ : أنَّ سليماً الأوَّل كان يبكي في مسجد الصَّخرة بالقدس بكاءً حارّاً ، وصلَّى صلاة الحاجة داعياً الله أن يفتح عليه مصر(١) .

وحقَّق العثمانيُّون انتصاراً ساحقاً على المماليك في معركة غزَّة ، ثم معركة الرَّيدانيَّة .

وتعود الأسباب الَّتي أدَّت إلى هزيمة المماليك ، وانتهاء دولتهم ، وانتصار العثمانيِّين ، وعلو نجمهم إلى :

١ ـ التَّفوُّق العسكري لدى العثمانيِّين : فسلاح المدفعيَّة المملوكي كان يعتمد على مدافع ضخمة ثابتة لا تتحرَّك ، في حين كان سلاح المدفعيَّة العثماني يعتمد على مدافع خفيفة يمكن تحريكها في كلِّ الاتجاهات .

٢ ـ سلامة الخطط العسكرية العثمانيَّة : فرغم قطع العثمانيِّين لمسافاتٍ طويلةٍ في سرعةٍ اضطروا إليها ، ومحاربتهم في أرضٍ يسيطر عليها عدوُّهم ، ومباغتتهم للمماليك ، كلُّ ذلك كان ممَّا يدخل في عوامل النَّصر ، ومن سلامة التَّخطيط أيضاً استدارة القوات العثمانيَّة من خلف مدافع المماليك الثَّقيلة الحركة ـ إذا أريد تحريكها ـ ودخول هذه القوات العثمانيَّة القاهرة عن طريق المقطَّم ممَّا شلَّ دور المدفعيَّة المملوكيَّة ، وأحدث بالتَّالي الاضطراب في صفوف الجيش المملوكي ، لتدافعهم بلا انتظامٍ خلف العثمانيِّين .

٣ ـ معنويات الجيش العثماني العالية ، وتربيته الجهاديَّة الرَّفيعة ، واقتناعه بأنَّ حربه عادلةٌ بعكس القوات المملوكيَّة ؛ الَّتي فقدت تلك الصِّفات .

٤ ـ حرص الدولة العثمانيَّة على الالتزام بالشَّرع في جميع نواحي حياتها ، واهتمامها البالغ بالعدل بين رعايا الدَّولة ، بعكس الدَّولة المملوكيَّة الَّتي انحرفت عن الشَّريعة الغرَّاء ، ومارست الظُّلم على رعاياها(٢) .

٥ ـ قناعة مجموعةٍ قياديَّةٍ من أمراء المماليك بالانضمام لجيش السُّلطان سليم ، وكانوا مستعدِّين للتَّعاون مع الدَّولة العثمانيَّة ، وتحمُّل مسؤوليَّة الحكم تحت إطار

---

(١) انظر : العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، ص(٣٠) .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص(٣١) .

الحكم العثمانيِّ ، ومن أمثال هؤلاء : فاير بك الَّذي أسند إِليه سليم الأوَّل حكم مصر ، وجان برد الغزالي الَّذي تولَّى حكم دمشق[١] .

لقد تلقَّى المماليك الهزيمة في سنة ١٥١٦/١٥١٧م وهم في شيخوخة دولتهم ، وفي آخر صفحةٍ من صفحات تاريخهم ، كقوَّة إِسلاميَّة كبرى سواءٌ في الشَّرق الأوسط ، أو في العالم ، قد كانوا فقدوا حيويَّتهم ، وقدرتهم على تجديد شبابهم ، فكان أن زالت دولتهم ، وذهبت البلاد الَّتي كانت تحت حكمهم للنُّفوذ العثماني[٢] .

وقد نقل الدُّكتور علي حسون عن الجبرتي من كتابه « تاريخ عجائب الآثار في التَّراجم والأخبار » في المجلَّد الأول وصفاً لفترة حكم العثمانيِّين في مصر إِبَّان عهد سلاطينهم العظماء ، أقتطف بعضاً منها :

(. . وعادت مصر إِلى النِّيابة ، كما كانت في صدر الإِسلام ، ولما خلص له (أي : السُّلطان سليم) أمر مصر ، عفا عمَّن بقي من الجراكسة ، وأبنائهم ، ولم يتعرَّض لأوقاف السَّلاطين المصريَّة ، بل قرَّر مرتَّبات الأوقاف ، والخيرات ، والعلوفات ، وغلال الحرمين ، والأنبار ، ورتَّب للأيتام ، والمشايخ ، والمتقاعدين ، ومصارف القلاع ، والمرابطين ، وأبطل المظالم ، والمكوس ، والمغارم ، ولمَّا توفي تولى ابنه الغازي السُّلطان سليمان عليه الرَّحمة ، والرِّضوان ، فأسَّس القواعد ، وأتمَّ المقاصد ، ونظَّم الممالك ، وأنار الحوالك ، ورفع منار الدِّين ، وأخمد نيران الكافرين . . لم تزل البلاد منتظمةً في سلكهم ، ومنقادةً تحت حكمهم . . وكانوا في صدر دولتهم من خير مَنْ تقلَّد أمور الأمَّة بعد الخلفاء المهديِّين ، وأشدِّ من ذبَّ عن الدِّين ، وأعظم من جاهد في المشركين ، فلذلك اتَّسعت ممالكه بما فتحه الله على أيديهم وأيدي نوَّابهم . . هذا مع عدم إِغفالهم الأمر ، وحفظ النَّواحي ، والثُّغور ، وإِقامة الشَّعائر الإِسلاميَّة ، والسنن المحمَّديَّة ، وتعظيم العلماء ، وأهل الدِّين ، وخدمة الحرمين الشَّريفين)[٣] .

(١) انظر : الشُّعوب الإِسلاميَّة ، د . عبد العزيز نوَّار ، ص(٩٣) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٩٢) .
(٣) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، ص(٦٣) .

(ب) مسألة انتقال الخلافة :

إن مسألة انتقال الخلافة إلى آل عثمان ترتبط بالفتح العثماني لمصر ، وقد قيل : إنَّ آخر الخلفاء العباسيِّين في القاهرة قد تنازل لسليم عن الخلافة ، فالمؤرِّخ ابن إياس المعاصر لضمِّ العثمانيِّين لمصر لم يتطرَّق إليها ، كما أنَّ الرسائل الَّتي أرسلها السُّلطان سليم إلى ابنه سليمان لم ترد فيها أيَّةُ إشارةٍ لتنازل الخليفة عن لقبه للسُّلطان ، كما أنَّ المصادر المعاصرة لا تشير إلى مسألة نقل الخلافة إلى آل عثمان الَّذين لا ينتسبون إلى الرَّسول ﷺ .

إنَّ الواقع التَّاريخي يقول بأنَّ السُّلطان سليماً الأوَّل أطلق على نفسه لقب « خليفة الله في طول الأرض وعرضها » منذ عام ١٥١٤م (٩٢٠هـ) أي : قبل فتحه للشَّام ، ومصر ، وإعلان الحجاز خضوعه لآل عثمان .

فالسُّلطان سليم وأجداده كانوا قد كسبوا مكانةً عظيمةً تلائم استعمال لقب الخلافة ؛ في الوقت الَّذي كان فيه مركز الخليفة في القاهرة لا يعتدُّ به . كما أنَّ فتوح سليم أكسبته قوَّةً ، ونفوذاً معنوياً وماديّاً ، وخصوصاً بعد دخول الحرمين الشَّريفين تحت سلطانه ، وأصبح السُّلطان العثماني مقصداً للمستضعفين المسلمين ؛ الَّذين يتطلَّعون إلى مساعدته بعد أن هاجم البرتغاليُّون الموانئ الإسلاميَّة في آسيا ، وإفريقية .

ملخص المبحث : أنَّ السُّلطان سليماً لم يكن مهتمّاً بلقب الخلافة ، وكذلك سلاطين آل عثمان من بعده، وأنَّ الاهتمام بهذا اللَّقب قد عاد بعد ضعف الدَّولة العثمانيَّة(١) .

(جـ) أسباب انهيار الدَّولة المملوكيَّة :

هناك مجموعةٌ من العوامل تجمَّعت ، وساعدت في وضع نهايةٍ لدولة المماليك ، أهمُّها :

١ ـ عدم تطوير المماليك أسلحتهم ، وفنونهم القتاليَّة ، فبينما كان المماليك يعتمدون على نظام الفروسيَّة ؛ الَّذي كان سائداً في العصور الوسطى ؛ كان العثمانيُّون يعتمدون على استخدام الأسلحة النَّارية ، وبخاصَّةٍ المدفعيَّة .

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة في التَّاريخ الإسلامي الحديث ، ص(٦١ ، ٦٢) .

٢ ـ كثرة الفتن ، والقلاقل ، والاضطرابات بين المماليك حول ولاية الحكم ؛ ممَّا أدَّى إلى عدم استقرار الحكم في أحرج الأوقات .

٣ ـ كُرْهُ الرَّعايا للسَّلاطين المماليك ؛ الَّذين كانوا يشكِّلون طبقةً أرستقراطيَّةً مترفِّعةً منعزلةً عن الشُّعوب .

٤ ـ وقوع بعض الانشقاقات بين صفوف المماليك ، كما فعل والي حلب « خاير بك وجانبرد الغزالي » مما أدَّى إلى سرعة انهيار الدَّولة المملوكيَّة .

٥ ـ سوء الأحوال الاقتصاديَّة ، وبخاصَّةٍ عندما تغيَّرت طرق التُّجارة المارَّة بمصر ، واكتشاف طريق رأس الرَّجاء الصَّالح .

٦ ـ العامل الجامع للأسباب السَّابقة : ضعف التزام المماليك بمنهج الله ، ويقابله قوَّة تمسُّك العثمانيِّين بشرع الله[١] .

(د) خضوع الحجاز للعثمانيِّين :

كانت الحجاز تابعةً للمماليك ، وعندما علم شريف مكَّة بمقتل السُّلطان الغوري ، ونائبه طومان باي ، بادر شريف مكَّة « بركات بن محمَّد » إلى تقديم السَّمع ، والطَّاعة إلى السُّلطان سليم الأوَّل ، وسلمه مفاتيح الكعبة ، وبعض الآثار ، فأقرَّ السُّلطان سليم شريف الحجاز بركات باعتباره أميراً على مكَّة ، والحجاز ، ومنحه صلاحياتٍ واسعةً[٢] .

وبذلك أصبح السُّلطان سليم خادماً للحرمين الشَّريفين ، وأصبحت مكانته أقوى أمام الشُّعوب الإسلاميَّة ، وبخاصَّةٍ : أن الدَّولة أوقفت أوقافاً كثيرةً على الأماكن المقدَّسة ، وكانت إيراداتها تصبُّ في خزانةٍ مستقلَّةٍ بالقصر السُّلطاني ، وقد أدَّى ضمُّ الحجاز إلى العثمانيِّين إلى بسط السِّيادة العثمانيَّة في البحر الأحمر ممَّا أدى إلى دفع الخطر البرتغاليِّ عن الحجاز ، والبحر الأحمر ، واستمرَّ هذا حتَّى نهاية القرن الثامن عشر[٣] .

---

(١) انظر : تاريخ العرب الحديث ، مجموعةٌ من العلماء ، ص(٤٠) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص(٤١) .

(هـ) اليمن :

بعد انهزام المماليك قدم حاكم اليمن المملوكيُّ الجركسيُّ (إسكندر) وفداً إلى السُّلطان سليم ليقدِّم فروض الولاء والطَّاعة له ، فوافق السُّلطان العثمانيُّ على إبقائه في منصبه ، وكانت اليمن تشكِّل بُعداً استراتيجيّاً ، وتعتبر مفتاح البحر الأحمر ، وفي سلامتها سلامةٌ للأماكن المقدَّسة في الحجاز ، وكانت السَّيطرة العثمانيَّة في بداية الأمر ضعيفةً ، بسبب الصِّراعات الدَّاخليَّة بين القادة والمماليك إلى جانب نفوذ الإمامة الزَّيديَّة بين قبائل الجبال ، هذا فضلاً عن الخطر البرتغاليِّ ؛ الَّذي كان يهدِّد السَّواحل اليمنيَّة ، وهذا دفع السُّلطان إلى إرسال قوَّةٍ بحريَّة إلا أنَّها فشلت بسبب النِّزاع الَّذي دبَّ بين قائدها « حسين الرُّومي » متصرِّف جدة و« الرَّيس سلمان » أحد قادة البحر العثمانيِّين(١) .

ثمَّ أرسل السُّلطان سليمان حملة « سليمان باشا أرناؤوطي » سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م وقد ضمَّت الحملة ٧٤ سفينةً و٢٠,٠٠٠ شخصٍ ، وكان هدف الحملة احتلال اليمن وبخاصَّةٍ عدن ثمَّ إغلاق مضيق باب المندب أمام السُّفن البرتغاليَّة ، ودخل العثمانيون عدن عام ٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م ، وتعز عام ٩٥٢هـ/ ١٥٤٥م ، وسقطت صنعاء في قبضتهم عام ٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م وتحرَّك « سلمان باشا » بأسطوله ليستولي على بعض الموانئ العربيَّة في حضرموت ، ومنها « الشَّحر ، والمكلا » واجتاح ساحل الحبشة ، وسواكن ، ومصوع على الجانب الغربيِّ من البحر الأحمر ٩٦٤هـ/ ١٥٥٧م .

وقد ظلَّت اليمن في فترة خضوعها للحكم العثماني (١٥٣٨ ـ ١٦٣٥م) تتنازعها قوى العثمانيِّين والأئمَّة الزَّيدية ، فالعثمانيُّون لم يستطيعوا أن يضمنوا سيطرةً حقيقيَّةً على البلاد نتيجةً لحركة المقاومة الَّتي تواجههم(٢) .

وقد ظلَّت اليمن في فترة هيمنة الدَّولة العثمانيَّة عليها (١٥٣٨ ـ ١٦٣٥م) تتنازعها قوى العثمانيِّين والأئمَّة الزَّيديَّة ، فالعثمانيُّون لم يستطيعوا أن يسيطروا كلِّيّاً

---

(١) انظر : تاريخ العرب الحديث ، ص(٤١) .
(٢) المصدر السابق نفسه .

على البلاد بسبب تمرُّد بعض القبائل[١] .

واستفاد العثمانيُّون من وجودهم في اليمن ، فقاموا بحملاتٍ بحريَّةٍ إلى الخليج بقصد تخليصه من الضَّغط البرتغالي[٢] .

ثالثاً : الصراع العثماني البرتغالي :

قامت دولة البرتغال في عام ١٥١٤م بتحريك حملةٍ على المغرب الأقصى يتزعَّمها الأمير هنري الملاح ، واستطاعت تلك الحملة أن تحتلَّ ميناء سبتة المغربي ، وكان ذلك بداية لسلسلةٍ من الأعمال العدوانيَّة المتتالية[٣] ثمَّ واصلت البرتغال حملاتها على الشمَّال الأفريقي حتى تمكنت من الاستيلاء على أصيل ، والعرائش ، ثمَّ طنجة في عام ١٤٧١ للميلاد[٤] . وواصلت بعد ذلك أطماعها في مراكز هامَّةٍ جدَّاً مثل ميناء « أسفى ، وأغادير ، وأزمورة ، وماسة »[٥] .

وأما عن توجه البرتغال إلى المحيط الأطلسي ، ومحاولتهم الالتفاف حول العالم الإسلامي ، فقد كان العمل مدفوعاً بالدَّرجة الأولى بدوافع صليبيَّة شرسة ضدَّ المسلمين ، حيث اعتبرت البُرتغال : أنَّها نصيرة المسيحيَّة ، وراعيتها ضدَّ المسلمين ، حيث اعتبرت قتال المسلمين ضرورةً ماسَّةً ، وصارمة ، ورأت الإسلام هو العدوُّ اللَّدود الَّذي لا بدَّ من قتاله في كلِّ مكانٍ[٦] .

وكان الأمير هنري الملاح شديد التعصُّب للنَّصرانيَّة ، عظيم الحقد على المسلمين ، وقد تحصَّل هذا الأمير من البابا نيقولا الخامس حقَّاً في جميع كشوفه حتَّى بلاد الهند ، حيث قال : (إنَّ سرورنا العظيم إذ نعلم أنَّ ولدنا هنري أمير البرتغال ، إذ يترسَّم خطى والده العظيم الملك يوحنَّا ، وإذ تلهمه الغيرة الَّتي تملك

(١) انظر : تاريخ العرب الحديث ، مجموعة من الأساتذة ، ص(٤٢) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) التَّاريخ الأوربيُّ الحديث في عصر النهضة إلى مؤتمر فينَّا ، د . عبد العزيز نوَّار ، ص(٤٨) .
(٤) انظر : الكشوف الجغرافيَّة ، شوقي عبد الله ، ص(٩٩ ، ١٠٠) .
(٥) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٩٩ ، ١٠٠) .
(٦) انظر : آسيا الوسطى المغربيَّة ، بانيكار ، ص(٢٤ ، ٢٥) .

الأنفس كجندي باسل من جنود المسيح ، قد دفع باسم الله إلى أقاصي البلاد ، وأبعادها عن مجال علمنا ، كما أدخل بين أحضان الكاثوليكيَّة الغادرين من أعداء الله ، وأعداء المسيح مثل العرب ، والكفرة . .)[١] .

وقال البوكرك في خطابه الَّذي ألقاه على جنده بعد وصوله إلى « ملقا » ما نصُّه : (إنَّ إبعاد العرب عن تجارة الأفاوية هي الوسيلة الَّتي يرجو بها البرتغاليُّون إضعاف قوَّة الإسلام) .

وفي نفس الخطبة قال : (الخدمة الجليلة الَّتي سنقدِّمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد ، وبإطفائنا شعلة شيعة محمَّدٍ بحيث لا يندلع لها هنا بعد ذلك لهيبٌ ، وذلك لأنِّي على يقينٍ أنَّنا لو انتزعنا تجارة « ملقا » هذه من أيديهم (يقصد المسلمين) لأصبحت كلٌّ من القاهرة ، ومكَّة أثراً بعد عينٍ ، ولامتنعت عن البندقيَّة كلُّ تجارة التَّوابل مالم يذهب تجَّارها إلى البرتغال لشرائها من هناك)[٢] .

وقال في يوميَّاته : (كان هدفنا الوصول إلى الأماكن المقدَّسة للمسلمين ، واقتحام المسجد النَّبويِّ ، وأخذ رفات النَّبيِّ محمَّد ﷺ رهينةً ، لنساوم عليها العرب من أجل استرداد القدس)[٣] .

وقال ملك البرتغال عمانويل الأوَّل معلناً أهداف الحملات البرتغاليَّة : إنَّ الغرض من اكتشاف الطَّريق البحري إلى الهند هو نشر النَّصرانية ، والحصول على ثروات الشَّرق[٤] .

وهكذا يظهر للباحث المنصف : أنَّ الدَّافع الدِّينيَّ للكشوف البرتغاليَّة كان من أهم العوامل الَّتي دفعت البرتغال لارتياد البحار ، والالتفاف حول العالم الإسلامي ، فصدرت المراسيم ، والأوامر ، ورُسِم الصَّليب والمدافع كشعار للحملات ، وكان القصد من ذلك : أنَّ على المسلمين اعتناق المسيحيَّة ، وإلا عليهم مواجهة المدافع .

---

(١) دراسات متميِّزة في العلاقات بين الشَّرق والغرب ، يوسف الثقفي ، ص(٥٨) .
(٢) انظر : دراسات متميِّزة ، ص(٥٩) .
(٣) انظر : الدَّولة العثمانيَّة دولة إسلاميَّة مفترى عليها (٢/ ٦٩٨) .
(٤) انظر : موقف أوربة من الدَّولة العثمانيَّة ، د . يوسف الثقفي ، ص(٣٧) .

وكان الدَّافع الاقتصاديُّ في الدَّرجة الثَّانية ، كعاملٍ مؤثِّرٍ في سير الكشوف الجغرافيَّة البرتغاليَّة ، فقد سهل اكتشاف طريق رأس الرَّجاء الصَّالح في عام ٩٠٤هـ/١٤٩٧م بواسطة فاسكو دي جاما مهمَّة وصول منتجات الشَّرق الأقصى للأسواق الأوربيَّة دون الحاجة إِلى مرورها عن طريق مصر ، ولهذا ساعد تحويل الخط التِّجاري عن مناطق العبور العربيَّة والإِسلاميَّة ؛ على تحقيق الهدف الدِّيني ، وذلك لما للمجال الاقتصاديِّ من أثرٍ فعَّالٍ في إِضعاف القوَّة الإِسلاميَّة الَّتي كان لها أبلغ الأثر في زعزعة أوربة خلال عدَّة قرون ، فضلاً عن الرُّكود الاقتصاديِّ ؛ الذي مُنيت به الدَّولة المملوكيَّة بسبب هذا التحوُّل المفاجئ(١) .

وممَّا يجدر ذكره : أنَّ البرتغاليِّين استعانوا في حملاتهم باليهود الَّذين استُخدموا كجواسيس ، وقد ساعدهم في ذلك معرفتهم باللغة العربيَّة ، وعلى سبيل المثال فقد أرسل ملك البرتغال يوحنَّا الثَّاني خادمه الخاصَّ ، ومعه رفيقٌ آخر يهوديٌّ إِلى مصر ، والهند ، والحبشة ، وكان من نتائج رحلتهما تقديمهما تقريراً يتضمَّن بعض الخرائط العربيَّة عن المحيط الهنديِّ(٢) .

وذكر ابن إِياس : أنَّه في زمن الشَّريف بركات أمير مكَّة تسلَّل ثلاثة أشخاص إِلى مكَّة ، وكانوا يحومون حول المسجد الحرام ، وعليهم لباسٌ عثمانيٌّ ويتحدَّثون العربيَّة ، والتُّركيَّة ، فأمر بالقبض عليهم وبالكشف عن أجسامهم اتَّضح أنَّهم مسيحيُّون لأنهم كانوا بغير ختان ، وبعد التَّحقيق معهم ظهر : أنَّهم جواسيس ، أرسلوا للعمل كأدلاء للجيش البرتغالي الصَّليبي عند دخوله لمكَّة ، وتمَّ بعد ذلك إِرسالهم إِلى السُّلطان قانصوه الغوري(٣) .

ولتحقيق الأهداف البرتغاليَّة رأى روَّاد الكشوف وساستهم ضرورة التحكُّم في مضيقي « هرمز » و« باب المندب » لكي يُحكم أعداء الإِسلام غزوهم للعالم الإِسلاميِّ من الخلف ، ودقِّ عصب الاقتصاد في المناطق العربيَّة والإِسلاميَّة ، ثمَّ

---

(١) دراسات متميِّزة ، ص(٦٠ ، ٦١) .
(٢) انظر : أوربة في مطلع العصور الحديثة ، للشنَّاوي ، (١/١٢٣) .
(٣) انظر : بدائع الزُّهور في وقائع الدُّهور (٤/١٩١) .

بالتالي نشر المسيحيَّة في كلِّ موقعٍ يصلون إليه[١] .

ونجح البرتغاليُّون في خططهم ، وتمكَّنوا من السيطرة على معابر التِّجارة في السَّاحل الأفريقي ، والخليج العربي ، وبحر العرب ، وقاموا بمنع وصول المنتجات الشَّرقيَّة إلى أوربة عن طريقها ، وقد ساعدهم في تحقيق ذلك عدم وجود منافس بحريٍّ لهم ، ممَّا سهَّل لهم السَّيطرة على المراكز الهامَّة بيسرٍ ، وسهولةٍ ، ثمَّ لم يتورع البرتغاليُّون بعد ذلك عن استخدام العنف ، فشهدت المناطق الَّتي وصلوا إليها ، واحتلُّوها الكثير من المجازر ، وإشعال النِّيران ، والتَّدمير ، والاعتداء على حرمات النَّاس ، ومنع المسلمين من الذَّهاب إلى الحجِّ ، وهدم المساجد عليهم[٢] .

أمَّا عن موقف المسلمين من هذا الغزو الغاشم فقد كان المماليك آنذاك في موقفٍ لا يحسدون عليه ، حيث أصابهم الوهن الاقتصادي ، والسِّياسي ، وانشغل السَّلاطين بمشاكلهم الدَّاخلية ، ومجابهة الدَّولة العثمانيَّة ، وقمع نشاط الفرسان الإسبارتيَّة في شرق البحر الأبيض المتوسط[٣] ، ولهذا واجه السُّكان في السَّاحل الأفريقي ، والخليج ، واليمن مصيرهم بأنفسهم ، فهاجموا الحاميات البرتغاليَّة في كلِّ مكانٍ ، في شرق أفريقية ، وفي مسقط ، والبحرين ، وقريات ، وعدن ، ولكن دون جدوى لاختلاف ميزان القوى[٤] .

ثمَّ إنَّ المماليك شعروا بالمسؤوليَّة على الرَّغم من المشاكل الَّتي كانت تعيشها دولتهم ، وبذلوا ما في استطاعتهم للحدِّ من وصول البرتغاليِّين إلى الأماكن المقدَّسة ، فقام السُّلطان قانصوه الغوري بإرسال حملةٍ بحريَّةٍ مكوَّنةٍ من ثلاث عشرة سفينةً عليها ألفٌ وخمسمئة رجلٍ بقيادة حسين الكردي ؛ الذي وصل إلى جزيرة « ديو » ثم « شول » والتقى مع الأسطول البرتغالي بقيادة « الونز دي الميدا » وذلك في عام ٩١٤هـ/١٥٠٨م فكان النَّصر حليفه[٥] ، ثمَّ إنَّ البرتغال عزَّزوا قوَّاتهم ،

(١) انظر : موقف أوربة من الدَّولة العثمانيَّة ، ص(٣٨) .
(٢) انظر : علاقة ساحل عمان ببريطانيا ، عبد العزيز عبد الحيِّ ، ص(١٩) .
(٣) انظر : دراسات في التَّاريخ المصري ، أحمد سيِّد درَّاج ، ص(١١٤) .
(٤) انظر : موقف أوربة من الدَّولة العثمانيَّة ، ص(٣٨) .
(٥) انظر : بدائع الزهور في وقائع الدُّهور (٤/ ١٤٢) .

وأعادوا الكرة مرَّةً أخرى ، ممَّا أدى إلى هزيمة الأسطول الإسلاميِّ سنة ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م في معركة « ديو » المشهورة في التَّاريخ[١] .

أما عن الدَّولة العثمانيَّة فكانت في البداية بعيدةً عن ساحة المعركة ، ويفصل بينها وبين البرتغال دولة المماليك ، والدَّولة الصَّفويَّة ، ومع ذلك لبَّى السُّلطان بايزيد الثاني طلب السُّلطان الغوري مساعدته ضدَّ البرتغال ، فأرسل في شهر شوَّال سنة ٩١٦هـ/ ١٥١١م عدَّة سفنٍ محمَّلةٍ بالمكاحل ، والأسهم ، وأربعين قنطاراً من البارود ، وغير ذلك من المستلزمات العسكريَّة ، والأموال اللازمة[٢] . ولكن هذه المساعدة لم يكتب لها الوصول سالمةً بسبب تعرُّضها لقرصنة فرسان القدِّيس يوحنَّا[٣] .

وبعد أن ضمَّ العثمانيُّون بلاد مصر ، والشَّام ، ودخلت البلاد العربيَّة تحت نطاق الحكم العثماني واجهت الدَّولة العثمانيَّة البرتغاليِّين بشجاعةٍ نادرةٍ ، فتمكنت من استرداد بعض الموانئ الإسلاميَّة في البحر الأحمر مثل : مصوع ، وزيلع ، كما تمكَّنت من إرسال قوَّةٍ بحريَّةٍ بقيادة مير علي بك إلى السَّاحل الأفريقيِّ ، فتم تحرير مقديشو ، وممبسة ، ومُنيت الجيوش البرتغاليَّة بخسائر عظيمةٍ[٤] .

وفي عهد السُّلطان سليمان القانوني ٩٢٧ ـ ٩٧٤هـ/ ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦م تمكَّنت الدَّولة العثمانيَّة من إبعاد البرتغاليِّين عن البحر الأحمر ، ومهاجمتهم في المراكز الَّتي استقرُّوا بها في الخليج العربيِّ .

لقد أدرك السلطان سليمان : أنَّ مسؤوليَّة الدِّفاع عن الأماكن المقدَّسة هي مسؤوليَّة الدَّولة العثمانيَّة ، فبادر بعقد اتفاقٍ مع حاكمي « قاليقوط » و« كامباي » وهما الحاكمان الهنديان اللَّذان تأثَّرا من الغزو البرتغالي ، وكان ذلك الاتفاق ينصُّ على العمل المشترك ضدَّ البرتغال ، ثمَّ أعقب ذلك الاتِّفاق إصداره مرسوماً إلى سليمان باشا الخادم والي مصر هذا نصُّه : (عليك يا بيك البكوات بمصر سليمان باشا أن تقوم فور تسلمك أوامرنا هذه ، بتجهيز حقيبتك ، وحاجتك ، وإعداد العدَّة

---

(١) انظر : النفوذ البرتغالي في الخليج العربيِّ ، نوال صيرفي ، ص(١٠٦) .
(٢) انظر : المماليك الفرنج ، أحمد سيِّد درَّاج ، ص(١١٥) .
(٣) انظر : تاريخ كشف أفريقية ، واستعمارها ، شوقي الجمل ، ص(١٧٢) .
(٤) انظر : موقف أوربة من الدَّولة العثمانيَّة ، ص(٣٩) .

بالسُّويس للجهاد في سبيل الله ، حتَّى إذا تهيَّأ لك إعداد أسطول ، وتزويده بالعتاد ، والميرة ، والذَّخيرة ، وجمع جيش كافٍ ، فعليك أن تخرج إلى الهند وتستولي ، وتحافظ على تلك الأجزاء ، فإنَّك إذا قطعت الطَّريق ، وحاصرت السُّبل المؤدِّية إلى مكَّة المكرَّمة تجنبت سوء ما فعل البرتغاليُّون ، وأزلت رايتهم من البحر)(١) .

وقام سليمان الخادم بتنفيذ أوامر السُّلطان العثمانيِّ ، ووصل بعد سبعة أيام إلى جدَّة ثمَّ اتجه إلى كمران ، وبعد ذلك سيطر على عدن ، وعيَّن عليها أحد ضباطه ، وزوَّدها بحاميةٍ بلغ عدد جنودها ستمئة جنديٍّ ، ثمَّ واصل سيره إلى الهند ، وعند وصوله إلى ديو لم يتمكَّن من الاستيلاء عليها ، وانسحب عائداً بعد أن فقد حوالي أربعمئة من رجاله ، وحاول مرَّةً أخرى الاستيلاء على القلاع الأماميَّة حتَّى استسلمت إحداها ، وتمَّ أسر ثمانين برتغالياً ، ولولا الإمدادات الجديدة للجيش البرتغالي ؛ لاستسلمت جميع القلاع ، وتمَّ طرد البرتغاليِّين من الهند ، ولخضعت قلعة ديو للعثمانيِّين خضوعاً تاماً(٢) .

وهكذا تمكَّن العثمانيُّون من صدِّ البرتغال، وإيقافهم بعيداً عن الممالك الإسلاميَّة، والحدِّ من نشاطهم ، وهكذا نجحت الدَّولة العثمانيَّة في تأمين البحر الأحمر، وحماية الأماكن المقدَّسة من التوسُّع البرتغالي المبني على أهدافٍ استعماريَّةٍ، وغاياتٍ دنيئةٍ، ومحاولاتٍ للتَّأثير على الإسلام والمسلمين بطرقٍ مختلفةٍ.

إن النجاح الذي حقَّقته الدَّولة العثمانيَّة في درء الخطر البرتغالي على العالم الإسلاميِّ يستحقُّ كلَّ تقديرٍ وثناءٍ ، فدولة المماليك المتهالكة كانت على وشك الانهيار ، ولم تكن على مستوى من القوَّة يكفل لها الوقوف أمام الغزو البرتغاليِّ ، فتحمَّلت الدولة العثمانيَّة أعباء الدِّفاع عن حقوق المسلمين ، وممتلكاتهم ، ونجحت أيَّما نجاحٍ في الحدِّ من مطامع الغزاة ، ووصولهم إلى الأماكن المقدَّسة ، كما كانوا يرغبون(٣) .

---

(١) انظر : موقف أوربة من الدَّولة العثمانيَّة ، ص(٤٠) .
(٢) انظر : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، غسان الرَّمال ، ص(٢٢٦) .
(٣) انظر : موقف أوربة من الدَّولة العثمانيَّة ، ص(٤٠) .

أمَّا عن الدولة الصَّفويَّة ؛ فقد تخلَّت عن مساعدة سكان المناطق الَّتي وصل إليها الغزو البرتغالي ، فتركت مدن الخليج العربيِّ تواجه مصيرها بنفسها ، وزادت على ذلك أن سارت الدَّولة الصَّفويَّة في فلك الأعداء ، ولبَّت رغباتهم خاصَّةً : أنَّها على عداءٍ ، وخلافٍ مذهبيٍّ مع المماليك ، والدَّولة العثمانيَّة ، ولذلك نجد البوكيرك القائد البرتغاليَّ يستغلُّ هذا الموقف ، ويرسل في عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م مبعوثه « روي جومير » ومعه رسالة ذكر فيها : (إنِّي أقدِّر لك احترامك للمسيحيِّين في بلادك ، وأعرض عليك الأسطول ، والجند ، والأسلحة لاستخدامها ضدَّ قلاع التُّرك في الهند ، وإذا أردت أن تنقضَّ على بلاد العرب ، أو أن تهاجم مكَّة فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدَّة ، أو في عدن ، أو في البحرين ، أو في القطيف أو في البصرة ، وسيجدني الشَّاه بجانبه على امتداد السَّاحل الفارسي ، وسأنفِّذ له كلَّ ما يريد)[١] .

وقد صادف هذا العرض ، أو هذا الموقف الفترة الَّتي كانت القوَّات العثمانيَّة تتوجَّه فيها لمجابهة الصَّفويِّين على الحدود ، حيث كانت بعد ذلك معركة جالديران سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م الَّتي انهزم فيها الفرس هزيمةً ساحقةً أمام الجيش العثمانيِّ ، ممَّا جعلهم ـ أي : الفرس ـ أكثر استعداداً للتحالف مع البرتغاليِّين ضدَّ العثمانيِّين ، فكانت فرصة البرتغال الَّتي لا تعوَّض لا سيما وأنَّهم يدركون مدى الخطر الَّذي يُهدِّدهم ، ويقلق أمنهم من قبل الدَّولة العثمانيَّة ، فاستغلُّوا احتلالهم لهرمز عام ٩٢١هـ/ ١٥١٥م وارتبطوا بعد ذلك مباشرة مع الصَّفويِّين بمعاهدةٍ كان من أهمِّ بنودها : تقديم البرتغال أسطولها لمساعدة الشَّاه في حملته على البحرين ، والقطيف مقابل اعتراف الشَّاه بالحماية البرتغاليَّة على هرمز ، وتوحيد القوَّتين في حالة المواجهة مع الدَّولة العثمانيَّة عدوِّهما المشترك[٢] .

ويظهر أنَّ البرتغال رأوا في تحالفهم مع الصَّفويِّين وسيلةً تحقِّق عدم الوفاق بين الدُّول الإسلاميَّة الَّتي فيما لو اتَّحدت ضدَّها لما تمكَّنت من السَّيطرة على مقدَّرات الشُّعوب في مناطق الخليج ، والبحر الأحمر ، وعدن ، وغير ذلك من الأماكن الَّتي

---

(١) التَّيارات السِّياسيَّة في الخليج العربي ، صلاح العقاد ، ص(١٧) .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص(٩٨) .

خضعت للسَّيطرة البرتغاليَّة ؛ ومن جهةٍ أخرى فإنَّ التَّحالف الصَّفويَّ البرتغاليَّ ، والوضع السياسيَّ ، والاقتصاديَّ المتدهور لدى دولة المماليك ، كلُّ ذلك جعل الدَّولة العثمانيَّة تتحمَّل المسؤوليَّة كاملةً في الدِّفاع عن الأماكن الإسلاميَّة في كلِّ موقعٍ حاول البرتغاليُّون الوصول إليه ، والسَّيطرة عليه(١) .

لقد كان من نتائج الصراع العثماني البرتغالي :

١ ـ احتفظ العثمانيُّون بالأماكن المقدَّسة وطريق الحجِّ .

٢ ـ حماية الحدود البرِّيَّة من هجمات البرتغاليِّين طيلة القرن السَّادس عشر .

٣ ـ استمرار الطُّرق التِّجارية الَّتي تربط الهند ، وأندونيسيا بالشَّرق الأدنى عبر الخليج العربيِّ ، والبحر الأحمر .

٤ ـ استمرار عمليَّات تبادل البضائع الهنديَّة مع تجَّار أوربة في أسواق حلب ، والقاهرة ، وإستانبول ، ففي سنة ١٥٥٤م اشترى البندقيُّون وحدهم ستة آلاف قنطار من التَّوابل ، في الوقت نفسه كانت تصل إلى ميناء جدَّة عشرون سفينةً محمَّلةً بالبضائع الهنديَّة (توابل ، أصباغ ، أنسجة)(٢) .

●● وفاة السُّلطان سليم :

في التَّاسع من شوَّال سنة ستٍّ وعشرين وتسعمئةٍ ليلة السَّبت توفِّي السُّلطان سليم ـ رحمه الله ـ فأخفى موته الوزراء ، وأرسلوا يعلمون ولده السُّلطان سليمان ، فلمَّا وصل إلى القسطنطينيَّة أعلنوا موت السُّلطان سليم ، وصلُّوا عليه في جامع السُّلطان محمَّد ، ثم حملوه ، ودفنوه في محلِّ قبره ، وأمر السُّلطان سليمان خان ببناء جامعٍ عظيمٍ ، وعمارةٍ لطعام الفقراء صدقةً على والده .

وكان رحمه الله عالماً فاضلاً ذكيّاً ، حسن الطَّبع ، بعيد الغور ، صاحب رأيٍ ، وتدبيرٍ ، وحزمٍ ، وكان يعرف الألسنة الثَّلاثة : العربيَّة ، والتُّركيَّة ، والفارسيَّة ، ونظَّم نظاماً بارعاً حسناً ، وكان دائم الفكر في أحوال الرَّعية ، والمملكة ، وقَهَر

---

(١) انظر : موقف أوربة من الدَّولة العثمانيَّة ، ص(٤١) .

(٢) انظر : تاريخ العرب الحديث ، مجموعة من العلماء ، ص(٤٥ ، ٤٦) .

الملوك ، وأبادهم ، ولمَّا كان بمصر كتب على رخام في حائط القصر الَّذي سكن فيه بخطِّه ، فقال :

المُلْكُ للهِ مَنْ يَظْفَرْ بِنَيْلِ مُنىً ... يُرَدِّدْهُ قَهْراً وَيَضْمَنْ بَعْدَهُ الدَّرَكَا
لَوْ كَانَ لِيْ أَوْ لِغَيْرِي قَدْرَ أُنْمُلَةٍ ... فَوْقَ التُّرابِ لَكَانَ الأَمْرُ مُشْتَرَكَا

توفِّي ـ رحمه الله تعالى ـ وله من العمر أربعٌ وخمسون سنةً ، وكانت مدَّة ملكه تسعة أعوامٍ وثمانية أشهر[1] .

* * *

(١) انظر : تاريخ سلاطين آل عثمان ، للقرماني ، ص(٤٠) .

المبحث الثَّالث

السُّلطان سليمان القانوني

ولد سليمان القانوني في مدينة (طرابزون) كان والده آنذاك والياً عليها ، اهتمَّ به والده اهتماماً عظيماً ، فنشأ محبّاً للعلم ، والأدب ، والعلماء ، والأدباء ، والفقهاء ، واشتهر منذ شبابه بالجدِّية ، والوقار ، ارتقى عرش السَّلطنة في السادسة والعشرين من عمره ، وكان متأنِّياً في جميع شؤونه ، ولا يتعجَّل في الأعمال الَّتي يريد تنفيذها ، بل كان يفكِّر بعمقٍ ، ثمَّ يقرر ، وإذا اتَّخذ قراراً لا يرجع عنه(١) .

أولاً : الفتن التي واجهته في بداية حكمه :

ابتلي سليمان في السَّنوات الأولى في عهده بأربعة تمرُّداتٍ شغلته عن حركة الجهاد ، حيث ظنَّ الولاة الطَّموحون : أنَّ فرصة الاستقلال بأقاليمهم حان وقتها ، فقام جان برد الغزالي والي الشَّام بتمرُّدٍ على الدَّولة ، وأعلن العصيان عليها ، وحاول أن يستولي على حلب إلا أنَّه فشل في ذلك ، وأمر السلطان سليمان بقمع الفتنة ، فقمعت ، وقطع رأس المتمرد جان برد وأرسل إلى إستانبول دلالةً على انتهاء التَّمرُّد .

وأمَّا التَّمرُّد الثاني فقد قام به أحمد شاه الخائن في مصر ، وكان هذا عام ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م وكان هذا الباشا طامعاً في منصب الصَّدر الأعظم ، ولم يفلح في تحقيق هدفه ، وطلب من السُّلطان أن يعيِّنه والياً على مصر ، فعيَّنه . وما أن وصل إلى مصر حتَّى حاول استمالة النَّاس ، وأعلن نفسه سلطاناً مستقلاً إلا أنَّ أهل الشَّرع ، وجنود الدَّولة العثمانيَّة من الإنكشاريَّة قاموا ضدَّ الوالي المتمرِّد ، وقتلوه ، وظلَّ اسمه في كتب التاريخ مقروناً باسم الخائن .

والتمرُّد الثَّالث ضد خليفة المسلمين هو تمرُّدٌ شيعيٌّ رافضيٌّ قام به بابا ذو النُّون عام ١٥٢٦م في منطقة يوزغاد ، حيث جمع هذا البابا ما بين ثلاثة آلافٍ وأربعة آلافِ

(١) انظر : السلاطين العثمانيُّون ، الكتاب المصوَّر ، ص(٥١) .

ثائر ، وفرض الخراج على المنطقة ، وقويت حركته حتَّى أنَّه استطاع هزيمة بعض القواد العثمانيِّين الَّذين توجَّهوا لقمع حركته ، وانتهت فتنة الشِّيعة هذه بهزيمة بابا ذو النُّون ، وأرسل رأسه إلى إستانبول .

والتمرُّد الرَّابع ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة في عهد سليمان القانوني كان تمرُّداً شيعيَّاً رافضيَّاً أيضاً ، وكان على رأسه قلندر جلبي في منطقتي قونية ، ومرعش ، وكان عدد أتباعه ٣٠,٠٠٠ شيعي قاموا بقتل المسلمين السُّنِّيِّين في هاتين المنطقتين ، ويقول بعض المؤرِّخين : أنَّ قلندر جلبي جعل شعاره أنَّ من قتل مسلماً سنِّيَّاً ويعتدي على امرأةٍ سنِّيَّةٍ يكون بهذا قد حاز أكبر الثَّواب .

توجه بهرام باشا لقمع هذا العصيان فقتله العصاة ، ثمَّ نجحت الحيلة معهم ؛ إذ أنَّ الصَّدر الأعظم إبراهيم باشا قد استمال بعض رجال قلندر جلبي ، فقلَّت قوَّاته ، وهزم ، وقتل .

بعد هذا هدأت الأمور في الدَّولة العثمانيَّة ، وبدأ السُّلطان في التَّخطيط لسياسة الجهاد في أوربة[١] .

ثانياً : فتح رودس :

كانت رودس جزيرةً مشاكسةً ؛ إذ كانت حصناً حصيناً لفرسان القدِّيس يوحنَّا ؛ الَّذين كانوا يقطعون طريق الحجَّاج المسلمين الأتراك إلى الحجاز ، فضلاً عن أعمالهم العدوانيَّة الموجَّهة لخطوط المواصلات البحريَّة العثمانيَّة ، فاهتمَّ السلطان سليمان بفتحها ، وأعدَّ حملةً عظيمةً ساعده على تحقيقها عدَّة أمور :

١ ـ انشغال أوربة بالحرب الكبرى بين شارل الخامس (كنت) إمبراطور الدَّولة الرُّومانيَّة المقدَّسة ، وفرانسوا ملك فرنسا .

٢ ـ عقد الصُّلح بين الدَّولة العثمانيَّة ، والبندقيَّة .

٣ ـ نمو البحريَّة العثمانيَّة على عهد سليم الأوَّل .

وشنَّ سليمان القانوني حرباً كبيرةً ضد رودس ابتداءً من منتصف عام ١٥٢٢م ،

---

(١) انظر : العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، د . محمد حرب ، ص(٩١) .

وفتحها ، وأعطى الفرسان حقَّ الانتقال منها ، فذهبوا إلى (مالطة) وهناك أعطاهم (شارل كنت) حقَّ حكم هذه الجزيرة[١] .

ثالثاً : قتال المجر وحصار فينا :

كان ملك المجر (فيلاديسلاف الثَّاني جاجليو) قد عزم على فكِّ أي تعهُّداتٍ كانت قد أعطيت من قبل أسلافه لسلاطين الدَّولة العثمانيَّة ، وذهب إلى حدِّ قتل مبعوث السُّلطان سليمان إليه . وكان المبعوث يطالب بالجزية السَّنويَّة المفروضة على المجر . ولهذا ردَّ سليمان في عام ١٥٢١م بغزوةٍ كبيرةٍ ضدَّ المجر ، ولكن استمرت المعارك حتَّى أحرز الأتراك انتصارهم الكبير ، في موقعة موهاكس عام ١٥٢٦م ، ودخل سليمان القانوني (بودا) في ١١ سبتمبر (أيلول) عم ١٥٢٦م ، واستمرَّت المقاومة الهنغارية رغم هذا ، وتابع السُّلطان ضغطه حتَّى بلغت جيوشه أسوار فينَّا عاصمة الإمبراطورية الرُّومانيَّة المقدَّسة عام ١٥٢٩م ، إلا أنَّ طول خطوط المواصلات ، وتحوُّل (شارل كنت) من قتال فرانسوا إلى التَّصالح معه للتفرُّغ لحرب العثمانيِّين ، ولإنقاذ عاصمة الهايسبورج جعل من المستحيل على سليمان القانوني فتح هذه العاصمة ، وتراجع عنها ، بينما استمرَّ الصِّراع بين سليمان ، والقوى الأوربيَّة المؤيِّدة لملك المجر من أجل السَّيطرة على هذه المملكة حتَّى وفاة سليمان .

على أنَّ أبرز حدثٍ تاريخيٍّ في السِّياسة الخارجيَّة العثمانيَّة على عهد سليمان القانوني هو علاقته مع فرانسوا ، تلك العلاقة الَّتي تحوَّلت إلى محالفة[٢] .

رابعاً : سياسة التَّقارب العثماني الفرنسي :

كان عهد السُّلطان سليمان القانوني يمثِّل رأس الهرم بالنِّسبة لقوَّة الدَّولة العثمانيَّة ومكانتها بين دول العالم آنذاك . ويعتبر عصر السُّلطان سليمان هو العصر الذَّهبي للدَّولة العثمانيَّة ، حيث شهدت سنوات حكمه من ٩٢٦ ـ ٩٧٢هـ ، الموافق ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦م توسُّعاً عظيماً لم يسبق له مثيلٌ ، وأصبحت أقاليم الدَّولة العثمانيَّة

---

(١) انظر : الشُّعوب الإسلاميَّة ، د . عبد العزيز نوَّار ص (١٤٧) .
(٢) المصدر السابق نفسه .

منتشرةً في ثلاث قاراتٍ عالميَّةٍ .

وكان لهذا البروز أثره على دول العالم المعاصرة ، وبالأخصِّ على دول أوربَّة ، الَّتي كانت تعيش انقساماتٍ سياسيَّةً ، ودينيَّةً خطيرةً ، ولهذا تنوَّعت مواقف الدُّول الأوربيَّة من الدَّولة العثمانيَّة حسب ظروف كلِّ دولة . وكان تشارلز الخامس ملك الإمبراطورية الرُّومانيَّة المقدَّسة ينافس فرانسوا الأوَّل ملك فرنسا على كرسي الحكم للإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة ، وكان البابا ليو العاشر منافساً للرَّاهب الألماني مارتن لوثر زعيم المقاومة البروتستانتيَّة[١] .

وكانت بلغراد تعاني من اضطراباتٍ داخليَّةٍ بسبب صغر سنِّ ملكها لويس الثَّاني ممَّا أدَّى إلى نشوب النِّزاع بين الأمراء[٢] .

ولهذا رأى فرانسوا الأوَّل أن يستغلَّ مكانة ، وقوَّة الدَّولة العثمانيَّة ، ويكسبها صديقاً له ، فوقف منه موقف التودُّد ، والرَّغبة في الوفاق معتقداً : أنَّ الدَّولة العثمانيَّة هي الَّتي ستحدُّ من طموحات تشارلز الخامس ، وتُوقفه عند حدِّه ، وممَّا يثبت هذا التَّوجُّه الفرنسي ما ذكره للسَّفير الفينسي عندما قال : (سعادة السَّفير لا يمكنني أن أنكر أنَّني أرغب بشدَّةٍ في أن أرى الأتراك أقوياء جداً ، ومستعدُّون للحرب ، ليس فقط لمصلحة السُّلطان العثمانيِّ الذَّاتيَّة ، بل لإضعاف قوَّة الإمبراطور تشارلز الخامس ، وتكليفه غالياً ، وإعطاء جميع الحكومات الأمن والأمان ضدَّ عدوٍّ عظيمٍ كهذا « الإمبراطور تشارلز »[٣] .

بدأت مفاوضات فرنسا مع الدَّولة العثمانيَّة بعد معركة « بافيا » الَّتي أُسر فيها ملك فرنسا « فرانسوا الأوَّل » عام ١٥٢٥م ، فأرسلت والدته والوصية على العرش مبعوثها « جون فرانجيباني » ومعه خطابٌ منها ، وخطاب من الملك الأسير ، يطلبان فيهما مهاجمة قوَّات عائلة الهايسبرج ، وإطلاق سراح الأسير[٤] .

---

(١) انظر : دراساتٌ متميِّزةٌ ، يوسف الثَّقفي ، ص(٩٢) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) انظر : موقف أوربة من الدَّولة العثمانيَّة ، ص(٤٧) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه .

وعلى الرَّغم من أنَّ الأسير أطلق بموجب معاهدة تمَّ عقدها في مدريد بين فرنسا وأسرة الهايسبرج سنة ١٥٢٦م إلا أنَّ فرانسوا بعد إطلاق سراحه أرسل في عام ٩٤١هـ/ ١٥٣٥م سكرتيره « جان دي لافوريه » إلى السُّلطان سليمان بهدف عقد تحالف في شكل معاهدةٍ[1] ، سُمِّيت فيما بعد بـ « معاهدة الامتيازات العثمانيَّة الفرنسيَّة » ، ونظراً لما ستكون عليه هذه المعاهدة من أهمِّيَّةٍ كبرى بعد ذلك نورد هنا أهمَّ نصوصها :

١ ـ حرِّيةُ التَّنقُّل والملاحة في سفنٍ مسلَّحةٍ وغير مسلَّحةٍ بحُرِّية تامَّةٍ .

٢ ـ حقُّ التِّجارة والمتاجرة في كلِّ أجزاء الدَّولة العثمانيَّة بالنِّسبة لرعايا ملك فرنسا .

٣ ـ تدفع الرُّسوم الجمركيَّة وغيرها من الضَّرائب مرَّةً واحدةً في الدَّولة العثمانيَّة .

٤ ـ الضَّرائب الَّتي يدفعها الفرنسيُّون في الدَّولة العثمانيَّة هي نفسها التي يدفعها الرَّعايا الأتراك .

٥ ـ حقُّ التَّمثيل القنصلي ، مع حصانةٍ قنصليَّةٍ له ، ولأقاربه ، وللعاملين معه .

٦ ـ من حقِّ القنصل الفرنسي النَّظر في القضايا المدنيَّة ، والجنائيَّة الَّتي يكون أطرافها من رعايا ملك فرنسا ، وأن يحكم في هذه القضايا ، وإنَّما للقنصل الحقُّ في الاستعانة بالسُّلطات المحلِّية لتنفيذ أحكامه .

٧ ـ في القضايا المختلفة الَّتي يكون أحد أطرافها رعيَّةً من رعايا السُّلطان العثماني ، لا يستدعي ، ولا يستجوب رعيَّة الملك الفرنسي ، ولا يحاكم إلا بحضور ترجمة القنصليَّة الفرنسيَّة .

٨ ـ إفادات رعيَّة الملك في القضايا مقبولةٌ ، ويؤخذ بها عند إصدار الحكم .

٩ ـ حرِّية العبادة محفوظة لرعايا الملك .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٤٧) .

١٠ ـ منع استعباد رعيَّة الملك .

وكان من نتائج هذه المعاهدة زيادة التَّعاون بين الأسطولين الفرنسي ، والعثماني ، وشنَّ الأسطول العثمانيُّ هجماتٍ قويَّةً على شواطئ مملكة نابولي ؛ الَّتي كانت تابعةً لـ« شارل كنت » وفي عام ١٥٤٣م ، تجمَّعت وحدات الأسطولين العثماني، والفرنسي، وهاجمت «نسير» التَّابعة لدوق سافوي حليف شارل كنت(١) .

واستفادت فرنسا من تقاربها مع الدَّولة العثمانيَّة عسكريَّاً ، واقتصاديَّاً ، وسياسيَّاً ، واتَّخذت من المعاهدة السَّابقة وسيلةً لفتح أبواب التِّجارة مع المشرق دون الخضوع للاحتكار التِّجاري الَّذي فرضته البرتغال بعد اكتشافها طريق رأس الرَّجاء الصَّالح ، كما حصلت بموجبها على الحقِّ الكامل في الحماية تحت علمها رعايا الدُّول الغربيَّة الأخرى ، ممَّا جعل لها مكانةً مرموقةً بين دول الغرب الأوربيِّ .

هذه المعاهدة بكلِّ أسفٍ لم يستفد منها رعايا الدَّولة العثمانيَّة ، وكأنَّها عقدت فقط لتلبية المطالب الغربيَّة ، وتحقيق مصالح الأعداء دون مقابلٍ يذكر ، وقد كانت هذه المعاهدة الأساس الَّذي بُني عليه ، وسار على نهجه الكثيرُ من المعاهدات الَّتي عقدت فيما بعد بين الدَّولة العثمانيَّة والدُّول الأوربيَّة بصفةٍ عامَّة(٢) .

لم يستطع ملك فرنسا أن يلتزم بالعهود مع الدَّولة العثمانيَّة بسبب الرَّأي العامِّ النَّصرانيِّ ، فيضطر إلى التراجع ، ونقض العهود ، ثمَّ يعود من جديد فيستجدي عَطْفَ ، وتأييد العثمانيِّين من جديد ، فيثور عليه الرأي العامُّ . والحقيقة التَّاريخيَّة تقول : إنَّه لا يمكن للصَّليبيِّين أعداء الإسلام أن يتخلَّى بعضهم عن بعضٍ أمام تحدِّيه القويِّ لهم ، وإن كانوا مختلفين ظاهريَّاً تبعاً للمصالح ، والأهواء .

وإنَّ أعداء الإسلام من الصَّليبيِّين الحاقدين لا أحلاف ، ولا مواثيق لهم في تعاملهم مع المسلمين ، كما يبيِّن لنا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه الكريم(٣) . وحينما

---

(١) انظر : موقف أوربة من الدَّولة العثمانيَّة ، ص(٤٧) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴾ [الأنفال : ٥٦] . =

تتبيَّن لهم بادرة ضعفٍ عند المسلمين ؛ فإنَّهم سرعان ما يقوى ساعدهم ؛ كي يُجهزوا عليهم ، وهم في الوقت نفسه لا يسمحون لحاكم منهم مهما كان اتِّجاهه ، أو وضعه أن يتعاون مع المسلمين ، وأنَّه مهما اختلفت المصالح فهم جميعاً يتَّفقون في محاربة هذا الدِّين ، وتقتيل أهله في كلِّ زمانٍ ، ومكانٍ(١) .

لقد كانت تلك الامتيازات الَّتي أعطيت للدَّولة الفرنسيَّة أوَّل إسفينٍ يُدَقُّ في نعش الدَّولة العثمانيَّة ، ظهرت آثاره البعيدة فيما بعد .

وفي أواخر أيَّام الدَّولة العثمانيَّة صارت دول أوربة النَّصرانيَّة تتدخَّل في شؤونها تحت حماية الامتيازات ، وللدِّفاع عن نصارى الدَّولة الَّذين كانوا يُعدُّون رعايا للدَّولة الأجنبيَّة ، وخاصَّةً في بلاد الشَّام(٢) .

* * *

= وقال تعالى : ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة : ١٠٠] .

(١) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، د . علي حسُّون ، ص(٧٥) .
(٢) انظر : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيِّين ، ص(٧٧ ، ٧٨) .

المبحث الرَّابع

الدَّولة العثمانيَّة وشمال أفريقية

كان من آثار التَّهجير الجماعي للمسلمين من الأندلس ، ونزوح أعدادٍ كبيرةٍ منهم إلى الشَّمال الأفريقيِّ حدوث العديد من المشكلات الاجتماعيَّة ، والاقتصاديَّة في ولايات الشَّمال الأفريقي، ولمَّا كان من بين المسلمين النَّازحين إلى هذه المناطق أعدادٌ وفيرةٌ من البحَّارة ، فكان من الضَّروري أن تبحث عن الوسائل الملائمة لاستقرارها ، إلا أنَّ بعض العوامل قد توافرت لتدفع بأعدادٍ من هؤلاء البحَّارة إلى طريق الجهاد ضدَّ القوى المسيحيَّة في البحر المتوسِّط ، ويأتي في مقدِّمة هذه الأسباب الدَّافع الدِّينيِّ بسبب الصِّراع بين الإسلام والنَّصرانيَّة ، وإخراج المسلمين من الأندلس ، ومتابعة الإسبان ، والبرتغال للمسلمين في الشَّمال الأفريقيِّ .

وقد ظلَّت حركات الجهاد الإسلاميِّ ضدَّ الإسبان ، والبرتغاليِّين غير منظمة حتَّى ظهور الأخَوان خير الدِّين ، وعروج بربروسا ، واستطاعا تجميع القوَّات الإسلاميَّة في الجزائر ، وتوجُّهها نحو الهدف المشترك لصدِّ أعداء الإسلام عن التوسُّع في موانئ ومدن الشَّمال الأفريقيِّ .

وقد اعتمدت هذه القوَّة الإسلاميَّة الجديدة في جهادها أسلوب الكرِّ ، والفرِّ في البحر بسبب عدم قدرتها في الدُّخول في حرب نظاميَّة ضدَّ القوى المسيحيَّة من الأسبان والبرتغاليِّين ، وفرسان القدِّيس يوحنَّا ، وقد حقَّق هؤلاء المجاهدون نجاحاً أثار قلق القوى المعادية ، ثمَّ رأوا بنظرهم الثَّاقب أن يدخلوا تحت سيادة الدَّولة العثمانيَّة لتوحيد جهود المسلمين ضدَّ النصارى الحاقدين .

وقد حاول المؤرِّخون الأوربيُّون التَّشكيك في طبيعة الحركة الجهاديَّة في البحر المتوسط ، ووصفوا دورها بالقرصنة ، وكذلك شكَّكوا في أصل أهمِّ قادتها ، وهما : خير الدِّين ، وأخوه عُروج ، الأمر الَّذي يفرض ضرورة إلقاء الضَّوء على دور الأخوين ، وأصلهما ، وأثر هذه الحركة على الدَّور الصَّليبيِّ في البحر المتوسط في زمن السُّلطان سليم ، والسُّلطان سليمان القانوني .

أولاً : أصل الأخوين عروج وخير الدِّين :

يرجع أصل الأخوين المجاهدين إِلى الأتراك المسلمين ، وكان والدهما يعقوب بن يوسف من بقايا الفاتحين المسلمين الأتراك الَّذين استقرُّوا في جزيرة مدللي إِحدى جزر الأرخبيل[١] وأمُّهما سيِّدةٌ مسلمةٌ أندلسيَّةٌ ، كان لها الأثر على أولادها في تحويل نشاطهما شطر بلاد الأندلس الَّتي كانت تئنُّ في ذلك الوقت من بطش الإسبان ، والبرتغاليِّين[٢] . وكان لعروج وخير الدِّين أخوان مجاهدان ، هما : إِسحاق ، ومحمد إِلياس ، ولقد استند المؤرِّخون المسلمون إِلى أصلهم الإِسلاميِّ إِلى الحجج التَّالية :

١ ـ ما ذكره المؤرِّخ الجزائري « أحمد توفيق مدني » مستنداً على أثرين ما زالا موجودين في الجزائر ، أولُهما : رخامةٌ منقوشةٌ كانت موضوعةً على باب حصن شرشال ، وثانيهما رخامةٌ كانت على باب مسجد الشَّواس بالعاصمة الجزائريَّة ، وقد نقش على الرُّخامة الأولى : (بسم الله الرَّحمن الرَّحيم وصلَّى الله على سيدنا محمَّد وآله ، هذا برج شرشال أنشأه المجاهد محمود بن فارس التُّركي في خلافة الأمير الحاكم بأمر الله المجاهد في سبيل الله « أوروج بن يعقوب » بإِذنه بتاريخ أربعة وعشرين بعد تسعمئة (١٥١٨م) . ونقش على الرُّخامة الثَّانية : (اسم « أوروج » ابن أبي يوسف يعقوب التُّركي) » . وهناك ثالثةٌ مسجَّلٌ عليها بعض ما شيَّده خير الدِّين في الجزائر سنة ١٥٢٠م[٣] .

٢ ـ إِنَّ اسم « عُرُوج » ـ « أوروج » مأخوذٌ من حادثة الإِسراء والمعراج الَّتي يرجَّح : أنَّه ولد ليلتها ، وأنَّ الترك ينطقونه « أوروج » ثُمَّ عُرب إِلى « عروج »[٤] .

٣ ـ إِنَّ ما ذكر عن الدَّور الَّذي لعبه الأخوان يؤكِّد حرصهما على الجهاد في سبيل الله ، ومقاومة أطماع إِسبانيا ، والبرتغال في الممالك الإِسلاميَّة في شمالي

---

(١) انظر : المغرب في بداية العصور الحديثة ، د . صلاح العقاد ، ص(٣٧) .
(٢) انظر : حرب الثلاثمئة سنة بين الجزائر وإِسبانيا ، ص(١٦٠ ، ١٦١) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٦٠ ، ١٦١) .
(٤) انظر : الدَّولة العثمانيَّة العليَّة ، ص(٩٥) .

أفريقية . ولقد أبدع الأخوان في الجهاد البحري ضدَّ النَّصارى ، وأصبحت لحركة الجهاد البحري في القرن السَّادس عشر مراكز مهمَّةٌ في شرشال ، ووهران ، والجزائر ، ودلي ، وبجاية ، وغيرها في أعقاب طرد المسلمين من الأندلس ، وقد قويت بفعل انضمام المسلمين الفارِّين من الأندلس ، والعارفين بالملاحة ، وفنونها والمدرَّبين على صناعة السُّفن[١] .

ثانياً : دور الأخوين في الجهاد ضدَّ الغزو النَّصراني :

اتَّجه الأخوان عروج ، وخير الدِّين إلى الجهاد البحريِّ منذ الصِّغر ، ووجَّها نشاطهما في البداية إلى بحر الأرخبيل المحيط بمسقط رأسهما حوالي سنة ١٥١٠م ، لكنَّ ضراوة الصِّراع بين القوى المسيحيَّة في بلاد الأندلس ، وفي شمالي أفريقية بين المسلمين هناك ، والَّذي اشتدَّ ضراوةً في مطلع القرن السَّادس عشر ، وقد استقطب الأخوين لينقلا نشاطهما إلى هذه المناطق ، وبخاصَّةٍ بعد أن تمكَّن الأسبان ، والبرتغاليُّون من الاستيلاء على العديد من المراكز ، والموانئ البحريَّة في شمالي أفريقية[٢] .

وقد حقَّق الأخوان العديد من الانتصارات على القراصنة المسيحيِّين ، الأمر الَّذي أثار إعجاب القوى الإسلاميَّة الضَّعيفة في هذه المناطق ، ويبدو ذلك من خلال منح السُّلطان « الحفصي » لهم حقَّ الاستقرار في جزيرة جربة التُّونسيَّة ، وهو أمر عرَّضه لهجوم إسبانيٍّ متواصلٍ اضطره لقبول الحماية الإسبانيَّة بالضَّغط ، والقوَّة ، كما يبدو من خلال استنجاد أهالي هذه البلاد بهما ، وتأثيرهما داخل بلادهم ، ممَّا أسهم في وجود قاعدةٍ شعبيَّةٍ لهما تمكِّنهما من حكم الجزائر ، وبعض المناطق المجاورة . ويرى بعض المؤرِّخين : أنَّ دخول « عروج » وأخيه الجزائر ، وحكمهما لها لم يكن بناءً على رغبة السُّكان ، ويستند هؤلاء إلى وجود بعض القوى الَّتي ظلَّت تترقَّب الفرص لطرد الأخوين ، والأتراك المؤيِّدين لهما ، لكن البعض الآخر يرون أنَّ وصول « عروج » وأخيه كان بناءً على استدعاءٍ من سكَّانها لنجدتهم

(١) انظر : قراءةٌ جديدةٌ في التَّاريخ العثماني ، ص(٧٩ ، ٨٠) .
(٢) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . علي حسون ، ص(٥٣) .

من الهجوم الأسباني الشَّرس ، وأنَّ القوى البسيطة الَّتي قاومت وجودهما كانت تتمثَّل في بعض الحكَّام الَّذين أبعدوا عن الحكم أمام محاولات الأخوين الجادَّة في توحيد البلاد ، حيث كانت قبل وصولهما أشبه بدولة ملوك الطَّوائف في الأندلس .

وقد ساند أغلب أهل البلاد محاولات الأخوين ، واشتركت أعدادٌ كبيرةٌ منهم في هذه الحملات ، كما ساندهما العديد من الحكَّام المحلِّيين الَّذين شعروا بخطورة الغزو الصَّليبي الإسباني(١) .

ويظهر دور الأخوين المجاهدين بمحاولة تحرير بجاية من الحكم الإسباني سنة ١٥١٢م ، وقد نقلا ـ لهذا الغرض ـ قاعدة عمليَّاتهما ضدَّ القوات الإسبانيَّة في ميناء جيجل شرقي الجزائر بعد أن تمكَّنا من دخولها ، وقتل حماتها الجنويِّين سنة ١٥١٤م لكي تكون محطَّة تقوية لتحرير بجاية من جهةٍ ، ولمحاولة مساعدة مسلمي الأندلس من جهةٍ أخرى . ويبدو أنَّ الأخوين قد واجها تحالفاً قويَّاً نتج عنه العديد من المعارك النِّظامية ، وهو أمرٌ لم يتعوَّدوه ، لكن أجبروا عليه بفعل الاستقرار في حكم الجزائر ، وزاد من حرج الموقف قتل « عروج » في إحدى المعارك سنة ١٥١٨م ممَّا اضطر خير الدِّين للبحث عن تحالف يعينه على الاستقرار والمقاومة ، ومواصلة الجهاد ، وكانت الدَّولة العثمانيَّة هي أقوى القوى المرشَّحة لهذا التَّحالف ، سواءٌ لدورها البارز في ساحة البحر المتوسط ، أم لأنَّ القوى المحلِّيَّة في الشمال الأفريقي كانت متعاطفةً معها(٢) .

وتتابع انتصاراتها على السَّاحة الأوربيَّة منذ فتح القسطنطينيَّة ، وأنَّ الاتِّجاه لمحالفتها سيكسب دور خير الدِّين مزيداً من التَّأييد من قبل هذه القوى ، وإلى جانب ذلك فإنَّ الدَّولة العثمانيَّة قد أبدت استجابةً للمساعدة حين طلب منها الأخوان ذلك ، كما أبدت رغبتها في مزيدٍ من المساعدة لدوره ، وكذلك لبقايا المسلمين في الأندلس ، ومن منظورٍ دينيٍّ أسهم في إكساب دورها تأييداً جماهيريّاً وجعل محاولة التَّقرُّب منهما ، أو التحالف معهما عملاً مرغوباً(٣) .

---

(١) انظر : المغرب في بداية العصور الحديثة ، ص(٣٧ ، ٣٨) .
(٢) انظر : الدَّولة العثمانيَّة دولةٌ إسلاميَّة مفترى عليها (٢/ ٩٠٢) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه (٢/ ٩٠٢) .

ومن جهةٍ أخرى كانت الظُّروف في الدَّولة العثمانيَّة على عهد السُّلطان سليم الأول مهيَّأةً لقبول هذا التَّحالف ، وبخاصَّةٍ بعد أن اتَّجهت القوَّات العثمانيَّة إلى الشَّرق العربيِّ ، وكان من أبرز أهدافها في هذا الاتِّجاه ـ كما سبق التَّوضيح ـ هو التَّصدِّي لدور البرتغاليِّين ، والإسبان ، وفرسان القدِّيس يوحنَّا في المنطقة ، وكان من المنطقيِّ التَّحالف مع أيٍّ من القوى المحلِّيَّة الَّتي تعينها على تحقيق هذه الأهداف[١] .

ثالثاً : التحالف مع العثمانيِّين :

اختلف علماء التَّاريخ حول بداية التَّحالف بين العثمانيِّين ، والأخوين عروج ، وخير الدِّين ، فتذكر بعض المراجع : أنَّ السلطان سليم الأول كان وراء إرسالهما إلى السَّاحل الأفريقيِّ تلبيةً لطلب المساعدة من سكان الشَّمال الأفريقي ، وعملاً على تعطيل أهداف البرتغاليِّين ، والإسبان في منطقة البحر المتوسِّط . وعلى الرَّغم من عدم تداول هذه الرِّواية بين المؤرِّخين إلا أنَّها توضح : أنَّ العثمانيِّين لم يكونوا بمعزلٍ عن الأحداث التي تدور على ساحة البحر المتوسِّط[٢] .

ويُرجع بعض المؤرِّخين التَّحالف بين الجانبين إلى سنة ١٥١٤م في أعقاب فتح عروج ، وخير الدِّين لميناء « جيجل » حيث أرسل الأخوان إلى السُّلطان سليم الأوَّل مجموعةً من النَّفائس الَّتي استوليا عليها بعد فتح المدينة ، فقبلها السُّلطان ، وردَّ لهما الهديَّة بإرسال أربع عشر سفينةً حربيَّةً مجهَّزةً بالعتاد ، والجنود[٣] ، وكان هذا الردُّ من السُّلطان العثمانيِّ يعكس رغبته في استمرار نشاط دور الأخوين ، ودعمه ، على أنَّ بعض المؤرِّخين يذكرون أنَّ الدَّعم العثمانيَّ لهذه الحركة كان في أعقاب وفاة « عروج » سنة ١٥١٨م وبعد عودة السُّلطان العثماني من مصر إلى إستانبول سنة ١٥١٩م[٤] .

---

(١) انظر : قراءةٌ جديدةٌ في تاريخ العثمانيِّين ، ص(٨٣) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص(٨٤) .
(٤) انظر : الدَّولة العثمانيَّة دولةٌ إسلاميَّة (٢/ ٩٠٩) .

على أنَّ الرَّأي الأكثر ترجيحاً : أنَّ الاتصالات بين العثمانيِّين وهذه الحركة كان سابقاً لوفاة عروج ، وقبل فتح العثمانيِّين للشَّام ، ومصر ، وذلك يرجع إِلى أنَّ الأخوين كانا في أمسِّ الحاجة لدعمٍ ، أو تحالفٍ مع العثمانيِّين بعد فشلهما في فتح « بجاية » ، كما أنَّهما حوصرا في « جيجل » بين الحفصيِّين الَّذين أصبحوا من أتباع الإسبان وبين « سالم التومي » حاكم الجزائر الَّذي ارتكز حكمه على دعم الإسبان له هو الآخر ، فضلاً عن قوَّة الإسبان ، وفرسان القدِّيس يوحنَّا الَّتي تحاصرهم في البحر ؛ فكان لوصول الدَّعم العثماني أثره على دعم دورهما ، وشروعهما في دخول الجزائر برغم هذه العوامل ، حيث اتَّفق العثمانيُّون مع الأخوين على ضرورة الإسراع بدخولهما قبل القوات الإسبانيَّة لموقعها الممتاز من ناحية ، ولكي يسبقوا الإسبان إِليها ، لاتِّخاذها قاعدةً لتخريب الموانئ الإسلاميَّة الواقعة تحت الاحتلال الإسباني كبجاية ، وغيرها من ناحيةٍ أخرى .

وقد تمكَّن « عروج » من دخول الجزائر بفضل هذا الدَّعم، وقتل حاكمها بعد أن تأكَّد من مساعيه للاستعانة بالقوَّات الإسبانيَّة، كما تمكن من دخول ميناء شرشال، واجتمع له الأمر في الجزائر ، وبويع في نفس السَّنة الَّتي هُزمت فيها القوَّات المملوكيَّة أمام القوات العثمانيَّة في الشَّام سنة ١٥١٦م في موقعة مرج دابق(١) .

ولم يكن من الممكن للأخوين أن يقوما بهذه الفتوحات لولا تشجيع السُّلطان العثمانيِّ ، ودعمه إِلى جانب دعم شعوب المنطقة ، وقد سبق أن فشلا في دخول بجاية أمام نفس القوَّات المعادية(٢) .

بعد أن بويع « خير الدِّين » في الجزائر في أعقاب ما حقَّقه من انتصاراتٍ على الإسبان ، والزُّعماء المحلِّيِّين المتحالفين معهم ، أصبح محطَّ آمال كثيرٍ من الولايات ، والموانئ الَّتي كانت ما زالت خاضعةً سواءٌ للإسبان ، أو لعملائهم ، وكان أوَّل الذين طلبوا نصرته أهل تلمسان . ومع أنَّ استنجاد الأهالي كان من الممكن أن يكون كافياً لتدخل « خير الدِّين » إِلا أنَّ موقع تلمسان الاستراتيجيِّ ؛

(١) انظر : حرب الثلاثمئة سنة بين الجزائر وإسبانيا ، ص(١٧٤ ، ١٧٥) .
(٢) انظر : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيِّين ، ص(٥٨) .

الذي كان يجعل وجود « خير الدِّين » في الجزائر غير مستتبٍّ ، قد جعله يفكِّر في التَّدخُّل قبل أن يطلب الأهالي نجدته ، وأن مطالبهم قد دعته للتَّعجيل بذلك[١] .

وأعدَّ « خير الدِّين » جيشاً كبيراً زحف به إِلى تلمسان سنة ١٥١٧م ، وأمَّن الطَّريق إِليها ، وبعد أن نجح في السَّيطرة عليها تمكَّن الإسبان ، وعملاؤهم من بني حمود ، من استعادتها ولقي أحد إِخوة « خير الدِّين » حتفه ، وهو « إِسحاق » ، كما قتل « عروج » وكثيرون من رجاله أثناء حصارهم للمدينة ، ذلك الحصار الَّذي امتدَّ لستة أشهرٍ ، أو يزيد ؛ امتدَّ حتَّى سنة ١٥١٨م .

وقد تركت هذه الأحداث أثراً بالغاً في نفس خير الدِّين ؛ ممَّا دفعه إِلى التَّفكير في ترك الجزائر لولا أنَّ أهلها ألحُّوا عليه بالبقاء . وكانت موافقته على البقاء تفرض عليه ضرورة بذل المزيد من الجهد ؛ خشية أن يهاجمه الإسبان ، ومؤيِّدوهم ، كما أنَّ ذلك أدَّى إِلى اتجاهه إِلى مزيدٍ من الارتباط بالدَّولة العثمانيَّة ، وبخاصَّةٍ بعد أن والت لها مصر ، والشَّام ، فكان ذلك يؤكِّد احتياج الجانبين إِلى مزيدٍ من الارتباط بالآخر[٢] .

رابعاً : سكان مدينة الجزائر يرسلون رسالة استغاثةٍ للسُّلطان سليم الأوَّل :

قام الأستاذ الدُّكتور عبد الجليل التَّميمي بترجمة وثيقةٍ تركيَّةٍ محفوظةٍ في دار المحفوظات التَّاريخية بإستانبول ـ طوب قابي سيراي ـ تحت رقم ٤٦٥٦ ، وهذه الوثيقة عبارةٌ عن رسالةٍ موجَّهةٍ من سكَّان بلدة الجزائر على اختلاف مستوياتهم ، ومؤرَّخةٍ في أوائل شهر ذي القعدة عام ٩٢٥هـ ، في الفترة من ٢٦ من شهر أكتوبر (تشرين الأوَّل) إِلى ٣ من شهر نوفمبر (تشرين الثَّاني) عام ١٥١٩م ، وكتبت بأمر من خير الدِّين إِلى السُّلطان سليم بعد عودته من مصر ، والشَّام إِلى إِستانبول ، وكان الغرض من تلك الرِّسالة ربط الجزائر بالدَّولة العثمانيَّة . وجاء في الرِّسالة أنَّ خير الدِّين كان شديد الرَّغبة في أن يذهب بنفسه إِلى إستانبول ليعرض على السُّلطان سليم الأوَّل شخصياً أبعاد قضيَّة الجزائر . ولكنَّ زعماء مدينة الجزائر توسَّلوا إِليه أن

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٨٦) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .

يبقى فيها كي يستطيع مواجهة الأعداء إذا تحرَّكوا . وطلبوا منه أن يرسل سفارةً تقوم بالنِّيابة عنه ، وكانت الرِّسالة الَّتي حملتها البعثة موجهةً باسم القضاة ، والخطباء ، والفقهاء ، والأئمَّة ، والتُّجار ، والأعيان ، وجميع سكان مدينة الجزائر العامرة ، وهي تفيض بالولاء العميق للدَّولة العثمانيَّة ، وكان الَّذي يتزعَّم السَّفارة « الفقيه العالم الأستاذ أبو العباس أحمد بن قاضي » وكان من أكبر علماء الجزائر ، كما كان قائداً عسكريَّاً ، وزعيماً سياسيَّاً ، وكان بمقدوره أن يصور أوضاع بلاده ، والأخطار الَّتي تحيط بها من كلِّ جانب .

وقد أشاد الوفد بجهاد « عروج » في مدافعة الكفار ، وكيف كان ناصراً للدِّين ، وحامياً للمسلمين ، وتكلَّموا عن جهاده حتَّى وقع شهيداً في حصار الإسبانيِّين لمدينة تلمسان ، وكيف خلفه أخوه « المجاهد في سبيل الله أبو التُّقى خير الدِّين » . وكان له خير خلف ، فقد دافع عنا ، ولم نعرف منه إلا العدل ، والإنصاف ، واتِّباع الشَّرع النَّبويِّ الشَّريف ، وهو ينظر إلى مقامكم العالي بالتَّعظيم ، والإجلال ، ويكرِّس نفسه ، وماله للجهاد لرضاء ربِّ العباد ، وإعلاء كلمة الله ، ومناط آماله سلطنتكم العالية مُظهراً إجلالها ، وتعظيمها . على أنَّ محبَّتنا له خالصةٌ ، ونحن معه ثابتون ، ونحن ، وأميرنا خدَّام أعتابكم العالية ، وأهالي إقليم بجاية ، والغرب ، والشَّرق في خدمة مقامكم العالي ، وإنَّ المذكور حامل الرِّسالة المكتوبة سوف يعرض على جلالتكم ما يجري في هذه البلاد من الحوادث ، والسَّلام)[١] .

إنَّ الرسالة السَّابقة تُبيِّن للباحث آراء الجزائريين تجاه الدَّولة العثمانيَّة ، وكان من تلك الآراء :

ـ أنَّ خير الدِّين يمثل الحاكم المسلم الأمثل في شمال أفريقية ، فهو يحترم ، وينفِّذ مبادئ الشريعة الإسلاميَّة ، ويتَّخذ من العدل شرعةً ، ومنهاجاً له في الحكم .

ـ أنَّ نشاطه يتركَّز في قيادة عمليات الجهاد ضدَّ النَّصارى .

ـ أنَّه يُكِنُّ للدَّولة العثمانيَّة وسلطانها كلَّ تقديرٍ ، واحترام .

ـ تدلُّ الرسالة على تماسك الجبهة الدَّاخلية ، ووضوح الهدف أمام مسلمي الجزائر[٢] .

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة دولةٌ إسلاميَّة (٢/ ٩١٠) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه (٢/ ٩١١) .

خامساً : استجابة السُّلطان سليم الأوَّل لأهل الجزائر :

سارع السُّلطان سليم إلى منح رتبة بكلربك إلى خير الدِّين بربروسة ، وأصبح القائد الأعلى للقوَّات المسلَّحة في إقليمه ممثِّلاً للسُّلطان ، وبذلك أصبحت الجزائر تحت حكم الدَّولة العثمانيَّة ، وأصبح أي اعتداءٍ خارجيٍّ على أراضيها يعتبر اعتداءً على الدَّولة العثمانيَّة ، ودعم السُّلطان سليم هذا القرار بقراراتٍ تنفيذيَّة ؛ إذ أرسل إلى الجزائر قوَّةً من سلاح المدفعيَّة ، وألفين من الجنود الإنكشاريَّة ، ومنذ ذلك الوقت (١٥١٩م) بدأ الإنكشاريُّون يظهرون في الحياة السِّياسيَّة ، والعسكريَّة في الأقاليم العثمانيَّة في شمال أفريقية ، وأصبحوا عنصراً بارزاً ومؤثِّراً في سير الأحداث بعد أن كثر إرسالهم إلى تلك الأقاليم ، وأذن السُّلطان سليم لمن يشاء من رعاياه المسلمين في السَّفر إلى الجزائر ، والانخراط في صفوف المجاهدين ، وقرَّر منح المتطوِّعين الَّذين يذهبون إلى الجزائر الامتيازات المقرَّرة للفيالق الإنكشاريَّة تشجيعاً لهم على الانضمام إلى كتائب المجاهدين ، ولقد هاجر سكان الأناضول إلى الجزائر شوقاً إلى عمليَّات الجهاد ضدَّ النَّصارى ، ولقد ترتَّب على القرارات الَّتي أصدرها السُّلطان سليم الأوَّل عدَّة نتائج هامَّة كان من بينها :

١ ـ دخول الجزائر رسميّاً تحت السِّيادة العثمانيَّة اعتباراً من عام ١٥١٩م ، ودعي للسُّلطان سليم على المنابر في المساجد ، وضربت العملة باسمه .

٢ ـ إنَّ إرسال القوَّات العثمانيَّة جاء نتيجة استغاثة أهل بلدة الجزائر بالدَّولة العثمانيَّة ، واستجابةً لرغبتهم ، فلم يكن دخول القوَّات العثمانيَّة غزواً ، أو فتحاً عسكريّاً ضدَّ رغبة أهل البلد .

٣ ـ إنَّ إقليم الجزائر كان أوَّل إقليم من أقاليم شمال أفريقية يدخل تحت السِّيادة العثمانيَّة ، وأصبحت الجزائر ركيزةً لحركة جهاد الدَّولة العثمانيَّة في البحر المتوسِّط[١] ، وكانت حريصةً على امتداد نفوذها بعد ذلك إلى كلِّ أقاليم الشَّمال الأفريقيِّ لتوحيده تحت راية الإسلام ، والعمل على تخليص مسلمي الأندلس من الأعمال الوحشيَّة الَّتي كان يقوم بها الإسبان النَّصارى .

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة دولةٌ إسلاميَّةٌ (٢/ ٩١٢) .

لقد كان زمن السُّلطان سليم البداية المتواضعة لمدِّ النُّفوذ العثمانيِّ إلى أقاليم شمال أفريقية من أجل حماية الإسلام والمسلمين ، وواصل ابنه سليمان ذلك المشروع الجهادي .

لقد استجاب السُّلطان العثمانيُّ سليم لنداء الجهاد من أخوة الدِّين ، وشرعت الدَّولة العثمانيَّة في إنشاء أسطولٍ ثابتٍ لهم في شواطئ شمال أفريقية ، والَّذي ارتبط منذ البداية باسم الأخوين : عروج ، وخير الدِّين بربروسة(١) .

سادساً : التَّحدِّيات الَّتي كانت أمام خير الدِّين :

كان أمام خير الدِّين بربروسة في وضعه السِّياسي ، والعسكري الجديد أن يحارب على جبهتين :

١ ـ الجبهة الإسبانيَّة لطرد الإسبانيِّين من الجيوب الَّتي أقاموها ، فضمَّ إليه عنابة ، وقالة في شرقي الجزائر ، وحقَّق انتصاراً باهراً على الإسبانيِّين حيث استولى عام ١٥٢٩م على حصن بينون الإسباني على الجزيرة ، المواجهة لبلدة الجزائر ، وقد كان استمرَّ يقصف الحصن بقذائف مدافعه طوال عشرين يوماً حتَّى تداعت جوانبه ، ثمَّ اقتحم الحصن مع قوات كثيفة العدد كانت تحملها خمسٌ وأربعون سفينةً جاءت من السَّاحل ، وأسر قائد الحصن مع كبار ضبَّاطه .

إنَّ استيلاء خير الدِّين على البينون سنة ١٥٢٩م يعدُّ بداية تأسيس ما عرف باسم نيابة الجزائر ، ومنذ ذلك التَّاريخ أصبح ميناء الجزائر عاصمةً كبرى للمغرب الأوسط ، بل ولكلِّ شمال أفريقية العثمانيَّة فيما بعد . وبدأ استخدام مصطلح الجزائر للدَّلالة على إقليم الجزائر حتَّى نهاية القرن الثَّامن عشر .

٢ ـ الجبهة الدَّاخلية ، وكانت تتمثَّل في محاولة توحيد المغرب الأوسط الَّتي لم تَخْلُ من مؤامرات بني زيان ، والحفصيِّين ، ومن بعض القبائل الصَّغيرة ، ولكنَّه استطاع مدَّ منطقة نفوذه باسم الدَّولة العثمانيَّة ، ودخلت الإمارات الصَّغيرة تحت السِّيادة العثمانيَّة ؛ لكي تحتمي بهذه القوَّة من الأطماع الصليبيَّة الإسبانيَّة ، ومِنْ

---

(١) انظر : المشرق العربيُّ ، والمغرب العربيُّ ، د . عبد العزيز قائد ، ص(٩٧) .

قهرها على اعتناق النَّصرانيَّة ، وما لبث أنْ مدَّ خير الدِّين النُّفوذ العثمانيَّ إلى بعض المدن الدَّاخلية الهامَّة مثل قسنطينة[١] .

لقد نجح خير الدِّين في وضع دعامات قوَّةٍ لدولة فتيَّةٍ في الجزائر ، وكانت المساعدات العثمانيَّة تصله باستمرارٍ من السُّلطان سليمان القانوني ، واستطاع إنقاذ آلاف المسلمين من إسبانيا ، فقد قام عام ٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م بتوجيه ستٍّ وثلاثين سفينةً خلال سبع رحلات إلى السَّواحل الإسبانيَّة للدَّولة العثمانيَّة في الحوض الغربيِّ للبحر المتوسط ، وبفضل الله ، ثمَّ مساعدات الدَّولة العثمانيَّة ، وموارد خزينة الجزائر المتنوِّعة من ضرائب ، وسبي ، ومغانم ، وزكاة ، والعشر ، والجزية ، والفيء ، والخراج ، وما يقوم به الحكَّام ورؤساء القبائل ، والعشائر من دفع العوائد وغيرها أصبحت دولة الجزائر لها قاعدةٌ اقتصاديَّةٌ قويَّة[٢] .

لقد تضرَّرت إسبانيا من نجاح خير الدِّين في الشَّمال الأفريقي ، وكانت إسبانيا يتزعَّمها شارل الخامس إمبراطور الدَّولة الرُّومانيَّة المقدَّسة ، والَّتي كانت تضمُّ وقتذاك إسبانيا ، وبلجيكا ، وهولندا ، وألمانيا ، والنِّمسا ، وإيطاليا ، وكانت الدَّولة الرُّومانية المقدَّسة تدافع عن أوربة المسيحيَّة ضد الخطر العثماني نحو شرق ووسط أوربَّة ، لذا يمكن القول بأنَّ الصِّراع بين شارل الخامس وبين بيليربكية الجزائر كان بمثابة فتح جبهةٍ حربيَّةٍ جديدةٍ ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة في الشَّمال الأفريقيِّ . لذلك لم يكتف شارل بالهجوم المفاجئ على سواحل الجزائر ، بل أرسل مبعوثاً للتجسُّس في شمال أفريقية سنة ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م وهو الضَّابط (أوشوا دوسلا) الَّذي طاف بأنحاء تونس ، وهناك وجد استعداد الحفصيِّين للتَّعاون مع شارل الخامس ، وحذَّر من امتداد النُّفوذ العثمانيِّ على تونس ، وذكر : أنَّ هذا الاستيلاء سيسهِّل على العثمانيِّين السَّيطرة على أفريقية ، ثمَّ يتجهون بعد ذلك لاسترداد الأندلس ، وهذا ما يخشاه العالم المسيحيُّ .

كانت سياسة المملكة الحفصيَّة في تونس تسير نحو انحطاطٍ مستمرٍّ ، كان السُّلطان الحفصيُّ الحسن بن محمَّد قد أساء السِّيرة في البلاد ، وقتل عدداً من

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة دولةٌ إسلاميَّةٌ (٢/ ٩١٣) .

(٢) انظر : جهود العثمانيِّين لإنقاذ الأندلس ، د . نبيل عبد الحي ، ص(٣١١) .

إِخوته ، فاضطربت الأحوال في تونس ، وخرج البعض عن طاعة السُّلطان الحفصيِّ ، وكان أخو الحسن المسمَّى بالأمير الرَّشيد قد هرب من أخيه خوفاً من القتل ، ولجأ عند العرب في البادية ، ثمَّ ذهب إِلى خير الدِّين في الجزائر ، وطلب منه الحماية ، والعون ضدَّ أخيه(١) ، فمنحه ذلك خير الدِّين الذي كان مركِّزاً اهتمامه على تونس بسبب ضعف الحفصيِّين ، والخلافات الدَّاخليَّة الَّتي مزَّقت الأسرة الحفصيَّة ، كما كان لتونس في نظره أهميَّةٌ استراتيجيَّةٌ كبيرةٌ لإِشرافها على المضيق الصِّقلِّي بحيث تسمح له السيطرة عليها في تحديد وقطع المواصلات بين حوضي المتوسط الشَّرقيِّ ، والغربيِّ ، بالإِضافة إِلى رغبة خير الدِّين في توحيد بلاد المغرب تحت حكم الدَّولة العثمانيَّة ليتمكَّنوا من استرداد الأندلس(٢) .

سابعاً : سفر خير الدِّين إِلى إِستانبول :

عزم السُّلطان سليمان القانوني بعد أن استولى على بلغراد السَّفر بسائر جنوده إِلى إِسبانيا للاستيلاء عليها ، وبدا للسُّلطان سليمان : أنَّه لا بدَّ له من رجلٍ يعتمد عليه في دخول تلك البلاد على أن يكون عالماً بأحوالها ، فوقع اختياره على خير الدِّين ؛ لما يعرفه عنه من شجاعةٍ ، وإِقدامٍ ، وكثرة هجومه على تلك النَّواحي ، وما فتحه من بلاد العرب في الشَّمال الأفريقي ، وكيف أقرَّ الحكم العثمانيَّ فيها ، فوجَّه إِليه خطاباً يطلبه فيه إِلى حضرته ، ويأمره باستنابة بعض من يأمنه في الجزائر ، وإِن لم يجد من يصلح لذلك ، يبعث إِليه السُّلطان نائباً ، وبعث ذلك الخطاب مع رجلٍ يدعى سنان جاوشي ، فوصل الجزائر ، وأوصل خطاب السُّلطان إِلى خير الدِّين ، فقبَّله ، ووضعه فوق رأسه ، ولمَّا قرأه ، وعلم ما فيه نصب ديواناً عظيماً ، وأحضر كافَّة العلماء ، والمشايخ ، وأعيان البلاد ، وقرأ عليهم خطاب السُّلطان ، الَّذي وجَّهه إِليه ، وأعلمهم : أنَّه لا يمكنه التخلُّف عن أمره ، وعندما سمع أندريا دوريا زعيم الأسطول النَّصرانيِّ في البحر المتوسط بما عزم السُّلطان عليه من فتح إِسبانيا ، واستقدام خير الدِّين من الجزائر لذلك ، أراد أن

---

(١) انظر : جهود العثمانيِّين لإِنقاذ الأندلس ، د . نبيل عبد الحي ، ص(٣١١) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٣١٥) .

يشغل خير الدِّين عن سفره إلى حضرة السُّلطان[١] ، وأشاع بين الأسرى المسيحيِّين في الجزائر ، عن عزم الحكومة الإسبانية في الهجوم على الجزائر ، وتخليصهم من الأسر ، ففرح الأسرى الإسبان لذلك الخبر ، وتمرَّدوا على خير الدِّين ، الَّذي رأى : أنَّ من المصلحة العامة إعدام أولئك الأسرى ليأمن غائلتهم ، ثمَّ قام بتقوية الاستحكامات في الجزائر ، وزاد من عدد القلاع مُظهراً أتمَّ الطَّاعة للسُّلطان[٢] .

عزم خير الدِّين على السفر إلى إستانبول ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م ، وعيَّن مكانه حسن آغا الطُّوشي ، وكان رجلاً عاقلاً ، وصالحاً ، وصاحب علمٍ واسعٍ[٣] .

أبحر خير الدِّين شرقاً في البحر المتوسط وبرفقته أربع وأربعون سفينة ، وهزم في طريقه فرقةً من أسطول آل هايسبرج بالقرب من المورة[٤] ، واستمرَّ خير الدِّين في رحلته ، ووصل إلى مدينة بيروازن ، وفرح أهالي المدينة لمقدمه ، وكانوا خائفين من هجوم أندريا دوريا ، الَّذي ابتعد عندما سمع بمقدم خير الدِّين ، ثمَّ واصل خير الدِّين سفره ، ورست مراكبه في قلعة أوارين « أنا وارنيه » ، فصادف هنالك أسطولاً للسُّلطان سليمان القانوني ، وفرحوا بذلك ، ثمَّ خرجوا جميعاً حتَّى وصلوا إلى قرون ، ثمَّ كتب خير الدِّين إلى السُّلطان يعلمه بوصوله ، ويستأذنه بالقدوم على حضرته ، فوجَّه إليه السُّلطان خطاباً يستحثُّه بالقدوم عليه[٥] ، أقلع خير الدِّين من قرون ، ولم يزل مسافراً حتَّى وصل إلى إستانبول ورسا بها ، ورموا بالمدافع كما هي العادة في ذلك ، ومثل خير الدِّين بحضرة السُّلطان ، ووقف بين يديه ، فأمر بأن يخلع عليه وعلى خواصِّ أصحابه الجرايات الوافرة ، وأنزلهم بقصرٍ من قصوره ، وفوَّض إليه النَّظر في دار الصِّناعة[٦] ، ومنحه لقب قبودان باشا ـ وزير بحريَّة ـ حتَّى تظلَّ له السُّلطة الكاملة لمساندته .

---

(١) انظر : سيرة خير الدِّين باشا ، عبد القادر عمر ، (ق ٤٨ أ ٤٨ ب) .
(٢) انظر : حقائق الأخبار عن دول البحار ، إسماعيل سرهنك (١/ ٣٦١) .
(٣) انظر : فتوحات خير الدِّين ، محمد أمين (ق ٢٧٠أ ، ٢٧٠) .
(٤) انظر : جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس ، ص(٣١٦) .
(٥) المصدر السابق نفسه .
(٦) المصدر السابق نفسه .

كان الصَّدر الأعظم في ذلك الوقت بمدينة حلب ، فسمع بقدوم خير الدِّين على السُّلطان ، وقد كانت أنباء غزواته ، ونكايته بالمسيحيِّين تصل إليه ، فاشتاق إلى لقاء خير الدِّين ، فوجه خطاباً للسُّلطان يلتمس منه أن يوجِّه إليه خير الدين لمقابلته ، فأرسل السُّلطان إلى خير الدِّين مخبراً عن رغبة الصَّدر الأعظم ، فأجابه خير الدِّين بالموافقة ، وسافر خير الدِّين متوجِّهاً إلى حلب ، واحتفل الصَّدر الأعظم بمقدم خير الدِّين في حلب وأنزله في بعض القصور المهيبة ، وفي اليوم الثَّاني من وصول خير الدِّين وصل مبعوث من قبل السُّلطان ومعه خلعةٌ ، وأمْرٌ بمقتضاه : أنَّ خير الدِّين ، من وزراء السُّلطان ، ويلبس الخلعة ، فنصب الدِّيوان الأعظم ، وألبسوه خلعة الوزارة ، واحتفل به احتفالاً مهيباً ، وأكرم إكراماً عظيماً لما قدَّمه من خدماتٍ للإسلام والمسلمين في حوض البحر المتوسط .

ثمَّ رجع خير الدِّين إلى إستانبول وأكرمه السُّلطان سليمان غاية الإكرام ، وشرع خير الدِّين في النَّظر في أمر دار الصِّناعة ، كما رسم له السُّلطان(١) .

وبعد أن تمَّ إعداد الأسطول العثمانيِّ الجديد خرج خير الدِّين بربروسة بأسطوله القويِّ من الدَّردنيل متَّجهاً نحو سواحل إيطاليا الجنوبيَّة ، فاستطاع أن يأسر الكثير منها ، وأغار على مدنها ، وسواحلها ، ثمَّ اتجه نحو جزر صقليَّة ، فاسترجع كورون ، وليبانتو(٢) ، وكان السُّلطان سليمان قد تشاور مع خير الدِّين بربروسة بأهميَّة تونس ، وضرورة دخولها في إطار استراتيجيَّة الدَّولة العثمانيَّة ؛ لتحقيق هدفها نحو استرداد الأندلس ، وتأتي أهمِّيَّة تونس بالنِّسبة للدَّولة من حيث موقعها الجغرافيُّ ؛ إذ تقع في منتصف السَّاحل الشَّمالي لأفريقية ، وتوسُّطها بين الجزائر ، وطرابلس ، ولقربها من إيطاليا الَّتي تعتبر أحد جناحي الإمبراطورية الرُّومانيَّة المقدَّسة ، بينما يمثل الجناح الآخر إسبانيا ، علاوةً على ذلك : مجاورتها لجزيرة مالطة مقرِّ فرسان القدِّيس يوحنا حلفاء الإمبراطور شارل الخامس ، وأشدِّ الطَّوائف المسيحيَّة عداوةً للمسلمين ، ثم الإمكانيَّات الهائلة الَّتي تتيحها موانئ تونس في التَّحكُّم في المواصلات البحريَّة في البحر المتوسِّط ، وهكذا تضافرت تلك العوامل

---

(١) انظر : جهود العثمانيِّين لاسترداد الأندلس ، ص(٣١٧) .
(٢) انظر : ليبيا بين الماضي والحاضر ، حسن سليمان محمود ، ص(١٦٦) .

على إِضفاء الأهمِّيَّة العسكريَّة على تونس[١] .

كانت المرحلة الثَّانية بالنسبة لخير الدِّين بعد هجومه على السَّواحل الجنوبيَّة لإِيطاليا ، وجزيرة صقليَّة هي تونس ، وذلك لتنفيذ خطَّة الدَّولة ، والَّتي تقتضي تطهير الشَّمال الأفريقيِّ من الإسبان كمقدِّمة لاستعادة الأندلس ؛ إِذ سبق أن أشار خير الدِّين بربروسة على السُّلطان سليمان القانوني في خطابه للسُّلطان الَّذي بعثه قبيل استدعاء السُّلطان له في ٩٤٠هـ/١٥٣٣م ؛ إِذ قال فيه « . . . إِنَّ هدفي إِذا قدِّر لي شرف الاشتراك هو طرد الإِسبان في أقصر وقتٍ من أفريقية ، ومن الممكن أن تسمع بعد ذلك : أنَّ المغاربة قد أغاروا على الإسبان من جديدٍ ليستعيدوا مملكة قرطاجة ، وأنَّ تونس قد أصبحت تحت سلطانك ، إِنَّني لا أبغي من وراء ذلك أن أحول بينك وبين توجيه قوَّاتك ناحية المشرق ، كلا . . لأنَّ هذا لن يحتاج لكلِّ ما تملك من قوَّاتٍ ، ولاسيَّما : أنَّ حروبك في آسيا ، أو أفريقية تعتمد أكثر ما تعتمد على قوَّات برِّية ، أمَّا هذا الجزء الثَّالث من العالم ؛ فإِنَّ كلَّ ما أطلبه هو جزءٌ من أسطولك ، وسيكون ذلك كافياً ؛ لأنَّ هذا الجزء يجب أن يخضع لسلطانك أيضاً . . . . »[٢] .

وصل الأسطول العثمانيُّ تحت قيادة خير الدِّين إِلى السَّواحل التُّونسيَّة ، فعرَّج على مدينة عنَّابة ، وتزوَّد ببعض الإِمدادات ، ثمَّ تقدَّم نحو بنزرت ، ثمَّ اتَّجه إِلى حلق الواد ؛ إِذ تمكَّن منها بدون صعوبةٍ[٣] ، واستُقبل خير الدِّين من قبل الخطباء ، والعلماء ، وأكرموه ، وتوجَّهوا إِلى تونس في نفس الوقت ، وهرب السُّلطان الحفصيُّ الحسن بن محمَّد إِلى إِسبانيا[٤] ، ثمَّ عين خير الدِّين الرَّشيد أخا الحسن بن محمَّد على تونس ، وأعلن ضمَّ تونس للأملاك العثمانيَّة ، في وقتٍ بدت فيه سيادة العثمانيِّين في حوض البحر المتوسط الغربيِّ[٥] .

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة دولةٌ إِسلاميَّةٌ مفترى عليها (٢/ ٩١٥ ـ ٩١٦) .
(٢) فتح العثمانيين عدن ، محمَّد عبد اللَّطيف البحراوي ، ص(١٢٧) .
(٣) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص(٢٣٠) .
(٤) انظر : جهود العثمانيِّين لاسترداد الأندلس ، ص(٣١٩) .
(٥) انظر : فتح العثمانيِّين عدن ، ص(١٢٨) .

ثامناً : أثر جهاد خير الدِّين على المغرب الأقصى :

استفاد السُّلطان أحمد الأعرج السَّعدي من الجهود الَّتي بذلتها الدَّولة العثمانيَّة ، والشعب الجزائري بقيادة خير الدِّين بربروسة ، فقام بمحاصرة مدينة آسفي بأزمور ، وذلك سنة ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م ، وكادت المدينة تقع بيد السَّعديِّين لولا النَّجدات الَّتي بعثها البرتغاليُّون للمدينة المحاصرة ، وقد بدا وكأنَّ تعاوناً قد حصل بين العثمانيِّين ، والقوى الإسلاميَّة في المغرب ضدَّ المسيحيِّين ، ومراكزهم في الشَّمال الأفريقي ، وعندما سمع الملك البرتغالي جان الثالث بوصول الأسطول العثمانيِّ في ٣ ربيع الأول ٩٤١هـ/ ١٣ سبتمبر ١٥٣٤م بقيادة خير الدِّين بربروسة إلى الشَّمال الأفريقي ؛ فكَّر في الجلاء عن بعض المراكز مثل سبتة ، وطنجة باعتبارها مناطق حيويَّة للدِّفاع عن مصالح المسيحيِّين في غرب البحر المتوسط ، ولصدِّ الهجوم العثمانيِّ عن شبه الجزيرة الأيبيريَّة بعث الملك يوحنَّا الثَّالث استفتاءً إلى جميع الوجهاء ، والأعيان ، والأساقفة في بلاده يستشيرهم في موضوع الجلاء عن بعض مراكز الوجود البرتغالي في جنوبي المغرب ، وكان المطلوب الإجابة عن الأسئلة الآتية : هل ينبغي ترك آسفي ، وأزمور للمغاربة ؟ هل ينبغي الجلاء عنهما ، أو عن بعضهما ؟ وإذا كان ينبغي الاحتفاظ بهما ؛ هل تحول إلى حصون للتَّقليل من حجم المصروفات ؟ ثمَّ ما هي الأضرار النَّاتجة عن ذلك ؟ وكيف نتفاداها ؟

تلقَّى الملك البرتغاليُّ أجوبةً عديدة بين مؤيِّدٍ في الإبقاء على المناطق الجنوبيَّة في حوزة البرتغاليِّين ، وبين معارضٍ ، وكانت أجوبة رجال الدِّين للملك جان الثَّالث موحدةً تقريباً تضمَّنت النُّصح بالتَّخلِّي عن المراكز الجنوبيَّة ، ويحوِّل الملك كلَّ وسائل الدِّفاع الموجودة هناك إلى المركز الشَّمالي لصدِّ الخطر العثماني بقيادة خير الدِّين بربروسة ، فأسقف ينصح بإخلاء سانتاكروز ، وآسفي ، وأزمور ؛ لأنَّ أهمِّيتها أقلُّ بكثيرٍ من النَّفقات الَّتي تصرف عليها ، ويرى توجيه القوى ضدَّ فاس ، كما ينصح بتحسين وسائل الدِّفاع عن سبتة خوفاً من هجوم خير الدِّين عليها[١] .

إنَّ الوجود العثمانيَّ في الجزائر أثَّر على موقف الملك البرتغاليِّ في المغرب ؛

---

(١) انظر : جهود العثمانيِّين لاسترداد الأندلس ، ص(٣٢٠) .

إذ تراجع عن القيام بعمليّاتٍ عسكريَّةٍ فيه ، كما أدخل استيلاء العثمانيِّين على تونس الحيرة لدى البابا ، والإمبراطور شارل الخامس ؛ الَّذي اعتبر ذلك تهديداً مباشراً للمسيحيَّة ، ولخطوط مواصلاته البحريَّة مع أطراف مملكته(١) ، فوصل التَّهديد العثمانيُّ أقصاه ، فضلاً عن أنَّ الدَّولة العثمانيَّة ضمنت السَّيطرة على الممرَّات الضَّيقة بين صقليّة ، وإفريقية(٢) .

تاسعاً : استيلاء شارل الخامس على تونس :

كان الموقف ملائماً بالنِّسبة لإسبانيا ، وذلك للقيام بردٍّ عنيفٍ ، فقد انشغلت الدَّولة العثمانيَّة بالحرب مع الشِّيعة الرَّوافض في بلاد فارس ، وطغى على الصِّراع في أوربة ، ووعد فرنسوا الأوَّل ملك فرنسا شارل الخامس بالحياد . تردَّد شارل في اختيار المكان الَّذي سيوجِّه إليه ضربته في شمال أفريقية الجزائر ، أو تونس ، ولكن استنجاد السُّلطان الحفصيِّ الحسن بن محمَّد ، والرَّغبة في عزل إستانبول ؛ دفع شارل الخامس على اختيار تونس للهجوم(٣) .

قاد شارل الخامس عمليَّةً بحريَّة شاقَّةً تكوَّنت من ثلاثين ألف مقاتل إسبانيٍّ ، وهولنديٍّ ، وألمانيٍّ ، ونابوليٍّ ، وصقليٍّ ، على ظهر خمسمئة سفينةٍ ، وركب الإمبراطور البحر من ميناء برشلونة ، وعندما رست سفنه أمام تونس قامت المعارك العنيفة بين الطَّرفين(٤) ، الأمر الذي أعاد السَّيطرة الإسبانيَّة على تونس في ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م(٥) ؛ إذ لم تكن قوَّة خير الدِّين بكافيةٍ للردِّ على ذلك الهجوم ، فكان الجيش الإسلاميُّ تعداده سبعة آلاف جندي عثماني ، وصلوا مع خير الدِّين ، ونحو خمسة آلاف تونسي ، كما تخلَّف الأعراب عن الجهاد ، فكانت النَّتيجة الحتميَّة أن استولى شارل على معقل حلق الواد مرسى تونس(٦) .

---

(١) رسالة غرناطة إلى السُّلطان سليمان ، عبد الجليل التَّميمي عدد (٣) تونس .
(٢) انظر : جهود العثمانيِّين لاسترداد الأندلس ، ص(٣٢١) .
(٣) انظر : تاريخ الجزائر الحديث ، محمد خير فارس ، ص(٣٤) .
(٤) انظر : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٤٢٠) .
(٥) انظر : جهود العثمانيِّين لاسترداد الأندلس ، ص(٣٢١) .
(٦) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص(٣٢١) .

ونصَّب الإسبان الحسن بن محمَّد حاكماً عليها ، وعملاً بمنطوق المعاهدة كان الحسن بن محمَّد سيسلم بونة ، والمهديَّة إلى شارل الخامس ، فاستولى على بونة ، وبما أنَّ المهديَّة كانت في حوزة العثمانيِّين ، فإن الحسن لم يستطع الوفاء بعهده ، فاشترط الإسبان عليه أن يكون حليفاً ، ومساعداً لفرسان القدِّيس يوحنَّا بطرابلس[١] ، وأن يقوم بمعاداة العثمانيِّين ، وأن يتحمَّل نفقات ألفي إسباني على الأقلِّ يتركون كحامية في قلعة حلق الواد ، وعاد شارل الخامس إلى إسبانيا ، واستقبل استقبال الغزاة الفاتحين في الوقت الَّذي كان فيه السُّلطان يحارب فيه الدَّولة الصَّفويَّة الشِّيعيَّة الرَّافضيَّة لبلاد فارس[٢] .

عاشراً : عودة خير الدِّين إلى الجزائر :

عاد خير الدِّين إلى الجزائر بعد هزيمته في تونس ، واستقرَّ أوَّل الأمر بمدينة قسنطينة ، ومن هناك أخذ يستعدُّ لاستئناف الجهاد ضدَّ الإسبان في الجبهات الَّتي يحدِّدها ، وكان لزاماً على خير الدِّين ؛ وقد استقرَّ مؤقتاً بمدينة الجزائر نظراً لالتزاماته الَّتي تفرضها عليه خطَّته الجديدة كقبودان باشا للأسطول الإسلاميِّ العثمانيِّ أن يشعر شارل الخامس بوجوده ، وأن يردَّ على ضربة تونس بضربةٍ مثلها ، فقام بالهجوم على جزر البليار الإسبانيَّة ، وعلى سواحلها الجنوبيَّة ، فاجتاز مضيق جبل طارق ، وأطلق العنان لنفسه بالانقضاض على السُّفن الإسبانيَّة والبرتغاليَّة العائدة من الأراضي الأمريكيَّة ، والمحمَّلة بالذَّهب ، والفضَّة ، فاهتزَّت لتلك الأحداث جميع الأوساط المسيحيَّة ، وأقلقت شارل الخامس الَّذي اعتقد أنَّ خير الدِّين لن يقوى شأنه بعد حادثة تونس السَّابقة في ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م[٣] .

من ناحيةٍ أخرى دخلت الدَّولة العثمانيَّة في تحالفٍ رسميٍّ مع فرنسا في ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م ، ويعتبر ذلك هو ردُّ الفعل على الهجوم المضادِّ الَّذي قام به الإسبان على تونس[٤] ، وبدا وكأن الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة المقدَّسة ، قد طُوِّقت من

---

(١) انظر : الأتراك العثمانيُّون في أفريقية الشَّمالية ، عزيز سامح ، ص(٣٨) .
(٢) انظر : فتح العثمانيِّين عدن ، ص(١٣٠) .
(٣) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص(٢٢٧ ، ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٢) .
(٤) انظر : جهود العثمانيِّين لاسترداد الأندلس ، ص(٣٢٣) .

قِبَل خصومها الفرنسيِّين ، والعثمانيِّين ، ممَّا أدى إلى استئناف الحروب بينهما من جديدٍ ، كما صارت أهداف إسبانيا ، والبرتغال واحدةً ، وذلك في احتلال مراكز في بلاد المغرب بالإضافة إلى خوفهم من تقدُّم العثمانيِّين داخل شبه الجزيرة الأيبيريَّة .

●● الدُّبلوماسية البرتغاليَّة وتفتيت وحدة الصفِّ في الشمال الأفريقي :

تلقَّى الملك أحمد الوطَّاس هزيمةً ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م من السَّعديِّين في موقعة بير عقبة قرب وادي العبيد ، بسبب تخلِّي قبائل الخلوط الَّتي كادت تكون القوَّة الأمامية للجيش الوطَّاسيِّ ، ونُشرت الفوضى في سائر الجيش ، وإثر هذه الهزيمة تقرَّب أحمد الوطَّاسي من البرتغال ، وذلك نتيجة شعوره بانشغال العثمانيِّين في حروبهم ضد الإسبان ، ووقَّع معهم معاهدةً لمدَّة أحد عشر عاماً[١] تقضي بوضع المغاربة المقيمين في ضواحي أصيلا ، وطنجة ، والقصر الصَّغير تحت السُّلطة القضائيَّة لملك فاس ، كما يجوز لرعايا الملك الوطاسي المتاجرة بحريَّة داخل تلك المناطق باستثناء تجارة الأسلحة ، والبضائع المحظورة ، وإذا وصلت مراكب عثمانيَّةٌ ، أو فرنسيَّةٌ ، أو تابعةٌ لمسيحيين من غير الإسبان ، ولا البرتغاليِّين إلى أراضٍ برتغاليَّةٍ محمَّلةٌ بغنائم ؛ أخذت من المغاربة فلن يشترى منها شيء ، وكذلك الحال بالنِّسبة للمغاربة لن يشتروا من العثمانيِّين ، ويتمُّ الاستيلاء على الغنائم وتردُّ من طرفٍ لآخر ما لم تسمح قوَّات العدوِّ في مهاجمتها[٢] .

حاول البرتغاليُّون كذلك عقد هدنة مع السَّعديين ، فبعثوا وفداً إلى مراكش للتَّفاوض مع المولى أحمد الأعرج الَّذي استجاب لذلك ، لأنَّه كان في حاجةٍ إلى تنظيم أمور دولته النَّاشئة سيَّما بعد الانتصارات الَّتي حقَّقها ضد خصومه الوطاسيِّين في موقعة بير عقبة ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م ، واتَّفق البرتغاليُّون مع السَّعديِّين لعقد هدنة بينهما في ٢٥ ذي القعدة ٩٤٤هـ/ ٢٥ أبريل ١٥٣٧م لمدَّة ثلاث سنوات ، مع إقامة تبادل تجاري بين رعايا الطَّرفين[٣] .

---

(١) انظر : جهود العثمانيِّين لاسترداد الأندلس ، ص(٣٢٣) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٣٢٤) .

كان هدف البرتغاليِّين من التَّقرُّب مع الوطَّاسيِّين ، والسَّعديِّين هو الحيلولة دون قيام تعاونٍ حقيقيٍّ بين العثمانيِّين من ناحيةٍ ، والوطَّاسيِّين ، والسَّعديِّين من ناحيةٍ أخرى ؛ لأنَّ أيَّ تعاونٍ من هذا القبيل معناه تهديدٌ لمصالح شبه الجزيرة الأيبيريَّة في المغرب ، والأهم من ذلك خوف إسبانيا ، والبرتغال من تقدُّم الدَّولة العثمانيَّة داخل شبه الجزيرة الأيبيريَّة ، وتحقيق هدفها في استرداد الأندلس[1] .

* * *

(١) انظر : جهود العثمانيِّين لاسترداد الأندلس ، ص(٣٢٤) .

المبحث الخامس

المجاهد الكبير حسن آغا الطُّوشي

اشتغل خير الدِّين بربروسة بحكم منصبه قبودان باشا بالعمل في الأسطول العثماني ، وبدأ نشاطه في الحوض الشَّرقيِّ للبحر المتوسط ، بينما استمرَّ حسن آغا الطُّوشي في منصبه المستخلف عليه نائب البيلربك يعمل على قهر القرصنة الأوربيَّة ، فأبلى في سبيل ذلك البلاء الحسن ، وصار شخصه في الجزائر مثالاً بارزاً في البطولة ، والتَّضحية الإسلاميَّة في سبيل الدِّفاع عن بلاد الإسلام في الشَّمال الأفريقي ، فاكتسبت الجزائر مهابةً ، وجلالاً ، وجعلت الأمم المسيحيَّة تهرع على عاهلها الأكبر الإمبراطور شارل الخامس مستنجدةً بسلطانه ، منضويةً تحت لوائه ، ومن بينها البابا بول الثَّالث .

وقد حاول شارل الخامس ٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م عقد هدنة مع خير الدِّين إلا أنَّه خاب أمله[١] ، مثل ما خاب في محاولته السَّابقة عندما عرض على خير الدِّين سرَّاً الاعتراف به حاكماً لشمال أفريقية مقابل جزيةٍ بسيطةٍ ؛ إذ كان شارل الخامس يأمل في قيام تحالف إسباني جزائري يجابه به التَّحالف الفرنسي العثماني ، ويعمل على فصل شمال أفريقية عن إستانبول على أمل : أنَّه إذا تحقق ذلك ؛ فلن تستطيع شمال أفريقية إبداء مقاومةٍ قويَّة ، ويكون من السَّهل سقوطها[٢] .

انهمك حسن آغا الطُّوشي في توطيد الأمن ، ووضع الأسس للإدارة المستقرَّة ، ومحاولة جمع أطراف البلاد حول السُّلطة المركزيَّة الجزائريَّة[٣] ، فأخضع مدينة مستغانم لدولته ، ثم تقدَّم نحو الجنوب الشَّرقي ، فاستولى على عاصمة الزاب بكرة ، وملحقاتها ، وشيَّد هناك حصناً ، وأقام به حاميةً .

ركب الجيش العثماني في شهر جمادى الأولى ٩٤٩هـ/ سبتمبر ١٥٣٩م

---

(١) انظر : تاريخ الجزائر العام ، عبد الرحمن الجيلالي (٣/ ٦٢ ، ٦٣) .
(٢) انظر : تاريخ الجزائر الحديث ، ص(٣٥) .
(٣) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص(٢٧٩) .

البحر ، وكان قوامه ١٣٠٠ رجل ، على ظهر ثلاث عشرة سفينةً ، واندفعوا عنها إِلى الإسبان ، نزل حسن آغا وجيشه إِلى البرِّ فاحتلَّ البلدة ، وتمكَّن منها ، واستحوذ على ما فيها من خيراتٍ ، وأرزاقٍ ، وغنائم للمسلمين ، وتوغل في جهات السَّاحل الإسباني الجنوبي ، وغنم ماوقع تحت يده من أموال ، ومتاع الإسبان ، ويختار من بينهم جماعات من الأسرى والسَّبايا يسوقهم للبيع في المدن المغربيَّة الشَّماليَّة خاصَّة تطوان ، ثمَّ يعود للميدان ، وعندما أراد الرُّجوع إِلى الجزائر اعترضت طريقه عمارة أسبانية كبيرة العدد ، وقامت المعركة بين القوَّتين ، وكانت عنيفةً قاسيةً ، أسفرت عن غرق عدد من سفن الجانبين ، ومع ذلك كانت خسائر الإسبان في هذه المعركة عظيمةً[١] .

عزم شارل الخامس على القيام بحملةٍ عسكريَّةٍ تستهدف القضاء على حركة الجهاد الإسلامي في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وقبل أن يشرع في تنفيذها كان هدوءٌ نسبيٌّ يسود القارة الأوربيَّة إِثر عقد هدنة نيس في محرم ٩٤٥هـ/ يونيو ١٣٥٨م مع فرنسا ، والَّتي كانت مدَّتها عشر سنوات[٢] ، رسا شارل الخامس أمام مدينة الجزائر في يوم الثَّامن والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ٩٤٨هـ الموافق الخامس عشر من شهر أكتوبر ١٥٤١م وعندما شاهده حسن آغا الطُّوشي ؛ اجتمع في ديوانه مع أعيان الجزائر ، وكبار رجال الدَّولة ، وحثَّهم على الجهاد ، والدِّفاع عن الإِسلام والوطن قائلاً لهم « . . . لقد وصل العدوُّ عليكم ليسبي أبناءكم ، وبناتكم ، فاستشهدوا في سبيل الدِّين الحنيف . . هذه الأراضي فتحت بقوَّة السَّيف ويجب الحفاظ عليها ، وبعون الله النَّصر حليفنا ، نحن أهل الحقِّ . . . » ، فدعا له المسلمون ، وأيَّدوه في جهاد العدو ، ثمَّ بدأ حسن آغا في إِعداد جيوشه ، والاستعداد للمعركة[٣] .

من ناحيةٍ أخرى بدأ الإسبان في تحضير متاريسهم ، وتعجَّب شارل الخامس لاستعدادات حسن آغا ، وأراد أن يستهزئ به ، فأمر كاتبه بإِعداد خطاب لحسن

---

(١) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص (٢٨٠) .
(٢) انظر : تاريخ الجزائر الحديث ، محمد خير ، ص(٣٦) .
(٣) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٣٢٦) .

آغا ، جاء فيه « . . . أنت تعرفني أنا سلطان . . كلُّ ملَّة المسيحيِّين تحت يدي ، إذا رغبت في مقابلتي سلمني القلعة مباشرةً . . أنقذ نفسك من يدي وإلا أمرت بإنزال أحجار القلعة في البحار ، ثمَّ لا أبقي عليك ، ولا سيِّدك ، ولا الأتراك ، وأخرِّب كلَّ البلاد . . . » وصل ذلك الخطاب إلى حسن آغا ، وأجاب عليه « . . . أنا خادم السُّلطان سليمان . . . تعال واستلم القلعة ، ولكن لهذه البلاد عادةٌ : أنَّه إذا جاءها العدو ، لا يُعطى إلا الموت »[(١)] ، وفي روايةٍ : (غزت إسبانيا الجزائر في عهد عروج مرَّةً ، وفي عهد خير الدِّين مرَّةً ، ولم تحصل على طائل ، بل انتهبت أموالها ، وفنيت جنودها ، وستحصل المرَّة الثَّالثة كذلك إن شاء الله)[(٢)] .

وفي اللَّيلة ذاتها وصل إلى معسكر شارلكان رسولٌ من قبل والي الجزائر يطلب إذناً للسَّماح بحريَّة المرور لمن أراد من أهل الجزيرة وخاصَّة نساءها وأطفالها مغادرة المدينة عبر (باب الوادي) وعرف (شارلكان) أنَّ حامية الجزائر مصممةٌ على الدِّفاع المستميت ، وأنَّه من المحال احتلال الجزائر إلا إذا تمَّ تدميرها تدميراً تامّاً . ولم يكن الإمبراطور قد أنزل مدفعية الحصار حتَّى تلك السَّاعة ، فلم يتمكَّن بذلك من قصف الجزائر بالمدفعيَّة ، وفي الوقت نفسه كان المجاهدون يوجِّهون ضرباتهم الموجعة إلى القوات الإسبانيَّة ، في كلِّ مكانٍ ، حتَّى قال أحد فرسان مالطة في تقريره عن المعركة : « لقد أذهلتنا هذه الطَّريقة في الحرب ، لأنَّنا لم نكن نعرفها من قبل »[(٣)] .

وكانت أعداد المجاهدين تتعاظم باستمرارٍ بفضل تدفُّق مقاتليهم من كلِّ مكانٍ بمجرد سماعهم بإنزال القوَّات الإسبانيَّة ، وكان المجاهدون يستفيدون في توجيههم لضرباتهم من معرفتهم الدَّقيقة بالأرض ، واستخدامهم لميِّزاتها بشكلٍ رائعٍ ، وسخَّر الله لجنود الإسلام الأمطار ، والرِّياح ، والأمواج (وهبَّت ريحٌ عاصفةٌ استمرَّت عدَّة أيامٍ ، واقتلعت خيام جنود الحملة ، وارتطمت السُّفن بعضها ببعضٍ ممَّا أدى إلى غرق كثيرٍ منها ، وقذفت الأمواج الصَّاخبة ببعض السُّفن إلى الشَّاطىء ،

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٣٢٦) .
(٢) انظر : خير الدِّين بربروسة ، بسام العسلي ، ص(١٠٨) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٥٣) .

وهجم عليها المدافعون المسلمون ، واستولوا على أدواتها ، وذخائرها ، أمَّا الأمطار فقد أفسدت مفعول البارود ، وفي وسط هذه الكوارث حاول الإمبراطور مهاجمة مدينة الجزائر ، إلا أنَّ كلَّ محاولاته باءت بالفشل)(١) .

وظهرت بطولات رائعة من القائد (الحاج البشير) الذي استطاع بجنوده أن يحصد رؤوس النصارى بشجاعةٍ فائقةٍ ، وبسالةٍ نادرةٍ ، وبطولةٍ رائعةٍ . لقد استطاعت القيادة العسكرية الجزائريَّة أن تستفيد من الوضع المحيط بالنَّصارى ، ووجَّهت جنودها بطريقة متميِّزةٍ في الكرِّ والفرِّ ، أفنت جزءاً كبيراً من الأعداء ، واضطرَّ الإمبراطور إلى الانسحاب مع بقيَّة جنوده على ما تبقَّى لهم من سفنٍ ، واتَّجه بأسطوله إلى إيطاليا بدلاً من إسبانيا .

وكان من العوامل الَّتي ساعدت على إلحاق هذه الهزيمة بالإمبراطور القيادة الرَّشيدة ، والتفاف الشَّعب الجزائري حولها ، وتدفُّق رجال القبائل إلى ساحة الوغى طلباً للشَّهادة في سبيل الله ، ودفاعاً عن الإسلام والمسلمين ، وقد شبَّه أهل الجزائر هذه الهزيمة بهزيمة أصحاب الفيل الَّتي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، فقالوا في رسالةٍ وجَّهوها إلى السُّلطان سليمان : « إنَّ الله سبحانه وتعالى عاقب شارل الخامس وجنوده بعقاب أصحاب الفيل ، وجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم ريحاً عاصفاً وموجاً قاصفاً ، فجعلهم بسواحل البحر ما بين أسيرٍ وقتيل ، ولا نجا منهم من الغرق إلا قليل »(٢) .

لقد قام سكان الجزائر ـ سواءٌ كانوا أهل الإقليم الأصليِّين ، أو مسلمي الأندلس الَّذين فرُّوا بدينهم إلى الجزائر ـ بعثوا برسالةٍ في الشَّهر التَّالي لهزيمة شارل الخامس إلى السُّلطان سليمان ، وقد أوضحت هذه الرِّسالة الأحوال المؤلمة ، والمفجعة الَّتي تحيط بالمسلمين الَّذين احتفظوا بدينهم في إسبانيا بعد أن طويت صفحة الحكم الإسلامي في الأندلس ، وتعرُّضهم لاضطهاد السُّلطات المسيحيَّة ، ولمحاكمات ديوان التَّحقيق ـ محاكم التَّفتيش ـ وإحراقهم ، وأشادت الرِّسالة بالخدمات الجليلة

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة دولة إسلاميَّة (٢/ ٩١٩) .
(٢) المصدر السابق نفسه (٢/ ٩٢٠) .

الَّتي أدَّاها للإسلام خير الدِّين باشا « المجاهد في سبيل الله ، وناصر الدِّين ، وسيف الله على الكافرين » .

ومضت الرِّسالة تقول : إنَّ أهل الأندلس قد سبق لهم أن استغاثوا به ، فأغاثهم « وكان سبباً في خلاص كثيرٍ من المسلمين من أيدي الكفرة المتمرِّدين ، ونقلهم إلى أرض الإسلام » وأصبحوا من رعايا الدَّولة العثمانية المخلصين . وحدَّدت الرسالة مطلبين أساسيين :

١ـ إرسال نجداتٍ عسكريَّةٍ « لنصرة الجزائر ؛ لأنَّها سياجٌ لأهل الإسلام ، وعذابٌ وشغلٌ لأهل الكفر ، والطُّغيان ، وهي موسومةٌ باسمكم الشَّريف ، وتحت إيالة مقامكم المنيف ، وقد أصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزةً ، والرَّعيَّة المختلفة بها مؤتلفةً أليفةً »[١] .

٢ـ إعادة خير الدِّين باشا إلى منصبه السَّابق ـ بيلر بك الجزائر ـ « فهو المتمثِّل لأوامر مولانا ، لأنَّه أحيا هذا الوطن ، وأرعب قلوب الكفار ، وخرَّب ديار المردة والفجَّار ، ..... وإنَّه لهذا الوطن نعم ناصر ، وجميع أهل الشِّرك منه خائفٌ ، وحائر »[٢] .

وصل خير الدين بربروسة إلى مدينة الجزائر للإسهام في الدِّفاع عنها بتوفيق الله للمسلمين وسواعدهم قد قضت على أسطول الإسبان ، فاكتفى بتفقُّد أمور البليربكيَّة ، واطلع على سير الأمور فيها ، ثمَّ انطلق بأسطوله نحو البلاد الإسبانيَّة يذيقها العذاب الأليم ، وأنعم السُّلطان سليمان على حسن آغا الطوشي برتبة الباشويَّة ؛ لدوره الفعَّال في النَّصر ، وخلوِّ البحر المتوسط تقريباً من الأساطيل الإسبانيَّة الَّتي كانت تضمد جراحها ، وتحاول استرجاع قوَّتها ، فانطلقت السُّفن العثمانيَّة نحو السواحل الإسبانيَّة ، والإيطاليَّة ، وتوالت هنالك الغزوات ، وساد الرُّعب والفزع تلك النَّواحي ، الَّتي بقيت مفتوحةً في وجه العثمانيِّين يتوغلون داخلها ، ويغنمون ما فيها[٣] ، كما صارت الدُّول الأوربيَّة تعمل للعثمانيِّين

---

(١) المصدر السَّابق نفسه (٢/ ٩٢١) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

(٣) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص ٢١٣ .

حساباً ، فاهتزَّ بذلك مركز الإسبان في وهران ، وغيرها من مناطق نفوذهم في الشَّمال الأفريقي[١] .

وحقَّق السَّعديُّون على صعيد آخر نصراً كبيراً على البرتغاليِّين ، وفتحوا حصن سانتا كروز ، وما أن علم الملك البرتغالي جان الثَّالث بهذا الخبر حتَّى أمر حاميات آسفي ، وأزمور بالجلاء فوراً عنها ، وقد وجَّه الملك جان الثَّالث في هذا الشأن إلى سفيره بمدريد رسالةً مؤرَّخةً في الثاني والعشرين من رمضان ٩٤٨هـ/ ديسمبر سنة ١٥٤١م يُطْلع فيها الإمبراطور الإسباني شارل الخامس ، حيث جاء فيها ذكرٌ للأسباب الَّتي أجبرت البرتغال على اتخاذ قرار الجلاء عن قاعدتي : آسفي ، وأزمور ، فبالإضافة إلى موقعها الحرج هناك تزايد قوات السَّعديِّين بفضل المساعدات العثمانيَّة ، حيث صار الحاكم السَّعدي يملك المدفعيَّة العثمانيَّة ، والآلات الحربيَّة ، ومعه جنودٌ مدرَّبون ، وظهرت تلك الإمدادات عند حصار سانتا كروز ، ممَّا جعل الاحتفاظ بهذين المركزين أمراً شاقَّاً ، وصعباً ، ثمَّ إنَّ الجلاء عن آسفي ، وأزمور ليس معناه التَّخلِّي عن المغرب ، فقد أعطيت الأوامر لتحصين مازكان لسهولة استغلال مينائها طوال أيَّام السَّنة[٢] .

يظهر من ذلك مدى اهتمام الدَّولة العثمانيَّة في تقديم المساعدة للقوى الإسلاميَّة في المغرب ضدَّ المسيحيِّين المتواجدين فيها ، وذلك لأنَّ الدَّولة ترغب في تأمين ظهرها حتى يتسنَّى لها الهجوم ، فرغبت الدَّولة هنا في مساعدة السَّعديِّين ؛ لينهوا التَّواجد البرتغالي في المراكز الجنوبيَّة من المغرب ، ثمَّ ليعبروا للأندلس ؛ لأنَّ المغرب يمثل أقرب نقطة للعبور[٣] .

●●مصير شارلكان :

كان فشل شارلكان (شارل الخامس) في حملته على الجزائر ، ذا أثرٍ عميقٍ لا على الإمبراطوريَّة الإسبانيَّة ، ولا على ملكها شارلكان ، وإنَّما على مستوى

---

(١) انظر : المغرب العربي الكبير ، شوقي عطا الله الجمل ، ص(٩) .
(٢) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٣٢٨) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .

الأحداث العالميَّة . وقد حفظ الشِّعر العربي هذا الحدث الَّذي قيل فيه :

سَلُوا شَارِلكانَ كَمْ رَأىٰ مِنْ جُنُوْدِنَا فَلَيْسَ لَهُ إلاهُمُ مِنْ زَوَاجِرِ
فَجَهَّزَ أُسْطُولاً وَجَيْشاً عَرَمْرَماً وَلكِنَّه قَدْ آب أوْبَةَ خَاسِرِ

ونزلت أنباء الهزيمة نزول الصَّاعقة على أوربة ، وتطوَّرت الأحداث هناك بسرعةٍ . فلم يبق حليفٌ للإمبراطور سوى هنري الثَّالث ملك إنجلترا ، وانضمَّ إلى ملك فرنسا الدُّوق (دي كليف) وملك الدَّانمارك ، وملك إسكنديناڤيا . وكان فرح الفرنسيين عظيماً ؛ لأنَّ سقوط الجزائر كان يؤدي لا محالة إلى سقوط فرنسا ، وبادر ملكها فرانسوا الأوَّل لإبرام معاهداتٍ مع السُّلطان العثمانيِّ ، وكان لهذه الغارة أيضاً نتائج معنويَّةٌ داخل الشَّمال الأفريقي ، وأمَّا في أوربة (بقي رعب المسلمين في قلوب أهل أوربة لمدَّة طويلةٍ) .

ولم يعد شارل الخامس قادراً على التَّفكير في حملة أخرى ضد الجزائر ، وطغى شبح خير الدِّين ، وحسن آغا على العامَّة والخاصَّة حتَّى أصبح النَّاس إذا رأوا جفناً عن بعد نسبوه إلى خير الدِّين ، فيتصاعد الصُّراخ ، ويكثر العويل ، ويفرُّ السكان من ديارهم ، ومن حقولهم ، ومتاجرهم . وإذا حطمت الزَّوابع مركباً توهَّم النَّاس : أنَّ خير الدين بربروسة هو الذي أثار البحر ، وهيَّجه ، وأغراه على إغراق سفنهم . وبلغ الخوف من قادة الجزائر أقصى درجةٍ حتَّى أصبح أهل إسبانيا ، وإيطاليا إذا ما حدثت جريمةٌ ، أو سرقةٌ ، أو وقع فسادٌ ، أو تخريبٌ ، أو مرضٌ ، أو وباءٌ ، أو قحطٌ قالوا : خير الدِّين وأصحابه هم السَّبب في ذلك[1] . وكانوا في نحيبهم يقولون :

بربروسة بربروسة
أنت صاحب كلِّ شرٍّ
ما كان من ألمٍ ، أو عملٍ
مؤذٍ وجهنميٍّ مدمِّرٍ
إلا والسَّبب فيه

---

(١) انظر : خير الدين بربروسة ، ص(٢٠٠) .

هذا القرصان الَّذي
لا نظير له في العالـم[١]

●●وفاة حسن آغا الطُّوشي :

استمرَّ حسن آغا في القيام بواجبه المقدَّس حتَّى وفاته ٩٥١هـ/ ١٥٤٤م فأجمع أهل الدِّيوان في الجزائر على تولية الحاج بكير مكانه ، وريثما يعيِّن الباب العالي بإستانبول الحاكم الجديد ، الَّذي عيَّن حسن بن خير الدِّين ، وقدم في نفس السَّنة[٢] .

* * *

(١) مجلَّة تاريخ وحضارة المغرب في كلِّية الآداب في الجزائر (١٩٦٩)م العدد ٦ ص(٥٩٣٤) .
(٢) انظر : تاريخ عام الجزائر ، عبد الرحمن الجيلالي (٣/ ٨٤) .

المبحث السَّادس

المجاهد حسن بن خير الدِّين بربروسة

شرع حسن بن خير الدِّين حال وصوله يستعدُّ للجهاد ومواجهة المسيحيِّين ، فعمل على تحصين مدينة الجزائر ، وذلك في المناطق الَّتي أظهر هجوم شارل الخامس عن ضعفها ، كما أخذ يعمل على توطيد النِّظام في الجزائر ، وبين صفوف الجيش ، ثمَّ انصرف إلى حلِّ مشكلة تلمسان ؛ إذ تبيَّن له : أنَّ بقاء الأسرة الزِّيانيَّة ووجود الإسبان في وهران يعيقان حلَّ المشكلة[١] .

كان حاكم تلمسان (أبو زيان) أحمد الثَّاني قد تولَّى الحكم بدعم من العثمانيِّين ، غير أنَّه مالبث أن خضع لمؤامراتٍ خارجيَّةٍ ، وانساق في تيَّارها ، وأخذ يتقرَّب من الإسبان ، ممَّا أدى إلى كره الأهالي له ، وقرَّروا خلعه عن العرش ، ومبايعة أحد أخوته (الحسن) فتوجَّه أبو زيان إلى وهران طالباً للدَّعم من الإسبان ، ومقدِّماً لهم التَّعهُّدات بأن يحافظ على ولائه لهم ، فقرَّر حاكم وهران انتهاز هذه الفرصة ، فجهَّز جيشاً ، وانضمَّ إليه جموع الخاضعين للإسبان من بني عامر ، وفليتة ، وبني راشد ، وعلى رأسهم القائد المنصور بن بو غنام ، وتقدَّموا إلى تلمسان لإبعاد الحسن ، وإعادة تنصيب أبو زيان على عرش المدينة ، وما أن علم الحسن بن خير الدِّين بتحرُّك القوَّة الإسبانيَّة ، حتَّى قاد الجيش الإسلاميَّ في تلمسان ليمنع الإسبان من الوصول إلى هدفهم ، وتمكَّن حسن بن خير الدِّين من ذلك ، ودعم حليفه الملك حسن في تلمسان[٢] ، الَّذي اعترف بسلطة الدَّولة العثمانيَّة ، كما ترك الباشا حسن بن خير الدِّين حاميةً عثمانيَّة بقيادة القائد محمد في قلعة المشوار في تلمسان ، إلا أنه مع ذلك ظلَّ نفوذ الدولة العثمانية مهتزّاً خارج تلمسان ، بسبب مضايقات بعض القبائل المجاورة بقيادة المزوار بن بو غنام ، الَّذي يرغب في مساندة زوج ابنته الأمير مولاي أحمد حليف الإسبان[٣] .

---

(١) انظر : تاريخ الجزائر الحديث لمحمَّد فارس ، ص(٣٨ ، ٣٩) .
(٢) انظر : الجزائر والحملات الصَّليبية ، ص(٢١ ، ٢٢) .
(٣) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٣٢٩) .

قامت الدَّولة العثمانيَّة بدعم السُّلطان الشَّريف السَّعدي بنحو عشرين ألف مجاهدٍ ، فالتفوا حوله ، ودفعوه إِلى بناء مراكب حربيَّةٍ للاستيلاء على إِسبانيا ، فوافق الشَّريف السَّعدي على ذلك ، وصرف لهم أجورهم ، ومكافآتٍ لهم(١) .

واستطاع الشَّريف السَّعدي أن ينهي الحكم الوطاسي ، وأصبح الإِسبان متخوِّفين من هجوم عثماني سعدي مشترك ، فقاموا بإِنهاء استحكامات مليلة ، وفرضت عدّة إِجراءات أمنية على جبل طارق ، وقادش ، وغير ذلك من الاحتياطات .

لقد ظهر السَّعديون أوَّل الأمر كمحرِّرين للمغرب من الوجود المسيحي ، فأكسبهم ذلك تأييد المسلمين ؛ إِذ اعتبروا ذلك نوعاً من الجهاد ، فقدَّمت الدَّولة العثمانيَّة مساعداتٍ كبيرةً لتحقيق ذلك ، ثمَّ عرضت على السَّعديين مشروع استرداد الأندلس ، إِلا أنَّه بعد أن دانت بلاد المغرب للشَّريف السَّعدي ، وانتهاء الحكم الوطاسي ، توجَّه الشريف بأنظاره نحو تلمسان ، فأرسل جيوشاً كبيرة لإِنهاء الحكم العثماني فيها ، وعندما شعر العثمانيُّون بتلك الأطماع ، وانحراف الشَّريف السَّعدي عن الهدف الإِسلامي ، أرسلت له حملات ليعود إِلى بلاده(٢) .

استمرَّ المجاهدون في شمال أفريقية يهدِّدون أمن غرب البحر المتوسِّط ، فقاموا بمناوشاتٍ بحريَّةٍ أزعجت التِّجارة ، والسُّفن المحمَّلة بين إِسبانيا ، وإِيطاليا ، وغطَّى المجاهدون من أهالي الشَّمال الأفريقي الجزء من البحر المتوسط بين سردينيا والسَّاحل الأفريقي ، وبذلك اضطرت السُّفن المسيحيَّة أن تطرق الطُّرق الأكثر أماناً بالقرب من رأسي كورسيكا ، ولكن الاحتلال الفرنسي للرأس بمساعدة العثمانيِّين هدَّدوا أيضاً الاتصالات بين إِسبانيا ، وإِيطاليا ، ولم تكن هناك مهلةٌ لشارل الخامس في الدِّفاع عن الطُّرق البحريَّة ضدَّ القسطنطينيَّة التي كانت حلمه منذ سنوات طفولته ، كما أنَّه صار غير قادرٍ على تقديم مصالح مباشرةٍ لإِسبانيا(٣) .

---

(١) انظر : جهود العثمانيين ، ص(٣٣٠) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٣٣٤) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٣٥٦) .

أولاً : آخر أيام خير الدِّين بربروسة :

استمرَّ خير الدِّين في قيادة الأسطول العثماني ، وحقَّق انتصاراتٍ رائعةٍ هزَّت أوربة كلَّها ، وبعد أن تحالفت الدَّولة العثمانيَّة مع فرنسا جعل خير الدِّين من مدينة (مارسيليا) قاعدةً لقيادته ، ومقرّاً لأسطوله ، وهناك ـ في مرسيليا ـ باع خير الدِّين ورجال أسطوله الغنائم الَّتي حملوها معهم من إسبانيا ، كما باعوا فيها رقيق الإسبان من الرِّجال ، والنِّساء . فتداولتهم أيدي القوم ، واشتراهم الفرنسيُّون بضاعةً رابحة ، ثمَّ أخذوا يبيعونهم بأرباحٍ طائلةٍ إلى يهود (ليفورنو) الإيطاليَّة ، وكان هؤلاء بدورهم يعيدون بيع الأسرى الأرقاء إلى الإمبراطور (شارلكان) بأرباحٍ خياليَّة .

وانضمَّ الأسطول الفرنسي إلى الأسطول العثماني بأمر من ملك فرنسا . ووضع قائد الأسطول الفرنسي (الأمير فرانسوا دبو بوربون) قوَّاته تحت قيادة (خير الدِّين) باعتباره القائد العام للقوَّات المتحالفة (العثمانيَّة ـ الفرنسيَّة) وكان أوَّل عملٍ قام به (خير الدِّين) هو قيادة القوَّات لمهاجمة (نيس) وطرد حاكمها (دوق سافوا) وانتزاعها من الحكم الإسباني ، وإعادتها لملك فرنسا .

ثمَّ استقرَّ خير الدِّين بأسطوله في مدينة (طولون) وجعلها قاعدةً للجيش الإسلامي والأسطول الإسلامي ، بعد أن غادرها معظم سكَّانها بأمر ملك فرنسا ، وتركوها في أيدي المسلمين . ثارت ثائرة المسيحيَّة جمعاء ضدَّ هذا التصرُّف الفرنسي ، وأخذت الدِّعاية المضادة للمسلمين تجتاح أرجاء أوربة ، يحملها الإسبان ، وغلاة الصَّليبيَّة ، ويستثمرونها إلى أقصى الحدود . ومن ذلك قولهم : (إنَّ خير الدِّين قد اقتلع أجراس الكنائس ، فلم تعد تسمع في طولون إلا أذان المؤذِّنين) وبقي خير الدِّين ، والجند الإسلامي بمدينة طولون حتَّى سنة ١٥٤٤م .

وكان (شارلكان) أثناء ذلك قد هاجم شمال شرقي فرنسا ، وانهزم تحت جدران (شاتوتييري)[١] ثمَّ اضطر للذَّهاب إلى ألمانيا ، حيث كانت حركة التمرُّد البروتستانتي ـ ضدَّ الكاثوليكيَّة بصفةٍ عامَّةٍ ، وضده بصورةٍ خاصَّةٍ ـ قد أخذت أبعاداً خطيرةً . وأرغمه ذلك بعد أن هوى نجمه ، وذبل عوده ـ بنتيجة نكبته أمام الجزائر ـ

(١) انظر : خير الدين بربروسة للعسلي ، ص(١٦٦) .

إلى عقد معاهدةٍ مع ملك فرنسا يوم ١٨ أيلول (سبتمبر) ١٥٤٤م في مدينة (كريسبي دي فالوا) . ونتج عن هذه المعاهدة جلاء (خير الدِّين) وقوَّاته عن مدينة (طولون) ورجع إلى العاصمة (إستانبول) . وبما أنَّ الحرب لم تتوقف بين إسبانيا والمسلمين ، فقد استمرَّ (خير الدِّين) في ممارسة الأعمال القتاليَّة أثناء طريق عودته ، فتوقف أمام مدينة جنوة ، وارتاع مجلس شيوخها ، فأرسل له مجموعةً من الهدايا الثَّمينة مقابل عدم التَّعرض للمدينة بأذى ، فتابع (خير الدِّين) طريقه حتى وصل جزيرة (البا) الَّتي كانت تحت حكم إسبانيا ـ والَّتي أصبحت منفى نابليون بونابرت فيما بعد ـ فاحتلَّها ، وغنم ما بها ، كما احتلَّ عدداً من المدن السَّاحليَّة ، ومن بينها مدينة (لبياري) ورجع إلى العاصمة بسفنه مثقلةً بالغنائم ، فاستُقبل كأحسن ما تستقبل به الأمُّ أبناءها البررة .

ولم يعمِّر خير الدِّين بعد ذلك طويلاً ، ومضى إلى جوار ربِّه ، وكان قد سبقه رفيق جهاده حسن باشا الطوشي سنة ١٥٤٤م .

وغاب بوفاة (خير الدِّين) نجمٌ طالما أضاءت له سماء المسلمين في البرِّ والبحر ، وانطوت بغيابه صفحةٌ ناصعةٌ من صفحات الجهاد في سبيل الله ؛ لتبدأ صفحةٌ جديدةٌ .

لقد قاد خير الدِّين حروب الإيمان ، وحقَّق فوزاً عظيماً ، واتَّصف بالوفاء ، والإخلاص ، وإنكار الذَّات ، والاستعداد الدَّائم للتَّضحية ، والصِّدق ، والشَّجاعة بكلِّ أشكالها ، ويحفظ لنا التَّاريخ ردَّه على شارلكان عندما قال له : (يجب ألا تنسى : أنَّ الإسبان لم يخذلوا في معركةٍ ، وأنَّهم قتلوا أخويه إلياس ، وعروج ، وإن تمادى فيما هو عليه ، وركب رأسه فإنَّ عاقبته ستكون كعاقبة أخويه) . فأجاب خير الدِّين : (سترى غداً ، وإنَّ غداً ليس ببعيد : أنَّ جنودك ستتطاير أشلاؤهم ، وإن مراكبك ستغرق ، وإنَّ قوادك سيرجعون إليك مكلَّلين بعار الهزيمة) . وعندما حاصر شارلكان الجزائر بعد وفاة عروج بربروسة خرج له خير الدِّين وكلّه حزمٌ ، وعزمٌ ، وتلا على جميع قوَّاده وجنوده قوله تعالى : ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد : ٧] وتقدَّم للميدان ومعه رجاله ، وقال لهم : (إنَّ المسلمين في المشرق والمغرب يدعون لكم بالتَّوفيق ؛ لأنَّ انتصاركم انتصارهم ، وإنَّ سحقكم

لهؤلاء الجنود الصَّليبيِّين سيرفع من شأن المسلمين ، وشأن الإسلام)[١] .

(فصاحوا كلُّهم (الله أكبر) وهاجموا الإسبان ، فأبادوهم عن آخرهم)[٢] .

إنَّ هذه الصورة لا تختلف أبداً ، لا في شكلها ولا في مضمونها عن صور أولئك القادة المجاهدين في سبيل الله ، والَّذين خرجوا من جزيرتهم ، فحملوا إلى الدُّنيا رسالة الإسلام ، غير أنَّ الموقف العامَّ لم يكن في عهد (خير الدِّين) مشابهاً لما كان عليه أيام الفتح ، فقد أخذ الضَّعف طريقه إلى قلوب المسلمين ، وأنظمتهم ، فقد كانوا من قبل تحت قيادةٍ واحدةٍ لا تسمح لأعداء الدَّاخل بالظُّهور ، أو بممارسة دورهم في التَّأثير على التيار العامِّ ، في حين أصبح لهؤلاء دورهم في توجيه الأحداث ، وكان أخطر ما في الأمر : أنَّ هؤلاء كانوا يحتلُّون مراكز قياديَّةً تسمح لهم بممارسة دورٍ خطيرٍ ضدَّ مواطنيهم ، وإخوانهم في الدِّين .

لقد كان المحال تحقيق النَّجاح في مثل هذه العمليَّات لو لم تتوافر كفاءةٌ قياديَّةٌ عاليةٌ ، تتولَّى إدارة المعركة في كلِّ مرحلةٍ من مراحلها الصَّعبة .

وقد توافرت العوامل الثلاثة للنَّصر : شعبٌ مجاهدٌ في سبيل الله ، وتطبيقٌ رائع للعقيدة القتاليَّة الإسلاميَّة ، وقيادةٌ على درجةٍ عاليةٍ من الكفاءة .

بذلك انتصر (شعب الجزائر) وبذلك انتصر خير الدِّين ، فكتب شعب الجزائر مع خير الدِّين تحت سيادة الدَّولة العثمانيَّة قصَّته الرَّائعة في الجهاد ، والمجاهدين .

ولم يكن (خير الدِّين) قادراً على تحقيق ما يريده لولا ما قام به شعب الجزائر المجاهد ، وما كان شعب الجزائر ليصل إلى هدفه لولا توافر قيادةٍ حازمةٍ ، مارس (خير الدِّين) دوره في تكوينها ، ووضعها لتصبح على مستوى الأحداث .

لقد مضى خير الدِّين إلى جوار ربِّه راضياً مرضيّاً ، وبقي ، وبقيت الأمَّة الإسلاميَّة تردِّد على مدى الدَّهر تلك المواقف البطوليَّة الَّتي صنعتها العقيدة ، ومبادىء الجهاد ، وقيمه في سبيل الله[٣] .

---

(١) انظر : خير الدين بربروسة ، ص(١٧٠ ، ١٧١) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٧١) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٧٦) .

ثانياً : عزل حسن بن خير الدِّين عن الجزائر :

كان حسن بن خير الدِّين بربروسة بعد أن هزم السَّعديِّين في تلمسان ، ووطَّد دعائم الحكم العثماني فيها ٩٥٩هـ/ ١١٥١م ، انتهج سياسةً مضادةً لكلِّ الدُّول الأجنبيَّة ، بما فيها فرنسا الَّتي كانت ترتبط بالدَّولة العثمانيَّة بروابط رسميَّة جيِّدة ، ساعدت الفرنسيين على الإفادة من الامتيازات الاقتصاديَّة الَّتي منحت لها مع إستانبول ، والَّتي شملت جميع أقاليم الدَّولة العثمانيَّة ، غير أنَّ حسن بن خير الدِّين لم يلتزم بذلك ، وأعلن عداءه لفرنسا في مناسبات عديدةٍ ، فما كان من فرنسا إلا أن أرسلت سفيرها المعتمد في إستانبول إلى الجزائر بهدف معرفة المدى الَّذي سيصل إليه حسن بن خير الدِّين في عدائه لفرنسا ، وفيما إذا كان هذا العداء سيؤثر على العلاقة الاقتصاديَّة ما بين فرنسا وبيلربكية الجزائر .

اجتمع سفير فرنسا بالبيلربك حسن بن خير الدِّين ، وعرض عليه تقديم مساعدات عسكريَّة ؛ لتنفيذ مشروع الدَّولة العثمانيَّة في مهاجمة إسبانيا ، ونجدة مسلمي الأندلس ، لكنَّ حسن رفض هذا العرض ، لمعرفته بمواقف فرنسا السَّابقة من الدَّولة العثمانيَّة نفسها ، وأعلن صراحةً : أنَّ قضيَّة الجهاد هي قضيَّةٌ خاصَّةٌ بالمسلمين، وبيَّن بأنه لا ينتصر بكافر على كافرٍ، ورجع السَّفير الفرنسي إلى إستانبول، حتَّى أوغر صدر الباب العالي بقوله : (إنَّ السُّلطة الواسعة المطلقة التي يمارسها حسن بن خير الدِّين ومحاولته توسيع مملكته ستحطِّم وحدة الدَّولة العثمانيَّة ، وتهدِّد كيانها بالانقسام)[١] خاصَّةً : أنَّ والدته من الأسر الجزائريَّة المعروفة .

رأت الدَّولة العثمانيَّة : أنَّه لزاماً عليها تغيير سياستها في المنطقة خاصَّةً بعد أن صار المغرب حليفاً قوياً للإسبان ، ممَّا أدَّى إلى قلب الموازين الاستراتيجيَّة رأساً على عقب ، فاتَّخذ السُّلطان عدَّة تدابير لمواجهة الحالة الجديدة ، ومن ذلك عزل السُّلطان سليمان القانوني بيلر بك الجزائر حسن بن خير الدِّين بدعوى الإساءة إلى حسن الجوار مع المغرب ، كما دعا إلى الوحدة الإسلاميَّة ، وإلى حسن الجوار[٢] .

---

(١) انظر : الجزائر والحملات الصَّليبية للعسلي ، ص(٣٠ ـ ٣٢) .

(٢) انظر : بداية الحكم المغربي للسودان الغربي لمحمد الغربي ، ص(٩٠ ـ ٩١) .

أسندت الدَّولة العثمانيَّة بيلر بيكية الجزائر إلى صالح رايس في صفر ٩٦٠هـ/ يناير ١٥٥٢م بدلاً من حسن بن خير الدِّين[١] .

ثالثاً : رسالة السُّلطان سليمان القانوني إلى حاكم فاس محمَّد السَّعدي :

(. . . هذا مثالنا الشَّريف العالي السُّلطاني ، وخطابنا المنيف السَّامي الخاقاني لازال نافذاً مطاعاً بالعون الرَّباني ، والصَّون الصَّمداني أصدرناه إلى الجناب العالي الأميري الكبير الأكرمي الأفخمي الأكملي الأرشدي ، الأعدلي الهامي الماجد النَّصيري الذَّخيري الحسبي النَّسبي نسل السُّلالة الهاشميَّة ، فرع الشَّجرة الزَّكيَّة النَّبويَّة طراز العصابة العلويَّة المحفوف بصنوف لطايف عواطف الملك الصَّمد حاكم ولاية فاس يومئذٍ الشَّرف محمَّد دام علوُّه ، وزاد سموُّه .

أصدرنا هذا المثال الشَّريف العالي إلى جنابه العالي نخصُّه منا بسلامٍ بتكميل صلاة (الصِّلات) المحبَّة بالتَّحيَّات الطَّيبات ، وتتأكَّد بعطره صلات المودَّة بالتَّسليمات الزَّكيَّات وبعد . . فإنَّ الله جلَّت قدرته ، وعظمت مشيئته منذ أقامنا في دولةٍ هائلةٍ نركب خيولها ، ونعمةٍ طائلةٍ تسحب ذيولها ، وسيادةٍ سائدةٍ كالشَّمس وضحاها ، وسعادةٍ ساعيةٍ كالقمر إذا تلاها ، وخصَّنا خلافةً جليلةً عضد الإيمان بها منصورٌ ، منحنا سلطةً ساعد الإسلام بها مرفوعٌ ، لا جرم وجب علينا ، وتحتَّم على ذمَّتنا أداء (شكر) هذا اللُّطف الجسيم ، والإحسان العميم ، ﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الجمعة : ٤] ودائماً عادتنا الاهتمام بإجراء الشَّرع المبين ، وإنفاذ سنة الأولين عليه الصَّلاة وعلى آله أجمعين ، والقيام في إطفاء نايرة الكفر والطُّغيان ، وطيِّ الظُّلم ، والعدوان ، ونشر العدل ، والإحسان ، ولمَّا بلغ سمعنا الشريف أنَّ أمير الأمراء بولاية الجزائر سابقاً حسن باشا لم يحسن المجاورة مع جيرانه ، ومال إلى جانب العنف ، والاعتساف ، ونبذ وراء ظهره طرق الوفاق ، والائتلاف ، وسدَّ باب الاتِّحاد مع المجاهدين حماة الدِّين ، لذلك بدَّلناهم غيره ، فأنعمنا بولاية الجزائر على مملوك حضرتنا العليَّة ، وخلاصة خدام أعتابنا الجليلة أمير الأمراء الكرام كبير الكبراء الفخام ذي الجلال ، والإكرام ، والاحترام ،

(١) انظر : المغرب في عهد السَّعديِّين ، عبد الكريم كريم ، ص(٧٩) .

صاحب الفرد والاحتشام ، المختصّ بمزيد عناية الملك الأعلى صالح باشا دام إقباله لفرط شهامته ، وشجاعته ، وكمال دينه ، وديانته ، فوضنا إليه تلك الديار ، وأمرنا بإقامة الشِّراع (الشَّرع) الشَّريف المتين ، وإحياء توقير سيِّد المرسلين ، وصون الرَّعايا ، وحفظ البرايا الَّذين هم ودائع الله تعالى وأن يكون مع الأهالي الإسلام على أكمل اتِّحاد ، وأجمل اتِّفاق ، مجدّاً فيما يتعلَّق بالدَّولة والدِّين وقيام ناموس سلطاننا المتين ، مثابراً على دفع أعداء الدِّين ، وقمع الكفرة الفجرة المتمرِّدين ، على أنَّ أقصى مراد حضرتنا العليَّة إحياء مراسم الإسلام ، وإطفاء ثائرة الكفرة والمتمرِّدين اللِّئام ، وذلك المرام يكون باتِّفاق أمراء الإسلام ، واتِّحاد أمناء شرع الأنام ، ويتمُّ به النِّظام ، ولا ينفي لآثارهم في الشُّهور والأعوام .

وأمرناه أيضاً أن ينظر إلى أحوال المسلمين بنظر الإشفاق والمراحم ، وينظر بينهم بكمال العدالة ، وحسن المكارم ؛ ليكونوا في أيام دولتهم العادلة آمنين مطمئنين ، لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون .

ولا بدَّ لكم أن تحسنوا المجاورة ، وتذهبوا طريق حسن المعاشرة مع كونكم أولاد سيِّد الأنبياء ، وأحفاد سيِّد الأصفياء ، سمعنا عدلكم ، وإنصافكم ، وبكمال التَّقوى ، وصفات الكمال اتِّصافكم ، ولذلك الشَّأن كتبنا إليكم منشوراً يوجب مضمونه المصافاة ، ويشفي مكنونه أن تكون المودَّة في أقصى الغايات ، ولكم أن تنبئوا بأخبار صحَّتكم الغالية إلى أعتابنا العالية . . .)[(١)] .

تحريراً في أوائل شهر محرم سنة تسع وخمسين وتسعمئة ، الموافق يناير ١٥٥٢م بمقام أدرنة .

كما بعث السُّلطان سليمان القانوني بخطابٍ آخر إلى حاكم المغرب محمَّد الشَّيخ السَّعدي ، يمنحه بخلعٍ ، والخطاب عبارة عن مرسومٍ سلطانيٍّ قال فيه : (. . هذا مثالنا الشَّريف . . إلخ أصدرنا إلى الجناب العالي حاكم فاسٍ يومئذٍ الشَّريف محمَّد . . . نخصُّه بسلام تتكمَّل به صلات المحبَّة بالتَّحيَّات الطَّيِّبات ، وتتأكَّد بعطره صلات المودَّة بالتَّسليمات الزَّاكيات ، وبعد :

(١) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٣٦٤) .

فإِنَّ الله جلَّت قدرته ، وتعالت عظمته منذ أقامنا في دولة هائلةٍ نركب خيولها ، ونعمةٍ طائلةٍ نسحب ذيولها ، وسيادةٍ سائدةٍ كالشَّمس وضحاها .

وإِمضاء سني سنن سيِّد الأولين والآخرين ، ومظاهرة حماة الدِّين ومجاهدين الكفرة المتمرِّدين ، وأنت من أولاد سيِّد المرسلين ، وقائد الغرِّ المحجَّلين صلوات الله عليه ، وسلامه ، وقد سمع سيادتنا العليَّة حسن إقدامك ، وكمال دينك ، وديانتك ، وخلوص طويَّتك ، وصفاء سيرتك ، وقيامك في الذَّبِّ عن المسلمين ، وقمع أعداء الدِّين ، ولذلك الشَّأن حباك إِحساننا الشَّريف العالي السُّلطاني ، ورعاك جزيل فضلها السَّامي الخاقاني ، فأنعمنا عليك ، وعلى والديك بثلاث خلعٍ سنيَّة لتكون صلةً للمحبَّة منَّا ، وسبباً لنسج المودَّة بيننا ، على أنَّ أقصى مراد حضرتنا العليَّة أن تكون أهالي الإِسلام ، وحماة دين النَّبيِّ عليه السَّلام في أيام دولتنا العادلة في أكمل الرَّاحة ، وأجمل الاستراحة آمنين مطمئنِّين ، لا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون إن شاء الله تعالى . . .)[١] .

رابعاً : مرسوم السُّلطان العثماني بتقليد صالح رايس مقاليد الولاية :

بعث السُّلطان العثماني مرسومه إِلى العلماء والفقهاء ، وسائر رعايا الجزائر يعلمهم فيه بتقليد صالح رايس مقاليد الولاية ، وقد جاء في ذلك المرسوم ما يلي :

(. . . . هذا مرسومنا . . أرسلناه إِلى العلماء ، والفضلاء ، والفقهاء ، والأئمَّة ، والخطباء ، وجميع العلماء ، والقوَّاد ، والنُّقباء ، وسائر رعايانا بولاية الجزائر الغربيَّة ، زيد توفيقهم يتضمن إِعلامهم : أن صدقاتنا الشريفة العالية الخاقانيَّة ، وعوارضنا السَّنيَّة السَّامية السُّلطانية قد أنعمت على مملوك حضرتنا العالية ، ومعتمد دولتنا القانية أمير الأمراء الكرام . . صالح باشا دام إِقبالاً ، بولاية الجزائر لفرط شهامته ، وشجاعته ، وكمال قوَّته ، وصلابته ، وحسن سيرته ، وصفاء سريرته ، فوَّضنا إِليه تلك الأرض ، وأمرناه بإِحياء السُّنن ، والفروض ، والرَّعايا الَّذين هم ودائع الله تعالى ، وحفظ الثُّغور ، وسد خارق الأمور ؛ لتكون رعايا أهل الإِسلام ثمَّة في أيام دولتنا العادلة في أكمل الرَّاحة ، وأجمل الاستراحة ،

(١) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٣٦٥) .

آمنيـن مطمئنيـن ، لا خـوف عليهـم ، ولا هـم يحـزنـون ، فليكـونـوا مـع أميـر الأمـراء المشـار إليـه علـى أحسـن حـالٍ ، وأكمـل اتِّفـاق ، مـراد حضـرتنـا قيـام قاموس الشَّرع القويم ، والصِّراط المستقيم ، وإِحيائه مراسم الإسلام ، وطريقة سيِّد الأنام ، وحفظ العباد ، وصون البلاد ، وقمع الكفرة الفجرة بكلِّ نادٍ ، وتقبلوا ذلك ، وتعتمدونه ، والله تعالى هو الموفق بمنِّه ، ويمنه ، والعلامة الشَّريف حجَّةٌ بمضمونه)[1] .

تحريراً في أوائل محرَّم سنة تسع وخمسين وتسعمئة الموافق يناير ١٥٥٢م .

* * *

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٣٦٦) .

المبحث السَّابع

سياسة صالح رايس

عمل صالح رايس في سياسته الدَّاخلية على تحقيق أمرين :

١ ـ تحقيق الوحدة بصفةٍ تامَّة مطلقةٍ بين كلِّ أجزاء الجزائر .

٢ ـ إدخال بقيَّة أجزاء الصَّحراء الجزائريَّة ضمن هذه الوحدة ؛ حتَّى يتفرَّغ للأندلس .

أمَّا سياسته الحربيَّة الخارجية فقد كانت ترمي إلى ثلاثة أهداف :

أولها : إبعاد الإسبان نهائياً عن أراضي الجزائر .

ثانيها : وضع حدٍّ فاصلٍ للمشاغبات ، والمفاجآت الَّتي تقوم بها الدَّولة المغربيَّة السَّعدية .

وثالثها : إعلان نفير الجهاد العام ، والسَّير برّاً ، وبحراً على رأس الجيوش الإسلاميَّة إلى بلاد الأندلس(١) .

ابتدأ صالح رايس في مستهل ولايته بتحقيق الوحدة الدَّاخليَّة ، واستطاع أن يخضع الإمارات المستقلَّة لنفوذ الدَّولة العثمانيَّة ، وأصبح وضع العثمانيِّين في الجزائر أقوى ممَّا كان عليه ، ثمَّ بدأ صالح رايس في مخطَّطه نحو المغرب الأقصى ، واستفاد من الظُّروف الَّتي تمرُّ بها تلك الدِّيار ، ووقف مع أحد أفراد أسرة بني وطَّاس الَّذي فقد أمله في وقوف الإسبان ، والبرتغاليِّين معه .

وتحرَّكت القوَّات العثمانيَّة للوقوف مع أبي حسُّون الوطَّاسي ، وحصلت اصطداماتٌ عسكريَّةٌ بين قوَّات محمَّد الشَّيخ ، والقوَّات العثمانيَّة قرب بادس ؛ الَّتي رسا بها الأسطول العثمانيُّ إلا أنَّ الهزيمة لحقت بالقوَّات السَّعديَّة ، ممَّا أفسح المجال أمام العثمانيِّين لكي يواصلوا زحفهم نحو الدَّاخل ، وقبل أن تنتهي سنة

---

(١) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٣٦٦) .

٩٦٣هـ/ ١٥٥٣م ، سقطت مدينة تازة في يد العثمانيِّين الَّذين اشتبكوا مع السَّعديِّين في معارك متواصلةٍ أهمُّها بكدية المخالي في ساحة فاس ، عند ذلك تقدَّمت القوَّات العثمانيَّة ، ومعها أبو حسون نحو فاس الَّتي دخلتها في ٣ صفر سنة ٩٦٤هـ/ ٨ يناير ١٥٥٤م[١] .

وأعلن الباب العالي ضمَّ المغرب إلى الدَّولة العثمانيَّة بعد أن خطب الإمام السُّلطان العثمانيّ[٢] .

ازداد فزع الإسبان ، والبرتغال لرؤية الأساطيل العثمانيَّة ، وهي تسيطر على بعض الموانىء المغربيَّة القريبة من مراكز احتلالهم الَّتي سيطر عليها العثمانيُّون ، ومن ثمَّ التَّوجُّه للأندلس ، وقد جاء في الرِّسالة الَّتي بعثها الملك البرتغاليُّ (جان الثالث) إلى الإمبراطور شارل الخامس ، ما يدلُّ على هذا الفزع ؛ إذ كتب إليه يحثُّه على التَّدخُّل في المغرب للحيلولة دون توطيد العثمانيِّين لأقدامهم في هذه البلاد ؛ لأنَّ ذلك يشكِّل خطراً كبيراً على مصالح الأمَّتين[٣] .

مكث صالح رايس بمدينة فاس أربعة أشهر ضمن خلالها استقرار الأمور للدَّولة العثمانيَّة ، وفي خلال تواجده في فاس لم يترك الجهاد ضدَّ الإسبان ، فأرسل فرقةً من جيشه إلى الرِّيف المغربي استرجع من الإسبان معقلهم الكبير باديس ، أو صخرة فالين كما يدْعونها[٤] ، كما حاول صالح رايس أن يستبدل الباشا العثماني بوحسون بالشَّريف الإدريسي الرَّاشدي مولاي بوبكر ، بناءً على اقتراح المرابطين الصُّوفيِّين للقيام على حكم فاس باسم السُّلطان العثماني ، إلا أنَّ ثورة الأهالي اضطرت صالح رايس لإعادة بوحسون إلى حكم فاس ، فأذعن بوحسون لشروط العثمانيِّين بشأن الحفاظ على السِّيادة العثمانيَّة من حيث الخطبة باسم السُّلطان العثماني ، وإقامة حاميةٍ عثمانيَّةٍ في مقرِّ بلاطه[٥] .

---

(١) انظر : المغرب في عهد الدَّولة السَّعديَّة ، ص(٨٠ ـ ٨١) .
(٢) انظر : بداية الحكم المغربي في السُّودان الغربي ، ص(٩١) .
(٣) انظر : المغرب في عهد الدَّولة السَّعدية ، ص(٨١) .
(٤) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص(٣٤٢) .
(٥) انظر : أطوار العلاقات المغربيَّة العثمانيَّة ، إبراهيم شحاتة ، ص(١٤٧) .

●●تمهيده للعمل المشترك في استرداد الأندلس :

لم يكن صالح رايس يهتمُّ قبل كلِّ شيء إلا بمحاربة الإسبان ، ولا يهدف من وراء أيِّ عمل إلا جمع القوى الإسلاميَّة من أجل تطهير البلاد من التواجد المسيحي ، كان يرى قبل كل شيءٍ وجوب طرد الإسبان من وهران ، قبل النُّزول إلى الأندلس ، لكن كيف يتسنَّى له ذلك ، وسلطان السَّعديين بالمغرب يترقَّب به الفرص ، وسلطان قلعة بني عباسٍ ببلاد بجاية يعلن انفصاله ، واستقلاله ، ترامت لصالح رايس يومئذٍ الأنباء عن ضعف القوى الإسبانيَّة بمدينة بجاية ، علاوةً عن معاناة الحامية بالضِّيق ، فرأى صالح أن يغتنم الفرصة ، وأن يبدأ بتطهير الشَّرق من الإسبان قبل أن يطهِّر الغرب ، ولعلَّ إنقاذ بجاية سيكون له أثرٌ في عودة ملك بجاية إلى حظيرة الوحدة الإسلامية ، وتحت ضغط السُّكان سار صالح رايس في ربيع أوَّل سنة ٩٦٣هـ/ يناير ١٥٥٥م نحو مدينة بجاية على رأس قوَّةٍ كبيرةٍ بنحو ثلاثين ألف رجلٍ ، عزَّزهم في الطَّريق بالمجاهدين في إمارة كوكو ، فوطِّدت الجيوش العثمانيَّة ، وحاصروا المدينة ، بينما جاء الأسطول العثماني يحمل الأسلحة والمدافع بجانب الجيش ، وصوَّب المسلمون قذائفهم على القلعة[١] ودارت معركةٌ عنيفةٌ ، ونجح صالح رايس في انتزاع بجاية من الإسبان في ذي القعدة سنة ٩٦٣هـ/ سبتمبر ١٥٥٥م ، ولم يستطع حاكم نابولي من نجدة حاكمها في الوقت المناسب[٢] ، كما استسلم الحاكم الإسباني للقوَّات العثمانيَّة[٣] .

أولاً : مقتل بوحسون الوطَّاسي :

واجه بوحسون منافسة محمَّد الشَّيخ السَّعدي ، الَّذي جمع قواتٍ من السُّوس ، والحوز ، وأتى بجنوده إلى أن وصل رأس الماء من أحواز فاس[٤] ، وكان بوحسون بعد انسحاب العثمانيِّين قد أخذ في إعداد الجيوش ، وآلات الحرب إلى أن انقضت

---

(١) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص(٣٤٣ ـ ٣٤٤) .
(٢) انظر : تاريخ الجزائر الحديث ، محمد خير فارس ، ص(٤١) .
(٣) انظر : تاريخ الجزائر العام (٣/ ٨٨) .
(٤) انظر : تاريخ أفريقية الشَّمالية ، شارل جوليان (١/ ٣٤٤) .

ثمانية شهور ، فأمر بالخروج لمواجهة مولاي محمَّد الشَّيخ ، والوصول إلى مراكش ، ولمَّا تقابل الجيشان قام بينهم قتالٌ عظيمٌ ، واستطاع بوحسون أن يُنزل بالسَّعديِّين هزيمةً شنيعةً حتَّى استطاع أن يردَّهم على أعقابهم ، ثمَّ أرسل بوحسون لمولاي محمَّد الشَّيخ ، وقال له : اخرج أنت وأولادك إلى لقائي ، وأنا أخرج إليكم بنفسي ، ونترك المسلمين بدون قتال ، فتظاهر محمَّد ، ورجع إلى والده ، وإخوته السِّتَّة الَّذين اجتمعوا على بوحسون ، فجعل يطاردهم حتَّى طمر به فرسه ، فسقط ، فطعنوه ، فاحتزُّوا رأسه ، وأتوا به جيشه ، فانهزموا بلا قتالٍ ، وأخذ محمَّد الشَّيخ فاس[١] ، وهكذا مات بو حسون بعد تسعة شهور من عودته لحكم فاس ، وإن كانت ضاعت بموته الفرصة الأولى لإعلان السِّيادة العثمانيَّة على فاس ، إلا أنَّ أحداث هذه الوقائع كانت تعني : أنَّ الفرصة ما زالت واسعةً أمام العثمانيِّين لتطبيق غزوهم المحلِّي للمغرب ، لا سيما وأنَّ محمَّد الشَّيخ السَّعدي باسم القضاء على الحزب العثماني بين المغاربة أنزل القتل في أكثر من مئتين من كبار أعيان فاس فضلاً عن الفقيهين المرينيين : والي محمَّد عبد الوهاب الزَّقاق قاضي فاس ، ووالي الحسن علي حزُّوز خطيب فاس[٢] .

ثانياً : التعاون البرتغالي الإسباني السَّعدي ضدَّ العثمانيِّين :

بعد عودة فاس للسَّعديين ظهر محمَّد الشَّيخ كخصمٍ عنيد للعثمانيِّين ، ومن المعارضين لسياستهم التوسُّعيَّة في بلاد المغرب ، بل والأكثر من ذلك : أنَّه أعلن إثر دخوله فاس بأنَّه عازم على الذَّهاب إلى الجزائر لمنازلة العثمانيِّين هناك ، فهذا التَّنافس السَّعدي العثماني على شمال أفريقية ، بل وعلى الخلافة الإسلاميَّة كان في صالح الإسبان ، والبرتغال ، ولا عجب إذا رأينا بعد ذلك تقارباً بين هؤلاء جميعاً ضد العثمانيِّين[٣] .

بعث الملك جون الثَّالث رسالةً إلى حاكم مازكان البرتغالي الفارودي كالفولو رداً على الطَّلب الَّذي تقدَّم به المولى محمَّد الشَّيخ إلى كلٍّ من مدريد ، ولشبونة

(١) انظر : تاريخ الدَّولة السَّعدية لمؤلفٍ مجهول ، ص(٢٠ ، ٢١) .
(٢) انظر : أطوار العلاقات المغربيَّة ، ص(١٤٨) .
(٣) انظر : تاريخ الدَّولة السَّعديَّة ، عبد الكريم كريم ، ص(٨٣) .

لتزويده بقوَّاتٍ عسكريَّة ضدَّ العثمانيِّين ، كما حدَّدت الرِّسالة بعض الشُّروط الَّتي يراها البرتغاليُّون لمساعدة السَّعديِّين كتسليم بعض المراكز البحرية المغربيَّة مثل بادس بنيون والعرائش ، بالإضافة إلى تموين القوَّات المسيحيَّة الَّتي سيرسلها لمساعدته ، وأخيراً يختتم الملك البرتغالي يوحنَّا الثَّالث بضرورة إخبار الإمبراطور الإسباني بذلك للتَّنسيق في عملٍ مشترك ضدَّ العثمانيِّين ، ونتيجةً لهذا التقارب فقد عقدت هدنة بين السَّعديِّين والبرتغال بواسطة حاكم مازكان لمدَّة ستة أشهر ، وذلك في مطلع ٩٦٢هـ/ ١٥٥٥م ، وظلَّ مفعول هذه الهدنة زمناً طويلاً .

إذا كان حاكم مازكان هو الَّذي قام بدور الوساطة مع السَّعديين فإنَّ المزوار بوغانم هو الَّذي كُلِّف من قبل المولى محمَّد الشَّيخ بالوساطة مع الإسبان ، وأوَّل رسالة للمنصور في هذا الصَّدد ، تلك الَّتي بعثها إلى حاكم وهران الإسبانيِّ الكونت دي الكودين في مطلع ربيع أوَّل ٩٦٣هـ/ يناير ١٥٥٥م ، وقد أخبر المزوار الكونت الإسباني بوصول رسائله ، وأنَّه أعلم بها المولى محمَّد الشَّيخ ، وابنه عبد الله اللَّذين أعربا عن سرورهما لقدوم وفد إسباني للتَّفاوض معه ، وقد أرسل حاكم وهران بالفعل إلى فاس وفداً يتألَّف من ثلاثة أشخاص جاؤوا للاتِّفاق مع المولى محمَّد الشَّيخ حول إعداد حملةٍ مشتركةٍ إسبانيَّة ، مغربيَّة ضدَّ العثمانيِّين(١) .

وقد جاء في التقرير الَّذي رفعه الوفد للكونت حاكم وهران الإسبانيِّ الَّذي أشرف على سير المحادثات (. . . بعد أن أسلمناه الرَّسائل . . طلب إلينا الملك السَّعدي أنْ نقول له شفوياً عن سبب المهمَّة الَّتي قدموا من أجلها إلى فاس . . إنَّنا جئنا استجابةً لطلب مولاي عبد الله ، والقائد منصور بن غانم ، حيث طلب من حاكم وهران إرسال بعض الرِّجال للتَّفاوض في أمر الجزائر .

أجابنا الشَّريف بأنَّه لا يزال عند فكرته ، وأنَّه يرغب في طرد العثمانيِّين من بقايا أفريقية ، ومن أجل ذلك فهو يطلب من جلالة الإمبراطور إمداده بعشرة آلاف مقاتل مسلَّحين بأسلحةٍ ناريَّةٍ ، وأنَّه (أي : الشريف) يرى بأنَّه من المناسب أن يقوم جلالة الإمبراطور بكلِّ ما يلزم لهؤلاء المقاتلين من نفقات ، ذلك لأنَّ طرد العثمانيِّين إنَّما

(١) انظر : تاريخ الدَّولة السَّعديَّة ، ص(٨٣ ، ٨٤) .

هو عمل تستفيد منه ممالك الإمبراطور ، والمسيحيَّة جمعاء . . . وطالت المذكرات كثيراً ، وأخيراً علَّمني القائد برشميده ، بأنَّ الشَّريف قد ادخر كثيراً من المال لمحاربة العثمانيِّين ، وأنَّه يسعده أن يُعِين الإمبراطور على ذلك ، وأنَّ الأمر مستعجلٌ جداً . . .) .

(. . . جاء ذكر الجزائر ماذا نصنع بها بعد احتلالها ، فكان من رأي الملك السَّعدي تحطيم هذه المدينة وإزالتها تماماً ، أما أهلها فتؤخذ أموالهم ، وإذا امتنعوا ؛ فيُقتلوا ، ورفض الملك السَّعدي أن يؤخذوا عبيداً للمسيحيِّين ، وذكر الوفد : أنَّ الأتراك أجانب عن البلاد ، وأنَّهم أعداءٌ له ، فيجب معاملتهم معاملة الأعداء ، أمَّا العرب فيمكن أن تترك لهم حرِّيَّتهم في حالة استسلامهم دون مقاومةٍ . إلا أنَّ الملك السَّعدي أوضح أنَّه لن يسمح أبداً بأن يصبح أيُّ عربيٍّ عبداً ، لأنَّ هذا مخالفةٌ للشَّريعة)(١) .

يتبيَّن من خلال ذلك مدى حقد الشَّريف السَّعدي على العثمانيِّين ، الَّذي لم يتورَّع في الاستنجاد بالقوى المسيحيَّة : إسبانيا ، والبرتغال في سبيل تحقيق أهداف شخصيَّة ، حتَّى لو كان على حساب عقيدته الإسلاميَّة ، ومصالح المسلمين .

نتيجةً لذلك التقرير فقد بعث الكونت الكوديت حاكم وهران ذلك إلى الأمير فليب بن الإمبراطور شارل مشفوعةً بخطاب هذا نصُّه : (. . . يجب علينا أن نعتبر أنفسنا سعداء جدّاً في الوقت الَّذي يبذل فيه ملك فرنسا عدوُّنا الألدُّ كلَّ جهوده للحصول على أسطول السُّلطان العثمانيِّ ، حتَّى يهاجم ممتلكات جلالة الإمبراطور ، وكون أميرٍ عربيٍّ يعرض علينا نفوذه في مهاجمة العثمانيِّين في الجزائر ، ومحاربتهم ، وإبعادهم عن الأرض الَّتي يحتلُّونها في أفريقية ، وذلك فيما إذا قدَّمنا له اثني عشر ألفاً من المقاتلين الإسبان على حسابه ، كذلك يتعهَّد الشَّريف السَّعدي في حالة الموافقة أن أبعث بأحد أبنائي رهينةً لديه ، وأن يضع المال اللازم لتجهيز هذه الحملة بكلِّ سرعةٍ ، وبما أنَّ هذه الصَّفقة ستجرُّ خيراً عظيماً على جلالته ، وعلى المسيحيَّة جمعاء فأنا لا أتردَّد في قبول طلب الشَّريف ، وأرسل إليه ابني رهينةً

(١) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص ٦١ ، ٦٢ .

حتَّى لو كنت على يقينٍ : أنَّه يريد أن يذبحه ، بل إِنَّني وجميع من حولي مستعدُّون لتقديم أنفسنا كرهائن حتَّى لو كان الشَّريف يريد بيعنا عبيداً . . . .)[١] .

ثالثاً : المخابرات العثمانيَّة تكتشف المؤامرة :

اطَّلع صالح رايس على تلك المؤامرة الَّتي كانت تحاك ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة بين ملك المغرب والإسبان ، والَّتي كان هدفها طرد العثمانيِّين من الجزائر ، لأنَّه طالما أنَّ الدَّولة في الجزائر معناه خطرٌ على إسبانيا ، فبعث صالح رايس للباب العالي يخبره بشأن تلك المحادثات ، فكان جواب السُّلطان سليمان سريعاً ، وحاسماً بوجوب مهاجمة وهران قبل أن تسفر المحادثات بين الجانبين السَّعدي ، والإسباني عن نتيجة عمليَّة ، فأرسل السُّلطان سليمان أربعين سفينةً لمساعدته في الاستيلاء على وهران ، والمرسي الكبير ، ومنذ ذلك الوقت كانت الهجرة والتجنيد الطوعي من مختلف أنحاء الدَّولة العثمانيَّة هي التي تغذِّي الأوجاق ، الَّذي كان تبعاً لذلك يتجدَّد على الدَّوام[٢] .

رابعاً : وفاة صالح رايس :

استعدَّ صالح رايس لفتح وهران ، وضمَّ أسطوله إِلى جانب أسطول السُّلطان وصار لديه نحو سبعين سفينةً ، واجتمع لديه من الجند ما يقارب من أربعين ألف جنديٍّ ، وكان ينوي من إِتمام زحفه هذا بالمسير إِلى مراكش للقضاء على الفتن ، والاضطرابات ، وإِخضاعها لسلطانه ، ولكنَّ القدر لم يمهله ، فتوفي صالح رايس بالطَّاعون في شهر رجب ٩٦٣هـ/ ١٥٥٦م عن عمر سبعين سنةً[٣] .

إِنَّ الدَّولة العثمانيَّة سعت إِلى ضمِّ المغرب في نطاق توحيد البلاد الإِسلاميَّة ، والوقوف بها صفاً واحداً ضدَّ الهجمات المسيحيَّة ، ذلك أنَّ استقراره في قواعد بحريَّة تنتشر على طول سواحل المغرب الأقصى المطلَّة على المحيط الأطلسي ، يعني في حقيقة الأمر نجاح الأساطيل العثمانيَّة في اعتراض الطُّرق البرِّيَّة للبرتغال ،

---

(١) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص(٣٦٤ ، ٣٦٥) .
(٢) انظر : تاريخ الجزائر الحديث ، ص(٨١) .
(٣) تاريخ الجزائر العام للجيلالي (٣/ ٨٨ ـ ٨٩) .

أو إسبانيا مع العالم الجديد ، والشَّرق ، من هنا نرى أنَّ نجاح الفكرة كان يعتمد أساساً على وصول العثمانيِّين إلى تلك السَّواحل ليشاركهم في ذلك المجاهدون الَّذين عملوا سنواتٍ طويلةً تحت إمرة أمراء البحر العظام ، أمثال خير الدِّين ، وعروج بربروسة ، وصالح رايس(١) .

قام القائد يحيى بإكمال خطة صالح رايس ، فأبحر نحو وهران ، وفي الطَّريق وصلت الأوامر السُّلطانيَّة بتعيين حسن قورصو لمنصب بيلرباي ، ووصلت الجيوش البرِّيَّة ، والبحريَّة إلى وهران ، وحوصرت حصاراً شديداً ، إلا أنَّها لم تفتح رغم استعدادات العثمانيِّين الكبيرة ، وذلك بسبب النَّجدات المتواصلة الَّتي كانت تبعثها إسبانيا إلى المدينة المحاصرة(٢) .

خامساً : احتلال محمد الشَّيخ السَّعدي لتلمسان :

انتهز الشَّريف السَّعدي محمَّد الشيخ فرصة عودة الأسطول العثماني إلى إستانبول ، فأسرع بإرسال جيوشه نحو تلمسان الَّتي كان رجالها قد انضموا إلى صفوف المجاهدين في محاولتهم لاسترجاع وهران ، فدخلها الشَّريف السَّعدي على غفلةٍ ، ووضع على رأسها القائد ابن غنَّام زعيم قبائل بني راشد ، ووزير آخر ملوك الزيانيِّين المحتمين بإسبانيا ، أمَّا الحامية العثمانيَّة الموجودة في تلمسان بقيادة القائد محمود صفا بك ، فقد استطاعت الصُّمود في وجه السَّعديين ، حتَّى احتوت ذلك الهجوم السَّعدي .

إنَّ السَّعديين كانوا يرون في ضمِّ تلمسان عاملاً قويّاً في توطيد سيطرتهم على المغرب الشَّرقيِّ لصدِّ كلِّ تدخلٍ عثمانيٍّ في المغرب ؛ بعكس العثمانيِّين الَّذين كانوا يرون في التَّمركز بتلمسان تدعيماً لوجودهم في الجزائر، وقاعدةً حصينةً لغزو المغرب(٣)، باعتبارها أقرب نقطة للوصول للأندلس، كما أنَّ شواطىء المغرب الشَّمالية، والغربيَّة تعتبر قواعد رئيسيَّة لتهديد المواصلات البحريَّة للبرتغاليِّين والإسبان(٤) .

---

(١) انظر : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص(٣٤٣) .
(٢) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص(٣٦٦ ، ٣٦٧) .
(٣) انظر : صراع المسلمين مع البرتغاليِّين في البحر الأحمر ، ص(٣٤٥) .
(٤) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٣٧٨) .

بدأت الدَّولة العثمانيَّة بتغيير سياستها مع الحكَّام السَّعديِّين ، عندما بعث السُّلطان سليمان القانوني برسالة إِلى سلطان الدَّولة السَّعدية يهنِّئه بما أحرزه من انتصاراتٍ ، ويعلمه لما كان عليه بنو مرين من الهدايا ، والردِّ ، والخدمة ، والميل إِليه ، وأنَّ السلطان في نصرتهم ، وقد سبق وأن ظهر ذلك في آخر ملوك دولتهم بوحسون ، الَّذي زوَّده بأربعة آلاف جنديٍّ كان ذلك في محاولة من السُّلطان لتكوين اتِّحادٍ إِسلاميٍّ كبير يواجه به الأخطار الخارجيَّة ، غير أنَّ ذلك قوبل بالرَّفض من السُّلطان السَّعدي محمَّد الشَّيخ ، الَّذي ردَّ على مبعوث السُّلطان بقوله : (سلم على أمير القوارب سلطانك وقل له : إِنَّ سلطان المغرب لابدَّ أن ينازعك على محمل مصر ، ويكون قتاله معك عليه إِن شاء الله ، ويأتيك إِلى مصر ، والسَّلام)(١) .

يظهر من ذلك استياء محمَّد الشَّيخ الَّذي لم يكن يرى شرعيَّة الخلافة العثمانيَّة ، كما أظهر طموح محمَّد الشَّيخ الَّذي كان يحلم بإِمامة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها(٢) .

سادساً : مقتل محمَّد الشَّيخ :

قتل محمَّد الشَّيخ في عام ٩٦٤هـ/ ١٥٥٧م من قبل حرسه الخاص ، وتطوَّرت الأحداث بالمغرب وخاصَّةً فيما يتعلَّق بالدَّولة السَّعديَّة ؛ إِذ لم يعد هناك مجالٌ للشَّكِّ في أنَّ العثمانيِّين إِنما يسعون جادين للاستيلاء على المغرب لا باعتباره الجزء المتمِّم للشَّمال الأفريقي فحسب ، بل ولأهميته الاستراتيجيَّة كأقرب نقطة إِلى بلاد الإِسبان ، والبرتغال(٣) .

●●عودة حسن بن خير الدِّين إِلى الجزائر :

رأى السُّلطان العثماني ضرورة إِعادة حسن بن خير الدِّين إِلى الجزائر ، وذلك بعد مصرع حسن قور عام ٩٦٤هـ/ ١٥٥٧م بعد انقطاعٍ استمرَّ لعدَّة أعوام قضاها في

(١) تاريخ الدَّولة السَّعدية لمؤلف مجهول ، ص(٢٦ ، ٢٧) .
(٢) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٣٧٩) .
(٣) انظر : تاريخ الدَّولة السَّعدية ، عبد الكريم كريم ، ص(٨٥) .

الجهاد في مواطن أخرى ، واستبشر النَّاس برجوعه ، وشرع في ترتيب أمور الجزائر ، فنظَّم الإدارة ، ورتَّب الجيش ترتيباً أعانه على ضبطه ، وبدأ في رحلته الجهاديَّة ، ووضع أمامه هدفين عظيمين : تطهير الشَّمال الأفريقي من الوجود المسيحي ، واسترداد الأندلس لحوزة المسلمين(١) .

سابعاً : الثَّورات الدَّاخلية في المغرب الأقصى :

اندلعت الثَّورات المناهضة للإمارة السَّعدية بعد مقتل محمَّد الشَّيخ في تارودانت ، فقامت ثورة المولى عثمان في السُّوس بالجنوب في جمادى الأولى عام ٩٦٥هـ/ فبراير عام ١٥٥٨م ، وثورة المولى عمر في دبدو بالمشرق في رجب عام ٩٦٥هـ/ أبريل عام ١٥٥٨م وثورة المولى عبد المؤمن في مراكش في ربيع الأول عام ٩٦٦هـ/ ديسمبر عام ١٥٥٨م ، ثمَّ كانت المذبحة الجديدة الَّتي أنزلها عبد الله الغالب بثلاثةٍ من إخوته لرفضهم البيعة بولاية العهد لابنه محمَّد المتوكِّل ، ممَّا اضطر إخوته للهروب إلى تلمسان ، والجزائر ، فهرب المولى عمر ، والمولى عبد المؤمن ، وعبد الملك ، وأحمد المنصور ، وذلك خوفاً من القتل(٢) .

قصد عبد الله الغالب إلى مراكش ، ثمَّ تارودانت حيث انتقم من قتلة أبيه ، كما قضى على ثورة السُّوس الَّتي تزعَّمها عثمان ، ثمَّ عاد سريعاً إلى فاس لإعداد قواته ، لصدِّ الحملة العسكريَّة الَّتي يقودها حسن بن خير الدِّين الَّذي حاول اغتنام فرصة الأحداث الدَّاخلية المغربيَّة لاحتلال البلاد(٣) وقامت بين الطَّرفين معركة على وادي اللِّين بالقرب من فاس لم تسفر عن شيءٍ إلا أنَّ حسن بن خير الدِّين الَّذي وصلته أنباء عن تحرُّك الإسبان من مدينة وهران بما يوشك أن يقطع عنه خط العودة ، فذهب الجيش العثماني إلى مرفأ قصاصة في الشَّمال فركب سفنه ، وعاد للجزائر ، بينما ذهب قائد تلمسان إلى حاميته استعداداً للحوادث المقبلة(٤) .

---

(١) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٣٨٠) .
(٢) انظر : أطوار العلاقات المغربية العثمانيَّة ، ص(١٧) .
(٣) انظر : تاريخ الدَّولة السَّعدية ، عبد الكريم كريم ، ص(٨٦) .
(٤) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص(٣٧٢) .

ثامناً : مقتل حاكم وهران الكوديت :

كان الكوديت حاكم وهران يدرك : أنَّ استرجاع العثمانيِّين لتلمسان يهدِّد الوجود الإسباني تهديداً خطيراً ، فقرَّر الاستيلاء على مستغانم الَّتي جعلها العثمانيُّون قاعدةً لهم للهجوم على وهران ، وكان الكوديت يأمل أن يجعلها قاعدةً للهجوم على الجزائر[1] ، لذلك أعدَّ قوةً كبيرةً تتكوَّن من اثني عشر ألف مقاتلٍ ، وخرج على رأسها ، فهاجم مدينة مستغانم ، إلا أنَّ محاولته باءت بالفشل ؛ إذ تكبَّدت القوات الإسبانيَّة في ذي القعدة عام ٩٦٥هـ/ أغسطس عام ١٥٥٨م خسائر فادحةً ، وكان حاكم وهران الكوديت من بين القتلى ، ورغم فشل الحملة الإسبانيَّة ضدَّ مستغانم ، فإن العثمانيِّين لم يعد لديهم أدنى شك في تواطؤ المولى عبد الله الغالب بالله مع الإسبان ممَّا جعلهم يتَّخذون جانب الحيطة ، والحذر عند محاولة القيام بمساعدة الثَّائرين ضدَّ الحكام السَّعديِّين ، فعندما ثار المولى عبد المؤمن في مراكش في ربيع الأوَّل عام ٩٦٦هـ/ ديسمبر ١٥٥٨م واستنجد بوالي الجزائر الّذي لم يمدَّه بأيَّة مساعدةٍ عسكريَّة ، بل رحَّب به في بلاد الجزائر ، وزوَّجه بإحدى بناته ، ثمَّ ولاه مدينة تلمسان[2] .

* * *

(١) انظر : لسان المغرب ، لأبي عبد الله السُّليماني ، ص(٩٤) .
(٢) انظر : تاريخ الدَّولة السَّعدية ، ص(٨٧) .

المبحث الثَّامن

سياسة حسن بن خير الدِّين في التَّضييق على الإسبان

أراد حسن بن خير الدِّين أن يغتنم فرصة انتصار مستغانم لتطهير المركز الإسباني في وهران ، وأخذ يستعدُّ في مدينة الجزائر لجمع قوى جديدةٍ منظَّمةٍ منقادةٍ إلى جانب الجيش العثمانيِّ ، فنجد عشرة آلاف رجلٍ من زواوة[١] ، كما أنشأ قوَّة أخرى ، ووضع على رأسها أحد أعوان والده القدامى ، وفي الوقت نفسه حاول الحصول على تأييد القوَّة المحليَّة ، فتزوَّج من ابنة سلطان كوكو بن القاضي ، وكان هذا الزَّواج يخدمه من ناحيةٍ أخرى في الاستعانة بقوَّة ابن القاضي لمواجهة زعيم قبلي آخر (عبد العزيز بن عبَّاس) الَّذي أعلن استقلاله في المغرب[٢] ، بذلك صار أسطول الدَّولة العثمانيَّة يتردَّد دائماً على مدينتي حجر باديس ، وطنجة[٣] .

عيَّن حسن بن خير الدِّين في عام٩٦٥هـ/ ١٥٥٨م بو يحيى الرَّايس[٤] قائداً على باديس ، فقام بتخريب السَّاحل الإسباني من قرطاجنة حتَّى رأس سانت فنست ، وصار تحت قيادته في باديس عدَّة سفنٍ ، وتلقَّب بحقٍّ سيِّد مضيق جبل طارق ، وقد جاء في تقريرٍ إسبانيٍّ بقلم فرانسكوا دي إيبانير : أنَّ بو يحيى يملك أربع سفن حربيَّة الأولى بقيادته ، وعلى ظهرها ٩٠ عثمانيّاً مسلَّحين بالسِّهام ، والأقواس ، والمجانيق ، والثَّانية يقودها قره مامي ، وعلى ظهرها ٨٠ عثمانيّاً مسلحين بنفس الأسلحة ، والثالثة بقيادة مراد الرايس بقوَّة ٧٠ جندياً ، والرَّابعة تحمل نفس العدد وبنفس الأسلحة ، وبالإضافة إلى هذه السُّفن الأربعة العاملة عبر مياه المضيق ، كان في حوزة بو يحيى سفينتان في باديس ، ويقوم بصنع سفينةٍ أخرى ، ويتَّصل بنشاط

---

(١) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص(٣٧٧) .
(٢) انظر : تاريخ الجزائر الحديث ، ص(٤٥) .
(٣) انظر : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٣١٩) .
(٤) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٣٨١) .

سفن باديس سفن تطوان العرائش ، وسلا ، ففي تطوان ثلاث سفن صغيرة ، وفي العرائش ثلاث سفن أخرى على شاكلة سفن تطوان ، وفي سلا سفينتان من النَّوع الآخر ، إلا أنَّ السُّفن الأخيرة لم تتبع قيادة بو يحيى ، ودعا حسن بن خير الدِّين السُّفن الحربيَّة الإسلاميَّة للنُّهوض بنشاطٍ يستهدف تخريب سواحل الأندلس ، والاستيلاء على سفن الهند ، ورفع تجَّار إشبيلية نتيجةً لذلك شكواهم للملك الإسباني يشكون فيها الفظائع الَّتي ترتكبها سفن باديس ، والسُّفن الإسلاميَّة الأخرى ضدَّ السُّفن الإسبانيَّة على طريق الملاحة ، والتِّجارة الهنديَّة[1] .

ولم تستطع السُّفن العبور دون إذنٍ من بو يحيى ، فعمَّ الخوف سكَّان السَّاحل الإسباني ، لدرجة أنَّ هؤلاء لم يكونوا يزرعون أراضيهم إلا بكلِّ حذرٍ ، وغالباً ما كان العثمانيُّون يحاصرونهم أثناء عملهم ، وكذلك الصَّيادون لم يكونوا يبتعدون كثيراً عن الشَّاطىء[2] .

●●سياسة المولى عبد الله :

تابع المولى عبد الله سياسة والده الرَّامية إلى مقاومة الهدف في المغرب ، والاستعانة في سبيل ذلك بأعداء العثمانيِّين من إسبان ، وبرتغال عن طريق مهادنتهم ، والمحافظة على أحوال السِّلم معهم ، وقد دفعته سياسة المهادنة مع النَّصارى إلى الاستجابة لكثيرٍ من المطالب الَّتي تقدَّمت بها بعض الدُّول الأوربيَّة ، كفرنسا الَّتي استقبل سفيرها ، وحمَّله إلى الأمير أنطونيو دي بربون رسالةً يعبِّر فيها عن استعداد المغرب للاستجابة للمطالب الفرنسيَّة ، ثمَّ عقد الأمير الفرنسي معاهدةً في شوال ٩٦٦هـ/ يوليو ١٥٥٩م مع المولى عبد الله الَّذي تنازل عن المرسى الصَّغير لفرنسا مقابل مدِّه بالأسلحة ، والعتاد الحربي ، وإرسال فرقةٍ عسكريَّة تكون بمثابة حرسٍ خاصٍّ للغالب ، بعد أن فقد ثقته بالحرس التُّركي الَّذي سبق أن اغتال والده محمَّد الشَّيخ . كانت فرنسا بعد أن عقدت معاهدة كاتو كمبرسيس في ٢١ جمادى الأولى في سنة ٩٦٦هـ/١٣ أبريل ١٥٥٩م مع إسبانيا ، والَّتي أنهت الحرب

---

(١) انظر : أطوار العلاقات المغربية العثمانيَّة ، ص(٢١٩) .
(٢) انظر : تاريخ الدَّولة السَّعدية ، ص(٩٠) .

الإيطاليَّة ، أخذت تبحث عن أسلوبٍ جديدٍ يمكن الاعتماد عليه في حالة تجدُّد النزاع مع إسبانيا ، خصوصاً وقد صار لفليب الثاني نفوذٌ قويٌّ في أوربة ، لأنَّ المعاهدة المذكورة دعمت نفوذ إسبانيا في إيطاليا ، والأراضي المنخفضة ممَّا يهدِّد فرنسا ، فأخذ في التقرُّب من المغرب البلد الإسلامي .

وممَّا لا شكَّ فيه : أنَّ فرنسا كانت ترى في المغرب حليفاً يمكن الاعتماد عليه ، كما كانت ترى في ميناء القصر الصَّغير الاستراتيجي الَّذي لا يبعد إلا بضع كيلو مترات عن جبل طارق منطقة هامَّة يمكن اتخاذها للهجوم على إسبانيا .

ولعلَّ ذلك كان سبباً في عدم قيام الدَّولة العثمانيَّة بموقف إيجابي تجاه المعاهدة؛ لأنَّها كانت تأمل في أن تقوم فرنسا بدور الوسيط مع السَّعديِّين، فهدف الدَّولة العثمانيَّة، وفرنسا واحدٌ في مسألة الهجوم على إسبانيا ، وإن اختلفت من النَّاحية العقائديَّة، ففرنسا كانت ترغب في الهجوم على إسبانيا من أجل تحقيق نصرٍ عسكريٍّ لتكون سيدة الموقف في غرب البحر المتوسط ، بينما الدَّولة العثمانيَّة تهدف إلى إنقاذ المسلمين من الحكام الإسبان ، ثمَّ استرداد الأراضي الإسلاميَّة في الأندلس ، فحَوَّلَ حسن بن خير الدِّين أنظاره سنة ٩٦٦هـ/ ١٥٥٩م ، وتحرَّك بجيوشه نحو النَّواحي التَّابعة لأمير قلعة بني عبَّاس عبد العزيز، فاستولى على المسيلة، وحصنها، وبنى برجاً ، وذلك لتثبيت الوجود العثماني هناك ، ووضع حاميةً بلغ عددها أربعمئة جندي ، ثمَّ عاد حسن بن خير الدِّين متوجِّهاً إلى بلاد حمزة في أنحاء بربرة ، عندها انقضَّ أمير قلعة بني عبَّاس على الحصن العثمانيِّ ، ونشبت معارك بين الحامية العثمانيَّة ، لقي فيها الأمير عبد العزيز بن عبَّاس صاحب القلعة حتفه ، وخلفه أحمد مقران ؛ الَّذي امتلك نواحي بلاد كوكو ، فاعترف به حسن بن خير الدِّين[١] .

اشتدَّت حملة إزعاج تجارة المسيحيين من ناحية موانىء تونس ، والجزائر ، وذلك بالإغارة على السُّفن المسيحيَّة ، كما بعثت تلك الموانىء ببعض القوَّات العسكريَّة البرِّيَّة ، وجزءٍ من الأسطول لمساندة السُّلطان في الشَّرق[٢] .

---

(١) انظر : تاريخ الدولة السَّعدية ، ص(٨٧ ـ ٨٨) .
(٢) انظر : تاريخ الجزائر العام (٣/ ٩١) .

أولاً : الأسطول العثماني يهاجم جربة في تونس :

قام الأسطول العثماني بقيادة بيالي باشا بالهجوم على جزيرة جربة في رمضان سنة ٩٦٧هـ/ مايو ١٥٦٠م ، ونجح الأسطول في تحقيق أهدافه ضدَّ الإسبان(١) ، الَّذين لم يجدوا حرجاً من الاستنجاد بفرنسا(٢) ، بعد ذلك كان من المقرَّر أن يقوم بيالي باشا ببعض الغارات في البحر المتوسط قبيل عودته للقسطنطينيَّة ، ولكن درغوث باشا الّذي سبق أن ضايقه الثُّوَّار في الدَّاخل ، أقنع بيالي باشا بالتَّوجُّه إلى طرابلس لمساعدته في القضاء على التمرُّد قرب تاجوراء ، وقد وصل بيالي باشا إلى طرابلس وصول الفاتحين ، ودخلت السُّفن العثمانيَّة المزيَّنة بالأعلام ، والشَّارات الَّتي غنمها من الأعداء ، بينما كانت أعلام الأعداء منكَّسةً فوق سواري السُّفن ، وقام بيالي باشا بطرابلس أياماً قليلةً كافيةً لمعاقبة سكان تاجوراء ، ثمَّ أقلع بأسطوله صوب عاصمته(٣) .

ثانياً : اعتقال حسن بن خير الدِّين وإرساله إلى إستانبول :

استمر حسن خير الدِّين في استعداداته لمهاجمة المغرب ، فشرع في تكوين قوَّةٍ من رجال القبائل كان ينوي أن يوكل إليها حراسة الجزائر أثناء غيابه لعدم ثقته بالإنكشاريَّة ، الَّذين أحسوا بالخطر ، فقاموا في صيف ٩٦٩هـ/ ١٥٦١م باعتقال حسن باشا ، وأعوانه ، وأرسلوه مقيّداً إلى إستانبول ، ورافق حسن باشا عددٌ من زعماء الجند مهمَّتهم أن يوضِّحوا للسُّلطان الأسباب الَّتي دفعتهم إلى هذا التَّصرُّف متَّهمين حسن باشا : أنَّه كان ينوي القضاء على الأوجاق ، والاعتماد على جيش محلِّي بغرض الاستقلال عن السُّلطان ، لكن السُّلطان أرسل أحمد باشا مع قوَّةٍ بحريَّة لمعاقبة المتمرِّدين ، والقضاء على الفوضى ، ونجح أحمد باشا في اعتقال زعماء التمرُّد ، وأرسلهم إلى إستانبول(٤) .

---

(١) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٣٨٤) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) انظر : ليبيا منذ الفتح العربي ، أتوري روسي ، ص(١٩٠) .
(٤) انظر : تاريخ الجزائر الحديث ، ص(٤٦) .

ثالثاً : عودة حسن بن خير الدِّين إلى الجزائر :

أعاد السُّلطان العثمانيُّ سليمان القانوني حسن بن خير الدِّين إلى بيلربكية الجزائر للمرَّة الثَّالثة في أواخر سنة ٩٧٠هـ/ ١٥٦٢م معزَّزاً بعشر سفنٍ حربيَّة، ومزوَّداً بقوَّة عسكريَّةٍ مسلَّحةٍ[١] قضى بعدها حسن بن خير الدِّين خمسة أشهر بعد عودته يهيىء العدَّة، والعتاد لمهاجمة وهران، والمرسى الكبير، وهما كلُّ ما بقي لإسبانيا ببلاد الجزائر[٢] .

خرج حسن بن خير الدِّين في سنة ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م من مدينة الجزائر نحو الغرب، يقود جيشاً كبيراً مؤلَّفاً من خمسة عشر ألف رجلٍ من رماة البندقيَّة، وألف فارس من الصَّباحية تحت أمرة أحمد مقرن الزَّواوي، واثني عشر ألف رجلٍ من زواوة وبني عباس، أمَّا مؤن، وذخيرة الجيش ؛ فقد حملها الأسطول العثمانيُّ إلى مدينة مستغانم الَّتي اتَّخذها قاعدةً للعمليات . وفي ١٣ أبريل وصل حسن بن خير الدِّين بكامل قوَّته أمام مدينة وهران، وضرب حصاراً حولها، وكان الإسبان مستعدين لتلقِّي الصَّدمة وراء حصونهم، وقلاعهم[٣]، بعد أن توالت النَّجدات الإسبانيَّة، والبرتغاليَّة على وهران استجابةً لنداء حاكمها، ومنذ أن صارت القوَّات العثمانيَّة على مسافة مرحلتين، وبينما كان البيلربك نفسه على بعد ست مراحل ممَّا اضطر حسن بن خير الدِّين إلى رفع الحصار قبل وصول المزيد من هذه النَّجدات الَّتي اتَّخذت من مالطة مركزاً لتجمُّعها[٤] .

وهكذا لم يستطع حسن بن خير الدِّين من تحقيق هدفه ذلك ؛ لأنَّ فيليب الثَّاني كان قد وضع برنامجاً طموحاً للأسطول الإسباني، والبناء البحري في ترسانات إيطاليا، وقطالونيا، كما وردت لخزانة إسبانيا إعانةٌ من البابوية، واجتمعت سلطة قشتالة التَّشريعية في جلسةٍ غير عاديَّةٍ، وأقرَّت وجوب إمداد إسبانيا بمعوناتٍ

---

(١) انظر : تاريخ الجزائر العام (٣/ ٩٣) .

(٢) انظر : حرب الثلاثمئة سنة، ص(٣٧٩) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) انظر : أطوار العلاقات المغربيَّة العثمانيَّة، ص(٢١٣) .

ماليَّةٍ ، لتساندها في حربها مع العثمانيِّين ، ممَّا كانت ثمرة تلك المجهودات إعادة التَّنظيم لهيكل إسبانيا ، وهزيمة العثمانيِّين في وهران سنة ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م .

بدأ فيليب الثَّاني يستعدُّ لاحتلال جزيرة باديس وتشجَّع بذلك النَّصر الَّذي حقَّقه في وهران ، ووجَّه لذلك أسطولاً في نفس السَّنة ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م ، فقاومه المجاهدون مقاومةً عنيفةً ، اضطرت الأسطول إلى التَّراجع[١] والجدير بالذِّكر : أنَّ جزيرة باديس كانت أقرب نقطة مغربيَّةٍ إلى جبل طارق ، وأنَّها كانت بالنِّسبة للمجاهدين ميناءً هامّاً[٢] ؛ إذ يمكنهم من خلالها العبور للأندلس ، كما يمكنهم التَّسلُّل لداخل الأراضي الإسبانية لتقديم المساعدة للمسلمين هناك ، والَّذين أطلقوا على أنفسهم الغرباء ، وهذا ما دفع الإسبانيِّين للهجوم عليها من خلال محاولتهم السَّابقة كما كانت جزيرة باديس بالإضافة إلى ذلك مثار رعبٍ ، وخوفٍ لدى السُّلطان السَّعدي الغالب بالله ؛ إذ خاف السُّلطان أن يخرج الأسطول العثماني من تلك الجزيرة إلى المغرب ، فاتَّفق مع الإسبان أن يخلِّي لهم الإدالة من حجرة باديس ، ويبيع لهم البلاد ، ويخليها من المسلمين ، وينقطع أسطول العثمانيِّين في تلك النَّاحية[٣] ، مقابل الدِّفاع عن شواطىء المغرب ؛ إذا هاجمها الأسطول العثمانيُّ الَّذي علم بتلك المؤامرة ، فانسحب ، ورجع إلى الجزائر[٤] كما عزل بو يحيى رايس من منصبه في باديس في أواخر عام ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م ، وانصرف العثمانيُّون عن الحرب في غرب البحر المتوسط ؛ إذ توجَّه نشاط الأسطول الحربيِّ إلى جزيرة مالطة في الشَّرق[٥] .

رابعاً : الصِّراع على مالطة :

كان السُّلطان العثمانيُّ سليمان القانوني قد عزم على فتح جزيرة مالطة الَّتي كانت أكبر معقل للمسيحيِّين في وسط البحر المتوسط ، والَّتي سبق أن استقرَّ فيها

(١) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٣٨٩) .
(٢) انظر : تاريخ الدَّولة السَّعديَّة ، عبد الكريم كريم ، ص(٣٦) .
(٣) انظر : تاريخ الدَّولة السَّعديَّة لمؤلفٍ مجهول ، ص(٨٩) .
(٤) انظر : تاريخ المغرب لمحمد بن عبُّود ، ص(١٧) .
(٥) انظر : أطوار العلاقات المغربية العثمانيَّة ، ص(١٩٠ ـ ١٩١) .

فرسان القدِّيس يوحنَّا ، فأرسل السُّلطان العثمانيُّ أسطوله بقيادة بيالي باشا نفسه ، كما طلب من درغوث رايس حاكم طرابلس وجربة ، وحسن بن خير الدِّين أن يتوجَّها على رأس أسطوليهما الإسلاميِّين للمشاركة في عمليَّة مالطة ، وإخضاعها استعداداً لمنازلة بقيَّة المعاقل الإسلاميَّة بعد ذلك . فسار حسن بن خير الدِّين على رأس عمارةٍ تشمل ٢٥ سفينةٍ ، وثلاثة آلاف رجلٍ .

ووصل الأسطول الإسلاميُّ أمام مالطة يوم ١٨ مايو ، وفرض الحصار عليها ، واستمرَّ الحصار ضيِّقاً شديداً إلى أن جهزَّت المسيحيَّة رجالها ، وأساطيلها ، ووصل المدد تحت قيادة نائب الملك في صقليَّة ، برفقة أسطولٍ تعداده ٢٨ سفينةً حربيَّةً تحمل عدداً كبيراً من المقاتلين ، ونشبت المعركة بين الطَّرفين ، وتمكَّن الأسطول الإسلاميُّ من الانسحاب في ١٨ ربيع الأوَّل ٩٧٣هـ/ ٨ ديسمبر ١٥٦٥م[(١)] .

خامساً : حسن بن خير الدِّين بربروسة القائد العام للأسطول العثمانيِّ :

خلف السُّلطان سليمان القانوني السُّلطان سليم الثاني ، الَّذي أسند منصب القائد العام للأسطول العثماني إلى حسن بن خير الدِّين ؛ فترك الجزائر متوجِّهاً إلى إستانبول سنة ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م[(٢)] ، وتولَّى منصب بيلر باي الجزائر بعد حسن بن خير الدِّين محمَّد بن صالح رايس، في ذي الحجَّة ٩٧٤هـ/ يونيو ١٥٦٧م ، وصادف في تلك السَّنة انتشار الأوبئة ، والمجاعة ، صحبها تمرُّد الجند العثماني ، وإضراب الشَّعب ، فاضطرَّ إلى صرف وقته في مواساة المصابين ، وتسكين الفتن ، ثمَّ فاجأت محمَّد بن صالح رايس ثورة عامل قسنطينة المتأثِّرة بولاة تونس الحفصيِّين ، فعزله البيلر باي ، وقضى على ثورته ، وولَّى على قسنطينة القائد رمضان بن تشولاق .

وفي ربيع الأوَّل سنة ٩٧٥هـ/ سبتمبر ١٥٦٧م ، هاجم الإسبان مدينة الجزائر ، إلا أنَّهم ردُّوا على أعقابهم ، ثمَّ لم تطل ولاية محمَّد بن صالح رايس ؛ إذ تعيَّن نقله إلى ولايةٍ أخرى في أنحاء الدَّولة[(٣)] .

---

(١) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص(٣٨٣) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٣٨٥) .

(٣) انظر : تاريخ الجزائر العام ، (٣/ ٩٤ ، ٩٥) .

سادساً : قلج علي تولَّى بيلر بك الجزائر :

أسند منصب بيلر بك الجزائر إلى قلج علي في ١٤ صفر سنة ٩٧٦هـ/ الموافق ٨ أغسطس ١٥٦٨م ، وعرف عنه بالعزم في تسيير الإدارة والبطولة الحربيَّة ، والشَّجاعة[١] .

اتَّخذ قلج علي خطواتٍ عمليَّةٍ لتنفيذ مشروعٍ خطيرٍ للغاية ، وهو إعادة الحكم الإسلاميِّ في إسبانيا وتحرير الشَّمال الأفريقيِّ من الجيوب الصَّليبيَّة ، فوجَّه اهتمامه إلى الأسطول أكثر من غيره ، وصار بعده مبعث قلقٍ ورهبةٍ للأوربيِّين[٢] ، كما انتزع من الفرنسيِّين حقَّ احتكار المرجان بمركز القالة بسبب تماطلهم ، وتخلُّفهم عن دفع الضَّريبة لثلاث سنواتٍ مضت ، وتصرُّفهم في المنطقة الَّتي نزلوا فيها تصرُّف السَّادة[٣] .

سابعاً : إعادة تونس للحكم العثماني :

صمَّم قلج على ضرورة تصفية القواعد الإسبانيَّة في تونس ، قبل أن يبدأ نشاطه في شبه الجزيرة الأيبيريَّة[٤] ، وذلك لتعبئة الدِّفاع عن طرابلس ، والجزائر ، وكان الإسبان قد اتَّخذوا من تونس نقطة ارتكازٍ ، وقاعدة انطلاقٍ على العثمانيِّين في طرابلس ، والجزائر[٥] ، لذلك لابدَّ من تأمينها .

كان قلج علي اتِّصال بالوزير الحفصي أبي الطَّيب الخضَّار ، ورأى ذلك الوزير : أنَّ فتح تونس قد حان وقته ، وأرسل إلى قلج علي يهوِّن عليه أمرها ، ويتعهَّد له بتقديم العون[٦] .

جهَّز بيلر بك الجزائر قلج علي جيشاً مؤلَّفاً من نحو سبعة آلاف مقاتل ، وزحف

---

(١) المصدر السَّابق نفسه (٣/ ٩٥) .
(٢) انظر : تاريخ أفريقية الشَّماليَّة ، شارل جوليان (٣/ ٣٤٦) .
(٣) انظر : المغرب العربيُّ الكبير ، شوقي الجمل ، ص(١٠٠) .
(٤) انظر : المغرب العربيُّ الكبير ، جلال يحيى ، ص(٨٤) .
(٥) انظر : الأتراك العثمانيُّون في شمال أفريقية ، عزيز سامح ، ص(٨٤) .
(٦) انظر : تاريخ الجزائر الحديث ، ص (٤٩) .

به نحو تونس ، فقابل سلطانها أبا العبَّاس أحمد بباجة ، ثمَّ بعد قتالٍ عنيفٍ انهزم الأمير الحفصيُّ وتقدَّم قلج علي بمجموعةٍ نحو تونس ، وأخذ بيعة أهلها للسُّلطان سليم الثَّاني ، ورتَّب حاميةً لحراسة البلاد تحت رعاية حيدر باشا ، وعاد إلى مقره بالجزائر(١) ، وبقيت منطقة حلق الواد بيد الإسبان ، لذا فإنَّه كتب إلى إستانبول يطلب مدَّه بقوَّةٍ تكفي لتحرير الموقع(٢) ، وكان اهتمام قلج علي بشرق الجزائر سياسةً اختصَّ بها من دون أسلافه ، فكان يرى أنَّه لابدَّ من تأمين ظهره ليتسنَّى له التقدُّم للغرب ، ثمَّ التَّوجُّه للأندلس ، بعد أن يكون قد أضعف التَّواجد الإسباني في الشَّمال الأفريقي(٣) .

ثامناً : ثورة مسلمي الأندلس :

كانت حركة الجهاد في الشَّمال الأفريقي قد شجَّعت مسلمي الأندلس ، وفجَّرت طاقاتهم الكامنة ، وجعلتهم يتغلَّبون على الحواجز النَّفسيَّة الَّتي بنيت في نفوسهم على مرِّ السِّنين ، وسادت الأقاليم الإسبانيَّة موجةٌ من الظُّلم ، والإرهاب ، والفظائع ، فهذه الحالة المربكة ، وما صاحبها من مظالم ، وويلاتٍ ، جعلت بقيَّة مسلمي إسبانيا في الجنوب ـ سواءٌ من الَّذين ظلُّوا محافظين على دينهم ، أو المتنصِّرين ظاهريَّاً ـ يتأهَّبون للانقضاض على الحكم الإسباني(٤) .

سادت إسبانيا إرهاصاتُ ثورة المسلمين في غرناطة ، فشكَّل الملك الإسباني فيليب الثاني نوعاً جديداً من الميلشيات تقيم في كلِّ مدينةٍ من مدن إسبانيا لمواجهة الثَّورة بين الَّذين استقبلوا مبعوثين من ملك فاس لجمع الخراج على تبعيَّتهم في الولاء لسيادة الأمير السَّعدي ، كما تلقَّى مسلمو الأندلس مساعداتٍ عثمانيَّة(٥) ، أصبح الموقف صعباً بالنِّسبة لإسبانيا خاصَّةً غرناطة ، وممّا زاد الحالة خطورةً : أنَّ بحرية فيليب الثَّاني كانت متفرِّقةً في أنحاء بعيدةٍ ، وحصونه غير معزَّزةٍ ، والسَّواحل

---

(١) انظر : تاريخ الجزائر العام (٣/ ٩٦) .
(٢) انظر : الأتراك العثمانيُّون في أفريقية الشَّمالية ، ص(٨٥) .
(٣) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٣٩٥) .
(٤) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص(٣٩٢) .
(٥) انظر : أطوار العلاقات المغربيَّة العثمانيَّة ، ص(١٧٩ ـ ٢٠٤) .

مكشوفةٌ ، خاصَّةً الشَّواطىء الجنوبيَّة موقع المجاهدين .

بعد أن أعيت النَّصارى كلُّ الوسائل للقضاء على الرُّوح الدِّينيَّة لمسلمي الأندلس ، وتحويلهم للمسيحيَّة لجؤوا إلى العنف ، فحرَّموا على المسلمين التحدُّث بالعربيَّة ، والاتِّصال بالمسلمين في الشَّمال الأفريقي ، وفي بعض أقاليم إسبانيا ، كما حرَّموا على النِّساء الخروج إلى الشَّوارع متحجِّباتٍ ، وقفل أبواب دورهم ، وتحطيم الحمَّامات ، وإقامة الحفلات حسب تقاليدهم ، كلُّ ذلك فجَّر الثَّورة ، وقاد مسلمي الأندلس إلى حرب البورشارات الَّتي هي أهمُّ حربٍ ، أو ثورةٍ مسلَّحةٍ قام بها المسلمون بعد سقوط غرناطة ، كانت هذه الحرب في ١٥٦٨م ، وتزعَّمها محمَّد بن أميَّة(١) .

تاسعاً : خيانة السُّلطان السَّعدي الغالب بالله لمسلمي الأندلس :

بذل السُّلطان السَّعدي الغالب بالله الوعود المعسولة لرسل الثُّوار البورشارات ، ووعدهم بالنَّصر ، وتقديم كلِّ ما يحتاجونه من عتادٍ ، وسلاحٍ ، ورجالٍ . . . لكن استمر الغالب بالله محافظاً على روابطه الودِّية مع فيليب الثَّاني ، وعمل على خذلان أهل الأندلس : (وأمَّا أهل الأندلس وغشُّه لهم ، وتوريطهم للهلكة في دينهم ، وأقوالهم ، وأولادهم ، وفي نفوسهم فأمرٌ مستعظمٌ عند جميع من في قلبه ذرةٌ من الإيمان ، وأدنى ملكةٍ من الإسلام ، وذلك أنَّه لما احتوى عليهم النَّصرانيُّ ، وأخذ جميع أراضيهم ، وشملها سلطانه ، بقي المسلمون بضع سنين تحت الذِّمَّة والذِّلَّة ، فقهروهم بكثرة المكس ، فصاروا يكتبون إلى ملوك المسلمين شرقاً وغرباً ، وهم يناشدونه الله في الإغاثة ، وأكثر كتبهم إلى مولاي عبد الله ؛ لأنَّه هو القريب إلى أراضيهم ، وكان قد قوي سلطانه ، وصحَّت أركانه ، وجُنِّدت أجناده ، وكثرت أعداده ، فأمرهم غشَّاً منهم بأن يقوموا على النَّصارى ؛ ليثق بهم في قولهم ، ويظهروا فعلهم ، فلمَّا قاموا على النَّصارى ؛ تراخى عمَّا وعدهم به من الإغاثة ، وكذب عليهم ، وغشَّاً منه لهم ، ولدين الله عزَّ وجلَّ ومصلحةً لملكه الزَّائل ، وكانت بينه وبين النَّصارى مكاتباتٌ في ذلك ومراسلاتٌ ، وأنَّه استشار معهم ،

(١) انظر : محنة المورسيكوس في إسبانيا لمحمَّد قشتيليو ، ص(٣٣ ـ ٣٤ ـ ٣٥) .

وأشار عليهم أن يخرجوا أهل الأندلس إلى ناحية المغرب ، وقصده بذلك تعمير سواحله ، ويكون لهم بمدينتي فاس ، ومراكش جيشٌ عظيم ينتفع به في صالح ملكه)(١) .

تسارعت الأحداث في إسبانيا ، وبلغ عدد المجاهدين في أوائل سنة ٩٧٦هـ/١٥٦٩م أكثر من مئة وخمسين ألفاً ، وصادف تلك الثَّورة صعوباتٌ كبيرةٌ بالنِّسبة للحكومة الإسبانيَّة ؛ إذ كانت غالبية الجيش متقدِّمةً مع دوق البابا في الأراضي المنخفضة ، وأثبتت الدَّوريات البحريَّة : أنَّها غير قادرةٍ على حرمان الثُّوار المسلمين من الاتصال بالعثمانيِّين في الجزائر(٢) .

عاشراً : قلج علي يقف موقف الأبطال مع مسلمي الأندلس :

كان قلج علي على اتِّصال مباشرة بقيادة مسلمي الأندلس عبر قنواتٍ خاصَّةٍ أشرف عليها جهاز الاستخبارات العثمانيَّة ، واستطاع هذا القائد أن يمدَّ الثُّوار في إسبانيا بالرِّجال ، والأسلحة ، والعتاد ، وتمَّ الاتفاق مع مسلمي الأندلس على القيام بثورةٍ عارمةٍ في الوقت الَّذي تصل فيه القوَّات الإسلاميَّة من الجزائر إلى مناطق معينة على السَّاحل الإسباني(٣) .

جمع قلج علي جيشاً عظيماً قوامه أربعة عشر ألف رجلٍ من رماة البنادق ، وستون ألفاً من المجاهدين العثمانيِّين من مختلف أرجاء البلاد ، وأرسلهم إلى مدينتي مستغانم ، ومازغران استعداداً للهجوم على وهران ، ثمَّ النُّزول في بلاد الأندلس ، وكان يرافق ذلك الجيش عددٌ كبيرٌ من المدافع ، وألف وأربعمئة بعيرٍ محمَّلةٌ بالبارود الخاصِّ بالمدافع ، والبنادق .

وفي اليوم المتَّفق عليه وصلت أربعون سفينةً من الأسطول العثماني أمام مرسى المرية الإسباني ، لشدِّ أزر الثَّورة ساعة نشوبها ، لكن أخفق ذلك المخطَّط ، وذلك بسبب سوء تصرُّف أحد رجال الثورة الأندلسيِّين ؛ إذ انكشف أمره ، فداهمه

---

(١) مؤلف مجهول : تاريخ الدَّولة السَّعدية ، ص(٣٧ ، ٣٨) .

(٢) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٣٩٨) .

(٣) انظر : الدَّولة العثمانيَّة دولةٌ إسلاميَّةٌ مفترى عليها (٢/٩٢٦) .

الإسبان ، وضبطوا ما كان يخفيه من سلاح[١] ، بعد أن نجح قلج علي في إنزال الأسلحة ، والعتاد ، والمتطوِّعين على السَّاحل الإسباني[٢] ، لم تقع الثَّورة في الموعد المحدَّد لها ، وضاعت بذلك فرصة مفاجأة الإسبان[٣] .

لقد قام قلج علي في شعبان سنة ٩٧٦هـ/ يناير سنة ١٥٦٩م ببعث أسطول الجزائر لتأييد الثائرين في محاولتهم الأولى ، وحاول إنزال الجند العثمانيِّ في الأماكن المتَّفق عليها ، لكنَّ الإسبان كانوا قد عرفوا ذلك بعد اكتشاف المخطَّط فصدُّوا قلج علي عن النُّزول ، وكانت الثَّورة في عنفوانها ، وزوابع الشِّتاء قويَّةٌ في البحر ، فالأسطول الجزائري صار يقاوم الأعاصير من أجل الوصول إلى أماكن أخرى من السَّاحل ينزل بها المدد المطلوب ، إلا أنَّ قوَّة الزَّوابع أغرقت ٣٢ سفينة جزائريَّة تحمل الرِّجال والسِّلاح ، وتمكَّنت ستُّ سفنٍ من إنزال شحنتها فوق سواحل الأندلس ، وكان فيها المدافع ، والبارود ، والمجاهدون[٤] .

استمرَّ قلج علي في إمداد مسلمي الأندلس رغم الكارثة الَّتي حلَّت بقوَّاته ، وتمكن ذلك المجاهد الفذُّ من إنزال أربعة آلاف مجاهدٍ من رماة البنادق مع كمِّيَّةٍ كبيرةٍ من الذَّخائر ، وبعضٍ من قادة المجاهدين العثمانيِّين للعمل في مراكز قيادة جهاد مسلمي الأندلس[٥] .

وعاد العثمانيُّون ، فأرسلوا دعماً جديداً من الرِّجال ، والسِّلاح ، وإعانةً للثَّورة الأندلسيَّة ، فصدرت الأوامر إلى قلج علي بذلك في ٢٣ شوال ٩٧٧هـ/ ٣١ مارس ١٥٧٠م (. . . عليك بالتنفيذ بما جاء في هذا الحكم حال وصوله ، وأن تعاون أهل الإسلام المذكورين بكلِّ ما يتيسَّر تقديمه لهم ، وأنَّ الغفلة عن المسلمين الذين أصابهم الدَّمار غير جائزة . . .) وكان القائد المجاهد قلج علي قد عزم على الذَّهاب بنفسه ليتولَّى قيادة الجهاد هناك ، لكن ما شاع عن تجمُّع الأسطول الصَّليبي للقيام

---

(١) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص (٣٩٢ ـ ٣٩٣) .
(٢) انظر : الدولة العثمانيَّة دولةٌ إسلاميَّةٌ مفترى عليها (٢/ ٩٢٦) .
(٣) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٣٩٩) .
(٤) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص(٣٩٣) .
(٥) المصدر السابق نفسه ، ص (٣٩٤) .

بمعركةٍ حاسمةٍ مع المسلمين ، وأمر السُّلطان العثماني له بالاستعداد للمشاركة في هذه المعركة جعله مضطراً للبقاء في الجزائر منتظراً لأوامر إستانبول(١) .

وفي غمرة الثَّورة الأندلسيَّة اتُّهم زعيم الثَّورة ابن أميَّة بالتَّقاعس عن الجهاد ، وهاجمه المتآمرون ، وقتل في منزله ، واختير مولاي عبد الله بن محمَّد بن عبو بدلاً منه ، وبعث قلج علي تعزيزاتٍ له ، ونجح الزَّعيم الجديد في حملاته الأولىٰ ضد النَّصارىٰ الإسبان ، وطوَّق جيشه مدينة أرجيه .

انزعجت الحكومة الإسبانيَّة لهذه التَّطوُّرات ، وعيَّنت دون جوان النِّمساوي علىٰ قيادة الأسطول الإسباني (وهو ابن غير شرعي للإمبراطور شارل) فباشر قمع الثَّورة في سنواتها ٩٧٧ ـ ٩٨٧هـ/ ١٥٦٩ ـ ١٥٧٩م ، وأتىٰ من الفظائع ما بخلت بأمثاله كتب الوقائع ، فذبح النِّساء ، والأطفال أمام عينيه ، وأحرق المساكن ، ودمَّر البلاد ، وكان شعاره : لا هوادة . وانتهىٰ الأمر بإذعان مسلمي الأندلس ، لكنَّه إذعانٌ مؤقَّت ؛ إذ لم يلبث مولاي عبد الله أن عاد الكرَّة ، فاحتال الإسبان عليه ، حتّىٰ قتلوه غيلةً ، ونصبوا رأسه منصوباً فوق أحد أبواب غرناطة زمناً طويلاً(٢) .

* * *

---

(١) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٤٠٠) .

(٢) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص(٣٩٥) .

المبحث التَّاسع

المتوكِّل علىٰ الله ابن عبد الله الغالب السَّعدي

تولّىٰ أمر السَّعديِّين بعد وفاة عبد الله الغالب بالله ابنه المتوكل علىٰ الله الَّذي كان يضمر الشَّرَّ لعمِّيه عبد الملك أبي مروان ، وأحمد المنصور ، فخرجا من المغرب ، واتَّجها إلىٰ السُّلطان العثمانيِّ يستنجدان به[1] ، وما من شكٍّ في أنَّ انتصار العثمانيِّين في تونس ضدَّ الإسبان واستتباب الأمر فيها ، قد شجَّعهم علىٰ مساعدة المولىٰ عبد الملك المطالب بالعرش المغربيِّ ، لبسط نفوذه علىٰ البلاد ، ولأنَّ الاستيلاء علىٰ المغرب يؤمن الحدود الغربيَّة للدَّولة العثمانيَّة ، ويوطِّد أقدام العثمانيِّين في مجموع الشَّمال الأفريقي ، علاوةً علىٰ أنَّ ضمَّ المغرب من شأنه أن يبعث الرُّعب في قلوب الإسبان ، والبرتغال ، ويبعثهم علىٰ طلب ودِّ السُّلطان في إستانبول[2] .

تابع المتوكِّل علىٰ الله خطَّة والده في التَّقرُّب من الدُّول المسيحيَّة ، ومسالمتها لصدِّ العثمانيِّين ، حيث لم يعد لديه شكٌّ في أنَّهم سينجدون عمَّيه بقوَّاتٍ عسكريَّةٍ ، فعقد اتِّفاقاً مع إنجلترا ، الَّتي كانت ترغب في تجارتها مع المغرب للفوائد الَّتي تعود علىٰ التِّجار الإنجليز من وراء ذلك ، زيادةً علىٰ أنَّها تدرك الأهميَّة العظمىٰ للمغرب ، خصوصاً وقد كانت إنجلترا في حالة حرب ضدَّ إسبانيا[3] ، وتوقيع المتوكِّل للاتفاقيَّة التِّجارية مع الإنجليز ، يعد العمل الوحيد الَّذي قام به خلال حكمه القصير ، وقد فعل ذلك باعتبار أنَّ الإنجليز كانوا من بين التُّجار الأجانب الَّذين يبيعون مواد الحرب من ذخائر ، وأسلحة للمغاربة منذ زمنٍ بعيد ، ولا تخفىٰ علينا حاجة المتوكِّل في هذا الوقت إلىٰ السِّلاح لصدِّ الخطر العثماني ، ولمقاومة عمِّه المطالب بالعرش .

---

(١) انظر : الحروب الصَّليبيَّة في المشرق العربي لمحمَّد العمروسي ، ص(٢٦٥) .
(٢) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٣٦٨) .
(٣) انظر : بداية الحكم المغربي في السُّودان ، ص(٩٤) .

وجدت الدَّولة العثمانيَّة في انشغال ملك إسبانيا فيليب الثّاني بأحداث أوربة الغربيَّة حيث ثورة الأراضي المنخفضة فرصةً مناسبةً للتدخُّل في المغرب[١] ، فأمدُّوا المولىٰ عبد الملك بجيشٍ قوامه خمسة آلاف مقاتلٍ مسلَّحين بأحسن الأسلحة ، ودخل المولىٰ عبد الملك فاس بعد أن أحرز انتصاراً كبيراً علىٰ ابن أخيه المتوكِّل ، وعاد الجيش أدراجه إلىٰ الجزائر[٢] .

وقام عبد الملك بإصلاحاتٍ في دولته من أهمِّها :

١ ـ أمر بتجديد السُّفن ، وبصنع المراكب الجديدة ، فانتعشت بذلك الصِّناعة عامة .

٢ ـ اهتمَّ بالتِّجارة البحريَّة ، وكان للأموال التي غنمها من حروبه علىٰ سواحل المغرب سببٌ في انتعاش ونموِّ الميزان الاقتصادي للدَّولة .

٣ ـ أسَّس جيشاً نظاميّاً متطوراً ، واستفاد من خبرة الجنديَّة العثمانيَّة ، وتشبَّه بهم في التَّسليح ، والرُّتب .

٤ ـ استطاع أن يبني علاقاتٍ متينةً مع العثمانيِّين ، وجعل منهم حلفاء ، وأصدقاء ، وإخوة مخلصين للمسلمين في المغرب .

٥ ـ فرض احترامه علىٰ أهل عصره ، حتّىٰ علىٰ الأوربيين ، احترموه ، وأجلُّوه ، قال الشاعر الفرنسي أكبريبا دوبين المعاصر لأحداث هذه الفترة : (كان عبد الملك جميل الوجه ، بل أجمل قومه ، وكان فكره نيِّراً بطبيعته ، وكان يحسن اللُّغات : الإسبانيَّة ، والإيطاليَّة ، والأرمنيَّة ، والروسيَّة ، وكان شاعراً مجيداً في اللُّغة العربيَّة ، وباختصارٍ ، فإنَّ معارفه لو كانت عند أمير من أمرائنا ؛ لقلنا : إنَّ هذه أكثر مما يلزم بالنسبة لنبيلٍ ، فأحرىٰ لملك)[٣] .

٦ ـ اهتمَّ بتقوية مؤسَّسات الدَّولة ، ودواوينها ، وأجهزتها ، واستطاع أن يشكِّل جهازاً شورياً للدَّولة ، أصبح علىٰ معرفةٍ بأمور الدَّولة الدَّاخلية ، وأحوال السُّكان

(١) انظر : المغرب في عهد الدَّولة السَّعديَّة ، عبد الكريم كريم ، ص(٩٧ ، ٩٩) .
(٢) انظر : بداية الحكم المغربي في السُّودان ، ص(٩٤) .
(٣) وادي المخازن ، ص(٣٧) .

عامَّةً ، وعلىٰ درايةٍ بالسِّياسة الدَّولية ، وخاصَّةً الدُّول الَّتي لها علاقة بالسِّياسة المغربيَّة ، وكان أخوه أبو العبَّاس أحمد المنصور بالله ـ الملقب في كتب التَّاريخ بالذَّهبي ـ ساعده الأيمن في كلِّ شؤون الدولة)[١] .

أولاً : تحالف محمد المتوكِّل السَّعدي مع ملك البرتغال سبستيان :

كان محمَّد المتوكِّل بعد هزيمته من عمِّه عبد الملك قد اتَّصل بملك البرتغال سبستيان ، واتَّفق معه علىٰ أن يعينه علىٰ طرد عمِّه من حكم المغرب ، وأن يتنازل له مقابل ذلك عن جميع شواطئ المغرب ، فقبل سبستيان ذلك العرض المغربي[٢] .

انتقل المتوكِّل إلىٰ سبتة ، وأقام بها أربعة شهور ، ومنها اتَّجه إلىٰ طنجة في انتظار دون سبستيان علىٰ رأس القوَّات العسكريَّة .

وفي أثناء استعدادات الدُّول المسيحيَّة ، وخاصَّةً البرتغال للوثوب علىٰ المغرب ، وإِخضاعه بالكامل ، أرسل العثمانيُّون مدرَّبين ، وأسلحةً متنوعةً ، وأشفعوا ذلك بفيلقٍ عسكريٍّ[٣] ، حيث تتجلّىٰ هنا الرُّوح الإسلاميَّة في الدِّفاع عن عقيدتهم ؛ لأنَّ المعركة معركة المسلمين جميعاً ، وخصوصاً الدَّولة العثمانيَّة الَّتي كانت تحمل علىٰ عاتقها حماية المسلمين ، وأراضيهم بعيدةً عن المصالح المادِّيَّة[٤] .

ثانياً : معركة وادي المخازن :

إنَّ من الأعمال العظيمة الَّتي قامت بها الدَّولة السَّعديَّة في زمن السُّلطان عبد الملك انتصارهم الرَّائع ، والعظيم علىٰ نصارىٰ البرتغال في معركة الملوك الثلاثة ، والَّتي تسمّىٰ في كتب التّاريخ ، معركة القصر الكبير ، أو معركة وادي المخازن بتاريخ : ٣٠ جمادىٰ الآخرة ٩٨٦هـ الموافق ٤ آب (أغسطس) ١٥٧٨م .

لقد كان لتلك المعارك أسبابٌ ، من أهمِّها :

١ ـ أراد البرتغاليُّون أن يمحوا عن أنفسهم العار ، والخزي الَّذي لحقهم بسبب

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٣٩ ، ٤٠) .

(٢) انظر : تاريخ المغرب ، محمَّد بن عبود (٢/١٩) .

(٣) انظر : بداية الحكم المغربي في السُّودان الغربي ، ص(٩٤) .

(٤) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٤٧١) .

ضربات المغاربة الموفَّقة ، والتي جعلتهم ينسحبون من آسفىٰ ، وأزمور ، وأصيلا ، وغيرها في زمن يوحنا الثّالث آب (١٥٢١ ـ ١٥٥٧م) .

٢ ـ أراد ملك البرتغال الجديد سبستيان بن يوحنا أن يخوض حرباً مقدَّسةً ضدَّ المسلمين ؛ حتّىٰ يعلو شأنه بين ملوك أوربة ، وزاد غروره بعد ما حقَّقه البرتغاليُّون من اكتشافاتٍ جغرافيَّةٍ جديدةٍ أراد أن يستفيد منها من أجل تطويق العالم الإسلاميِّ ، يدفعه في ذلك حقده علىٰ الإسلام وأهله عموماً ، وعلىٰ المغرب خصوصاً ، لقد جمع ذلك الملك بين الحقد الصَّليبي ، والعقليَّة الاستعماريَّة ؛ الَّتي ترىٰ أنَّ يدها مطلقةٌ ، في كل أرضٍ مسلمةٍ تعجز عن حماية نفسها من أيِّ خطرٍ خارجيٍّ من أيِّ جهةٍ ، ومن جهةٍ أخرىٰ خطَّط لغزو واحتلال المغرب[١] .

ثالثاً : حشود النَّصارىٰ :

استطاع سبستيان أن يحشد من النَّصارىٰ عشرات الألوف من الإسبان ، والبرتغاليِّين ، والطُّليان ، والألمان ، وجهَّز هذه الألوف بجميع الأسلحة الممكنة في زمنه ، وجهَّز ألف مركبٍ لتحمل هؤلاء الجنود نحو المغرب[٢] .

ووصلت قوات النَّصارىٰ إلىٰ طنجة ، وأصيلا في عام ١٥٧٨م .

رابعاً : الجيش المغربي :

كانت الصَّيحة من جنبات المغرب الأقصىٰ : « أن اقصدوا وادي المخازن للجهاد في سبيل الله » .

والتقت جموع المغاربة حول قيادة عبد الملك المعتصم بالله ، وحاول المتوكِّل المخلوع أن يخترق ذلك التّلاحم ، فكتب إلىٰ أهل المغرب : ما استنصرتُ النَّصارىٰ حتّىٰ عدمتُ النُّصرة من المسلمين ، وقد قال العلماء : إنَّه يجوز للإنسان أن يستعين علىٰ مَنْ غصبه حقّاً بكلِّ ما أمكنه ، وتهدَّدهم[٣] قائلاً : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٧٩] .

---

(١) انظر : وادي المخازن ، ص(٤٥ ، ٤٦) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٤٩) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٥١) .

فأجابه علماء المغرب عن رسالته برسالةٍ دحضت أباطيله ، وفضحت زوره ، وبهتانه ، وكذبه ، وممّا جاء فيها : (الحمد لله كما يجب لجلاله ، والصَّلاة ، والسَّلام علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ خير أنبيائه ورسله ، والرَّضيِّ به ، حتّىٰ أسّس الله دين الإِسلام بشروط صحَّته ، وكماله ، وبعد :

فهذا جوابٌ من كلِّ الشُّرفاء ، والعلماء ، والصُّلحاء ، والأجناد من أهل المغرب . لو رجعت علىٰ نفسك اللَّوم ، والعتاب ؛ لعلمت : أنَّك المحجوب ، والمصاب . . . وأمَّا قولك في النَّصارىٰ ؛ فإنَّه رجعت إِلىٰ أهل العدوة ، واستعظمت أن تسمِّيهم بالنَّصارىٰ ، فيه المقت الَّذي لا يخفىٰ ، وقولك : رجعتُ إِليهم حين عدمتُ النُّصرة من المسلمين ؛ ففيه محظوران يحضر عندهما غضب الرَّبِّ جلَّ جلاله ، أحدهما : كونك اعتقدت : أنَّ المسلمين كلَّهم علىٰ ضلالٍ ، وأنَّ الحقَّ لم يبق من يقوم به إِلا النَّصارىٰ ، والعياذ بالله .

والثاني : إِنَّك استعنت بالكفَّار علىٰ المسلمين : قال عليه الصَّلاة والسَّلام : « إِنِّي لا أستعين بمشركٍ » . . الاستعانة بهم ـ بالمشركين ـ علىٰ المسلمين فلا يخطر إِلا علىٰ بال مَنْ قلبه وراء لسانه ، وقد قيل قديماً : لسان العاقل من وراء قلبه . . وقولك : فإِن لم تفعلوا ؛ فائذنوا بحرب من الله ورسوله ، إِيه أنت مع الله ورسوله ، ولمّا سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا ؛ حملتهم الغيرة الإِسلاميَّة ، والحميَّة الإِيمانيَّة ، وتجدَّد لهم نور الإِيمان ، وأشرق عليهم شعاع الإِيقان ؛ فمن قائلٍ يقول : لا دين إِلا دين محمَّد ﷺ ، ومن قائلٍ يقول : سترون ما أصنع عند اللِّقاء ، ومن قائل يقول : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ [العنكبوت : ١١] وقد افتخرت في كتابك بجموع الرُّوم ، وقيامهم معك ، وعوّلت علىٰ بلوغ الملك بحشودهم ، وأنّىٰ لك هذا[1] مع قول الله تعالىٰ : ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ٣٢] .

ولما عاين أهل القصر الكبير النَّصارىٰ واستبطؤوا وصول السُّلطان عبد الملك أرادوا الفرار والتحصُّن في الجبال ، فقام الشَّيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي بتثبيت النّاس .

---

(١) انظر : وادي المخازن ، ص(٥٣) .

وكتب عبد الملك المعتصم بالله من مراكش إلىٰ سبستيان : (إنَّ سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك ، وجوازك العُدْوَةَ ، فإن ثَبَتَّ إلىٰ أن أقدم عليك ، فأنت نصرانيٌّ حقيقيٌّ شجاعٌ ، وإلا فأنت كلبٌ ابن كلبٍ)[١] . فليس من الشَّجاعة ، ولا من روح الفروسيَّة أن ينقضَّ علىٰ سكان القرىٰ والمدن العزَّل ، ولا ينتظر مقابلة المحاربين .

وكان لذلك الخطاب أثرٌ في غضب سبستيان ، وقرَّر أخيراً التريُّث رغم مخالفة أركان جيشه ؛ الَّذين أشاروا عليه بالتقدُّم لاحتلال تطوان ، والعرائش ، والقصر[٢] .

وتحرَّكت قواد عبد الملك المعتصم بالله ، وسار أخوه أحمد المنصور بأهل فاس وما حولها ، وكان اللقاء قرب محلَّة القصر الكبير .

خامساً : قوىٰ الطَّرفين (البرتغالي النَّصراني ، والإسلامي المغربي) :

الجيش البرتغالي :

١٢٥٠٠٠ ، وما يلزمهم من المعدّات والرِّواية الأوربيَّة تقلِّل بعد الهزيمة عدد جيشها ، وتضخِّم عدد جيش المغرب ، فهي تتحدَّث عن ١٤٠٠٠ راجل ، و٢٠٠٠ فارس ، و٣٦ مدفعاً ، مقابل ٥٠٠٠٠ راجل في الجيش المغربي و٢٢٠٠٠ ، ١٥٠٠ من الرُّماة ، ٢٠ مدفعاً . ذكر أبو القاضي في (المنتقىٰ المقصور) : (عدد الجيش البرتغالي مئة ألف وخمسة وعشرون ألفاً)[٣] .

وقال أبو عبد الله محمَّد العربي الفاسي في (مرآة المحاسن) : أنَّ مجموعهم كان مئةً وعشرين ألفاً ، وأقلُّ ما قيل في عددهم ثمانون ألف مقاتل[٤] .

كان مع الجيش البرتغالي : ٢٠٠٠٠ إسباني ، ٣٠٠٠ ألماني ، ٧٠٠٠ إيطالي . . . وغيرهم عددٌ كبير . . مع ألوف الخيل ، وأكثر من أربعين مدفعاً . . وكلُّ هذه القوىٰ البشريَّة والمادِّيَّة بقيادة الملك سبستيان .

---

(١) انظر : وادي المخازن ، ص(٥٣) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٥٤) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٥٦) .
(٤) انظر : الاستقصاء (٥/٦٩) نقلاً عن وادي المخازن ، ص(٥٦) .

وكان معهم المتوكِّل المسلوخ بشرذمةٍ تتراوح ما بين ٣٠٠ ـ ٦٠٠ رجلٍ علىٰ الأكثر(١) .

الجيش المغربيُّ :

وكان جيش المغاربة تعداده ٤٠٠٠٠ مجاهد يملكون تفوقاً في الخيل ، ومدافعهم أربعة وثلاثون مدفعاً فقط ، وكانت معنويّاتهم مرتفعةً جدّاً بسبب :

١ ـ ذاقوا حلاوة الانتصار علىٰ النَّصارىٰ المحتلِّين ، واستخلصوا من أيديهم ثغوراً كثيرةً كانت محاطة بالأسوار العالية ، والحصون المنيعة ، والخنادق العميقة .

٢ ـ التفاف الشَّعب حول القيادة ، والتحام القبائل ، والطُّرق الصُّوفية ، وأهل المدن ، لأنَّ المعركة كانت حاسمةً في تاريخ الإسلام ، وفاصلةً في تاريخ المغرب ، كان الشَّيخ أبو المحاسن الفاسي زعيم الطَّريقة الشَّاذليَّة الجزوليَّة لا يكلُّ ، ولا يملُّ في شحذ الهمم ، ورفع المعنويّات وقد قاد هذا الشَّيخ أحد جناحي الجيش المغربي وأبلىٰ بلاءً حسناً رائعاً ، وثبت إلىٰ أن منح الله المسلمين النَّصر ، وركبوا أكتاف العدوِّ ، ويقتلون ، ويأسرون ، وتورَّع أبو المحاسن عن الغنيمة بعد الانتصار العظيم ، وعفَّ عنها ، ولم يأخذ منها شيئاً(٢) .

وأظهر عبد الملك المعتصم بالله ، وأخوه أبو العبَّاس ، والقادة العثمانيون عبقريةً فذةً في المعركة .

« لقد حنّكت التَّجارب عبد الملك المعتصم بالله ، فعزل عدوَّه عن أسطوله بالشّاطئ بمكيدةٍ عظيمةٍ ، وخطَّةٍ مدروسةٍ حكيمةٍ ، عندما استدرج سبستيان إلىٰ مكانٍ حدَّده عبد الملك ميداناً للمعركة . وكان عزله عن أسطوله محكماً عندما أمر عبد الملك بالقنطرة أن تهدم ، ووجه إليها كتيبةً من الخيل بقيادة أخيه المنصور ، فهدمها »(٣) .

---

(١) انظر : وادي المخازن ، ص(٥٦) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٥٨) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٦٢) .

لقد جعل عبد الملك المدفعية في المقدمة ، ثمَّ صفوفاً للرُّماة المشاة ، وجعل قيادته في القلب ، وعلىٰ المجنبتين رماةٌ فرسانٌ ، والقوىٰ الإسلاميَّة المتطوعة ، وجعل مجموعةً من الفرسان كقوةٍ احتياطيَّة لتنقضَّ في الوقت المناسب وهي في غاية الرّاحة لمطاردة فلول البرتغاليِّين ، واستثمار النَّصر[١] .

كان صباح الإثنين ٣٠ جمادىٰ الآخرة ٩٨٦هـ/١٥٧٨ يوماً مشهوداً في تاريخ المغرب ، ويوماً خالداً في تاريخ الإسلام .

وقف السُّلطان عبد الملك المعتصم بالله خطيباً في جيشه ، مذكِّراً بوعد الله للصّادقين المجاهدين بالنَّصر[٢] :

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] .

﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ١٠] .

كما ذكَّر بوجوب الثَّبات :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال : ١٥] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال : ٤٥] .

وبضرورة الانتظام :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف : ٤] .

وذكر أيضاً حقيقةً لا مراء فيها : إن انتصرت الصَّليبيَّة اليوم ، فلن تقوم للإسلام بعدها قائمةٌ .

ثمَّ قرئت آياتٌ كريمة من كتاب الله العزيز ، فاشتاقت النُّفوس للشَّهادة[٣] .

ولم يأل القُسُسُ ، والرُّهبان في إثارة حماس جند أوربة الَّذين يقودهم سبستيان ، مذكِّرين : أنَّ البابا أحلَّ من الأوزار ، والخطايا أرواح من يلقون حتفهم

(١) انظر : وادي المخازن ، ص(٦٢) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٦٦) .

في هذه الحروب الَّتي اتَّسمت بطابع الحروب الصَّليبيَّة .

وانطلقت عشرات الطَّلقات النّارية من الطَّرفين كليهما إيذاناً ببدء المعركة .

لقد قام السُّلطان عبد الملك برد الهجوم الأوَّل منطلقاً كالسَّهم شاهراً سيفه يمهِّد الطَّريق لجنوده إلىٰ صفوف النَّصارىٰ ، وغالبه المرض الَّذي سايره من مراكش ، ودخل خيمته وما هي إلا دقائق حتّىٰ فاضت روحه في ساحة الفدا ، لقد رفض أن يتخلَّف عن المعركة قائلاً : ومتىٰ كان المرض يثني المسلمين عن الجهاد في سبيل الله ، وأَمْرُ هذا القائد المجاهد عجيبٌ في الحزم والشَّجاعة ، ولقد فاضت روحه ، وهو واضعٌ سبابته علىٰ فمه مشيراً أن يكتموا الأمر حتّىٰ يتمَّ النَّصر ، ولا يضطربوا ، وكان كذلك ، فلم يعلم أحد بموته إلا أخوه أحمد المنصور ، وحاجبه رضوان العلج ، وصار حاجبه يقول للجند : (السُّلطان يأمر فلاناً أن يذهب إلىٰ موضع كذا ، وفلاناً يلزم الرّاية ، وفلاناً يتقدَّم ، وفلاناً يتأخر)[١] .

وقاد أحمد المنصور مقدِّمة الجيش ، وصدم مؤخرة الجيش البرتغالي ، وأُوقدت النَّار في برود النَّصارىٰ ، وصدم المسلمون رماتهم ، فتهالك قسمٌ منهم صرعىٰ ، وولّىٰ الباقون الأدبار قاصدين قنطرة نهر وادي المخازن ، وأصبحت تلك القنطرة أثراً بعد عين ، نسفها المسلمون بأمر سلطانهم ، فارتموا بالنَّهر ، فغرق من غرق ، وأُسر من أسر ، وقُتل من قتل ، وصُرع سبستيان وألوف مِنْ حوله ، ووقع المتوكِّل رمز الخيانة غريقاً في نهر وادي المخازن .

واستمرَّت المعركة أربع ساعات وثلث السّاعة ، وكتب الله فيها النَّصر للإسلام والمسلمين[٢] .

جاء في (درَّة السلوك) لأحمد بن القاضي ، وهو معاصرٌ لأحداث المعركة (مخطوط بدار الوثائق بالرَّباط د٤٢٨ ، ص١٤)[٣] :

---

(١) انظر : وادي المخازن ، ص(٦٦) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٦٦ ، ٦٧) .
(٣) دعوة الحقِّ السَّنة (١٩) ، العدد (٨) ، رمضان ١٣٩٨هـ ، ص(٥٦) نقلاً عن وادي المخازن ، ص(٦٧) .

وَابْنُ أَخِيهِ[١] بِالنَّصارىٰ اعْتَصَما وَصارَ يَسْتَجْدِهِمْ لِمَنْ سَما
أَجابَهُ اللَّعِيْنُ بُسْتِيانُ[٢] بِجَيْشِهِ وَمَعَهُ الأَوْثانُ
وَعَدَدُ الْجُيُوْشِ الَّذي جَمَعا يُنِيْفُ عَنْ مِئَةِ أَلْفٍ سُمِعا
فَخَلَصَ الإِسْلامُ مِنْ يَدِ اللَّعِيْن بِصَبْرِهِ عَلىٰ لِقاءِ المُشْرِكِين
ما مِنْهُمُ إِلا قَتِيْلٌ وأَسِيْرُ في ساعَةٍ مِنَ الزَّمانِ[٣] ذا شَهِيد
ماتَ بِها بُسْتِيانُ اللَّعِيْنُ فَمَا لَهُ عَنِ الرَّدىٰ مُعِينُ
ثُمَّ مُحَمَّدُ[٤] الَّذي أَتىٰ بِهِ ماتَ غَرِيقاً يَوْماً فَانْتَبِه
لِحِكْمَةِ اللهِ الْعَظِيْمِ القاهِر أَفادَهُمْ وَزَيَّنَ المنابِر
بِذِكْرِ عَمِّهِ أَبِي العَبّاسِ الحازِمِ الرَّأي شَدِيْدِ الباسِ
نجلُ الرَّسولِ المصْطَفى المُخْتار بِهِ زَها المَغْرِبُ عَلىٰ الأَقْطار[٥]

سادساً : أسباب نصر وادي المخازن :

١ ـ القيادة الحكيمة الَّتي تمثَّلت في زعامة عبد الملك المعتصم بالله ، وأخيه أبي العبَّاس ، ولحاجبه المنصور ، وظهور مجموعة من القادة المحنَّكين من أمثال أبي علي القوري ، والحسن العلج ، ومحمَّد أبي طيبة ، وعلي بن موسىٰ ؛ الَّذي كان عاملاً علىٰ العرائش .

٢ ـ التفاف الشَّعب المسلم المغربيُّ حول قيادته بسبب أبي المحاسن يوسف الفاسي ، والَّذي استطاع أن يبعث روح الجهاد في القوىٰ الشَّعبية .

٣ ـ رغبة المسلمين في الذَّود عن دينهم ، وعقيدتهم ، وأعراضهم ، والعمل علىٰ تضميد الجراح بسبب سقوط غرناطة ، وضياع الأندلس ، والانتقام من النَّصارىٰ الَّذين عذَّبوا المسلمين المهاجرين ، والَّذين تحت حكمهم في الأندلس .

---

(١) إشارة إلى المتوكِّل .
(٢) بستيان (لضرورة الوزن) وإلاَّ فهو سبستيان .
(٣) إشارة إلى قصر مدَّة المعركة .
(٤) محمَّد المتوكِّل المخلوع .
(٥) بردِّه الغزو الصَّليبي وانتصاره الباهر في معركة وادي المخازن .

٤ ـ اشتراك خبراء من العثمانيِّين تميَّزوا بالمهارة في الرَّمي بالمدفعية ، وشارك كذلك مجموعةٌ من الأندلسيِّين تميَّزوا بالرَّمي ، والتَّصويب بدقَّةٍ ممّا جعل المدفعيَّة المغربيَّة تتفوّق علىٰ المدفعية البرتغاليَّة النَّصرانيَّة .

٥ ـ الخطَّة المحكمة الّتي رسمها عبد الملك المعتصم بالله مع قادة حربه ، حيث استطاع أن يستدرج خصومه إلىٰ ميدان تجول فيه الخيل ، وتصول ، مع قطع طرق تموينه ، وإمداده ، ثمَّ نسفه للقنطرة الوحيدة علىٰ نهر وادي المخازن .

٦ ـ القدوة ، والأسوة المثاليَّة الَّتي ضربها للنَّاس كلٌّ من عبد الملك ، وأخيه أحمد المنصور ، حيث شاركا بالفعل في القتال ، فكان حالهما له أثرٌ أشدُّ في أتباعهم من قولهم .

٧ ـ تفوُّق القوَّات المغربيَّة بالخيل ، حيث استطاع الفرسان أن يستثمروا النَّصر ، ويطوِّقوا النَّصارىٰ المنهزمين ، ومنعتهم خيلُ المسلمين الخفيفة الحركة من أيِّ فرصةٍ للفرار .

٨ ـ استبداد سبستيان بالرَّأي ، وعدم الأخذ بمشورة مستشاريه وكبار رجال دولته ممَّا جعل القلوب تتنافر .

٩ ـ وعي الشَّعب المغربيِّ المسلم بخطورة الغزو النَّصراني البرتغاليِّ ، واقتناعه بأنَّه جهادٌ في سبيل الله ضدَّ غزوٍ صليبيٍّ حاقدٍ(١) .

١٠ ـ دعاء وتضرُّع المسلمين لله بإنزال النَّصر عليهم ، وخذل ، وهزيمة أعدائهم ، وغير ذلك من الأسباب .

سابعاً : نتائج المعركة :

١ ـ أصبح سلطان المغرب بعد عبد الملك أحمد المنصور بالله الملقَّب بالذَّهبي ، وبويع بعد الفراغ من القتال بميدان المعركة ، وذلك يوم الإثنين ٣٠ جمادىٰ الآخرة سنة ستٍّ وثمانين وتسعمئة للهجرة .

٢ ـ وصلت أنباء الانتصار بواسطة رسل السُّلطان أحمد الذَّهبي إلىٰ مقرِّ السلطنة

---

(١) انظر : وادي المخازن ، ص(٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥) .

العثمانيَّة ، وفي زمن السُّلطان مراد خان الثَّالث ، وإلىٰ سائر ممالك الإسلام المجاورة للمغرب ، وغيرها ، وحلَّ السُّرور بالمسلمين ، وعمَّ السَّعد في ديارهم ، ووردت الرَّسائل من سائر الأقطار مهنِّئين ومباركين للشَّعب المغربيِّ نصرهم العظيم .

٣ ـ ارتفع نجم الدَّولة السَّعدية في آفاق العالم ، وأصبحت دول أوربة تخطب ودَّها ، واضطرَّ ملك البرتغال الجديد ، وملك إسبانيا أن يرسلوا وفوداً محمَّلةً بالهدايا الثَّمينة . ثمَّ قَدِمَتْ رسل السُّلطان العثماني مهنِّئةً ، ومباركة ، ومعهم هداياهم الثَّمينة ، وبعدها رسل ملك فرنسا ، وأصبحت الوفود (تصبح ، وتمسي على أعتاب تلك القصور)[١] .

٤ ـ سقط نجم نصارى البرتغال في بحار المغرب ، واضطربت دولتهم ، وضعفت شوكتهم ، وتهاوت قوتهم .

يقول لويس ماريه ـ المؤرخ البرتغالي ـ واصفاً نتائج المعركة :

« وقد كان مخبوءاً لنا في مستقبل الأعصار العصر الَّذي لو وصفته ـ كما وصفه غيره من المؤرِّخين ـ لقلت : هو العصر النَّحس البالغ النحوسة ، الَّذي انتهت فيه مدَّة الصَّولة ، والظَّفر ، والنَّجاح ، وانقضت فيه أيَّام العناية من البرتغال ، وانطفأ مصباحهم بين الأجناس ، وزال رونقهم ، وذهبت النَّخوة ، والقوة منهم ، وخلفها الفشل الذَّريع ، وانقطع الرَّجاء ، واضمحلَّ إبان الغنى ، والربح ، وذلك هو العصر الَّذي هلك فيه سبستيان في القصر الكبير في بلاد المغرب »[٢] .

٥ ـ مات في تلك المعركة ثلاثة ملوكٍ ، صليبيٌّ حاقدٌ « سبستيان » ملك البرتغال ، وملكٌ مخلوعٌ خائنٌ « محمَّد المتوكِّل » ومجاهدٌ شهيدٌ « عبد الملك المعتصم بالله » .

٦ ـ سارع البرتغاليُّون النَّصارى بفكاك أسراهم ، ودفعوا أموالاً طائلةً للدَّولة السَّعديَّة .

---

(١) الاستقصاء (٥/ ٩٢) نقلاً عن وادي المخازن ، ص(٧٠) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه (٥/ ٨٥ ـ ٨٦) نقلاً عن وادي المخازن ، ص(٧١) .

٧ ـ سادت فترة هدوءٍ ، ورخاءٍ ، وبناءٍ ، وازدهارٍ في العلوم ، والفنون ، والصِّناعات في بلاد المغرب .

٨ ـ حدث تحوُّلٌ جذريٌّ في التَّفكير والتَّخطيط على مستوى أوربة ، حيث رأوا أهميَّة الغزو الفكري لبلاد المسلمين ؛ لأنَّ سياسة الحديد والنَّار تحطَّمت أمام إرادة الشُّعوب الإسلاميَّة في المشرق والمغرب(١) .

استمرَّ أحمد المنصور على منهج أخيه في بناء المؤسسات ، واقتناء ما وصلت إليه الكشوفات العلميَّة ، وتطوير الإدارة ، والقضاء ، والجيش ، وترتيب الأقاليم ، وتنظيمها ، وكان أحمد المنصور يتابع وزراءه ، وكبار موظَّفيه ، ويحاسبهم على عدم المحافظة على أوقات العمل الرَّسميَّة ، أو التَّأخير في الردِّ على المراسلات الإداريَّة ، والسِّياسيَّة .

وأحدث حروفاً لرموزٍ خاصَّةٍ بكتابة المراسلات السِّرِّيَّة ؛ حتَّى لا يعرف فحواها إذا وقعت في يد عدوٍّ ، وهذا يدلُّ على اهتمامه الشَّخصي بجهاز الأمن ، والاستخبارات الَّتي تُحمَى به الدَّولة من الأخطار الدَّاخليَّة ، والخارجيَّة .

واهتم بالجهاز القضائي ، وفصل السُّلطة القضائيَّة عن السُّلطة التَّنفيذيَّة تماماً ، ومنع السُّلطة التَّنفيذيَّة من التدخُّل في السُّلطة القضائيَّة .

وقد قارن مؤرِّخٌ فرنسيٌّ بين القضاء الأوربيِّ ، والقضاء المغربيِّ في القرنين الحادي عشر والثَّاني عشر الهجريَّين (١٦ ، ١٧م) فقال : « في الوقت الَّذي كانت أوربة في العصر السَّعدي يحتفظ الملوك فيها وحدهم بحقِّ الحكم في عددٍ من القضايا ، فإنَّ الملوك السَّعديِّين لا ينظرون إلا في القضايا المرفوعة ضدَّ رجال السُّلطة ، وهذا ما كان يُدعى بقضاء المظالم(٢) .

وترأس أحمد المنصور مجلس المظالم ، وجعله في جامع القصبة في مراكش ، بجوار قصره ، وشكَّل لجنةً تراقب مجرى القضاء في الأقاليم ، وتهتمُّ بمطالعة ، ودراسة تقاريرهم بعنايةٍ ، واهتمَّ بضبط الإدارة ، وإحكام دولته ، وإقامة العدل على

---

(١) انظر : وادي المخازن ، ص(٧٦) .

(٢) انظر : دعوة الحقِّ نقلاً عن وادي المخازن ، ص(٤١) .

رعاياه ، وعمل على إقامة محطَّات في أرجاء البلاد يحرسها جنودٌ مقيمون لا يبعد بعضهم عن بعض إلا بمسافة عشرين كيلو متراً بحيث يستطيع المسافرون ، والقوافل أن تمرَّ عبر القرى والبوادي بأمنٍ ، وسلام .

وطوَّر عمل المؤسَّسات الاستشارية ، وأوجد مجلس الدِّيوان ، أو مجلس الملأ ، واختصاصاته : سياسيَّةً ، وقضائيةً ، وعسكريَّةً ، وهو أعلى مرجعٍ قانونيٍّ للبلاد ، إلا أنَّه لا يستطيع أن يتجاوز أحكام السُّلطة القضائيَّة ، ولو كانت ضدَّ المجلس كلِّه ، أو بعض رجاله ، وكان مجلس الدِّيوان من المرونة ، وسعة الأفق بحيث يسمح بدخول المختصِّين ، أو ممثِّلي المدن ، والمراكز القرويَّة عندما يقتضي الأمر استشارات على نطاقٍ شعبيٍّ واسعٍ[١] .

وطوَّر السُّلطان أحمد المنصور جيش دولته ، واقتدى بالنِّظام العثماني في التَّسليح ، والرُّتب ، واللِّباس ، واهتمَّ بإسناد القيادات لمن أظهر كفاءة عسكريَّةً عاليةً ، وأثبتت الأيَّام : أنَّه أهلٌ لذلك ، ومن أهم هذه القيادات ، إبراهيم محمَّد السُّفياني قائد الجبهة الأماميَّة في وادي المخازن ، وأحمد بن بركة ، وأحمد العمري المعقلي .

ودعم جيشه بالوحدات الطبيَّة من جراحين وغيرهم ، وأقام مستشفياتٍ متنقلةً ميدانيَّةً ، تستقبل الجرحى ، والمرضى في الحروب ، واهتمَّ بتأهيل التِّقنيِّين المتخصِّصين في جيشه ، وقام السَّعديُّون ببناء دار العدَّة لصناعة المدافع ، واهتمُّوا بتطوير الأسطول ، خصوصاً في ميناءي العرائش ، وسلا[٢] .

ومدَّ نفوذ الدَّولة السَّعديَّة نحو الجنوب ، وضمَّ بلاد السُّودان الغربي إلى نفوذه ، ودخل في لعبة الموازنات الدَّوليَّة بين الإسبان ، والإنجليز ، والعثمانيِّين ، وظهرت منه مواهب سياسيَّةٌ متميِّزةٌ ، واستطاع أن يحقِّق الأمن ، والازدهار ، والرَّفاه ، والخصب لبلاده[٣] .

---

(١) انظر : وادي المخازن ، ص(٤٢ ، ٤٣) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٤٤) .

(٣) انظر : تاريخ عصر النَّهضة الأوربيَّة ، نور الدِّين حسام ، ص(٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨) .

ثامناً : اقتراح عثماني على السَّعديين :

بدأت القوات الإسبانيَّة في اكتساح الأراضي البرتغاليَّة ، ولم يستطع الأمير البرتغالي « دون أنطونيو » مقاومة تلك القوَّات الإسبانيَّة ، الَّتي ضمَّت أراضيه سنة ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م عند ذلك اقترح السُّلطان العثماني مراد الثالث عقد تحالف عسكريٍّ ضد الإسبان على أساس إمداده بأسطولٍ حربيٍّ ، وقوَّاتٍ عسكريَّةٍ ، فبعث برسالة في رجب ٩٨٨هـ/ سبتمبر ١٥٨٠م ، قال فيها : « . . . فلمَّا وصل بمسامعنا الشَّريفة ، ومشاعرنا الحقَّانية المنيفة خبر طاغية قشتالة ، وأنَّه احتوى على سلطنة برتغال ، أو كاد ، وأنَّه جعل أهلها في الأغلال ، والأصفاد ، وأنَّه لكم جارٌ ، وعدوٌّ مضرار ، حرَّكنا الحميَّة الإسلاميَّة . . لإظهار الألفة الأزليَّة أن تتخذ عهداً ، وتؤكِّد : أنَّ المملكتين محروستا الجوانب ، ونعلّق العهد بالكعبة . . . فإذا تمّ هذا الشّأن . . . نوجِّه لكم ثلاثمئة غراباً سلطانية (سفن من الأسطول العثماني) وجيش عزٍّ ونصرٍ ، وكماةً عثمانيَّةً تستفتح بها إن شاء الله بلاد الأندلس . . » .

كان قلج علي بعد استقرار الدَّولة العثمانيَّة في تونس بدأت أنظاره تتطلَّع إلى المغرب[1] ، وأخذ يعمل في توحيد الوجهة السِّياسيَّة لبلاد المغرب الإسلامي ، لضمِّه إلى الدَّولة العثمانيَّة[2] ، خاصَّةً بعد تذبذب موقف المولى أحمد المنصور الأخير من الدَّولة ، صدرت الأوامر إلى قلج علي قائد الأسطول العثماني بالتَّوجه إلى المغرب لضمِّه للدَّولة العثمانيَّة ، فوصل قلج علي إلى الجزائر في جمادى الآخرة ٩٨٩هـ/ يونيو ١٥٨١م ، بينما كان المنصور يرابط بقوَّاته عند نهر تانسيفت ، وكانت القوَّات المغربيَّة قد استعدَّت لمواجهة التدخُّل العثماني ؛ إذ جهَّز المنصور جنوده ، وتقدَّم بها حتَّى حدود بلاده ، كما سدَّ مدخل مملكته ، وحصَّن الثُّغور .

وإلى جانب تلك الاستعدادات وجَّه المنصور سفارةً خاصَّةً لإستانبول ، وذلك بعد أن توصَّل إلى شبه اتِّفاقٍ عسكريٍّ مع الملك الإسباني الَّذي انتهى من مشاكله بدخوله للعاصمة البرتغالية لشبونة في ٢٧ جمادى الآخرة ٩٨٩هـ/ ٣١ يوليو

---

(١) انظر : تاريخ الجزائر الحديث ، محمد خير فارس ، ص(٥٢) .
(٢) انظر : تاريخ الجزائر الحديث للجيلالي ، ص(١٠١) .

١٥٨١م ، على أساس تقديم المساعدة العسكريَّة للمغرب ، لمواجهة التدخُّل العثماني ، مقابل التَّنازل عن مدينة العرائش ، وامتيازات أخرى .

وأمام تطوُّر الأحداث لم يجد السُّلطان العثماني بدّاً من قبول الأمر الواقع ، والتَّراجع عن غزو المغرب بأن أمر قلج علي[١] ، وجعفر باشا نائب قلج علي في الجزائر بالتَّخلي عن العمل بالمغرب ، والانتقال إلى الشَّرق ، حيث اضطربت الأمور بالحجاز فتخلَّى قلج علي عن هدفه الطَّموح في استرداد الأندلس ، بعد توحيد الجبهة لبلاد المغرب الإسلاميِّ[٢] .

تردَّد السُّفراء بين الآستانة ، وفاس ، فتوجَّهت سفارات أحمد بن ودَّة ، والشَّاظمي ، وأبي الحسن علي بن محمَّد التمكروتي بين عام ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م ، ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م ، واستقبل أحمد المنصور سفيراً عثمانياً في ٩٩٨هـ/ ١٥٨٩م[٣] ، لم تتحقَّق رغبة السُّلطان العثماني ضدَّ الشِّيعة الصَّفويَّة في إيران ، والهابسبرج في وسط أوربة ، بالإضافة إلى واجبها نحو حماية مقدَّسات الأمَّة الإسلاميَّة في الحجاز ، وتدعيم حزامه الأمني[٤] .

تاسعاً : جهاد الوالي الجزائري وتغيُّر الأوضاع :

جهَّز الوالي العثماني في الجزائر أسطوله في سنة ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م لمحاربة إسبانيا فوق أرضها ، فنزل المجاهدون المسلمون في برشلونة ، فأعملوا فيها تدميراً ، ثمَّ عبروا مضيق جبل طارق ، وهاجموا جزر الكناري الَّتي تحتلها إسبانيا ، فدمَّروا المراكز العسكريَّة ، وغنموا ما فيها ، ولم يكن الأسطول العثماني يذهب للأندلس لمجرَّد التَّنكيل بالإسبانيِّين ، ولتدمير منشآتهم ، بل كان بالدَّرجة الأولى لإنقاذ المسلمين من نكبتهم ، وتعرَّض المجاهدون أثناء ذلك لمعارك قاسيةٍ ، وهزائم أحياناً[٥] .

---

(١) انظر : المغرب في عهد الدَّولة السَّعدية ؛ ص(١١٢) .
(٢) انظر : تاريخ الجزائر للجيلالي ، ص(١٠١) .
(٣) انظر : بداية الحكم المغربي بالسُّودان ، ص(٩٧) .
(٤) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٥٣٢) .
(٥) انظر : الجزائر والحملات الصَّليبيَّة ، ص(٩٥) .

ازداد تطاول الإنكشاريَّة في الجزائر على الأهالي في الوقت الَّذي انصرف رجال البحر ليمارسوا الجهاد البحري على نطاقٍ واسعٍ[(١)] ، لذلك حضر حسن فنزيانو من نشاطه البحري ، الَّذي بادر إلى عودته إلى الجزائر حينما بلغه انتشار الفوضى بين الجنود ، فانتصب على الجزائر للمرَّة الثانية ، وفرض طاعته على الرَّعية ، وذلك في ربيع الثاني سنة ٩٩١هـ/ أبريل ١٥٨٣م ، ولم يعارض الباب العالي في تولِّيه ، لما كان له من العقل في حسم الخلاف ، وإطفاء نار الفتن ، واستتباب الأمن بالجزائر .

باشر حسن فنزيانو تسيير الإدارة بما عهد منه من نشاطٍ ، وحزم ، فإنَّه لم يترك قيادة الأسطول العثماني بالجزائر لغيره ، وكثرت في أيامه المغانم بما كانت تجلبه السُّفن من السَّواحل الإسبانيَّة ، والجزر الشَّرقيَّة من نفائس ، وبما كان يستولي عليه من الأسرى ، والمغانم في غزواته .

وفي ٩٩٢هـ/ ١٥٨٤م أبحر حسن فنزيانو بأسطوله على ثغر بلنسية ، وحمل أعداداً كبيرةً من مسلمي الأندلس ؛ إذ أنقذهم من اضطهاد الإسبان ، كما استطاع في السَّنة التَّالية إنقاذ جميع سكان كالوسا ؛ إذ حملهم إلى الجزائر ، وفي السَّنة بعدها توغَّل مراد رايس في المحيط الأطلسي ، فأغار على جزر الكناري وغنم منها غنائم كثيرةً بما فيهم زوجة حاكم تلك الجزر ، وبقي حسن فنزيانو على رأس الحكومة العثمانيَّة بالجزائر إلى أن استدعاه السُّلطان في إستانبول ليتولَّى منصب إمارة البحر « قبودان دوريا »[(٢)] وذلك بعد وفاة قلج علي سنة ٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م .

عاشراً : انتهاء نظام البيلربك في الجزائر :

بوفاة قلج علي انتهى في الجزائر نظام البيلربك الَّذي جعل من حكام الجزائر ملوكاً واسعي السُّلطة والنُّفوذ ، واستعيض عنه بنظام الباشويَّة ، مثلها في ذلك تونس ، وطرابلس[(٣)] ، ويفسِّر هذا التَّغيير في شكل الحكم العثماني تخوُّف السُّلطان

---

(١) انظر : تاريخ الجزائر الحديث ، ص(٥٩) .
(٢) انظر : تاريخ الجزائر العام للجيلالي (٣/ ١٠٢ ، ١٠٣) .
(٣) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص(٤١٠) .

العثماني في أن يتَّجه البيلربك بسبب قوَّتهم ، وضعف البحرية العثمانيَّة نحو الاستقلال .

وكان الباشا موظَّفاً ترسله الآستانة لمدَّة ثلاث سنوات يتولَّى خلالها حكم البلاد دون أن يكون له سندٌ أساسيٌّ ، أو سندٌ محلِّيٌّ بين القوى الَّتي تسيطر على البلاد[1] ، ويكون الباشا في كلٍّ من طرابلس ، وتونس ، والجزائر وكيلاً للسُّلطان ، ويكون مطلق التَّصرُّف لبعد الولاية عن العاصمة إستانبول .

كانت أحداث ما بعد ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م في نيابات العثمانيَّة الثلاث : طرابلس ، وتونس ، والجزائر تفيد بسطوة الجنود ، ورجال البحريَّة على السَّلطنة فيها على حساب سلطة الباشا ، إلا أنَّ طبيعة علاقات السُّلطة في داخل الولاية مع إمساك السَّلطنة العثمانيَّة بسلطة إصدار الغرامات ، قد ضمنا تحقيق الأهداف العثمانيَّة في الحكم من حيث الخطبة باسم السُّلطان وتحصيل الأموال سنويَّاً ، والمساهمة في حروب الدَّولة ، والقبول بالباشا القادم من الآستانة ممثلاً أعلى للسُّلطان في حكم النِّيابة ، وهي جميعها من رموز السِّيادة العثمانيَّة الرَّسمية[2] .

كان ذلك هو التَّحوُّل الَّذي جرى في الدَّولة نحو الشَّمال الأفريقي إثْر معركة ليبانتو سنة ٩٧٨هـ/ ١٥٧١م ، فبعد أن كان الشَّمال الأفريقي تحت مسؤوليَّة البيلربك الموجود في الجزائر ، انقسمت المنطقة إلى ثلاث ولايات ، هي : طرابلس ، وتونس ، والجزائر ، وصارت ولايات عاديَّة مثلها مثل سائر الولايات العثمانيَّة الأخرى ، لقد كان موقف الدَّولة السَّعديَّة من جهةٍ ، وتصرُّف بعض الإنكشاريِّين من جهةٍ أخرى ، وجبهات المشرق من جهةٍ ثالثةٍ ، وغير ذلك من الأسباب سبباً في إضعاف همَّة الدَّولة في إرجاع الأندلس .

*** لقد حالت عدَّة أسباب دون ضمِّ المغرب الأقصى للدَّولة العثمانيَّة ، منها :**

١ ـ ظهور شخصيَّة قويَّة حاكمة في المغرب ، ونعني به : المنصور السَّعدي .

---

(١) انظر : المغرب العربي ، للعقَّاد ، (٢٨) .

(٢) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٤٧٧) .

٢ـ وفاة قلج علي في ١٥٨٧م ، ومن بعده أدخل الشَّمال الأفريقي في نظام الولايات .

٣ـ كان النَّصر الَّذي أحرزه المغاربة على البرتغاليِّين في معركة وادي المخازن سبباً في تقدير السُّلطات العثمانيَّة للسَّعديِّين ، واحترامهم[(١)] .

لقد كانت الدَّولة العثمانيَّة في جهودها البحريَّة في البحر المتوسط أكثر توفيقاً من البحر الأحمر ، والمحيطات لعدَّة أسبابٍ ، منها :

١ـ قرب الشَّمال الأفريقي من كلٍّ من إستانبول ، ومصر يجعل الإمدادات متلاحقةً ، ويجعل صورة الأحداث واضحةً ، والتَّطوُّرات العسكريَّة مفهومةً ، بعكس الحال في المحيطات حيث كانت تطوُّرات الأمور لا تصل إلا بعد وقتٍ طويلٍ ، وبشكلٍ غير واضحٍ .

٢ـ كانت للعثمانيِّين قواعد قويَّة في شمال أفريقية تستند إلى خلفيةٍ إسلاميَّة واسعةٍ ، وخبرة عمليَّةٍ في محاربة النَّصارى ، وكانوا على استعدادٍ للتَّعاون مع العثمانيِّين والدُّخول تحت نفوذهم .

٣ـ لم تكن هناك مقاومةٌ مذهبيَّةٌ عنيفةٌ في شمال أفريقية ، بل كانت الهيمنة للمذهب السُّنِّي ؛ الَّذي استطاع أن يقف أمام المذاهب المنحرفة ، ويجتثَّها من جذورها[(٢)] .

* * *

(١) انظر : الشعوب الإسلاميَّة ، د . عبد العزيز سليمان ، ص(١٢٣) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٢٤) .

الفصل الخامس
بداية اضمحلال الدَّولة العثمانيَّة

اتَّفق المؤرِّخون على أنَّ عظمة الدَّولة العثمانيَّة قد انتهت بوفاة السُّلطان العثماني سليمان القانوني عام (٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م) وكانت مقدِّمات ضعف الدَّولة قد اتَّضحت في عهد السُّلطان سليمان ؛ إذ وقع السُّلطان تحت تأثير زوجته روكسلانا الَّتي تدخَّلت للتآمر ضدَّ الأمير مصطفى ؛ ليتولَّى ابنها سليم الثَّاني الخلافة بعد أبيه ، وكان مصطفى قائداً عظيماً ، ومحبوباً من الضُّبَّاط ، ممَّا أدى إلى سخط الإنكشاريَّة ، ونشوب ثورةٍ كبرى ضدُّ السُّلطان ، وأخمدها السُّلطان سليمان ، وبذلك تمَّ القضاء على مصطفى ، وابنه الرَّضيع ، وكذلك قتل السُّلطان ابنه بايزيد ، وأبناءه الأربعة بدسيسةٍ من أحد الوزراء[١] .

ومن مظاهر الضَّعف في عهد سليمان بدء انسحاب السُّلطان من جلسات الدِّيوان ، وبروز سطوة الحريم ، والعجز عن مواجهة المشاكل الاقتصاديَّة ، والاجتماعيَّة الَّتي أدَّت إلى نشوب القلاقل الشَّعبيَّة في الروملي ، والأناضول[٢] .

* * *

---

(١) انظر : في أصول التَّاريخ العثماني ، ص(١٠٢) .
(٢) انظر : الدَّولة العثمانيَّة في التاريخ الإسلامي ، ص(٩٤) .

المبحث الأوَّل

السُّلطان سليم الثَّاني

تولَّى الحكم في ٩ ربيع الأوَّل سنة ٩٧٤هـ ، ولم يكن مؤهَّلاً لحفظ فتوحات والده السُّلطان سليمان ، ولولا وجود الوزير الفذِّ ، والمجاهد الكبير ، والسِّياسيِّ القدير محمَّد باشا الصُّوقلِّلي[1] ؛ لانهارت الدَّولة ؛ إذ قام بإعادة هيبتها ، وزرع الرَّهبة في قلوب أعدائها ، وعقد صلحاً مع النِّمسا ، وأتمَّ توقيع معاهدة في عام ٩٧٥هـ/ الموافق ١٥٦٧م احتفظت بموجبها النِّمسا بأملاكها في بلاد المجر ، ودفعت الجزية السَّنويَّة المقرَّرة سابقاً للدَّولة ، كما اعترف أمراء تراسلفانيا ، والأفلاق ، والبغدان به[2] .

أولاً : تجدُّد الهدنة مع شارل التاسع ملك فرنسا :

تجدَّدت الهدنة مع ملك بولونيا ، وشارل التَّاسع ملك فرنسا في عام ٩٨٠هـ/ الموافق ١٥٦٩م كما زادت الامتيازات القنصليَّة الفرنسيَّة ، وجرى تعيين هنري دي فالوا ـ وهو أخو ملك فرنسا ـ ملكاً على بولونيا باتِّفاقٍ مع فرنسا الَّتي أصبحت بذلك ملكة التِّجارة في البحر المتوسط ، وطبقاً للمعاهدات السَّابقة فقد قامت تلك الدَّولة ـ أي : فرنسا ـ بإرسال البعثات الدِّينية النَّصرانيَّة إلى جميع أرجاء البلاد العثمانيَّة الَّتي يسكنها نصارى ، وخاصَّةً بلاد الشَّام ، وقامت بزرع محبَّة فرنسا في نفوس نصارى الشَّام ممَّا كان له أثرٌ يذكر في ضعف الدَّولة ؛ إذ امتدَّ النُّفوذ الفرنسي بين النَّصارى ، وبالتَّالي ازداد العصيان ، وتشجَّعوا على الثَّورات ، فكان من أهم نتائج ذلك التدخل الاحتفاظ بجنسيَّة ولغة الأقلِّيات النَّصرانية ، حتَّى إذا ضعفت الدَّولة العثمانيَّة ثارت تلك الشُّعوب مطالبةً بالاستقلال بدعمٍ ، وتأييدٍ من دول أوربة النَّصرانيَّة[3] .

---

(١) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، د . علي حسون ، ص(١٢٣) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٢٤) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .

إن اقتناع الدُّول الأوربيَّة بكون نظام الامتيازات الأجنبيَّة ، حقّاً من حقوقها الطَّبيعيَّة هو الَّذي دفع فرنسا لإرسال جنودها لمساعدة البندقيَّة الَّتي كان السُّلطان مراد الرَّابع (١٦٢٤ ـ ١٦٤٠م) يحاربها ، كما أرسلت سفيرها برفقة عمارةٍ بحريَّة لإرهاب الدَّولة العليَّة ، ومطالبتها بتحديد الامتيازات . لكنَّ الصَّدر الأعظم حينئذٍ والَّذي كان مازال يمتلك قراره السِّياسي أخبر السَّفير « بأن المعاهدات هذه ليست اضطراريَّة واجبة التَّنفيذ ، ذلك لكونها منحةً سلطانيَّةً فحسب ، الأمر الَّذي جعل فرنسا تتراجع عن تهديداتها ، وتتحايل لدى السُّلطان ليوافق من جديد على تجديد نظام الامتيازات عام ١٦٧٣م ، ممَّا زاد الطِّين بلَّةً ، وبدل أن تتَّعظ الدَّولة العثمانيَّة ممَّا حدث ؛ أمر السُّلطان محمَّد الرَّابع (١٦٤٨ ـ ١٦٨٧م) بتفويض فرنسا حقَّ حماية بيت المقدس[(١)] وتتابع بتجديد الامتيازات ، وفي كلِّ مرَّةٍ يضاف قيدٌ جديدٌ على السَّلطنة ، ففي تجديد عام ١٧٤٠م أضافت السَّلطنة امتيازاتٍ تجاريَّةً جديدةً لفرنسا . ولكن الامتيازات تعرَّضت لتهديدٍ حقيقي عندما احتل نابليون بونابرت مصر ، فقد أوقفت السَّلطنة العمل بها ، غير أنَّ نابليون كان قد تراجع في الوقت المناسب حفاظاً على علاقته مع السَّلطنة ، وذلك حين عرض انسحاب فرنسا من مصر لقاء تجديد الامتيازات ، وقد تمَّ ذلك بالفعل في ٩ تشرين أو (أكتوبر) ١٨٠١م وأضافت السَّلطنة امتيازاً جديداً يقضي بمنح فرنسا حريَّة التِّجارة ، والملاحة في البحر الأسود[(٢)] .

لقد كانت نتائج هذه الامتيازات وخيمةً جدّاً على السَّلطنة ، ولقد بيَّن المؤرِّخ اليونانيُّ ديمتري كيتسيكس : « . . أنَّ الامتيازات حطَّمت اقتصاد الإمبراطوريَّة بتحطيمها النِّظام الضريبي العثماني القائم على حماية التِّجارة المحلِّيَّة ضدَّ المنافسة الأجنبية . . . »[(٣)] بل هذه الامتيازات حالت دون قيام السَّلطنة بتنفيذ مشروعاتٍ إصلاحيَّة ، واستنباط موارد ماليَّةٍ جديدةٍ لمواجهة نفقات الإدارة والحكم ، لذلك أصبحت معاهدات الامتيازات الأجنبيَّة بمثابة مواثيق مذلَّةٍ للعثمانيِّين ما دام

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة قراءة جديدة لعوامل الانحطاط ، جوَّاد العزَّاوي ، ص(٢٦) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢٧) .

الأوربيُّون لا يخضعون للسُّلطات العثمانيَّة ، فقد أصبحوا وكأنَّهم يشكِّلون حكومةً داخل الحكومة العثمانيَّة[١] .

ثانياً : حاكم خوارزم يطلب الحماية من السلطان سليم الثاني :

اشتكى حاكم خوارزم للسُّلطان سليم الثَّاني من أنَّ شاه فارس يقبض على الحجَّاج الوافدين من تركستان ، بمجرد عبورهم حدوده ، وأنَّ موسكو بعد استيلائها على إستراخان منعت مرور الحجَّاج والتِّجارة ، ووضعت العقبات والعراقيل أمامهم ، لهذا طلب حاكم خوارزم ، وحاكما بخارى ، وسمرقند من السُّلطان سليم الثَّاني أن يفتح إستراخان بهدف إعادة فتح طريق الحجِّ[٢] ولاقى ذلك الطَّلب القبول لدى الدَّولة العثمانيَّة . أعدَّ صوقلِّلي باشا الصَّدر الأعظم في الدَّولة حملةً كبرى سنة ٩٧٦هـ ـ ٩٧٧هـ/ ١٥٦٨ ـ ١٥٦٩م للاستيلاء على إستراخان ، وتحويلها إلى قاعدةٍ عثمانيَّة للدِّفاع عن المنطقة ، وأن يصل ما بين نهري الفولجا ، والدون بقناةٍ صالحةٍ لمرور السُّفن ؛ لتسهِّل دخول الأسطول العثماني بحر الخزر (قزوين) عن طريق البحر الأسود ؛ لتمكِّن العثمانيِّين من وقف التوسُّع الروسي نحو الجنوب ، وتطرد الفرس من القوقاز ، وأذربيجان ، بل وغزو فارس من الشَّمال ، بدلاً من مرور الجيوش العثمانيَّة بأرض أذربيجان الوعرة ، والاتصال بالأزبك أعداء الصفويِّين ، وتتار القرم ، ومن شأن كلِّ ذلك أن يؤدِّي إلى إحياء طريق القوافل القديمة المارَّة بأواسط آسيا من الشَّرق إلى الغرب[٣] .

شرع العثمانيُّون في تنفيذ مشروع وصل نهر الدُّون بالفولجا ، وما إنْ حلَّ شهر جمادى الأولى ٩٧٧هـ/ أكتوبر ١٥٦٩م حتَّى كان ثلث القناة قد اكتمل ، وإن كان موسم الشتاء قد أدَّى إلى إيقاف العمل ، وحينئذٍ اقترح قائد الحملة استعمال سفنٍ صغيرةٍ محمَّلة بالمدافع والذَّخيرة لشنِّ الهجوم على إستراخان ، إلا أنَّ الحملة فشلت بسبب الظُّروف الطَّبيعيَّة ، ومع هذا استطاع صوقلِّلي باشا أن يحقِّق بعض

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة دولةٌ إسلاميَّةٌ مفترى عليها (١/ ٧٥) .

(٢) انظر : في أصول التَّاريخ العثماني ، ص(١٤٤) .

(٣) انظر : فتح عدن ، محمَّد عبد اللَّطيف البحراوي ، ص(١٤٥) .

النَّجاحات كتشديد قبضة السُّلطان على أمراء مولدافيا ، وولاشيا ، وبولندا ، وبذلك اعترضت الدَّولة العثمانيَّة مرحلياً توسُّع روسيا شمال وغرب البحر الأسود[١] .

ثالثاً : فتح قبرص :

كانت إيطاليا ، وإسبانيا تقدِّر أهميَّة جزيرة قبرص ، وشاع في أوربة عن تكوين حلفٍ ضدَّ السُّلطان ، ولكن لم يُعمل شيءٌ في حينه لإنقاذ قبرص من العثمانيِّين الَّذين نزلوها بقوَّةٍ كاسحةٍ ، نفذت إلى الجزيرة بدون صعوبةٍ ، ووقفت مدينة فامرجستا الحصينة أمام العثمانيِّين بقيادة باحليون وبراجادنيو اللَّذين واجهوا القوة العثمانيَّة الَّتي وصلت مئة ألف مقاتلٍ ، استعمل خلالها العثمانيُّون جميع وسائل الحصار المعروفة، من فرٍّ ، وكرٍّ ، وزرعٍ للألغام ، ولم ينتج أيُّ تأثير على الحامية ، ولو وصلت قوةٌ مسيحيَّةٌ للنَّجدة ؛ لصار العثمانيون في خطر ، إلا أنَّ المجاعة قامت بعملها ، واستسلمت المدينة في ربيع الثاني ٩٧٩هـ أغسطس ١٥٧١م .

نقلت الدولة العثمانيَّة بعد فتحها لقبرص عدداً كبيراً من سكان الأناضول الَّذين لا يزال أحفادهم مقيمين في الجزيرة ، ورغم ترحيب القبارصة الأرثوذكس بالحكم العثماني الَّذي أنقذهم من الاضطهاد الكاثوليكي ؛ الّذي مارسته البندقيَّة لعدَّة قرونٍ ؛ إلا أنَّ احتلال العثمانيِّين أثار الدَّولة الكاثوليكيَّة[٢] .

رسا الأسطول العثماني بعد انتهاء مهمَّته في أبنانجني ، وانصرف معظم جنوده بمناسبة حلول موسم الشِّتاء حيث تتوقَّف ساحة المعارك في مثل هذا الوقت من السَّنة ، والاستعداد للسَّنة المقبلة[٣] .

رابعاً : معركة ليبانتو[٤] :

ارتعدت فرائض الأمم المسيحيَّة من الخطر الإسلامي العظيم الَّذي هدَّد القارة الأوربيَّة ، من جرَّاء تدفُّق الجيوش العثمانيَّة برّاً ، وبحراً ، فأخذ البابا بيوس

---

(١) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٤٤٧) .
(٢) انظر : في أصول التَّاريخ العثماني ، ص(١٤٦ ، ١٤٧) .
(٣) انظر : فلسفة التَّاريخ العثماني لمحمَّد جميل بيهم ، ص(١٤٢) .
(٤) تقع في الطريق الشَّمالي للفم الغربي لخليج كورنث في اليونان اليوم .

الخامس (١٥٦٦ ـ ١٥٧٢م) يسعى من جديدٍ لجمع شمل البلاد الأوربيَّة المختلفة ، وتوحيد قواها برّاً ، وبحراً تحت راية البابويَّة[١] . وقد كتب يقول : « . . إنَّ السَّلطنة التُّركيَّة قد تبسَّطت تبسُّطاً هائلاً بسبب نذالتنا »[٢] عقد البابا بيوس الخامس ، وفيليب الثَّاني ملك إسبانيا ، وجمهورية البندقيَّة معاهدةً في أوائل ٩٧٩هـ ـ مايو ١٥٧١م ، تعهَّدوا فيه بالقيام بهجومٍ بحريٍّ ضدَّ العثمانيِّين ، شارك في الحلف كذلك بعض المدن الإيطاليَّة ، وذلك بعد تحريك بيوس الخامس لروح التَّحالف ، فارتبطت توسكاني ، وجنوة ، وسافوي ، وبعض الإيطاليِّين في الحلف المقدَّس[٣] .

وأرسل البابا إلى ملك فرنسا يريد العون : فاعتذر شارل التَّاسع بحجَّة ارتباطه بمعاهداتٍ مع العثمانيِّين ، فأجابه البابا طالباً منه التحلُّل من مواثيقه هذه ، ولم تمض سوى أيامٍ قليلةٍ حتَّى نقض الإمبراطور عهوده ، ومواثيقه الَّتي أبرمها مع العثمانيِّين ، واتَّجه نحو إيفان ملك الرُّوس يطلب إجابته نفير الحرب ، ووجد تباطؤاً عند ملك بولونيا ، واختير (دون جون) النِّمساوي قائداً للحملة ، وجاء في أحد بنود المعاهدة النَّصرانية : « إنَّ البابا بيوس الخامس ، وفيليب ملك إسبانيا ، وجمهورية البندقيَّة يعلنون الحرب الهجوميَّة والدِّفاعية على الأتراك لأجل أن يستردُّوا جميع المواقع التي اغتصبوها من المسيحيِّين ، ومن جملتها تونس ، والجزائر ، وطرابلس »[٤] .

سار دون جون إلى بحر الأدرياتيك ، حتَّى وصل إلى الجزء الضيِّق من خليج كورنث بالقرب من باتراس ، وليس ببعيدٍ عن ليبانتو ، والذي اسمها أعطي للمعركة .

كان من رأى قادة الأسطول الإسلامي الإفادة من تحصين الخليج ، وعدم الاشتباك بالأسطول الصَّليبي ، غير أنَّ القائد العام علي باشا صمَّم على الخروج للمعركة معتمداً على تفوُّقه في عدد سفنه ، ونظَّم علي باشا قواتِه ، فوضع سفنه على نسقٍ واحدٍ من الشَّمال إلى الجنوب ، بحيث كانت ميمنتها تستند إلى مرفأ ليبانتو ، ومسيرتها في عرض البحر ، وقد قسمها علي باشا إلى جناحين ، وقلب ، فكان هو

---

(١) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص(٣٩٦) .
(٢) تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، ص(١٢٥) .
(٣) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٤٥٢) .
(٤) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، ص(١٢٥ ، ١٢٦) .

في القلب وسيروكو في الجناح الأيمن ، وبقي الجناح الأيسر بقيادة قلج علي .

ومقابل ذلك نظَّم دون جون قوَّاته فوضع سفنه على نسق يقابل النَّسق الإسلامي ، ووضع جناحه الأيمن بقيادة دوريا مقابل قلج علي ، وأسند قيادة جناحه الأيسر إلى بربريجو مقابل سيروكو ، وجعل « دون » نفسه لقيادة القلب ، وترك أسطولاً احتياطيّاً بقيادة سانت كروز(١) .

خامساً : احتدام المعركة :

احتدمت المعركة في ١٧ جمادى الأولى سنة ٩٧٩هـ/ ١٧ أكتوبر ١٥٧١م ، أحاط الأسطول الإسلامي بالأسطول المسيحي ، وأوغل العثمانيُّون بين سفن العدوِّ ، ودارت معركةٌ قاسيةٌ أظهر فيها الفريقان بطولةً كبيرةً ، وشجاعةً نادرةً(٢) ، وشاءت إرادة الله هزيمة المسلمين ، ففقدوا ثلاثين ألف مقاتل ، وقيل عشرين ألفاً ، وخسروا ٢٠٠ سفينةٍ حربيَّةٍ منها ٩٣ غرقت ، والباقي غنمه العدو ، وتقاسمته الأساطيل النَّصرانية المتَّحدة(٣) ، وأسر لهم عشرة آلاف رجلٍ(٤) ، واستطاع قلج علي إنقاذ سفنه ، واستطاع كذلك المحافظة على بعض السُّفن الَّتي غنمها ، ومن بينها السَّفينة التي تحمل علم البابا ، رجع بها لإستانبول الَّتي استقبلته استقبال الفاتحين رغم الشُّعور بمرارة الهزيمة(٥) ، وبادر السُّلطان سليم الثَّاني إثر ذلك بترفيع قلج علي إلى رتبة قائد البحرية العثمانيَّة « قبودان باشا » مع الاستمرار في منصبه كبيلربك للجزائر(٦) .

سادساً : أثر ليبانتو على أوربة والدَّولة العثمانيَّة :

احتفلت القارة الأوربيَّة بنصر ليبانتو ، فلأوَّل مرَّة منذ أوائل القرن الخامس عشر تحلُّ الهزيمة بالعثمانيِّين(٧) ، فهلَّل الأوربيون ، وكبروا لذلك الانتصار ، وأقيمت

(١) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص(٣٩٦) .
(٢) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٤٥٤) .
(٣) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، ص(١٢٦) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه .
(٥) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص(٣٩٨ ، ٣٩٩) .
(٦) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٤٥٤) .
(٧) انظر : في أصول التَّاريخ العثماني ، ص(١٤٧) .

معالم الزِّينات في كلِّ مكان ، وأفرطت في التَّسبيح بحمد دون جون أمير الأساطيل المتَّحدة الَّذي أحرز هذا الانتصار ؛ إلى حدِّ أنَّ البابا لم يتورَّع عن القول أثناء الاحتفال في كنيسة القدِّيس بطرس بمناسبة هذا النَّصر (إنَّ الإنجيل قد عنى دون جون نفسه حيث بشَّر بمجيء رجلٍ من الله يُدعى حنا) وظلَّ العالم المسيحي ومؤرِّخوه ينوِّهون بهذا النَّصر البحري ؛ حتَّى أنَّ القواميس المدرسيَّة الحديثة لا تذكر ثغر ليبانتو ، إلا وتذكر معه دون جون المشار إليه على اعتبار أنَّه أنقذ المسيحيَّة من خطرٍ كان يحيق بها[١] .

لقد فرح البابا فرحاً عظيماً على الرَّغم من عدم ارتياحه لأنَّ عدوه لا يزال عظيماً مرهوب الجانب ، وحاول إثارة شكوك الشِّيعة الاثني عشرية الصَّفوية ضدَّ العثمانيِّين مستغلاً بعض الضَّغائن ، والمشكلات ، والاختلاف العقائدي ، فأرسل إلى الشَّاه طهماسب ملك العجم ، ومن جملة ما قال له : « .. لن تجد أبداً فرصةً أحسن من هذه الفرصة لأجل الهجوم على العثمانيِّين ؛ إذ هم عرضة للهجوم من جميع الجهات . . . »[٢] .

وأرسل يستعدي ملك الحبشة ، وإمام اليمن على الدَّولة العثمانيَّة ، ولكن المنية عاجلته[٣] .

إنَّ نتيجة معركة ليبانتو كانت مخيبةً لآمال العثمانيِّين ، فقد زال خطر السِّيادة العثمانيَّة في البحر المتوسط ، ومع زوال الخطر زال الخوف الَّذي كان قويّاً ، للمحافظة على حلفٍ مقدَّسٍ دائمٍ ، واستعاد الحسد ، والغيرة نشاطه بين الدُّول المسيحيَّة[٤] .

إنَّ أهميَّة ليبانتو كانت عظيمةً ، وأسطورةُ عدم قهر العثمانيِّين قد اختفت ، ولم تعد للوجود ثانيةً على أقلِّ تقدير في البحر ، وأزيح ذلك الخوف عن قلوب حكَّام إيطاليا ، وإسبانيا ، وتزعزع تأثير الدَّولة العثمانيَّة على سياسة القوى الغربيَّة

(١) انظر : فلسفة التَّاريخ العثماني ، ص(١٤٣) .
(٢) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، ص(١٢٦) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٢٦) .
(٤) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٤٥٥) .

لأوربة ؛ إذ كانت في الحقيقة القوَّات العثمانيَّة هائلةً في كل من المجال البرِّي ، والمجال البحري[١] ، كما أنَّ الانتصار المسيحي في ليبانتو ١٥٧١ كان إشارة لتحضيرٍ حاسم في ميزان القوَّة البحريَّة في البحر المتوسط ، كما أنَّه أنهى عصراً من عصور العمليَّات البحريَّة الطَّموحة في البحر المتوسط والَّتي كانت تكاليفها باهظةً[٢] .

لم يعد يفكِّر العثمانيُّون بعد تلك الهزيمة في إضافة حلقةٍ أخرى إلى سلسلة أمجادهم البحريَّة[٣] ؛ إذ كان هذا الانكسار نقطة البداية نحو توقُّف عصر الازدهار لقوَّة الدَّولة البحريَّة[٤] .

سابعاً : ظهور أطماع فرنسا في الشمال الإفريقي :

كانت معركة ليبانتو فرصةً مواتيةً لإظهار طمع فرنسا نحو المغرب الإسلامي ؛ إذ بمجرَّد انتشار خبر هزيمة الأسطول العثماني في تلك المعركة قدَّم ملك فرنسا شارل التَّاسع مشروعاً إلى السُّلطان العثماني (٩٨٠هـ/ ١٥٧٢م) ، وذلك بواسطة سفيره بإستانبول ، يتضمَّن طلب التَّرخيص لحكومته في بسط نفوذها على الجزائر ، بدعوة الدِّفاع عن حمى الإسلام ، والمسلمين بها ، وأنَّ فرنسا مستعدةٌ في مقابل ذلك دفع مغرم للباب العالي ، فأعرض السُّلطان عن السَّفير الفرنسي ، ولم يهتمَّ به ، ومع ذلك أوغلت فرنسا في طموحها ، وألحَّت على طلبها ، وسلكت للتَّوصُّل إلى هدفها مسالك دبلوماسيَّة عديدةً، حتَّى تحصلت على امتيازاتٍ خاصَّة في السَّقالة، وأماكن أخرى على السَّاحل الجزائري، وتصريح من السُّلطان بإقامة مراكز تجاريَّة[٥] .

ثامناً : إعادة بناء الأسطول العثماني :

أقبل القبودان باشا قلج علي بهمَّة ونشاطٍ متزايدٍ على تجديد الأسطول العثماني ، وتعويض ما فقد منه ، وما حلَّ صيف ٩٨٠هـ/ ١٥٧٢م حتَّى هيَّأ مئتين

---

(١) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٤٥٥) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) انظر : بداية الحكم المغربي في السُّودان ، ص(٩٤) .
(٤) انظر : فلسفة التَّاريخ العثماني ، ص(١٤٣) .
(٥) انظر : تاريخ الجزائر العام (٣/ ٩٧ ، ٩٨) .

وخمسين سفينةً جديدةً ، وخرج قلج علي بأسطوله في البحر ، وارتاعت البندقيَّة من هذا الاستعداد البحري ، فطلبت الصُّلح من الدَّولة العثمانيَّة بشروطٍ مخزية ؛ إذ تنازلت لها عن جزيرة قبرص ، كما دفعت غرامةً حربيَّةً قدرها ثلاثمئة ألف دوكة[١] ، ولكنَّ هذا النَّشاط كان من قبيل اليقظة الَّتي تسبق فترة الاحتضار البحري ، ذلك لأنَّ الدَّولة انصرفت إلى حروبٍ متواصلةٍ نشبت بينها وبين النِّمسا ، وحليفاتها من جهةٍ ، وبينها وبين فارس من جهةٍ أخرى ، كما أنَّها انشغلت بإخماد الثَّورات الدَّاخليَّة المستمرَّة[٢] .

تاسعاً : احتلال تونس :

كان فيليب الثاني قد تشجَّع لاحتلال تونس بسبب لجوء السُّلطان الحفصي أبي العبَّاس الثَّاني الذي حكم تونس ٩٤٢ ـ ٩٨٠/ ١٥٣٥ ـ ١٥٧٢م إليه ، وطلب منه المساعدة في إخماد الثَّورات بإعطائهم امتيازاتٍ كبيرةً ، وتتيح لهم سكن جميع أنحاء تونس، وتتنازل عن عنَّابة، وبنزرت ، وحلق الواد[٣] فرفض أبو العباس الشُّروط ، ولكنَّ أخاه محمَّد بن الحسين قبلها[٤] ، بعد ذلك خرج دون جون بأسطوله من جزيرة صقليَّة في رجب ٩٨١هـ أكتوبر ١٥٧٣م ، على رأس أسطول مكوَّن من ١٣٨ سفينة تحمل خمسة وعشرين ألف مقاتل ، ونزل بقلعة حلق الواد الَّتي كانت تحتلُّها إسبانيا ، ثمَّ باغت دون جون تونس ، واحتلَّها ، وخرج أهلها بوادي تونس فارِّين بدينهم من شرِّ الإسبان[٥] ، كما انسحب الحاكم العثماني إلى القيروان[٦] وكانت أوربة قد أدركت أنَّها لا تستطيع أن تقضي على الدَّولة إلا مجتمعة[٧] .

---

(١) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص(٣٩٩) .
(٢) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٤٥٦) .
(٣) انظر : تاريخ الجزائر الحديث ، ص(١٤٣) .
(٤) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٤٥٧) .
(٥) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص(٣٩٩ ، ٤٠٠) .
(٦) انظر : تاريخ الجزائر الحديث ، ص(٥٠) .
(٧) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٤٥٧) .

عاشراً : قلج علي واستعداداته الحربيَّة :

اهتمَّ قلج علي بتسليح البحارة ، وتدريبهم على الأسلحة النَّارية الحديثة ، وقد لفت هذا النَّشاط البحري أنظار كلِّ المقيمين الأجانب ، وازدادت مكانة قلج علي حتَّى أنَّ البابا نصح فيليب الثاني ملك إسبانيا أن يسعى لإغرائه(١) وذلك بمنحه راتباً من عشرة آلاف ، وإقطاعيَّة من مملكة نابولي ، أو غيرها من ممتلكات العرش الإسباني ، ويتوارثها نسله من بعده ، مع لقب كومت ، أو ماركيز ، أو دوق ، كما شمل المشروع أيضاً منح امتيازات مماثلة لاثنين من مساعديه(٢) ، وكان البابا يدرك : أنَّ مثل هذه المحاولة إن لم تنجح فإنَّها على الأقل ستثير شكوك السُّلطان على قلج علي ، وهو الشَّخص الوحيد القادر على دعم أمور السَّلطنة ، ولكن هذه المحاولة فشلت ، وكانت النتيجة أنَّها أثارت غضب قلج علي بدلاً من أن تقرِّبه(٣) ، وأنَّه لا يمكن شراء أمانة المسلم المجاهد ؛ إذ أنَّ وجوده في خدمة الدَّولة إنَّما كان يعني : أنَّه وهب نفسه لسبيل الله ، وهذا ما سارت عليه الدَّولة في سياستها في جميع فتوحاتها ، ولعلَّ ذلك كان سبباً مباشراً في سرعة الفتح ، ونجاحه في كلِّ الأقاليم ، والميادين الَّتي طرقتها الدَّولة ، وكان العثماني في أيِّ موقع يخدم الدَّولة بكلِّ إخلاصٍ ، وما خدمته تلك إلا خدمة للإسلام(٤) .

الحادي عشر : السُّلطان سليم يصدر أوامره لإعادة تونس :

أصدر السُّلطان سليم الثاني أوامره إلى وزيره سنان باشا ، وقبودانه قلج علي بالاستعداد للتوجُّه إلى تونس لفتحها نهائيّاً ، وإعادة نفوذ الدَّولة العثمانيَّة إليها ، كما صدرت نفس الأوامر ، والتَّوجيهات لبقية الأقاليم بتحضير الجنود والذَّخيرة ، والمؤن ، والجنود مع مئتين وثلاث وثمانين سفينة مختلفة الأحجام ، كما أكَّد على المكلفين بالخدمة في الأناضول ، والرُّوملي بالاشتراك في السَّفر بحراً ، كما أحضر

---

(١) انظر : تاريخ الجزائر الحديث ، ص(٥١) .
(٢) انظر : أطوار العلاقات المغربيَّة العثمانيَّة ، ص(٢٨٠) .
(٣) انظر : تاريخ الجزائر الحديث ، ص(٥١) .
(٤) انظر : جهود العثمانيين ، ص(٤٥٨) .

المجدِّفين اللاَّزمين للأسطول ، وأنذر من لا يحضر من المجدِّفين بالفصل من مناصبهم على أن لا يُسند إليهم في المستقبل أيُّ عملٍ ، وبينما كان الأسطول يتأهَّب ، أخذ حيدر باشا الحاكم العثماني في تونس ، والَّذي انسحب للقيروان في حشد المجاهدين من الأهالي الَّذين التفُّوا حوله[١] .

أبحر الأسطول العثماني بقيادة سنان باشا ، وقلج علي في ٢٣ محرم ٩٨٢هـ/ ١٤ مايو ١٥٧٤م فخرج من المضائق ، ونشر أشرعته في البحر الأبيض ، فقاموا بضرب ساحل كالابريا ، مسينا ، واستطاع العثمانيُّون أن يستولوا على سفينةٍ مسيحيَّةٍ ، ومن هناك قطعوا عرض البحر في خمسة أيَّام[٢] ، في هذا الوقت وصل الحاكم العثماني في تونس حيدر باشا ، كما وصلت قوّةٌ من الجزائريِّين بقيادة رمضان باشا ، وقوّةٌ من طرابلس بقيادة مصطفى باشا ، كما وصل متطوِّعون من مصر[٣] .

بدأ القتال في ربيع سنة ٩٨١هـ/ ١٥٧٤م ونجح العثمانيُّون في الاستيلاء على حلق الواد ، بعد أن حوصروا حصاراً محكماً[٤] وقامت قواتٌ أخرى بمحاصرة مدينة تونس ، ففرَّ الإسبان الموجودون فيها ، ومعهم الملك الحفصي محمَّد بن الحسن إلى البستيون[٥] الَّتي بالغ الإسبان في تحصينها ، وجعلوها من أمنع الحصون في الشَّمال الأفريقي .

توجَّه العثمانيُّون بعد تجمُّع قواتهم إلى حصار البستيون ، وضيَّق العثمانيُّون الخناق على أهلها من كلِّ ناحية ، وباشر الوزير سنان الحرب بنفسه كواحد من الجند حتَّى أنَّه أمر بغمل متراسٍ يشرف منه على قتال من في البستيون ، كما كان ينقل الحجارة والتُّراب على ظهره مثل الجنود ، فعرفه أحد أمراء الجنود ، فقال له : ما هذا أيُّها الوزير ؟ نحن إلى رأيك أحوج منا إلى جسمك ، فقال له سنان : لا تحرمني من الثَّواب .

---

(١) انظر : الأتراك العثمانيُّون في أفريقية الشَّمالية ، ص(٢٥١) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢٥٠) .
(٣) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص(٤٠٠) .
(٤) انظر : تاريخ الجزائر الحديث ، ص(٥١) .
(٥) البستيون : قلعة بناها الإسبان بجانب تونس .

وشدَّد سنان باشا في حصاره على البستيون حتَّى استطاع فتحه[١] .

لجأ الحفصيُّون إِلى صقليَّة حيث ظلُّوا يوالون الدَّسائس ، والمؤامرات والتَّضرُّعات لملوك إِسبانيا سعياً لاسترداد ملكهم ، واتَّخذهم الإِسبان آلاتٍ طيِّعةً تخدم بها مآربهم السِّياسيَّة حسبما تمليه الظُّروف عليهم ، وقضى سقوط تونس على الآمال الإِسبانيَّة في أفريقية وضعفت سيطرتها تدريجيًّاً حتى اقتصرت على بعض الموانىء مثل : مليلة ، ووهران ، والمرسى الكبير ، وتبدَّد حلم الإِسبان نحو إِقامة دولةٍ إِسبانيَّة في شمال أفريقية ، وضاع بين الرِّمال[٢] .

الثاني عشر : السُّلطان سليم الثاني يرسل حملةً كبرى إِلى اليمن :

اضطربت الأحوال في اليمن مع ظهور الزَّعيم الزَّيدي المطهر الَّذي كاتب أهل اليمن ، ودعاهم للخروج عن طاعة السُّلطان العثماني ، فاجتمعت القبائل لدى المطهِّر الَّذي دخل صنعاء بعد أن ألقى بالعثمانيِّين هزيمةً ساحقةً[٣] ، وشعرت الحكومة العثمانيَّة بخطورة الموقف ، وقرَّرت إِرسال حملةٍ كبرى إِلى اليمن بقيادة سنان باشا ، وقد اهتمَّ السُّلطان العثماني سليم الثَّاني اهتماماً كبيراً بإِرسال تلك الحملة ؛ لأنَّ اليمن كان يمثل جزءاً هاماً من استراتيجيَّة العثمانيِّين في البحر الأحمر ، وهي غلق هذا البحر أمام الخطر البرتغالي[٤] علاوةً على ذلك يكون درعاً قويَّةً للحجاز ، وقاعدةً للتقدُّم في المحيط الهندي .

وصل الوزير العثماني سنان باشا إِلى مصر تنفيذاً لأوامر السُّلطان، وهناك اجتمعت لديه الجنود في كلِّ الأنحاء حتَّى أنَّه لم يبق في مصر إِلا المشايخ، والضعفاء[٥].

تحرَّكت الحملة ، ووصلت إِلى ينبع ، واستقبله هناك قاضي القضاة في مكة وعند وصوله إِلى مكَّة المكرَّمة استقبله أهلها ، ودخلت الجيوش العثمانيَّة معه ،

---

(١) انظر : حرب الثلاثمئة سنة ، ص(٤٠١) .
(٢) انظر : جهود العثمانيِّين ، ص(٤٦٠) .
(٣) انظر : البرق اليماني في الفتح العثماني ، قطب الدِّين النهروالي ، ص(١٧٣ ، ١٧٧) .
(٤) انظر : دراسات في تاريخ العرب القديم ، عمر بن عبد العزيز ، ص(١٠٢ ، ١٠٣) .
(٥) انظر : غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، يحيى بن الحسين (٢/ ٧٣٣) .

وكأنَّ جنود مصر انتقلت إلى مكة بالإضافة إلى جنود الشَّام ، وحلب ، وفرمان ، ومرعش ، وضبط سنان باشا الجنود ، وأجرى الصَّدقات ، وأحسن على العلماء ، والفقهاء ، ومكث عدَّة أيام في مكَّة ، وغادرها إلى جازان ، وعندما اقترب منها هرب حاكمها من قبل الإمام الزَّيدي المطهر ، وأقام سنان باشا في جازان ، فأقبلت عليه العربان يطلبون الطَّاعة ، وكان منهم أهل صبيا ، فأكرمهم سنان باشا ، وخلع عليهم، وكساهم، كما أقبلت عليه وفود عربان اليمن، وبذلوا الطَّاعة طالبين الأمان .

أسرع سنان باشا إلى تعز ، بعد أن ضبط جازان ؛ إذ بلغه أنَّ الوالي العثماني في تعز ومن معه من الجنود في ضيقٍ من أمرهم بسبب قطع عرب الجبال عليهم الميرة ، وحصل عليهم المجاعة ، فقطع الوزير سنان باشا المسافة في غاية السُّرعة ، ونزل خارج تعز ، وانتشر جنوده في جبالها ، ولما شاهد الزَّيديون كثافة ذلك الجيش ؛ اعتصموا بأحد الجبال المسمَّى الأغبر .

قام سنان باشا ، وجزءٌ من جيشه بمتابعة الزُّيود في جبل الأغبر ، وتمكَّنوا منه ، عند ذلك خرج الزُّيود من مخابئهم لمواجهة العثمانيِّين ، فانهزم الزُّيود ، وولُّوا هاربين ، فأنعم سنان باشا على جميع الجنود العثمانيِّين[(١)] .

الثالث عشر : الاستيلاء على عدن :

جهَّز سنان باشا حملتين ، وذلك للاستيلاء على عدن ، الأولى عن طريق البحر بقيادة خير الدِّين القبطان المعروف بقورت أوغلي ، وأخي سنان باشا ، والثَّانية عن طريق البرِّ بقيادة الأمير حامي ، وبرفقته عددٌ من الفرسان .

وكان حاكم عدن قاسم بن شويع من قبل الإمام الزَّيدي المطهر ، قد أظهر شعار الزَّيديَّة فكرهه أهالي عدن ؛ لأنَّهم شافعيُّون ثابتون على الكتاب والسُّنَّة ، وبنى مدرسةً باسم « مطهر » يُدرَّس فيها بعض من مذهب الزِّيدية ، كما استدعى البرتغاليِّين الَّذين أرسلوا سفينة وعليها عشرين جندياً ، فأطلعهم قاسم إلى القلعة ، وأراهم ما فيها من العدد ، والآلات ، وأعطاهم المدافع ليدافعوا عن عدن من جهة البحر ، ويكون البرُّ للزيدية ، وأشياعهم ، إلا أنَّ خير الدِّين القبطان سبق إلى

(١) انظر : البرق اليماني في الفتح العثماني ، ص(٢١٨ ـ ٢٢٦) .

عدن ، ورأى من وسط البحر عشرين شراعاً للمسيحيِّين قاصدةً عدن ولما تحقَّق خير الدِّين من ذلك ؛ توجَّه بسفنه إِليهم ، فولَّوا هاربين ، وتتبَّعهم خير الدِّين حتَّى اطمأنَّ على ذلك .

لمَّا عاد خير الدِّين إِلى السَّاحل وأنزل مدافعه ، فوجَّهها نحو قلعة عدن منتظراً القوَّة البرِّيَّة لتتمَّ محاصرة عدن ، ففاجأهم الزُّيود ، وإِذا بالأمير ماحي قد وصل ، وأحاطوا بعدن من كلِّ جانب ، فهجموا عليها هجمةً واحدةً ، ودخلوا عليها من كلِّ جانب ، وأعطى خير الدِّين الأمان للأهالي الَّذين جاؤوا بقاسم بن شويع ، وولده ، وذويه ، وإِذا بشخصٍ منهم تقدَّم ليقبِّل يد خير الدِّين ، فضربه بخنجر في بطنه ، وجرح خير الدِّين على أثرها ، وتقدَّم الأمير ماحي وقطع رأس ابن شويع لاتِّهامه بهذه الخيانة ، وأراد قتل ولده ، وجميع أتباعه ، فمنعه الأمير خير الدِّين عن ذلك . فرح لذلك الفتح الوزير سنان باشا ، وشاركه في ذلك الجنود ، وزيَّنوا زبيد ، وتعز ، وسائر الممالك السُّلطانيَّة في اليمن، ثمَّ عيَّن الوزير سنان باشا ابن أخته الأمير حسين، وأرسل معه مئتين من الجنود، ورقَّى جميع الجنود الَّذين فتحوا عدن[١] .

الرابع عشر : دخول صنعاء :

فرغ سنان باشا في هذا الوقت من جنوب اليمن ، فاتَّجه نحو ذمار ، وأمر بسحب المدافع لحصار صنعاء ، فجهَّز المطهر نفسه للانسحاب منها ، ونقل ما فيها من الخزائن ، وتقدُّم سنان باشا نحو صنعاء بعد أن وعد أهلها بالأمان ، فاطمأنَّت قلوبهم ، واختاروا عدداً منهم لمقابلته ، فأكرمهم سنان ، ودخل صنعاء بعد ذلك إِلا أنَّه لم يستقرَّ فيها بل نهض بجيوشه الجرَّارة لحرب كوكبان ، وثلا[٢] ؛ لأنَّ سنان باشا رأى أنَّه لن يتمكَّن من السَّيطرة على اليمن بأكمله إِلا بالقضاء على مقاومة المطهر ، وأتباعه ، فأخذ يوالي حشد قوَّاته ، وتبعه في ذلك الوالي العثماني ، ودامت الحرب سجالاً ما يقرب من عامين ، انتهت بموت الإمام الزَّيدي المطهر في مدينة « ثلا » سنة ٩٨٠ هـ/١٥٧٣م. وقد أتاح موت المطهر للعثمانيِّين مزيداً من السَّيطرة ، وبسط النُّفوذ حتَّى تمكَّن الوالي العثماني حسن باشا من الاستيلاء على:

---

(١) انظر : البرق اليماني في الفتح العثماني ، ص(٢٤٩ ـ ٢٥٥) .

(٢) انظر : غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، يحيى بن الحسين (٢/ ٧٣٦) .

ثلا، ومدع، وعفار، وذي مرمر، والشَّرفين: الأعلى، والأسفل، وصعدة مركز الإمامة الزَّيديَّة، فقضى بذلك على حركة المقاومة اليمنيّة فترةً من الوقت، واستطاع حسن باشا أن يأسر الإمام الحسن بن داود الَّذي استحوذ على الإمامة بعد وفاة المطهر[(١)].

لقد تحوَّلت سياسة الدَّولة العثمانيَّة بعد معركة ليبانتو ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م إلى أن تكون الأولوية للمحافظة على الأماكن المقدَّسة الإسلاميَّة أوّلاً، ثمَّ البحر الأحمر، والخليج العربي كحزام أمنيٍّ حول هذه الأماكن، وتطلَّب ذلك منها أسطولاً قادراً على أن يقاوم البرتغاليِّين[(٢)].

استطاعت الدَّولة العثمانيَّة أن تبني درعاً قويَّةً، حمت الأماكن المقدَّسة الإسلاميَّة من الهجمات المسيحيَّة، ومع تلك الدِّرع فقد احتفظ السُّلطان بحرسٍ عثماني خاصٍّ في مكَّة المكرَّمة، والمدينة المنوَّرة، وينبع، كما أقامت الدَّولة العثمانيَّة محطات حراسةٍ بجوار آبار المياه على طول الطَّريق بين مصر، وسورية، ومكَّة المكرَّمة لحماية القوافل، كما قرَّرت الدَّولة أن يكون الوالي في جدَّة ممثلاً للباب العالي في الحجاز. عرف الحجاز في العصر العثماني بثنائية السُّلطة، وقرَّرت الدَّولة أن تقسم حصيلة الرُّسوم الجمركيَّة الَّتي تجمع من السُّفن في ميناء جدة بين الوالي العثماني، وشريف مكَّة المكرمة[(٣)].

الخامس عشر: دفاع عن السُّلطان سليم ووفاته رحمه الله:

وصف المستشرق «كارل بروكلمان»[(٤)] السُّلطان سليماً الثَّاني بأنَّه اشتهر باسم السِّكِّير، وبارتكابه المعاصي، والذُّنوب، والكبائر، وبمصاحبته صحبة السُّوء، والفسق، والعصيان، وتأثَّر بهذه التُّهم الدُّكتور عبد العزيز الشِّنَّاوي[(٥)] رحمه الله، وردَّ الدكتور جمال عبد الهادي على هذه الاتِّهامات، فقال:

١ ـ شهادة الكافر على المسلم مردودةٌ، فكيف يسمح الكتَّاب من أبناء

---

(١) انظر: الفتح العثماني لليمن، فاروق أباظة، ص(٢٣).
(٢) انظر: جهود العثمانيِّين، ص(٤٨٤).
(٣) المصدر السَّابق نفسه، ص(٤٨٧).
(٤) انظر: الأتراك العثمانيُّون، كارل بروكلمان (٣/ ١٣٧).
(٥) الدَّولة العثمانيَّة دولةٌ إسلاميَّة مفترى عليها (١/ ٦٧٢).

المسلمين لأنفسهم بترديد مثل هذه الشَّهادات ، والافتراءات على الحكَّام المسلمين بدون دليل ، ألم يتعلَّموا في مدرسة الإسلام ، قال تعالى : ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور : ١٢] .

ويقول سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [الحجرات : ٦] .

٢ ـ إنَّ المستشرقين ، ومَنْ سار على نهجهم دأبوا على تصوير الحكَّام المسلمين المجاهدين بصورة السُّكارى الَّذين لا يتورَّعون عن ارتكاب المحرَّمات[١] ، بل دأبوا على النَّيل من دين الله ، والأنبياء ، والرُّسل ـ عليهم السَّلام ـ فكيف نأخذ عنهم مع علمنا بأنَّهم غير أمناء[٢] ؟!

ثمَّ ذكر أهمَّ أعمال السُّلطان سليم الثَّاني الَّتي تدلُّ على نفي التُّهم الَّتي ألصقت به ، وتقدَّم بنصيحةٍ إلى أساتذة التَّاريخ الذَّين لا يتحرَّون الصِّدق ، والأمانة العلميَّة ، فقال : « نصيحة إلى أولئك الَّذين لا يتحرَّون الحقيقة ، ويرمون النَّاس في دينهم ، وخلقهم دون بيِّنةٍ ، أو دليلٍ أن يتبيَّنوا ، وليضعوا في الاعتبار : أنَّ القذف جريمةٌ ، وعليه تقام الحدود ، آمل أن ينتبه أساتذة التَّاريخ ، ويتورَّعوا عن إيراد أيِّ شبهةٍ ، أو تهمة تتَّصل بأيِّ شخصٍ دون دليلٍ ، أو بيِّنة .

وليضعوا في الاعتبار : أنَّ الله يزن الحسنات ، ويزن السَّيئات ، ولا يزن السَّيئات فقط دون الحسنات ، والمؤرِّخ يجب أن يستشعر هذا ، ويدرك : أنَّ الكلمة أمانةٌ ، وهي شهادةٌ أمام الله عزَّ ، وجلَّ ـ ومن هنا يلزمه التأكُّد من الخبر قبل أن يورده في كتابه »[٣] .

إنَّ الدَّارس لتاريخ الدَّولة العثمانيَّة في عهد السُّلطان سليم الثاني يدرك مدى القوَّة والهيمنة الَّتي كانت عليها الدَّولة ، فقد طلب نائب البندقيَّة الصليبيَّة في إستانبول ـ في أعقاب معركة ليبانتو ، وتحطم الأسطول العثماني ـ مقابلة الصَّدر الأعظم « محمَّد صوقللي باشا » ليسبر غوره ، ويقف على اتِّجاهات السِّياسة العليا

---

(١) انظر : أخطاء يجب أن تصحَّح في التَّاريخ ، ص(٦٤) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٦٤) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٦٥) .

للدولة العثمانيَّة تجاه البندقيَّة ، وقد بادره الصَّدر الأعظم قائلاً : إنَّك جئت بلا شكٍّ تتحسَّس شجاعتنا ، وترى أين هي ، ولكن هناك فرقٌ كبيرٌ بين خسارتكم ، وخسارتنا ، إنَّ استيلاءنا على جزيرة « قبرص » كان بمثابة ذراع قمنا بكسرها ، وبترها ، وبإيقاعكم الهزيمة بأسطولنا لم تفعلوا شيئاً أكثر من حلق لحانا ، وإنَّ اللِّحية لتنمو بسرعةٍ وكثافةٍ تفوقان السُّرعة والكثافة اللَّتين تنبت بهما في الوجه لأوَّل مرَّة »(١) .

وقد قرن الصَّدر الأعظم قوله بالعمل الفوريِّ الجادِّ ، وإنصافاً للسُّلطان سليم الثَّاني فإنَّه قد أبدى تحمُّساً شديداً لإعادة بناء الأسطول العثمانيِّ ، فقد تبرَّع بسخاءٍ من ماله الخاصِّ لهذا الغرض ، كما تنازل عن جزءٍ من حدائق القصر السُّلطاني لتبنى فيه أحواض السُّفن للتَّعجيل بإنشاء وحداتٍ بحريَّةٍ جديدةٍ ، واستطاع الأسطول الجديد أن يعاود جولاته في البحر المتوسِّط(٢) .

إنَّ هذا الموقف يؤكِّد أنَّ الإدارة القويَّة ليست مجرَّد حماسٍ ، وإنَّما لا بدَّ أن يقترن ذلك بالعمل الجادِّ الَّذي أثمر إعادة بناء الأسطول في فترةٍ وجيزةٍ ، وفي هذا دليلٌ أيضاً على الرَّخاء الَّذي كانت تعيش فيه الأمَّة ، ما فرضت ضرائب ، وما صودرت أموال ، ولا قالوا موتوا جوعاً لأنَّه لا صوت يعلو على صوت المعركة ، لقد أنفق السُّلطان سليم من ماله ، ومال أسرته ؛ لأنَّه تعلَّم من مدرسة الإسلام(٣) ، قال تعالى :

﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

●● وفاته :

إنَّ مؤرِّخي الغرب ذكروا : أنَّ سبب وفاة السُّلطان سليم الثاني الإفراط الشَّديد في تناول الخمر ؛ إلا أنَّ المؤرِّخين المسلمين يذكرون : أنَّ سبب وفاته انزلاق قدمه في الحمام ، فسقط سقطةً عظيمة مرض منها أياماً ، ثمَّ توفي عام ٩٨٢هـ(٤) .

* * *

---

(١) انظر : الدولة العثمانيَّة دولةٌ إسلاميَّة مفترى عليها (١/ ٦٧٨) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه (١/ ٦٧٧ ، ٦٧٨) .
(٣) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . جمال عبد الهادي ، ص(٦٦) .
(٤) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، ص(١٢٨) .

المبحث الثَّاني

السُّلطان مراد الثَّالث

٩٨٢ ـ ١٠٠٣هـ/ ١٥٧٤ ـ ١٥٩٤م

تولَّى العرش بعد وفاة والده . اهتمَّ بفنون العلم ، والأدب ، والشِّعر ، وكان يتقن اللُّغات الثَّلاثة : التُّركية ، والعربيَّة ، والفارسيَّة ، وكان يميل إِلى علم التَّصوُّف . اشتهر بالتَّقوى ، واهتمَّ بالعلماء . صرف للجنود عطايا الجلوس ، ومقدارها (١١٠و٠٠٠) ليرة ذهبيَّة ، فمنع الاضطرابات الَّتي كانت تحدث عادةً إِذا تأخر صرف تلك الهبات[١] .

أوَّلاً : منعه للخمور :

وكان من أول أعماله أن أصدر أمراً بمنع الخمور بعدما شاعت بين النَّاس ، وأفرط فيها الجنود ، وخصوصاً الإِنكشاريَّة ، فثار الإِنكشاريُّون ، واضطروه لرفع أمره بالمنع ، وهذا يدلُّ على ظهور علامات ضعف الدَّولة بحيث السُّلطان لا يستطيع منع الخمور ، وإِقامة أحكام الشَّرع عليهم ، وكذلك يدلُّ على انحراف الإِنكشاريَّة عن خطِّها الإِسلاميِّ الأصيل من التَّربية الرَّفيعة ، وحبِّها للجهاد ، وشوقها للشَّهادة[٢] .

ثانياً : وضع الحماية على بولونيا وتجديد الامتيازات :

عمل السُّلطان مراد الثَّالث على تنفيذ السِّياسة الَّتي انتهجها والده من قبل ، ففي عهده قام بعدَّة حروب في أماكن مختلفةٍ . ففي عام (٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م) هرب ملك بولونيا هنري دي فالوا ، وذهب إِلى فرنسا ، فأوصى الخليفة العثماني أعيان بولونيا بانتخاب أمير ترانسلفانيا ملكاً عليهم ، ففعلوا ، وصارت بولونيا (بولندا) فعلاً

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة في التَّاريخ الإِسلامي ، ص(١٠٠) .

(٢) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة العليَّة ، ص(٢٥٩) .

تحت حماية العثمانيِّين عام (٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م) واعترفت النِّمسا بذلك في معاهدة الصُّلح الَّتي أبرمتها مع الدَّولة العثمانيَّة عام (٩٨٤هـ/ ١٥٧٦م) ومدَّتها ثماني سنوات ، وهاجم التتار حدود بولونيا عام (٩٨٤هـ/ ١٥٧٦م) فاستنجدت بالسُّلطان العثماني ، فأعلن حمايتها بمعاهدةٍ رسميَّةٍ(١) .

وجدَّد السُّلطان مراد الامتيازات مع فرنسا ، والبندقيَّة ، وزاد بعض الامتيازات القنصليَّة والتِّجارية مع زيادة بعض البنود في صالحهما ، أهمها : أن يكون سفير فرنسا مقدَّماً على كلِّ سفراء الدُّول الأخرى في الاحتفالات الرَّسمية ، والمقابلات الحكوميَّة ، لقد كثر توارد السُّفراء على الباب العالي للسَّعي في إِبرام معاهداتٍ تجاريَّةٍ ، أصبحت ذريعةً فيما بعد للتدخُّل الفعليِّ في شؤون الدَّولة ، وفي زمن السُّلطان مراد تحصلت إِيزابلا ملكة الإِنجليز على امتيازٍ خصوصيٍّ لتجَّار بلادها ، وأصبحت السُّفن الإِنجليزيَّة تحمل العلم البريطاني ، وتدخل الشَّواطئ ، والموانئ العثمانيَّة(٢) .

ثالثاً : الصراع مع الشِّيعة الصَّفويَّة :

وفي عام (٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م) ونتيجة لحدوث اضطرابات في بلاد فارس بعد وفاة طهماسب ، أرسل العثمانيُّون حملةً عسكريَّةً تمكَّنت من قطع مفازاتٍ شاسعةٍ في بلاد القوقاز ، وفتحت مدينة تفليس ، وكرجستان (الكرج) ، ودخل العثمانيُّون بعدها تبريز عام (٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م) وتمكَّنت فيها جيوش مراد من السَّيطرة على أذربيجان ، والكرج (جورجيا) وشيروان ، ولوزستان . فلما تولَّى الشَّاه عبَّاس الكبير حكم فارس سعى إِلى إِقامة صلحٍ مع العثمانيِّين ، تنازل بمقتضاه عن تلك الأماكن الَّتي أصبحت بيد العثمانيِّين ، كما تعهد بعدم سبِّ الخلفاء الراشدين ـ أبي بكرٍ ، وعمر ، وعثمان ـ رضي الله عنهم ـ في أرض مملكته وبعث بابن عمٍّ له يُدعى : حيدر ميرزا رهينةً إِلى إِستانبول لضمان تنفيذ ما اتَّفقا عليه(٣) .

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة في التَّاريخ الإِسلامي الحديث ، ص(١٠٠) .
(٢) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة العليَّة ، ص(٢٦٠) .
(٣) انظر : الدَّولة العثمانيَّة في التاريخ الإِسلامي ، ص(١٠١) .

رابعاً : تمرُّدٌ وعصيانٌ على أيدي الإنكشارية :

قام الإنكشاريُّون بتمرُّدٍ ، وعصيانٍ في الولايات العثمانيَّة بعد توقف الحروب ، وكان السُّلطان قد كلَّفهم بحرب المجر غير أنَّهم هُزموا أمام النِّمسا الَّتي ساندت المجر ، واحتلَّت عدَّة قلاع حصينةٍ ، استردَّها سنان باشا بعد ذلك . كما أعلن أمراء الأفلاق ، والبغدان ، وترانسلفانيا التمرُّد ، وانضمُّوا إلى النِّمسا في حربها مع العثمانيِّين ، فسار إليهم سنان باشا عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م غير أنَّه لم يحرز النَّصر ، وخسر عدَّة مدن(١) .

خامساً : مقتل الصَّدر الأعظم صوقللي محمَّد باشا :

قتل الصَّدر الأعظم نتيجة لدسائس حاشية السُّلطان المتأثِّرة بدسائس الأجانب الَّذين لا يروق لهم وجود مثل هذا الوزير القدير ؛ الَّذي سار على منهج الاستقامة ، وطريق الحكمة ، وبناء الدَّولة ، وحسن القيادة ، ودقَّة التَّخطيط ، وضبط الإدارة ، ومتابعة الولاة ، واستغلال الفرص ، فكان موته ضربةً شديدةً ، ومحنةً عظيمةً ، وفَتْح بابٍ للشَّرِّ في تنصيب ، وعزل الصُّدور العظام ، والتَّنافس عليه ، ممَّا أضعف قوَّة السَّلطنة ، وارتبكت أحوال البلاد ، وتمرَّدت بعض فرق الجيش ، ولم تتمكَّن الحكومة من القضاء على هذا التمرُّد ، ونتيجة لهذه الاضطرابات ، والثَّورات الدَّاخلية خرجت بولونيا عن الدَّولة العثمانيَّة ، واشتبكت في صراعٍ معها(٢) .

سادساً : اليهود والسُّلطان مراد الثالث :

ظنَّ اليهود أنَّ الفرصة سانحةً لهم لتحقيق حلمٍ راودهم طويلاً ، فنزحوا في هجراتٍ متقطِّعةٍ ، ومتقاربةٍ إلى « سيناء » لاستيطانها ، وكانت خطَّتهم تقوم في المراحل الأولى على تركيز إقامتهم في مدينة الطُّور ، وكان اختيارهم لهذه المدينة اختياراً هادفاً ، فهذه المدينة وهي تقع على الشَّاطئ الشَّرقي لخليج السويس لها ميناءٌ يصلح لرسو السُّفن التِّجاريَّة ، وكان تأتيه سفنٌ من جدَّة ، وينبع ، وسواكن ،

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٠١) .
(٢) انظر : الدَّولة العثمانيَّة في التاريخ الإسلامي الحديث ، ص(١٠٢) .

والعقبة ، والقلزم ، كما كانت المدينة ترتبط برّاً بخطٍّ قوافل مع « القاهرة » و« الفرما » .

وبذلك كان يسهل على اليهود إيجاد اتصالاتٍ خارجيَّةٍ ، فلا يصبحون في عزلةٍ عن العالم ، بل تستطيع السُّفن أن ترسو في ميناء « الطُّور » تحمل أفواجاً من اليهود الجدد .

وقد تزعَّم حركة التَّهجير رجلٌ يهوديٌّ اسمه « إبراهام » استوطن « الطُّور » مع أولاده ، وسائر أفراد أسرته ، ولمَّا أقام اليهود بالطُّور ؛ تعرَّضوا بالأذى لرهبان « ديرسانت كاترين » ممَّا دفعهم إلى إرسال شكاوى مكتوبةً إلى سلاطين الدَّولة العثمانيَّة ، وولاتها ، يشتكون من إيذاء اليهود لهم مذكِّرين بعهد العثمانيِّين لحمايتهم ، ومنع اليهود استيطان « سيناء » ومحذِّرين من تروُّح اليهود إلى سيناء ـ وخاصَّة مدينة « الطُّور » ـ في جماعاتٍ كثيرةٍ بقصد إيقاع الفتن .

ولمَّا كانت الدَّولة الإسلاميَّة مسؤولةً بحكم الشَّرع عن حماية أهل الذِّمَّة ، فقد سارع على الفور المسؤولون العثمانيُّون إلى إصدار ثلاثة فرمانات ديوانيَّة في عهد السلطان « مراد الثَّالث » فأمروا بإخراج « إبراهام » اليهودي ، وزوجته ، وأولاده ، وسائر اليهود من « سيناء » ومنعهم في قابل الأيَّام منعاً باتاً من العودة إليها بما فيها مدينة « الطُّور » والإقامة بها ، أو السُّكنى[١] .

سابعاً : وفاة السلطان مراد الثالث :

توفي السُّلطان مراد الثَّالث في ١٦ كانون الثاني ١٥٩٥ عن عمرٍ يناهز ٤٩ عاماً ، ودفن ـ رحمه الله ـ في فناء آيا صوفيا[٢] .

* * *

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . جمال عبد الهادي ، ص(٦٨) .
(٢) انظر : السَّلاطين العثمانيُّون ، ص(٥٥) .

المبحث الثَّالث

السُّلطان محمَّد خان الثَّالث

ولد عام ٩٧٤هـ ، وجلس على سرير السَّلطنة عام ١٠٠٣هـ بعد وفاة والده باثني عشر يوماً ؛ لأنَّه كان مقيماً في مغنيسا(١) ، كانت أمُّه إيطالية الأصل تُسمَّى : صفية(٢) .

ورغم حالة الضَّعف والتَّدهور الَّتي كانت قد بدأت تعتري الدَّولة العثمانيَّة إلا أنَّ راية الجهاد ضدَّ الصليبيين ظلَّت مرفوعةً ، وممَّا يُذكر لهذا السُّلطان : أنَّه لمَّا تحقَّق له أنَّ ضعف الدَّولة في حروبها بسبب عدم خروج السَّلاطين ، وقيادة الجيوش أنفسهم ؛ برز بنفسه ، وتقلَّد المركز الَّذي تركه سليم الثَّاني ، ومراد الثَّالث ، ألا وهو قيادة عموم الجيوش ، فسار إلى بلغراد ، ومنها إلى ميادين الوغى ، والجهاد ، وبمجرَّد خروجه دبَّت في الجيوش الحميَّة الدِّينيَّة ، والغيرة العسكريَّة ، ففتح قلعة (أرلو الحصينة) الَّتي عجز السُّلطان سليمان عن فتحها في سنة ١٥٥٦م ودمَّر جيوش المجر ، والنِّمسا في سهل كرزت بالقرب من هذه القلعة في ٢٦ أكتوبر سنة ١٥٩٦ حتَّى شبِّهت هذه الموقعة بواقعة (موهاكز)(٣) الَّتي انتصر فيها السُّلطان سليمان سنة ١٥٢٦م وبعد هذه المعركة استمرَّت الحروب دون أن تقع معركةٌ حاسمة(٤) .

وتعرَّضت الدَّولة في زمنه لثوراتٍ داخليَّةٍ عنيفةٍ قادها قره يا زيجي ، وأخرى قام بها الخيَّالة إلا أنَّ السُّلطان استطاع القضاء عليهما بصعوبةٍ ، ومن تلك الأحداث الدَّاخلية يظهر للباحث المدقِّق اختلال النِّظام العسكري ، وعدم صلاحيَّته لحفظ اسم الدَّولة ، وشرفها من أعدائها .

أولاً : الشيخ سعد الدين أفندي :

كان من شيوخ السُّلطان محمَّد الثالث ، وممَّن شجَّعه على الخروج بنفسه لقيادة

---

(١) انظر : تاريخ سلاطين آل عثمان ، يوسف آصاف ، ص(٨٦) .

(٢) انظر : الدولة العثمانيَّة ، ص(٧٠) .

(٣) انظر : تاريخ الدَّولة العلية العثمانيَّة ، ص(٢٦٨) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٦٨) .

الجيوش وقال للسُّلطان : (أنا معك أسير حتَّى أخلِّص وجودي من الذُّنوب ، فإنَّني بها أسير)[١] .

وفي إحدى المعارك كاد أن يؤسر فيها السُّلطان وفرَّ من حوله الجنود ، والأعوان ، قال الشيخ سعد الدِّين أفندي : (اثْبُتْ أيُّها الملك فإنَّك منصور بعون مولاك ، الَّذي أعطاك ، وبالنِّعم أولاك) ، فركب السُّلطان جواده ، وحمل سيفه ، وتضرَّع إلى القوي العزيز ، فما مضت ساعةٌ حتَّى نزل نصر الواحد القهَّار ، وكانت تلك المعركة بعد فتح حصن أكرى[٢] .

ثانياً : من شعره :

كان على نصيب عالٍ من التَّعليم ، والثَّقافة ، والأدب ، وكان شديد التَّدَيُّن ، ويميل إلى التَّصوُّف ، ومن أشعاره ذات المعاني السَّامية :

لا نرضى بالظُّلم بل نرغب في العدل[٣] .

نحن نعمل لحبِّ الله ، ونُصغي بدقَّة لأوامره[٤] .

نريد الحصول على رضا الله[٥] .

نحن عارفون وقلوبنا مرآة العالم .

قلوبنا محروقةٌ بنار العشق في الأزل .

نحن بعيدون من الغشِّ ، والخديعة ، وقلوبنا نظيفةٌ[٦] .

ثالثاً : وفاته :

توفِّي السُّلطان محمَّد الثَّالث بعد أن أخمد الحركات التمرُّديَّة ، والثَّورات

---

(١) انظر : تاريخ سلاطين آل عثمان للقرماني ، ص(٦٣) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٦٣ ، ٦٤) .
(٣) انظر : السَّلاطين العثمانيُّون ، ص(٥٧) .
(٤) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، ص(١٣١) .
(٥) انظر : السَّلاطين العثمانيُّون ، ص(٥٧) .
(٦) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٥٧) .

العنيفة ، وقاد الجيوش بنفسه ، وكانت وفاته في نهار الأحد الثامن عشر من رجب سنة اثنتي عشرة وألف ، ومدَّة حكمه تسع سنين ، وشهران ويومان ، وله من العمر ثمانٌ وثلاثون سنةً[(١)] .

وكان هذا السُّلطان عندما يسمع اسم نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ يقوم إِجلالاً ، واحتراماً لسيِّد الكائنات[(٢)] .

* * *

(١) انظر : تاريخ سلاطين آل عثمان للقرماني ، ص(٦٤) .
(٢) انظر : السَّلاطين العثمانيُّون ، ص(٥٧) .

المبحث الرَّابع

السُّلطان أحمد الأوَّل

(١٠١٢ ـ ١٠٢٦هـ/ ١٦٠٣ ـ ١٦١٧م)

تولَّى الحكم بعد وفاة والده وعمره ١٤ سنة ، ولم يجلس أحدٌ قبله من سلاطين العثمانيِّين في هذه السِّنِّ على العرش ، وكانت أحوال الدَّولة مرتبكةً جدّاً لانشغالها بحروب النِّمسا في أوربة ، وحرب إيران ، والثَّورات الدَّاخليَّة في آسيا . فأتمَّ ما بدأ به أبوه من تجهيزاتٍ حربيَّةٍ[١] .

أولاً : الحرب مع النِّمسا والدُّول الأوربيَّة :

عيَّن السُّلطان أحمد لالا محمَّد باشا صدراً أعظم خليفةً للصَّدر الأعظم يمشجي حسن باشا، حيث كان سرداراً عاماً للجيوش الَّتي جاهدت في النِّمسا، وهو من خيرة قوَّاد الجيوش ، فاهتمَّ بتقوية الجيوش العثمانيَّة وحاصر قلعة إستراغون ، وفتحها . كما حارب إمارات الأفلاق ، والبغدان ، والأردل ، وعقد صلحاً معهم . ولمَّا مات لالا باشا خلفه قبوجي مراد باشا صدراً أعظم ، وكان قائداً لإحدى فرق الجيش .

وقد نجحت الجيوش العثمانيَّة في هزيمة النِّمسا ، واسترداد القلاع الحصينة من مدن يانق ، وإستراغون ، وبلغراد ، وغيرها ، كما نجحت الجيوش العثمانيَّة في جهادها بالمجر ، وهزمت النِّمسا هناك . ونجم عن ذلك ، قبول النِّمسا بطلب الصُّلح ، ودفع جزية للدَّولة العثمانيَّة ، مقدارها مئتا ألف دوكةٍ من الذَّهب ، وبقيت بلاد المجر بموجب هذه المعاهدة تابعةً للدَّولة العثمانيَّة[٢] .

وجرت حروبٌ بحريَّةٌ بين السُّفن العثمانيَّة ، وسفن إسبانيا ، ورهبان القدِّيس يوحنَّا في مالطة ، والإمارات الإيطاليَّة ، وتراوح النَّصر بين الجانبين[٣] .

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة في التَّاريخ الإسلامي ، ص(١٠٥) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٠٥) .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص(١٠٥) .

ثانياً : تجديد الامتيازات :

وجدَّدت الدَّولة امتيازات فرنسا ، وإِنجلترا على مثلها ، كما جدَّدت الاتِّفاقيَّة مع بولونيا ، بحيث تمنع الدَّولة تتار القرم من التعدِّي على بولونيا ، وتمنع بولونيا القازاق ، من التعدِّي على الدَّولة العثمانيَّة(١) .

وتحصَّلت هولَّندا على امتيازاتٍ ، واستغلَّت ذلك في نشر الدُّخان داخل ديار الإِسلام ، وبدأ تعاطيه من قبل الجنود ، فأصدر المفتي فتوى بمنعه ، فهاج الجند ، وأيَّدهم الموظَّفون ، فاضطر العلماء إِلى السُّكوت عنه(٢) .

وهكذا أصبح الجند ينقادون خلف شهواتهم ، ويعترضون على العلماء .

إِنَّ القوى الأجنبيَّة الكافرة تهتمُّ بنشر كلِّ محرمٍ في أوساط المسلمين .

إِنَّ الله تعالى أحلَّ لنا الطَّيِّبات النَّافعة ، وحرَّم علينا الخبائث الضَّارَّة لأجسامنا ، وعقولنا ، وأموالنا ، ولذلك أفتى العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ بتحريم شرب الدُّخان ، وبيعه ، وشرائه ؛ لما فيه من الأضرار الدِّينيَّة ، والدُّنيويَّة ، والاجتماعيَّة ، والصِّحِّيَّة ، وهي :

١ ـ إِنَّه دخانٌ لا يسمن ، ولا يغني من جوعٍ .

٢ ـ إِنَّه مضرٌّ بالصِّحَّة الغالية ، وما كان كذلك يحرم استعماله .

٣ ـ إِنَّه من الخبائث المحرَّمة قال تعالى : ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

٤ ـ إِنَّ رائحة الدُّخان تؤذي النَّاس الَّذين لا يستعملونه ، بل وتؤذي الملائكة الكرام ؛ لأنَّ الملائكة تتأذَّى ممَّا يتأذى منه بنو آدم ؛ وقد حرم الله تعالى أذيَّة المسلم ، قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب : ٥٨] .

وغير ذلك من الأدلَّة الَّتي ذكرها العلماء ، ولكن لضعف الوازع التَّربويِّ ،

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة في التَّاريخ الإِسلامي ، ص(١٠٥) .
(٢) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . جمال عبد الهادي ، ص(٧٢) .

وضعف سلطان الدَّولة الَّتي تشرف على تنفيذ الأحكام يحدث التَّمرُّد من قبل الجنود والأفراد .

ثالثاً : الحرب مع الشِّيعة الصَّفويَّة (الفرس) :

انتهز الشَّاه عبَّاس الصَّفويُّ فرصة اضطراب الدَّولة العثمانيَّة ، وباشر في تخليص عراق العجم ، واحتلَّ تبريز ، ووان ، وغيرهما ، واستطاع أن يحتلَّ بغداد ، والأماكن المقدَّسة الشِّيعيَّة في النَّجف ، وكربلاء ، والكوفة ، وقد زارها وسط مظاهر الإجلال والتَّقديس ، وقد أورد بعض المؤرِّخين : أنَّه قضى عشرة أيام في زيارته للنَّجف حيث قام بنفسه بخدمة الحجَّاج في ذلك المكان ، كما يذكرون أيضاً : أنَّه إمعاناً في إعلان تمسُّكه بالمذهب الشِّيعي ، وولائه للرَّفض ، وعلى الرَّغم من تعصُّبه الشَّديد للمذهب الشِّيعي إلا أنَّه رفع أيدي رجال الدِّين عن التَّدخُّل في شؤون الحكم ، والسِّياسة ، ومارس نوعاً من السُّلطة المطلقة في حكم البلاد .

وأقد أنزل الشَّاه عبَّاس الصَّفويُّ أقسى أنواع العقاب بأعداء الدَّولة من السُّنَّة ؛ فإمَّا أن يقتلوا ، أو تسمل عيونهم ، ولم يكن يتسامح مع أيٍّ منهم إلا إذا تخلَّى عن مذهبه السُّنِّي ، وأعلن ولاءه للمذهب الشِّيعيِّ[1] .

واضطرت الدَّولة العثمانيَّة أن تترك للدَّولة الصَّفويَّة الرَّافضيَّة الشِّيعيَّة جميع الأقاليم ، والبلدان ، والقلاع ، والحصون الَّتي فتحها العثمانيُّون في عهد السُّلطان الغازي سليمان الأوَّل بما فيها مدينة بغداد . وهذه أوَّل معاهدة تركت فيها الدَّولة بعض فتوحاتها ، وكانت فاتحة الانحطاط ، والضَّعف ، وأولى المعاهدات الَّتي دلَّت على ضعف الدَّولة العثمانيَّة[2] .

لقد بالغ الشَّاه عبَّاس الصَّفويُّ في عدائه للمذهب السُّنِّي ، واتَّصل بملوك المسيحيِّين ، وإمعاناً في ضرب الدَّولة العثمانيَّة حامية المذهب السُّنِّيِّ ، فقد عقد اتفاقات تعاونٍ مشتركٍ معهم من أجل تقويض أركان الدَّولة العثمانيَّة السُّنِّيَّة ، ولم يكن يعبأ حتَّى إذا قدَّم العديد من التنازلات للدُّول الأوربيَّة تأكيداً لتعاونه معهم

---

(١) انظر : الإسلام في آسيا ، د . محمد نصر مهنا ، ص(٢٤٩ ـ ٢٥٠) .
(٢) انظر : تاريخ الدَّولة العليَّة العثمانيَّة ، ص(٢٧٢) .

انطلاقاً من عدائه للدَّولة العثمانيَّة .

وعامل الشَّاه عباس الصَّفويُّ المسيحيِّين في إِيران معاملةً حسنةً على عكس معاملته للسُّنَّة ، وقد كان لمعاملته المتميِّزة للمسيحيِّين أن نشطت الحركة التَّنصيريَّة المسيحيَّة في إِيران ، كما شجَّع التُّجار الأوربيِّين في عقد صفقاتٍ تجاريَّةٍ كبيرةٍ مع التُّجار في إِيران ، وأصبحت إِيران سوقاً رائجاً للتِّجارة الأوربيَّة . لقد توَّج تسامحه مع المسيحيِّين بأن أعلن في عام ١٠٠٧هـ/١٥٩٨م أوامره بعدم التَّعرض لهم ، والسَّماح لهم بحرِّيَّة التَّجوُّل في ربوع الدَّولة الصَّفويَّة .

وجاء بالمرسوم الَّذي أصدره شاه الدَّولة الصَّفويَّة ما يلي : (. . . من اليوم يسمح لمواطني الدَّولة المسيحيَّة ، ومن يدينون بدينهم بالحضور إِلى أيِّ بقعةٍ من وطننا ، ولا يسمح لأيِّ شخصٍ بأيِّ حالٍ من الأحوال إِهانتهم ، ونظراً لما بيننا وبين الملوك المسيحيِّين من علاقاتٍ ودٍّ ومحبَّة ، فيسمح للتُّجار المسيحيِّين بالتَّجوُّل في جميع أنحاء إِيران ، ومزاولة نشاطهم التِّجاري في أيِّ بقعةٍ من الوطن ، دون أن يُتعرَّض لهم بالإِيذاء من أيِّ شخصٍ ، سواءٌ كان حاكماً ، أو أميراً ، أو خاناً ، أو موظفاً ، أو تابعاً للدَّولة ، كما تعفى جميع أموال تجارتهم الّتي يحضرونها معهم من ضرائب المال ، وليس لأيِّ شخصٍ مهما بلغت مكانته أن يزاحمهم ، أو يكلِّفهم المشاقَّ ، وليس من حقِّ رجال الدِّين مهما كانت طوائفهم التَّجرُّؤ على الإِضرار بهم ، أو التحدُّث معهم بخصوص العقائد المذهبيَّة)(١) .

لقد جامل الشَّاه عباس الصَّفويُّ المسيحِّيين ، وشرب معهم الخمر احتفالاً بأعيادهم ، كما أنَّه سمح لهم بالتَّبشير بالمسيحيَّة في داخل إِيران ، وأعطاهم امتيازاتٍ ببناء الكنائس المسيحيَّة في كبرى المدن الإِيرانيَّة ، وهذه المعاملة للمسيحيِّين كانت نكايةً في الدَّولة العثمانيَّة السُّنِّيَّة(٢) .

إِنَّ تاريخ أعداء الإِسلام طافحٌ بالعداوة ، والبغضاء لأهل السُّنَّة ، ودولتِهم الميمونةِ أينما كانوا وحيثما وجدوا ، ولا يزال هذا العداء مستمرّاً رغم الشِّعارات السِّياسيَّة الرَّنانة الَّتي يرفعونها بين الحين والآخر .

---

(١) انظر : الإِسلام في آسيا ، ص(٢٥١) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢٥٣) .

رابعاً : الحركات الانفصاليَّة :

ظهرت إلى حيِّز الوجود في عصر السُّلطان أحمد الأوَّل حركاتٌ داخليَّةٌ تهدف إلى تقويض كيان الدَّولة ، وبنيانها مثل حركة « جان بولاد » الكردي ، وحركة والي أنقرة « قلندر أوغلي » ، وحركة فخر الدِّين الدُّرزي المعني الثَّاني حفيد «فخر الدِّين المعني الأول» الذي انضمَّ إلى السُّلطان سليم الأوَّل عندما دخل الشام عام (٩٢٢هـ)(١) .

وسبَّبت تلك الحركات اضطراباتٍ داخليةً حتَّى هيَّأ الله للدَّولة وزيراً محنَّكاً ، أكسبه تقدُّم السِّنِّ مزيداً من الخبرات ، والتَّجارب ، فعُيِّن صدراً أعظم كان عوناً للسُّلطان الفتيِّ ، وانتصر على الثَّائرين ، وخاصة ثائر الأناضول « قلندر أوغلي » الَّذي كان قد عُيِّن والياً على أنقرة ، فقد نكَّلت به الدَّولة ، وتمكَّن الصَّدر الأعظم قبوجي مراد باشا من تطهير الأناضول من أولئك الثَّائرين(٢) .

خامساً : وفاة السُّلطان أحمد الأوَّل :

كان رحمه الله في غاية التَّقوى ، وكان رجلاً مثابراً في الطَّاعات ، ويباشر أمور الدَّولة بنفسه ، وكان متواضعاً في ملابسه ، وكان كثير الاستشارة لأهل العلم ، والمعرفة ، والقيادة ، وكان شديد الحبِّ للنَّبي ﷺ ، وفي عهده بدأ إرسال ستائر الكعبة الشَّريفة من إستانبول ، وقبل ذلك كانت ترسل من مصر ، توفي رحمه الله في ١٦١٧م ودفن عند جامع سلطان أحمد(٣) .

وكان يحمل هذه الأبيات الشِّعرية واضعاً إيَّاها تحت عِمامته :

أَرْغَـبُ دَوْمَـاً فِـي حَمْـلِ صُـوْرَةِ انْطِبَـاعِ أَقْـدَامِ النَّبِـيِّ عَـالِـي المَقَـامْ
مَنْ هُوَ سَيِّدُ الأَنْبِيَاءِ فَوَرْدَةُ حَدِيْقَةِ الأَنْبِيَاءِ مَلِكَةُ هَذِهِ الأَقْدَامِ الشَّرِيْفَة
فَيَا أَحْمَدِيُّ لاَ تَتَرَدَّدْ وَلَوْ لِلَحْظَةٍ وَمَرِّغْ وَجْهَكَ بِأَقْدَامِ الوَرْدَةِ الرَّفِيْعَةِ الشَّرِيْفَةِ(٤)

* * *

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . جمال عبد الهادي ، ص(٧٠) .
(٢) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، د . علي حسُّون ، ص(١٣٢) .
(٣) انظر : السَّلاطين العثمانيُّون ، ص(٥٩) .
(٤) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، ص(١٣٣) .

المبحث الخامس

بعض السَّلاطين الضِّعاف

أوَّلاً : السُّلطان مصطفى الأوَّل :

تولَّى السُّلطة بعد وفاة أخيه عام (١٠٢٦هـ) ، ومنذ عهده يظهر جليّاً أن يداً أجنبيَّةً كانت خلف تعيين ، وإزاحة الخلفاء ، فهذا السُّلطان عُزل بعد ثلاثة أشهرٍ ، وجيء بابن أخيه (عثمان الثَّاني) الَّذي لم يزد عمره على الثَّالثة عشرة(١) .

ثانياً : السُّلطان عثمان الثاني (١٠٢٦ ـ ١٠٣١هـ/ ١٦١٧ ـ ١٦٢١م) :

تولَّى الحكم بعد عزل عمِّه مصطفى الأوَّل ، وكان صغيراً لم يزد عمره على الثَّالثة عشرة ، أعلن الجهاد على بولونيا لتدخُّلها في شؤون إمارة البغدان ، وتمَّ الصُّلح بين الطَّرفين عام ١٠٢٩هـ/ ١٦٢٠م بناءً على طلب بولونيا ، وطلب الإنكشاريَّة ، الَّذين تعبوا من مواصلة القتال ، فغضب الخليفة عليهم(٢) من طلبهم الرَّاحة ، وخلودهم إلى الكسل ، وإلزامه على الصُّلح مع بولونيا ، فعزم على التخلُّص من هذه الفئة الباغية ، ولأجل الاستعداد لتنفيذ هذا الأمر الخطير أمر بحشد جيوشٍ جديدةٍ في ولايات آسيا ، واهتمَّ بتدريبها ، وتنظيمها ، وشرع فعلاً في تنفيذ هدفه ، وعلمت الإنكشاريَّة بذلك ، فهاجوا ، وماجوا ، وتذمَّروا ، واتَّفقوا على عزل السُّلطان ، وتمَّ لهم ذلك في ٩ رجب سنة ١٠٣١هـ (٢٠ مايو سنة ١٦٢٢م) وأعادوا مكانه السُّلطان مصطفى ، وقتلوا السُّلطان عثمان الثَّاني الذي ترك لنا بعض الأشعار منها :

كَانَتْ نِيَّتِي الخِدْمَةَ لِحُكُومَتِي وَدَوْلَتِي ... وَلِلْعَجَبِ أَنَّ الْحَسُودَ يَعْمَلُ لِنَكْبَتِي(٣)

تولَّى السُّلطان مصطفى الحكم ، وللمرة الثَّانية إثر فتنة الإنكشاريَّة ، وصارت الحكومة ألعوبةً بأيديهم ، ينصبون الوزراء ، ويعزلونهم بحسب أهوائهم ،

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . جمال عبد الهادي ، (٧٢) .
(٢) انظر : الدَّولة العثمانيَّة في التَّاريخ الإسلامي ، ص(١٠٦) .
(٣) انظر : السَّلاطين العثمانيُّون ، ص(٦١) .

وأصبحت المناصب تُباع جهاراً ، وارتكبوا أنواع المظالم[١] وتغيَّر الوزراء الصُّدور في مدَّته هذه سبع مرَّات خلال عامٍ واحدٍ وأربعة شهور ، وكان الخلاف قد دبَّ بين أمراء الأناضول وفرقة السِّباهيَّة على استمرار الوزراء الصُّدور ، حتَّى أنَّ بعضهم لم يكمل شهراً واحداً . ونظراً لضعف السُّلطان ، وعجزه عن إدارة شؤون البلاد تمَّ عزله ، وتنصيب الأمير مراد الرَّابع بن السَّلطان أحمد الأوَّل[٢] .

ثالثاً : مراد الرَّابع (١٠٣٢ ـ ١٠٤٩هـ/ ١٦٢٢ ـ ١٦٤٠م) :

تولَّى أمر السلطنة بعد عزل عمِّه مصطفى عام ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٢م ، وهو أخو عثمان الثَّاني ، ولصغر سنه فقد سيطر الإنكشاريَّة عليه . وكانت أحوال الدَّولة سيئةً للغاية ، فقام بإِصلاح الأحوال الدَّاخليَّة أوَّلاً ، حتَّى تسنَّى له التفرُّغ للأحوال الخارجيَّة ، ولذلك بدأ بالقضاء على طغاة العسكر الَّذين قتلوا أخاه السُّلطان عثمان[٣] ، وأعدم جميع المتأسِّدين في إستانبول ، وفي جميع أنحاء الدَّولة ، وأسَّس تشكيلاتٍ قوَّيةً للمخابرات ، وثبَّت من خلالها أسماء جميع المستبدِّين في الدَّولة ، وكان إِذا صادف بلداً في أسفاره كان يدعو مستبدِّيها بأسمائهم ، ويعدمهم[٤] .

منع في عهده الخمر ، والتَّدخين ، وأعدم كلَّ مرتدٍ عن الإِسلام[٥] .

●● الحرب مع الشِّيعة الصَّفويَّة :

اندلعت الحرب مع الشِّيعة الصَّفويَّة في العراق عام ١٠٤٤هـ/ ١٦٣٤م ، فقاد السُّلطان مراد الجيوش بنفسه ، واتَّجه إِلى بغداد ، وكان عبَّاس شاه فارس قد استولى عليها ، وقتل واليها العثماني ، وأذلَّ أهل السُّنَّة بها ، وعمل بهم الأفاعيل ، فحاصر مراد بغداد ، وهدم جزءاً كبيراً من أسوارها بالمدفعيَّة ، ودخلها عام ١٠٤٨هـ ، وقتل من جنود الشِّيعة عشرين ألفاً ، ثمَّ أقام بها مدَّةً جدَّد عمارتها ، وأصلح ما تهدَّم

---

(١) انظر : تاريخ الدَّولة العليَّة العثمانيَّة ، ص(٢٧٩) .
(٢) انظر : الدَّولة العثمانيَّة في التَّاريخ الإِسلامي الحديث ، ص(١٠٧) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٠٧) .
(٤) انظر : السَّلاطين العثمانيُّون ، ص(٦٣) .
(٥) انظر : تاريخ الدولة العثمانيَّة ، ص(١٣٦) .

من أسوارها ، وعيَّن لها وزيراً ، وكان هذا السُّلطان يباشر الحروب بنفسه ، ويخالط جنوده ، وينام أحياناً في الغزوات على حصانه[١] .

●● وفاته :

مرض سنة ١٦٤٠م وكان يُخشى عليه من الموت ، ولكن شفي ، ثمَّ مرض من جديدٍ ، وتوفي ـ رحمه الله ـ في شباط ١٦٤٠م[٢] ، بسبب مرض النُّقرس ، وامتدَّ حكمه ١٦ سنة و١١ شهراً . استلم الخزينة عند ارتقائه العرش فارغةً ، وتركها مملوءةً عند وفاته[٣] ، لقد كان هذا السُّلطان عاقلاً ، شجاعاً ، ثاقب الرَّأي ، استأصل الفساد ، وقمع العصاة ، ولقب بمؤسِّس الدَّولة الثَّاني ؛ لأنه أحياها بعد السُّقوط ، وأصلح حال ماليَّتها[٤] .

رابعاً : السُّلطان إبراهيم بن أحمد (١٠٤٩ ـ ١٠٥٨هـ/ ١٦٣٩ ـ ١٦٤٨م) :

تولَّى الحكم بعد أخيه مراد الَّذي لم يعقب ذكوراً ، ولم يبق بعد موت السُّلطان مراد الرَّابع من نسل آل عثمان سوى أخيه السُّلطان إبراهيم ، الَّذي كان مسجوناً مدَّة سلطنة أخيه ، ولمَّا توفِّي أخوه أسرع كبار المملكة إلى مكان الحبس ؛ ليخبروه بذلك ، فعندما قدموا ظنَّ أنَّهم قادمون لقتله ، فخاف ، وذعر ، ولم يصدِّق ما قالوه له ، ولذلك لم يفتح لهم باب السِّجن ، فكسروه ، ودخلوا عليه يهنِّئونه ، فظنَّ أنَّهم يحتالون عليه للاطلاع على ضميره ، فرفض قبول الملك بقوله : إنَّه يفضِّل الوحدة الَّتي هو بها على ملك الدُّنيا ، ولمَّا أن عجزوا عن إقناعه ، حضرت إليه والدته ، وأحضرت له جثَّة أخيه دليلاً على وفاته ، وحين ذلك جلس على سرير السَّلطنة ، ثمَّ أمر بدفن جثَّة أخيه باحتفالٍ وافر ، وساق أمامها ثلاثة أفراس من جياد الخيل الَّتي كان يركبها في حرب بغداد ثمَّ مضى إلى جامع أبي أيُّوب الأنصاريِّ ، وهناك قلَّدوه بالسَّيف ، ونادوا له بالخلافة[٥] .

---

(١) انظر : السَّلاطين العثمانيُّون ، ص(٦٣) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .
(٤) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، ص(١٣٦) .
(٥) انظر : تاريخ سلاطين آل عثمان ، يوسف آصاف ، ص(١٠٥) .

كان يقول عند ارتقائه العرش : الحمد لله ، اللَّهم جعلت عبداً ضعيفاً مثلي لائقاً لهذا المقام ! اللَّهمَّ أصلح ، وأحسن حال شعبي مدَّة حكمي ، واجعلنا راضياً بعضنا عن بعضٍ[(١)] !

ولقد دافع عنه صاحب كتاب « السَّلاطين العثمانيُّون » وقال : إنَّ الافتراءات الكاذبة الَّتي قيلت في حقِّه أكاذيبُ مختلقةٌ من قبل الَّذين أرادوا عزله ، ثمَّ قتلوه بعد ذلك[(٢)] .

كانت الأحوال الدَّاخلية شبه مستقرَّة بسبب إصلاحات أخيه نحو الإنكشاريَّة ، وتجديد الجيش ، فاتَّجه إلى الاقتصاد في نفقات الجيش ، والأسطول ، وإصلاح النَّقد ، وإقامة النِّظام الضَّرائبي على أسسٍ جديدة[(٣)] .

استطاع الصَّدر الأعظم قره مصطفى باشا أن يوقف تدخُّل النِّساء في شؤون السَّلطنة ، وتمكَّن من القضاء على محاولات رجال البلاط السُّلطاني لإفساد الدَّولة ، وقضى على العابثين ، والمفسدين ، وقاطعي الطَّريق في مختلف الولايات[(٤)] .

●● الحرب ضدَّ البنادقة :

كانت جمهورية البنادقة تهيمن على جزيرة كريت ، وعلى الحركة التِّجارية في بحر إيجة مستغلِّين الصُّلح مع الدَّولة العثمانيَّة ، فعزم العثمانيُّون على تدمير نفوذ البنادقة في الشرق ، فجهَّز الجيوش ، والأسطول ، وأعلن الحرب على البنادقة ، واعتقل جميع البنادقة في طول البلاد وعرضها ، وأمر بمصادرة أموالهم وممتلكاتهم ، ثمَّ سيَّر حملةً إلى جزيرة كريت عام ١٠٥٥م/ ١٦٤٥م ، واستولت على أجزاءٍ منها[(٥)] ، ولكنَّ الجنود تمرَّدوا في إستانبول ، وهاجوا ، وماجوا ، وقرَّروا عزل السُّلطان إبراهيم ، وتولية ابنه محمَّد الرَّابع ؛ الَّذي لم يتمَّ السَّابعة من

---

(١) انظر : السَّلاطين العثمانيُّون ، ص(٦٤) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . إسماعيل ياغي ، ص(١٠٨) .
(٤) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، إسماعيل سرهنك ، ص(١٥٠) .
(٥) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . إسماعيل ياغي ، ص(١٠٩) .

عمره ، وقُتل السُّلطان إبراهيم ، وقد امتدَّ حكمه ٨ سنين و٩ شهور وكان عمره ٣٤ سنة[١] .

خامساً : السُّلطان محمد الرَّابع (١٠٥٨ ـ ١٠٩٩هـ/ ١٦٤٨ ـ ١٦٨٧م) :

ولد هذا السُّلطان عام ١٠٥١هـ ، وتولَّى المسؤوليَّة وهو ابن سبع سنوات ، ورأت أوربة أنَّ الوقت حان للنَّيل من الدَّولة العثمانية ؛ لذلك كوَّنت أوربة حلفاً ضمَّ : النِّمسا ، وبولونيا ، والبندقيَّة ، ورهبان مالطة ، والبابا ، وروسيا ، وسمَّوه (الحلف المقدَّس) وذلك للوقوف في وجه المدِّ الإسلاميِّ ، الَّذي أصبح قريباً من كلِّ بيتٍ في أوربة الشَّرقيَّة بسبب جهاد العثمانيِّين الأبطال ، وبدأ الهجوم الصَّليبيُّ على ديار الدَّولة العثمانيَّة ، وقيَّض الله لهذه الفترة (آل كوبريلِّلي) الَّذين ساهموا في ردِّ هجمات الأعداء ، وتقوية الدَّولة ، فالصَّدر الأعظم محمَّد كوبريلِّلي المتوفَّى عام (١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م) أعاد للدَّولة هيبتها ، وسار على نهجه ابنه (أحمد كوبريلِّلي) الَّذي رفض الصُّلح مع النِّمسا ، والبندقيَّة ، وسار على رأس جيش لقتال النِّمسا ، وتمكَّن عام ١٠٧٤هـ أن يفتح أعظم قلعةٍ في النِّمسا ، وهي قلعة نوهزل شرقي فينَّا في ٢٥ صفر ١٠٧٤هـ/ ٢٨ سبتمبر ١٦٦٣م ، وفي عهد هذا الصَّدر الأعظم حاولت فرنسا التقرُّب من الدَّولة العثمانيَّة ، وتجديد الامتيازات ، غير أنَّ الصَّدر الأعظم رفض ذلك ، ثمَّ حاولت فرنسا التَّهديد ، حيث أرسل « لويس الرَّابع عشر » ملك فرنسا السَّفير الفرنسي مع أسطولٍ حربيٍّ ، وهذا ما زاد الصَّدر الأعظم إلا ثباتاً ، وقال : (إنَّ الامتيازات كانت منحةً ، وليست معاهدةً واجبة التَّنفيذ)[٢] .

لقد تراجعت فرنسا أمام تلك الإرادة الحديديَّة ، واستعملت سياسة اللِّين ، والخضوع للدَّولة العثمانيَّة ؛ حتَّى جدَّدت لها المعاهدات القديمة ، وأعادت لها امتياز حماية بيت المقدس عام ١٠٨٤هـ[٣] .

وبوفاة الصَّدر الأعظم « أحمد كوبريلِّلي » ضعف النِّظام العثمانيُّ ، وهاجمت

---

(١) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، ص(١٣٧) .
(٢) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . جمال عبد الهادي ، ص(٧٣) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٧٤) .

النِّمسا بلاد المجر ، واغتصبت قلعة نوهزل ، ومدينة بست ، ومدينة بودا ، وأغار ملك بولونيا على ولاية البغدان ، وأغارت سفن البندقيَّة على سواحل المورة ، واليونان ، واحتلَّت أثينا « وكورنثة » عام ١٠٩٧هـ وغيرها من المدن .

وتذكر كتب التَّاريخ : أنَّ العلماء ، ورجال الدَّولة قد اتَّفقوا على عزل السُّلطان (محمَّد الرابع) فعزل عام ١٠٩٩هـ ، وتولَّى مكانه أخوه سليمان الثَّاني[(١)] .

سادساً : السُّلطان سليمان خان الثَّاني :

ولد عام ١٠٥٢هـ وتولَّى الحكم بعد أخيه (محمَّد الرابع) عام ١٠٩٩هـ ، واستمرَّ التَّدهور في الدَّولة العثمانيَّة في عهده ، وازدادت شراسة الأعداء على عهده ، فاغتصبت النِّمسا كثيراً من المواقع ، والمدن ، ومنها بلجراد عام ١٠٩٩هـ ، كما احتلت البندقيَّة ، وسواحل دالماسيا السَّواحل الشَّرقية لبحر الأدرياتيك وبعض الأماكن في اليونان ، وتوالت الهزائم على الدَّولة ، وقيَّض الله لها رجلاً لهذه الفترة هو الصَّدر الأعظم (مصطفى بن محمَّد كوبريلِّلي) الذي سار على نهج أبيه ، وسمح للنَّصارى في إستانبول ببناء ما تهدم من كنائسهم ، وأحسن إليهم[(٢)] ، وعاقب بأشدِّ العقاب كلَّ من عرض لهم في إقامة شعائر دينهم حتَّى استمال جميع مسيحيي الدَّولة ، وكانت نتيجة معاملة المسيحيين بالعدل أن أثار أهالي موره الأروام على البنادقة الكاثوليك ، وطردوا جيشها من بلادهم بسبب اضطهادهم ، وإجبارهم على المذهب الكاثوليكي . ودخلوا في حماية الدَّولة العثمانيَّة مختارين طائعين لعدم تعرُّضها لديانتهم مطلقاً[(٣)] .

هذه شهادةٌ من أبناء النَّصارى على سماحة الإسلام الَّذي ما نعمت البشريَّة بنعمة الأمن والطُّمأنينة على الدِّين ، والعرض ، والمال ، والدَّم إلا في ظلِّه ؛ لأنَّ القرآن الكريم وسنَّة سيِّد المرسلين علماهم ذلك ، قال تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة : ٨] .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .

(٢) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . جمال عبد الهادي ، ص(٧٤) .

(٣) انظر : تاريخ الدَّولة العليَّة العثمانية ، ص(٣٠٦) .

وشاء الله تعالى أن يختار الصَّدر الأعظم شهيداً في ساحة الوغى ، وهو ينافح عن حرمات الدِّين في إحدى المعارك ضد النِّمسا الصَّليبيَّة عام ١١٠٢هـ(١) .

●● وفاة السُّلطان سليمان الثاني :

في ٢٦ رمضان سنة ١١٠٢هـ الموافق ٢٣ يونيو ١٦٩١م توفِّي السُّلطان سليمان الثَّاني عن غير عقب ، وعمره ٥٠ سنة بعد أن حكم ثلاث سنوات وثمانية أشهر ، ودفن في تربة جدِّه السُّلطان سليمان الأول ، وتولى بعده أخوه(٢) .

سابعاً : السُّلطان أحمد الثاني (١١٠٢ ـ ١١٠٦هـ/ ١٦٩٠ ـ ١٦٩٤م) :

تولَّى الحكم عام ١١٠٢هـ بعد وفاة أخيه سليمان الثَّاني ، واستشهد في زمنه الصَّدر الأعظم مصطفى كوبريلِّلي الَّذي كان عظيم النَّفع للدَّولة العثمانيَّة ، وتولَّى بعده الصَّدر الأعظم جي علي باشا عريجي ، وكان ضعيفاً ، واحتلَّت البندقيَّة بعض جزر بحر إيجة ، ولم تطل أيام السُّلطان ، وتوفِّي عام ١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م ، وكان القتال في أيامه القصيرة عبارةً عن مناوشاتٍ ، وتولَّى الحكم بعده ابن أخيه ، وهو مصطفى الثَّاني بن محمَّد الرَّابع(٣) .

ثامناً : السُّلطان مصطفى الثَّاني (١١٠٦ ـ ١١١٥هـ/ ١٦٩٤ ـ ١٧٠٣م) :

ولد عام ١٠٧٤هـ وتولَّى الخلافة عام (١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م) وهو ابن السُّلطان محمَّد الرَّابع ، وفي عهده بدأ تراجع المدِّ الإسلامي عن ديار أوربة الشَّرقيَّة بسبب ضعف الإيمان ، وضعف روح الجهاد ، وتسرُّب أسباب الهزيمة في كيان الأمَّة ، وقسوة الهجمات الصَّليبيَّة على ديار الدَّولة العثمانيَّة ، وفي عهده تمَّ توقيع معاهدة كارلوفتس جنوب غرب زغرب على نهر الدَّانوب عام ١١١٠هـ/ ١٦٩٩م مع روسيا ، وطبقاً لشروط هذه المعاهدة انسحب العثمانيُّون من بلاد المجر ، وإقليم ترانسلفانيا ، وهذا مؤشِّرٌ سيِّءٌ في تاريخ بعض حكام الدَّولة العثمانيَّة ، وهو

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . جمال عبد الهادي ، ص(٧٥) .
(٢) انظر : تاريخ الدَّولة العليَّة العثمانيَّة ، ص(٣٠٦) .
(٣) انظر : الدَّولة العثمانيَّة في التَّاريخ الإسلامي ، ص(١١٥) .

انسحابهم من المعارك تاركين المسلمين بين يدي عدوٍّ نزعت من قلبه الشَّفقة ، والرَّحمة[١] ، وأصبحت كلُّ الدُّول الَّتي كانت تدفع الجزية عن يدٍ وهي صاغرةٌ ممتنعةً من دفعها ، وكانت الدُّول النَّصرانيَّة تقف في وجه العثمانيِّين ، وكانت متَّفقة فيما بينها للوقوف في وجه تقدُّم الدَّولة العثمانيَّة ، والعمل على تقسيمها ، وذلك خوفاً من انتشار المدِّ الإسلامي .

كان تنازل العثمانيِّين عن أراضيها بداية الانسحاب العثمانيِّ من أوربة ، كما أنَّه يسجِّل الانتقال إلى عصر التفكُّك والاضمحلال السَّريع . وعلى أثر تدخل الإنكشاريَّة ، ومطالبتهم بعزل الصُّدور ، ورفض السُّلطان لذلك فقد قرَّروا عزله ، وتوفي بعد أربعة أشهر ، وكان عند وفاته في التَّاسعة والثَّلاثين من عمره ، ودفن رحمه الله .

تاسعاً : السُّلطان أحمد الثالث (١١١٥ ـ ١١٤٣هـ/ ١٧٠٣ ـ ١٧٣٠م) :

في عهده ظلَّت راية الجهاد مرفوعةً ، واستطاعت الدَّولة أن تعيد المورة ، وآزاق ، وواصلت جهادها ضد روسيا ، وأنزل بها ضربةً كادت تكون قاصمةً ، حينما حاصر المجاهدون العثمانيُّون قيصر روسيا ، وخليلته ، ومعهما ٢٠٠و٠٠٠ مجاهد كادوا يقعون في الأسر ، ولكن الخيانة تحت فتنة المال ، والنِّساء دفعت الصَّدر الأعظم إلى رفع الحصار ، وخيانة الدَّولة ، ووقَّع معاهدة (فلكزن) في جمادى الآخرة عام ١١٢٣هـ مع الرُّوس ، ترتَّب عليها إخلاء مدينة آزاق للصَّليبيِّين الرُّوس وتعهدَّ بعدم التَّدخل في شؤون القوزاق ، ولهذا السَّبب عزل السُّلطان أحمد الثالث الصَّدر الأعظم بطلة جي باشا ، واستمرَّ الجهاد ضدَّ الرُّوس ، ورأت هولَّندا ، وإنجلترا : أنَّ مصلحتهما إيقاف الحرب ، ولذلك تدخَّلوا ، ووقعت معاهدة أدرنة عام ١١٢٥هـ/ ١٧١٦م[٢] ، وتنازلت فيها روسيا عن كلِّ ما استولت عليه من سواحل البحر الأسود ، ولكنَّها تخلَّت في الوقت نفسه عمَّا كانت تدفعه إلى حكام القرم[٣] .

ومن ناحية الغرب انتصر العثمانيُّون على البنادقة ، واستولوا على كريت ، وبعض الجزر الأخرى ، فاستنجد البنادقة بالنِّمسا من الدَّولة العثمانيَّة لإعادة ما أخذ

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . جمال عبد الهادي ، ص(٧٦) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . إسماعيل ياغي ، ص(١١٧) .

من البنادقة إليهم فرفضت الدَّولة ، وقامت الحرب بين الطَّرفين ، وانتصرت النِّمسا ، وسقطت بلغراد عام ١١٢٩هـ/ ١٧١٧م ، ثمَّ جرى الصُّلح بعد ذلك في عام ١١٣٠هـ/ ١٧١٨م ، وتوسطت بريطانيا ، وهولَّندا في الصلح .

وعقد صلح بساروفتز ، وبموجبه انتزع النِّمساويون بلغراد ، وأكثر بلاد الصِّرب ، وجزءاً من الأفلاق ، وتبقى سواحل دالماسيا (شرق الأدرياتيك) للبندقية ، وتعود بلاد المورة للعثمانيِّين ، كما أتاح الصُّلح لرجال الدِّين الكاثوليك أن يستعيدوا مزاياهم القديمة في الأراضي العثمانيَّة ، ممَّا أتاح لهم وللنِّمسا التدخُّل في شؤون الدَّولة العثمانيَّة باسم حمايتهم ، وقد نصَّ اتِّفاقٌ منفصلٌ على حريَّة التِّجارة لصالح تجار الدُّول الموقعة على المعاهدة . وهكذا حصلت النِّمسا على حقِّ حماية التُّجار الأجانب داخل الدَّولة العثمانيَّة[١] .

ولمَّا رأى الرُّوس ضعف العثمانيِّين ؛ طلبوا منهم السَّماح للتُّجار ، وزوار بيت المقدس بالمرور في أراضي الدَّولة العثمانيَّة دون دفع أيَّة رسومٍ ، فوافق العثمانيُّون على ذلك . واحتلَّ العثمانيُّون بلاد أرمينيا بلاد الكرج ، بينما احتلَّ بطرس الأكبر بلاد داغستان ، وسواحل بحر الخزر الغربيَّة بسبب ضعف الدَّولة الصَّفويَّة ، وكادت الحرب تقع بين الطَّرفين لولا وساطة فرنسا بناءً على طلب روسيا ، وبقي كلُّ فريقٍ في المناطق الَّتي دخلها دون معارضة الآخر . غير أنَّ الصَّفويِّين هبُّوا ، وقاتلوا العثمانيِّين ، ولكنَّهم هُزموا ، وفقدوا تبريز ، وهمدان ، وعدداً من القلاع ، ثمَّ جرى الصُّلح عام ١١٤٠هـ/ ١٧٢٨م . وخلال هذه الفترة ثار الإنكشاريُّون ، وعزلوا الخليفة ، ونصَّبوا مكانه ابن أخيه[٢] .

●● الدَّاماد إبراهيم باشا والحضارة الغربيَّة :

كان عددٌ قليلٌ من العثمانيِّين قد نادى بالإصلاح للوصول إلى الوسائل الَّتي حقَّقت بها أوربة قوَّتها خاصَّةً في التنظيم العسكري ، والأسلحة الحديثة . وكان الدَّاماد إبراهيم باشا الَّذي تولَّى الصَّدارة العظمى في عهد السُّلطان أحمد الثَّالث هو

(١) انظر : في أصول التَّاريخ العثماني ، ص(١٥٦ ، ١٥٧) .
(٢) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، إسماعيل سرهنك ، ص(٢٠٧ ، ٢٠٨) .

أوَّل مسؤولٍ عثمانيٍّ يعترف بأهمِّية التَّعرُّف على أوربة ، لذا فإِنَّه أقام اتِّصالاتٍ منتظمةً بالسُّفراء الأوربيِّين المقيمين بالآستانة ، وأرسل السُّفراء العثمانيِّين إِلى العواصم الأوربيَّة ، وبخاصَّةٍ فينَّا ، وباريس للمرَّة الأولى . وكانت مهمَّة هؤلاء السُّفراء لا تقتصر على توقيع الاتفاقات التِّجارية والدِّبلوماسيَّة الخاصَّة بالمعاهدات الَّتي سبق توقيعها ، بل إِنَّه طلب منهم تزويد الدَّولة بمعلوماتٍ عن الدِّبلوماسيَّة الأوربيَّة ، وقوَّة أوربة العسكريَّة . وكان معنى ذلك فتح ثغرة في السِّتار الحديديِّ العثمانيِّ ، والاعتراف بالأمر الواقع الخاصِّ بأنَّه لم يعد بإِمكان العثمانيِّين تجاهل التَّطوُّرات الدَّاخلية الَّتي كانت تحدث في أوربة[١] .

وقد بدأ التأثُّر بأوربة في مجال بناء القصور ، والإِسراف ، والبذخ اللَّذين شارك فيهما السُّلطان أحمد ذاته بنصيبٍ كبير ، ممَّا جعل الأغنياء ، وعلية القوم يسعون إِلى اقتباس العادات الأوربيَّة الخاصَّة بالأثاث ، وتزيين الدُّور ، وبناء القصور ، وإِنشاء الحدائق[٢] .

لقد بدأ ظهور تقليد الغرب في شهواتهم ، وإِسرافهم تظهر للعيان ، وطبيعي أن تمضي فيهم سنَّة الله تعالى ، قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

وقال تعالى : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإِسراء : ١٦] .

وسجِّلت هذه الفترة بداية الحركة الأدبيَّة العثمانيَّة الحديثة ، فنشطت حركة التَّرجمة إِلى اللُّغة التُّركيَّة ، كما أرسل السُّلطان أحمد مبعوثين إِلى فرنسا للاطلاع على المصانع ، ومنجزات الحضارة الفرنسيَّة . كما تمَّ إِنشاء مكتب للطِّباعة في إِستانبول[٣] .

عاشراً : السُّلطان محمود الأوَّل (١١٤٣ ـ ١١٦٨هـ) :

تولَّى الحكم بعد أن هدأت الأحوال بسبب اضطرابات الإِنكشاريَّة ، فقرَّر

---

(١) انظر : في أصول التَّاريخ الإِسلامي ، ص(١٥٩) .
(٢) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . إِسماعيل ياغي ، ص(١١٩) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .

السُّلطان محمود الأوَّل استقدام مستشارٍ أوربيٍّ فرنسي للشُّؤون العسكريَّة ، واسمه ألكسندر الكونت دي بونفال ، وقد عهد إليه بإحياء فرقة المدفعيَّة ، وأدخلت أنظمة جديدةٌ للخدمة العسكريَّة على أسس فرنسيَّة ، ونمساويَّة بهدف جعل الخدمة العسكريَّة من جديد مهنةً حقيقيَّةً ، وذلك بتوفير المرتَّبات ، والمعونات . واقترح توزيع فرق الإنكشاريَّة إلى وحداتٍ صغيرةٍ يقودها ضابطٌ شابٌّ ، غير أنَّ الإنكشارية عارضوا تنفيذ هذه الخطَّة ، وأوقفوها ، ممَّا أدى إلى تركيز بونفال على فرقة المدفعيَّة ، واهتمَّ كذلك بصناعة المدافع ، والبارود ، والبنادق ، والألغام ، وعربات المدافع ، وافتتح مدرسةً للهندسة العسكريَّة ، إلا أنَّ الإنكشاريَّة عارضوا كلَّ المشروعات ، وعلاوة على ذلك أنشأ مصنعاً للورق ، لكن هذه الإصلاحات سرعان ما اندثرت(١) .

اتَّجهت الدَّولة العثمانيَّة إلى قتال الشِّيعة الصَّفويَّة ، فتغلبت على طهماسب الَّذي طلب الصُّلح عام ١١٤٤هـ/ ١٧٣١م ، وتخلَّى العثمانيُّون عن تبريز ، وهمدان ، ولورستان ، غير أنَّ والي الشَّاه على خراسان ـ وهو نادر شاه ـ لم يقبل بهذه المعاهدة . فسار إلى أصفهان ، وعزل الشَّاه طهماسب ، وولَّى مكانه ابنه عبَّاساً ، وعيَّن عليه مجلس وصاية ، سار لحرب العثمانيِّين فانتصر عليهم ، وحاصر بغداد . طلبت الدَّولة الصُّلح ، وجرى الاتفاق عام ١١٤٩هـ/ ١٧٣٦م في مدينة تفليس حيث أعلن نادر خان نفسه ملكاً على الفرس ، واتَّفقوا على أن يرد العثمانيُّون كلَّ ما أخذوه إلى الشِّيعة الإيرانيَّة(٢) .

●● الحرب مع الدُّول الأوربيَّة :

أعلنت روسيا ، والنِّمسا الحرب على بولندا ، واحتلَّتها روسيا ، ورغبت فرنسا في التَّحالف مع الدولة العثمانيَّة لإنقاذ بولندا من كلٍّ من النِّمسا، وروسيا، وأرضت النِّمسا فرنسا بمعاهدة فينَّا ، واتَّفقت من جهةٍ ثانيةٍ لقتال الدَّولة العثمانيَّة ، وبدأت روسيا القتال ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة ، فتمكن العثمانيُّون من وقف تقدَّم الرُّوس في

---

(١) انظر : في أصول التَّاريخ العثماني ، ص(١٦٢ ـ ١٦٣) .
(٢) انظر : التَّاريخ الإسلامي (٨) ، محمود شاكر ، ص(١١٠ ـ ١١٢) .

إقليم البغدان ، كما أوقفوا تقدم النِّمسا في البوسنة ، والصِّرب ، والأفلاق ، وانتصرت على الصِّرب ، وعلى جيوش النِّمسا الَّتي انسحبت من الحرب ، وطلبت الصُّلح عن طريق فرنسا ، وتمَّ توقيع معاهدة الصُّلح في بلغراد عام ١١٥٢هـ/ ١٧٣٩م ، تنازلت فيها النِّمسا عن مدينة بلغراد ، وعن بلاد الصِّرب ، والأفلاق ، وتعهَّدت روسيا بعدم بناء سفن في البحر الأسود ، وهدم قلاع ميناء آزوف(١) .

●● السُّلطان عثمان الثَّالث (١١٦٨ ـ ١١٧١هـ/ ١٧٥٨ ـ ١٧٦١م) :

تولَّى الحكم وعمره ٥٨ سنة ، وبويع في جامع أبي أيُّوب الأنصاري ، وهنَّأه سفراء أوربة ، وحكم ثلاث سنوات فقط لم تحدث فيها حروبٌ ، ولا نزاعاتٌ خارجيَّة ، واهتم بالإصلاحات الدَّاخلية ، وأصدر أوامر بمنع كلِّ ما يخالف الشَّرع الشَّريف ، وقضى على الثَّورات ، والانتفاضات الَّتي قامت في أنحاء الدَّولة ، وخاصَّةً ثورات الأكراد(٢) . ويذكر عنه : أنَّه كان يتحسَّس أحوال الرَّعيَّة ليلاً متنكِّراً(٣) .

الحادي عشر : السُّلطان مصطفى الثَّالث (١١٧١ ـ ١١٨٧هـ/ ١٧٥٧ ـ ١٧٧٣م) :

تولَّى الحكم وعمره اثنتان وأربعون سنة ، وكان على درايةٍ واسعةٍ بإدارة الدَّولة ، فعيَّن الوزير قوجه راغب صدراً أعظم لسعة اطِّلاعه ، وخبرته بشؤون البلاد . وقد استطاع محمَّد راغب باشا من إخماد ثورة عرب الشَّام الَّذين اعتدوا على قوافل الحجَّاج(٤) .

كان السُّلطان مصطفى يرى : أنَّ الخطر الداهم على الدَّولة العثمانيَّة يتمثَّل في ظهور القوَّة الرُّوسيَّة الجديدة ، ويبدو : أنَّه اطلَّع على المخطَّط الأسود الرُّوسي لتفتيت الدَّولة العثمانيَّة الَّذي وضعه بطرس الأكبر في وصيَّته(٥) ، ولذلك أعدَّ السُّلطان مصطفى الثَّالث لحرب روسيا ، فبدأ يعدُّ التنظيمات المزمع تنفيذها

---

(١) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، إسماعيل سرهنك ، ص(٢٠٨ ـ ٢١٢) .
(٢) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . إسماعيل ياغي ، ص(١٢١) .
(٣) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . جمال عبد الهادي ، ص(٧٩) .
(٤) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . إسماعيل ياغي ، ص(١٢٢) .
(٥) انظر : تاريخ الدَّولة العلية العثمانيَّة ، ص(٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢) .

بالجيش العثماني حتَّى يصبح قادراً على مواجهة الجيوش الأوربيَّة ، لذا فقد تمكَّن الصَّدر الأعظم من عقد اتِّفاق مع حكومة بروسيا لمساعدة الدَّولة العثمانيَّة عند الحاجة ضد النِّمسا ، وروسيا . وعمل على توسيع نطاق التِّجارة البحريَّة والبرِّيَّة .

وعمل على وضع مشروع فتح خليج لإيصال نهر دجلة بالآستانة ، وأن تستعمل الأنهار الطَّبيعية مجرى له ليسهل نقل الغلال من الولايات إلى دار الخلافة ، ويساعد على نشر التِّجارة ، إلا أنَّ المنيَّة عاجلته قبل البدء في مشروعه عام ١١٧٦هـ/ ١٧٦٢م . وخلفه في الصَّدارة حامد حمزة باشا ، ثمَّ خلفه مصطفى باهر باشا ١١٧٧هـ/ ١٧٦٣م ، ثمَّ بعد سنة تولَّى الصَّدارة محسن زاده محمَّد باشا ١١٧٨هـ/ ١٧٦٤م(١) .

خاضت الدَّولة العثمانيَّة حرباً مع روسيا بسبب اعتداءات القوزاق على مناطق الحدود ، نجح ملك القرم في غارته ، وهدم عدداً من الضِّياع ، وذلك عام ١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م ، كما سار الصَّدر الأعظم لفكِّ الحصار عن بعض المواقع الَّتي يحاصرها الرُّوس ، ولكنَّه فشل ، فكان جزاؤه القتل ، وهُزم الصَّدر الَّذي أتى بعده ، واحتل الرُّوس إقليمي الأفلاق ، والبغدان ، وأخذ الرُّوس يثيرون النَّصارى من الرُّوم الأرثوذكس للقيام بثوراتٍ ضدَّ الدَّولة ، فأثاروا نصارى شبه جزيرة المورة ، فقاموا بثورةٍ ، غير أنَّ الثورة قد أخمدت(٢) .

كما هاجم الرُّوس مدينة طرابزون ، وفشلوا في احتلالها ، ولكنَّها (روسيا) نجحت في اقتحام بلاد القرم ، والسَّيطرة عليها ، وذلك عام ١١٨٥هـ/ ١٧٧١م . ثمَّ جرت مفاوضات الصُّلح ، ولكنَّها فشلت بسبب مطالب روسيا التَّعسُّفيَّة ، وعادت الحرب ، وانتصر العثمانيُّون(٣) .

●● الاهتمام بدعم الثَّورات الدَّاخلية :

لقد ظهر التآمر الرُّوسي الصَّليبي ضدَّ ديار الدَّولة العثمانيَّة واضحاً ، وقام

(١) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، إسماعيل سرهنك ، ص(٢١٦) .
(٢) انظر : الدَّولة العثمانيَّة في التَّاريخ الإسلامي ، ص(١٢٢) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .

بمحاولة تمزيق الدَّولة من الدَّاخل ، فقد دفعوا والي مصر من قبل دولة الخلافة وهو « علي بك الكبير » الَّذي لقب بشيخ البلد إلى الخروج على الدَّولة العثمانيَّة عام (١١٨٣هـ/ ١٧٧٠م) ، ففعل ، وأمر بأن يخطب باسمه على المنابر .

وفي جزيرة (باروس) تمَّ لقاء بين الصَّليبيِّين الرُّوس ، ومبعوثين من قبل (علي بك الكبير) وتمَّ التَّخطيط الماكر لتدمير الدَّولة العثمانيَّة من الدَّاخل ، يكون فيها علي بك الكبير هو مخلب القط ، ومعه طاهر العمر والي مدينة عكَّا من قبل العثمانيِّين ، وبناءً عليه قاد علي بك أبناء مصر المسلمين لقتال القوَّات العثمانيَّة في بلاد الشام ، ودخل « سورية » عنوةً في عام ١١٨٥هـ ، بل إنَّه دخل دمشق ، وصيدا ، وحاصر « يافا » بمساعدة طاهر العمر ، بل إنَّ الرُّوس حينما قامت قوَّات الدَّولة العثمانيَّة بمحاصرة صيدا ، عاونوا عميلهم في رفع الحصار ، ومدِّه بالأسلحة ، واستولوا على بيروت عام ١١٨٦هـ .

وجاء الوقت الَّذي أسر فيه علي بك الكبير ، وتوفي في أسره ، وقتل الخائن الآخر طاهر العمر بعد حصار عكَّا، وذلك على يد محمَّد بك الشَّهير بأبي الذهب(١) .

إنَّ الصَّليبيَّة النَّصرانيَّة عندما عجزت عن مقاتلة الدَّولة العثمانيَّة في جبهات الوغى لجأت إلى تفجير الدَّولة من الدَّاخل عبر ضعفاء النُّفوس ممَّن ينتسبون إلى الإسلام ، ويظهرون شعائره ، ويضيِّعون مفهوم الولاء ، والبراء في بحر شهواتهم ، وأطماعهم ، وإلا كيف يكون ذلك والله يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الممتحنة : ١] .

وقوله تعالى : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ٢٨] .

إنَّ المسلم الصَّادق مع نفسه ، وربِّه ، وأمَّته لا يقف مع الرُّوس الأرثوذكس ضدَّ المسلمين السُّنِّيِّين العثمانيِّين ، ويستحلُّ دماءهم(٢) . إنَّ أعداء الأمَّة المسلمة يلجؤون دوماً إلى إشعال نار الفتنة داخل ديار الإسلام لتدمير قوَّة الأمَّة البشريَّة ، والاقتصاديَّة ، والأخلاقيَّة لتصبح الأمَّة مؤهلةً للسُّقوط بيد الأعداء(٣) ، لقد كان

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . جمال عبد الهادي ، ص(٨٠) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .

السُّلطان مصطفى الثَّالث من السَّلاطين المجاهدين ، وقد تصدَّى للهجمات الرُّوسيَّة الصَّليبيَّة على الدَّولة ، وأنزل بهم هزائم عدَّةً ، وكان يرى بثاقب بصره ، وبُعْد نظره : أنَّ الدَّولة العثمانيَّة بدأت في عصر التَّراجع ، والسُّقوط ، وظهرت تلك الرُّؤية في شعره :

إنَّ الدُّنيا منهدمةٌ لا تظنُّ أنَّها تستقيمُ لنا .

جميعُ مراتِب الدَّولة بقيتْ في أيدي الأراذل .

وأنَّ السُّعداء اليومَ كلُّهم أدناء .

ونحنُ متوكِّلونَ على الله ِجلَّ جلاله .

كان هذا السُّلطان مهتمَّاً بالتَّاريخ الإسلامي عموماً ، وتاريخ الدَّولة العثمانيَّة خصوصاً .

لقد استمرَّت الحرب مع روسيا فترةً طويلةً حيث بدأت في عام ١٧٦٨م ، وانتهت في ١٧٧٤م ، وفقدت الدَّولة العثمانيَّة أراضي واسعةً ، ومهمَّةً ، وبدأ ظهور الضَّعف ، والتأخُّر ، والتَّخلُّف الحقيقي في الدَّولة ، ومرض السُّلطان مصطفى الثَّالث في حرب روسيا حزناً ، وتوفي وعمره يناهز ٥٧ عاماً تقريباً[١] . وتوفي الخليفة عام ١١٨٧هـ وتولَّى مكانه أخوه عبد الحميد الأوَّل[٢] .

الثاني عشر : السُّلطان عبد الحميد الأوَّل (١١٨٧ ـ ١٢٠٣هـ/ ١٧٧٣ ـ ١٧٨٨م) :

تولَّى الحكم عام ١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م بعد وفاة أخيه مصطفى الثَّالث ، وكان محجوزاً في قصره مدَّة حكم أخيه مصطفى الثَّالث ، استطاعت روسيا أن تحقِّق نصراً على العثمانيِّين في مدينة فارنا في بلغاريا على البحر الأسود ، وطلب الصَّدر الأعظم الصُّلح ، والمفاوضة ، وتمَّ ذلك في مدينة قينارجة في بلغاريا عام ١١٨٧هـ/ ١٧٧٤م[٣] ، وأهمُّ ما جاء فيها :

١ ـ إزالة العداوة بين الدَّولة العثمانيَّة وروسيا ، وحلول الصُّلح ، وصيانة

(١) انظر : السَّلاطين العثمانيُّون ، ص(٧٢) .
(٢) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، إسماعيل ياغي ، ص(١٢٣) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .

الاتِّفاقات من التَّغيير ، والعفو عن الجرائم الَّتي اقترفها رعايا الطَّرفين .

٢ ـ عدم حماية الرَّعايا الملتجئين ، أو الفارين ، أو الخونة ضمن شروط .

٣ ـ اعتراف الطَّرفين بحرِّيَّة بلاد القرم بلا استثناء ، واستقلالها ، ولهم الحرية التَّامَّة بانتخاب خانٍ لهم ، دون تدخُّلٍ ، ولا يؤدُّون ضريبةً . وباعتبارهم مسلمين فإِنَّ أمورهم المذهبيَّة تنظم من قبل السُّلطان بمقتضى الشَّريعة الإِسلاميَّة .

٤ ـ سحب القوات العثمانيَّة من القرم ، وتسليم القلاع ، وعدم إِرسال جنودٍ ، أو محافظٍ عسكريٍّ .

٥ ـ حرِّيَّة كلِّ دولةٍ في بناء القلاع ، والأبنية ، والتَّحصينات ، وإِصلاح ما يلزم منها .

٦ ـ تعيين سفيرٍ روسيٍّ في الآستانة من الدَّرجة الثَّانية ، والاعتذار له رسمياً عمَّا يحدث من خلل .

٧ ـ تعهُّد الدَّولة العثمانيَّة بصيانة الحقوق ، والكنائس النَّصرانيَّة في أراضيها ، ومنح الرُّخصة لإِصلاح الخلل .

٨ ـ حرِّيَّة زيارة رهبان روسيا للقدس ، والأماكن الأخرى الَّتي تستحقُّ الزيارة مرخصٌ بها دون دفع جزيةٍ ، أو خراجٍ ، ويعطون التَّسهيلات ، والحماية أثناء ذلك[١] .

٩ ـ حرِّيَّة الملاحة للرُّوس في كافَّة الموانئ العثمانيَّة في البحرين : الأبيض المتوسط ، والأسود مضمونةٌ ، وكذلك حرِّيَّة اتِّجار الرَّعايا الرُّوس في البلاد العثمانيَّة برّاً وبحراً مكفولةٌ ، وللتُّجار الرُّوس حرِّيَّة الاستيراد منها ، والتَّصدير إِليها ، والإِقامة فيها . ويحقُّ لروسيا تعيين القناصل في كلِّ المواقع الَّتي تراها مناسبةً .

١٠ ـ يجب على الدَّولة العثمانيَّة التَّعهُّد ببذل جهدها في كفالة حكومات الولايات الأفريقيَّة إِذا ما رغب الرُّوس بعقد معاهداتٍ تجاريَّة فيها .

١١ ـ يحقُّ للرُّوس بناء كنيسة على الطَّريق العام في محلَّة « بكل أوغلي » في غلطة بإِستانبول غير الكنيسة المخصَّصة ، وتكون تحت صيانة سفير روسيا ، وتؤمِّن

---

(١) انظر : العثمانيُّون والرُّوس ، د . علي حسن ، ص(٨٣) .

الصِّيانة الكاملة لها والحراسة التَّامَّة خوفاً من التدخُّل .

١٢ ـ إعادة بعض المناطق للدَّولة العثمانيَّة من روسيا بشروطٍ ، منها : العفو العام عن أهاليها ، وحرِّيَّة النَّصارى منهم من شتَّى الوجوه ، وبناء كنائس جديدة ، ومنح امتيازات للرُّهبان وحرِّيَّة الهجرة للأعيان ، وعدم التَّعرُّض لهم ، وإعفاؤهم من تكاليف الحرب ، والجزية .

١٣ ـ يردُّ الرُّوس جزائر البحر الأبيض المتوسط الَّتي هي تحت حكمهم للدَّولة العثمانيَّة الَّتي يجب أن تعفو عن أهلها ، وتعفيهم من الرُّسوم السَّنويَّة ، وتمنحهم الحرِّيَّة الدِّينيَّة ، وترخِّص لمن يريد منهم ترك وطنهم .

كما ذُكرت بنودٌ أخرى تتعلَّق ببعض المناطق في القرم ، وبتدابير الانسحاب ، وإخلاء الأفلاق ، والبوجاق ، والبغدان ، وبتسريح الأسرى ، وتعيين السُّفراء من أجل المصالحة ، وتعهَّدت الدَّولة العثمانيَّة بتأدية خمسة عشر ألف كيس لروسيا في مدَّة ثلاث سنين ، يدفع منها في كلِّ سنةٍ قسطٌ ، وهو خمسة آلاف كيسٍ(١) .

وحين التَّمعُّن في هذه الشُّروط يمكن ملاحظة ما يلي :

١ ـ إنهاء السَّيطرة العثمانيَّة على البحر الأسود ، وتهيئة الأسس الدِّبلوماسيَّة المقبلة للتدخُّل الرُّوسي في القضايا العثمانيَّة الدَّاخلية .

٢ ـ تمدُّد الحدود الرُّوسيَّة إلى نهر بوغ الجنوبي ، واشتمالها آزوف ، وسهوب كرش ، ونيكال في النِّهاية الشَّرقيَّة من شبه نهري : الدِّنيبر ، وبوغ ، وسهوب ، وكينبورن .

٣ ـ أصبحت بلاد القرم مستقلةً ، ورعاياها لا يلحقون الدَّولة العثمانيَّة إلا دينيّاً فقط .

٤ ـ أصبح لروسيا حقُّ بناء قناصل في أيِّ مكانٍ في الدَّولة العثمانيَّة ، والملاحة الحرَّة في مياهها .

٥ ـ سمحت المعاهدة للرُّوس بالحصول على الامتيازات ضمن البلاد العثمانيَّة ، تشمل الأرثوذكس في الأفلاق ، والبغدان ، وجزر بحر إيجة ، وبالتَّالي

---

(١) انظر : العثمانيُّون والرُّوس ، ص(٨٤) .

تحوَّلت روسيا إِلى حماية الأرثوذكس في أيِّ مكانٍ في الدَّولة العثمانيَّة[١] .

ولم يكتف الرُّوس الصَّليبيُّون بذلك ، بل واصلوا تآمرهم ، وفاجؤوا الدَّولة العثمانيَّة بدخول قوَّاتهم بلاد القرم ، وهي جزء من ولايات الدَّولة العثمانيَّة بسبعين ألف جندي غير مبالين بمعاهدة (كينارجه)[٢] .

وانبهرت ملكتهم كاترينا بهذا النَّصر ، وطافت ربوع القرم ، وأقيمت لها الزِّينات ، وأقواس النَّصر ؛ الَّتي كتب عليها (الطَّريق بيزنطة) . وثارت الدَّولة العثمانيَّة من جديد ، فأرسل الباب العالي مذكرةً إِلى السَّفير الرُّوسي بالآستانة ، وذلك في صيف عام ١٢٠٠هـ فيها عدَّة مطالب ، منها : التنازل عن حماية بلاد الكرج الَّتي تخضع للسِّيادة العثمانيَّة ، وتسليم حاكم الفلاخ العاصي للدَّولة ، ورفضت روسيا المذكَّرة فأعلن الباب العالي الحرب ، وسجن السَّفير الرُّوسي[٣] .

●● تحالف النِّمسا مع روسيا :

وكتبت كاترينا إِلى القائد العسكري بوتمكين بعدم انتظار العثمانيِّين ، والتقدُّم باتجاه مدينتي بندر ، وأوزي ، وتمكَّن نتيجة لذلك من دخول (أوزي) وعندها أعلنت النِّمسا الحرب على الدَّولة العثمانيَّة ، وحاول يوسف الثاني الإِمبراطور النِّمساوي احتلال بلغراد ، ولكنَّه عاد يجرُّ أذيال الخيبة منسحباً إِلى مدينة تمسوار ، والجيش العثماني يتعقَّبه ، حتَّى هزمه شرَّ هزيمةٍ .

●● وفاة السلطان عبد الحميد الأول وأثرها على الأحداث :

في هذه الآونة توفِّي السُّلطان عبد الحميد الأوَّل ، ووهنت عزيمة الجند ، ودخل اليأس قلوبهم ، واستغلَّ الأعداء ما حدث ، وتضافرت جهودهم لإِضعاف العثمانيِّين ، وتمكَّنوا من النَّصر في ٣١ تموز وفي ٢٢ أيلول عام ١٧٨٩م ، واستولى الرُّوس على مدينة بندر الحصينة ، واحتلُّوا معظم الفلاخ ، والبغدان ، وبسارابيا ، ودخل النِّمساويون بلغراد ، وبلاد الصِّرب الَّتي ردَّت بعد ذلك بمقتضى معاهدة زشتوي[٤] .

* * *

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٨٥) .
(٢) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . جمال ، ص(٨٢) .
(٣) انظر : العثمانيُّون والرُّوس ، ص(٨٦) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٨٧) .

المبحث السَّادس

السُّلطان سليم الثَّالث

(١٢٠٣ ـ ١٢٢٢هـ/ ١٧٨٨ ـ ١٨٠٧م)

تولَّى السُّلطة بعد وفاة عمِّه عبد الحميد الأوَّل عام ١٢٠٣هـ/ ١٧٨٨م وبدأت مرحلةٌ جديدةٌ من مراحل الحرب بين الدَّولة العثمانيَّة ، وأعدائها ، شرع في إحياء الرُّوح المعنويَّة في نفوس جنده ، واعتمد على تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، وما قامت به من أعمالٍ بطوليَّة ، ففي مراسم توليه عرش الدَّولة قام السُّلطان بإلقاء خطبةٍ حماسيَّة أمام قادة الدَّولة أشار فيها بما حقَّقته الجيوش العثمانيَّة من انتصاراتٍ في الماضي على أعدائها ، وتكلَّم عن سبب هزائمهم المتأخِّرة أمام أعدائهم ، وبيَّن أنَّها بسبب ابتعادهم عن دينهم ، وعدم اتِّباع كتابهم ، وسنَّة نبيِّهم ، وحثَّهم على ضرورة التَّضحية ، والجهاد ضدَّ أعدائهم ، والاعتماد على الله في كلِّ تصرُّفاتهم ، وطاعة أولي الأمر ، ومقاومة الأعداء الَّذين استولوا على أراضي المسلمين ، وقتلوا ، وسجنوا الآلاف منهم حتَّى تستعيد الدَّولة بلاد القرم منهم(١) .

أولاً : إصراره على الجهاد :

هذه الآمال عند السُّلطان سليم الثالث جعلته يرفض مساعي الصُّلح الَّتي قام بها سفراء إسبانيا ، وفرنسا ، وبروسيا ، وطلب من الصَّدر الأعظم يوسف باشا اتِّخاذ التَّرتيبات اللاَّزمة للتَّصدِّي لأعداء الدَّولة .

لقد أدرك السُّلطان المأساة الَّتي يعيشها شعبه من جرَّاء الهزائم المتوالية على الدَّولة العثمانيَّة ، ولكي يخفِّف من حدَّة الغضب ، والنُّفور ، رفض السُّلطان مساعي الصُّلح ، وقرَّر التوجُّه بنفسه على رأس جيشٍ نحو الدَّانوب .

وقام بزيادة مرتَّبات الجند ، وصرف مكافآتٍ إضافيةً تزيد عمَّا كانت عليه في عهد سلفه(٢) .

---

(١) انظر : تاريخ سياسي ، دولة عليَّة عثمانيَّة ، كامل باشا (٢/ ٢٥٠) .
(٢) انظر : تاريخ نوري في بيان أحوال دولت العليَّة ، ص(١١٠) .

ورأىٰ السُّلطان العثماني ضرورة تقوية مركزه بتعيين صديقه القديم حسين باشا الكريدلي قائدًا للأسطول العثماني ، ونقل خدمات القائد السَّابق حسن باشا إلىٰ قيادة الجيش البرِّيَّة في مُولدافيا ، وتعيينه حاكماً على مدينة « إسماعيل » وتكليفه في نفس الوقت بإعادة أوزي ، والتوجُّه بطريق البرِّ نحو القرم(١) .

وكان هذا التَّغيير في مناصب قيادة الجيش له أسبابه ، فمن جهةٍ كان القائد حسن باشا على خلافٍ مع الصَّدر الأعظم يوسف باشا ، عندما رأى : أنَّ إعلان الحرب على روسيا لم يكن في وقته المناسب ، وأنَّهم بحاجةٍ إلى الاستعداد التَّامِّ قبل دخول الحرب ، ومن جهةٍ أخرى فإنَّ إخفاق الجيش العثماني بقيادة حسن باشا في استعادة « أوزي » وعودته قبل الوقت المحدَّد قد أثَّر على نفسية السُّلطان ، فرأى ضرورة تغيير القيادة ، ولكنَّ السَّبب المعقول ، والأقرب إلى المنطق : أنَّ القائد الجديد كان من أصدقاء السُّلطان(٢) ، ممَّا يجعل تعيينه في منصب الصَّدر الأعظم سنداً قويّاً ، وتقويةً لمركزه أمام أعدائه في الدَّاخل والخارج(٣) .

أصبح السُّلطان سليم في موقف يحتِّم عليه المواجهة مع أعدائه ، وممَّا قام به في هذا الشَّأن تكليفه لصدره الأعظم يوسف باشا بالاهتمام بإقليم ولاشيا ، وحماية بلغراد من أيِّ هجومٍ في منطقة الكوبان بهدف إثارة تتار القوقاز ضدَّ روسيا ، ومساعدة الدَّولة العثمانيَّة لاستعادة بلاد القرم .

استبشر الصَّدر الأعظم بثقة السُّلطان سليم الثَّالث فيه ، وظنَّ كأنَّ النَّصر قريبٌ ، وكان يأمل أن يحقِّق أهداف الدَّولة المطلوبة منه(٤) .

ثانياً : هزيمة الجيوش العثمانيَّة :

عزَّزت القوَّات الرُّوسيَّة والنِّمساوية مواقعها ، واستنفرت جيوشها ، وأصبحت قوَّاتهم قريبةً من بلغراد مولدافيا ، ولم يستطع الصَّدر الأعظم من إبعاد الأعداء عن

---

(١) انظر : موقف أوربة من الدَّولة العثمانيَّة ، ص(٦٨ ، ٦٩) .
(٢) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، إسماعيل سرهنك ، ص(٢٣٥) .
(٣) انظر : موقف أوربة من الدَّولة العثمانيَّة ، ص(٦٩) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه .

بلغراد ، واضطرَّ السُّلطان لعزله ، وعيَّن حسن باشا بدله ، لقد مني يوسف باشا بهزائم متتالية على يد القائدين الرُّوسي « سواروف » ، والنِّمساوي « كوبرق » .

كان السُّلطان سليم الثالث حريصاً على استعادة القرم ، وتحقيق النَّصر على أعدائه ، ورأى البدء بإعادة بناء الجيش ، وأصدر أوامره للصَّدر الأعظم باتِّخاذ اللازم نحو تطوير الجيش ، ومتابعة الجهود في سبيل الإصلاح ، وإرسال حملةٍ عسكريَّةٍ إلى ساحة القتال ، ورأى السُّلطان دعم هذه التوجُّهات بعقد معاهدة صداقةٍ مع السُّويد ، تلتزم فيها الدَّولة العثمانيَّة بدفع مبالغ نقديَّة سنويَّة محدَّدة لمدة عشر سنوات مقابل أن تقاوم السُّويد روسيا من النَّاحية الشَّمالية ، واتفقتا أيضاً على مواصلة الحرب معاً ضدَّ روسيا ، وألا يقوم أيٌّ منهما بعقد معاهدة سلام مع دولةٍ أخرى دون علم الثَّانية[1] .

ثالثاً : موقف الدُّول الأوربيَّة من هذه المعاهدات :

كانت مواقف الدُّول الأوربيَّة من هذه المعاهدات متباينةً ، فروسيا رحَّبت بهذه المعاهدة ؛ وذلك لأنَّها كانت دائماً تحثُّ السُّلطان سليم الثالث على مواصلة الحرب خوفاً من أن تكون هي الأخرى من فرائس روسيا . وفرنسا لم تؤيِّد عقد المعاهدة ؛ لأنَّها على هذا الوضع لا تخدم السِّياسة الفرنسيَّة ، وأهدافها .

أمَّا بريطانيا ، فهي كما يقول الشَّاعر :

يُعْطِيْـكَ مِـنْ طَـرَفِ اللِّسَـانِ حَـلاوَةً   وَيَـرُوْغُ مِنْـكَ كَمَـا يَـرُوْغُ الثَّعْلَـبُ[2]

فهي وإن رضيت بالمعاهدة ، ورغبت في بقاء الدَّولة العثمانيَّة قويَّةً ، إلا أنَّها لا تفضِّل الوقوف جنباً إلى جنب مع الدَّولة العثمانيَّة ضدَّ روسيا ، أو النِّمسا ، ولا تفضِّل تقديم أيِّ نوعٍ من الدَّعم .

هذه المواقف الأوربيَّة يجب ألا تستغربها ، فهي طبيعيَّةٌ ؛ لأنَّ علاقاتها مع الدَّولة العثمانيَّة علاقات مصالح ، ومطامع فقط ، وإذا سعت بعض الدُّول الأوربيَّة إلى بقاء الدَّولة العثمانيَّة قويَّة الجانب ، فذلك ليس حباً فيها ، ولكنَّه هدفٌ لخدمة

(١) انظر : موقف أوربة من الدَّولة العثمانيَّة ، ص(٧١) .
(٢) انظر : تاريخ دولت عثمانيَّة ، عبد الرحمن شرف ، ص(٢١٠ ، ٢١١) .

أغراض سياسيةٍ تتعلَّق بتوازن القوى في القارة الأوربيَّة ، وتتعلَّق بالرَّغبة في الحفاظ على مصالحهم الاقتصاديَّة ، سواءٌ في داخل الدَّولة العثمانيَّة ، أو خارجها .

على الرَّغم من تأثير هذه المواقف الأوربيَّة على الاتِّجاه العامِّ لسياسة الدَّولة العثمانيَّة وتقدُّمها في المناطق الأوربيَّة ، لم ييأس السُّلطان العثمانيُّ ، وكان يحدوه الأمل بنجاح المهمَّة في حال توجيه الجيش ، فأصدر أمره بتحريك القوَّات العثمانيَّة عبر البغدان ، والأفلاق حتَّى وصلت مقدِّمات جيشه إلى نهر « رمينيك » عند حدود النِّمسا ، وهناك حدث ما لم يكن في الحسبان ، حيث تمكَّن الجيشان الرُّوسي والنِّمساوي من مباغتة الجيش العثماني على غفلةٍ ، وانتصرا عليه ، وسمِّيت تلك المواجهة بمعركة «يوزا» أو «رمينيك» نسبة إلى النَّهر الَّذي وقعت عنده المعركة[١] .

كان لهذه المعركة آثارها السَّيِّئة على الدَّولة العثمانيَّة ، فلم يعد هناك فرصةٌ لتنظيم الجيش ، فتوالت الهزائم على الدَّولة العثمانيَّة ، وتزحزحت إلى الوراء باتِّجاه شرق الدَّانوب ، وأعطت النِّمساويين الفرصة لفكِّ حصار بلغراد ، وفتح الطَّريق لقوَّات الحلفاء ، وطرد العثمانيِّين من أوربة[٢] .

لقد كانت الحملات الصَّليبيَّة على الأقاليم العثمانيَّة خلال الشُّهور الأخيرة من عام ١٧٨٩م من أفظع ما شهدته المناطق الحدوديَّة بين الطَّرفين ، ولذلك تميَّزت الفترة الَّتي أعقبت هذه الحملات بحالتين مختلفتين :

الأولى : وتتمثَّل في قيام نشاطٍ دبلوماسيٍّ ، وحركاتٍ دينيَّةٍ ، وسياسيَّةٍ في الأوساط الأوربيَّة تنذر بالخطر ، ممَّا جعل الدُّول القويَّة تبحث عن السَّلام ، وتنادي بإيقاف الحرب بين الدَّولة العثمانيَّة ، وعدوَّتها روسيا ، والنِّمسا .

ولاحت الثَّورة الفرنسيَّة في الأفق ، وبدأت أخطارها تظهر على مختلف الأصعدة في أوربَّة ، وأوجدت شعوراً قويّاً عند الدُّول الأوربيَّة ، ومعها روسيا بأنَّ الوقت قد حان للتَّعاطف مع الدولة العثمانيَّة خوفاً من استفحال الثَّورة النابليونيَّة ، وهيمنة فرنسا على شؤون القارة الأوربيَّة[٣] .

---

(١) انظر : تاريخ دولت عثمانيَّة ، عبد الرحمن شرف ، ص(١٢٠ ، ٢١١) .
(٢) انظر : موقف أوربة من الدَّولة العثمانيَّة ، ص(٧٣) .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص(٧٤) .

والثَّانية : هي ما شهدته الفترة من تطوُّراتٍ ، واستعداداتٍ عسكريَّةٍ جديدةٍ بسبب تلك الهزائم المتتابعة الَّتي لحقت بالدَّولة العثمانيَّة قبل وبعد معركة « يوزا » والَّتي أدَّت إلى إثارة السُّخط ، والغضب في أوساط الرَّعيَّة ، حتَّى ارتفعت الأصوات بتصحيح الأوضاع ، وإقالة الصَّدر الأعظم من منصبه(١) .

وتوالت الأحداث ، واستمرَّت الهزائم ، وضعفت الدَّولة العثمانيَّة ، ومع ظهور الثَّورة الفرنسيَّة رأت الدُّول الأوربيَّة ضرورة التوصُّل إلى معاهدةٍ مع الدَّولة العثمانيَّة لجمع الشَّمل الأوربيِّ أمام الحركة النابليونيَّة التَّوسُّعيَّة ، والأطماع الفرنسيَّة الَّتي أنستهم أطماعهم في أراضي الدَّولة العثمانيَّة كمرحلةٍ أولى ، ونجحت الدُّول الأوربيَّة في وساطتها ، وتمَّ عقد معاهدة « زشتوي المشهورة » في ٢٢ من ذي الحجَّة عام ١٢٠٥ هـ الموافق ٤ من أغسطس ١٧٩١م(٢) .

لمَّا تحقَّق لهم ذلك بقي عليهم المرحلة الثَّانية ، وهي وقف الحرب العثمانيَّة الرُّوسيَّة الَّتي بدون تحقيق ذلك سيكون موضوع المناطق في أوربة معرَّضاً للأخطار بسبب المغامرات النابليونيَّة ، أو بسبب تفوُّق روسيا على الدَّولة العثمانيَّة ، وبالتَّالي تسبِّب تهديداً لأوربة(٣) .

وكان وضع الدَّولة العثمانيَّة بسبب الأحداث الَّتي تعرَّضت لها له أثره على قوَّتها ، وعلى سير حملاتها نحو أوربة ، وجعلتها في موقفٍ لا يمانع من الموافقة على أيِّ أمرٍ قد يؤدي إلى السَّلام ، وبأيِّ شروط ، وكانت تلك الأحداث مساعدةً في مهمَّة الوسطاء ، فتوصَّلوا بعد مفاوضاتٍ مع كلٍّ من روسيا والدَّولة العثمانيَّة ، إلى عقد معاهدة سلام بينهما في مدينة ياش ، وذلك بتاريخ ١٥ جمادى الأولى عام ١٢٠٦هـ ، الموافق التَّاسع من شهر يناير عام ١٧٩٢م .

*** كان من أهم بنود هذه المعاهدة :**

١ـ تبادل أسرى الحرب ، والسَّماح للرَّعايا الَّذين يعيشون خارج دولتهم بسبب

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٧٤) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٨٢) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٨٣) .

الأزمات السِّياسيَّة ، بالعودة إلى بلدانهم الأصليَّة ، أو البقاء حسب رغباتهم .

٢ـ تتنازل الدَّولة العثمانيَّة لروسيا عن ميناء أزوف ، وبلاد القرم ، وشبه جزيرة طمان ، وبلاد القويان ، وبساربيا ، والأقاليم الواقعة بين نهري بجد ، والدِّينستر ، ويكون النَّهر الأخير حداً فاصلاً بين الدَّولتين .

٣ـ تُرجع روسيا للدَّولة العثمانيَّة مناطق : البغدان ، وأكرمان ، وكيلي ، وإِسماعيل مقابل أن تقوم الدَّولة بإِعفاء رعايا البغدان من الضَّرائب ، وعدم مطالبة روسيا بتعويضات حرب ، أو ما شابه ذلك .

٤ـ يمنع الباب العالي رعايا دولته من الغارات على محافظتي : تفليس ، وكاتالينا الرُّوسيتين ، وعلى السُّفن الرُّوسية في البحر المتوسط ، وعليه القيام بدفع تعويضاتٍ لأيِّ أضرارٍ تحدث بعد ذلك من قبل رعايا الدَّولة العثمانيَّة(١) .

وحققت تلك المعاهدة وقف الحرب الرُّوسية العثمانيَّة ، وتحقَّقت أهداف الدُّول الأوربيَّة ، وأهمها إِيقاف الحرب في زمنٍ كانت أوربة تعيش فيه انطلاق الثَّورة النَّابليونيَّة ، وتخشى تطوُّرها على أنظمة الحكم فيها ، وهكذا ضاعت آمال الدَّولة العثمانيَّة ، وضاعت معها تلك المناطق الَّتي كانت تحت نفوذها ، حتَّى أصبح البحر الأسود تحت رحمة العلم الرُّوسي وأصبحت موانئه العثمانيَّة مثل أزوف ، وأوديسا ، وسيفاستبول قواعد للأسطول الرُّوسي ، وأصبحت مصبَّات الأنهار العظيمة مثل الدَّانوب ، وبج ، والدنيستر ، وبروت ، وحركتها الملاحيَّة تحت تصرُّف روسيا .

وهكذا قلصت هذه المعاهدة حدود الدَّولة العثمانيَّة في أوربة ، وأعطت في نفس الوقت الصِّفة التَّنازلية الشَّرعية من مكتسباتها لأعدائها .

وهكذا خطت الدُّول الأوربيَّة خطواتٍ ساهمت في القضاء على الكيان العثمانيِّ في أوربة ، وكأنَّها بذلك أنهت المشروعات الكثيرة(٢) الَّتي نادى بها السَّاسة ، والمفكِّرون الأوربيُّون ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة منذ قرونٍ طويلةٍ ، وكانت القوى

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٨٣) .
(٢) انظر : موقف أوربة من الدَّولة العثمانيَّة ، ص(٨٦) .

الصَّليبيَّة ، والقوى الاستعماريَّة ، والقوى اليهوديَّة تعمل في مثابرةٍ ، وتنظيمٍ نحو الهدف المنشود ، وكأنَّها : (شركة عالميَّة يتبادل فيها المؤسِّسون الأوربيُّون النَّظرات الشَّذراء ، قد يختلفون معاً ، ولكنَّهم متَّفقون على آل عثمان ، وكلٌّ منهم متحفِّزٌ للنَّهش ، والقضاء ، والابتلاع)[١] .

وإن كانت معاهدة ياش قد أنهت المواجهات الرُّوسيَّة العثمانيَّة لفترةٍ مؤقَّتةٍ إلا أنَّها في حقيقة الأمر بدايةٌ لنهايةٍ أكثر فاجعةً من الأولى[٢] .

رابعاً : الإصلاح الدَّاخلي والمعارضة :

وبعد هدوء القتال انصرف سليم الثَّالث للإصلاحات الدَّاخلية ، فبدأ بتنظيم الجيش للتخلُّص من الإنكشاريَّة الَّذين أصبحوا سبب كلِّ فتنةٍ ، واتَّجه نحو تقليد أوربة الَّتي تجاوزتهم كثيراً ، فاهتم بصناعة السُّفن ، والأسلحة خاصَّةً المدافع على الطَّريقة الفرنسيَّة ، وشهد عهده بدايات التَّعليم العسكري الغربي .

ونظراً لإقدام السُّلطان سليم على الإصلاحات وإنشاء فرقة النِّظام الجديد ؛ فقد أثار جنود الإنكشاريَّة ، وساندهم الأعيان ضدَّ النظام الجديد ، ورغم أنَّ السُّلطان أصدر أمراً بإلغاء النِّظام العسكري الجديد ، إلا أنَّ الثُّوار قرَّروا عزل الخليفة ، وخلعه من الحكم[٣] ، وتولَّى بعده ابن عمِّه مصطفى الرَّابع الحكم مرشح المحافظين ؛ الَّذي أصبح دميةً في أيدي مَنْ عيَّنوه على السَّلطنة ، ثمَّ صدرت مراسيم سلطانيَّة ألغت النِّظام الجديد ، وكل المدارس ، والمؤسَّسات والإصلاحيات المرتبطة به ، ورغم ذلك فقد حدثت مشاكل في عهده أدَّت إلى الإطاحة به[٤] .

خامساً : الغزو الفرنسي الصَّليبي على الدَّولة العثمانيَّة في مصر (١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م) :

انتهز أعداء الإسلام تدهور الدَّولة العثمانيَّة ، فاستغلت فرنسا ذلك الضَّعف ،

(١) المسألة الشَّرقية للشاذلي ، ص(١٢٢) .
(٢) انظر : موقف أوربة من الدَّولة العثمانيَّة ، ص(٨٦) .
(٣) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . إسماعيل ياغي ، ص (١٢٧) .
(٤) انظر : قراءة جديدة لسياسة محمَّد علي التَّوسُّعيَّة ، د . سليمان غانم ، ص(١٢) .

وأرسلت حملتها المشهورة بقيادة القائد المشهور نابليون بونابرت ، كانت تلك الحملة صدىً للثَّورة الفرنسيَّة ، ومتأثِّرةً بأفكارها الثَّورية ، وقد اصطحب نابليون معه مجموعةً كبيرةً من العلماء الفرنسيِّين في حملته هذه بلغ عددهم (١٢٢) عالماً ، وهو عددٌ يزيد عن أضعاف العدد الَّذي اعتاد أن يصحبه في حملاته الأوربيَّة .

وقد تأثَّر فكر هؤلاء العلماء في الغالب بالدَّور الفرنسي الَّذي يسعى لإصلاح الكنيسة الكاثوليكيَّة ، ويعادي حركات الإصلاح البروتستانتيَّة منذ بداية القرن السَّادس عشر ، ثمَّ تأثروا في الفترة السَّابقة لقدومهم إلى الشَّرق بأفكار روسُّو ، وفولتير ، ومونتسكيو أبرز مفكِّري الثَّورة الفرنسيَّة ، والمعروفين بانتمائهم للمحافل الماسونيَّة اليهوديَّة من خلال ما رفعوه من شعارات (الحرِّيَّة ، الإخاء ، المساواة) ، وهي أفكارٌ ، واتجاهاتٌ تعادي في مجموعها الدِّين ، والأفكار المستمدَّة منه بشكلٍ عامٍّ ، وبالتَّالي فإنَّه من السَّذاجة أن نقبل ما يروِّجه كتَّاب التَّاريخ من أنَّ الهدف الرَّئيسي لهذه الحملة كان مقصوراً على ضرب المصالح البريطانيَّة في الشَّرق ، فمثل هذا الهدف لا يحتاج إلى هذا الحشد الهائل من العلماء[١] ، فكان إلى جانبه هدفُ إقامة إمبراطوريَّةٍ فرنسيَّةٍ في الشَّرق إرضاءً لطموحات الطَّبقة البرجوازيَّة فيها ، والَّتي تسلَّلت إلى الحكم في أعقاب الثَّورة ، وإرضاءً للكنيسة ؛ الَّتي وإن كانت الثَّورة قد وجَّهت لها بعض الضَّربات بشكلٍ أضعف دورها داخل فرنسا عن ذي قبل ، إلا أنَّها ظلَّت لها تأثيرها الواسع والفعَّال على كثيرين من أبناء الشَّعب الفرنسي ، فضلاً عن الدَّور الَّذي كانت تقوم به في تدعيم النُّفوذ الفرنسي في المستعمرات وكذلك في الشَّرق الإسلامي ، ومن هنا كانت أهداف الحملة خليطاً من أهداف اقتصاديَّة ، وتوسعيَّة ، وسياسيَّة ، ودينيَّة ، أو بالأحرى غزو عسكريٌّ ، وفكريٌّ ، ولهذا اصطحب نابليون معه في حملته هذا الحشد الهائل من العلماء[٢] .

* * *

(١) انظر : قراءة جديدة في تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ص(١٤١ ، ١٤٢) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .

المبحث السَّابع

جذور الحملة الفرنسيَّة الصَّليبيَّة

لا شكَّ أنَّ هؤلاء المستعمرين كانوا عالمين بطبيعة وأحوال المسلمين في مصر من خلال وسائلهم المتعدِّدة ، منها ما قام به الرَّحالة الفرنسيِّين (الجواسيس) الَّذين أكثروا من رحلاتهم خلال القرنين السَّابع عشر ، والثَّامن عشر ، وكانوا على صلةٍ بالعناصر القبطيَّة المسيحيَّة ، واليهوديَّة ، وبعض عناصر المماليك في مصر ، ودرسوا كلَّ الجوانب السِّياسيَّة ، والاقتصاديَّة ، والفكريَّة ، والعسكريَّة بأدقِّ التَّفاصيل ، ومما يدلُّنا على ذلك حرصهم الشَّديد في ترويج أفكارهم فترة بقاء الحملة ، وحتَّى بعد رحيلها ، وزرعهم للمحافل الماسونيَّة اليهوديَّة في مصر الَّتي أصبحت على صلةٍ وثيقةٍ بمحمَّد علي باشا فيما بعد ، لقد كانت خطوات الحملة الفرنسيَّة مدروسةً بعنايةٍ شديدةٍ قبل القدوم ، ولم تكن مفاجئةً ، وحتَّى اكتشاف حجر الرَّشيد الأثري ، وفكِّ رموز اللُّغة الهيروغليفيَّة للمصريين القدماء ، فإنَّه إذا كان مفاجئاً ـ وهو أمرٌ ما زال يحتاج إلى بحثٍ ـ فإنَّ العناية بهذا الحدث ، والتَّرويج له ، وما تبعه من فكِّ رموز لغة الفراعنة ، واستخدامه كان أمراً مدروساً بعنايةٍ كذلك ، وكان يدور في إطار الأهداف الكلِّيَّة لهذه الحملة المعلن منها ، وغير المعلن ، ويشير المؤرِّخ المسلم عبد الرحمن الجبرتي الَّذي عاصر هذه الحملة إلى هذه الأمور في معرض حديثه عن المعهد العلمي الَّذي أنشأه الفرنسيُّون في حارة « النَّاصريَّة » فيقول :

(وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممَّن يريدون الفرجة لا يمنعونه الدُّخول إلى أعزِّ أماكنهم ، ويتلقَّونه بالبشاشة ، والضَّحك ، وإظهار السُّرور بمجيئه إليهم ؛ خصوصاً إذا رأوا فيه قابليَّةً ، أو معرفةً ، أو تطلُّعاً للنَّظر في المعارف ، والأقاليم ، والحيوانات ، والطُّيور ، والنَّباتات ، وتواريخ القدماء ، وسير الأمم ، وقصص الأنبياء ، وبتصاويرهم ، وآياتهم ، ومعجزاتهم ، وحوادث أممهم ممَّا يحير الأفكار)[1] .

---

(١) انظر : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٣/ ١٢٠) .

أولاً : سرُّ قوَّة المسلمين :

كان الفرنسيُّون ـ والغربيُّون بصفةٍ عامَّةٍ ـ يدركون : أنَّ السِّرَّ في قوة المسلمين يتمثَّل في جانبين هامَّين : الأوَّل هو تمسُّكهم بالدِّين ، والثَّاني في وحدة بلادهم في ظلِّ حكومةٍ إسلاميَّةٍ مطاعةٍ مهابةٍ ، وقد أكَّد رجال الحملة الفرنسية إدراكهم لهذين العاملين حين أعلن نابليون وبعض رجاله[١] اعتناقهم للإسلام ، واحترام تعاليمه ، وزواجهم من مسلماتٍ كي يتَّخذوا من ذلك ذريعةً للتقرب للعوام أملاً في الاستقرار ، وقد بدا ذلك واضحاً في المنشور الأوَّل الَّذي أعلنه نابليون على شعب مصر ، حيث ذكر :

(أيُّها المصريُّون قد قيل لكم : إنَّني ما نزلت لهذا الطَّرف إلا بقصد إزالة دينكم ، فذلك كذبٌ صريحٌ ، فلا تصدِّقوه ، وقولوا للمغترِّين إنَّني ما قصدتُ إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظَّالمين ، وإنَّني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى ، وأحترم نبيَّه ، والقرآن العظيم)[٢] .

كما سعى رجالُ الحملة إلى زعزعة الدِّين في نفوس الشُّيوخ والعلماء المسلمين بعرض نماذج من الحضارة الغربيَّة عليهم . أمَّا العامل الثاني ، وهو الرَّامي إلى تمزيق وحدتهم ؛ فقد بدا واضحاً في سعي الفرنسيِّين لتجنيد قوَّةٍ مسلَّحةٍ من مسيحيي مصر قادها « المعلم يعقوب » لمساعدة الحملة في ضرب الثَّورة الشعبيَّة التي قادها العلماء ، والوقوف أمام قوَّات الخلافة العثمانيَّة الإسلاميَّة[٣] .

ثانياً : تفجير الجيوب الدَّاخليَّة :

نجح الفرنسيُّون في استثارة العناصر القبطيَّة المسيحيَّة على معاونة الحملة بمختلف الوسائل ، واعتبر بعض الكتَّاب المسحيِّين : أنَّ الفائدة الَّتي جنتها مصر خلال سنيِّ الحملة الثلاث أكثر من القرون الطَّويلة للحكم العثماني ، وقد أشاد البعض من هؤلاء العملاء بدور الخسَّة ، والنَّذالة الَّذي قام به المعلِّم يعقوب في

---

(١) انظر : قراءة جديدة في تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، ص(١٤٣) .
(٢) انظر : الصِّراع الفكري بين أجيال العصور الوسطى ، والعصر الحديث للعدوي ، ص(٨٣) .
(٣) انظر : قراءة جديدة في تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، ص(١٤٤) .

تعاونه مع الفرنسيِّين ضدَّ العثمانيِّين ، واعتبروه « تعاوناً يستحقُّ بموجبه أن يقام له تمثالٌ من ذهب في أكبر ميادين القاهرة ، ويكتب عليه : أنَّه أوَّل من نادى باستقلال مصر في العصر الحديث »[١] .

كان هذا الموقف من النَّصارى معادياً لرغبة الأغلبيَّة المسلمة بنفس القدر ما يمكن إدراكه من اتِّجاه أغلب المفكِّرين النَّصارى العدائيِّ للأغلبيَّة المسلمة في مصر المعاصرة ، والَّذي يبدو جليَّاً في تأييدهم لخيانة بلادهم طالما هي ضدَّ الوجود الإسلاميِّ ، وحتَّى بمفهوم الوحدة الوطنيَّة الَّذي يسعون للتمسُّح به ، فإنَّ « المعلِّم يعقوب » يعدُّ من أبرز الَّذين خانوا بلدهم ، وعلى أيَّة حال كانت هذه الحادثة بدايةً لما عرف في التَّاريخ المصريِّ باسم الفتنة الطَّائفية[٢] .

لقد قامت الأقلِّيات غير الإسلاميَّة من النَّصارى ، واليونان بمعاونة الاحتلال الفرنسي ، وقد علَّق على ذلك الأستاذ الدُّكتور عبد العزيز الشِّنَّاوي : (أسرفت بعض الطَّوائف غير الإسلاميَّة في مصر في تأييد الفرنسيِّين إسرافاً وصل إلى حدِّ تكوين فرقةٍ عسكريَّةٍ من أبناء هذه الطَّوائف ، وقام الضُّبَّاط ، والجنود الفرنسيُّون بتدريبهم على النُّظم العسكريَّة الأوربيَّة وتزويدهم بالأسلحة الحديثة ، ثمَّ ألحقت هذه الفرق بجيش الاحتلال الفرنسي لسدِّ النَّقص في عدده ، نتيجة المعارك الَّتي خاضها في مصر ، والشَّام ، وإخماد الثَّورات الشَّعبيَّة ، وفتك الطَّاعون وغيره من الأمراض الوبائيَّة بالجنود الفرنسيِّين . وقد نظر الشَّعب المصريُّ إلى هذه الفرق على أنَّها أدواتٌ لدعم الاحتلال الفرنسي لمصر ، وتزعَّم هذه الفرق المعلِّم « يعقوب حنَّا » إذ كانت فرقاً عسكريَّة من الأقباط ، وكانوا يرتدون زياً مشابهاً لزي الجنود الفرنسيِّين ، وقلَّده « كليبير » قيادة هذه الفرقة ، ومنحه رتبة آغا ، ثمَّ رقِّي على عهد « مينو » إلى رتبة لواء (جنرال) ومنحه رسمياً لقب القائد العام للفيالق القبطيَّة بالجيش الفرنسيِّ)[٣] .

ورغم المقاومة الشَّديدة والحركة الجهاديَّة بقيادة علماء الأزهر ، فقد استطاعت القوَّات الفرنسيَّة بمعاونة « المعلِّم يعقوب » المصري من احتلال مصر ، وارتكبت من الفظائع ما يستلزم أن يفرد له صفحاتٌ من تاريخ هذه الفترة ، لترى الأجيال كم

---

(١) انظر : تاريخ الفكر المصري الحديث د . لويس عوض (١/ ١٨٠ ـ ١٨٨) .
(٢) انظر : قراءة جديدة في تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، ص(١٤٤) .
(٣) الدَّولة العثمانيَّة دولة إسلاميَّة (٢/ ٩٣٨) وما بعدها .

من القرى أُحرقت ، وكم من الدُّور والأموال قد سُرقت ، وكم من أعراض النِّساء الحرائر انتُهكت ، وكم من الأسر قد شرِّدت على يد فرنسا زعيمة الحرِّيَّة ، والإخاء ، والمساواة ، والإنسانيَّة .

وبعد احتلال القاهرة واصل نابليون احتلاله لبقيَّة مدن مصر ، « وغزَّة » والرَّملة ، ويافا ، وقد حاول احتلال عكَّا ، ولكن يقظة أهلها بقيادة أحمد باشا الجزَّار حالت بين نابليُون الصَّليبي وبين ما يشتهي .

وحينما وصل نابليون الصَّليبي إلى عكَّا أصدر بياناً إلى يهود العالم مُطلقاً عليهم اسم « الورثة الشَّرعيين لفلسطين » لإقامة دولةٍ يهوديَّة على أرض فلسطين . ألا يكشف ذلك عن علاقةٍ وثيقةٍ بين نابليُون الَّذي تستَّر بالإسلام ، واليهود الَّذين خطَّطوا ، وقاموا بما تسمَّى الثَّورة الفرنسيَّة[١] ؟!

ثالثاً : السُّلطان سليم الثَّالث يعلن الجهاد ضدَّ فرنسا :

كان الهجوم الفرنسي على مصر يُعتبر أوَّل هجوم صليبي على ولاية عربيَّة من ولايات الدَّولة العثمانيَّة في التَّاريخ الحديث ، وعلى الفور أعلن السُّلطان سليم الثَّالث الجهاد على الفرنسيِّين الصَّليبيِّين (١٢١٣هـ/١٧٩٨م) واستجاب لدعوته المسلمون في الحجاز ، والشَّام ، وشمال أفريقية ، فمن الحجاز خرجت جموعٌ من المسلمين بقيادة محمَّد الكيلاني ، يقول الجبرتي في حوادث (شهر شعبان عام ١٢١٣هـ/٨ يناير إلى ٥ فبراير عام ١٧٩٩م) : (لمَّا وردت أخبار الفرنسيِّين إلى الحجاز ، وأنَّهم ملكوا الدِّيار المصريَّة ؛ انزعج أهل الحجاز ، وضجُّوا بالحرم ، وأنَّ الشَّيخ الكيلاني صار يعظ النَّاس ، ويدعوهم إلى الجهاد ، ويحرِّضهم على نصرة الحقِّ والدِّين ، فاتَّعظ جملةٌ من النَّاس ، وبذلوا أموالهم ، وأنفسهم ، واجتمع نحو السِّتمئة من المجاهدين ، وركبوا البحر إلى القصير مع ما انضمَّ إليهم من أهل ينبع ، وخلافه ، وكان مسلمو الحجاز خصوماً أشدَّاء للجنرال « ديزيه » الَّذي عهد إليه « بونابرت » غزو الصَّعيد ، والقضاء على قوَّات الجهاد بقيادة « مراد بك » ، وقد صمَّموا على الظَّفر بإحدى الحسنيين : الاستشهاد ، أو الانتصار ،

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . جمال عبد الهادي ، ص(٨٦) .

واتخذوا شعاراً لهم الآية القرآنيَّة : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٤١] .

وتكوَّنت منهم ومن مسلمي الوجه القبلي في « مصر » وخاصَّة عرب « الهوَّارة » وأهالي النوبة ، وقوَّات « مراد بك » جبهةً حربيَّةً إسلاميَّة في مواجهة جبهةٍ حربيَّة نصرانيَّةٍ كانت تتألَّف من القوَّات الفرنسيَّة ، النَّهريَّة ، والبرِّيَّة ، والفيالق القبطيَّة بقيادة المعلِّم « يعقوب حنَّا » في الجيش الفرنسيِّ[1] .

رابعاً : استجابة المهدي الدِّرناوي اللِّيبي لنداء الجهاد ضدَّ فرنسا :

حرَّكته الغيرة الإسلاميَّة ، والحميَّة الدِّينيَّة ، فقام بدعوة مسلمي شرق ليبيا إلى الجهاد في سبيل الله تعالى ، فأقبل عليه النَّاس أفواجاً مثل قبائل أولاد علي ، والهنادي ، وغيرهم ، كما انضمَّ إليه سكَّان القرى الَّتي مرَّ بها ، وسار بهذه الجموع حتَّى بلغ دمنهور (١٢١٤هـ/ أبريل عام ١٧٩٩م) وكانت تعسكر بها حاميةٌ فرنسيَّة أبادها المهدي عن بكرة أبيها ، وكان لانتصار الدِّرناوي اللِّيبي على الفرنسيِّين الكفَّار صدى كبيرٌ ، ممَّا دفع حاكم الإسكندريَّة العسكري الفرنسي الجنرال « مارمون » الَّذي أرسل نجدةً مزوَّدةً بالمدفعيَّة لتعقُّب المهدي ولكنَّها هزمت أيضاً ، فأرسل قواتٍ أخرى من رشيد ، ودارت معركة « سنهور » ، وكانت من أشدِّ المعارك هولاً ، ومن أعنف الوقائع الَّتي واجهها الفرنسيُّون في « مصر » ، واستمرَّ القتال سبع ساعات ، انتهت بانتصار المهدي الدِّرناوي ، وانسحب الفرنسيُّون إلى الرَّحمانية[2] ، وقيل : إنَّ المهدي الدِّرناوي ادَّعى المهدية .

وقد علَّق على ذلك أحد المؤرِّخين بقوله :

« واعترف نابليُّون بأهميَّة العازل الدِّينيِّ بين الفرنسيِّين ، والشعب المسلم ، وخلص إلى رأي : أنَّ الحرب ضدَّ المسلمين تعتبر حرب الاستنزاف ضدَّ الفرنسيِّين ، ولم يمكن التَّغلُّب عليها ، وقال آخر : إنَّ المصريِّين وصفوا « بونابرت » بأنَّه نصرانيٌّ ابن نصرانيٍّ »[3] .

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة دولةٌ إسلاميَّة (٢/ ٣٩) .
(٢) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . جمال عبد الهادي ، ص(٩٠) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .

وبرغم كلِّ وسائل التودُّد فقد أبدى المصريُّون عدم تقبُّلهم للفرنسيِّين ، وعبَّر الجبرتي عن هذه المشاعر حين اعتبر سني الاحتلال الفرنسي لمصر « أولى سني الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقائع النَّازلة ، والنَّوازل الهائلة ، وتضاعف الشُّرور ، وترادف الأمور ، وتوالي المحن ، واختلاف الزَّمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع ، وتتابع الأهوال ، واختلاف الأحوال ، وفساد التَّدبير ، وعموم الخراب ، وتواتر الأسباب ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾[1] [هود ١١٧] .

وقد ذكر الأستاذ الدُّكتور الشِّنَّاوي جملة حقائق تتعلَّق بالحملة الفرنسيَّة على مصر :

● إنَّ الشَّعب المصريَّ بقيادة علماء الأزهر ينظرون إلى الغزوة الفرنسيَّة على أنَّها غزوةٌ صليبيَّةٌ تستهدف دينهم ، وتستهدف الخلافة الإسلاميَّة .

● إنَّ ما تسمَّى بثورة القاهرة الأولى ، والثَّورة الثانية ، لم تكن في الحقيقة إلا حركةً جهاديَّةً تستهدف إنهاء الحكم الفرنسي النَّصراني لمصر ، وإعادة « مصر » إلى حظيرة الخلافة العثمانيَّة الإسلاميَّة .

● إنَّ العثمانيِّين ، والمماليك كانوا مسلمين ، وإنَّ مصر حينما كان يحكمها المماليك ، إنَّما كانوا يحكمونها باسم السُّلطان العثماني المسلم .

● إنَّ سكَّان الولايات العربيَّة لم ينظروا إلى السُّلطان العثمانيِّ على أنَّه سلطان المسلمين فحسب ، بل نظروا إليه على أنَّه خليفة المسلمين[2] .

خامساً : الإنجليز وأطماعهم في مصر :

كانت بريطانيا تتابع الأطماع الفرنسيَّة في مصر ، وغيرها بدقَّةٍ متناهيةٍ ، وعندما تحرَّكت الحملة الفرنسيَّة ، ووصلت إلى مصر ؛ أرسلت أسطولاً بقيادة الأميرال نيلسون لتعقُّب الحملة الفرنسيَّة ، وفاجأ نيلسون الأسطول الفرنسي وهو رابضٌ في

---

(١) عجائب الآثار (٣/ ١) .
(٢) انظر : الدَّولة العثمانيَّة دولةٌ إسلاميَّة مفترى عليها (٢/ ٩٤٣) .

خليج أبي قير بعد أن أنزل قوّات الحملة في الإسكندريَّة ، واشتبك معه في معركةٍ أدَّت إلى إغراقه في أوّل أغسطس ١٧١٨م ، وقد كان لمعركة أبي قير البحرية نتائج خطيرة من أهمها :

١ـ كبدت البحريَّة الفرنسيَّة خسارةً جسيمة قضت على كلِّ أملٍ في إمكان إحيائها ، فظلَّ الإنجليز أصحاب السَّيطرة في البحار .

٢ـ فرض الإنجليز حصاراً شديداً على الشَّواطىء المصريَّة المطلَّة على البحر المتوسط ، حتَّى أصبح من المتعذِّر تماماً على فرنسا أن ترسل النَّجدات إلى جيشها في مصر .

٣ـ اضطر الفرنسيُّون في مصر إلى الاعتماد اعتماداً كلِّيّاً في تدبير شؤونهم وسدِّ حاجتهم في هذه البلاد على مواردها الدَّاخليَّة وحدها ، وكان لذلك أكبر الأثر في اتِّباع بونابرت لما عُرف « بالسِّياسة الإسلاميَّة الوطنية » الَّتي كان هدفها توفير أسباب الحياة للفرنسيين وترويض المصريِّين بشتَّى الأساليب على قبول حكمٍ أجنبيٍّ عنهم ، ولقد اعتمدت السِّياسة الفرنسيَّة ثلاث دعائم :

١ـ التَّظاهر باحترام الدِّين الإسلامي ، والمحافظة على تقاليد أهل البلاد ، وعاداتهم .

٢ـ محاولة انتزاع المصريِّين من أحضان الخلافة العثمانيَّة .

٣ـ إنشاء حكومةٍ وطنيَّة من « عقلاء » وأفاضل المصريِّين(١) .

غير أنَّ هذه السِّياسة فشلت فشلاً ذريعاً في تحقيق أهداف بونابرت ، والدَّليل على ذلك تلك المقاومة الإسلاميَّة الشَّديدة الَّتي انطلقت تقاتل جنوده أينما ساروا ، أو حلَّوا في الدَّلتا ، والصَّعيد ، ثمَّ الثَّورة التي قام بها المسلمون في القاهرة (حركة الجهاد الأولى) .

وكان بونابرت وقت اندلاع المعركة خارج القاهرة ، فعاد إليها مسرعاً ، ونصب المدافع على تلال المقطم لتعاون مدافع القلعة في إطلاق القنابل على حيِّ الأزهر مركز حركة الجهاد وشعلتها المتأجِّجة .

---

(١) انظر : العالم العربي في التَّاريخ الحديث ، د . إسماعيل ياغي ، ص(٢٠٩) .

ويؤخذ من رواية الجبرتي ومن رواية الفرنسيِّين أنفسهم : أنَّه في اليوم الثاني للثَّورة (٢٢ أكتوبر) حين شرع الثُّوار في مهاجمة مقرِّ القيادة الفرنسيَّة العامَّة بحي الأزبكيَّة كان الجنود الفرنسيُّون يهاجمون الجامع الأزهر ، ثمَّ دخلوه ، وهم راكبون الخيول ، وسلبوا ما كان فيه من الودائع ، وألقوا الكتب والمصاحف على الأرض ، وداسوها بأرجلهم ، ونعالهم ، وظلَّ الجنود الفرنسيُّون يحتلُّون الأزهر حتَّى ذهب وفدٌ من مشايخه إلى بونابرت يطلبون منه الجلاء عنه ، فكان ذلك نهاية للثَّورة الَّتي استمرَّت ثلاثة أيام (٢١ ـ ٢٣ أكتوبر ١٧٩٨م) ، وانتقم الفرنسيُّون من المسلمين في القاهرة وضواحيها أبشع انتقام ، فنهبوا ديار حي الأزهر ، والأحياء المجاورة ، وأعدموا صغار المشايخ الذين حرضوا على الثورة ، وصادروا ممتلكاتهم ، وأحاطوا بالقاهرة وضواحيها بالحصون ، والقلاع ، والمعاقل ، وهدموا في سبيل ذلك الشَّيء الكثير من المنازل ، والقصور[١] .

سادساً : العثمانيُّون وسياستهم الدَّوليَّة :

كانت هزيمة الأسطول الفرنسي في موقعة أبي قير البحريَّة قد شجَّعت الباب العالي على مهاجمة الحملة الفرنسيَّة في مصر ، فأعلن الحرب على فرنسا ، وأصدر أوامره بإلقاء القبض على القائم بأعمال السَّفارة الفرنسيَّة ، وجميع رعايا فرنسا في العاصمة العثمانيَّة ، وإلقائهم في السُّجون ، ولم تلبث وزارة الخارجيَّة العثمانيَّة أن دخلت مع إنجلترا من جهةٍ ، ومع روسيا من جهةٍ أخرى في مفاوضاتٍ أسفرت عن عقد محالفةٍ دفاعيَّة هجوميَّة بين روسيا ، وتركيا (٢٥ ديسمبر ١٧٩٨م) وعن عقد محالفةٍ أخرى بين إنجلترا ، وتركيا (٥ يناير ١٧٩٩م) ، وكان العثمانيُّون يقومون في بلاد الشَّام باستعداداتٍ جهاديَّةٍ ضدَّ الحملة الفرنسيَّة في مصر ، مما جعل بونابرت يتَّخذ قراراً بأن يسبق أعداءه في شن هجوم عليهم قبل أن يهاجموه ، فكانت حملته على بلاد الشَّام (فبراير ـ يونيو ١٧٩٩م) الَّتي تمكنت من ضرب القوات العثمانيَّة المتجمِّعة هناك ، إلا أنَّها لم تستطع أن تحطِّم قوات أحمد باشا الجزَّار بسبب فشلها في الاستيلاء على عكَّا ، وبعد عودة الحملة إلى مصر انتصر بونابرت في معركة

---

(١) عجائب الآثار (٣/١٨) .

أبي قير البرِّيَّة ٢٥ يوليو ١٧٩٩م على قوَّةٍ عثمانيَّة اتَّخذت طريقها من رودس إلى مصر .

وكان من أهمِّ نتائج هذه الموقعة حصول بونابرت من القائد العثماني مصطفى باشا الَّذي وقع في الأسر على معلوماتٍ تفيد بأنَّ حرباً عامة في أوربة قد اندلعت ضدَّ فرنسا ، فغادر بونابرت مصر سرّاً إلى بلاده تاركاً قيادة الحملة إلى الجنرال كليبر[١] .

وعلى العموم فبعد رحيل بونابرت إلى فرنسا أقبل كليبر على تصريف الأمور بكلِّ همَّةٍ ، فأعاد تنظيم الحكومة ، قسَّم القطر المصري إلى ثمانية أقاليم إداريَّة ، وأبقى الدَّواوين الَّتي أنشأها بونابرت في الأقاليم ، كما نظم شؤون تحصيل الضَّرائب ، وعني بضبط حسابات المديريَّات المختلفة إلى جانب عنايته بسائر فروع الإدارة ، والاهتمام بنشاط ديزيه العسكري في الصَّعيد إلا أنَّ الضُّغوطات المطالبة بالعودة إلى فرنسا أثَّرت على كليبر ، وبادر بالكتابة إلى الصَّدر الأعظم في ١٧ سبتمبر ١٧٩٩م ينفي رغبة فرنسا في انتزاع مصر من تركيا ، ويذكر الأسباب الَّتي جعلت فرنسا ترسل حملتها إلى مصر ، وهي محاولة إلقاء الرُّعب في قلوب الإنجليز ، وتهديد ممتلكاتهم في الهند ، وإرغامهم على قبول الصُّلح مع فرنسا ، بالإضافة إلى الانتقام ممَّا لحق بالفرنسيِّين من أذى على أيدي المماليك ، وتخليص مصر من سيطرة البكوات ، وإرجاعها إلى تركيا .

ثمَّ طلب كليبر من الصَّدر الأعظم فتح باب المفاوضات من أجل جلاء الفرنسيِّين عن مصر[٢] ، وقد جرت هذه المفاوضات بالفعل في مدينة العريش ، وأسفرت عمَّا يسمَّى باتِّفاقية العريش (٢٤ يناير ١٨٠٠م) الَّتي نصَّت على :

١ـ جلاء الفرنسيين عن مصر بكامل أسلحتهم ، وعتادهم ، وعودتهم إلى فرنسا .

٢ـ هدنة ثلاثة شهور قد تطول مدَّتها إذا لزم الأمر ، ويتمُّ خلالها نقل الحملة .

٣ـ الحصول من الباب العالي ، أو حلفائه ـ أي : الإنجليز ، وروسيا ـ على بلاده على أن تتعهَّد تركيا ، وحلفاؤها بعدم التَّعرض لهذا الجيش بأيِّ أذى .

غير أنَّ الحكومة البريطانيَّة عندما بلغتها أنباء مفاوضات العريش كانت قد

---

(١) انظر : العالم العربيُّ في التَّاريخ الحديث ، د . إسماعيل ياغي ، ص(٢١١) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢١٢) .

اتخذت موقفاً من شأنه تعطيل اتفاقيَّة العريش عن إبرامها ؛ إذ كانت تخشى من أن يعود جيش فرنسا المحاصر في مصر إلى ميادين القتال في أوربة ، فترجح كفَّة الجيوش الفرنسيَّة ويختلُّ ميزان الموقف العسكري في القارَّة ، ولما كان من المعتقد في ضوء رسائل الضُّبَّاط ، والجنود الفرنسيِّين إلى ذويهم في فرنسا ، والَّتي وقعت في أيدي رجال البحرية البريطانيَّة : أنَّ الحملة الفرنسيَّة تمضي ببطء داخل الأراضي المصريَّة ، فقد فضَّلت حكومة لندن أن يبقى الفرنسيُّون في مصر ، أو يسلِّموا أنفسهم كأسرى حرب ، ولذلك أصدرت في ١٥ ديسمبر ١٧٩٩م أوامر صريحةً إلى اللورد كيث القائد العام للأسطول البريطاني في البحر المتوسط برفض أيِّ اتِّفاقٍ ، أو معاهدةٍ بشأن الجلاء عن مصر ، مادام هذا الاتِّفاق لا ينصُّ على ضرورة أن يسلِّم الفرنسيُّون أنفسهم كأسرى حرب تسليماً مطلقاً دون قيدٍ ، أو شرطٍ ، فأعدَّ كيث رسالةً بهذا المعنى إلى كليبر وصلته في أوائل مارس ١٨٠٠م .

وأمام هذا التَّحوُّل المفاجىء لم يجد كليبر مفرّاً من وقف عمليَّة الجلاء الَّتي كان قد بدأها تنفيذاً لاتفاقيَّة العريش ، ثمَّ أسرع في صبيحة يوم ٢٠ مارس ١٨٠٠م بالزَّحف على رأس جيشه لوقف تقدم العثمانيِّين الَّذين وصلت طلائعهم إلى المطرية على مسافة ساعتين من القاهرة ، فوقعت معركة (عين شمس) الَّتي امتدَّ ميدانها من المطرية حتَّى جهات الصَّالحيَّة ، وهزم الفرنسيون فيها العثمانيِّين هزيمةً شديدةً ، وفي أثناء معركة هليوبوليس كان فريقٌ من جيش الصَّدر الأعظم ، وبعض عناصر المماليك قد تسلَّلوا إلى داخل القاهرة ، وأثاروا أهلها على الفرنسيِّين ، فكانت ثورة القاهرة الثَّانية الَّتي استمرَّت مدة شهرٍ تقريباً من ٢٠ مارس إلى ٢٠ أبريل سنة ١٨٠٠م(١) .

ولم يستطع كليبر إخماد الثَّورة إلا بعد التجائه إلى العنف ، فدكَّ القاهرة بالمدافع من كلِّ جانبٍ ، وشدَّد الضَّرب على حي بولاق حيث تركَّزت الثَّورة ، فاندلعت ألسنة النِّيران في كلِّ مكانٍ منه ، والتهمت الحرائق عدداً كبيراً من الوكالات ، والخانات ، فلم يجد سكَّان بولاق مفرّاً من التَّسليم ، وتلاهم سكان الأحياء الأخرى ، وتولَّى مشايخ الأزهر الوساطة ، وأخذوا من كليبر العفو الشَّامل ، والأمان ، ولكنَّه ما لبث أن غدر بالمسلمين بعد أن خمدت الثَّورة ، وكان

(١) انظر : العالم العربيُّ في التَّاريخ الحديث ، ص(٢١٤) .

اقتصاصه منهم رهيباً شديداً ، فأعدم بعضهم ، وفرض غراماتٍ فادحةً على كثيرٍ من العلماء ، والأعيان ، كما فرض المغارم على أهل القاهرة جميعاً ، ولم يستثن منهم الطَّبقات الشَّعبيَّة الكادحة(١) ، وعهد كليبر إلى المعلم « يعقوب » أن يفعل بالمسلمين ما يشاء .

وممَّا يذكر : أنَّ بطريرك الأقباط لم يقرَّ يعقوب على تصرُّفاته ، وكثيراً ما بذل له النُّصح بالعدول عن خطَّته ، ولكن يعقوب كان يغلظ له القول ، وكان يدخل الكنيسة راكباً جواده ، ورافعاً سلاحه ، ولم يزدد إلا إمعاناً في تأييد الفرنسيِّين(٢) .

ولم يمض على إخماد ثورة القاهرة إلا شهران حتَّى اغتيل كليبر في ٢٤ يوليو ١٨٠٠م بطعنةٍ قاتلةٍ من أحد طلبة الأزهر الشَّاميِّين ، وهو سليمان الحلبي ، ومن المعتقد : أنَّ السُّلطات العثمانيَّة كانت لها يدٌ في مصرع كليبر . وفي ١٧ يونيو احتفل الجيش الفرنسي احتفالاً رهيباً بتشييع رفات كليبر ، وبعد دفن الجثَّة أعدم سليمان الحلبي ، وآلت القيادة العامَّة للحملة إلى الجنرال مينو باعتباره أكبر ضباط الحملة سنّاً(٣) ، وكان هذا القائد من أنصار البقاء في مصر ، وخطُّ سياسته استهدف توطين الفرنسيِّين فيها إلا أنَّ الضُّغوطات الدَّاخليَّة والخارجيَّة اضطرته إلى مغادرة مصر بعد الهجوم المشترك الَّذي قام به الإنجليز ، والعثمانيُّون على الفرنسيِّين في مصر ، لقد تضافرت عوامل عدَّةٌ أرغمت المحتلِّين الفرنسيين على الخروج من مصر في النِّهاية ، منها تحطيم أسطولهم في معركة أبي قير البحرية ، وسيطرة الإنجليز البحريَّة في البحر المتوسط ، وتشديدهم الحصار على الشَّواطىء المصريَّة ، ممَّا أعجز الحكومة الفرنسيَّة عن إرسال النَّجدات ، والإمدادات إلى فرنسا في مصر ، وانضمام الدَّولة العثمانيَّة إلى أعداء فرنسا ، والانقسام الَّذي حدث في صفوف الحملة ، وبدأت بوادره منذ بدأ جيش بونابرت زحفه الشَّاق من الإسكندريَّة إلى القاهرة ، ثمَّ استفحل أمره بعد رحيل بونابرت ، وخصوصاً عقب مصرع كليبر ، وإبَّان قيادة مينو للحملة ، وجهاد الشَّعب المصري المسلم ضدَّ الاحتلال الفرنسي

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢١٤ ، ٢١٥) .
(٢) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . جمال عبد الهادي ، ص(٨٩) .
(٣) انظر : عجائب الآثار (٣/ ٣٠) .

الصَّليبي ، ذلك الجهاد الَّذي تمثَّل في ثورتي القاهرة الأولى ، والثَّانية ، وفي العمليَّات الجهاديَّة الَّتي اشتعلت في الدِّلتا ، وفي المقاومة الَّتي اشتدَّت في الصَّعيد . ودون أدنى شكٍّ كان لجهاد مسلمي مصر للحكم الفرنسي بالغ الأثر في زعزعة أركانه ، وفي عجز الفرنسيِّين عن بلوغ غايتهم ، وتنفيذ أهدافهم ، وانهيار آمالهم في تشييد تلك المستعمرة الجميلة الَّتي كانوا يحلمون باتِّخاذها نواةً لإمبراطوريتهم الاستعماريَّة الجديدة في مصر[١] .

سابعاً : آثار الحملة الفرنسيَّة على الأمَّة الإسلاميَّة :

لقد كان لهذه الحملة آثار بالغةٌ ، وسبب من أسباب هزيمة الأمَّة الدَّاخلية ، ولقد صوَّر هذه الآثار على الأمَّة الأستاذ محمد قطب ، فقال : (ثمَّ كانت الهزيمة الحربيَّة الَّتي وقعت بالمماليك على يد نابليون في إمبابة إيذاناً بالهزيمة الدَّاخلية ؛ هزيمة العقيدة في داخل النُّفوس ، لقد روِّع المسلمون بمدافع نابليون ، وبدت لهم سيوف المماليك هذراً فارغاً إزاء تلك المدافع الجديدة الَّتي لم يكونوا يعرفونها ، أو يتصوَّرون وجودها في يد الأعداء ، وانقلب ميزان القوى انقلاباً عنيفاً في نفوسهم ، فتلك هي المرَّة الأولى الَّتي تنهزم فيها جيوش المسلمين عن جدارةٍ ، وتتغلَّب جيوش الصَّليبيِّين ؛ لأنَّها تملك قوَّةً حقيقية من العتاد ، والفنِّ الحربيِّ ، والمعرفة لا يملكها المسلمون ، ولقد كان ممكناً مع ذلك كلِّه ألا يتغيَّر الميزان في داخل النُّفوس ، كان ممكناً أن تصمد النُّفوس للهزيمة ريثما تتجمَّع للانقضاض من جديدٍ كما حدث مرَّاتٍ كثيرةً من قبل ، ولكنَّ الرَّصيد الدَّاخلي للعقيدة في تلك الفترة لم يكن من القوَّة بحيث يصمد للصَّدمة ، ويتجمَّع من جديد ، حقَّاً لقد قام الشَّعب بمقاومةٍ باسلةٍ للحملة الفرنسيَّة ، وثارت القاهرة بزعامة العلماء ، وتأثيرهم الرُّوحي ، وحدثت بطولاتٌ عجيبةٌ ، حقَّاً لقد حدث كلُّ ذلك ، ولكنَّه كان أشبه بالأعمال الفردية الفدائيَّة ، أمَّا الكيان الحقيقي للدَّولة المسلمة المقاتلة الَّتي تنظم القتال وتجيِّش الجيوش ، وتقف للغزاة بوصفها (دولة الإسلام) أمَّا ذلك كلُّه فكان قد ذاب في معركة إمبابة ، ولم يعد له وجود .

---

(١) انظر : الحملة الفرنسيَّة وخروج الفرنسيِّين من مصر ، ص(١٨٨) .

وأحسَّ المسلمون بالهزيمة الحقيقيَّة هي هزيمة الحرب ، فقد وضع نابليون في فترة إقامته في مصر قانوناً جديداً يُحْكَم به المسلمون غير شريعة الله ، قانوناً مستمدَّاً من التَّشريع الفرنسي ، وحصر تشريع الله في أمور الأحوال الشَّخصيَّة ؛ من زواجٍ ، وطلاقٍ ، وميراثٍ ، وكانت تلك هي المرَّة الأولى في تاريخ المسلمين الَّتي يحكمهم فيها قانون غير قانون الله ، يضعه ، وينفِّذه قومٌ غير مسلمين ، لقد كان الصَّليبيُّون يدخلون الأراضي الإسلاميَّة أحياناً ، ويبقون في بعض الأحيان سنواتٍ ، بل وصل بهم الأمر قبيل صلاح الدِّين أن يقيموا لهم دويلاتٍ على شاطىء البحر الأبيض في بلاد الشَّام ، ولكنَّهم لم يجرؤوا قطُّ في أيَّة مرَّةٍ أن يضعوا قانوناً من عندهم يحكمون به المسلمين ، فقد كانوا في كلِّ مرَّةٍ غزاةً انتهبوا قطعة من الأرض ، ولم يكونوا قطُّ دولةً حاكمةً مسيطرةً في الأرض ، وفي هذه المرَّة كانوا ـ لأوَّل مرَّةٍ ـ دولةً حاكمةً في أرض الإسلام بعد أن أطاحوا بالدَّولة المسلمة ، وذوَّبوها في ميدان القتال .

وكان هذا بدء الهزيمة الحقيقيَّة ؛ هزيمة العقيدة ، وبدء انحسارها في عالم الواقع ، وانحسارها ـ من ثمَّ ـ في داخل النُّفوس ، وفي ظلِّ هذه الهزيمة وتلك كان الانبهار الَّذي أحدثته الحملة الفرنسيَّة في نفوس المصريِّين ؛ انبهار بقوَّة السِّلاح أوَّلاً ، وانبهار بالعلم الغربيِّ الذي حمله رجال البعثة المرافقة للحملة ، وانبهار بالمطبعة الَّتي جاء بها نابليُون إلى مصر ، وانبهار بالتَّنظيمات الَّتي أحدثها ، وفي كلمةٍ واحدةٍ : انبهارٌ بكلِّ ما جاء من الغرب ، وكلِّ ما ليس بإسلام .

وكانت هذه هي الهزيمة الحقيقيَّة الكاملة الَّتي مهَّدت لكلِّ ما أحدثه الاستعمار الصَّليبيُّ بعد ذلك من تدميرٍ مخرِّبٍ في حياة المسلمين ، وعقيدتهم ، وأفكارهم ، ومشاعرهم ، وسلوكهم في واقع الحياة ، لذلك لم يكن طرد الفرنسيِّين من مصر ، أو انسحابهم حدثاً حقيقيَّاً في عالم الواقع بعد هذه الهزيمة الدَّاخليَّة الَّتي خلَّفتها الحملة في نفوس المسلمين »[١] .

لقد كان للحملة الفرنسيَّة أثرٌ بالغٌ في مصر خصوصاً ، والشَّرق عموماً ، وستعرف ذلك في المباحث القادمة بإذن الله تعالى ، وكيف استطاعت المحافل الماسونيَّة اليهوديَّة الفرنسيَّة أن تشقَّ طريقها لطعن الإسلام بخنجرها المسموم ، لقد

---

(١) انظر : هل نحن مسلمون ، ص(١١٥ ـ ١١٨) .

استطاع الفرنسيُّون أن يزرعوا أفكارهم ، ويجدوا لهم عملاء في المنطقة ، واستفادوا بعد خروجهم العسكري من الدَّور الخطير الَّذي قام به محمَّد علي باشا حاكم مصر فيما بعد . لقد كانت الحملة الفرنسيَّة على مصر ، وخروجها ، وظهور شخصيَّة محمَّد علي باشا في زمن السُّلطان سليم الثَّالث الَّذي تمَّ عزله بسبب أنَّه أدخل أساليب الفرنجة ، وعوائدهم إلى الجيش ، ولم يقف عند الاستفادة بالتِّقنيَّة الحديثة ، ممَّا يشكِّل خطراً على عقائد الأمَّة ، وهذا ما ورد في نصِّ الفتوى الَّتي أصدرها المفتي : (كلُّ سلطانٍ يدخل نظامات الإفرنج ، وعوائدهم ، ويجبر الرَّعية على اتِّباعها لا يكون صالحاً للملك) لكن يظلُّ الأمر محاطاً بالغموض .

بل إنَّ دراسة تاريخ السُّلطان سليم الثَّالث تظهر لنا : أنَّه كان حريصاً على إحياء فريضة الجهاد ، كما كانت على عهد أجداده ، وآبائه ، فهل هذا هو السَّبب وراء المؤامرة الَّتي أطاحت به في جمادى الأولى عام ١٢٢٣هـ/ ٢٨ يونيو ١٨٠٨م[(١)] .

* * *

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . جمال عبد الهادي ، ص(٩١) .

المبحث الثَّامن

السُّلطان محمود الثَّاني

(١٢٢٣ ـ ١٢٥٥هـ/ ١٨٠٨ ـ ١٨٣٩م)

تولَّى الحكم وعمره أربع وعشرون سنة ، استفاد من إقامته الجبريَّة مع سليم الثَّالث حيث أطلعه الأخير على خطط الإصلاح . إلا أنَّ السلطان الجديد أُرغم في البداية على الانحناء أمام رغبات الإنكشاريَّة ، فأمر بإلغاء كلِّ الإصلاحات حتَّى يرضيهم إلى أن تحين الفرصة لتطبيق ، وتنفيذ خطط الإصلاح . وكان محمود يتذرَّع بالصَّبر انتظاراً لساعة الخلاص من الإنكشاريَّة الَّذين هدَّدوا كيان الدَّولة العثمانيَّة ولكنَّ الفرصة لن تتح له قبل مرور عدَّة سنوات ، خاصَّةً أنَّ عهده قد امتلأ بالحروب ، والتَّطوُّرات المهمَّة الَّتي استنزفت معظم جهوده ، وجميع إمكانياته(١) .

أولاً : الحرب مع روسيا :

عقد السُّلطان محمود الثَّاني صلحاً مع إنجلترا عام ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م ، وحاول أيضاً عقد اتِّفاق مماثل مع روسيا ، ولكنَّه فشل ، واشتعلت نار الحرب بينهما ، وهُزم العثمانيُّون ، واستولى الرُّوس على بعض المواقع ، وعزل الصَّدر الأعظم ضياء يوسف باشا ، وتولَّى مكانه أحمد باشا الَّذي انتصر على الرُّوس ، وأجلاهم عن المواقع الَّتي دخلوها ، وساءت العلاقات بين فرنسا وروسيا ، وكادت تقع الحرب بينهما ، فطلبت روسيا الصُّلح مع الدَّولة العثمانيَّة ، وعقدت بين الطَّرفين معاهدة بخارست عام ١٢٣٧هـ/ ١٨١٢م والَّتي نصَّت على بقاء الأفلاق ، والبغدان ، وبلاد الصِّرب تابعةً للدَّولة العثمانيَّة . وقد مكَّن الصُّلح السُّلطان محمود من القيام ببعض الإصلاحات ، والقضاء على الثَّورات والتمرُّدات في الدَّولة(٢) .

ولما علم الصِّربيُّون بمعاهدة بخارست ، وإعادة خضوعهم للدَّولة العثمانيَّة ،

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . إسماعيل ياغي ، ص(١٢٧ ، ١٢٨) .
(٢) تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، إسماعيل سرهنك ، ص(٢٢٦ ـ ٢٢٨) .

قاموا بالثَّورة ، غير أنَّ القوَّات العثمانيَّة أخضعتهم بالقوَّة ، وفرَّ زعماء الحركة إلى النِّمسا ، ولكنَّ أحدهم وهو ثيودور فتش أظهر الولاء للعثمانيِّين ، وخضع للسُّلطة العثمانيَّة ، وحصل على امتيازات خاصة من الدَّولة[١] .

●●إلغاء الإنكشاريَّة :

فسدت طبيعة الإنكشاريِّين ، وتغيَّرت أخلاقهم ، وتبدَّلت مهمَّتهم ، وأصبحوا مصدراً للبلاء للدَّولة ، والشُّعوب التابعة لها ، وصاروا يتدخَّلون في شؤون الدَّولة ، وتعلَّقت أفئدتهم بشهوة السُّلطة ، وانغمسوا في الملذَّات ، والمحرَّمات ، وشقَّ عليهم أن ينفروا في برودة الشِّتاء ، وفرضوا العطايا السُّلطانيَّة ، ومالوا إلى النَّهب ، والسَّلب حين غزوا البلاد ، وتركوا الغاية الَّتي من أجلها وُجِدُوا ، وغرقوا في شرب الخمور ، وأصبحت الهزائم تأتي من قبلهم بسبب تركهم للشَّريعة ، والعقيدة ، والمبادىء ، وبعدهم عن أسباب النَّصر الحقيقيَّة ، وقاموا بخلع وقتل السَّلاطين من أمثال عثمان الثَّاني ، واستمرَّ الإنكشاريُّون في عهد السُّلطان مراد الرَّابع سنواتٍ عشراً سائرين في طريق الضلال سادرين في غيِّهم ، وطغيانهم ، فهم الَّذين نصبوه ، فأصبح الأمر ، والنَّهي لهم ، وهم الَّذين قاموا بقتل السُّلطان إبراهيم الأوَّل خنقاً حينما حاول التخلُّص منهم ، وهم الَّذين أربكوا الدَّولة ؛ إذ وضعوها في حالةٍ من الفوضى بقتلهم السَّلاطين ، وتولية أولادهم الصِّغار السِّنِّ من بعدهم كالسُّلطان محمَّد الرَّابع ، فقام الإفرنج باحتلال أجزاءٍ من البلاد ، فاضطرَّ الصَّدر الأعظم والعلماء إلىٰ عزله .

ثمَّ ثارت الإنكشاريَّة في عهد السُّلطان سليم الثَّاني ، ودخلت جيوش الأعداء بعضاً من أراضي الدَّولة ، واحتلَّتها . وخلع الإنكشاريَّة السلاطين : مصطفى الثَّاني ، أحمد الثَّالث ، مصطفى الرَّابع ، إلى أن قيَّض الله السُّلطان محمود الثَّاني عام ١٢٤١ هـ للتخلُّص منهم[٢] .

فجمع السُّلطان مجموعة من أعيان الدَّولة ، وكبار ضباط الإنكشاريَّة في بيت

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . إسماعيل ياغي ، ص(١٢٨) .

(٢) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، د . علي حسون ، ص(١٠٧ ، ١٠٨) .

المفتي ، وقام الصَّدر الأعظم سليم أحمد باشا خطيباً ؛ فبيَّن الحالة الَّتي وصلت إليها الإنكشاريَّة من الضَّعف ، والانحطاط ، وبيَّن ضرورة إدخال النُّظم العسكريَّة الحديثة ، فاقتنع الحاضرون ، ثمَّ أفتى المفتي بجواز العمل للقضاء على المتمرِّدين . وقد أعلن الموافقة كلُّ من حضر من ضباط الإنكشاريَّة من حيث الظَّاهر ، وأبطنوا خلاف ذلك ، ولما شعروا بقرب ضياع امتيازاتهم ، وبوضع حدٍّ لتصرُّفاتهم أخذوا يستعدُّون للثَّورة ، واستجاب لهم بعض العوامِّ . وفي ٨ ذي القعدة عام ١٢٤١هـ بدأ بعض الإنكشاريِّين بالتحرُّش بالجنود أثناء أدائهم تدريباتهم ، ثمَّ بدؤوا في عصيانهم ، فجمع السُّلطان العلماء ، وأخبرهم بنيَّة المتمرِّدين ، فشجعوه على استئصالهم ، فأصدر الأوامر للمدفعيَّة حتَّى تستعد لقتالهم ملوِّحاً باللِّين ، والتَّساهل في الوقت نفسه خوفاً من تزايد لهيب شرورهم . وفي صباح ٩ ذي القعدة تقدُّم السُّلطان ووراءه جنود المدفعيَّة وتبعهم العلماء ، والطَّلبة إلى ساحة (آت ميداني) حيث اجتمع العصاة هناك يثيرون الشَّغب وقيل : إنَّ السُّلطان سار معه شيخ الإسلام قاضي زادة طاهر أفندي ، والصَّدر الأعظم سليم باشا أمام الجموع الَّتي كانت تزيد على ٦٠,٠٠٠ نفس .

ثمَّ أحاطت المدفعيَّة بالميدان واحتلت المرتفعات ، ووجَّهت قذائفها على الإنكشاريَّة فحاولوا الهجوم على المدافع ، ولكنَّها صبَّت حممها فوق رؤوسهم فاحتموا بثكناتهم هروباً من الموت ، فأحرقت ، وهدِّمت فوقهم ، وكذلك تكايا البكتاشيَّة ، وبذلك انتصر عليهم . وفي اليوم التَّالي صدر مرسومٌ سلطاني قضى بإلغاء فئتهم ، وملابسهم ، واصطلاحاتهم ، واسمهم من جميع بلاد الدَّولة ، وإعدام من بقي منهم هارباً إلى الولايات ، أو نفيه ، ثمَّ قلَّد حسين باشا الَّذي كانت له اليد الطُّولى في إبادتهم قائداً عاماً (سرعسكر) وبدأ بعدها نظام الجيش الجديد[1] .

ثمَّ أصبح السُّلطان محمود بعد ذلك حرَّاً في تطوير جيشه ، فترسَّم خطى الحضارة الغربيَّة فاستبدل الطُّربوش الرُّوميَّ بالعمامة ، وتزيَّا بالزِّيِّ الأوربيِّ ، وأمر أن يكون هو الزِّيَّ الرَّسميَّ لكلِّ موظفي الدَّولة العسكريِّين ، والمدنيِّين ، وأسَّس

---

(١) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، د . علي حسُّون ، ص(١٦٩) .

وساماً دعاه وسام الافتخار[١] فكان أوّل من فعل ذلك من سلاطين آل عثمان[٢] .

وما قام به السُّلطان محمود من استبدال العمامة بالطَّربوش ، وفرض اللِّباس الأوربي على جميع المجموعات العسكريَّة ، يدل على شعوره العميق بالهزيمة النَّفسيَّة ، وسوف نتعرَّض لأسبابها إن شاء الله تعالى .

ثانياً : محمد باشا والي مصر :

كان محمَّد علي شخصيَّةً سيِّئة السُّمعة ، معروفاً بالقسوة ، وغلظة الكبد ، ترسله الدَّولة العثمانيَّة لتأديب القرى الَّتي تتأخَّر في دفع ما يفرض عليها من المال ، فيعسكر هو وأفراد حملته التَّأديبيَّة حول القرية ، ينهبون ، ويسلبون ، ويفزِّعون الآمنين ، حتَّى يرى أهل القرية أن الأفضل لهم أن يدفعوا الأموال المطلوبة ، وإن أثقلتهم ، وكان محبّاً للعظمة إلى حدِّ الجنون[٣] .

جاء محمَّد علي إلى مصر على رأس فرقةٍ من الرُّوملي لإخراج الفرنسيِّين منها ، واستطاع بمكره ، ودهائه أن يكسب ثقة العلماء في مصر ، وسعى في القضاء على منافسيه على ولاية مصر بطرقٍ ملتويةٍ ، وماكرةٍ ، وخبيثةٍ حتَّى أصبح والياً على مصر ابتداءً من ٢٠ ربيع الأوَّل سنة ١٢٢٠ هـ الموافق ١٨ يونيو سنة ١٨٠٥م[٤] .

وعلى الرَّغم من أنَّ محمَّد علي قد أبدى حماساً شديداً لكي يصبح خادماً مطيعاً للسُّلطان[٥] ، وأبدى في سبيل ذلك كثيراً من عبارات التَّذلُّل ، والخضوع للسُّلطان ودولته[٦] ، إلا أنَّ السُّلطان كان على وشك أن يدرك أبعاد هذه العبارات ، مظهراً بذلك تخوُّفه من هذا الوالي الجديد ، فأمر بنقله عن ولاية مصر ، إلا أنَّ تدخُّل العلماء مرَّة أخرى قد جعل السُّلطان يصدر فرماناً آخر بتثبيته على ولاية مصر في ٢٤

---

(١) انظر : المسلمون وظاهرة الهزيمة النَّفسيَّة ، عبد الله بن حمد ، ص(٧٣) .
(٢) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، د . علي حسُّون ، ص(١٦٩) .
(٣) انظر : واقعنا المعاصر لمحمَّد قطب ، ص(٢٠٥) .
(٤) انظر : حروب محمَّد علي في الشَّام ، د . عايض الرُّوقي ، ص(٣٢) .
(٥) انظر : قراءة جديدة لسياسة محمَّد علي باشا التوسُّعيَّة ، د . سليمان الغنام ، ص(١٧) .
(٦) وثيقة تركيَّة رقم ١/٥٠ ـ ٢٤٨ في ربيع الأول ١٢٣٠هـ ، الرياض .

شعبان سنة ١٢٢١هـ/ ٦ نوفمبر ١٨٠٦م[١] .

ومن هنا بدأ محمَّد علي في تدعيم مركزه الشَّخصيِّ ، وتثبيت الولاية في شخصه ، وبالتَّالي في سلالته . وهناك أسئلةٌ كثيرةٌ تحتاج إلى إجابةٍ ، منها : ما حقيقة الدَّور الَّذي قام به محمَّد علي من أجل المصالح الفرنسيَّة ، والبريطانيَّة ؟ ومن الَّذي كان خلف القضاء على الدَّولة السُّعوديَّة الأولى ، وعلى ضمِّ الشَّام إلى مصر ؟ هذه أسئلة نحاول حلَّها من خلال الدِّراسة التَّاريخيَّة الواعية .

ثالثاً : المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي يصف محمَّد علي :

وصف المؤرِّخ الجبرتي محمَّد علي بأنَّه مخادعٌ ، وكذَّابٌ يحلف الأيمان الكاذبة ، ظالمٌ لا عهد له ، ولا ذمَّة ، يضمر السُّوء ، واستخدام العسف ، والجور في نفس الوقت الَّذي يعد فيه بالعدل ، لا يخفِّف من عسفه ، وظلمه ، واستبداده استجداء شيخ[٢] . ولقد دعت هذه الصِّفات البعض بأن يصوِّر محمَّد علي بأنَّه ميكافلِّلي ، أو أنَّه تعلَّم على فكر ميكافلِّلي (صاحب نظرية الغاية تبرر الوسيلة) ، فقيل له ـ أي : محمد علي ـ مرَّة : إنَّ ميكافلِّلي ألَّف كتاباً اسمه الأمير ، فكلَّف أحد النَّصارى المحيطين به ـ وقد اعتاد أن يكون أغلب مرافقيه من النَّصارى ، واليهود ـ واسمه : أرتين بترجمة هذا الكتاب ، وأن يوافيه كلَّ يوم بصفحةٍ مترجمةٍ ، فلمَّا وصل إلى الصَّفحة العاشرة توقَّف عن المواصلة قائلاً : بأنَّه يمتلك من الحيل ما لم يخطر لميكافلِّلي على بالٍ[٣] .

ولقد علَّق بعض الكتَّاب على ذلك بأنَّ هذه الصِّفات الَّتي رشَّحت محمَّد علي لأن يصبح والياً على مصر[٤] وتلك الصِّفة القذرة من حبِّ الزَّعامة ، وإلى حدِّ الجنون ، وقسوة القلب ، والنَّظر إلى الذَّات ، وعدم المبالاة بالإسلام هي الَّتي تبحث عنها المحافل الماسونيَّة لصناعة الأبطال ؛ الَّذين يدمِّرون الإسلام ، ودولة الخلافة من داخلها .

---

(١) انظر : تاريخ الدَّولة العليَّة العثمانيَّة ، ص(٣٩١) .
(٢) انظر : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيِّين ، ص(١٥٩) .
(٣) انظر : مصر في مطلع القرن التَّاسع عشر ، د . محمَّد فؤاد شكري (٢/ ٨٥٧) .
(٤) انظر : قراءة جديدة في التاريخ العثماني ، ص(١٦٠) .

رابعاً : محمَّد علي والماسونيَّة :

لم يكن من السَّهل على شابٍّ قليل الخبرة ، وقليل المعرفة بمصر وطبيعتها أن يصل إِلى ما وصل إِليه محمَّد علي ، مهما كانت قدرته ، أو ذكاؤه ، إِلا إِذا كان يستند إِلى قوَّةٍ تخطِّط له ، وتعينه على تحقيق أهدافه، وتسخِّره في نفس الوقت لتحقيق أهدافها ، وبخاصَّةٍ : أنَّه كما ذكر عن نفسه (لا يصلح للولاية ، وليس من الوزراء ، ولا من الأمراء ، ولا من أكابر الدَّولة)[1] وهذه الصِّفات حقيقيَّة له مهما كان غرضه من قولها ، ولهذا نجد أنفسنا أمام العديد من التَّساؤلات ، ولماذا ثارت الفرقة الألبانيَّة بالذَّات الَّتي يحتلُّ فيها هو الرَّجل الثَّاني دون بقيَّة الفرق العثمانيَّة ، وأبعدت « خسرو باشا » عن الولاية تحت دعوى تأخُّر رواتبهم ؟ ولماذا اندفع العلماء لتعيين قائد القوَّة الألبانيَّة الثائرة طاهر باشا قائمقاماً ينوب عن الوالي المطرود ، ثمَّ يقتل بعد عشرين يوماً ؟ ولماذا يطرد الوالي الجديد أحمد باشا بعد تولِّيه بيومٍ واحدٍ فقط ؟ ولماذا يساعد محمَّد علي خورشيد باشا في تولِّي الولاية ، ثمَّ ينقلب عليه ؟ وكيف استطاع محمَّد علي أن يفي برواتب الجند ، وبخاصَّةٍ بعد استيلاء المماليك في الصَّعيد على مخصَّصات الأهالي هناك ؟ ولماذا ، ولماذا ؟ جوانب كثيرةٌ يكتنفها الغموض !!!

وتشير كثيرٌ من الأدلَّة إِلى أنَّ هذه القوَّة ـ التي لم تكن ظاهرةً ـ هي الحركة الماسونيَّة الَّتي انبعثت في مصر سنة ١٧٩٨م على يد رجال الحملة الفرنسيَّة حيث مهّد لها نابليون ، ثمَّ أسس خلفه كليبر ومعه مجموعة من ضباط الجيش الفرنسيين الماسونيِّين محفلاً في القاهرة سمِّي محفل إِيزيسي ، وأوجدوا له طريقةً خاصَّةً به ، هي الطَّريقة الممفيسيَّة ، أو الطَّريقة الشَّرقية القديمة[2] . وقد تمكَّن هذا المحفل من أن يضمَّ إِليه بعض الأعضاء من المصريِّين ، وإِن كانوا قلَّةً ، ثمَّ انحلَّ هذا المحفل رسمياً في أعقاب اغتيال كليبر سنة ١٨٠٠م ، وظلَّ أعضاؤه يعملون في الخفاء وبسرِّيَّةٍ .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٦١) .
(٢) انظر : نهاية اليهود لمحمَّد عزَّت ، ص(١٣٢) .

ويشير المنشور الأوَّل الَّذي وزَّعه نابليون على المصريِّين إلى أنَّه قد سعى لنشر هذه الأفكار منذ بداية وصول الحملة ، فيذكر فيه (قولوا لهم ـ أي : المصريِّين ـ إنَّ جميع النَّاس متساوون عند الله ، وأنَّ الشيء الَّذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل ، والفضائل ، والعلوم فقط)(١) ويبدو تزعُّم الحملة الفرنسيَّة للفكر الماسوني واضحاً منذ بدايتهم ، ولقد حاولوا فرض العادات الخبيثة الَّتي استهجنها المسلمون في مصر ، كالبغاء ، والسُّفور ، وتشجيع النِّساء من الحرافيش ، ونساء الهوى على ارتكاب المحرَّمات بشكلٍ علني واضحٍ ، حيث يعدُّ هذا الأمر من بين أساليب انتشار الماسونيَّة(٢) .

وتوحي بعض الدَّلائل على أنَّهم ـ أي : الفرنسيِّين ـ قد نجحوا في ضمِّ المصريِّين من المشايخ ، والعلماء من بينهم الشَّيخ حسن العطار إلى المحفل الماسوني الَّذي أسَّسه كليبر سنة ١٨٠٠م ، فبعد أن هرب الشَّيخ حسن العطار إلى الصَّعيد في أعقاب قدوم الحملة كغيره من العلماء ، ثمَّ عاد إلى القاهرة على أثر دعوة الفرنسيِّين للعلماء ، اتَّصل على الفور برجال الحملة ، ونقل عنهم علومهم ، وفي نفس الوقت تولَّى تعليمهم اللُّغة العربيَّة(٣) وقد اندمج إلى حدٍّ كبيرٍ في علومهم ، وكثيراً ما تغزَّل في أشعاره بأصدقائه منهم(٤) . ولقد دعت هذه الأمور أن يُوصف العطَّار بأنَّه من دعاة التَّجديد(٥) . وقد توثَّقت صلة الشَّيخ العطار بمحمَّد علي بعد تولِّيه الولاية ، وأصبح من الرَّكائز الَّتي يعتمد عليها محمَّد علي في خطواته التَّجديدية في مصر ، وهو أمرٌ يشير إلى وجود صلةٍ بين محمَّد علي والمحفل الماسوني المصري الَّذي تأسَّس إبَّان الحملة الفرنسيَّة(٦) .

كما أنَّ تطورُّ الأحداث يشير إلى تشبُّع محمَّد علي بالأفكار الماسونيَّة الَّتي كان مهيَّأً لها بحكم تكوينه الطَّبيعي ، فينقل عنه قوله وهو يفاوض الفرنسيِّين على مسألة

(١) انظر : قراءة جديدة في التَّاريخ العثماني ، ص(١٦٧) .
(٢) انظر : عجائب الآثار (٣/ ١٦١) .
(٣) انظر : الصِّراع الفكري بين أجيال العصور ، إبراهيم العدوي ، ص(٨٥) .
(٤) انظر : الجبرتي والفرنسيس ، د . صلاح العقاد ، ص(٣١٦) .
(٥) انظر : قراءة جديدة في التاريخ العثماني ، ص(١٦٩) .
(٦) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٦٩) .

احتلال الجزائر : (ثقوا : أنَّ قراري . . . لا ينبع من عاطفةٍ دينيَّةٍ ، فأنتم تعرفونني ، وتعلمون أنَّني متحرِّرٌ من هذه الاعتبارات الَّتي يتقيَّد بها قومي . . . قد تقولون : إِنَّ مواطنيَّ حميرٌ ، وثيرانٌ ، وهذه حقيقةٌ أعلمها)(١) .

وقد شهد عصر محمَّد علي تأسيس أكثر من محفلٍ ماسونيٍّ في مصر ، فقد أنشأ الماسون الإيطاليُّون محفلاً بالإسكندريَّة سنة ١٨٣٠م ، على الطَّريقة الإسكتلدنيَّة ، وغيرها كثير(٢) .

(إِنَّ الماسونيَّة هي القنطرة الَّتي عبَرت عن طريقها الصَّهيونيَّةُ العالميَّة ؛ إِذ أسَّسها تسعةٌ من اليهود بغية الوصول إِلى تحقيق الحلم الصَّهيوني المتمثِّل في إِنشاء حكومةٍ يهوديَّةٍ عالميَّةٍ تسيطر على العالم ، فأعدَّت خططها ، وبرامجها المحقِّقة لأهدافها ، وأطلقت على نفسها اسم : (القوَّة الخفيَّة) واتَّخذت في ذلك السِّريَّة ، والعهود ، والمواثيق الَّتي كانت تأخذها على العضو المنضمِّ إِليها وسيلة ضغطٍ عليه بحيث يصبح آلةً توجِّهه كما تريد . وقد استشرى فساد الماسونيَّة في المجتمعات الغربيَّة ، واستطاعت أن تجذب الكثيرين من الأعضاء عن طريق شعارها الظَّاهري : (الحرِّيَّة ، الإِخاء ، المساواة)(٣) (الماسونيَّة هم أيدي اليهود التنفيذيَّة لمخططات البطش ، ومؤامرات الاضطهاد ، والإِعدام ، والسَّحق السَّارية المفعول على جميع شعوب العالم)(٤) .

(الماسونيَّة آلةُ صيدٍ بيد اليهود ، يصرعون بها كبار السَّاسة ، ويخدعون الأمم الغافلة ، والشُّعوب الجاهلة . الماسونيَّة خطرٌ كامنٌ وراء الرُّموز ، والألفاظ ، والطَّلاسم ، وخنجرٌ غمده اليهود في قلب الشُّعوب ، وأقاموا لها عدوّاً من داخلها ، وعلَّةً من وسطها . الماسونيَّة عقربٌ لدغ الشُّعوب قروناً ، متجلبباً رداء الحرِّيَّة ، والمساواة ، والإِخاء . . . .)(٥) .

---

(١) انظر : قراءة جديدة في التَّاريخ العثماني ، ص(١٧٠) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) انظر : الماسونيَّة وموقف الإِسلام منها ، د . حمود الرُّجيلي ، ص(٣ ، ٤) .
(٤) انظر : اليهود والماسونيَّة ، عبد الرحمن الدُّوسري ، ص(٤٢) .
(٥) انظر : حقيقة الماسونيَّة لمحمَّد علي الزُّعبي ، ص(٧٠) .

(فالماسونيَّة ما هي إلا يهوديَّة الأصل ، والمنبت ، وما دامت كذلك فهي تجيد المكر ، والخداع ، وتتقن أساليب التَّشكيك في العقائد ، والنَّيل من الأنبياء ، والرُّسل عليهم السَّلام ، وتشيع الإلحاد ، والكفر في ربوع الأرض ، وتدعو إلى الإباحيَّة ، والفساد ، والرِّجس ، واليهود تاريخهم معروفٌ في تحريف الكتب السَّماوية ، وقتل الأنبياء ، وإطفاء كلِّ باقة من نورٍ ، إنَّهم أتباع الشِّيفات ، وعبدة الذَّهب ، وأصحاب الاحتكار ، وجمع الأموال ، وغير ذلك من الرَّذائل الَّتي اتَّصفوا بها . ولم يعد اليوم خافياً على أحدٍ : أنَّ الماسونيَّة منظمةٌ يهوديَّةٌ يُراد منها تخريب العالم اجتماعيَّاً ، وأخلاقيَّاً ، ودينيَّاً . . وتمتدُّ أذرعها المسمومة إلى كلِّ المبادىء ، والقيم بغية تدميرها ، والقضاء عليها)[١] .

لقد انتشرت المحافل الماسونيَّة في مصر ، والشَّام ، وتركيَّا ، وكانت تعمل ليلاً ونهاراً من أجل تفتيت ، وإضعاف الدَّولة العثمانيَّة بمعاولها الفاسدة ، الَّتي لا تكلُّ ، ولا تملُّ . ولقد استطاعت المحافل الماسونيَّة الفرنسيَّة في مصر أن تجعل فرنسا تحتضن محمَّد علي . يقول الأستاذ محمد قطب : (واحتضنته احتضاناً كاملاً لينفِّذ لها كلَّ مخططاتها ؛ فأنشأت له جيشاً مدرَّباً على أحدث الأساليب ، مجهَّزاً بأحدث الأسلحة المتاحة يومئذٍ بإشراف سليمان باشا الفرنساوي)[٢] .

لقد كانت المصالح الفرنسيَّة ترى دعم محمَّد علي ليتحقَّق لها أطماعها المستقبليَّة في حفظ ، وتقوية محافلها الماسونيَّة ، وإضعاف الدَّولة العليَّة العثمانيَّة ، وزرع خنجرها المسموم في قلب الدَّولة العثمانيَّة ، ولذلك أنشأت لمحمَّد علي أسطولاً بحريَّاً متقدِّماً متطوِّراً ، وترسانةً بحريَّةً في دمياط ، والقناطر الخيريَّة لتنظيم عمليَّة الرَّي في مصر ، هل كان هذا كلُّه حبَّاً في شخص محمَّد علي ؟ أو حبَّاً في مصر ؟ إنَّما كان لتنفيذ المخطَّط الصَّليبي الَّذي فشلت الحملة الفرنسيَّة في تنفيذه بسبب اضطرارها إلى الخروج .

إنَّ المسلم الحقَّ لا يمكن أن يقوم بمثل هذا الدَّور لا واعياً ، ولا مستغفلاً ؛

---

(١) انظر : الماسونية وموقف الإسلام منها ، د . حمود الرجيلي ، ص(١٨) .
(٢) انظر : واقعنا المعاصر ، ص(٢٠٥) .

لأنَّ إسلامه يمنعه أن يتلقى التَّوجيه من أعداء الإسلام .

لقد كان أعداء الإسلام يريدون القضاء على الدَّولة العثمانيَّة ، والقيام بتغريب العالم الإسلامي مع الاهتمام الخاصِّ ببلد الأزهر ليقوم بتصدير أفكارهم إلى بقيَّة الشُّعوب الإسلاميَّة ، فأمَّا القضاء على الدَّولة العثمانيَّة فقد ساهم في إضعافها ، وإهدار طاقاتها ، وإسقاط هيبتها ، وتعدَّى على حرماتها ، وأمَّا التَّقارب مع الأعداء ، والسَّير في فلكهم الفكريِّ ، والحضاريِّ ، والانسلاخ التَّدريجيِّ عن الانتماء العقديِّ ، والفكريِّ ، والأخلاقيِّ ، فقد قطع فيه شوطاً مدحه عليه حلفاؤه من الماسون الفرنسيِّين ، والبريطانيِّين ، وانهزم أمام الغزو الفكري المنظَّم ، وقام بتنفيذ سياسة الابتعاث بإرسال الطُّلاب الشُّبَّان إلى أوربة ليتعلَّموا هناك ، وكان هذا من الأمور الخطيرة ، والمنافذ الَّتي دخل التوجُّه العلماني من خلالها ، فدخل ساحة التَّعليم ، ومن ثمَّ في ساحة الحياة في مصر الإسلاميَّة ، وأهمل الأزهر ، وشيوخه ، وعلماءه ، واهتمَّ بإرسال الشُّبَّان الصِّغار بأعدادٍ متزايدةٍ إلى أوربة ، وهم في سنِّ المراهقة ، غير محصَّنين بشيءٍ لينغمسوا في الشهوات ، ويتأثَّروا بالشُّبهات ، ثمَّ يرجعون إلى بلادهم ليكونوا رأس الحربة المتَّجهة إلى الغرب ، لقد أرسل معهم مع البعثات أئمَّةً يؤمُّون الطلاب في الصَّلاة ، ولكن ماذا عمل الأئمَّة ؟ لقد كان رفاعة رافع الطَّهطاوي واحداً من أولئك الأئمَّة ، ولكنَّه عاد وهو واحد من دعاة التَّغريب ، وعندما استقبله أهله بالفرح يوم عاد من فرنسا بعد غيبة سنين ، فأشاح عنهم في ازدراءٍ ، ووسمهم بأنَّهم (فلاَّحون) لا يستحقُّون شرف استقباله[١] .

ثمَّ ألَّف كتابه الَّذي تحدَّث فيه عن أخبار (باريس) ودعا فيه إلى تحرير المرأة وإلى السُّفور ، وإلى الاختلاط ، وأزال عن الرَّقص المختلط وصمة الدَّنس ، فقال : إنَّه حركاتٌ رياضيَّةٌ موقعةٌ على أنغام الموسيقا ، فلا ينبغي النَّظر إليه على أنَّه عمل مذمومٌ[٢] .

لقد استغرقت عمليَّة الانتقال التَّدريجي ما يقرب من قرن من الزَّمان ، ولكنَّها كانت عمليةً مستمرَّةً لا تتوقَّف ، بل تتَّسع على الدَّوام[٣] .

---

(١) انظر : واقعنا المعاصر ، ص(٢٠٩) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢١٠) .

لقد كان محمَّد علي ثعلباً ماكراً ، همُّه نفسه ، وأولاده من بعده ، ولذلك قام بأعمالٍ شنيعةٍ ، وأفعالٍ قبيحةٍ في إضعاف الأمَّة ، والقضاء على شوكتها ، وتنفيذ مخطَّطات فرنسا ، وبريطانيا ، وحرص على أن يجمِّل صورته في أعين الغرب ، ويقفو آثارهم في التَّحديث ، بل ويفكِّر كما قال عن نفسه : (بعقلٍ أفرنجيٍّ وهو يلبس القبعة العثمانيَّة)[١] .

لقد قام محمَّد علي نيابةً عن فرنسا ، وبريطانيا ، وروسيا ، والنِّمسا وغيرها من الدُّول الأوربيَّة بتوجيه ضرباتٍ موجعةٍ للاتِّجاه الإسلامي في كلٍّ من مصر ، والجزيرة العربيَّة ، والشَّام ، والخلافة العثمانيَّة ممَّا كان لها الأثر في تهيئة العالم الإسلامي للأطماع الغربيَّة .

خامساً : محمَّد علي وضربه للإسلام في مصر :

بعد أن نجح محمَّد علي في توطيد نفسه في الحكم ، وأحاط نفسه ببطانةٍ ، ومساعدين من نصارى الأروام والأرمن ، وكتبة من الأقباط ، واليهود ، واستجلب لنفسه مماليك جعلهم حكاماً للأقاليم ، وكان في كلِّ ذلك مستنفراً لجموع المسلمين المصريِّين ، ومعبِّراً عن عدم الاهتمام ، أو الاكتراث بهم ، وبخاصَّةٍ أنَّ هؤلاء المساعدين قد أعانوه على سياسته الاستبداديَّة بين الفلاحين ، وصف الجبرتي ذلك بقوله : (فتح بابه للنَّصارى من الأروم ، والأرمن ، فترأَّسوا بذلك ، وعلت أسافلهم ، كما أنَّه كان يحبُّ السَّيطرة والتسلُّط ، ولا يأنس لمن يعارضه)[٢] .

وسلك محمَّد علي وأتباعه من غير المسلمين سياسة من أبرز علاماتها : الظُّلم ، والقهر ، والاستعباد ضدَّ جموع الشَّعب المصري ، فجمع حجج الأرض من الفلاَّحين ، وفرض عليهم السُّخرة ، أو دفع ضريبةٍ بديلةٍ ، وحرَّم عليهم أن يأكلوا شيئاً من كدِّ أيديهم ، وأبطل التِّجارة ، وزاد في أسعار المعايش أضعافاً مضاعفة ، وفرض الضَّرائب الَّتي لا يطيقون دفعها ، وجعل كلَّ نشاطٍ اقتصاديٍّ يؤول إليه ، ونقم على النَّاس[٣] . وأرجع الجبرتي ذلك إلى ما يتَّسم به محمَّد علي من

(١) تجربة محمَّد علي الكبير ، منير شفيق ، ص(٣٨) .
(٢) عجائب الآثار (٤/ ١٥٠) .
(٣) انظر : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيِّين ، ص(١٧٩) .

« داء الحسد ، والشَّره ، والطَّمع ، والتطلُّع لما في أيدي النَّاس ، وأرزاقهم »[(١)] .

وقد نتج عن هذه السِّياسة كره الفلاحين الشَّديد لمحمَّد علي ، وأعوانه ، وهروبهم من الأراضي الزِّراعيَّة ، وترك قراهم فراراً من السِّياسة الظَّالمة ، وأعرضوا عن الاشتراك في جيشه ، فقد بلغ عدد الفلاَّحين الفارِّين في عامٍ واحدٍ هو عام ١٨٣١م ستَّة آلاف فلاحٍ[(٢)] .

أمَّا في المدن وبخاصَّةٍ في القاهرة فيذكر الجبرتي أنَّ محمَّد علي حين كلَّف الناس بتعميرها (اجتمع على النَّاس عشرة أشياء من الرَّذائل ، وهي : السُّخرة ، والمعونة ، وأجرة الفعلة ، والذُّلُّ ، والمهانة ، وتقطيع الثِّياب ، ودفع الدَّراهم ، وشماتة الأعداء ، وتعطيل معاشهم ، وأجرة الحمَّام)[(٣)] .

لقد كان الجبرتي معاصراً لسياسة الظُّلم الَّتي مارسها محمَّد علي على الشَّعب المسلم في مصر ، الَّذي امتصَّ حقوقه ، وخيراته ، وفتح للتُّجار الأوربيِّين الباب على مصراعيه لدخول مصر ، والهيمنة على اقتصادها ، وأصبحت مصر هي المزرعة الَّتي تعتمد عليها أسواق أوربة من المنتجات الزِّراعية ، وارتبطت مصر بأوربة ارتباطاً حضاريّاً وتجاريّاً ، وأصبح اعتماد طبقة التُّجار الناشئة في مصر على الأسواق الأوربيَّة من النَّاحية الاقتصاديَّة وبالتالي السِّياسيَّة ، إلى جانب تمكين دعاة الثَّقافة الأوربيَّة من السَّيطرة على الحياة الفكريَّة بعد أن شلَّ دعاة الاتجاه الإسلامي[(٤)] ، وأوقف مناهج التَّعليم القائمة على الدِّين تنفيذاً لسياسة نابليون الماسونيَّة ، وهو أمرٌ أكده المؤرِّخ الإنكليزي أرنولد توينبي في قوله : (كان محمَّد علي ديكتاتوراً أمكنه تحويل الآراء النابليونيَّة إلى حقائق فعَّالة في مصر)[(٥)] .

لقد حقَّق الاستعمار الأوربيُّ هدفه في الاستفادة من المنشآت ، والإصلاحات

---

(١) عجائب الآثار (٤/ ١٥٠) .
(٢) انظر : تاريخ الشَّرق العربي ، د . عمر عبد العزيز ، ص(٣٤٦) .
(٣) انظر : قراءة جديدة في التَّاريخ العثماني ، ص(١٨٠) .
(٤) انظر : تاريخ الشَّرق العربي ، د . عمر عبد العزيز ، ص(٣٢٢ ، ٣٢٣) نقلاً عن : قراءة جديدة .
(٥) انظر : أرنولد توينبي ، عبد الرحمن الجبرتي وعصره ، ص(١٤) .

المادِّيَّة الَّتي قام بها دُمْيَتُهم محمَّد علي ، أمَّا شعب مصر المسلم فقد سيطر عليه اليأس ، ودفع ثمناً باهظاً يفوق حجم كلِّ إصلاحٍ ، وهو تحطيم هويَّته الحضاريَّة الَّتي صقلها الإسلام ، والَّتي ميَّزت دوره خلال العصور الإسلاميَّة(١) .

وفتح باب الدَّعوة إلى الوطنيَّة ، والقوميَّة ، ومارس سياسة التَّضييق على دعاة الفكر الإسلاميِّ من العلماء ، والمشايخ ، فكان هذا الاتِّجاه مسايراً لمساعيه الرَّامية إلى الاستقلال بمصر ، وبالتَّالي إبعادها عن الارتباط بدولة الخلافة الإسلاميَّة(٢) ، وقد لقي في اتجاهه هذا عوناً من المحافل الماسونيَّة الَّتي تعتبر هذا الاتِّجاه من صلب أهدافها .

ومن أبرز الَّذين عاونوه في هذا الاتِّجاه الشَّيخ حسن العطَّار سنة ١٧٧٦/ ١٨٣٥م الَّذي تشير الدَّلائل على انضمامه للمحفل الماسونيِّ المصريِّ ، فقد كان العطار يرى : أنَّ البلاد (لابدَّ أن تتغيَّر أحوالها ، ويتجدَّد بها من المعارف ما ليس فيه) ، وكانت وجهته في هذا التغيير الاتِّجاه الكامل إلى الثَّقافة الأوربيَّة بعد أن عجز ـ في رأيه ـ المشايخ ، والعلماء عن مواصلة جهود المسلمين الأوائل(٣) .

وتبع العطَّار في اتجاهه تلميذه رفاعة الطَّهطاوي (١٨٠١ ـ ١٨٧٣م) حيث ابتعثه محمَّد علي إلى فرنسا خمس سنوات (١٨٢٦ ـ ١٨٣١م) عاد بعدها لنشر ما يذكي الفكرة الوطنيَّة ، وغيرها من الأفكار الاجتماعيَّة الَّتي عايشتها فرنسا الَّتي لم تكن تتلاءم مع أوضاع المجتمع المرتبط بالفكر الإسلاميِّ ، وقد بدت هذه الأفكار في العديد من القصائد الَّتي نظمها ، وكذلك الكتب الَّتي ترجمها بعد توليه الإشراف على مدرسة الألسن(٤) ، لقد تأثَّر الطَّهطاوي بتيارات الفكر الأوربيِّ من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار بشكلٍ فاق تأثره بالفكر الإسلاميِّ ، حيث أبدى في العديد من جوانب فكره ، وفي كلِّ مراحل حياته إعجابه بأفكار الحرِّيَّة ، والمساواة ، وضرورة الاعتماد على العقل ، لقد تبنَّى ما دعا إليه نابليون إبَّان حملته الشَّهيرة ، ولقد أظهر

---

(١) انظر : قراءة جديدة في التاريخ العثماني ، ص(١٨٢) .
(٢) انظر : مصر في مطلع القرن التاسع عشر ، محمد فؤاد (٣/ ١٢٣٢) .
(٣) انظر : التَّيارات السِّياسيَّة بين المجدِّدين ، والمحافظين ، بيُّومي ، ص(٢٢) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢٣) .

طهطاوي تأثراً ، وإعجاباً بآراء مونتسكيو ، وتشبُّعه بالفكر الماسونيِّ .

وتبع الطَّهطاوي كثيرون ممَّن واصلوا الدَّعوة إلى الوطنيَّة وإلى ضرورة الاتِّجاه الكامل إلى الحضارة الغربيَّة من أمثال (علي مبارك) و(إبراهيم أدهم) و(صالح مجدي) و(محمَّد عثمان جلال) و(عبد الله أبو السُّعود) و(عبد الله فكري) وغيرهم ، وواصل الجميع هجومهم على التَّيار الإسلامي من جميع الجوانب[١] .

سادساً : حركة الشَّيخ محمد بن عبد الوهاب وصراعها مع الدَّولة العثمانيَّة :

* تمهيد :

ولد الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمَّد بن أحمد بن راشد التَّميمي سنة ١١١٥هـ/ ١٧٠٣م في بلدة العيينة الواقعة شمال الرِّياض ، بينها وبين الرِّياض مسيرة سبعين كيلو متراً ، أو ما يقارب ذلك من جهة الغرب[٢] .

ونشأ على حبِّ العلم ، فطلبه منذ صغره ، وظهر منه نبوغٌ وتميُّز ، فحفظ القرآن الكريم ، ودرس الفقه الحنبليَّ ، والتَّفسير ، والحديث ، وتتلمذ على كتب ابن تيميَّة في الفقه ، والعقائد والرأي ، وأُعجب بها أيَّما إعجابٍ ، وتأثَّر بكتب ابن القيِّم ، وابن عروة الحنبلي ، وغيرهم من فحول هذا المنهل السَّلفي[٣] .

ورحل في طلب العلم إلى مكَّة ، والمدينة ، والبصرة ، والأحساء . وتعرَّض لفتنٍ عديدةٍ عندما جاهر بآرائه في العراق ، ثمَّ رجع بعد ذلك إلى نجد .

وعندما رجع إلى حريملاء ببلاد نجد بدأ دعوته بالأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، والاشتغال بالعلم والتَّعليم ، والدَّعوة إلى عقيدة التَّوحيد الصَّافية ، وحذَّر من الشِّرك ، ومخاطره ، وأنواعه ، وأشكاله ، وتعرَّض لمحاولة اغتيال من بعض السُّفهاء في حريملاء ، وانتقل بعد ذلك إلى بلدته العيينة ، وتلقَّاه أميرها بالتَّرحيب ، وشجَّعه على أمر الدَّعوة ، فأقام الشَّرع ، ونفَّذ الحدود ، وهدم القباب ، ولم يستمرَّ في حريملاء طويلاً بسبب ضغط أمير الأحساء على أمير

(١) انظر : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيِّين ، ص(١٨٤) .
(٢) انظر : إمام التوحيد محمَّد عبد الوهاب ، أحمد القطَّان ، ص(٣٥) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٣٦) .

حريملاء لقتل الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهاب، فخرج ماشياً على الأقدام إلى الدِّرعيَّة.

●● تحالفه مع محمَّد بن سعود:

استطاع محمَّد بن عبد الوهاب أن يتحالف مع الأمير محمَّد بن سعود الَّذي قام بماله ورجاله من أجل دعوة التَّوحيد، وكان هذا التَّحالف على أسسٍ متينةٍ، واستطاع الشَّيخ أن يواصل دعوته للنَّاس بالتَّعليم، والرَّسائل، والوعظ، واستمرَّ على هذا الحال يعلِّم، ويكتب الرَّسائل ويدبِّجها بالحجج، والبراهين، والأدلَّة على صحة دعواه، يدعو إلى إزالة المنكر، وهدم قباب القبور، وسدِّ ذرائع الشِّرك، وتحقيق العبودية لله وحده[1]. وظلَّت الدَّعوة مسالمةً متأنيَّةً، تطرق القلوب برفقٍ، وأناةٍ، وتدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، واستمرَّ يعلِّم من يحضر دروسه، ويوضح عقيدته، ويشرح مبادىء دعوته للقاصي والدَّاني، ولكنَّه رأى: أنَّ اللِّين يقابل بالشِّدَّة، وأنَّ الصِّدق يقابل بالكذب، والموعظة الحسنة يردُّ عليها بالمؤامرات، فلم يكن بدٌّ من دخول مرحلة الجهاد، وتغيير المنكر بالقوَّة.

إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلا الأَسِنَّةُ مَرْكَباً فَمَا حِيْلَةُ المُضْطَرِّ إِلا رُكُوْبُهَا[2]

وبدأ الشَّيخ يعاونه الأمير محمد بن سعود بإِعداد العدَّة من الرِّجال، والسِّلاح للخروج بجمع المجاهدين من الدِّرعيَّة إلى خارج حدودها؛ لنشر الدَّعوة، وتثبيت أركانها في الجزيرة، وخارجها، وكان الشَّيخ يشرف بنفسه على إعداد الرِّجال، وتجهيز الجيوش، وبعث السَّرايا، ويستمرُّ مع ذلك على الدَّرس، والتَّدريس، ومكاتبة النَّاس، واستقبال الضُّيوف، وتوديع الوفود، فقد جمع الله له العلم، والجاه، والعزَّة، والتَّمكين بعد جهادٍ طويل[3]، وقد كان له نظرٌ سياسيٌّ ثاقب، وخبرةٌ واسعةٌ في أمر الحرب، والسِّياسة[4].

واستمرَّت الحروب بين أنصار الدَّعوة وأعدائها سنين عديدةً، وكان النَّصر

(١) انظر: إمام التَّوحيد الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهاب، ص(٤٥، ٤٦).
(٢) انظر: استمراريَّة الدَّعوة، محمد السَّيد الوكيل (٣/ ٢٩٣).
(٣) انظر: إمام التَّوحيد محمَّد بن عبد الوهاب، ص(٥٣).
(٤) المصدر السَّابق نفسه، ص(٧٨).

حليف أصحاب الدَّعوة في أغلب المواقف ، وكانت القرى تسقط واحدةً تلو الأخرى ، وفي عام ١١٧٨هـ/ ١٧٧٣م فُتحت الرِّياض بقيادة الأمير عبد العزيز بن محمَّد بن سعود ، وفرَّ منها حاكمها السَّابق دهام بن دوَّاس ، وكان حاكما ظالماً غشوماً ، اعتدى على الدُّعاة مراراً ، ونقض العهود الَّتي أبرمها مع القائمين على الدَّعوة . وبعد فتح الرِّياض اتَّسعت رقعة الأرض الَّتي تخضع للدَّعوة ، ودخل كثيرٌ من النَّاس في الدَّعوة مختارين ، فقد أزيلت العوائق الَّتي كانت تصدُّهم عنها ، وانفرجت الأمور بعد ضيقٍ ، وجاء اليُسر بعد العُسر ، وكثرت الأموال ، وهدأت الأحوال ، وأمن النَّاس في ظلِّ الدَّولة الإسلاميَّة الفتيَّة ، الَّتي حرم النَّاس من نعمة الأمن مدَّة غيابها[١] .

وبعد وفاة الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهاب واصلت الدَّعوة مسيرها ، وساندها آل سعود بقوَّة السُّلطان ، وتحوَّلوا إلى الحجاز ، الَّتي كان يسيطر عليها الشَّريف غالب بن مساعد ، والَّذي شرع في شنِّ هجماتٍ على السُّعوديِّين ، دينيَّاً وعسكريَّاً . ودام الصِّراع بينهما حتى عام ١٨٠٣م حين دخل السُّعوديُّون مكَّة من غير أن يتعرَّضوا لأيَّة مقاومةٍ من جانب الشَّريف غالب ، الَّذي آثر الهروب إلى جدَّة ، وبعد عامين ضمَّ السُّعوديون المدينة المنوَّرة[٢] .

وامتدَّ نفوذ الحركة السَّلفيَّة على معظم الجزيرة العربيَّة ، وشعرت بريطانيا بخطورة هذا النُّفوذ على مصالحها . لقد أصبحت الدَّولة السُّعوديَّة الأولى يمتدُّ نفوذها على الخليج العربيِّ ، والبحر الأحمر ، ودخل القواسم في الخليج العربيِّ تحت نفوذها ، ووصل نفوذها إلى جنوب العراق ، وأصبحت تؤثِّر على الطَّريق البرِّيِّ بين أوربة والشَّرق ، وفوق هذا وذاك فإنَّ الأسس الدِّينيَّة الَّتي ترتكز عليها هذه الدَّولة قد قطع على بريطانيا إمكانيَّة تطويعها ، أو عقد الاتفاقيَّات معها ، حيث كان العداء للنُّفوذ الأجنبيِّ في المنطقة من أهم أهداف هذه الدَّولة[٣] .

لقد استطاع القواسم ، ومن خلفهم القوَّة السُّعوديَّة من توجيه ضرباتٍ موجعةٍ

---

(١) انظر : استمرارية الدَّعوة ، د . محمد الوكيل (٣/ ٢٩٤) .
(٢) انظر : العالم العربي في التَّاريخ الحديث ، ص(١٧) .
(٣) انظر : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيِّين ، ص(١٥٦) .

لأسطول الإنجليز في عام ١٨٠٦م ، وأصبحت مياه الخليج تحت سيطرتهم[١] .

لقد بلغت الدَّولة في زمن سعود بن عبد العزيز الأوج من النَّاحية السِّياسيَّة ، إذ وصلت كربلاء في العراق ، وإلى حوران في بلاد الشَّام ، وخضعت لها الجزيرة كاملةً باستثناء اليمن[٢] .

سابعاً : المؤامرة ضدَّ حركة الشَّيخ محمد بن عبد الوهاب :

فكَّر شياطين الإنس من أبناء أوربة في النَّتائج الَّتي يصلون إليها لو استمرَّت الدَّولة السُّعوديَّة الأولى ، ورأوا : أنَّ ذلك يقضي على مصالحهم في الشَّرق عموماً ، ولذلك لا بدَّ من تدمير هذه الدَّولة ، فسلكوا مسالك شتَّى للقضاء على نفوذ الدعوة السَّلفيَّة ، منها :

أوَّلاً : تأليب الرَّأي العام داخل ديار الإسلام ضدَّ دعوة الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب ، فقام الَّذين اعتقدوا بالبدع ، والخرافات على أنَّها من دين الإسلام بالتَّصدِّي لدعوة الشَّيخ ، ومقاومتها ، وليست هذه المقاومة من جهةٍ واحدةٍ ، أو من طرفٍ معيَّنٍ بل من كلِّ الجهات ، ومن كلِّ الأطراف ، أتت من قبل المشايخ الَّذين يتمسَّكون بالنُّفوذ الَّذي يعطيهم إيَّاه العامَّة ، وأهل الجهالة ، يبغون المحافظة على ما هم عليه من البدع ، والخرافات ظانِّين أنَّها من الدِّين ، أتت من سدنة القبور ، أتت من المستفيدين من صناديق النُّذور ، أتت من الَّذين يعيشون على الأطعمة ، والأموال الَّتي تقدَّم لهم في موالد الأموات ، والزِّيارات ، أتت أيضاً من الَّذين يعتقدون أنَّ الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب قد أتى بدينٍ جديدٍ يخالف ما اعتادوا عليه ، وأولئك كانوا منتشرين بأنحاء الدَّولة العثمانيَّة كلِّها ، بل وفي العالم الإسلامي أجمع ، حدث كلُّ ذلك بعد أن أشاع الإنجليز والفرنسيُّون أعداء الإسلام الفتاوى الَّتي استصدروها من علماء السُّوء بفساد ما يدعو إليه أتباع محمَّد بن عبد الوهَّاب[٣] .

ثانياً : الدَّسُّ والوقيعة بين حركة الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب ، وقيادة الدَّولة

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٥٨) .
(٢) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . جمال ، ص(٩٤) .
(٣) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . جمال عبد الهادي ، ص (٩٤) .

العثمانيَّة ، لقد ألقى الإنجليز ، والفرنسيُّون ، وغيرهم في روع السُّلطان محمود الثَّاني : أنَّ حركة الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب تهدف إلى الاستقلال بجزيرة العرب ، والانفصال عن الخلافة العثمانيَّة ، ثمَّ توحيد العالم العربي ، وانتزاع لواء الخلافة ، والقيادة من الدَّولة العثمانيَّة ، وإقامة خلافةٍ عربيَّةٍ ، واستجاب السُّلطان محمود الثَّاني لوشايات الأعداء ، وما كان له أن يفعل ذلك ، وكان اللَّائق به أن يشكَّ في هذا النُّصح الكاذب ، ويرسل من أمناء الدَّولة من يتحقَّق في الأمر ، ولم ينتبه سلطان المسلمين إلى خطورة تصديق هذا الخبر المدسوس على حركةٍ إسلاميَّةٍ صادقةٍ ، وتجاوب مع اقتراحات الأعداء بوجوب القضاء عليها قبل أن يستفحل أمرها ، وتُكلِّفُ الدَّولة الكثير من الأموال والرِّجال للقضاء عليها[١] .

وضعت الدَّولة العثمانيَّة خطَّتها لمحاربة الدَّولة السُّعوديَّة الأولى ، ورأت أن تلقي عبء هذه المهمَّة على كاهل الولاة في الأقطار المجاورة ، هادفةً بذلك إلى غرضين : الأوَّل للقضاء على التَّوسُّع السُّعودي في المشرق العربيِّ ، والآخر : إضعاف هؤلاء الولاة ، واستنزاف مواردهم حتَّى يظلُّوا ضعافاً خاضعين للدَّولة خضوعاً تامَّاً ، فاتَّجهت أوَّل الأمر إلى والي بغداد ؛ إذ كان أقرب الولاة إلى نجد ، إلا أنَّ ذلك الوالي كان مشغولاً بالارتباكات المحلِّيَّة في ولايته ، وكان جيشه من الضَّعف بحيث لا يقوى على مجابهة السُّعوديِّين ، وفشل عدَّة مرَّات في صدِّ هجماتهم على حدود العراق ، فاتَّجهت الدَّولة إلى والي الشَّام لعلَّه ينجح فيما فشل فيه والي العراق ، فكان نصيبه من الفشل أفدح من زميله ، ولمَّا يئست الدَّولة من قدرة ولاتها في بغداد ، والشَّام[٢] ولَّت وجهها شطر مصر ، فطلبت من واليها محمَّد علي عام ١٨٠٧ م أن يقوم بحملةٍ على بلاد العرب « لتصفية الحرمين الشَّريفين ، واستخلاصهما » من أيدي السُّعوديِّين ، واسترداد سلطة الدَّولة المشرفة على الزَّوال في جزيرة العرب . ولكنَّ محمَّد علي لم يلبِّ طلب الدَّولة إلا في عام ١٨١١ م بعد تخلُّصه من بكوات المماليك في مذبحة القلعة[٣] .

(١) المصدر السابق نفسه ، ص(٩٥) .
(٢) انظر : العالم العربيّ في التَّاريخ الحديث ، د . إسماعيل ياغي ، ص (١٧١) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٧٢) .

إنَّ أتباع الدَّعوة السَّلفيَّة لم يطلبوا الخلافة ، ولم يبدوا اعتراضهم على التَّبعيَّة لها ، ولكنَّ الخلاف قد انحصر في أمرين أساسيَّين ، الأول : هو مطالبة السَّلفيِّين بضرورة التزام وفود الحجيج بمنهج الإسلام ، والإقلاع عن كلِّ ما فيه خروجٌ عليه ، والأمر الثَّاني : هو شعور الدَّولة العثمانيَّة بالحرج والضَّعف أمام سيطرة الوهَّابيِّين على المدن المقدَّسة في الحجاز ، حيث أدركوا أنَّ في ذلك إسقاطاً لهيبتهم ، ومكانتهم السِّياسيَّة[١] .

وقد بيَّن الجبرتي أنَّ موقف الوهَّابيِّين من وفود حجيج الشَّام « بألا يأتوا إلا على الشَّرط الَّذي اشترطوه عليهم ، وهو » : أن يأتوا بدون المحمل ، وما يصحبهم من الطَّبل ، والزَّمر ، والأسلحة ، وكلِّ ما كان مخالفاً للشَّرع . فلمَّا سمعوا ذلك رجعوا من غير حجٍّ ، ولم يتركوا مناكيرهم »[٢]، كما ذكر موقفاً مماثلاً من موكب الحجِّ المصري[٣] .

واقتصر مرسوم السُّلطان العثمانيِّ القاضي بطلب الحرب مع السُّعوديِّين من محمَّد علي ، وبدافعٍ من رسائل شريف جدَّة ، وكذلك بوحيٍ وتشجيعٍ من الإنجليز ، على « استخلاص الحرمين ، والوصيَّة بالرَّعيَّة والتُّجَّار »[٤] ، وتكرَّر نفس الطَّلب بعد ذلك مجدِّداً الاقتصار على تخليص الحرمين الشَّريفين . وفي أعقاب نجاح القوَّات العسكريَّة في الاستيلاء على بلاد الحجاز ، بعد أن هزمت وأخفقت عدَّة مرَّات أمام أتباع الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب أرسل السُّلطان محمود الثَّاني مرسوماً إلى مصر يُقرأ في المساجد باستعادته للحرمين الشَّريفين[٥] ، وهو أمر يوحي بأنَّ السُّلطان العثمانيَّ ليس له هدفٌ آخر سوى عودة الحجاز للسِّيادة العثمانيَّة .

كان من الممكن أن تنتهي هذه الحرب إلى هذا الحدِّ ، فقد سيطرت قوَّات محمَّد علي على مدن الحجاز ، وعيَّن محمَّد علي شريفاً جديداً على منطقة الحجاز

---

(١) انظر : قراءةٌ جديدةٌ في التَّاريخ العثماني ، ص (١٨٥) .
(٢) انظر : من أخبار نجدٍ والحجاز ، محمد أديب غالب ، ص (١١١) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١١١ ، ١١٢) .
(٤) قراءةٌ جديدةٌ في التَّاريخ العثمانيِّ ، ص (١٨٦) .
(٥) انظر : من أخبار الحجاز ونجد ، محمَّد أديب غالب ، ص (١١٠) .

الَّذي اضطرَّ للسَّفر إليها ، وقام بطرد الشَّريف غالب الَّذي ساند قوَّاته ، وساعدها على دخول الحجاز[١] ، كما أنَّ قادة الدَّعوة السَّلفيَّة السُّعوديِّين قد عرضوا عليه الصُّلح ، ولكن محمد علي وضع شروطاً صعبة التحقيق لقبول الصُّلح ، وكذلك ضمَّن ردَّه على طلب الصُّلح تهديداً يرويه الجبرتي ، فيقول : (وأمَّا الصُّلح فلا نأباه بشروطٍ وهو أن يُدفع لنا كلُّ ما صرفناه على العساكر من أوَّل ابتداء الحرب إلى وقت تاريخه ، وأن يأتيَ بكلِّ ما أخذه ، واستلمه من الجواهر ، والذَّخائر الَّتي كانت بالحجرة الشَّريفة ، وكذلك ثمن ما استهلك منها ، وأن يأتي بعد ذلك ، ويتلاقى معي وأتعاهد معه ، ويتم صلحنا بعد ذلك ، وإن أبى ذلك ، ولم يأتِ ؛ فنحن ذاهبون إليه)[٢] .

ثامناً : حقيقة حملة محمَّد علي على الحجاز ونجد :

إنَّ الحرب بين محمَّد علي وأتباع الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب لم تكن بين قوَّات يدين طرفاها بالإسلام ، كما لم تكن حرباً عربيَّةً ، كما يحاول البعض أن يصفها ، بل إنَّ هذه الحرب كانت بين قوَّة إسلاميَّةٍ ليست لها أيَّة أطماع سياسيَّةٍ ، ولكنَّها أبدت غيرةً ، وحرصاً على العودة إلى المبادىء الأساسيَّة للدِّين الإسلاميِّ ، وهي القوَّة السُّعوديَّة ، كما أظهرت حماساً في دفع خطر المستعمرين (الكفَّار) عن الدِّيار الإسلاميَّة ، أمَّا القوَّة الَّتي حاربتها ، والمرسلة من قبل والي مصر ـ والَّتي لم تكن مصريَّة بأيِّ صورةٍ من الصُّور ؛ فأغلبها من الأرناؤوط ، وبعض الأتراك ، والنَّصارى ، وبعض الضُّبَّاط الفرنسيِّين[٣] ، ولا يحمل أغلب قادتها من الإسلام سوى الاسم ، ويصوِّر لنا المؤرِّخ الجبرتي طبيعة هذه القوَّة من خلال تعليق مَنْ وصفه بالصَّلاح ، والورع ، وهو شاهد عيانٍ ، على هزيمة هذه القوَّات في البداية أمام أتباع الدَّعوة السَّلفيَّة ، فيقول :

(أين لنا النَّصر . . وأكثر عساكرنا على غير الملَّة ! وفيهم من لا يتديَّن بدينٍ ، ولا ينتحل مذهبنا ، وصحبتُنا صناديق المسكرات ، ولا يسمع في عرضينا أذانٌ ،

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٠٠) .
(٢) عجائب الآثار أخبار يوم آخر ذي القعدة سنة ١٣٢٨ هـ ، أديب غالب ، ص (١٤٩) .
(٣) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . محمَّد أنيس ، ص (٢٣٣) .

ولا تقام به فريضةٌ ، المؤمنون ينتظمون صفوفاً خلف إِمامٍ واحدٍ بخشوعٍ وخضوعٍ ، وإِذا حان وقت الصَّلاة والحرب قائمةٌ ، أذَّن المؤذِّن وصلُّوا صلاة الخوف فتتقدَّم طائفةٌ للحرب ، وتتأخَّر الأخرى للصَّلاة وعسكرنا يتعجَّبون من ذلك ؛ لأنَّهم لم يسمعوا به فضلاً عن رؤيته ، وينادون في معسكرهم هلمُّوا إِلى حرب المشركين ، المحلِّقين الذُّقون ، المستبيحين الزِّنى واللِّواط ، الشَّاربين الخمور ، وكشفوا عن كثيرٍ من قتلى العسكر ، فوجدوهم غلفاً غير مختونين ، ولمَّا وصلوا بدراً ، واستولوا عليها ، وعلى القرى ، والخيوف ، وبها خيار النَّاس وبها أهل العلم الصُّلحاء ؛ نهبوهم ، وأخذوا نساءهم ، وبناتهم ، وأولادهم ، وكتبهم)[(١)] .

إِنَّ محمَّد علي لم يكن متقيِّداً بشرع الله في حربه ، بل كان مخالفاً للشَّرع ، متعدِّياً على حدود الله تعالى ، غير مبالٍ بأحكام الإِسلام ، فهذا جيشه يقتل ، ويدمِّر ، ويأخذ الأموال ، ويهتك الأعراض من المسلمين الموحِّدين .

فهذا عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ في موقعة الجمل يقول لأصحابه : (لا تتبعوا مدبراً ، ولا تُجهزوا على جريحٍ ، ومن ألقى سلاحه فهو آمنٌ)[(٢)] .

وقال : (. . وإِيَّاكم والنِّساء ، وإِن شتمن أعراضكم ، وسببن أمراءكم ، وإِنَّ الرَّجل ليتناول المرأة بالجريدة ، أو الهراوة فيعيَّر بها هو ، وعقبه من بعده . . .)[(٣)] .

وعن أبي أمامة الباهليِّ ـ رضي الله عنه ـ قال : « شهدت صفِّين ، وكانوا لا يجهزون على جريحٍ ، ولا يقتلون مولِّياً ، ولا يسلبون قتيلاً . . »[(٤)] .

إِنَّ السُّلطان العثمانيَّ كان يكفيه خضوع الحجاز لحكمه ، ومهاجمة الدِّرعيَّة لم تكن مطلباً ملحّاً ، أو ضروريّاً للدَّولة العثمانيَّة ، وكان محمَّد علي متشدِّداً في شروط الصُّلح ممَّا يدلُّ على حرصه على استمرار الحرب ؛ لأنَّ هدفه من هذه الحرب خدمة أطماعه التَّوسُّعيَّة في إِطار ما تسمح به أهداف السِّياسة البريطانيَّة في المنطقة ، بعد أن أصبحت الدَّولة السُّعوديَّة تشكِّل خطراً بالغاً على الوجود البريطاني

---

(١) انظر : قراءةٌ جديدةٌ في التَّاريخ العثماني ، ص (١٨٨) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة ، كتاب الجمل (١٥/ ٢٦٣) .
(٣) نصب الرَّاية للزَّيلعي (٣/ ٤٦٣) .
(٤) الحاكم في المستدرك (٢/ ١٥٥) بسندٍ صحيحٍ ، ووافقه الذَّهبي .

في المنطقة بأسرها سواءٌ في البحر الأحمر ، أم في الخليج العربيِّ ، أم في وصولها إِلى الطَّريق البرِّيِّ عبر العراق ، وأصبحت بريطانيا تحسُّ بتهديدٍ حقيقيٍّ لمصالحها في الشَّرق ، ولهذا فإِنَّ وصف هذه الحملة بأنَّها حملة صليبيَّة في ثوبٍ إِسلاميٍّ يعدُّ وصفاً حقيقيّاً[١] .

عندما انهزم طوسون بن محمَّد علي أمام الأمير عبد الله بن سعود ، وتحطم نصف جيشه ؛ خرج محمَّد علي بنفسه إِلى الحجاز عام ١٨١٣ م ، وقبض على شريف مكَّة غالب بن مساعد واتَّهمه بالتَّآمر مع السُّعوديِّين ، وصادر كل ما يملك من أموالٍ ، وأثاثٍ ، ومتاعٍ ، وبذلك أصبح شريف مكَّة من موظَّفي محمَّد علي في الحجاز . ولم يلبث أن انتصر محمَّد علي في يناير ١٨١٥ م على القوَّات السُّعوديَّة في موقعة بسل[٢] ، وهي الموقعة الَّتي يعتبرها البعض « من أكبر وقائع الحرب الوهَّابيَّة ، بل من أهم المعارك في تاريخ مصر الحربيِّ »[٣] .

ولم يمكث محمَّد علي في الجزيرة العربيَّة ليتابع النَّصر الَّذي أحرزه ، بل عاد إِلى مصر تاركاً ابنه طوسون بالحجاز[٤] ، وسرعان ما تمكَّن طوسون من هزيمة السُّعوديِّين هزيمةً جديدةً لأوَّل مرَّةٍ ، وأسرع بالزَّحف على القسم الشَّمالي من نجد ، فبلغ في زحفه مدينة الرَّسِّ ، ثمَّ احتلَّ الشَّبية وأصبح الطَّريق إِلى الدِّرعيَّة مفتوحاً أمامه ، وأسرع الأمير عبد الله بطلب فتح باب المفاوضات حقناً للدِّماء ، وحماية للمدن ، والقرى ، ودارت المفاوضات بين الطَّرفين على مشروع الصُّلح بالشُّروط التَّالية :

١ ـ احتلال القوَّات المصريَّة الدِّرعيَّة .

٢ ـ أن يضع الأمير عبد الله نفسه تحت تصرُّف طوسون باشا ، فيسافر إِلى الجهة الَّتي يريده أن يسافر إِليها .

٣ ـ أن يؤمِّن الأمير عبد الله سبل الحجِّ ، وأن يكون خاضعاً لحكم المدينة من

---

(١) انظر : قراءةٌ جديدةٌ في التَّاريخ العثماني ، ص (١٨٩) .
(٢) انظر : الدَّولة السُّعوديَّة الأولى ، د . عبد الرَّحيم عبد الرَّحمن ، ص (١٩٩ ـ ٢٣٥) .
(٣) انظر : قراءةٌ جديدةٌ في التَّاريخ العثماني ، ص (١٧٢) .
(٤) المصدر السابق نفسه ، ص (١٧٢) .

قبل محمّد علي إلى حين الموافقة على الصُّلح .

٤ ـ ألا تصبح هذه الشُّروط ـ في حالة الاتِّفاق عليها ـ نافذة المفعول إلا بعد إقرارها من محمّد علي .

غير أنَّ هذه الشُّروط لم تقبل من جانب الأمير عبد الله ، وقرّر إرسال وفد إلى مصر للتَّفاوض مع محمّد علي مباشرةً حول شروط الصُّلح ، إلا أنَّ الوفد فشل في مسعاه بسبب تشدُّد الباشا ، وتأهّب السُّعوديُّون للحرب ، والقتال ، فأرسل محمَّد علي حملةً جديدةً عام ١٨١٦ م بقيادة ابنه إبراهيم باشا[١] .

وزحف إبراهيم باشا بقوَّاته من الحجاز صوب نجدٍ ، ونجح في الاستيلاء على مدن عنيزة ، وبريدة ، وشقراء ، وإخضاع كلِّ منطقة القصيم ، واتّبع إبراهيم في زحفه سياسة الملاينة مع القبائل ، وهي سياسةٌ كان من شأنها استمالة عددٍ كبيرٍ من أهل نجد ؛ إذ كان يعقد دائماً المجالس ، ويمنح الهبات للنَّاس ، واتَّخذ في بداية الأمر أسلوباً استعطف به القبائل ، فمنع النَّهب ، والسَّلب ، واستطاع بخبرائه العسكريِّين الفرنسيِّين أن يواصل زحفه حتَّى الدِّرعيَّة الَّتي ضرب الحصار عليها لمناعتها ، وكان حصاراً طويلاً استمرَّ من ٦ أبريل إلى ٩ سبتمبر ١٨١٨ م ، وانتهى باستسلام الأمير عبد الله بن سعود ، ودخول إبراهيم الدِّرعيَّة ، حيث أرسل من هناك الأمير السُّعودي في حراسةٍ مشدَّدةٍ إلى مصر ، ثمَّ أرسل من القاهرة إلى إستانبول[٢] لقد شُهِّر بالأمير عبد الله في شوارع إستانبول ثلاثة أيّامٍ كاملة ثمَّ أمر بإعدامه شنقاً ، فرحمة الله على ذلك المظلوم[٣] وستظهر حقيقة مقتله يوم الأشهاد . إنَّه الَّذي دعا إلى الصُّلح صلح أهل الجزيرة من خلال رسالةٍ وجّهها الشَّيخ أحمد الحنبلي إلى طوسون ، لقد بيّنوا : أنَّهم يعترفون بإمارة السُّلطان العثماني ، وأنَّهم لا يخرجون على دولة الخلافة ، فَلِمَ إذاً كان الإصرار على توجيه القوّات إلى جزيرة العرب ؟ وهكذا أزهقت أرواح المسلمين بأيدي بعضهم البعض ، نتيجة كيد الأعداء .

---

(١) انظر : الدّولة السُّعوديّة الأولى ، ص(٣٣٩ ـ ٣٤٥) .
(٢) انظر : العالم العربيّ في التَّاريخ الحديث ، ص (١٧٤) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٧٤) .

لقد قام أهل الجزيرة بمساندة مسلمي مصر عندما احتلَّها الفرنسيُّون ، فلماذا هذا الاعتداء المتعمَّد ؟ ! إنَّ محمَّد علي استطاع بواسطة الزُّعماء الَّذين يُنسبون إلى الإسلام أن يقنع كثيراً من عوامِّ النَّاس بأنَّهم يفعلون ذلك امتثالاً لأمر خليفة رسول الله ، الَّذي له عليهم حقُّ السَّمع ، والطَّاعة ، وأنَّ الهدف من ذلك منع جزيرة العرب من الانفصال عن جسد دولة الخلافة[(١)] .

إنَّ قضيَّة الولاء ، والبراء كانت غائبةً تماماً عن محمَّد علي ، بدليل : أنَّه أعطى ولاءه لأعداء الإسلام ، وسمح لهم بأن يقودوه ، ويقودوا الأمَّة معه إلى حتفها ، وهذه نتيجةٌ عمليَّةٌ لوصول تاجر دخان ظلَّ غير معروف النَّسب إلى سدَّة الحكم في بلاد المسلمين[(٢)] .

لقد كانت سعادة بريطانيا كبيرةً عندما علمت بسقوط الدِّرعيَّة ، عاصمة الدَّولة السُّعوديَّة الأولى في أيدي قوَّات إبراهيم باشا[(٣)] ، فقد كانت هي الدَّولة السَّلفيَّة الَّتي دعمت القواسم في جهادهم ضدَّ بريطانيا في الخليج العربي ، ممَّا يعني تهديد المصالح البريطانيَّة في الهند ، كما أسلفنا[(٤)] ، وهنا يجدر بنا أن نسأل ، خاصَّةً في تلك الأحداث الَّتي عاشها العالم الإسلاميُّ في تاريخه الحديث ، لنقول : لو أنَّ جيوش محمَّد علي ، وجيوش الدَّولة العثمانيَّة تعاونت مع الدَّولة السُّعوديَّة الأولى بدلاً من أنْ تحاربَها ، لِتَقِفا معاً في وجه الأطماع الأوربيَّة بشكلٍ عامٍّ ، وبريطانيا بوجهٍ خاصٍّ ، إنَّه لو تمَّ ذلك لتغيَّر وجه التَّاريخ ، خاصَّةً أنَّ الدَّولة السعوديَّة دولةٌ مسلمةٌ أقامت دعائمها على المبدأ السَّلفي الصَّحيح ، والعالم الإسلاميُّ في تلك الفترة في أمسِّ الحاجة إليها ، وعلى أيَّةِ حالٍ فلقد أدركت بريطانيا مدى الاستفادة من هذه الظُّروف ، فأسرعت بزفِّ التَّهاني إلى إبراهيم باشا ، من مبدأ الاحتواء في ضوء المصالح الذَّاتيَّة لها ، وبعثت بالكابتن جورج فورستر سادلير[(٥)] لتقديم التَّهنئة

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . جمال عبد الهادي ، ص (٩٦) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) انظر : دراساتٌ في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر (١/١٩٨) .
(٤) انظر : تاريخ الأحساء السِّياسي ، د . محمَّد عرابي ، ص (٤٢ ـ ٤٣) .
(٥) ج ج لوريمر : دليل الخليج التَّاريخي (٢/١٠٠٩ ـ ١٠١٠) .

لإبراهيم باشا لاستيلائه على الدِّرعيَّة ، ولمحاولة إيجاد قاعدةٍ يمكن من خلالها التَّنسيق بين قوَّات الباشا البرِّيَّة ، والقوَّات البريطانيَّة البحريَّة للقيام بعملٍ حربيٍّ مشتركٍ ضدَّ القواسم ، أتباع الدَّولة السُّعوديَّة الأولى(١) .

إنَّ العلاقة بين بريطانيا ، ومحمَّد علي قديمةٌ ، وفي بداية حكمه دخل في مفاوضاتٍ معهم استمرَّت أربعة أشهر أكَّد فيها محمَّد علي جدِّيَّته ، ورغبته المخلصة في الارتباط بهم ، بل وطلب وضع نفسه تحت حمايتهم ، وهو ما يؤكِّده تقرير فريزر الَّذي تولَّى التَّفاوض معه ، الأمر الَّذي أدَّى ـ بعد اقتناعهم بذلك ـ إلى تخلِّيهم عن أصدقائهم من المماليك ، وقد تضمَّن التَّقرير الَّذي أعدَّه قائد الحملة فريزر الَّذي تفاوض مع رسل محمَّد علي ، والَّذي أرسله إلى الجنرال مور في ١٦ أكتوبر سنة ١٨٠٧ م أهمَّ جوانب هذه المفاوضات ، فقد جاء فيه : (أرجو أن تسمحوا لي بأن أبسط لكم ؛ ليكون . . . موضع نظركم فحوى محادثةٍ جرت بين باشا مصر ، والميجر جنرال « شريوك » والكابتن « فيلوز » أثناء قيامهما بمهمَّتهما لدى سموه ـ ولديَّ ما يجعلني أعتقد أنَّ هذه المحادثة ـ ومن اتِّصالاتٍ خاصَّةٍ كثيرةٍ أخرى كانت لي معه ـ بأنَّه جادٌّ ، وصادقٌ فيما يقترحه ـ لقد أبدى محمَّد علي باشا والي مصر رغبته في أن يضع نفسه تحت الحماية البريطانيَّة ، ووعدناه بإبلاغ مقترحاته إلى الرُّؤساء في قيادة القوَّات البريطانيَّة ؛ كي يقوم هؤلاء بإبلاغها إلى الحكومة الإنجليزيَّة للنَّظر فيها ، ويتعهَّد محمَّد علي من جانبه بمنع الفرنسيِّين والأتراك ، أو أيِّ جيشٍ تابعٍ لدولةٍ أخرى من الدُّخول إلى الإسكندريَّة من طريق البحر . ويعد بالاحتفاظ بالإسكندريَّة كصديقٍ ، وحليفٍ لبريطانيا العظمى ، ولكنَّه لا مناصَ له من الانتظار أن تعاونه إنجلترا بقوَّاتها البحريَّة ؛ إذا وقع هجومٌ عليه من جهة البحر ؛ لأنَّه لا يملك سفناً حربيَّةً ، ويوافق محمَّد علي باشا في الوقت نفسه على تزويد كلِّ السُّفن البريطانيَّة الَّتي تقف على بعدٍ من الإسكندريَّة بما قد تحتاج إليه من ماء النِّيل عند إعطائها إشارةً يصير الاتِّفاق عليها)(٢) .

وقد علَّق القنصل الفرنسي دروفتي على ما بلغه من معلوماتٍ حول الاتِّفاق بين

---

(١) انظر : حروب محمَّد علي في الشَّام ، د . عايض الرُّوقي ، ص (١١٢) .
(٢) انظر : مصر في مطلع القرن التَّاسع عشر ، د. محمَّد فؤاد شكري (٢/ ٨٥٦ ، ٨٥٧) .

محمَّد علي والإنجليز ؛ الَّذي هو من نوع معاهدة بأنَّ (مثل هذه المعاهدة عند إبرامها سوف تحقِّق الأغراض الَّتي توخَّاها الإنجليز من إرسال حملتهم على مصر إن لم يَفُق أثرها من هذه النَّاحية كلَّ ما كان يتوقَّعه هؤلاء من إرسال هذه الحملة)(١) .

ولم يشأ الإنجليز الإعلان عن كلِّ ما احتوته بنود هذه الاتِّفاقيَّة في أعقاب توقيعها ، وإخلائهم الإسكندريَّة ، وتسليمها إلى باشا مصر ، حيث رأت بريطانيا ضرورة التَّريُّث في ذلك لما تحتويه من إعلان العداء الواضح للدَّولة العثمانيَّة ، لمساندتها لحاكم يريد الاستقلال عنها في وقتٍ كانت الدِّبلوماسيَّة الإنجليزيَّة لها مصالحها الكبرى مع دولة الخلافة ، والاستفادة منها ومن عميلها الجديد لبسط نفوذها على المنطقة ؛ إن أمكن(٢) .

تاسعاً : ثورة اليونان :

كانت أوربة حريصةً على تمزيق الدَّولة العثمانيَّة ، واتَّخذت لذلك الهدف وسائل متعدِّدةً ، منها : إثارة الفتن الطَّائفيَّة ، والدِّينيَّة ، وتفجير الثَّورات الدَّاخليَّة بدعمها المادِّيِّ والمعنويِّ . كانت بلاد اليونان تشكِّل جزءاً من ديار الإسلام ، ويؤذَّن في مدنها ، وأريافها للصَّلوات الخمس في اليوم واللَّيلة لقرونٍ عديدةٍ ، وكانت تُحكم بشريعة الإسلام ، وكان ذلك لا يروق لزعماء النَّصارى سواءٌ من اليونان ، أو غيرهم من الدُّول الأوربيَّة ، ولذلك شرعوا في تأسيس جمعيَّاتٍ سرِّيَّةٍ في داخل بلاد اليونان ، وفي روسيا ، وغيرها ، هدفها إحياء الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة القديمة على أن تكون تحت إدارة البطريركيَّة الأرثوذكسيَّة الرُّوميَّة في إستانبول ، ولو أصبح كثيرٌ من البطارقة ، والقساوسة ، ورجال الدِّين أعضاء أصليِّين في هذه الجمعيَّات السِّرِّيَّة المناهضة للدَّولة العثمانيَّة(٣) . وقام رجال الدِّين باستخدام نفوذهم على الشَّعب ، وتحريكهم للثَّورة ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة ، وكان القساوسة ورجال الدِّين على صلاتٍ وثيقةٍ بزعماء الدُّول الأوربيَّة ، وخصوصاً روسيا ، ونجد وثيقةً تاريخيَّةً هامَّةً تدلُّ على هذا الاتِّصال من أجل التَّنسيق ، والتَّعاون على تدمير الدَّولة العثمانيَّة ،

---

(١) المصدر السَّابق نفسه (٢/٨٢٦) .
(٢) انظر : قراءة جديدة في التَّاريخ العثمانيِّ ، ص (١٧٤) .
(٣) انظر : دور الكنيسة في هدم الدَّولة العثمانيَّة ، ثريا شاهين ، ص (٥٦ ، ٥٧) .

وشعبها ، ومقوِّماتها :

(وهذا نصُّ رسالة البطريرك « جريجو ريوس » إلى قيصر روسيا يبيِّن له فيه كيفيَّة هدم الدَّولة العثمانيَّة من الدَّاخل) :

(من المستحيل سحق ، وتدمير الأتراك العثمانيِّين بالمواجهة العسكريَّة ؛ لأنَّ الأتراك العثمانيِّين ثوريُّون جدّاً ، ومقاومون ، وواثقون من أنفسهم ، وهم أصحاب عزَّة نفسٍ واضحةٍ ، وهذه الخصال الَّتي يتمتَّعون بها إنَّما تنبع من ارتباطهم بدينهم ، ورضائهم بقضاء الله ، وقدره ، وتشبُّعهم بهذه العقيدة ، وأيضاً من قوَّة تراثهم ، وتاريخهم ، وطاعتهم ، ومؤازرتهم لسلطانهم ، وقادتهم ، واحترامهم لكبارهم .

الأتراك العثمانيُّون أذكياء ، وهم مجدُّون ، مجتهدون ، متجاوبون مع رؤسائهم الَّذين يوجِّهونهم ، ويقودونهم في الطَّريق الإيجابي الصَّحيح ممَّا يجعلهم قوَّةً هائلةً يُخشى منها ، فهي تتميَّز بالقناعة ، والتَّصميم ، وشدَّة المراس ، والثَّبات عند المواجهة .

إنَّ كلَّ مزايا الأتراك العثمانيِّين هذه ، بل وبطولاتهم ، وشجاعتهم إنَّما تأتي من قوَّة تمسُّكهم بدينهم، وارتباطهم بأعرافهم ، وتقاليدهم ، وصلابة أخلاقهم ، ولذا :

أوَّلاً : لا بدَّ من كسر شعور الطَّاعة عندهم تجاه سلطانهم ، وقادتهم ، وتحطيم روحهم المعنويَّة ، وروابطهم الدِّينيَّة ؛ وأقصر طريق لتنفيذ هذا : تعويدهم التَّعايش مع أفكار ، وسلوكيَّات غريبة لا تتواءم مع تراثهم الوطني والمعنوي .

ثانياً : لا بدَّ من إغراء الأتراك العثمانيِّين لقبول المساعدات الخارجيَّة الَّتي يرفضونها من إحساسهم بعزَّتهم ، وتعويدهم عليها ؛ حتَّى لو أدَّى ذلك إلى إعطائهم قوَّةً وقدرةً ظاهرتين فقط لمدَّةٍ محدودةٍ .

وفي اليوم الَّذي تهتزُّ فيه معنويَّاتهم ، ستهتزُّ قدراتهم الذَّاتيَّة ، فهذه المعنويَّات والرَّوابط هي الَّتي تدفعهم نحو النَّصر ، إضافةً إلى قدراتهم الأخرى ، وكثرتهم العدديَّة ، الَّتي تبدو في الشَّكل أكبر ممَّا هي عليه في الواقع في السَّيطرة ، والحكم ، ووجودهم في المجتمع الدولي .

كذلك يمكن هدمهم ، وتدميرهم بإعلاء أهمِّيَّة وقيمة الأمور المادِّيَّة في

تصوُّراتهم ، وأذهانهم ـ أي : إفسادهم بالإغراءات المادِّيَّة ـ فإنَّه ليس بكافٍ إحراز انتصاراتٍ عليهم في ميدان الحرب العسكريَّة فقط ، ولكن العكس هو الصَّحيح ؛ لأنَّه إذا اتُّبع طريق الحرب ـ وحده ـ لتصفية الدَّولة العثمانيَّة ، يكون سبباً في تنبُّههم ، وسرعة إيقاظهم ، ووصولهم لمعرفة حقيقة ما يخطَّط ، ويُبيَّت في الخفاء لهم ، ولوطنهم من تخريبٍ ، وتدميرٍ .

إنَّ ما يجب علينا عمله هو إكمال هذه التَّخريبات في بنيتهم الذَّاتيَّة والاجتماعيَّة ومكانتهم الدَّوليَّة دون أن يشعروا بشيءٍ)[1] .

لقد كان البطريرك « جريجو ريوس » بطريرك إستانبول عضواً فعَّالاً في خدمة الجمعيَّة ، وكان يستخدم كلَّ موظَّفيه وكلَّ نفوذه لتنفيذ أوامر الجمعيَّة السِّرِّيَّة الَّتي تسعى لقيام دولة اليونان الكبرى ، وكانت خطوات الجمعيَّة كالتَّالي :

١ ـ إنشاء جمعيَّاتٍ سرِّيَّةٍ في كلِّ مكانٍ في الدَّولة العثمانيَّة ، والقيام بتسجيل أغنياء الرُّوم ، وأكثرهم نفوذاً ، في هذه الجمعيَّات ، كان هذا من أجل ضمان المساعدات المادِّيَّة ، والمعنويَّة .

٢ ـ تعيين المشهورين من الهيلينيِّين من رجال الكنيسة رؤساء للجمعيَّة .

٣ ـ تأسيس شركاتٍ تجاريَّةٍ لتأمين مصدرٍ ماليٍّ للجمعيَّة السِّرِّيَّة .

٤ ـ الإفادة من الشَّباب الهيليني الَّذي يدرس في أوربة .

٥ ـ العمل على تأمين مساعدة الدُّول الكبرى[2] .

وامتدَّت شبكات الجمعيَّة السِّرِّيَّة في بلاد المورة ، وخارجها ، وعملت المكائد للتَّخلُّص من العوائق الدَّاخليَّة ، وأعلنت تمرُّدها عام ١٨٢١ م ، وفي هذا التَّمرُّد قام جرمانوس أسقف باتراس ـ رئيس تنظيم الجمعيَّة السِّرِّيَّة في المورة ـ بحمل علم عليه صورة مريم بزعمه ، وأخذ يصيح (يا أيَّتها الأمَّة اليونانيَّة ! هيَّا أفيقي ، واقتلي الأتراك) . ويدعو كلَّ الرُّوم للحرب ضدَّ العثمانيِّين ، وفي هذا الوقت أيضاً كان

---

(١) دور الكنيسة في هدم الدَّولة العثمانيَّة ، تأليف ثريَّا شاهين ، ترجمة محمَّد حرب ، ص (٧٠ إلى ٧٢) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٦٠) .

التَّمرُّد قد بدأ يتَّسع نطاقه ، وانتشاره .

بدأ هذا التَّمرُّد عام ١٨٢١ م ، مكتسباً شخصيَّةً وطنيَّةً ، ودينيَّةً ، وقاده رجال الدِّين .

وقد صرَّح مكاريوس رئيس جمهوريَّة قبرص السَّابق في حوارٍ أجراه معه الصَّحفي ، والمحامي التُّركي (نوزاد قراكيل) عام ١٩٥١ م بقوله : (. . . ربَّما تعلمون : أنَّ الكنيسة قادت تمرُّد اليونان ـ ضدَّ العثمانيِّين ـ عام ١٨٢١ م ، وكان القساوسة هم الَّذين أخذوا بزمام المبادرة ؛ أي : أنَّهم أوَّل من رفع راية التَّمرُّد ، وعن طريقهم حصلت اليونان على استقلالها من الدَّولة العثمانيَّة)[١] ثمَّ قال : إنَّ الحرِّيَّة هي الفكرة المثلى للمسيحيَّة[٢] .

والحقُّ : أنَّ هذا هو الواقع ، لقد كُلِّف القساوسة بإبلاغ القرى ، والقصبات بأنَّ الهجوم على الأتراك ـ للقضاء عليهم ـ سيحدث ليلة عيد الفصح ، وأخذوا يقسمون بعدم إفشاء هذا السِّرِّ لأحدٍ قبل موعده المحدَّد ، علم العثمانيُّون من بعض أصدقائهم بهذا الموقف فانسحبوا ـ من قبيل الاحتياط ـ إلى القلاع ، ولكن لم تجد هذه القلاع مدداً ، فلم تقوَ على الصُّمود ، فسقطت واحدةٌ تلو الأخرى في أيدي العصاة المتمرِّدين .

وفي مدَّةٍ قليلةٍ ـ حوالي ثلاثة أسابيع ـ استطاع المتمرِّدون خلالها السَّيطرة على المورة كلِّها ، باستثناء المقاومة الشَّديدة الَّتي أبداها العثمانيُّون في قلعة (تريبوليجة) ـ وهي مركز ولاية المورة ـ حيث استمرَّت هذه المقاومة شهوراً عديدةً ، وقد قتل الرُّوم ـ بوحشيَّةٍ منقطعة النَّظير ـ العثمانيِّين الَّذين وقعوا في الأسر ـ أثناء هذا التَّمرُّد ـ وسلبوا أموالهم .

كان رجال الدِّين على صلةٍ مستمرَّةٍ ، وقويَّةٍ بكبار رجال جمعيَّة (الفكرة العظمى) ودائماً في تعاونٍ وثيقٍ معهم . وساعد القساوسة في الأديرة القوَّات الرُّوميَّة في الأفلاق ، والبغدان ، ودفعت لهم الكنيسة الأموال من صناديقها .

(١) دور الكنيسة في هدم الدَّولة العثمانيَّة ، ص (٦٥) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٦٥) .

كذلك سمح القساوسة للمتمرِّدين باستخدام الأديرة مخازن للمدافع ، والبارود ، كما سمحوا لهم باستخدامها (أي : الأديرة) ملاجىء لهم .

وقد أرسل المطران باليابادرا رسالة إلى القنصل الرُّوسي ، قال له فيها : (من أجل التَّخلُّص من الأتراك تماماً يجب أن تقوم روسيا بمساعدة الشَّعب المتمرِّد) .

لعب البطريرك جريجوريوس دوراً كبيراً في تمرُّد الرُّوم ضدَّ الحكم العثماني كما ذكرنا سابقاً ، ولكن لا بدَّ أن نوضِّح أن هذا البطريرك رغم أنَّه كان عضواً في جمعيَّة مبدأ إقامة اليونان الكبرى ، أو ما يسمِّيه الرُّوم باسم الفكرة العظمى ، فقد خاف عندما أعلنت روسيا ـ حسب مقتضيات السِّياسة الرُّوسيَّة وقتها ـ أنَّها تستنكر عصيان الأرثوذكس ، فاضطرَّ البطريرك جريجوريوس إلى إصدار مرسومٍ سمَّاه باسم (بيان الحرمان) ضدَّ المتمرِّدين[١] .

استطاعت المخابرات العثمانيَّة أن تأتي بمعلوماتٍ مؤكَّدةٍ وموثَّقةٍ مفادها : (أنَّ خطَّة إقامة دولة اليونان الأرثوذكسيَّة الكبرى ، قد أعدَّها البطريرك بنفسه)[٢] .

وعندما وصلت الأخبار للسُّلطان محمود الثَّاني أصابته الدَّهشة ، وأصدر أوامره لتفتيش مقرِّ البطريرك ، واستطاع علي باشا أن يقوم بإعداد خطَّة مداهمة البطريركيَّة بإحكامٍ بالغٍ ، أدَّت عند تنفيذها إلى وقوع الوثائق المشار إليها في أيدي المسؤولين ورجال الحكومة .

كان من بين هذه الوثائق ؛ تلك الخطابات الموجَّهة إلى القساوسة الَّذين قادوا العصيان في المورة ، والمعلومات الصَّادرة لاتِّخاذ التَّدابير اللازمة ـ للعصيان ـ في إستانبول ، والاستعدادات ، والتَّرتيبات السِّرِّيَّة الَّتي تكتَّم الدَّولة العثمانيَّة عن أخبارها ، ثمَّ سرَّبها أمراء الرُّوم التَّابعون للكنيسة ، والمراسلات ، والمعلومات الَّتي وصلت إلى البطريركيَّة من سفارتي إنجلترا ، وفرنسا ـ خاصَّةً معلومات مراحل الاستعداد الرُّوميَّة في روسيا ، وأخبار الأسلحة المرسلة من مركز الجمعيَّة السِّرِّيَّة

---

(١) دور الكنيسة في هدم الدَّولة العثمانيَّة ، ص (٦٦) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٦٧) .

في مدينة أوديسا ، وبيانات ونداءات طلب المعونة الموجَّهة إلى كلِّ الأرثوذكس في جميع أنحاء العالم ، وإيصالات دفع نقود المساعدات الماليَّة ، للبطريركيَّة من أجل العصيان .

وقع كلُّ هذا في أيدي الحكومة العثمانيَّة ولم ينكر البطريرك أيَّ شيءٍ من هذا ، حيث قال : إنَّه هو الَّذي قام بعمل كلِّ شيءٍ ، وقَبِل التُّهم الموجَّهة إليه ، وكان له شركاء في الجريمة ، وقد عرفتهم الحكومة .

وأصدر السُّلطان محمود الثَّاني فرماناً بعزل البطريرك جريجوريوس من منصبه ، ثمَّ إعدامه[١] . وقد نفِّذ حكم الإعدام يوم عيد الفصح عند الرُّوم الأرثوذكس ، ثمَّ أصدر السُّلطان فرماناً آخر لانتخاب شخصٍ يحلُّ محلَّ البطريرك السَّابق ، وسلَّم الفرمان إلى إستافراكي بك ترجمان الدِّيوان الهمايوني ، فارتعدت جماعته هلعاً بعد توجيه إستافراكي إلى البطريريكيَّة ، وقرأ على المسؤولين ذلك الفرمان ، ثمَّ انتخبوا (أويانيوس) بطريركاً[٢] .

وشرعت الحكومة العثمانيَّة في إعدام بعض قادة التَّمرُّد ، وقد أثَّر ذلك تأثيراً كبيراً في إعادة السُّكون ، حتَّى أنَّ البطريرك أصبح واسطةً بين المتمرِّدين ـ في المورة ـ وبين الحكومة العثمانيَّة . ووصل به الأمر إلى أن يرسل ما يسمَّى بـ « عرض حال » يطلب فيه الإذن بالدَّعوة إلى الاستئمان « طلب الأمان » . ولقد استجابت السُّلطات العثمانيَّة لمساعي البطريرك الجديد ، وتمَّ العفو على كلِّ من أظهر النَّدم على ما فعله ، فاستردُّوا أموالهم ، وأملاكهم ؛ وأمَّا الموتى فقد أخذ وارثوهم ما يستحقُّونه ، واستمرَّت الكنائس في أداء أدوارها ، كما سارت الطُّقوس الدِّينيَّة النَّصرانيَّة كما هي عليه ، كذلك تعهَّدت الحكومة براحة هؤلاء النَّاس واستقرارهم ، وتمَّ إبلاغ سفراء الدُّول الأجنبيَّة بذلك ؛ وبرغم كلِّ هذا فقد استمرَّت الأحداث ، ولم تتوقَّف واضطرَّت الحكومة إلى التَّدخُّل[٣] .

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٧٣) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٧٤) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .

عاشراً : محمَّد علي باشا واليونان :

قام محمَّد علي بدوره في القضاء على الدَّعوة السَّلفيَّة في الجزيرة ، وحان الوقت لإضعافه ، وتقليم أظافره ، ولذلك دفعت الدُّول الأوربيَّة السُّلطان محمود الثَّاني بالاستعانة بجيشه لإخماده فتنة التَّمرُّد في اليونان ، وأشارت الدُّول الأوربيَّة على محمَّد علي بقبوله المهمَّة ، وأوهمته بأنَّه سيكون أكبر زعيمٍ في المنطقة ، ويمكن أن يؤدِّي به الأمر ليكون خليفة المسلمين بعد أن يضعف سلطان الخلافة ، وقبل محمَّد علي باشا عرض السُّلطان محمود الثَّاني بشرط أن يحصل على ولاية كلٍّ من كريت ، واليونان . وبمجرَّد تلقِّيه خبر القبول ـ لهذا الشَّرط ـ أمر ابنه إبراهيم باشا بتولِّي مسألة حرب المورة[١] وتحرَّكت جيوش مصر بقيادة إبراهيم باشا ، ومستشاره سليمان باشا الفرنساويّ بحراً من الإسكندريَّة عام ١٢٣٩ هـ/ ١٨٢٣ م باتِّجاه كريت ، وشبه جزيرة المورة مركز التَّمرُّد الصَّليبي ، وفتح نافرين عام ١٢٤٠ هـ/ ١٨٢٤ م ، ودخل أثينا عام ١٢٤١ هـ/ ١٨٢٣ م رغم معاونة القائد الإنجليزي البحريِّ اللُّورد كوشران الصَّليبيِّين اليونان ؛ وبعد أن أجهضت القوَّة الإسلاميَّة التَّمرُّد اليوناني الصَّليبي ؛ أبانت الصَّليبيَّة الأوربيَّة عن وجهها الكالح ، فأعلنت بسط حمايتها على بلاد اليونان . بل إنَّ روسيا كانت تدعم التَّمرُّد اليوناني علناً ، ورأت أنَّ الفرصة سانحةٌ لدخول إستانبول ، وإعادتها إلى عهدها السَّابق مركزاً للصَّليبيَّة الوثنيَّة ، ووقف الإنجليز إلى جانب روسيا[٢] .

وأُجبرت الدَّولة العثمانيَّة على معاهدة (آق كرمان) في ٢٨ صفر عام ١٢٤٨ هـ/ ١٨٣٢ م وأهمُّ بنودها :

يحقُّ لروسيا الملاحة في البحر الأسود ، ومرور سفنها من المضائق العثمانيَّة دون تفتيش . ورغم : أنَّ المعاهدة قد عقدت بسبب التَّمرُّد اليونانيِّ الصَّليبيِّ إلا أنَّها لم تذكر شيئاً عنه . وبعد قليل تقدَّمت إنجلترا بطلب إلى الدَّولة العثمانيَّة في ٨ رجب ١٢٤٤ هـ/ ١٨٢٨ م : (أنْ تتوسَّط الدَّولة العثمانيَّة لأنَّ هذا تدخُّلٌ صريحٌ

---

(١) الدَّولة العثمانيَّة ، د . جمال عبد الهادي ، ص (٩٨) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٩٩) .

في شؤونها الدَّاخليَّة[١] ، فرفضت ، فكان هذا الرَّفض حجَّةً تذرَّعت بها أوربة لإعلان الحرب مرَّةً أخرى .

اتَّفقت روسيا ، وفرنسا ، وإنجلترا في ١١ ذي الحجَّة على إجبار الدَّولة العثمانيَّة لإعطاء اليونان استقلالها ، بمعنى فصلها عن جسد الدَّولة الأمِّ (الدَّولة العثمانيَّة) ورفض السُّلطان العثماني ، فأمرت الدُّول الأوربيَّة أساطيلها بالتَّوجُّه إلى سواحل اليونان ، وطلبت من إبراهيم باشا التَّوقُّف عن القتال ، فكان جوابه طبيعيّاً بأنَّه يتلقَّى الأوامر من خليفة المسلمين ، أو من أبيه لا من غيرهما ، ومع ذلك توقَّف القتال عشرين يوماً ريثما تصل إليه التَّعليمات[٢] .

ودخلت الجيوش الأوربيَّة المتحالفة إلى مرفأ « نوارين » دون أن ترفع أعلام الحرب ؛ لذا فقد كان دخولها دخول خديعة ، وقامت هذه الأساطيل بمباغتة الأسطول العثمانيِّ المصريِّ المشترك ، وغدرت به ، وأطلقت عليه النِّيران ، فهزمته هزيمةً نكراء ، وأغرقت السُّفن ـ وهي مفاجأةٌ لم يكن يتوقَّعها ، وبالتَّالي لم يعمل لها أيَّ حساب ـ وبسبب هذا المعركة الغادرة انقلب الحال ، فأصبحت القوَّات العثمانيَّة في موضع الضَّعف ، والانهزام بعد أن كانت في موقع القوَّة ، والنَّصر .

واستقبلت الشُّعوب الأوربيَّة هذه الحادثة بمظاهر الفرح والسُّرور[٣] . لقد قتل من جيش محمَّد علي أكثر من ثلاثين ألف جنديٍّ ، وهكذا تحقَّق مخطَّط الأعداء ، فأضعفوا قوَّات محمَّد علي ، وفصلوا جزءاً من ديار الإسلام عن الدَّولة العثمانيَّة . لقد قامت فرنسا ، وإنجلترا بعمل مزدوجٍ ، حيث شجَّعوا السُّلطان على إرسال جيشٍ للقضاء على التَّمرُّد في بلاد اليونان ثمَّ قضوا على ذلك الجيش .

ولمَّا رأى محمَّد علي باشا والي مصر ما حلَّ به ؛ أمر ولده بالانسحاب ، وقامت القوَّات الفرنسيَّة بأخذ أماكن جيش محمَّد علي المنسحب ، وقامت فرنسا ، وإنجلترا بعقد مؤتمرٍ قرَّروا فيه فصل بلاد اليونان عن الدَّولة العثمانيَّة على أن

---

(١) الدَّولة العثمانيَّة ، د . جمال عبد الهادي ، ص (١٠٠) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) دور الكنيسة في هدم الدَّولة العثمانيَّة ، ص (٧٧) .

يحكمها حاكمٌ نصرانيٌّ تختاره الدُّول الثَّلاثة[١] وصدق الله حيث يقول : ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم : ٤٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ [البقرة : ٢١٧] وقوله تعالى : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التَّوبة : ١٠]لقد تآمر الأعداء بالاتِّفاق مع مَنْ ينتسبون إلى الإسلام لاغتصاب واحتلال ديار الإسلام في عهد السُّلطان محمود الثَّاني[٢] .

الحادي عشر : محمَّد علي باشا يحتلُّ الشَّام ويحارب الدَّولة العثمانيَّة :

رأى السَّاسة البريطانيُّون ، والفرنسيُّون : أنَّ السَّماح لمحمَّد علي بتوجيه جيوشه إلى الشَّام ، ثمَّ الأناضول يخدم مصالحهم للتَّصدِّي للنُّفوذ الرُّوسي المتزايد في أملاك دولة الخلافة العثمانيَّة ، وقد لقي هذا التَّوجُّه ترحيباً من محمَّد علي لخدمة أهداف أسياده البريطانيِّين خصوصاً ، وممَّا يدعم وجهة النَّظر هذه : أنَّ إنجلترا عارضت بشدَّةٍ شروع محمَّد علي في تنفيذ العرض الفرنسي بغزوه للجزائر لحسابهم قبل هجومه على الشَّام بعامٍ واحدٍ ، وهدَّدوه بالهجوم على أسطوله ، وجيشه إذا هو أقدم على مثل هذه العمليَّة ، الأمر الَّذي دعاه إلى التَّراجع عن التَّنفيذ على الرَّغم من أنَّه كان قد عقد اتِّفاقيَّةً بهذا الخصوص مع الفرنسيِّين ، وهو أمرٌ يؤكِّد على أنَّ محمَّد علي ترك احتلال الجزائر بسبب ضغط بريطانيا ، ومخطَّطاتها ، وكان ذلك يساعد بريطانيا في عرقلة النُّفوذ الرُّوسي المتزايد في المنطقة ، وعلى أيَّة حالٍ فقد حاول محمَّد علي أن يخفي حقيقة دوره ، وأن يتذرَّع بأسبابٍ سطحيَّةٍ يبرِّر بها هجومه على الشَّام مثل إيواء « عبد الله باشا » والي عكَّا لستَّة آلاف من المصريِّين الفارِّين هرباً من التَّجنيد في جيش محمَّد علي خلال سنة ١٨٣١ م فقط ، ورفضه إعادتهم ، وكذلك قيام « عبد الله باشا » بعمليَّات ابتزاز للتُّجَّار التَّابعين للباشا .

وكتب محمَّد علي إلى الباب العالي يبلِّغه بقيامه بمهاجمة « عبد الله باشا » لهذا السَّبب ، وردَّ عليه الصَّدر الأعظم ما يدلُّ الباحث على مدى الضَّعف الَّذي كانت

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، ص (١٠١) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

عليه الدَّولة العليَّة ، وعدم قدرتها على التَّصدِّي لمحمَّد علي ، فقال : (إنَّ شكوى بعض التُّجَّار لا يمكن أن تسوغ تحكيم الحسام ، وإشعال النَّار ، والحرب ، وإن ما ينشب من نزاعٍ بين الباشوات المتجاورين لا يمكن أن يسوَّى بإشهار السَّيف بل بتدخُّل الباب العالي)[١] .

ولم يقتنع محمَّد علي بما قاله الصَّدر الأعظم ، ودفع جيوشه بقيادة ابنه إبراهيم باشا ، وقام الموارنة بدعم جيش محمَّد علي ، والوقوف معه ، وكان الفرنسيُّون يشجِّعون الموارنة المسيحيِّين للوقوف مع إبراهيم باشا ، وأمدُّوهم بالسلاح ، وأعلن نصارىٰ بلاد الشَّام ، بأنَّ إبراهيم باشا صديقٌ لهم ، وأبدوا استعداداً تامَّاً لمساعدته ، كما أنَّ إبراهيم باشا قد ألغى كلَّ القيود المفروضة على النَّصارى ، واليهود فقط في كلِّ بلدٍ سيطر عليه تحت دعوى المساواة والحرِّيَّة[٢] ، وهي دلائل قويَّةٌ على تأثُّر إبراهيم باشا بالمحفل الماسونيِّ ، ودور هذا المحفل ـ التَّابع لفرنسا ـ في دعم أطماعه ، وأطماع أبيه[٣] .

وعلى الرَّغم من أنَّ جيش إبراهيم باشا قد تمكَّن من هزيمة الجيش العثماني ، واستطاع أن يستكمل سيطرته على الشَّام؛ إلا أنَّ العثمانيِّين قد تمكَّنوا من إثارة الأهالي ضدَّ إبراهيم باشا ، مستغلِّين العديد من الأسباب سواءٌ كانت دينيَّةً، أو اقتصاديَّةً ، خصوصاً بعد أن ضيَّق « إبراهيم باشا » الخناق على المسلمين في حين منح حرِّيَّاتٍ واسعةً للنَّصارى، واليهود، وانتهى الأمر بعقد اتِّفاقيَّة لندن سنة ١٨٤٠م الَّتي حدَّدت الوجود المصري ـ لوالي مصر ـ في الشَّام بحياة محمَّد علي[٤] .

إنَّ مراحل احتلال قوَّات محمَّد علي للشَّام أكَّدت اتِّجاهه المعادي للمسلمين ، والمساند للنَّصارى ، واليهود ، وأكَّدت أيضاً أنَّه كان منفِّذاً للأهداف البريطانيَّة على الصَّعيد السِّياسي، وكان منفِّذاً للأهداف الفرنسيَّة على الصَّعيد الثَّقافي في بلاد الشَّام.

---

(١) انظر : قراءةٌ جديدةٌ في تاريخ العثمانيِّين ، ص (١٩٢) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه؛ ص (١٩٢) .
(٣) انظر : الجامعة الإسلاميَّة ، أحمد الشوبكة ، ص (١٠١) .
(٤) انظر : قراءةٌ جديدةٌ في التَّاريخ العثماني ، ص (١٩٣) .

لقد فتح إبراهيم باشا الباب على مصراعيه لدخول البعثات التَّبشيريَّة الفرنسيَّة ، والأمريكيَّة ، وألغى كلَّ القوانين الاستثنائيَّة ، وجميع ما كان يسري على النَّصارى وحدهم ، ويعتبر بعض الكتَّاب : أنَّ عام ١٨٣٤ م عام تحوُّلٍ تاريخيٍّ حيث عاد اليسوعيُّون ، وتوسَّعت البعثات الأمريكيَّة ، وتمَّ نقل مطبعة الإرسالية الأمريكيَّة من مالطة إلى بيروت، وأُسِّست مدرسةٌ للبنات في بيروت على يد «إيلي سميث» وزوجته[١] ، وزُوِّدت بعض الأديرة بمطابع أخرى في إطار حرص الدُّول الأوربيَّة على حصر المطابع في يد المسيحيِّين فقط[٢] حتَّى تتمكَّن من تحقيق أهدافها في ظلِّ عجز المسلمين عن امتلاك وسيلة التَّعبير عن آرائهم ، أو نشر أفكارهم في هذا المجال[٣] .

لقد كان دخول جيوش محمَّد علي باشا إلى الشَّام نقطة انطلاقٍ لدور المبشِّرين ، وأنَّه لولا وقوف ابنه معهم ؛ لبقيت عقولهم مشلولةً ، وأفكارهم آسنةً ، فقد تمكَّنت كلِّية « عين طورة » الَّتي أعيد افتتاحها ـ والَّتي ما زالت قائمةً حتَّى الآن ـ من القيام بدورٍ كبير في تكوين كوادر من الكتَّاب ، والمفكِّرين . وفي نفس الوقت طبَّق سياسةً تعليميَّةً بين المسلمين ، كان الهدف منها الدَّعوة إلى القوميَّة بين أهالي الشَّام ، وجلب أحد الفرنسيِّين من مصر ، وهو (كلوت بك)[٤] ليشرف على تطبيق هذه السِّياسة بعد أن اكتسب خبرة تطبيقها في مصر ، ووضع تحت يده مطبعةً كاملة لنشر الكتب العربيَّة لتعينه في تحقيق هدفه ، وتمكَّن بكلِّ هذه الأساليب ـ تشاركه الإرساليَّات التَّنصيريَّة ورجال الكهنوت في الأديرة ـ من أن يقلب أساليب التَّربية ، والتَّعليم في مدى سنواتٍ قليلةٍ ، ويحقِّق أهداف المحافل الماسونيَّة الفرنسيَّة في حربها للإسلام ، والمسلمين[٥] .

بينما كانت جيوش محمَّد علي تمكِّن النَّصارى في بلاد الشَّام ، وتضعف شوكة المسلمين بها ، كانت جيوش فرنسا في عام ١٨٣٠ م تغتصب الجزائر بعدما ضعفت

(١) انظر : قراءةٌ جديدةٌ في التَّاريخ العثماني ، ص (١٩٣) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٩٥) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٩٦) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه .
(٥) المصدر السَّابق نفسه .

الخلافة العثمانيَّة ، ودخلت القوَّات الفرنسيَّة بما يعادل ٢٨ ألف مقاتل ، وأسطولاً يضمُّ مئة سفينةٍ ، وثلاث سفن تحمل ٢٧ ألف جندي بحري ، وكانت الدُّول الأوربيَّة مؤيدةً لهذا الاغتصاب السَّافر ، فقد حان توزيع تركة الرَّجل المريض ، وحلُّ المسألة الشَّرقيَّة بالطَّريقة الأوربيَّة .

وهنا نتساءل أين محمَّد علي باشا والي مصر عندما قام الفرنسيُّون باحتلال الجزائر ؟ لماذا سكت ؟ هل لأنَّ إمكانيَّاته لا تسمح بدعم جهاد شعب الجزائر المسلم ، أم أنَّها بعيدةٌ عنه ؟ أم لأنَّ السُّكوت ثمنٌ ، ووعدٌ من دول أوربة ، ومنها فرنسا لمحمَّد علي بأن يظلَّ والياً على مصر ، ويتركوا له الفرصة لضمٍّ بلاد الشَّام ، أو غير ذلك من الوعود الظَّلاميَّة الَّتي تحبك خلف الكواليس ؟

لقد كان محمَّد علي مِخلباً ، وخنجراً مسموماً استعمله الأعداء في تنفيذ مخطَّطاتهم ، ولذلك وقفوا معه في نهضته العلميَّة ، والاقتصاديَّة ، والعسكريَّة بعد أن أيقنوا بضعف الجانب العقدي ، والإسلامي لديه ، ولدى أعوانه ، وجنوده(١) .

لقد ترتَّب على دور محمَّد علي في المنطقة بأسرها أن تنبَّهت الدُّول الأوربيَّة إلى مدى الضَّعف الَّذي أصبحت عليه الدَّولة العثمانيَّة ، وبالتَّالي استعدادها لتقسيم أراضيها حينما تتهيَّأ الظُّروف السِّياسيَّة(٢) .

وفي أعقاب هزيمة الجيوش العثمانيَّة أمام جيوش محمَّد علي في الشَّام ، والأناضول اضطرَّت الدَّولة العثمانيَّة للاستنجاد بروسيا بعد أن لمست أنَّ « محمَّد علي » يحظى بتأييد بريطانيا ، وفرنسا ، وعقدت معاهدة « أنكيار أسكله سي » سنة ١٨٣٣ م في أعقاب هدنة كوتاهية ، وكانت المعاهدة بمثابة تحالفٍ دفاعيٍّ بين روسيا والعثمانيِّين ، ممَّا أدَّى إلى مسارعة كلٍّ من بريطانيا ، وفرنسا بالتَّصدِّي لمحمَّد علي خشية المزيد من التَّدخُّل الرُّوسي ، وفرضت عليه اتِّفاقيَّة لندن سنة ١٨٤٠ م . وقد ترتَّب على هذه الأحداث إجهاض محاولة الإصلاح الَّتي حاول السُّلطان محمود الثَّاني أن يقوم بها في الدَّولة العثمانيَّة ، واضطرَّت الدَّولة العثمانيَّة لقبول وصاية

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . جمال عبد الهادي ، ص (١٠٢ ، ١٠٣) .

(٢) انظر : قراءةٌ جديدةٌ في التَّاريخ العثماني ، ص (١٩٧) .

الدُّول الأوربيَّة في مقابل حمايتها من أطماع محمَّد علي[١] .

وهكذا كانت سياسة محمَّد علي خطوةً مدروسةً من قبل أعداء الإسلام ؛ لتهيئة المنطقة بأكملها لمرحلةٍ استعماريَّةٍ ما زالت آثارها تعاني منها الأمَّة حتَّى اليوم . لقد استطاعت السِّياسة النَّصرانيَّة الأوربيَّة أن تحقِّق أهدافها الآتية بواسطة عميلها المخلص محمَّد علي :

١ ـ تحطيم الدَّولة السُّعوديَّة الأولى الَّتي كادت تكون خنجراً مسموماً في ظهر الأطماع البريطانيَّة في الخليج العربي خصوصاً ، والمشرق عموماً .

٢ ـ فتح الأبواب على مصراعيها لإقامة مؤسَّساتٍ معاديةً للدِّين الإسلاميِّ ، والمسلمين في محافل ماسونيَّةٍ ، وإرساليَّاتٍ تبشيريَّةٍ ، وأديرةٍ ، وكنائس ومدارس في بذر بذور التَّيَّارات القوميَّة المعادية للإسلام ، وبثِّ الأفكار المعادية لمصالح الأمَّة الإسلاميَّة .

٣ ـ إتاحة الفرصة لشركاتٍ تجاريَّةٍ أوروبيَّةٍ تتحكَّم في الاقتصاد .

٤ ـ منح امتيازاتٍ واسعةٍ للأوربيِّين ، ومنع أهالي مصر ، والشَّام من تلك الامتيازات .

٥ ـ خنق محمَّد علي التَّيَّار الإسلامي الأصيل ، وضيَّق على العلماء والفقهاء ، ولم يسمح للمسلمين أن يتكتَّلوا من أجل أهدافهم النَّبيلة .

٦ ـ أصبح محمَّد علي نموذجاً تحتذي به الدُّول الأوربيَّة في صنع عملائها في داخل ديار المسلمين ، كمصطفى كمال ، وغيره .

وبعد أن حقَّقت الدُّول الأوربيَّة أهدافها بواسطة عميلها محمَّد علي ؛ حان الوقت لإضعاف قوَّات محمَّد علي ، وتحجيمها ، فقد تحقَّقت أهدافهم ، ووصلوا إلى مقاصدهم ، فلا بدَّ من إضعاف قوَّات محمَّد علي ، ودخل الإنجليز في صراعٍ سافر مع قوَّات محمَّد علي ، واستطاعت بمساندة أهل الشَّام من هزيمة قوَّات محمَّد علي ، والاستحواذ على الثُّغور الشَّاميَّة ، وقُتِل في هذه المعارك ثلاثةُ أرباع قوَّات محمَّد علي . . من شعب مصر ، وبلاد الشَّام ، وأُجبر محمَّد علي تحت ضغوط

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٩٨) .

الإنجليز على توقيع المعاهدة :

١ ـ يتنازل فيها عن حكم بلاد الشَّام ، وأن يظلَّ حكم مصر وراثيَّاً له ولأبنائه .

٢ ـ أن يُحدَّد الجيش المصري بثمانية عشر ألفاً .

٣ ـ ألا تصنع مصر سفناً للأسطول .

٤ ـ ألا يعيِّن والي مصر في الجيش ضابطاً أعلى من رتبة ملازمٍ ، وأن يدفع للدَّولة العثمانيَّة ثمانين ألف كيس سنوياً[١] .

وشرعت فرنسا ، وإنجلترا تثير الفتن الطَّائفيَّة (من عام ١٨٤١ م إلى ١٨٦٠ م) بين الأقلِّيَّات غير المسلمة في لبنان ، الهدف هو إنهاك قوَّة الدَّولة العثمانيَّة الَّتي أرسلت قوَّاتٍ لإنهاء الفتنة ، وكذلك إيجاد المبرِّر للتَّدخُّل الفرنسي ، والبريطاني في لبنان تمهيداً لتمزيقه ، واحتلاله[٢] .

واحتلَّت روسيا الأفلاق ، والبغدان ، وتمَّ اتِّفاقٌ عثمانيٌّ روسيٌّ في بلطه ليمان قرب إستانبول عام ١٢٦٥ هـ يونيو عام ١٨٤٨ م يبقي في الإقليمين جيشاً عثمانيَّاً روسيَّاً حتَّى يستقرَّ الوضع . وما دخل الكفَّار الرُّوس في ذلك ؟ !

وبهذا المكر أصبح للنَّصارى وجودٌ عسكريٌّ في ديار الإسلام ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ [إبراهيم : ٤٦] .

واشتدَّ صراع الدُّول الأوربيَّة على تقسيم ولايات الدَّولة العثمانيَّة تركة الرَّجل المريض[٣] ، وكانت الدُّول الأكثر اهتماماً بمصير الدَّولة العثمانيَّة ، ومصير أملاكها ، هي :

١ ـ بريطانيا الَّتي أرادت تأمين طرق مواصلاتها إلى الشَّرق الأقصى ، والهند خصوصاً ، وتأمين تجارتها معها ، سواءٌ عن طريق السُّويس ، والبحر الأحمر ، أو عن طريق الخليج العربي ، ونهري دجلة ، والفرات .

٢ ـ روسيا القيصريَّة الَّتي أرادت أن تجد لها منفذاً من البحر الأسود إلى المياه

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . جمال عبد الهادي ، ص (١٠٨) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

(٣) المصدر السَّابق نفسه .

الدَّافئة بالبحر المتوسِّط ، وذلك بالاستيلاء على القسطنطينيَّة ، ومضايق البسفور والدَّردنيل ، والَّتي أرادت كذلك أن يكون لها النُّفوذ الأكبر في شبه جزيرة البلقان ؛ لتؤسِّس بها دولةً سلافيَّةً كبرى .

٣ ـ فرنسا الَّتي أخذت على عاتقها من زمنٍ مبكِّرٍ حماية مصالح رعايا النَّصارى الكاثوليك في بلاد الشَّام بصفةٍ عامَّةٍ ، والمارونيِّين على الأخصِّ في لبنان ، والَّتي أرادت رعاية مصالحها في هذه المنطقة ، ثمَّ استعلاء نفوذها في أملاك الدُّول الأخرى في السَّاحل الشَّمالي الإفريقي ، وبالتَّحديد في تونس ، والجزائر .

٤ ـ وفيما عدا الدُّول الثَّلاثة الرَّئيسيَّة الَّتي ذكرناها ، فإنَّ دولاً أخرى مثل النِّمسا ، وبروسيا ، اهتمَّت بمصير الدَّولة العثمانيَّة ، الَّتي بات من المتوقَّع هلاكها ، وزوالها ، فسمِّيت لذلك برجل أوربة المريض(١) . لقد تضافرت عدَّة عوامل ساهمت في إبراز المسألة الشَّرقيَّة إلى عالم الوجود ، منها :

١ ـ إنَّ الطَّريق الَّذي تستطيع روسيا بواسطته الوصول إلى المياه الدَّافئة ، هو الطَّريق الَّذي يصل البحر الأسود ببحر مرمرة ، ثمَّ بحر إيجه ، وأخيراً بالبحر المتوسِّط ، أي بالمرور من مضيقي البسفور والدَّردنيل ، وهما في حوزة الإمبراطوريَّة العثمانيَّة .

٢ ـ إنَّ الدُّول العظمى الَّتي يكون لها قواعد قويَّة في البحر الأسود ، ويتسنَّى لها السَّيطرة على المضايق ، تصبح ذاتَ مركزٍ ممتازٍ تتمكَّن بفضله من بسط سلطانها على بلاد الحوض الشَّرقي للبحر المتوسِّط ، وعلى طريق المواصلات والتِّجارة من البحر المتوسِّط إلى الهند ، والشَّرق الأقصى .

٣ ـ إنَّ الدَّولة الَّتي تمدُّ نفوذها إلى البلقان تفرض سيطرتها على الشُّعوب البلقانيَّة بعد تقلُّص سلطان العثمانيِّين على هذه المنطقة ، وتصبح كذلك ذات مركزٍ ممتازٍ يمكِّنها من الاستيلاء على القسطنطينيَّة نفسها ، ويهدِّد باختلال التَّوازن الدَّولي

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . إسماعيل ياغي ، ص (١٤١) .

في أوربة[١] .

وفي خلال الرُّبع الأول من القرن التَّاسع عشر ، كانت سياسة الدُّول ـ باستثناء روسيا ، وفرنسا ـ تدور حول المحافظة على كيان الإمبراطوريَّة العثمانيَّة لأسبابٍ ناشئةٍ من وجود العوامل الَّتي ذكرناها .

وكانت بريطانيا في مقدِّمة الدُّول المتمسِّكة بمبدأ المحافظة على كيان الإمبراطوريَّة العثمانيَّة وقتئذٍ[٢] ، وعندما بات ممكناً ملء الفراغ الَّذي ينجم من تقلُّص النُّفوذ العثماني عن البلقان تخلَّت بريطانيا ، وسائر الدُّول عن مبدأ المحافظة على الدَّولة العثمانيَّة ، وسَعَت الدُّول الأوربيَّة بالفعل لتصفية القسم الأكبر من هذه المسألة باستقلال دول البلقان . وكان من بين الدُّول البلقانيَّة المستقلَّة حتَّى نهاية القرن التَّاسع عشر : اليونان ، ورومانيا ، وبلغاريا ، والصِّرب[٣] .

❊ ❊ ❊

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . عبد العزيز الشِّنَّاوي (١/ ١٩٤ ـ ٢٣٢) .
(٢) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . إسماعيل ياغي ، ص (١٤٣) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٤٤) .

المبحث التَّاسع
السُّلطان عبد المجيد الأوَّل
(١٢٥٥ ـ ١٢٧٧ هـ ـ ١٨٣٩ ـ ١٨٦٠ م)

كان السُّلطان عبد المجيد الأوَّل ضعيف البنية ، شديد الذَّكاء ، واقعيّاً ، ورحيماً ، وهو من أجلِّ سلاطين آل عثمان قدراً ، أحبَّ الإصلاح ، وأدخل التَّنظيمات الحديثة ، ورغب في تطبيقها في الحال . كما أدخل إصلاحاتٍ جمَّةً في الجيوش العثمانيَّة . وترقَّت في أيَّامه العلوم والمعارف ، واتَّسعت دائرة التِّجارة ، وشُيِّدت الكثير من المباني الفاخرة ، ومُدَّت في عهده أسلاك الهاتف ، وقضبان السِّكك الحديديَّة[1] .

تولَّى الحكم بعد وفاة والده السُّلطان محمود الثَّاني سنة ١٨٣٩ م ، وكان في السَّادسة عشرة من عمره ، فكان صغر سنِّه هذا فرصةً لبعض الوزراء التَّغريبيِّين لإكمال ما بدأه والده الرَّاحل من إصلاحات على الطَّريقة الأوربيَّة ، والتَّمادي في استحداث الوسائل الغربيَّة ، ومن هؤلاء الوزراء الَّذين ظهروا في ثياب المصلحين ، ومسوح الصَّادقين (مصطفى رشيد باشا) الَّذي كان سفيراً للدَّولة في (لندن) و (باريس) ، ووصل إلى منصب وزير الخارجيَّة في أواخر عهد السُّلطان (محمود الثَّاني) ، وكانت باكورة إصلاحاته استصدار مرسومٍ من السُّلطان عرف (بخط شريف كلخانة) أي : المرسوم المتوج بخطِّ السُّلطان الَّذي صدر عن سراي الزَّهر عام ١٨٣٩ م وجاء فيه :

(. . لا يخفى على عموم النَّاس أنَّ دولتنا العليَّة من مبدأ ظهورها وهي جاريةٌ على رعاية الأحكام القرآنيَّة الجليلة ، والقوانين الشَّرعيَّة المنيفة بتمامها ، ولذا كانت قوَّة سلطتنا السَّنيَّة ، ورفاهيَّة ، وعماريَّة أهاليها وصلت حدَّ الغاية ، وقد انعكس الأمر منذ مئةٍ وخمسين سنةً بسبب عدم الانقياد والامتثال للشَّرع الشَّريف ،

---

(١) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، د . علي حسُّون ، ص (١٩٨) .

ولا للقوانين المنيفة بناءً على طروء الكوارث المتعاقبة ، والأسباب المتنوِّعة فتبدَّلت قوَّتها بالضَّعف ، وثروتها بالفقر . . . .)[١] .

ثمَّ جاءت بيانات يمكن تلخيص بعضها فيما يلي :

١ ـ صيانة حياة ، وشرف ، وممتلكات الرَّعايا بصورةٍ كلِّيَّة بغضِّ النَّظر عن المعتقدات الدِّينيَّة .

٢ ـ ضمان طريقةٍ صحيحةٍ لتوزيع ، وجباية الضَّرائب .

٣ ـ توخِّي العدل ، والإنصاف في فرض الجنديَّة ، وتحديد أمدها .

٤ ـ المساواة في الحقوق والواجبات بين المسلم وغير المسلم[٢] .

وبدأ عهدٌ جديدٌ يسمَّى عهد التَّنظيمات الخيريَّة العثمانيَّة الَّتي كان من بينها احترام الحرِّيَّات العامَّة ، والممتلكات ، والأشخاص بصرف النَّظر عن معتقداتهم الدِّينيَّة ، ونصَّ فيه على مساواة جميع الأديان أمام القانون[٣] .

وفي جزيرة متلين اجتمع نفرٌ من رجال الدِّين اليونانيِّين ، والأرمن ، واليهود ، وهناك خطبهم « رشيد باشا » ـ وهو من المنسوبين إلى الإصلاح ـ باسم السُّلطان ، فقال : (أيُّها المسلمون ، والنَّصارى ، واليهود ! إنَّكم رعيَّة إمبراطورٍ واحدٍ ، وأبناء أبٍ واحدٍ ، إنَّ السُّلطان يسوِّي بينكم جميعاً)[٤] .

(ولم يلقَ الخطُّ الشَّريف ، أو الدُّستور الَّذي ساندە « مصطفى رشيد » وقلَّةٌ من المحيطين به ترحيباً ، أو تأييداً من الرَّأي العام العثماني المسلم ؛ فأعلن العلماء استنكارهم ؛ وتكفيرهم لـ « رشيد باشا » ، واعتبروا الخطَّ الشَّريف منافياً للقرآن الكريم في مجمله ، وبخاصَّةٍ في مساواته المسيحيِّين بالمسلمين ، ورأوا أنَّ ذلك ـ وبغضِّ النَّظر عن النَّواحي الدِّينيَّة ـ سيؤدِّي إلى إثارة القلاقل بين رعايا السُّلطان .

وكان الهدف بالفعل هو ما خطَّطت له الحركة الماسونيَّة ، وهو إثارة الشُّعور

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٨٥) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٨٦) .
(٣) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلميَّة ، د . علي الزَّهراني (٢/٢٦٦) .
(٤) انظر : الدَّولة العثمانيَّة دولة إسلاميَّة مفترى عليها (١/٢٥٣) .

القومي لدى الشُّعوب المسيحيَّة ضدَّ الدَّولة)[١] .

وبهذا المرسوم طُعِنت عقيدة الولاء ، والبراء في الصَّميم ، ونحِّيت جملةٌ هامَّةٌ من أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة فيما يتعلَّق بأهل الذِّمَّة ، وعلاقات المسلمين مع غيرهم[٢] .

وممَّا يستلفت النَّظر : أنَّ استصدار خطٍّ شريف كلخانة كان « الثَّمن » الَّذي حصلت عليه بريطانيا ، والدُّول الأوربيَّة من السُّلطان العثماني في مقابل تسوية النِّزاع بينه وبين والي مصر « محمَّد علي باشا » ، الَّذي كان يريد الاستقلال ، والانفصال عن الدَّولة أثناء أزمة العلاقات المصريَّة العثمانيَّة المعروفة (١٢٥٥ ـ ١٢٥٧ هـ/ ١٨٣٩ ـ ١٨٤١ م) وينبغي ألا يفهم من ذلك : أنَّ الضَّغط الأوربيَّ بوجهٍ عامٍّ ، والبريطاني بوجهٍ خاصٍّ كان وحده منشأ حركة التَّنظيمات ، أو حركة التَّجديد ، والإصلاح العثمانيَّة خلال القرن التَّاسع عشر ، فقد أسهم في هذه الحركة عاملٌ آخر ، هو اقتناع الدَّولة ، والمتأثِّرين بالثَّقافة ، والحضارة الأوربيَّة بضرورة إصلاح جهاز الدَّولة ، وتجديده على أساس اقتباس النُّظم الأوربيَّة ، أو استلهامها من غير مساسٍ بالأحكام الشَّرعيَّة[٣] .

(وبهذا التَّصريح الخطير الَّذي أصدرته الدَّولة لتتقرَّب من دول أوربَّة . . مسَّ السُّلطان التَّقاليد العثمانيَّة في الشِّغاف ، وتناول الشَّريعة الإسلاميَّة بالتَّحريف ، فإنَّ التَّقاليد ، والشَّريعة كليهما لا يبيحان أن يتمتَّع المسلمون ، وغير المسلمين بنفس الحقوق في رعاية خليفة المسلمين ، لا بدَّ أن يكون تمييز بين المسلمين بنفس الحقوق في ذمَّة المسلمين ، فأمَّا هذا التَّصريح الخطير ؛ فله دلالته ، فهو ينطق بأنَّ رجال الدَّولة اعترفوا بأنَّ التَّقاليد القديمة لم تعد ميزاناً صالحاً للحكم ، ولا بدَّ من الأخذ بأساليب الغرب ، ولو تعارض مع الشَّرائع والسُّنن)[٤] .

وقد أنشأ رشيد باشا مجلساً للنُّوَّاب ، ووضع للدَّولة قانوناً للعقوبات وفق الشَّرائع الحديثة ، واستقدم رجلاً فرنسيَّاً ليضع قانوناً حديثاً للدَّولة ، واشتدَّ في

---

(١) انظر : قراءةٌ جديدةٌ في التَّاريخ العثماني ، ص (٢٠٨) .
(٢) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (٢/ ٢٦٧) .
(٣) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . إسماعيل ياغي ، ص (١٥٤) .
(٤) انظر : الشَّرق الإسلامي ، حسين مؤنس ، ص (٢٥٦) .

تطبيق قوانينه شدَّةً حازمةً ضمنت احترام النَّاس لها ، وأعقب ذلك بإنشاء بنكٍ جديدٍ للدَّولة ، وأصدر أوراقاً ماليَّةً[١] ، ثمَّ صدر مرسومٌ آخر عام ١٨٥٦ م أكَّد فيه السُّلطان عبد المجيد الأوَّل المبادىء الَّتي سبق له أن أعلنها على لسان رشيد باشا ، وزاد فيه عدَّة امتيازاتٍ ، وحصاناتٍ لرعايا الدَّولة غير المسلمين[٢] ، وعرف في التَّاريخ العثماني بالخطِّ الهمايوني الَّذي كان أكثر جرأةً من الأوَّل ، وأكثر اندفاعاً نحو الاقتباس من الغرب ، وقد تضمَّن الخط الهمايوني ما يلي :

١ ـ إلغاء نظام الالتزام ، والقضاء على الرَّشوة والفساد .

٢ ـ المساواة في التَّجنيد بين المسلمين وغير المسلمين .

٣ ـ معاملة جميع رعايا الدَّولة معاملةً متساويةً مهما كانت أديانهم ، ومذاهبهم[٣] .

٤ ـ المحافظة على الحقوق والامتيازات الَّتي تمتَّع بها رؤساء الملل غير الإسلاميَّة .

٥ ـ القضاء على حواجز نظام الملل ، ليتمتَّع كلُّ مواطني الإمبراطوريَّة بمواطنةٍ عثمانيَّةٍ متساويةٍ .

٦ ـ أن تصبح المسائل المدنيَّة الخاصَّة بالرَّعايا المسيحيِّين من اختصاص مجلسٍ مختلطٍ من الأهالي ورجال الدِّين المسيحيِّين ، يقوم الشَّعب بانتخابه بنفسه .

٧ ـ فتح معاهد التَّعليم أمام المسيحيِّين ، لتفتح أمامهم وظائف الدَّولة .

٨ ـ السَّماح للأجانب بامتلاك الأراضي في الدَّولة ، كما وعد السُّلطان بالاستعانة برأس المال ، والخبرات الأوربيَّة بهدف تطوير اقتصاد الدَّولة[٤] .

ويعتبر السُّلطان عبد المجيد أوَّل سلطانٍ عثمانيٍّ يضفي على حركة تغريب الدَّولة العثمانيَّة صفة الرَّسميَّة ؛ إذ أنَّه أمر بتبنِّي الدَّولة لهذه الحركة ، وأمر بإصدار فرمانَيْ التَّنظيمات ، عامي ١٨٥٤ م ، ١٨٥٦م ، وبهما بدأ في الدَّولة العثمانيَّة

---

(١) صدرت بدون رصيد معدني وبالتَّالي فقدت قيمتها ، ولم ينصحهم المستشارون الأجانب .
(٢) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (٢/٢٦٨) .
(٣) انظر : تاريخ العرب الحديث ، مجموعة علماء ، ص (١٤٠) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه .

ما سمِّي بعهد التَّنظيمات ، وهو اصطلاح يعني تنظيم شؤون الدَّولة وفق المنهج الغربي ، وبهذين الفرمانين تمَّ استبعاد العمل بالشَّريعة الإسلاميَّة ، وبدأت الدَّولة في التَّقنين ، وإِقامة المؤسَّسات(١) .

والحقُّ : أنَّ السُّلطان عبد المجيد كان خاضعاً لتأثير وزيره « رشيد باشا » الَّذي وجد في الغرب مثله ، وفي الماسونيَّة فلسفته ، ورشيد باشا هو الَّذي أعدَّ الجيل التَّالي له من الوزراء ، ورجال الدَّولة ، وبمساعدته أسهم هؤلاء في دفع عجلة التَّغريب الَّتي بدأها هو(٢) .

وحينما رأى المسلمون : أنَّ الدَّولة تساوي بهم النَّصارى ، واليهود ، وتستبدل بالشَّريعة الحنيفية قوانين النَّصارى ، وتخلع الأزياء القديمة الشَّريفة لتتَّخذ زيَّ النَّصارى ، وأحسُّوا كذلك : أنَّ حكومة رشيد لا تكاد تأتي أمراً إِلا راعت فيه خاطر النَّصارى ، وحرصت ألا تمسَّهم بأذى ، أو تنالهم بضيم ، نفروا من ذلك نفوراً عظيماً ، ولم يجد السُّلطان ورجال دولته من بدٍّ في إِسقاطه ، وعزله أمام مظاهر السُّخط الشَّعبي ، وخوفهم من وثوب المسلمين ، وثورتهم(٣) .

غير أنَّ عزل رشيد باشا لم يؤدِّ إِلى وقف حركة التَّغريب من استقدام المزيد من الأنظمة والقوانين من الغرب بعد أن مُهِّد لها الطَّريق ، وفُتِحت لها الأبواب ، ومع أنَّ هذه المعارضة لرشيد باشا ودستوره قد نجحت في إِقصائه سنة ١٨٤١ م ، إِلا أنَّه عاد بعد أربع سنوات في عام ١٨٤٥ م تسانده مجموعةٌ من أعضاء المحافل الماسونيَّة الَّذين ركزوا في طريق التَّحوُّل العلماني . . .(٤) ، وعاد بعد ذلك ليتولَّى الصَّدارة العظمى سنة ١٨٤٦ م ، وعزل منها سنة ١٨٥٨ م(٥) .

وازدادت الأجواء سوءاً ، وانحطاطاً ، ممَّا جعل رجال الدَّولة يفكِّرون حقيقةً في التَّغيير والإِصلاح ، فلا يجدون أمامهم غير الطَّريقة الأوربيَّة في الإِصلاح ،

---

(١) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (٢/٢٦٨) .
(٢) انظر : مذكَّرات السُّلطان عبد الحميد ، ترجمة محمَّد حرب ، ص (٣) .
(٣) انظر : الشَّرق الإسلامي ، حسين مؤنس ، ص (٢٥٦) .
(٤) انظر : قراءةٌ جديدةٌ في تاريخ العثمانيِّين ، ص (٢٠٩) .
(٥) انظر : الدَّولة العثمانيَّة دولة إِسلاميَّة مفترى عليها (١/١٨١) .

والوجهة التَّغريبيّة في التَّغيير الَّتي بُدىء في اتِّخاذها ، خصوصاً إذا علمنا أنَّ كثيراً من رجال الدَّولة هؤلاء ممَّن بعثتهم الدَّولة للعمل في التَّمثيل السِّياسي الخارجي أو للدِّراسة العسكريَّة في الخارج ، بعد أن خلت السَّاحة من ظهور مصلحٍ إسلاميٍّ يعيد الأمور إلى نصابها ، ويقطع الطَّريق على أنصار الغزو الفكري بتبنِّي إصلاحٍ جادٍّ يعتمد على المنهج الإسلامي[١] .

وكما قال الكاتب التُّركيُّ الأستاذ « نجيب فاضل » : ولخلوِّ الإمبراطوريَّة العثمانيَّة طيلة ثلاثة قرونٍ ، أو أربعة قرون من زعيمٍ فكريٍّ ، أو مصلحٍ اجتماعيٍّ كبيرٍ ، وأصيلٍ ؛ فقد تُرِك المجال للدِّبلوماسيِّين السَّطحيِّين المنبهرين بالغرب ، والمقلِّدين له . . وكانت النَّتيجة فقدان الرُّوح ، وضمور العقل ، وذبول الإرادة ، وعموم الشَّلل[٢] .

وقد انتشرت أفكار الغزو الفكري بين الجمهور الأعظم من ساسة التُّرك ، وولاتهم ، وركبوا متن التَّفرنج والتَّحلُّل من الدِّين ، حتَّى إنَّ العلامة العراقي الآلوسي لمَّا زار والي كركوك علي باشا عام ١٢٦٧ هـ أثنى عليه ، وامتدحه بحبِّ العلماء ، وإكرامهم ، وبالأخلاق الفاضلة ، ثمَّ قال بعد ذلك : (والظَّاهر : أنَّه غير منحلّ العقيدة ، ولا منتحل شيئاً من الآراء الإفرنجيَّة الجديدة ، حيث إنَّه لم يسمع منه جليسٌ حديث لوندرة وباريس ! ويكفي أهل البلد اليوم رحمةً : أنَّ واليها سالمٌ من تلك الوصمة ، وقلَّما تُنال هذه الرَّحمة في هذا الزَّمن الذَّميم !)[٣] .

وقد استمرَّ التَّيَّار التَّغريبي في محاولة إحكام السَّيطرة على جميع المجالات ، والأجهزة في الدَّولة العثمانيَّة .

وعلى كلِّ حالٍ لقد كانت المعالم الرَّئيسة لحركة الإصلاح ، والتَّجديد العثمانيَّة تدور حول نقاطٍ ثلاثةٍ هامَّةٍ :

١ ـ الاقتباس من الغرب فيما يتعلَّق بتنظيم الجيش ، وتسليحه في نظم الحكم والإدارة .

٢ ـ الاتِّجاه بالمجتمع العثماني نحو التَّشكيل العلماني .

---

(١) انظر : الانحرافات العقديّة ، والعلميَّة (٢/ ٢٧٠) .
(٢) انظر : السُّلطان عبد الحميد ، حياتُه ، وأحداث عصره ، ص (٤٣) .
(٣) انظر : نشوة المدام في العودة إلى مدينة السَّلام ، ص (١٠٣) .

٣ ـ الاتِّجاه نحو مركزيَّة السُّلطة في إستانبول ، والولايات[١] .

كانت سنة صدور خطِّ كلخانة حدثاً في الأوساط الأوربيَّة يسجِّله أحد المنصِّرين الفرنسيِّين بقوله : (كان عام ١٨٣٩م عاماً عظيماً بالنِّسبة للتَّوغُّل الفرنسي في تركيَّا . . لقد كان بداية التَّنظيمات ، والسَّنة الأولى في الإصلاح . . . ونحن رجال الدِّين سنبدأ بالاستفادة من هذه اللِّيبراليَّة الخجولة ، ونبدأ بإرساليَّة تبشيريَّة للتَّعليم الكاثوليكي)[٢] . وقال السَّيِّد إيتيان الَّذي ترأَّس هذه الإرساليَّة : (هذه أوَّل إمكانيَّةٍ لتعزيز انتصار الإيمان الَّذي سنعلِّمه ، ذلك لأنَّ القرآن يحرِّم حتَّى ذلك الوقت التَّعليم[٣] . لقد سافرت أوَّل إرساليَّة مكوَّنة من سبعة رجال دينٍ في ٢١/ ١١/ ١٨٣٩م إلى إستانبول . . . الأخوات يفتحن داراً لليتامى وفصولاً للتَّدريس في نهاية ١٨٤٠م يصل عدد التَّلاميذ إلى ٢٣٠ ، وعام ١٨٤٢م يصل العدد إلى ٥٠٠)[٤] .

وهكذا لم تضيِّع أوربَّة المسيحيَّة ، وكنيستها وقتاً طويلاً للاستفادة من ظروف التَّحديث والتَّنظيمات ؛ فبعد سبعة عشر يوماً من صدور الخطِّ ، كانت الإرساليَّات التَّبشيريَّة الأولى تغادر مرسيلية باتِّجاه العاصمة العثمانيَّة ، وهي تحمل أفكارها العدائيَّة للمسلمين ، ولقرآنهم الكريم الَّذي تتَّهمه بتحريم التَّعليم ، وانتقلت عدوى التَّنظيمات إلى الولايات العثمانيَّة العربيَّة شبه المستقلَّة وبسرعةٍ ، ففي تونس أصدر محمد باي (عهد الأمان) عام ١٨٥٧ م وبناه على القواعد التَّالية :

أوَّلاً : الحرِّيَّة :

إذ أنَّ الإنسان لا يستطيع بلوغ الفلاح إلا إذا كانت الحرِّيَّة مضمونةً له ، وكان العدل سياجاً له ضدَّ العدوان .

ثانياً : الأمان التَّامُّ .

ثالثاً : المساواة التَّامَّة بين المسلمين وغير المسلمين أمامَ القانون :

وهذا متضمَّنٌ في النُّقطة الثَّانية ؛ لأنَّ هذا الحقَّ إنَّما هو ملكٌ لجميع النَّاس ،

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . إسماعيل ياغي ، ص (١٥٢) .
(٢) انظر : الدَّولة العثمانيَّة قراءةٌ جديدةٌ لعوامل الانحطاط ، د . قيس العزَّاوي ، ص(٦١) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .
(٤) المصدر السَّابق نفسه .

ويجب أن يكون للأجانب حقوق التُّونسيِّين ، وأن يمارسوا الأعمال التِّجاريَّة على أنواعها ، وأن يكون لهم حقُّ التَّملُّك[١] ، وسارت مصر على هذا المنوال ، وبصدور هذه القوانين في إستانبول ، وتونس ، ومصر تحوَّل التَّحديث الَّذي كان رغبة أوربَّة تدعمها بعض فئاتٍ نخبويَّة إِلى قوانين رسميَّة يتعهَّد فيها السُّلطان بإِجراء التَّنظيمات اللازمة لتغريب المجتمع الإِسلاميِّ . وتحوَّل الصِّراع من كونه ضغطاً خارجيّاً على الدَّولة العثمانيَّة إِلى الدَّاخل ، أي : إِلى صراعٍ داخليٍّ عنيفٍ بين سلطةٍ اختارت ، أو أجبرت على تغريب المؤسَّسات ، ومجتمع يرفض هذه المؤسَّسات مستعيناً بالعلماء ، والفقهاء ، والدُّعاة الَّذين واجهوا بقوَّةٍ تيَّار التَّحديث من منطلق : أنَّه مخالفٌ للشَّريعة الإِسلاميَّة[٢] . إِنَّ من أبرز خصائص التَّنظيمات أنَّها :

١ ـ كانت أولى الوثائق الرَّسميَّة الَّتي لم تستمدَّ مصدريَّتها من الشَّريعة الإِسلاميَّة ، بل اعتمدت مصدراً وضعيّاً للتَّشريع مستوحى من التَّجربة الدُّستوريَّة الأوربيَّة ، وقد احتوت على مفاهيم غربيَّة مثل « وطن » الَّتي تضمَّنها خط كلخانة بدلاً من « الأمَّة » فكانت الحالة هي أولى الخطوات نحو فصل الدِّين عن الدَّولة .

٢ ـ إِنَّ « إِقرار الأمنيَّة الكاملة » و « عهد الأمان » و « مجلس شورى النُّوَّاب » والمظاهر الأخرى المستوحاة من التَّجربة الغربيَّة قد سمحت بإِضفاء نوعٍ من الشَّرعيَّة على استمرار الحيف على العامَّة من ناحيةٍ ، وفتحت الطَّريق لطبقة التُّجَّار الغربيِّين ، والمبشِّرين لإِلحاق المجتمع العثماني بقوانين السُّوق ، وبمعايير الفكر التَّبشيري من ناحيةٍ ثانيةٍ .

٣ ـ لقد تكلَّل خطَّا كلخانة ، وهمايون بدستور مدحت باشا عام ١٨٧٦ م . ولأوَّل مرَّةٍ في تاريخ الإِسلام ، ودوله يجري العمل بدستورٍ مأخوذٍ عن الدُّستور الفرنسي ، والبلجيكي ، والسُّويسري ، وهي دساتيرُ وضعيَّةٌ علمانيَّةٌ .

لقد وضعت التَّنظيمات الدَّولة العثمانيَّة رسميّاً على طريق نهايتها كدولةٍ إِسلاميَّةٍ ، فعلمنة القوانين ، ووضع مؤسَّساتٍ تعمل بقوانين وضعيَّة ، والابتعاد عن التَّشريع الإِسلامي في مجالات التِّجارة ، والسِّياسة ، والاقتصاد قد سحب من

(١) انظر : الدَّولة العثمانية قراءةٌ جديدةٌ لعوامل الانحطاط ، ص (٦١) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٦٢) .

الدَّولة العثمانيَّة شرعيَّتها في أنظار المسلمين ، ناهيك : أنَّ عدوَّ الدَّولة أصبح داخليّاً ، فالتَّوغُّل الأوربيُّ في مستوياته الثَّقافيَّة ، والاقتصاديَّة ، والسِّياسيَّة من ناحيةٍ ، والمسلمون ، وعلماء الدِّين الَّذين يرتابون بمسلك الدَّولة من النَّاحية الثَّانية سيبدؤون صراعاً لن ينتهي ؛ حتَّى بعد نهاية الدَّولة العثمانيَّة ، بل استمرَّ إلى يومنا هذا[١] .

إنَّ من الأهمِّيَّة بمكانٍ أن نقوِّم ما حدث ، ولقد ترك السُّلطان عبد الحميد الثَّاني في مذكَّراته شهادته التَّاريخيَّة ، لقد حاول إنقاذ الدَّولة العثمانيَّة ، بعد أن دارت عليها الدَّوائر وأُحكم عليها الحصار ، لقد كان سلطاناً واعياً لحقيقة الدَّعوات التَّحديثيَّة الَّتي اتَّخذت لها تسمية « الحركة الإصلاحيَّة » تغطيةً لنواياها الحقيقيَّة في ربط الدَّولة العثمانيَّة بالغرب ، وعند ذلك حاربه الدُّستوريُّون ، ويهود الدُّونمة ، وعزلوه . وفي أواخر عهده كتب وهو سلطانٌ مسلوبُ الإرادة يكشف حقيقة التَّجديد ، والإصلاح يقول :

(التَّجديد الَّذي يطالبون به تحت اسم الإصلاح سيكون سبباً في اضمحلالنا . ترى لماذا يوصي أعداؤنا الَّذين عاهدوا الشَّيطان بهذه الوصيَّة بالذَّات . لا شكَّ : أنَّهم يعلمون علم اليقين : أنَّ الإصلاح هو الدَّاء ، وليس الدَّواء ، وأنَّه كفيلٌ بالقضاء على هذه الإمبراطوريَّة . إذا أردنا أن نتبنَّى بعض الإصلاحات ؛ فعلينا أن نأخذ بالحسبان الظُّروف السَّائدة في البلاد ، وأن لا نقيس الأوضاع على أساس المستوى الفكريِّ لحفنةٍ قليلةٍ من الموظَّفين ، ويجب أن يكون في الحسبان شكوك طبقة العلماء في كلِّ ما هو أوربيٌّ . والأوربيُّون يتوهَّمون : أنَّ السَّبيل الوحيد في الخلاص هو الأخذ بحضارتهم جملةً وتفصيلاً .

لا شكَّ أنَّ طراز التَّطوُّر عندنا هو غير ما عند الأوربيِّين ، علينا أن نتطوَّر تحت ظروفٍ طبيعيَّةٍ ، ومن تلقاء أنفسنا ، وأن نستفيد من الظُّروف الخارجيَّة في حالاتٍ خاصَّةٍ . ومن الظُّلم الفادح أن نُتَّهم بمعاداة كلِّ شيءٍ يأتي من الغرب)[٢] .

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة قراءةٌ جديدةٌ لعوامل الانحطاط ، ص (٦٣) .
(٢) المصدر السَّابق ، ص (٧٦) .

لقد أصاب ميزان العدل في تقويمه لحركة الإصلاح العثمانيَّة ، وبيَّن كيفيَّة الاستفادة من حضارة الغرب ، وأرى من الفائدة للقارىء الكريم أن يتعرَّف على موقف الإسلام من الحضارة الغربيَّة وغيرها من الحضارات الجاهليَّة الأخرى ، وكيف تكون الاستفادة من هذه الحضارات ؟

إنَّ الاستفادة من الحضارة الغربيَّة الكافرة ، وغيرها على ثلاثة أنواع :

الأوَّل : الاستفادة من الصِّناعات ، وأصولها ، والاكتشافات العلميَّة ، والعلوم التَّجريبيَّة ، والعسكريَّة ، والطَّبيعيَّة ، كالرِّياضيَّات ، والكيمياء ، والفيزياء ، والهندسة ، والأَحياء ، والفلك بعد أن تُمحَّص وتصفَّى من شوائب المؤثِّرات الجاهليَّة ، وتُصاغ بقوالب إسلاميَّةٍ صافيةٍ ، فهذه الأمور ما بين : واجب[١] أخذه واقتباسه ، وهو ما يحتاجه المسلمون حاجةً ماسَّةً ، أو لا تقوم بعض الواجبات إلا به ، كالسِّلاح ، والنُّظم العسكريَّة في مجالات الدَّعوة إلى الله ، والجهاد في سبيله . . فكلُّ ما يحتاجه المسلمون ـ من المباحات ـ في هذا المجال فيجب أخذه والاستفادة منه ، والمسلمون أحقُّ به .

كذلك ما يتحقَّق به قيام الدَّولة الإسلاميَّة ـ من الوسائل المباحة ـ من التَّحفُّظ الكامل ، والوعي التَّامِّ يجب الأخذ به ، وإلا فتركه أولى ، أو مباح[٢] . وهذا قليلٌ ؛ لأنَّ الله أوجب على المسلمين الأخذ بالأسباب ، والحيطة ، والاكتفاء ، والاستغناء عمَّا في أيدي الكفَّار أيّاً كان .

الثَّاني : التَّقليد في العبادات ، والعقائد ، والمبادىء ، والمفاهيم ، والتَّصوُّرات ، والآراء الفلسفيَّة حول الكون ، والحياة ، والإنسان ، والَّتي تتَّصل بالعقيدة ، فهذه الأمور لا تفصيل فيها ، فهي محرَّمةٌ قطعاً ، والاستمداد فيها من الكفَّار ردَّةٌ ، أو كفرٌ إذا اعتقد المقلِّد صحَّتها ، ودان بها ، وعلى الأقلِّ تكون حراماً مع جهل حقيقتها .

الثَّالث : التَّقليد في الأخلاق، وأنماط السُّلوك، والآداب، والثَّقافة، والفكر ،

---

(١) انظر : مجلَّة المنار لمحمَّد رشيد (١/ ٥٥١ ، ٥٥٣) .
(٢) المصدر السَّابق (١/ ٥٥١ ، ٥٥٣) .

والإنتاج الفنِّي ، ونحو ذلك ، فهذه الأمور لا تخلو إمَّا من أن تتعارض مع أصول الإسلام، وقواعده، أو توقع فيما نهى الشَّارع عن تقليد الكفَّار فيه، فهذا أمرٌ محرَّمٌ، أو تكون ممَّا يجهل أمره ، وحكمه ، فهو على الأقلِّ مكروهٌ ، أمَّا الشَّيء الَّذي يعتبر فضيلةً ـ في تلك الحضارة ـ وما أقلَّه ! ـ فقد يكون مباحاً[1] ـ والله أعلم .

ولقد تحدَّث بعض العلماء والمفكِّرين المسلمين والمعاصرين حول التَّقليد ، وكيفيَّة الاستفادة من الحضارة الغربيَّة .

مصطفى صادق الرَّافعي يقول : (وإنِّي أرى أنَّه لا ينبغي لأهل الأقطار العربيَّة أن يقتبسوا من عناصر المدنيَّة الغربيَّة اقتباس التَّقليد ، بل اقتباس التَّحقيق ، بعد أن يعطوا كلَّ شيءٍ حقَّه من التَّمحيص . فإنَّ التَّقليد لا يكون طبيعةً إلا في الطَّبقات المنحطَّة ! ! على أنَّنا لا نريد من ذلك ألَا نأخذ من القوم شيئاً ، فإنَّ الفرق بعيدٌ بين الأخذ من زخرف المدنيَّة ، وأهواء النَّفس ، وفنون الخيال ، ورونق الخبيث)[2] .

حسن البنَّا يقول : (من الحقِّ أن نعرف أنَّنا بعدنا عن هدي الإسلام ، وأصوله ، وقواعده ، والإسلام لا يأبى أن نقتبس النَّافع ، وأن نأخذ الحكمة أنَّى وجدناها ، ولكنَّه يأبى كلَّ الإباء أن نتشبَّه في كلِّ شيءٍ بمن ليسوا من دين الله على شيءٍ ، وأن نطرح عقائده ، وفرائضه ، وحدوده ، وأحكامه ، لنجري وراء قومٍ فتنتهم الدُّنيا ، واستهوتهم الشَّياطين)[3] .

أبو الأعلى المودودي يقول : إن كان هناك شيءٌ ينبغي ، ويستحقُّ أن تأخذه أمَّةٌ من الأمم الأخرى فإنَّما هو نتاج أبحاثها العلميَّة، وثمرات قواها الفكريَّة، ومعطياتها الاكتشافيَّة ، ومناهجها العلميَّة الَّتي تكون قد بلغت بها معارج الرُّقي في الدُّنيا . إنَّ أيَّ أمَّةٍ في الأرض إذا كان في تاريخها ، أو في نظمها الاجتماعيَّة ، أو في أخلاقها درسٌ نافعٌ ، فمن الواجب أن نأخذه منها ، ومن الواجب أن نستقصي أسباب رقيِّها ، وازدهارها بكلِّ دقَّةٍ ، وتمحيصٍ ، ونأخذ منها ما نراه ملائماً لحاجتنا، وظروفنا .

---

(١) انظر : التَّقليد والتَّبعيَّة ، د . ناصر عبد الكريم الغفل ، ص (٣٨) .
(٢) انظر : وحي القلم (٣/٢٠٣) .
(٣) رسائل الإمام الشَّهيد حسن البنَّا ، ص (٣٠٧) ، طبعة دار الأندلس .

ولكنَّنا إذا أعرضنا عن هذه الأمور الجوهريَّة ، ورحنا نأخذ من أمم الغرب ملابسها ، وطرقها للمعيشة ، وأدواتها للأكل والشُّرب؛ بزعم أنَّ فيها السِّرَّ لنجاح تلك الأمم ، ورقيِّها ، فلا يكون ذلك إلا دليلاً على غباوتنا ، وبلادتنا ، وحماقتنا ، فهل لأحدٍ عنده العقل أن يعتقد أنَّ كلَّ ما أحرزه الغرب من التَّقدُّم والرُّقيِّ في مختلف حقول الحياة إنَّما أحرزه بالجاكيت، والبنطلون، وربطة العنق، والقبَّعة، والحذاء؟!

أو أنَّ من أسباب رقيِّه وتقدُّمه : أنَّه يتناول طعامه بالسِّكِّين والشَّوكة ، أو أنَّ أدواته للزِّينة ، والرَّفاهيَّة ، والمساحيق ، والمعاجين ، والأصباغ هي الَّتي قد سمت به إلى أوج الرُّقيِّ ، والكمال ؟ ! !

فإن لم يكن الأمر كذلك ـ والظَّاهر : أنَّه ليس كذلك ـ فما للتَّقدُّميِّين المتشدِّقين بالإصلاح عندنا لا يندفعون ، أو ما يندفعون إلا بهذه المظاهر(١) ؟ !

الشَّيخ محمَّد الأمين الشنقيطي قال في (أضواء البيان) عارضاً موقف المسلمين من الحضارة الغربيَّة :

(الاستقراء التَّامُّ القطعيُّ دلَّ على أنَّ الحضارة الغربيَّة تشتمل على نافعٍ وضارٍّ ، أمَّا النَّافع فيها ؛ فهو من النَّاحية المادِّيَّة ، وتقدُّمها في جميع الميادين المادِّيَّة أوضح من أن أبيِّنه ، وما تضمَّنته من المنافع للإنسان أعظم ممَّا يدخل تحت التَّصوُّر ، فقد خدمت الإنسان خدماتٍ هائلةً من حيث إنَّه جسدٌ حيوانيٌّ ، وأمَّا الضَّارُّ منها فهو الإهمال بالكلِّيَّة النَّاحية الَّتي هي رأس كلِّ خيرٍ ، ولا خير البتَّة في الدُّنيا بدونها ، وهي التَّربية الرُّوحيَّة للإنسان ، وتهذيب أخلاقه)(٢) .

ثمَّ قال بعد أن ذكر حكم الانتفاع من النَّافع منها :

(وقد انتفع الرَّسول ﷺ بدلالة « أبي الأريقط الدُّؤلي » له في سفر الهجرة على الطَّريق مع أنَّه كافرٌ فاتَّضح من هذا الدَّليل : أنَّ الموقف الطَّبيعي للإسلام والمسلمين من الحضارة الغربيَّة هو أن يجتهدوا في تحصيل ما أنتجته من النَّواحي المادِّيَّة ، ويحذروا ممَّا جنته من التَّمرُّد على خالق الكون جلَّ وعلا ، فتصلح لهم الدُّنيا ،

---

(١) انظر : الإسلام في مواجهة التَّحدِّيات المعاصرة ، للمودودي ، ص (١٦٣ ـ ١٦٤) .
(٢) انظر : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤/ ٤١٢) .

والآخرة، والمؤسف: أنَّ أغلبهم يعكسون القضيَّة، فيأخذون منها الانحطاط الخلقي، والانسلاخ من الدِّين، والتَّباعد من طاعة خالق الكون، ولا يحصلون على نتيجةٍ ممَّا فيها من النَّفع المادِّيِّ، فخسروا الدُّنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين)[1].

سيد قطب يقول: (ولقد كان رسول الله ﷺ يتشدَّد مع أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ في أمر التَّلقِّي في شأن العقيدة، والمنهج بقدر ما يفسح لهم في الرَّأي، والتَّجربة في شؤون الحياة العلميَّة المتروكة للتَّجربة، والمعرفة كشؤون الزَّرع، وخطط القتال، وأمثالها من المسائل العلميَّة البحتة، الَّتي لا علاقة لها بالتَّصوُّر الاعتقادي، ولا بالنِّظام الاجتماعي، ولا بالارتباطات الخاصَّة بتنظيم حياة الإنسان، والفرق بين هذا، وذلك بيِّنٌ، فمنهج الحياة شيءٌ، والعلوم البحتة، والتَّجريبيَّة، والتَّطبيقيَّة شيءٌ آخر، والإسلام الَّذي جاء ليقود الحياة بمنهج الله، هو الإسلام الَّذي وجَّه العقل للمعرفة، والانتفاع بكلِّ إبداعٍ مادِّيٍّ في نطاق منهجه للحياة...)[2].

ثم أورد قصَّة عمر حين رأى النَّبيُّ ﷺ شيئاً من التَّوراة، وغضب عليه حتَّى رجع، وقوله ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيءٍ، فإنَّهم لن يهدوكم، وقد ضلُّوا...» الحديث.

فقال: (هؤلاء هم أهل الكتاب.. وهذا هو هدي رسول الله ﷺ، في التَّلقِّي عنهم في أمورٍ تختصُّ بالعقيدة، والتَّصوُّر، أو بالشَّريعة والمنهج، ولا ضير وفق روح الإسلام، وتوجيهه من الانتفاع بجهود البشر كلِّهم في غير هذا من العلوم البحتة علماً، وتطبيقاً، مع ربطها بالمنهج الإيماني: من ناحية الشُّعور بها، وكونها من تسخير الله للإنسان، ومن ناحية توجيهها، والانتفاع بها في خير البشريَّة، وتوفير الأمن له، والرَّخاء، وشكر الله على نعمة المعرفة، ونعمة تسخير القوى والطَّاقات الكونيَّة، شكره بالعبادة، وشكره بتوجيه هذه المعرفة، وهذا التَّسخير لخير البشريَّة.

---

(١) انظر: التَّقليد والتَّبعيَّة، د. ناصر العقل، ص (٤١).
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/ ٢٠، ٢١).

فأمَّا التَّلقِّي عنهم في التَّصوُّر الإيمانيِّ ، وفي تفسير الوجود ، وغاية الوجود الإنسانيِّ ، وفي منهج الحياة ، وأنظمتها ، وشرائعها ، وفي منهج الأخلاق والسُّلوك ـ أيضاً ـ أمَّا التَّلقِّي في شيءٍ من هذا كلِّه ؛ فهو الَّذي تغيَّر وجه رسول الله ﷺ لأيسر شيءٍ منه ، وهو الَّذي حذَّر الله الأمَّة المسلمة عاقبته ، وهو الكفر الصُّراح)[١] .

إنَّ موجة تقليد الغرب بدأت عارمةً حين دبَّ الضَّعف ، والوَهَنُ في الخلافة العثمانيَّة ، وتكالبت قوى الهدم بتقويضها ـ في الدَّاخل والخارج ـ وحين شعرت هذه الدَّولة الضَّعيفة بالنَّقص أمام الدُّول النَّصرانيَّة الفتيَّة ، فاتَّجهت الدَّولة العثمانيَّة إلى تقليد تلك الدُّول ، وأخذت من إنتاجها الجديد ؛ وقد وافق هذا ـ شللٌ ـ في التَّفكير لدى المسلمين ، وبعدٌ عن منهج الله الأصيل ، فاستمدَّت من الكفَّار دون وعيٍ ، أو إدراكٍ ، أو تفكيرٍ في أسباب تقدُّم تلك الدُّول الكافرة ، ودون أن تجد في اللَّحاق بها بالجدِّ ، والاعتماد على القوَّة الذَّاتيَّة ، والجهود المسلمة . . . . ![٢] .

وبدأت موجة التَّقليد الأعمى قويَّةً عارمةً تدفعها ـ بحمقٍ وعنفٍ ـ الأهواءُ ، والانحرافاتُ في الدَّاخل ، والجهود الماكرة المخطَّطة من الخارج ، فأخذت البلاد الإسلاميَّة تسلك هذا الطَّريق واحدةً تلو الأخرى ، ابتداءً من تركيَّا ، فمصر ، والشَّام ، ثمَّ تونس ، وإيران ، والهند .

والعجيب : أنَّ كلَّ اتِّجاهات التَّقليد في العالم الإسلامي بدأت بالإحساس بالضَّعف العسكري ، والحاجة إلى تنظيم الجيوش في البلدان الإسلاميَّة ، ومن ثَمَّ نشأت عقدة الاعتماد على الغرب ، والإعجاب بكلِّ ما هو غربيٌّ وافدٌ من بلاد الكفَّار مهما كان فاسداً ، وتافهاً ، واحتقار كلِّ ما هو شرقيٌّ مهما كان صالحاً ، وعظيماً[٣] .

لقد نهى الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه الكريم عن التَّقليد الأعمى ، فمقته ، وحذَّر من مغبَّته في آياتٍ كثيرةٍ ، ومناسباتٍ عديدةٍ ، وأساليب متنوِّعةٍ ، ولا سيَّما تقليد الكفَّار ، فتارةً بالنَّهي عن تبعيَّتهم ، وطاعتهم ، وتارةً بالتَّحذير منهم ، ومن

---

(١) انظر : التَّقليد والتَّبعيَّة ، ص (٤٢) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٢٠) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٢١) .

الاغترار بمكرهم، والانصياع لآرائهم، والتَّأثُّر بأعمالهم، وسلوكهم، وأخلاقهم.

وتارةً بذكر بعض خصالهم الَّتي تنفِّر المؤمنين منهم، ومن تقليدهم.

وأكثر ما يرد التَّحذير في القرآن من اليهود، والمنافقين، ثمَّ من عموم أهل الكتاب، والمشركين.

وقد بيَّن الله ـ سبحانه وتعالى ـ في القرآن: أنَّ تقليد الكفَّار، وطاعتهم منه ما هو ردَّةٌ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ [محمَّد: ٢٥ ـ ٢٦].

وحيث جعل الله في شريعته الكمال؛ فقد نهى عن اتِّباع غيرها من الأهواء، والنُّظم البشريَّة، ونهى عن اتِّباع الكفَّار، والَّذين لا يعلمون، فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨ ـ ١٩].

وقال تعالى في معرض التَّحذير من أهل الكتاب: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١].

وكذلك نهى عن طاعتهم، واتِّباع أهوائهم، وخصالهم السَّيِّئة، فقال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وبيَّن خطر موالاتهم، واتِّخاذهم بطانةً، وأنَّ ذلك فيه خطرٌ عامٌّ يهدِّد مصالح الأمَّة، وكيانها، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا

يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران : ١١٨] .

كما جاء النَّهي عن التَّقليد والتَّحذير منه بأسلوب القصَّة ، فإنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر في القرآن الكريم الأمم الكافرة الغابرة ، وأخبارها ، ومواقفها العدائيَّة ضدَّ دعوة التَّوحيد ، ومسيرة الإيمان على مدار التَّاريخ ، وما حصل لها من أنواع العقوبات والعذاب جزاء ضلالها وانحرافها ، وهو بذلك يأمرنا بأخذ العبرة والعظة ، وبالاعتبار بهم ، والاتِّعاظ بقصصهم ، والابتعاد عن تقليدهم ، وتجنُّب سلوك نهجهم(١) .

وذلك مثل قوله تعالى لما ذكر ما فعله بأهل الكتاب من المثلات : ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر : ٢] .

وقال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف : ١١١] .

وقسَّم العلماء الآيات الَّتي نهت عن تقليد الكفَّار في القرآن على قسمين :

قسمٌ بيَّن أنَّ مخالفتهم في عامَّة الأمور أصلح للمسلمين ، وهذا تدلُّ عليه جميع الآيات .

وقسمٌ بيَّن أنَّ مخالفتهم مطلوبةٌ ، وواجبةٌ شرعاً ، وهذا تدلُّ عليه بعض الآيات(٢) .

ووردت في السُّنَّة ـ عن رسول الله ﷺ ـ أحاديث عامَّةٌ تنهى عن التَّقليد الأعمى ، والتَّشبُّه الممقوت ، وتحذِّر من مغبَّة ذلك ، فقال ﷺ في معرض النَّهي عن التَّشبُّه بكلِّ ما لم يشرِّعه ، أو يقرُّه الإسلام ، والنَّهي عن تقليد كل ما هو على غير سلوك المسلمين ، مثل قوله ﷺ : « من تشبَّه بقومٍ فهو منهم »(٣) كما وردت أحاديث كثيرةٌ وصحيحةٌ في النَّهي عن تقليد الكفَّار ـ عموماً ـ وأهل الكتاب ، والمشركين ، والمجوس ، وأهل الجاهليَّة ، فقال ﷺ في مناسباتٍ عديدةٍ :

---

(١) انظر : التَّقليد والتَّبعيَّة ، ص (٥١) .
(٢) انظر : اقتضاء الصِّراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيميَّة ، ص (١٧) .
(٣) سنن أبي داود ، كتاب لباس الشهرة (٢/ ٣٦٧) .

« خالفوا اليهود »(١) .

« خالفوا المشركين »(٢) .

« ولا تتشبَّهوا باليهود »(٣) .

وحين حذَّر ﷺ من تقليد الكفَّار ، وما ينتج عنه من خطرٍ على عقيدة المسلمين ، وكيانهم ، علَّل ذلك بما هم عليه من انحرافٍ ، وضلالٍ ، فعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ :

« لا تسألوا أهل الكتاب عن شيءٍ ، فإِنَّهم لن يهدوكم ، وقد ضلُّوا ، وإِنَّكم إِمَّا أن تصدِّقوا بباطلٍ وإِمَّا أن تكذِّبوا بحقٍّ ، وإِنَّه والله لو كان موسى حيَّاً بين أظهركم ، ما حل له إِلا أن يتبعني)(٤) .

كما بيَّن ﷺ ـ محذِّراً ـ ومشيراً إِلى ما سيحصل للمسلمين بتخلِّيهم عن منهج الله ، واقتفائهم آثار اليهود ، والنَّصارى ، والأمم المنحرفة ، وذلك فيما رواه أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم شبراً بشبرٍ ، وذراعاً بذراعٍ ، حتَّى لو دخلوا جحر ضبٍّ ؛ تبعتموهم » قلنا : يا رسول الله ! اليهود والنَّصارى ؟ قال : « فمن ؟ ؟ »(٥) .

إِنَّ من مقاصد الشَّريعة منع المسلمين من التَّقليد الأعمى ؛ إِذ أنَّ الله أرسل رسوله بالهدى ودين الحقِّ ؛ ليظهره على الدِّين كلِّه ، وقد أكمل الله الشَّريعة للنَّاس: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

لقد جعل الله الشَّريعة مشتملةً على كلِّ المصالح في كلِّ الأزمان ، والأمكنة ، ولكلِّ النَّاس ، فلا حاجة للاستمداد من الكفَّار ، أو تقليدهم ، وواضحٌ ما يحدثه

---

(١) وردت في عدَّة أحاديث ، منها قوله ﷺ : « خالفوا اليهود فإِنَّهم لا يصلُّون في نعالهم » .
(٢) في صحيح البخاريِّ .
(٣) سنن أبي داود ، أبواب الاستئذان .
(٤) مسند الإمام أحمد (٢/ ٣٣٨) .
(٥) البخاري ، كتاب الاعتصام بالكتَّاب والسُّنَّة ، باب : لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم ، المجلَّد الثَّالث ، الجزء التَّاسع ، ص (٨٣) .

التَّقليد من خللٍ في شخصيَّة المسلم من الشُّعور بالنَّقص، والصَّغار، والضعف، والانهزاميَّة، ثمَّ البعد، والعزوف عن منهج الله، وشرعه، فقد أثبتت التَّجربة: أنَّ الإعجاب بالكفَّار، وتقليدهم سببٌ لحبِّهم، والثِّقة المطلقة بهم، والولاء لهم، والتَّنكُّر للإسلام، ورجاله، وأبطاله، وتراثه، وقيمه، وجهل ذلك كلِّه وهذا ما حدث للدَّولة العثمانيَّة، وولاياتها التَّابعة لها في القرنين الماضيين حين تخلَّوا عن رسالتهم، وحين استسلموا لسلطان الغرب، ونهلوا من سمِّه الزُّعاف[(١)].

إنَّ الحكم الشرعيَّ للتَّقليد يختلف باختلاف نوعه، وكيفيَّته، ومدى خطورته، وأثره، كما يختلف باختلاف المقلِّد، والمقلَّد، والعلاقة الشَّرعيَّة بينهما، واعتقاد المقلِّد في تقليده لغير المسلمين. فيكون التَّقليد كفراً؛ إذا كان في العقائد لأصول الإيمان، وأصول العقيدة، أو الأحكام القطعيَّة في الشَّريعة، أو مسائل الغيب الثَّابتة بالنَّصِّ، وذلك كتقليد النَّصارى في عقيدة التَّثليث، وتقليد الشُّيوعيِّين في إنكار النُّبوَّات، والأديان.

وكتقليد الدُّول الكافرة في تعطيل حدود الله، واعتقاد عدم صلاحيَّة الشَّريعة الإسلاميَّة للتَّطبيق، وغير ذلك.

ويكون التَّقليد فسقاً حين يكون في الأخلاق الفاسدة، وارتكاب المنكرات، والمعاصي كشرب المسكرات، ونحوه.

ويكون حراماً مطلقاً، كموافقة الكفَّار في أعيادهم، واحتفالاتهم، وتقليدهم في ذلك.

ويكون مكروهاً كالتَّقليد غير المقصود، ولا المتعمَّد في أمور الحياة العامَّة؛ إذا لم يمسَّ العقيدة، ولم يكن من خصائصهم، وسماتهم.

وإذا خيف أن يؤدِّي التَّقليد إلى شيءٍ من الأمور السَّابقة ـ الكفر، أو الفسوق، أو الحرمة، أو الكراهة ـ اتُّخذ الحكم ذاته، سدّاً للذَّريعة.

ويكون التَّقليد مباحاً بشروطٍ، وقيودٍ، كالتَّقليد في الإنتاج المادِّيِّ، والعلوم الإنسانيَّة والتَّجريبيَّة البحتة، والتَّجارب العسكريَّة، ونحوها، وذلك بعد صياغتها

---

(١) انظر: التَّقليد والتَّبعيَّة، ص (٨١).

صياغةً إسلاميَّةً ، وتنقيتها من شوائب (الجاهليَّة) وتجريدها من مصالح الكفَّار وبألا تتعارض مع المصالح الشَّرعيَّة الدِّينيَّة والدُّنيويَّة[١] .

إنَّ النَّظرة الفاحصة في تاريخ الأمم ، واستقراء أحوالها تبيِّن لنا أنَّ التَّقليد بين أمَّةٍ وأمَّةٍ ، وبين قومٍ وقومٍ ، يحدث بينهما من التَّشابه ، والتَّفاعل ، والانصهار ما يضعف التَّمايز ، والاستقلال في الأمَّة المقلِّدة ، ويجعلها مهتزَّةَ الشَّخصيَّة ، واقتضت سنَّة الله في خلقه : أنَّ الأمَّة الضَّعيفة المغلوبة تعجب بالأمَّة القويَّة المهيمنة الغالبة[٢] ، ومن تقليدها ، فتكسب من أخلاقها ، وسلوكها ، وأساليب حياتها ، إلى أن يصل الأمر إلى تقليدها في عقائدها ، وأفكارها ، وثقافتها ، وأدبها ، وفنونها ، وبهذا تفقد الأمَّة المقلِّدة مقوِّماتها الذَّاتيَّة ، وحضارتها ـ إن كانت ذات حضارةٍ ـ وتعيش عالةً على غيرها .

وإذا لم تستدرك الأمَّة المغلوبة أمرها ، وتتخلَّص بجهودها الذَّاتيَّة ، وجهادها من وطأة التَّقليد الأعمى ؛ فإنَّه ـ ولا بدَّ ـ أن ينتهي بها الأمر إلى الاضمحلال ، والاستعباد ، وزوال الشَّخصيَّة تماماً ، فتصاب بأمراضٍ اجتماعيَّةٍ خطيرةٍ من الذُّلِّ ، والاستصغار ، والشُّعور بالنَّقص ، وعدم الثِّقة بالنَّفس ، أضف إلى ذلك كلِّه التَّبعيَّة السِّياسيَّة ، والاقتصاديَّة ، والانهزاميَّة في كلِّ شيءٍ ، وبالنِّسبة للأمم الرَّبَّانيَّة ذات الرِّسالة الإلهيَّة ـ كالأمَّة الإسلاميَّة ـ فإنَّ تقليدها لغيرها يصرفها عن رسالتها ، ويصرف جهادها ، وطاقاتها عن دين الله ، ويرهقها بالبدع ، والخرافات ، وما لم يشرِّعه الله من النُّظم ، والقوانين ، والأمراض الخلقيَّة ممَّا يؤدِّي بها في النِّهاية إلى التَّخلِّي عن رسالتها ، ومن ثمَّ الولاء للكفَّار والطَّواغيت ، وهذا إيذانٌ ببطش الله وعقابه ، كما ورد في قصص القرآن عن أممٍ كثيرةٍ من هذا النَّوع ، والأمَّة اليوم واقعةٌ بما وقعت فيه تلك الأمم من التَّقليد الأعمى للكفَّار ، والتَّخلِّي عن رسالة الله ، والتَّبعيَّة ، والولاء للكافرين في كلِّ شؤون الحياة ، والحكم بغير ما أنزل الله ، واستباحة الزِّنى ، والرِّبا ، والفجور ، ومع هذا ما زالت تمنُّ على الله بإسلامها[٣] .

* * *

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٨٣) .
(٢) انظر : مقدِّمة ابن خلدون ، فصل اقتداء المغلوب بالغالب ، ص (١٤٧) .
(٣) انظر : التَّقليد والتَّبعيَّة ، ص (١١٤ ، ١١٥) .

المبحث العاشر

السُّلطان عبد العزيز

(١٢٧٧ ـ ١٢٩٣ هـ/ ١٨٦١ ـ ١٨٧٦ م)

تولَّى الحكم بعد أخيه في أواخر عام ١٢٧٧ هـ . وفي عهده تفجَّرت ثورةٌ في جزيرة كريت ، وأخمدت عام ١٢٨٣ هـ/ ١٨٦٣ م . وتمَّ فتح قناة السُّويس عام ١٢٨٥ هـ/ ١٨٦٩ م ، وصدرت مجلَّة الأحكام العدليَّة ، وقانون التِّجارة البحريَّة في أوائل عهده ، وزار أوربَّة ، وفكَّر في الاستفادة من خلاف الدُّول الأوربيَّة فيما بينها ، لكنَّه وجد أنَّها تتَّفق جميعها ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة لأنَّها دولةٌ إسلاميَّةٌ ، ولم يستطع الأوربيُّون أن ينسوا الحقد الصَّليبي المغروس في نفوسهم ، غير أنَّهم كانوا يختلفون فيما بينهم حسب مصالحهم الخاصَّة[١] .

وكانت الدُّول الأوربيَّة عازمةٌ على الضَّغط على الحكومة العثمانيَّة للاستمرار في خطوات الإصلاح والنُّهوض المزعوم على النَّهج الغربيِّ ، والفكر الأوربيِّ ، والمبادىء العلمانيَّة . وأكَّد السُّلطان عبد العزيز عزمه على مواصلة السَّير في الطَّريق الَّذي سلكه أبوه محمود الثَّاني ، وأخوه عبد المجيد ، فأبقى على كلِّ أصحاب المناصب من المكلَّفين بتنفيذ الإصلاحات . وكان من أهمِّ الإصلاحات الإداريَّة في عهده صدور قانون الولايات عام (١٢٨١ هـ/ ١٨٦٤ م) ، وفي مجال الإدارة أيضاً أنشئت محكمةٌ عليا قضائيَّةٌ (ديوان الأحكام العدليَّة) . كما أنشىء عام (١٢٨٥ هـ/ ١٨٦٨ م) مجلسٌ للدَّولة على النَّسق الفرنسي ، سمِّي « شواري دولت » أي مجلس شورى الدَّولة ، وكان من أهمِّ اختصاصاته مناقشة الميزانيَّة[٢] .

أمَّا في مجال التَّعليم ، فقد أسِّست مدرسةٌ ثانويَّةٌ عام ١٢٨٥ هـ/ ١٨٦٨ م هي مدرسة « غلطة سراي » ، كان برنامج الدِّراسة فيها خيراً من برامج المدارس الثَّانويَّة

(١) انظر : تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة ، ص (٤٩٠ ـ ٤٩٢) .
(٢) انظر : الدَّولة العثمانيَّة د . إسماعيل ياغي ، ص (١٥٩) .

الأخرى ، وكانت كلُّ الموادِّ الَّتي تدرس فيها باللُّغة الفرنسيَّة فيما عدا اللُّغة التُّركيَّة . وكانت الغاية من إنشائها هي تخريج طائفةٍ من الشَّباب القادر على حمل عبء الوظائف العامَّة ، وكان هؤلاء الشَّباب من مختلف الدِّيانات ، فالأغلبيَّة من المسلمين ، ولكن كان بها اليونان ، والأرمن ، وهم نصارى ، كما كان بها أعدادٌ من اليهود . والواقع : أنَّ الطُّلاَّب قد أقبلوا على هذه المدرسة ، حتَّى بلغ عددهم عام ١٨٦٩ م ستَّمئة طالبٍ مسلمين ، ونصارى ، ويهود[١] .

ورغم هذه الخطوات الإصلاحيَّة الَّتي تمَّت في عهد السُّلطان عبد العزيز ، إلا أنَّ الدُّول الأوربيَّة لم تعتبرها كافيةً لتنهض دليلاً على أنَّ الدَّولة العثمانيَّة إنَّما تريد الإصلاح ، وتعمل لتحسين رعاياها النَّصارى ، ولإزالة المفاسد الَّتي استشرت في نظام الإدارة والحكومة ، وهي مفاسد كانت في نظر الكثير من المعاصرين الأوربيِّين تهدِّد بانهيار الدَّولة في النِّهاية[٢] .

وكان رأي فريق كثيرٍ من الإنجليز ، وغيرهم من المعاصرين : أنَّ زوال الدَّولة العثمانيَّة قد بات ضروريّاً ، حيث إنَّها قد فشلت في الأخذ بأسباب الإصلاح الأوربيِّ ، فقال لورد كلارندون وزير الخارجيَّة البريطانيَّة في عام ١٨٦٥ م : « إنَّ الطَّريقة الوحيدة لإصلاح أحوال العثمانيِّين هي بإزالتهم من على سطح الأرض كلِّيَّةً »[٣] . وهذا يؤكِّد حقد النَّصارى على الدَّولة العثمانيَّة المجاهدة ؛ لأنَّها هزمتهم منذ فتح القسطنطينيَّة ؟

لقد فشلت الدَّولة العثمانيَّة في الأخذ بأسباب الإصلاح الأوربيِّ لانعدام كلِّ صلةٍ بين المبادىء الأوربيَّة وبين مبادىء الدَّولة العثمانيَّة المستمدَّة من كتاب الله ، وسنَّة رسوله ﷺ[٤] .

●● عزل السُّلطان عبد العزيز :

كان السُّلطان عبد العزيز قد زار أوربَّة ، ورأى اتِّفاق ، وتآمر الدُّول الأوربيَّة

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة . د. إسماعيل ياغي ، ص (١٥٩) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .
(٤) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د. جمال عبد الهادي ، ص (١١٠).

على الدَّولة العثمانيَّة ، فحاول أن يستفيد من الخلاف القائم على المصالح بين دول أوربَّة الغربيَّة ، وروسيا لمصلحة الدَّولة العثمانيَّة ، فبدأ يكثر من دعوة السَّفير الرُّوسي إلى إستانبول ، فخافت الدُّول الأوربيَّة ، وبدأت تشيع الشَّائعات عنه في التَّبذير ، والإسراف[١] واستطاع مدحت باشا أن يعزله ، ثمَّ قام مع عصابته بقتله في عام (١٢٩٣ هـ/ ١٨٧٦ م)[٢] .

إنَّ مدحت باشا كان من يهود الدُّونمة ، روجت له الدِّعاية الماسونيَّة في أنحاء الشَّرق العربيِّ ، والغربيِّ على أنَّه البطل العظيم حامل لواء الإصلاح والحرِّيَّة في السَّلطنة العثمانيَّة ، وسمَّته (أبو الدُّستور) . وسخَّرت له أبواق دعايتها من صحفٍ ، ومجلاتٍ ، وإذاعاتٍ ، فوصل بذلك إلى أعلى الرُّتب ، منها : باشويَّة سورية ، والعراق ، ومنصب الصَّدر الأعظم الَّذي يعتبر أكبر الرُّتب في السَّلطنة العثمانيَّة . ثمَّ بدأ بعد ذلك يدسُّ ، ويخرِّب كما تملي عليه يهوديَّته ، وماسونيَّته ، ويغمز دائماً بالتَّعاون مع الماسونيَّة إلى مساوىء الحكم ، وخاصَّة حكم السُّلطان عبد الحميد عدوُّ الماسونيَّة الأكبر ـ الَّذي لم يترك ثقباً من بصيص أملٍ لليهود في فلسطين إلا وسدَّه ، ثمَّ أسَّس « مدحت باشا » ويهود الدُّونمة الماسونيَّة العالميَّة حوله « جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي » الَّتي حملت نفس شعار الماسونيَّة ، وجعلت مقرَّها بسلانيك ، وانكشفت جوانب من هذا اليهوديِّ للسُّلطان عبد الحميد ، فألقى القبض عليه ، وعزله ، ونفاه فيما بعد[٣] .

●● **سبب مقتل السُّلطان عبد العزيز :**

ـ رفضه للدَّساتير الغربيَّة برمَّتها ، وكذلك العادات الغربيَّة البعيدة عن البيئة الإسلاميَّة ، وتمكُّنه من إصلاح أحوال الدَّولة العثمانيَّة إلى درجةٍ كبيرةٍ ، وخاصَّةً في المجال العسكريِّ ، حيث قوَّى الجيش ، واستبدل الأسلحة القديمة بأخرى حديثةٍ ، واستورد مايلزم من السِّلاح من أفضل مصانع السِّلاح في أوربَّة ، ووضع التَّنسيقات العسكريَّة على الطِّراز الحديث ، وشكَّل الفرق العسكريَّة لأبناء العشائر ،

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١١٠) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) انظر : اليهود والماسونيَّة لعبد الرَّحمن الدوسري ، ص (٧٠ ، ٧١) .

والقبائل من كلِّ الولايات ، وسلَّح القلاع ، والحصون بأضخم وأحدث المدافع ، فأصبحت مدفعيَّة الدَّولة العثمانيَّة يضرب بها المثل في التَّقدُّم ، وأصلح دار المدفعيَّة « الطوبخانة » وأدخل فيها المعدَّات ، والآلات الحديثة ، حتَّى صار بإمكانها صنع جميع الأسلحة على الطِّراز الجديد ، كما قام بإصلاحاتٍ في مجال البحريَّة ، وأحلَّ الخبراء العثمانيِّين محلَّ الخبراء الأجانب رغم اعتراض هؤلاء ، ودولهم ، وأصبحت في عهده الدَّولة العثمانيَّة من الدُّول البحريَّة الأولى في العالم ، وعمل على إرسال البعثات البحريَّة إلى الخارج ، واشترى المدرَّعات ، وشيَّد عدَّة معامل لصنعها ، ولصنع الآلات ، والمراجل ، وعادت دار صناعة « إزميت » إلى ما كان لها من مجدٍ ، كما أصلح الكثير من أحواض السُّفن ، وأسَّس مجلَّة الأحكام العدليَّة ، وعمل على إحقاق الحقِّ ، وحاكم كبار الحكَّام ، أمثال « خسرو باشا » و « عاطف باشا » و « طاهر باشا » وبذلك ظهر للعموم حبَّه للعدل ، والإصلاح ، وهذا لا يرضي الدُّول الأوربيَّة ، ولا تقبل به ، لأنَّها تريد أن يسود الظُّلم حتَّى تنهار الدَّولة بسرعةٍ . وقام بإصلاحاتٍ ماليَّةٍ ، وأمر بوضع ميزانيَّةٍ منضبطةٍ ، وألغيت القوائم الماليَّة ، وسوَّت بذلك الدَّولة جميع ديونها ، وأصبحت المعاملة بالنُّقود ، وانتظمت الأحوال الماليَّة .

لقد هال الدُّول الأوربيَّة رؤية ما حدث على يد هذا السُّلطان في وقتٍ قصيرٍ؛ فتعرقلت مخطَّطاتهم في القضاء على الرَّجل المريض ، لذا رأوا تدبير مؤامرة خلعه ، ثمَّ قتله[١] .

إنَّ جذور المؤامرة في مقتل السُّلطان عبد العزيز ترجع إلى تخطيطٍ مدروسٍ من قبل القناصل ، وممثِّلي الدُّول الأوربيَّة في العاصمة العثمانيَّة ، وقاموا بتنفيذها عن طريق عملائهم ممَّن تشرَّبوا بأفكارهم من رجال الدَّولة ، وعلى رأسهم صنيعة الماسونيَّة المدعو مدحت باشا[٢] الَّذي اعترف أثناء محاكمته باشتراكه في عزل ، وقتل السُّلطان عبد العزيز ، وهذا أمرٌ معروفٌ تاريخيَّاً ومدوَّنٌ في الوثائق[٣] .

---

(١) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، د . علي حسُّون ، ص (٢٠٥ ، ٢٠٦) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٢٠٥).
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٢٠٨).

المبحث الحادي عشر

السُّلطان مراد الخامس

(١٢٩٣ هـ) ومدَّة ولايته ٩٣ يوماً

هو ابن السُّلطان عبد المجيد ولد في ٢٥ رجب من عام ١٢٥٦ هـ الموافق ١٨٤٠ م ، وارتقى منصب الخلافة في ٧ جمادى الأولى من عام ١٢٩٣ هـ[١] .

كان على جانبٍ كبيرٍ من الذَّكاء ، والثَّقافة التُّركيَّة ، والغربيَّة ، كما أبدى اهتماماً بالأدب ، والعلوم ، والشُّؤون الأوربيَّة ، وزار أوربَّة ، والتقى ببعض الأوربيِّين ، وانخرط في سلك الماسونيَّة ، وكان على اتِّصالٍ بنامق كامل أحد أعضاء الحركة ، وغيره ، وكان ميَّالاً إلى الدُّستور ، واللِّيبراليَّة ، والعلمانيَّة[٢] ، وكانت الحركة الماسونيَّة هي الَّتي دفعت به إلى السُّلطة ، ولكنَّه أصيب باضطرابٍ عقليٍّ بعد أن أصابته الدَّهشة ، والفزع عند إيقاظه بعد منتصف اللَّيل عند خلع السُّلطان عبد العزيز ، ولمَّا بلغه مقتل حسن الجركسي ظهرت عليه اضطراباتٌ عصبيَّةٌ أثَّرت على جهازه الهضمي . وكانت صحَّته في تدهورٍ مستمرٍّ في الوقت الَّذي كان مدحت باشا يحاول إعلان الدُّستور الوضعي بدلاً من الشَّرع أثناء مرضه ، ويدرس القوانين ، والنُّظم الغربيَّة ، ويتَّصل بأعوانه حتَّى استطاع إعداده بشكلٍ جاهزٍ . وقد قيل إنَّ جنون السُّلطان ظهر للنَّاس بشكلٍ واضحٍ ، فكان لا بدَّ من خلعه ، وأعلن ذلك من قبل شيخ الإسلام عام ١٨٧٦ م وكان نصُّ الفتوى : « إذا جنَّ إمام المسلمين جنوناً مطبقاً ، ففات المقصود من الإمامة ، فهل يصحُّ حل الإمامة من عهدته ؟ الجواب : يصحُّ ، والله أعلم . كتبه الفقير حسن خير الله عفا الله عنه »[٣] .

وبعد عزله تعافى من مرضه العقليِّ ، وأمضى باقي حياته في قصر « جراغان »

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٢٠٥ ، ٢٠٦) .

(٢) انظر : الدَّولة العثمانيَّة د . إسماعيل ياغي ، ص (١٧٧ ، ١٧٨) .

(٣) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، د . علي حسُّون ، ص (٢٠٩) .

حتَّى توفِّي عن عمر يناهز الرَّابعة والسِّتِّين[١] .

لقد أثَّر الشَّباب من أعضاء جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي على مراد الخامس ، فانتسب إلى المحفل الماسونيِّ ، وأدمن شرب الخمر ، وتشبَّع بالأفكار العلمانيَّة والفلسفيَّة الغربيَّة[٢] .

وقد قال عنه السُّلطان عبد الحميد : « كان من طبيعته أن ينخدع لمن يبتسمون في وجهه ، دون أن يفكِّر في المعقول ، وغير المعقول ، حتَّى أنَّه بسبب ذلك لم يكن يخطر على باله عدم لياقة اشتراكه وهو خليفة المستقبل في المحفل الماسوني ، وتقدير المصيبة الَّتي ستنجم عن ذلك ، وقد استطاع بعض الأشخاص ، ممَّن يدَّعون أنَّهم أنصار التَّجديد أن يحرِّضوه على إدمان الخمر ، وزيَّنوا له جوانب نستخفُّ بها في الحياة الأوربيَّة »[٣] .

* * *

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٢١٠) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) انظر : والدي السُّلطان عبد الحميد ، ص (١٧٨) .

الفصل السَّادس
عصر السُّلطان عبد الحميد
المبحث الأوَّل
السُّلطان عبد الحميد
(١٢٩٣ ـ ١٣٢٦ هـ/ ١٨٧٦ ـ ١٩٠٩ م)

السُّلطان عبد الحميد هو السُّلطان الرَّابع والثَّلاثون من سلاطين الدَّولة العثمانيَّة . تولَّى عرش الدَّولة وهو في الرَّابعة والثَّلاثين من عمره ؛ إذ ولد في ١٦ شعبان عام ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢ م) .

ماتت والدة السُّلطان عبد الحميد وهو في العاشرة من عمره ، فاعتنت به الزَّوجة الثَّانية لأبيه ، وكانت عقيماً . فأحسنت تربيته وحاولت أن تكون له أمّاً ، فبذلت له من حنانها ، كما أوصت بميراثها له . وقد تأثَّر السُّلطان عبد الحميد بهذه التَّربية ، وأعجب بوقارها ، وتديُّنها ، وصوتها الخفيض الهادىء ، وكان لهذا انعكاسٌ على شخصيَّته طوال عمره .

تلقَّى عبد الحميد تعليماً منتظماً في القصر السُّلطاني على أيدي نخبةٍ مختارةٍ من أشهر رجالات زمنه علماً ، وخلقاً . وقد تعلَّم من اللُّغات العربيَّة ، والفارسيَّة ، ودرس التَّاريخ ، وأحبَّ الأدب ، وتعمَّق في علم التَّصوُّف ، ونظم بعض الأشعار باللُّغة التُّركيَّة العثمانيَّة[١] .

وتدرَّب على استخدام الأسلحة ، وكان يتقن استخدام السَّيف ، وإصابة الهدف بالمسدَّس ، ومحافظاً على الرِّياضة البدنيَّة ، وكان مهتمَّاً بالسِّياسة العالميَّة ، ويتابع الأخبار عن موقع بلاده منها بعنايةٍ فائقةٍ ، ودقَّةٍ نادرةٍ .

---

(١) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، محمَّد حرب ، ص (٣١) .

أوَّلاً : زيارته إلى أوربَّة مع عمِّه السُّلطان عبد العزيز :

قام السُّلطان عبد العزيز بزيارة أوربَّة يرافقه وفدٌ عثمانيٌّ رفيع المستوى ، وكان من ضمنه الأمير عبد الحميد الَّذي ظهر أمام الأوربيِّين بملابسه البسيطة ، وسيرته الحميدة في العفَّة[1] ، وقد استعدَّ الأمير عبد الحميد لهذه الرِّحلة بمطالعاتٍ واسعةٍ ، فإنَّه كان دقيقاً في رؤيته ، وفي حكمه على الأشياء الَّتي رآها في الغرب ، ولقد التقى الوفد العثمانيُّ بساسة ذلك العصر في أوربَّة مثل : نابليُون الثَّالث في فرنسا ، والملكة فكتوريا في إنجلترا ، وليوبلد الثَّاني في بلجيكا ، وغليوم الأوَّل في ألمانيا ، وفرنسوا جوزيف في النِّمسا[2] ، وقد سبقت تلك الرِّحلة زيارته مع السُّلطان عبد العزيز إلى مصر ، وانتبه أثناء وجوده في مصر إلى الزَّيف الكاذب للبريق الأوربيِّ ، والأخذ هناك بالشَّكليَّات الأوربيَّة ، ممَّا جعل مصر تستدين ، وتغرق في الدُّيون ، نتيجة انطلاق الوالي الخديوي إسماعيل باشا في إسرافه ، ومحاولته جعل مصر قطعةً من أوربَّة . وأمَّا رحلته إلى أوربَّة ؛ فقد استغرقت من ٢١ يونيو إلى ٧ أغسطس من عام ١٨٦٧ م . زار الوفد العثماني : فرنسا ، وإنجلترا ، وبلجيكا ، والدَّولة النِّمساويَّة المجريَّة .

وفي هذه الرِّحلة الأوربيَّة ، تفتَّح ذهن عبد الحميد إلى أمورٍ كثيرةٍ ، انعكست على فترة حكمه كلِّها بعد ذلك . وهذه الأمور هي :

١ ـ الحياة الأوربيَّة بكلِّ ما فيها من طرق معيشةٍ غريبةٍ ، وأخلاقيَّاتٍ مختلفة ، وشكليَّاتٍ .

٢ ـ التَّطوُّر الصِّناعي ، والعسكري ، وبخاصَّةٍ في القوَّات البرِّيَّة الفرنسيَّة ، والألمانيَّة ، وفي القوَّات البحريَّة البريطانيَّة .

٣ ـ ألاعيب السِّياسة العالميَّة .

٤ ـ تأثير القوى الأوربيَّة على سياسة الدَّولة العثمانيَّة ، وبخاصَّةٍ تأثير نابليون الثَّالث على عمِّه السُّلطان عبد العزيز ، وضغط نابليون عليه ، ليلتزم بمساندة الوزير

---

(١) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، محمَّد حرب ، ص (٣٣) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

علي باشا . رغم أنَّ السُّلطان عبد العزيز لم يكن يُشعر أحداً أنَّه تحت تأثير أيِّ قوَّةٍ غريبةٍ[(١)] .

اقتنع الأمير عبد الحميد في هذه الرِّحلة : أنَّ فرنسا دولة لهوٍ ، وإنجلترا دولة ثروةٍ ، وزراعةٍ ، وصناعةٍ . أمَّا ألمانيا فهي دولة نظامٍ ، وعسكريَّةٍ ، وإدارةٍ ، وكان إعجابه بألمانيا كثيراً ، لذلك عهد بتدريب الجيش العثماني إليها ـ عندما أصبح سلطاناً ـ ولقد تأثَّر الأمير عبد الحميد بهذه الرِّحلة ، ودفعه ذلك التَّأثُّر إلى الاهتمام بإدخال المخترعات الحديثة في دولته في مختلف نواحي الحياة : تعليميَّةٍ ، وصناعيَّةٍ ، ووسائل اتِّصالاتٍ ، وعسكريَّةٍ ، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ ، منها : شراؤه غوَّاصتين ، وكان سلاح الغوَّاصات جديداً . وأدخل التِّلغراف إلى بلاده من ماله الخاصِّ ، وانشأ المدارس الحديثة ، وأدخل فيها العلوم العصريَّة ، وأدخل إلى البلاد أوَّل سيَّارةٍ ، وأوَّل درَّاجةٍ ، وأخذ بنظام القياس المتري . لكنَّه وقف بحزمٍ ضدَّ سريان الفكر الغربي في البلاد[(٢)] .

أثَّرت رحلة عبد الحميد إلى أوربة أيضاً في اتِّباعه سياسةٍ استقلاليَّةٍ تجاه أوربة ، ولم يعرف عن عبد الحميد تأثير أيِّ حاكمٍ أوربيٍّ عليه ، مهما كانت صداقته ، ومهما كانت درجة التَّقارب بين بلده ، وبين الدَّولة العثمانيَّة .

ولفت انتباه عبد الحميد أثناء هذه الرِّحلة الحوار الَّذي كان يجريه فؤاد باشا الصَّدر الأعظم العثماني مع بعض الزُّعماء الأوربيِّين :

سُئل فؤاد باشا أثناء هذه الرِّحلة : بكم تبيعون جزيرة كريت ؟

فردَّ الباشا قائلاً : (بالثَّمن الَّذي اشتريناها به) . وكان يعني بذلك : أنَّ العثمانيِّين حاربوا في سبيل الحفاظ على جزيرة كريت ٢٧ عاماً كلُّها حروب .

وسُئل فؤاد باشا أيضاً : (ما هي أقوى دولة في العالم الآن ؟) .

فردَّ قائلاً : (أقوى دولة الآن هي الدَّولة العثمانيَّة . ذلك لأنَّكم تهدمونها من الخارج ، ونحن نهدمها من الدَّاخل . ولم يستطع كلانا هدمها)[(٣)] .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٥٦).
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٥٧).
(٣) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، ص (٥٨) .

تعلَّم عبد الحميد من هذا درسَ القدرة على إسكات القوى الَّتي تودُّ تحطيم الدَّولة العثمانيَّة . وتعلَّم ذكاء الحوار السِّياسي ، وهو ما برع فيه بعد ذلك .

وكان عمر عبد الحميد أثناء هذه الرِّحلة ٢٥ عاماً[١] .

ثانياً : بيعته للخلافة وإعلان الدُّستور :

بويع بالخلافة بعد أخيه مراد ، يوم الخميس ١١ شعبان ١٢٩٣ هـ ـ ٣١ أغسطس ١٨٧٦م . وكان عمره آنذاك أربعاً وثلاثين سنة ، وحضر لمبايعته الوزراء ، والأعيان ، وكبار الموظَّفين من مدنيِّين ، وعسكريِّين في سراي طوبقبو . وهنَّأه بالخلافة كذلك رؤساء الطَّوائف المختلفة ، وأطلقت المدافع بسائر أطراف السَّلطنة احتفالاً بهذه المناسبة . وأقيمت الزِّينات بجميع جهات إستانبول ثلاثة أيَّامٍ ، وأرسل الصَّدر الأعظم برقيَّات إلى دول العالم لإعلامها بذلك[٢] .

وكان السُّلطان عبد الحميد قد عيَّن مدحت باشا صدراً أعظم ، ثمَّ أعلن في ٢٣ ديسمبر (١٢٩٣ هـ/ ١٨٧٦ م) الدُّستور الَّذي يضمن الحرِّيَّات المدنيَّة ، وينصُّ على مبدأ الحكومة البرلمانيَّة .

ووفق هذا الدُّستور كان البرلمان يتكوَّن من مجلسين : مجلس النُّوَّاب ، أو المبعوثين ، ثمَّ مجلس الأعيان أو الشُّيوخ[٣] .

وقد تعرَّض السُّلطان عبد الحميد في بداية حكمه إلى استبداد الوزراء ، واشتداد سياستهم التَّغريبيَّة بقيادة جمعيَّة العثمانيِّين الجدد ، والَّتي كانت تضمُّ النُّخبة المثقَّفة الَّتي تأثَّرت بالغرب ، والَّتي استطاعت الأيدي الماسونيَّة أن تجنِّدهم لخدمة أهدافها ، وقد بلغ من استبداد الوزراء بالحكم أن كتب مدحت باشا ـ وهو في مقام الرِّئاسة لنخبة العثمانيِّين الجدد ـ إلى السُّلطان عبد الحميد في أوَّل عهده بالعرش (١٨٧٧ م) : (لم يكن غرضنا من إعلان الدُّستور إلا قطع دابر الاستبداد ، وتعيين ما لجلالتكم من الحقوق ، وما عليها من الواجبات ، وتعيين وظائف الوزراء ،

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٥٨) .

(٢) انظر : الدَّولة العثمانيَّة في التَّاريخ الإسلامي الحديث ، ص (١٨٣) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٧٨) .

وتأمين جميع النَّاس على حرِّيَّتهم ، وحقوقهم ، حتَّى تنهض البلاد إِلى مدارج الارتقاء ، وإِنِّي أطيع أوامركم إِذا لم تكن مخالفةً لمنافع الأمَّة . . .)[١] .

ويقول السُّلطان عبد الحميد في هذا : (ولقد وجدت مدحت باشا ينصِّب نفسه آمراً ووصيَّاً عليَّ . وكان في معاملته بعيداً عن المشروطيَّة (الدِّيمقراطيَّة) وأقرب إِلى الاستبداد)[٢] .

وكان مدحت باشا ، وأصحابه من الماسون يدمنون الخمر ، قال السُّلطان عبد الحميد في مذكَّراته : (. . . ومن المعروف : أنَّ أحرار ذلك العهد من شعراء، وأدباء اجتمعوا مساء يوم صدور مرسوم القانون الأساسي في قصر مدحت باشا ، لا ليتحدَّثوا في أمور الدَّولة ، بل في أمور السُّكر، والعربدة، وهم يحتسون الخمر ، ومدحت باشا يدمن الخمر منذ شبابه ، ومشهورٌ عنه هذا ، والتقت نشوة الخمر بالنَّشوة الَّتي بعثها إِعلان القانون الأساسيِّ ، وعندما نهض مدحت باشا من على مائدة الأكل خرج مستنداً على أذرع الآخرين حتَّى لا يقع على الأرض . وبينما كان يغسل يديه قال لزوج أخته طوسون باشا، وهو يؤرجح لسانه في فمه (بتأثير الخمر) :

ـ يا باشا ! من يستطيع الآن ، وبعد كلِّ ما وصلتُ إِليه أن يبعدني عن منصبي ؟ ! من ؟ ! قل لي كم عاماً سأبقى في الصَّدارة العظمى ؟

ردَّ عليه طوسون باشا قائلاً :

ـ إِذا بقيتم على هذا الحال ، فليس أكثر من أسبوع[٣] !

(لقد كان مدحت باشا في مجالس الخمر الخاصِّ به يفشي أدقَّ أسرار الدَّولة ، وكانت هذه الأسرار تنتشر في اليوم التَّالي بين أهالي إِستانبول . وفي إِحدى اللَّيالي تحدَّثَ مدحت باشا عن عزمه على إِعلان الجمهوريَّة في الدَّولة العثمانيَّة ، وأنَّه سيصبح رئيساً للجمهوريَّة العثمانيَّة الجديدة ، ثمَّ إِمبراطوراً لها . تماماً مثلما حدث

---

(١) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، ص (٥٩) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٦٠) .
(٣) انظر : مذكَّرات السُّلطان عبد الحميد ، محمَّد حرب ، ص (٧٧) .

مع نابليون الثَّالث بفرنسا)[١] .

وكان مدحت باشا متَّهماً بقتل السُّلطان عبد العزيز ، وشكَّل السُّلطان عبد الحميد لجنةً للتَّحقيق في ذلك ثمَّ قدم المتَّهمين إلى المحكمة الَّتي أدانتهم ، وحكم على مدحت باشا بالإعدام ، وتدخل السُّلطان عبد الحميد ، وخفَّض الحكم إلى السِّجن ، ثم نفي إلى الحجاز حيث مقرُّ السِّجن العسكري هناك .

كان الدُّستور ينصُّ على فصل السُّلطات من حيث الشَّكل لا المضمون ، كما أنَّ التَّغييرات الَّتي طرأت على نظام الحكم طبقاً له كانت من قبيل التَّطوُّر ، فلم يفكِّر أحدٌ في تقليص حقِّ السُّلطان في السِّيادة ، كما نصَّ الدُّستور على أنَّ شخص السُّلطان مصونٌ لا يُمسُّ ، وأنَّه لا يسأل أمام أحدٍ عن أعماله ، ومن ثمَّ كان الدُّستور مرتهناً بشخصه[٢] . فله وحده حقُّ تعيينٍ ، وإقالة الوزراء ، كما أنَّه هو الَّذي يعقد المعاهدات ، ويعلن الحرب ، ومعاهدات الصُّلح ، وهو القائد العامُّ للقوَّات المسلَّحة ، ومن حقِّه كذلك إصدار جميع القوانين في شتَّى المجالات دون الرُّجوع إلى البرلمان . وهكذا ظلَّ السُّلطان عبد الحميد الثَّاني (١٢٩٣ ـ ١٣٢٧ هـ ـ ١٨٧٦ ـ ١٩٠٩ م) يتمتَّع بالسُّلطة الَّتي سبق لأسلافه أن تمتَّعوا بها ، بحيث إنَّ مدحت باشا ذاته كان أوَّل الضَّحايا . كما أنَّ الصَّلاحيَّات الواسعة الَّتي منحها الدُّستور للسُّلطان حدَّت من سلطة رئيس الوزراء ، بحيث لم يتح له أن يلعب سوى دورٍ ثانويٍّ في تسيير دفَّة الحكم[٣] .

ونصَّ الدُّستور على حرِّيَّة أعضاء البرلمان في إبداء آرائهم ، وفي التَّصويت ، وكان لا يمكن محاكمتهم إلا إذا تجاوزوا حدود قوانين المجلس ، وحدَّد الدُّستور اللُّغة التُّركيَّة العثمانيَّة باعتبارها اللُّغة الرَّسميَّة للدَّولة الَّتي يجري بها الحديث في كلِّ الجلسات ، كما نصَّ أن يكون التَّصويت سرِّيّاً ، أو علنيّاً بحسب الظُّروف ، وعلى أن يقرَّ مجلس النُّوَّاب الميزانيَّة دون تدخُّلٍ من جانب السُّلطان بعكس الحال فيما يتعلَّق بالقوانين العاديَّة .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٧٧) .
(٢) انظر : في أصول التَّاريخ العثمانيِّ ، ص (٢٣٤) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .

وأمَّا بالنِّسبة لحقوق الأفراد ؛ فقد أعلن الدُّستور : أنَّ العثمنة هي السِّياسة الرَّسميَّة للدَّولة في إطار مبدأ المساواة الَّذي نصَّت عليه التَّنظيمات ، فقد خلع الدُّستور صفة العثمانيَّة على كلِّ رعايا الدَّولة أيّاً كان دينهم ، ونصَّ على تمتُّعهم بالحرِّيَّة الشَّخصيَّة ، وعلى تساوي كلِّ العثمانيِّين أمام القانون ، وعلى منحهم نفس الحقوق مع إلزامهم بنفس الواجبات . ونصَّ الدُّستور كذلك على استقلال القضاء ، وأبقى على المحاكم الشَّرعيَّة على أن يلجأ غير المسلمين لمحاكم الملل في المسائل المتعلِّقة بشؤونهم الدِّينيَّة[١] .

وقد أمر السُّلطان عبد الحميد بأن يوضع الدُّستور موضع التَّنفيذ ، وبأن تجرى انتخاباتٌ عامَّةٌ ، كانت الأولى من نوعها في التَّاريخ العثماني ، وقد أسفرت تلك الانتخابات عن تمثيل المسلمين بـ (٧١) مقعداً والنَّصارى بـ (٤٤) مقعداً ، واليهود بـ(٤) مقاعد ، واجتمع أوَّل برلمان عثماني في ٢٩ مارس عام ١٨٧٧ م (١٢٩٤ هـ) وكان مجلس الأعيان والشُّيوخ يتكوَّن من ٢٦ عضواً بالتَّعيين من بينهم ٢١ مسلماً ، في حين كان مجلس النُّوَّاب يتكوَّن من مئة وعشرين عضواً . وقد قام بعض نوَّاب العرب بدورٍ مهمٍّ خلال المناقشات ، غير أنَّ مجلس المبعوثين كانت مدَّته قصيرةً ؛ فقبل أن يتمَّ المجلس دورة انعقاده الثَّانية ، طلب النُّوَّاب في ١٣ فبراير عام ١٨٧٨ م (١٢٩٦ هـ) أن يمثل ثلاثة من الوزراء أمام المجلس للدِّفاع عن أنفسهم من الاتِّهامات الموجَّهة إليهم ، فما كان من السُّلطان عبد الحميد إلا أن عطَّل المجلس ، وأمر بعودة النُّوَّاب إلى بلادهم ، وقام بنفي وإبعاد البارزين منهم[٢] .

وبذلك بلغت مدَّة انعقاد المجلس خلال دورته الأولى والثَّانية عشرة شهور وخمسة وعشرين يوماً ، ولم يُدْعَ هذا المجلس للاجتماع ثانيةً لمدة ثلاثين عاماً ، لم تفتح خلالها قاعة المجلس ولا مرَّة واحدة[٣] .

لقد كان السُّلطان عبد الحميد مضطراً في إعلان الدُّستور بسبب الضُّغوط الَّتي مارسها عليه الماسون بقيادة مدحت باشا ، ولذلك عندما أتيحت له الفرصة قام

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . إسماعيل ياغي ، ص (١٨٠) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٨١) .
(٣) انظر : البلاد العربيَّة والدَّولة العثمانيَّة ، ساطع الحصري ، ص (٩٩ ـ ١٠٠) .

بتعطيل المجلس .

إنَّ عبد الحميد الثَّاني كان ضدَّ الدِّيمقراطيَّة ، والحكم بالدُّستور الَّذي يعرف في المصطلح العثماني باسم « المشروطيَّة » أي الاشتراط على الحاكم بتحديد سلطاته ، على اعتبار أنَّ هذا فكرٌ وافدٌ من الغرب ، ولذلك كان ضدَّ المنادين به ، ورائدهم مدحت باشا ، وانتقد وزيره هذا بقوله : (لم ير غير فوائد الحكم المشروطي في أوربَّة ، لكنَّه لم يدرس أسباب هذه المشروطيَّة ، ولا تأثيراتها ، الأخرى . أقراص السُّلفات لا تصلح لكلِّ مرضٍ ولكلِّ بنيةٍ . وأظنُّ أنَّ أصول المشروطيَّة لا تصلح لكلِّ شعبٍ ، ولكلِّ بيئةٍ قوميَّةٍ . كنت أظنُّ أنَّها مفيدةٌ ، أمَّا الآن : فإنِّي مقتنعٌ بضررها »[١] .

كان للسُّلطان حججه في هذا ، منها سوء تصرُّف المنادين بالدُّستور في أوَّل استجابة للسُّلطان لأفكارهم . من ذلك :

أن طلبت الحكومة من السُّلطان في وقت إعلان السُّلطان للدُّستور أن يوقِّع على بعض قراراتٍ منها تعيين ولاةٍ نصارى في ولاياتٍ أغلب السُّكَّان فيها من المسلمين ، وعلى قرارٍ بقبول طلبة من النَّصارى في الكلِّيَّة الحربيَّة العثمانيَّة الَّتي هي عماد الجيش العثماني ، فرفض السُّلطان التَّوقيع ، فما كان من مدحت باشا ـ وهو الوزير ـ إلا أن قال للسُّلطان : (إنَّ مقصدنا من إعلان الدُّستور أن ننهي استبداد القصر ، ويجب جلالتكم أن تعرف واجباتكم)[٢] .

ومن الأسباب الَّتي يسوقها السُّلطان عبد الحميد في رفضه للفكر الدُّستوري قوله : (إنَّ الدَّولة العثمانيَّة دولةٌ تجمع شعوباً شتَّى ، والمشروطيَّة في دولةٍ كهذه تعني موت العنصر الأصلي في البلاد ، وهل في البرلمان الإنجليزي نائبٌ هنديٌّ واحدٌ ؟ وهل في البرلمان الفرنسي نائبٌ جزائريٌّ واحدٌ ؟)[٣] .

ولم يغيِّر السُّلطان عبد الحميد موقفه تجاه الحكم الدُّستوري في دولته ؛ حتَّى

---

(١) انظر : مذكَّرات السُّلطان عبد الحميد ، محمَّد حرب ، ص (٨٠) .
(٢) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، ص (٩٥) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .

بعد أن عزل عن العرش ، وأخذ النَّاس يمارسون الحكم الدُّستوري ، فيقول : (ماذا حدث عندما أعلنت المشروطيَّة ؟ هل قلَّت الدُّيون ؟ هل كثرت الطُّرق ، والموانىء ، والمدارس ؟ هل أصبحت القوانين الآن أكثر تعقُّلاً ، ومنطقاً ؟ ! وهل ساد الأمن الشَّخصيُّ ؟ هل الأهالي الآن أكثر رفاهيَّةً ؟ هل تناقصت الوفيَّات ، وزاد المواليد ؟ هل أصبح الرَّأي العامُّ العالميُّ الآن بجانبنا أكثر من ذي قبل ؟ الدَّواء النَّافع يصبح سمّاً زعافاً إِذا كان في يد غير الأطبَّاء . أو في أيدي من لا يعرفون أصول استعماله ، وإِنِّي لجدُّ آسفٌ ، فالأحداث قد أظهرت صدق كلامي)[١] .

ويبيِّن السُّلطان عبد الحميد بأنَّ موقفه ليس دائماً تجاه الحكم الدُّستوري ، فالظُّروف الَّتي كان يحكم فيها إِذا اختلفت ؛ فستختلف وجهة نظره في الحكم الدُّستوري .

وفي هذا يقول : (ينبغي ألا يُظَنَّ أنَّ فكري واقتناعي دائماً ضدَّ الحكم الَّذي يعتمد على أصول المشروطيَّة)[٢] .

إِنَّ السُّلطان عبد الحميد مرَّ عصره بظروفٍ عصيبةٍ ، وأزماتٍ شديدةٍ ، وتآمرٍ عالميٍّ على الدَّولة العثمانيَّة من الدَّاخل ، والخارج ، فشرع في إِصلاح الدَّولة وفق التَّعاليم الإِسلاميَّة لمنع التَّدخُّل الأوربيِّ في شؤون الدَّولة ، وحرص على تطبيق الشَّريعة الإِسلاميَّة ، وقام بإِبعاد الكتَّاب ، والصَّحفيِّين عن العاصمة ، وقاوم كلَّ الاتِّجاهات الغربيَّة المخالفة للحضارة الإِسلاميَّة المجيدة في ولايات الدَّولة، واستطاع أن يشكِّل جهازاً استخباراتيّاً قويّاً لحماية الدَّولة من الدَّاخل ، وجمع معلومات عن أعدائه في الخارج ، واهتمَّ بفكرة الجامعة الإِسلاميَّة ، وحقَّق بها نتائج عظيمةً، واهتزَّ الأوربيُّون من هذا التَّفكير الاستراتيجي العميق، وعملوا على تفتيتها .

لقد تكلَّم السُّلطان عبد الحميد عن جهاز مخابراته ، وبيَّن الغرض منه ، فقال : (حسب العرف العثماني ، يتعرَّف السُّلطان على تفكير الرَّعيَّة ، وشكواها عن طريق جهاز الحكم ، ومن ولاته ، وقضاته من جانب ، وعن طريق التَّكايا المنتشرة في

---

(١) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، ص (٩٦) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٩٦) .

ربوع البلاد بمشايخها ، ودراويشها من جانبٍ آخر ، فيجمع كلَّ هذه الأخبار ، ويدير البناء عليها .

جدِّي السُّلطان محمود الثَّاني وسَّع دائرة مخابراته بإِضافة الدَّراويش الرُّحَّل إِليها . كان ذلك عندما ارتقيتُ العرش ، وعلى ذلك أستمرُّ .

علمتُ ذات يومٍ من موسوروس باشا ، سفيرنا في لندن : أنَّ الصَّدر الأعظم السَّابق ، السَّرْ عسكر حسين عوني باشا تسلَّم نقوداً من الإنجليز . إذا كان الصَّدر الأعظم ، وهو يحكم البلاد باسم السُّلطان يخون دولته ، فإِنَّ مخابراته لا بدَّ أن تبلغ القصر على أنَّه يؤدِّي عمله على الوجه الأكمل ، لذلك تكدَّرتُ ، وتأثَّرتُ . في أثناء تلك الأيَّام قابلني محمود باشا ، وأدلى إِليَّ ببعض معلوماتٍ عن بعض أعضاء « تركيَّا الفتاة » وكانت الأخبار الَّتي قدَّمها لي مهمَّة . سألته عن طريق حصوله عليها ، فعرفت : أنَّه أنشأ مخابراتٍ خاصَّةٍ ، واحتوى ـ بالنُّقود ـ أقارب لبعض الأشخاص من « تركيَّا الفتاة » ، وهؤلاء كانوا يقابلون أقاربهم ، ويسمعون منهم ، ثمَّ يخبرونه ، فيدفع لهم .

صحيحٌ أنَّه زوج أختي ، إلا أنَّه لا يصحُّ أن يقيم أحد باشوات الدَّولة مخابراتٍ مستقلَّة عن مخابرات الدَّولة . قلت له أن يحلَّ جهازه هذا فوراً ، وألا يعاود العمل بمثل هذا الأمر مرَّةً أخرى ، وقد أحال إِليَّ جهازه هذا ؛ وهو متضايقٌ كثيراً .

لا يمكن للدَّولة أن تكون آمنةً ، إِذا تمكَّنت الدُّول الكبرى أن تجنِّد لخدمة أهدافها أشخاصاً في درجة وزيرٍ أعظم .

بناءً على هذا قرَّرت إِنشاء جهاز مخابرات يرتبط بشخصي مباشرةً ، وهذا هو الجهاز الَّذي يسمِّيه أعدائي بالجورنالجية (الشُّرطة السِّرِّيَّة = المخابرات) .

وكان ضروريّاً أن أعرف أن بين أعضاء جهاز الجورنالجيَّة (المخابرات) المخلصين الحقيقيِّين أشخاصاً مفترين ، لكنِّي لم أصدِّق ، ولم آخذ بأيِّ شيءٍ يأتي من هذا الجهاز مطلقاً دون تحقُّقٍ دقيقٍ .

كان جدِّي السُّلطان سليم (سليم الثَّالث) يصيح قائلاً : (إِنَّ أيدي الأجانب تتجوَّل فوق كبدي ، وعلينا أن نرسل السُّفراء إِلى الدُّول الأجنبيَّة لنقل أساليب التَّقدُّم

الأوربي، وعلينا إرسال الرُّسل إلى الخارج، ولنعمل سريعاً على تعلُّم ما وصلوا إليه.

كنت أحسُّ أنا أيضاً بأيدي هؤلاء الأجانب، ليست فوق كبدي، وإنَّما في داخله. إنَّهم يشترون صدوري العظام، ووزرائي، ويستخدمونهم ضدَّ بلادي. كيف يحدث هذا؛ وهم الَّذين أنفقت عليهم من خزانة الدَّولة، ولا أستطيع معرفة ما يعملونه، وما يدبِّرون، ويعدُّون؟

نعم، أنا أسَّست جهاز الجورنالجيَّة (المخابرات). وأنا أدرته.

متى حدث هذا؟

بعد أن رأيت صدوري العظام يرتشون من الدُّول الأجنبيَّة مقابل هدم دولتهم، والتآمر على سلطانهم. أسَّست هذا الجهاز لا ليكون أداةً ضدَّ المواطن، ولكن لكي يعرف، ويتعقَّب هؤلاء الَّذين خانوا دولتي، في الوقت الَّذي كانوا يتسلَّمون فيه رواتبهم من خزانتها، وفي الوقت الَّذي كانت النِّعمة العثمانيَّة تملؤهم حتَّى حُلُوقهم)[1]!!

لقد وُجِّهت للسُّلطان عبد الحميد انتقاداتٌ عنيفةٌ من قبل جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي بسبب جهاز الاستخبارات الَّذي شكَّله، وفي الحقيقة: إنَّ ذلك الجهاز استطاع أن يحقِّق إيجابيَّاتٍ كبيرةً للدَّولة العثمانيَّة فعندما (... كان مثيرو الشَّغب، والإرهابيُّون يثيرون الأرمن للتَّمرُّد ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة كان الجنود يتصدُّون لهم، وتُراق دماءٌ كثيرةٌ... كان جهاز السُّلطان عبد الحميد ـ خلال ثلاثين سنة ـ يخبر السُّلطان فور ظهور كلِّ حركةٍ، ولذلك تمكَّن السُّلطان من إخماد كلِّ تمرُّدٍ داخليٍّ في حينه[2].

ثالثاً: تمرُّداتٌ وثوراتٌ في البلقان:

قام سكَّان الجبل الأسود، والصِّرب بتحريض بلاد الهرسك للخروج على الدَّولة العثمانيَّة، وكان ذلك في عام (١٢٩٣ هـ ـ ١٨٧٦ م) واستطاع العثمانيُّون إخمادها، ورغب السُّلطان عبد الحميد في منع الدُّول الأوربيَّة من التَّدخُّل، فأصدر قراراً بفصل القضاء عن السُّلطة التَّنفيذيَّة، وتعيين القضاة بالانتخاب عن طريق

---

(١) انظر: مذكَّرات السُّلطان عبد الحميد، ص (١٦٠).

(٢) انظر: الدَّولة العثمانيَّة، د. إسماعيل ياغي، ص (١٨٩).

الأهالي ، والمساواة في الضَّرائب بين المسلمين والنَّصارى . . . ولم يرضِ ذلك السُّكَّان ، فعادوا إِلى الثَّورة ـ الَّتي قمعت أيضاً ، ولكنَّ النِّمسا الَّتي كانت وراء الثَّورة ، وترغب في ضمِّ البوسنة ، والهرسك إِليها ـ استمرَّت في تحريض السُّكَّان ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة ، فعملت النِّمسا مع روسيا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وإِنجلترا على الطَّلب من السُّلطان بالقيام بإِصلاحاتٍ ، فوافق عليها السُّلطان ، ولكنَّ نصارى البوسنة لم يتقبَّلوا بذلك . وهذا يدلُّ على المطالبة بالإِصلاحات ليست سوى مبرِّراتٍ واهيةٍ ، وحقيقة الأمر أنَّهم يريدون التَّدخُّل في شؤون الدَّولة بشكلٍ مباشرٍ ، وغير مباشرٍ لإِضعافها ، والإِطاحة بها[١] .

كما قامت ثورة البلغار في نفس الوقت الَّذي قام فيه نصارى البوسنة ، والهرسك بثورتهم بدعمٍ من النِّمسا ، والدُّول الأوربيَّة ، وخاصَّةً روسيا ، فقد تأسَّست جمعيَّاتٌ في بلاد البلغار لنشر النُّفوذ الرُّوسي بين النَّصارى الأرثوذكس ، والصَّقالبة ، وكانت تدعمها روسيا ، وتمدُّها بالسِّلاح ، وتبذل هذه الجمعيَّات بدورها جهدها لإِثارة سكان الصِّرب ، والبوسنة ، والهرسك ، وتحرِّضهم على الثَّورة ضدَّ العثمانيِّين ، وعندما أنزلت الدَّولة العثمانيَّة بعض الأسر الشَّركسيَّة احتجَّ البلغار على ذلك ، فقاموا بثورةٍ ، وساعدتهم روسيا ، والنِّمسا بالسِّلاح والأموال ؛ فتمكنَّت الدَّولة العثمانيَّة من القضاء على الثَّورة ، فأخذت الدُّول الأوربيَّة تثير الشَّائعات عن المجازر الَّتي ارتكبها العثمانيُّون ضدَّ النَّصارى ، والعكس هو الصَّحيح . وبهذه الشَّائعات أثير الرَّأي العامُّ الأوربيُّ ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة ، وطالبت الحكومات الأوربيَّة باتِّخاذ إِجراءاتٍ صارمةٍ ضدَّ العثمانيِّين ومنها حصول البلغار على استقلالٍ ذاتيٍّ ، وتعيين حاكمٍ نصرانيٍّ لهم[٢] .

وقام الرُّوس ، والألمان ، والنِّمساويون بدفع الصِّرب ، والجبل الأسود للقيام بحربٍ ضدَّ العثمانيِّين ، وكانت روسيا ترغب في توسيع حدودها من جهة بلغاريا ، والنِّمسا تريد توسعة حدودها من جهة البوسنة ، والهرسك ، ووعدت هذه الدُّول أمير الصِّرب ، والجبل الأسود بالدَّعم . وشرع الجنود الرُّوس بالتَّدفُّق سرَّاً على بلاد

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٨٩) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .

الصِّرب ، والجبل الأسود ، وتمكَّنت الدَّولة العثمانيَّة من الانتصار على الصِّرب ، وحلفائهم ، فتدخَّلت الدُّول الأوربيَّة ، وطلبت وقف القتال ، وإلا فالحربُ الواسعةُ[١] .

واجتمع مندوبو الدُّول الأوربيَّة في إستانبول ، وقدَّموا اقتراحاتٍ للدَّولة من أهمِّها : تقسيم بلاد البلغار إلى ولايتين ، ويكون ولاتها من النَّصارى ، وأن تشكَّل لجنة دوليَّةٌ لتنفيذ القرارات ، وأن تعطى هذه الامتيازات لإمارتي البوسنة ، والهرسك أيضاً ، وأن تتنازل الدَّولة عن بعض الأراضي للصِّرب ، والجبل الأسود .

ولكنَّ الدَّولة العثمانيَّة رفضت هذه القرارات ، وعقدت صلحاً منفرداً مع الصِّرب ، سحبت نتيجته جيوشها من بلاد الصِّرب ، أو يرفع العلم العثماني والصِّربي دليلاً على السِّيادة العثمانيَّة[٢] .

لقد كان السُّلطان عبد الحميد الثَّاني على يقينٍ من أنَّ هدف الدُّول الغربيَّة هو السَّعيُ لسقوط الدَّولة العثمانيَّة حيث قال في مذكَّراته : (رأيت أثناء مؤتمر الدُّول الكبرى الَّذي عقد في إستانبول ما عزمت عليه هذه الدُّول ، وهي ليست كما يقولون تأمين حقوق الرَّعايا المسيحيِّين ، بل تأمين الاستقلال الذَّاتي لهؤلاء الرَّعايا . ثمَّ العمل على استقلالهم التَّامِّ ، وبذلك يتمُّ تقسيم الدَّولة العثمانيَّة .

كانوا يعملون على تقسيم هذا الهدف على صورتين :

الأولى : إثارة الأهالي المسيحيِّين ، وتعكير صفاء الجوِّ ، وبهذا تتصدَّى هذه الدُّول لحمايتهم .

والثَّانية : القول بالمشروطيَّة ، لإحداث الفرقة بيننا أنفسنا ، واستطاعوا أن يجدوا من بيننا أنصاراً يستخدمونهم في كلتا الغايتين ، وبكلِّ أسفٍ كان على خبز العدوِّ شيئاً من السَّمن . فلم يستطع بعض الشَّباب العثماني المثقَّف أن يفرق بين التَّطبيق السَّهل ، والحكم الدُّستوري في بلادٍ تتمتَّع بوحدةٍ قوميَّةٍ ، وبين تعذُّر هذا الحكم في الدُّول الَّتي لا تتمتَّع بوحدةٍ قوميَّةٍ)[٣] .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٩٠) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) انظر : مذكَّرات السُّلطان عبد الحميد ، ص (١٤٥) .

رابعاً : الحرب الرُّوسيَّة العثمانيَّة :

كانت روسيا ترغب في الوصول إلى المياه الدَّافئة بسبب عوامل دينيَّة ، واقتصاديَّة ، وجغرافيَّة . وقد نصَّ (بطرس الأكبر) (١٦٢٧ ـ ١٧٢٥ م) في وصيَّته للرُّوس (في الفقرات التَّاسعة ، والحادية عشرة ، والثَّالثة عشرة) على ضرورة الصِّراع الحضاري ضدَّ العثمانيِّين ، إلى أن تنتهي الدَّولة العثمانيَّة من الوجود .

يقول (بطرس الأكبر) في الفقرة التَّاسعة من وصيَّته :

(نقترب من القسطنطينيَّة ، والهند بقدر الإمكان ، فمن يملك القسطنطينيَّة ؛ فقد ملك العالم . بناءً على ذلك ينبغي ملازمة الحرب مع العثمانيِّين) .

وفي الفقرة الحادية عشرة يقول : (نشارك النِّمسا فيما قصدناه من إخراج العثمانيِّين من أوربَّة) .

وفي الفقرة الثَّانية عشرة يقول : (وبعد التَّسلُّط على الممالك العثمانيَّة ، نجمع جيوشنا ، وتدخل أساطيلنا بحر البلطيق ، والبحر الأسود ، ونشرع في التَّفاوض مع فرنسا ودولة النِّمسا في قسمة العالم بيننا)[(١)] .

إنَّ روسيا اهتمَّت بتلك الوصيَّة ، وفي عصر السُّلطان عبد الحميد الثَّاني كثرت الثَّورات بدعمٍ من روسيا ، والدُّول الأوربيَّة في البلقان ، واليونان ، وغيرها من الأقاليم العثمانيَّة ، ولم تكتفِ بذلك ، بل عملت على قيام دولٍ نصرانيَّةٍ مستقلَّةٍ مثل رومانيا ، وبلغاريا ، والصِّرب ، واليونان . وبعد أن حقَّق العثمانيُّون انتصاراتٍ رائعةً في البلقان استعدَّت روسيا للحرب ، ثمَّ أعلنتها حرباً لا هوادة فيها ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة ، وانضمَّت رومانيا إلى روسيا ، ودخل العثمانيُّون في حربٍ طاحنةٍ مع الرُّوس ، وعبرت الجيوش الرُّوسيَّة نهر الدَّانوب ، واستولت على بعض المدن التَّابعة للعثمانيِّين ومنها « تيرنوه » و« نيقولبلي بل » الَّتي تقع في بلغاريا حاليَّاً ، كما استولى الرُّوس على بعض النِّقاط المهمَّة ، والمعابر المؤدِّية إلى البلقان ، وقام السُّلطان عبد الحميد بتغييرٍ كبيرٍ في قيادات الجيوش العثمانيَّة للتَّصدِّي للغزو الرُّوسي ، وقد حاول الرُّوس الاستيلاء على مدينة (بلفنة) الَّتي تقع في بلغاريا

---

(١) انظر : التُّحفة الحليميَّة ، إبراهيم حلمي بك ، ص (٢٤١) .

حاليّاً ، وهي من أهمِّ المعابر إِلى البلقان ، ولكنَّ القائد العثمانيَّ الشُّجاع الغازي (عثمان باشا) تصدَّى لهم بكلِّ شجاعةٍ ، فردَّهم على أعقابهم منهزمين ، فأعادوا الهجوم مرَّة أخرى بقوَّاتٍ أكثر كثافةً ، ومع ذلك نجح ذلك القائد العثمانيُّ الفذُّ في التَّصدِّي للرُّوس مرَّةً أخرى ، ممَّا جعل السُّلطان العثماني يصدر مرسوماً خاصَّاً في الثَّناء على ذلك القائد(١) .

وأمام هذا الصمود حاول الرُّوس التَّغيير من سياستهم في الاستيلاء على هذه المدينة ، واتَّبعوا سياسة الحصار لها ، وحاولوا منع الإِمدادات من الوصول إِلى الجيوش العثمانيَّة فيها ، وفي الوقت نفسه عزَّزوا قوَّاتهم ، وحضر القيصر الرُّوسي بنفسه على المعركة القادمة ، وانضمَّ أمير رومانيا إِلى روسيا ، وكان معه ١٠٠ ألف مقاتل ، فأصبحت الكفة العسكريَّة في صالح الرُّوس ، حيث تجاوز عددهم ١٥٠ ألف مقاتل ففرضوا حصاراً على ثلاثة خطوط على القوَّات العثمانيَّة ، مع هذا فإِنَّ العثمانيِّين المحاصرين بقيادة عثمان باشا صمدوا صمود الأبطال ، ورغم أنَّ عددهم كان قرابة ٥٠ ألف مقاتل ، فإِنَّهم لم يكتفوا بذلك الصُّمود ، بل أعدُّوا خطَّةً رائعةً لهجومٍ معاكسٍ على خطوط العدوِّ المحاصر لهم طالبين بذلك إِمَّا النَّصر ، وفكُّ الحصار عنهم ، أو الشَّهادة .

وقاد عثمان باشا قوَّاته الَّتي انحدرت على الأعداء ، وهم يهلِّلون ، ويكبِّرون ، فسقطت أعدادٌ منهم شهداء على أيدي قوَّات الرُّوس ، ومع ذلك فقد تمكَّنوا من اختراق الخطِّ الأوَّل للمحاصرين ، والخطِّ الثَّاني ، واستولوا على المدافع فيه ، وأصيب القائد عثمان باشا ببعض الجراح عند الخطِّ الثَّالث ، فسرت إِشاعةٌ قويَّةٌ بين جنده باستشهاده ، ففتَّ ذلك في عضدهم ، وحاولوا الرُّجوع إِلى المدينة ، ولكنَّ بعض قوَّات الرُّوس أصبحت بداخلها ، وبذلك أصبح الجند العثمانيُّون في العراء بين نيران العدوِّ المختلفة ، فاضطرُّوا إِلى الاستسلام للقوَّات الرُّوسيَّة . وكان ذلك في عام ١٢٩٤ هـ أواخر سنة ١٨٧٧ م ، وقد سلَّم القائد العثماني نفسه وهو جريح إِلى الرُّوس الَّذين كانوا معجبين به ، ويشيدون بشجاعته ، وإِقدامه(٢) ، حتَّى إِنَّ

---

(١) انظر : الفتوح الإِسلاميَّة عبر العصور ، ص (٤١٨) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٤١٩) .

القائد العامَّ للقوَّات الرُّوسيَّة قام بتهنئة عثمان باشا على دفاعه الرَّائع ، وأعاد له سيفه احتراماً لقدرته القتاليَّة ، وصبره . وأرسل عثمان باشا إلى روسيا في شهر ديسمبر من نفس العام ١٨٧٧ م ، واستقبله القيصر بكلِّ مراسم الاحترام ، ولم يعامل « عثمان باشا » معاملة الأسير[١] .

وقد شجَّعت تلك الانتصارات الرُّوسيَّة الصِّرب في البلقان على التَّحرُّك ضدَّ العثمانيِّين ، وقامت جيوشهم بالهجوم على المواقع العثمانيَّة هناك ، فأشغلتهم عن الرُّوس ، الَّذين كانوا في الوقت نفسه يسعون لاحتلال مناطق جديدةٍ . وبالفعل تمكَّن الرُّوس من الاستيلاء على صوفيا (عاصمة رومانيا حاليَّاً) ولم يكتفِ الرُّوس بهذا ، بل توجَّهوا جنوباً ناحية العاصمة العثمانيَّة القديمة ، ووصلوا إلى مواقع لا تبعد سوى خمسين كيلو متراً عن إستانبول ، وأصبح الموقف داخل الدَّولة العثمانيَّة سيِّئاً إلى أبعد الحدود .

وفي الوقت نفسه كانت تجري العديد من المعارك بين العثمانيِّين والرُّوس في الجانب الآسيوي حيث وصل الرُّوس إلى الأناضول ، ومع ذلك تمكَّن العثمانيُّون من هزيمتهم ومطاردتهم داخل الأراضي الرُّوسيَّة ، وانتصر العثمانيُّون بقيادة أحمد مختار باشا على الرُّوس في أكثر من ستِّ معارك ، ممَّا جعل السُّلطان عبد الحميد يصدر مرسوماً في الثَّناء عليه ، وقد عاود الرُّوس الهجوم في تلك المناطق مرَّةً أخرى ، وتمكَّنوا سنة ١٢٩٥ هـ من إنزال الهزائم بالقوَّات العثمانيَّة ، والاستيلاء على بعض المناطق في الأناضول نفسها[٢] .

وأمام تلك الهزائم العثمانيَّة في أوربَّة ، وفي آسيا اضطرَّت الدَّولة العثمانيَّة للدُّخول في هدنةٍ مع الرُّوس وقبول المفاوضات معهم ، حيث وقعت بين الطَّرفين معاهدة سان ستفانو عام ١٨٧٨م .

عقدت هذه المعاهدة في ٣ مارس عام ١٨٧٨م . ووقَّعها « صفوت باشا » عن الدَّولة العثمانيَّة وهو يبكي . وكان لا بدَّ بالضَّرورة أن تحتوي هذه المعاهدة على شروطٍ مجحفةٍ بالدَّولة العثمانيَّة[٣] .

---

(١) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، ص (١٤١) .
(٢) انظر : الفتوح الإسلاميَّة عبر العصور ، ص (٤١٨) .
(٣) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، ص (١٤٤) .

●● معاهدة سان ستفانو ١٥ فبراير ١٨٧٨م (١٢٩٥ هـ) :

قدم المندوب الرُّوسي شروطاً مسبقةً ، وطلب التَّوقيع عليها مباشرةً وإلا تتقدَّم الجيوش الرُّوسيَّة ، وتحتلُّ إستانبول ، ولم يكن للعثمانيِّين من خيارٍ سوى التَّوقيع . وتنصُّ المعاهدة :

١ ـ تعيين حدود للجبل الأسود لإنهاء النِّزاع ، وتحصل هذه الإمارة على الاستقلال .

٢ ـ تستقلُّ إمارة الصِّرب ، وتُضاف إليها أراضٍ جديدةٍ .

٣ ـ تستقلُّ بلغاريا استقلالاً ذاتيَّاً إداريَّاً ، وتدفع مبلغاً محدَّداً إلى الدَّولة العثمانيَّة ، ويكون موظَّفو الدَّولة ، والجند من النَّصارى فقط . وتعيين الحدود بمعرفة العثمانيِّين والرُّوس . وينتخب الأمير من قبل السُّكَّان ، ويخلي العثمانيُّون جنودهم نهائيَّاً من بلغاريا .

٤ ـ تحصل دولة رومانيا على استقلالها التَّام .

٥ ـ يتعهَّد الباب العالي بحماية الأرمن ، والنَّصارى من الأكراد ، والشَّركس .

٦ ـ يقوم الباب العالي بإصلاح أوضاع النَّصارى في جزيرة كريت .

٧ ـ تدفع الدَّولة العثمانيَّة غرامة حربيَّة قدرها ٢٥٠ مليون ليرة ذهبيَّة ، ويمكن لروسيا أن تتسلَّم أراضي مقابل هذا المبلغ .

٨ ـ تبقى المضائق (البسفور ، والدَّردنيل) مفتوحةً للسُّفن الرُّوسيَّة في السِّلم ، والحرب .

٩ ـ يمكن للمسلمين في بلغاريا أن يهاجروا إلى حيث يريدون من أجزاء الدَّولة العثمانيَّة[(١)] .

وهكذا جرى تفتيت أملاك الدَّولة في أوربَّة ، وإن يكن تكبير بلغاريا قد أثار سخط الدُّول البلقانيَّة الأخرى : النِّمسا ، اليونان ، والصِّرب ، كما استاءت بريطانيا لازدياد النُّفوذ الرُّوسي في البلقان ، واستعدَّت لمحاربة روسيا ، وحصلت من الدَّولة العثمانيَّة على حقِّ احتلال جزيرة قبرص (يونيو ١٨٧٨ م) وإدارتها على أن تبقى تابعةً للدَّولة العثمانيَّة ، وذلك في مقابل تعهُّدها بالدِّفاع عن أملاك الدَّولة في

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . إسماعيل ياغي ، ص (١٩٢ ، ١٩٣) .

آسيا في وجه أيِّ مزيدٍ من التَّهديدات الرُّوسيَّة ، بشرط أن يتعهَّد السُّلطان من جانبه بإِدخال الإِصلاحات اللازمة في أملاكه الآسيويَّة بالتَّشاور مع بريطانيا ، وقد تعهَّدت بريطانيا بالجلاء عن قبرص في حالة جلاء الرُّوس عن المناطق الَّتي احتلُّوها في آسيا[١] .

لم يكن السُّلطان عبد الحميد راضياً في الأصل بدخول هذه الحرب ، لذلك لم يصدِّق على المعاهدة ، وقام بجهودٍ سياسيَّةٍ ، ودبلوماسيَّةٍ مكثَّفةٍ ، حتَّى أقنع بريطانيا في الوقوف بجانبه ، وبذلك ضمن عقد مؤتمر آخر (مؤتمر برلين) لتخفيف آثار معاهدة سان ستفانو من ناحية ، وإِخافة روسيا بمنافستها بريطانيا ، لكي تصرف روسيا النَّظر عن الحرب ، واستطاع تحقيق مكاسب للدَّولة ، وقلَّلت البنود الخسائر في المعاهدة الأولى .

ودلَّت أحداث المعاهدتين على عبقريَّة السُّلطان عبد الحميد السِّياسيَّة ، الَّتي تمثَّلت في إِحداث النُّفور بين دولة روسيا ، ودولة ألمانيا أيضاً[٢] .

يقول الإِمبراطور الألماني « غليوم الثَّاني » في مذكَّراته :

(جرى لي حديثٌ مع أحد كبار القوَّاد الَّذين أُلحقوا بخدمة البلاط القيصريِّ في عهد « ألكسندر الثَّاني » قيصر روسيا ، عن العلاقات بين البلاطين الرَّوسي ، والألماني ، وبين الجيشين والبلدين ، فقلت لهذا القائد : إِنِّي أرى انقلاباً محسوساً في هذه العلاقات . فقال لي : (الذَّنب في ذلك على مؤتمر برلين ! تلك غلطةٌ كبرى ارتكبها « بسمارك » فقد قضى على الصَّداقة القديمة الَّتي كانت بيننا ، وأزال الثِّقة بألمانيا من البلاط الرُّوسي ، ومن الحكومة الرُّوسيَّة . وجعل الجيش يشعر بأنَّه جني عليه جنايةً عظمى بعد الحرب الدَّمويَّة الَّتي خاض غمارها عام ١٨٧٧ م)[٣] .

●● مؤتمر برلين (١٣٠٥ هـ/ ١٨٨٧ م) :

حضر ذلك المؤتمر الدُّول الكبرى (إِنجلترا ، فرنسا ، ألمانيا ، والنِّمسا) ،

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٩٣) .
(٢) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، ص (١٤٥) .
(٣) انظر : مذكَّرات غليوم الثَّاني ، ص (١٨ ـ ١٩) .

وجرى البحث في هذا المؤتمر تعديل معاهدة سان ستفانو الَّتي عقدت بين روسيا والدَّولة العثمانيَّة ، وذلك لمعارضة الدُّول المعنيَّة لهذه المعاهدة ؛ لأنَّها لا تتَّفق مع مصالحها الاستراتيجيَّة . . واتَّفق المؤتمرون على تعديل معاهدة سان أستفانو ، وعقدت معاهدة برلين والَّتي تناولت الشُّروط التَّالية :

١ ـ استقلال بلغاريا ، وتعديلٌ في حدودها ، وتتشكَّل في جنوب البلقان ولايةٌ باسم الرُّوملِّلي الشَّرقي تكون تحت سيادة الدَّولة العثمانيَّة سياسيَّاً وعسكريَّاً ، ويحكمها نصرانيٌّ ، يعيَّن لمدَّة خمس سنواتٍ باتِّفاق الدُّول ، وتبقى قوَّة لروسيا في بلغاريا ، والرُّوملِّلي الشَّرقي ، وتحدَّد بخمسين ألف جندي .

٢ ـ تقدَّمت حدود اليونان قليلاً إِلى الشَّمال ، مع العلم بأنَّ اليونان لم تدخل في موضوع القتال ، ولم تشمل معاهدة سان أستفانو أيَّ جزءٍ منها .

٣ ـ ضمُّ البوسنة والهرسك للنِّمسا .

٤ ـ ضمُّ بسارابيا إِلى روسيا بعد اقتلاعها من رومانيا ، وتُضمُّ مقاطعة دوبرجيه ، وبعض الجزر إِلى رومانيا ومنحها الاستقلال التامَّ .

٥ ـ استقلال الصِّرب ، والجبل الأسود .

٦ ـ ضمُّ مدن قارص وردهان وباطوم لروسيا .

٧ ـ قرَّر المؤتمر الإِبقاء على الغرامة الحربيَّة الَّتي قرَّرتها معاهدة سان ستفانو على الدَّولة العثمانيَّة ، ومقدارها ٢٥٠ مليون ليرة ذهبيَّة .

٨ ـ تعهَّد الباب العالي بأن يقبل بلا تمييز في الدِّين شهادة جميع رعاياه أمام المحاكم .

٩ ـ الموافقة على تحسين أوضاع النَّصارى في جزيرة كريت[١] .

وكان المستشار الألماني بسمارك هو الَّذي دعا إِلى عقد المؤتمر خشية أن يؤدِّي تصدِّي بريطانيا لروسيا إِلى نشوب حرب أوربيَّةٍ عامَّةٍ ، وتهديد الاتِّحاد الألماني الَّذي جاهد كثيراً من أجل قيامه ، فإِنَّه دعا الدُّول العظمى إِلى المؤتمر في برلين لمراجعة صلح سان أستفانو ، وتسوية نتائج الحرب التُّركيَّة الرُّوسيَّة[٢] .

---

(١) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . إِسماعيل ياغي ، ص (١٩٥) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٩٥) .

وقد ذكر بعض المؤرِّخين[١] : أنَّ في كواليس مؤتمر برلين عرض بسمارك تقسيم الإمبراطوريَّة العثمانيَّة على مذبح السَّلام الأوربي ، فعرض على بريطانيا مصر ، وعلى فرنسا تونس ، والشَّام ، وعلى النِّمسا البوسنة ، والهرسك ، وعلى روسيا البوغازين (البسفور ، والدَّردنيل) وغير ذلك من أملاك السُّلطان . غير أنَّ هذه العروض لم تدرج في مقرَّرات المؤتمر[٢] .

وهكذا فإنَّ مؤتمر برلين من المعالم البارزة لتدهور الإمبراطوريَّة العثمانيَّة الَّتي أرغمت على التَّنازل عن مساحاتٍ واسعةٍ من أملاكها ، كما أنَّه يسجِّل تعهُّد بريطانيا ، وفرنسا بالمحافظة على ممتلكات الدَّولة العثمانيَّة . غير أنَّ بريطانيا ، وفرنسا قد كشفتا عن نواياهما الاستعماريَّة ، فقد احتلَّت فرنسا تونس عام (١٢٩٩ هـ/ ١٨٨١ م) نظير احتلال بريطانيا لقبرص ، واحتلَّت بريطانيا مصر عام (١٣٠٠ هـ/ ١٨٨٢ م) معلنةً : أنَّ احتلالها مؤقَّتٌ[٣] .

وهكذا كانت النَّتيجة من الحرب بين الدَّولة العثمانيَّة وروسيا ، ولمواجهة هذه الأوضاع المتردِّية كان على السُّلطان أن يتَّخذ لقب الخلافة لمواجهة التَّحدِّيات الجديدة ، وعمل على إنشاء الجامعة الإسلاميَّة لكي يعمل على تكتُّل جميع المسلمين من حوله في الدَّاخل ، والخارج .

ولا شكَّ أنَّ حركة الجامعة الإسلاميَّة قد لاقت استحساناً وقبولاً لدى المسلمين الَّذين اعتقدوا : أنَّ ضعف الدَّولة العثمانيَّة مرجعه ضعف الشُّعور الدِّيني عند المسلمين ، الأمر الَّذي دفع فيه أعداء الإسلام للزَّحف على دار الإسلام ، ونهبها بلداً تلو الآخر[٤] .

* * *

(١) الدُّكتور إسماعيل ياغي ، وأحمد مصطفى عبد الرَّحيم .
(٢) انظر : في أصول التَّاريخ العثماني ، ص (١٩٥) .
(٣) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . إسماعيل ياغي ، ص (١٩٥) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٩٦) .

المبحث الثَّاني

الجامعة الإِسلاميَّة

لم تظهر فكرة الجامعة الإِسلاميَّة في معترك السِّياسة الدَّوليَّة إِلا في عهد السُّلطان عبد الحميد ، وبالضَّبط بعد ارتقاء السُّلطان عبد الحميد عرش الدَّولة العثمانيَّة عام ١٨٧٦ م . فبعد أن التقط السُّلطان عبد الحميد أنفاسه وجرَّد المتأثِّرين بالفكر الأوربيِّ من سلطاتهم ، وتولَّى هو قيادة البلاد قيادةً حازمةً ، اهتمَّ السُّلطان عبد الحميد بفكرة الجامعة الإِسلاميَّة ، وقد تكلَّم في مذكَّراته عن ضرورة العمل على تدعيم أواصر الأخوَّة الإِسلاميَّة بين كلِّ مسلمي العالم في الصِّين ، والهند ، وأواسط أفريقية ، وغيرها ، وحتَّى إِيران ، وفي هذا يقول : (عدم وجود تفاهم مع إِيران أمرٌ جديرٌ بالتَّأسُّف عليه ، وإِذا أردنا أن نفوِّت الفرصة على الإِنجليز ، وعلى الرُّوس فإِنَّنا نرى فائدة تقارب إِسلامي في هذا الأمر)[١] .

وتحدَّث عن علاقة الدَّولة العثمانيَّة بإِنجلترا الَّتي تضع العراقيل أمام الوحدة العثمانيَّة ، يقول عبد الحميد الثَّاني : (الإِسلام والمسيحيَّة نظرتان مختلفتان ، ولا يمكن الجمع بينهما في حضارةٍ واحدةٍ) لذلك يرى أنَّ (الإِنجليز قد أفسدوا عقول المصريِّين ، لأنَّ البعض أصبح يقدِّم القوميَّة على الدِّين . ويظنُّ أنَّه يمكن مزج حضارة مصر بالحضارة الأوربيَّة ، وإِنجلترا تهدف من نشر الفكر القومي في البلاد الإِسلاميَّة إِلى هزِّ عرشي . . . وأنَّ الفكر القوميَّ قد تقدَّم تقدُّماً ملموساً في مصر . والمثقَّفون المصريُّون أصبحوا من حيث لا يشعرون ألعوبةً في يد الإِنجليز ، إِنَّهم بذلك يهزُّون اقتدار الدَّولة الإِسلاميَّة ، ويهزُّون معها اعتبار الخلافة)[٢] .

ويقول عن السِّياسة الإِنجليزيَّة تجاه الخلافة : (قالت صحيفة ستاندرد الإِنكليزيَّة ما نصُّه : (يجب أن تصبح الجزيرة العربيَّة تحت الحماية الإِنجليزيَّة ، ويجب على إِنكلترا أن تسيطر على مدن المسلمين المقدَّسة) . . . إِنَّ إِنجلترا

---

(١) انظر : مذكَّرات السُّلطان عبد الحميد ، ص (٢٣) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

تعمل لهدفين : إضعاف تأثير الإسلام ، وتقوية نفوذها . . لذلك أراد الإنجليز أن يكون الخديوي في مصر خليفة للمسلمين ، ولكن ليس هناك مسلمٌ صادقٌ واحدٌ يقبل أن يكون الخديوي أميراً للمؤمنين ؛ لأنَّه بدأ دراسته في جنيف ، وأكملها في فيينا ، وتطبَّع بطابع الكفَّار)[١] .

وعندما ظهر اقتراح إنكلترا (لإعلان الشَّريف حسين أمير مكَّة خليفة للمسلمين)[٢] ويعترف السُّلطان عبد الحميد الثَّاني بأنَّه لم يكن لديه الطَّاقة ، ولا القوَّة لمحاربة الدُّول الأوربيَّة . . (ولكنَّ الدُّول الكبرى كانت ترتعد من سلاح الخلافة ، وخوفهم من الخلافة جعلهم يتَّفقون على إنهاء الدَّولة العثمانيَّة)[٣] ، و(أنَّ الدَّولة العثمانيَّة تضمُّ أجناساً متعدِّدةً من أتراكٍ ، وعربٍ ، وألبان ، وبلغار ، ويونانيِّين ، وزنوج ، وعناصر أخرى ، ورغم هذا فوحدة الإسلام تجعلنا أفراد أسرةٍ واحدةٍ)[٤] .

ويُعبِّر عبد الحميد الثَّاني عن ثقته في وحدة العالم الإسلامي بقوله : (يجب تقوية روابطنا ببقيَّة المسلمين في كلِّ مكانٍ ، يجب أن نقترب من بعضنا البعض أكثر ، وأكثر ، فلا أمل في المستقبل إلا بهذه الوحدة ، ووقتها لم يحن بعد لكنَّه سيأتي . سيأتي اليوم الَّذي يتَّحد فيه كلُّ المؤمنين ، وينهضون فيه نهضةً واحدةً ، ويقومون قومة رجلٍ واحدٍ ، وفيه يحطِّمون رقبة الكفَّار)[٥] .

كانت فكرة الجامعة الإسلاميَّة في نظر السُّلطان عبد الحميد يمكن بها أن تحقِّق أهدافاً منها :

ـ مواجهة أعداء الإسلام المثقَّفين بالثَّقافة الغربيَّة ، والَّذين توغَّلوا في المراكز الإداريَّة ، والسِّياسيَّة الحسَّاسة في أجهزة الدُّول الإسلاميَّة عموماً ، وفي أجهزة الدَّولة العثمانيَّة خصوصاً وإيقافهم عند حدِّهم ، عندما يجدون : أنَّ هناك سدّاً

(١) انظر : مذكَّرات السُّلطان عبد الحميد ، ص (٢٤) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .
(٤) المصدر السَّابق نفسه .
(٥) المصدر السَّابق نفسه .

إسلاميّاً ضخماً ، وقويّاً يقف أمامهم .

ـ محاولة إيقاف الدُّول الاستعماريَّة الأوربيَّة ، وروسيا ، عند حدِّها عندما تجد : أنَّ المسلمين قد تكتَّلوا في صفٍّ واحدٍ ، وقد فطنوا إلى أطماعهم الاستعماريَّة ، ووقفوا ضدَّها بالوحدة الإسلاميَّة .

ـ إثبات أنَّ المسلمين يمكن أن يكونوا قوَّةً سياسيَّةً عسكريَّة ، يحسب لها حسابها في مواجهة الغزو الثَّقافي والفكريِّ، والعقديِّ الرُّوسي، الأوربيِّ النَّصراني .

ـ تأخذ الوحدة الإسلاميَّة الجديدة دورها في التَّأثير على السِّياسة العالميَّة(١) .

ـ تستعيد الدَّولة العثمانيَّة بوصفها دولة الخلافة قوَّتها ، وبذلك يمكن إعادة تقويتها ، وتجهيزها بالأجهزة العلميَّة الحديثة في الميادين كافَّةً ، وبذلك تستعيد هيبتها ، وتكون درساً تاريخيّاً . يقول : (إنَّ العمل على تقوية الكيان السِّياسي ، والاجتماعي الإسلامي ، أفضل من إلقائه أرضاً ، وتكوين كيانٍ غريبٍ فكريّاً ، واجتماعيّاً على نفس الأرض)(٢) .

ـ إحياء منصب الخلافة ، ليكون أداةً قويَّةً ،وليس صوريّاً كما حدث لفترة ، وبذلك لا يكون السُّلطان وحده فقط هو الَّذي يقف في مواجهة أطماع الغرب ، وعملائه في الدَّاخل ، وإنَّما هي وحدةٌ شعوريَّةٌ بين شعوب المسلمين جميعاً . يكون هو الرَّمز ، والموجِّه ، والموحِّد .

وإلى هذا أشار المؤرِّخ البريطاني (آرنولد توينبي) في قوله : (إنَّ السُّلطان عبد الحميد ، كان يهدف من سياسته الإسلاميَّة ، تجميع مسلمي العالم تحت رايةٍ واحدةٍ ، وهذا لا يعني إلا هجمةً مضادَّةً ، يقوم بها المسلمون ضدَّ هجمة العالم الغربيِّ الَّتي استهدفت عالم المسلمين)(٣) .

ولذلك استخدم السُّلطان عبد الحميد كلَّ الإمكانيَّات المتاحة في ذلك الوقت من اتِّخاذ الدُّعاة من مختلف جنسيَّات العالم الإسلامي ، من العلماء ، والمبرِّزين في مجالات السِّياسة ، والدُّعاة الَّذين يمكن أن يذهبوا إلى أرجاء العالم الإسلامي

---

(١) انظر : السَّلطان عبد الحميد الثَّاني ، ص (١٦٨) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٦٩) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .

المختلفة ؛ للالتقاء بالشُّعوب الإسلاميَّة ، وفهم ما عندهم ، وإبلاغهم بآراء وتوجيهات السُّلطان الخليفة ، ونشر العلوم الإسلاميَّة ، ومراكز الدِّراسات الإسلاميَّة ، في الدَّاخل ، والخارج ، وطبع الكتب الإسلاميَّة الأساسيَّة ، ومحاولة اتِّخاذ اللُّغة العربيَّة لأوَّل مرَّة في تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، لغةً للدَّولة ، أو ما يسمَّى بالتَّعبير المعاصر « تعريب » الدَّولة العثمانيَّة ، والعناية بالمساجد ، والجوامع من تجديدٍ ، وترميمٍ ، وبناءِ الجديد منها ، والقيام بحملات تبرُّعٍ لإحياء المساجد في العالم ، والاهتمام بالمواصلات لربط أجزاء الدَّولة العثمانيَّة ، واستمالة زعماء القبائل العربيَّة ، وإنشاء مدرسة في عاصمة الخلافة لتعليم أولاد رؤساء العشائر ، والقبائل ، وتدريبهم على الإدارة ، واستمالة شيوخ الطُّرق الصُّوفيَّة ، والاستفادة من الصَّحافة الإسلاميَّة في الدِّعاية للجامعة الإسلاميَّة ، واتِّخاذ بعض الصُّحف وسيلةً للدِّعاية لهذه الجامعة ، والعمل على تطوير النَّهضة العلميَّة والتِّقنيَّة في الدَّولة العثمانيَّة ، وتحديث الدَّولة فيما هو ضروريٌّ[١] .

ولقد التفَّت مجموعةٌ من العلماء ، ودعاة الأمَّةً الإسلاميَّة إلى دعوة الجامعة الإسلاميَّة من أمثال جمال الدِّين الأفغاني ، ومصطفى كامل من مصر ، وأبي الهدى الصَّيادي من سورية ، وعبد الرَّشيد إبراهيم من سيبيريا ، والحركة السَّنوسيَّة في ليبيا ، وغيرها .

أوَّلاً : جمال الدِّين الأفغاني والسُّلطان عبد الحميد :

أيَّد جمال الدِّين الأفغاني دعوة السُّلطان عبد الحميد إلى الجامعة الإسلاميَّة ، وقدَّم مشروعاتٍ أكبر بكثير من طموح السُّلطان . ولم يكن السُّلطان يأمل في أكثر من وحدة هدفٍ بين الشُّعوب الإسلاميَّة ، ووحدة حركة بينها . وهي وحدةٌ شعوريَّةٌ عمليَّةٌ ، في نفس الوقت ، تكون الخلافة فيها ذات هيبةٍ ، وقوَّةٍ ، لكنَّ الأفغاني عرض على السُّلطان مشروعاً ، يرمي إلى توحيد أهل السُّنَّة مع الشِّيعة ، وكانت نظرة السُّلطان عبد الحميد لا ترمي في هذا الصَّدد أكثر من توحيد الحركة السِّياسيَّة بين الفريقين لمواجهة الاستعمار العالمي[٢] .

---

(١) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، ص (١٧٢) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٨١) .

واستفاد السُّلطان عبد الحميد كثيراً من الأفغاني ، في الدِّعاية إلى الجامعة الإسلاميَّة ، رغم الاختلاف بين فكر السُّلطان ، وفكر الأفغاني ، ومن أسباب الاختلاف :

١ ـ إيمان الأفغاني بقضيَّة وحدة المسلمين ، وتأييده في نفس الوقت للثُّوَّار ضدَّ السُّلطان عبد الحميد ، من القوميِّين الأتراك والعثمانيِّين عامَّةً .

٢ ـ دعوة الأفغاني لوحدة الشُّعوب الإسلاميَّة ، بحيث تكون كالبنيان الواحد ، وبقلبٍ واحدٍ في مواجهة الدُّول الأوربيَّة الرَّامية إلى تقسيم الدَّولة العثمانيَّة العاملة على انهيارها ، وفي نفس الوقت ، لم يتعرَّض الأفغاني للاستعمار الفرنسي ، ولو بكلمة تنديد . في وقت احتاج فيه السُّلطان عبد الحميد إلى مقاومة الفرنسيِّين في شمال أفريقية[١] .

٣ ـ تنديد جمال الدِّين بالاستعمار الإنكليزي ، في حين يذكر السُّلطان عبد الحميد أنَّ المخابرات العثمانيَّة ، حصلت على خطَّةٍ أعدَّت في وزارة الخارجيَّة الإنكليزيَّة ، واشترك فيها جمال الدِّين الأفغاني ، وبلنت الإنكليزيِّ ، وتقضي هذه الخطَّة بإقصاء الخلافة عن السُّلطان عبد الحميد ، وعن العثمانيِّين عموماً . وبلنت هذا سياسيٌّ إنكليزيٌّ يعمل في وزارة الخارجيَّة الإنكليزيَّة ، ومؤلِّف كتاب « مستقبل الإسلام » ودعا فيه صراحة إلى العمل على نزع الخلافة من العثمانيِّين ، وتقليدها للعرب . وقد ردَّ مصطفى كامل باشا زعيم الحركة الوطنيَّة في مصر على « بلنت » في كتاب مصطفى كامل باشا المشهور (المسألة الشَّرقيَّة) قائلاً : (وبالجملة ، فإنَّ حضرة مؤلِّف كتاب مستقبل الإسلام يرى ـ وما هو إلا مترجم عن آمال بني جنسه ـ أنَّ الأليَق بالإسلام أن ينصِّب إنكلترا دولة له ، بل إنَّ الخليفة يجب أن يكون إنكليزيّاً)[٢] .

٤ ـ رغم الأطماع الرُّوسيَّة ، والحروب الرُّوسيَّة ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة واقتطاع الرُّوس لأجزاءٍ من الأراضي العثمانيَّة ، فقد كان موقف السَّيِّد جمال الدِّين الأفغاني من مبدأ التَّوسُّع الرُّوسي غريباً على مفهوم الجامعة الإسلاميَّة ؛ لأنَّه يعترف بما للرُّوس من مصالح حيويَّة واستراتيجيَّةً في الهند ، تدفعهم لاحتلالها . وأنَّه ليس

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٨٢) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٨٣) .

لدى الأفغاني اعتراضٌ على هذا الاحتلال إذا حدث ، بل ينصح الرُّوس باتِّباع أسلم السُّبل ، وأسهلها لتنفيذه ، وذلك بأن يستعينوا بدولة فارس ، وبلاد الأفغان ، لفتح أبواب الهند ، شريطة أن تسهمهما في الغنيمة ، وتشركهما في المنفعة .

٥ ـ الخلاف العقدي الَّذي ظهر بين العلماء في إستانبول وبين جمال الدِّين الأفغاني ، وظهور كتاب الشَّيخ (خليل فوزي الفيليباوي) المُعَنْوَن : (السُّيوف القواطع) للرَّدِّ على عقيدة الأفغاني ، وسكوت الأفغاني عن هذا ، وعدم دفاعه عن نفسه . والكتاب باللُّغة العربيَّة ، ومترجمٌ وقتها إلى اللُّغة التُّركيَّة .

مالَ السُّلطان عبد الحميد إلى تركيز كلِّ السُّلطات في يده بعد أن ذاق الأمرَّيْن من وزرائه ، وضبَّاط جيشه ، وصدوره العظام المتأثِّرين بالفكر الغربيِّ ، والَّذين هدفوا إلى إقامة ديمقراطيَّة أوربيَّة ، تضمُّ مجلساً منتخباً يمثِّل كلَّ شعوب الدَّولة العثمانيَّة ، ومعارضة السُّلطان عبد الحميد لهذا بحجَّة : أنَّ عدد النُّوَّاب المسلمين سيكون حوالي نصف العدد الكلِّي للبرلمان . في حين أنَّ جمال الدِّين الأفغاني يميل إلى الدِّيمقراطيَّة ، وعدم تركيز السُّلطات في يد شخصٍ واحدٍ بعينه ، ويميل الأفغاني إلى الحرِّيَّة في التَّعبير عن الرَّأي(١) .

ولقد ذكر السُّلطان عبد الحميد في مذكَّراته بأنَّ جمال الدِّين الأفغاني مهرِّجٌ ، وله علاقةٌ بالمخابرات الإنكليزيَّة : (وقعتْ في يدي خطَّةٌ أعدَّها في وزارة الخارجيَّة الإنكليزيَّة مهرِّجٌ اسمه : جمال الدِّين الأفغاني ، وإنكليزيٌّ يُدعى : بلنت قالا فيها بإقصاء الخلافة عن الأتراك . واقترحا على الإنكليز إعلان الشَّريف حسين أمير مكَّة خليفةً على المسلمين) .

كنت أعرف جمال الدِّين الأفغاني عن قرب . كان في مصر ، وكان رجلاً خطيراً . اقترح عليَّ ذات مرَّةٍ ـ وهو يدَّعي المهديَّة ـ أن يثير جميع مسلمي آسيا الوسطى . وكنت أعرف أنَّه غير قادرٍ على هذا . وكان رجل الإنكليز ، ومن المحتمل جدّاً أن يكون الإنكليز قد أعدُّوا هذا الرَّجل لاختباري ، فرفضت فوراً فاتَّحد مع بلنت .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٨٤) .

استدعيته إلى إستانبول عن طريق أبي الهدى الصَّيادي الحلبي ، الَّذي كان يلقى الاحترام في كلِّ البلاد العربيَّة .

قام بالتَّوسُّط في هذا كلٌّ من منيف باشا ، حامي الأفغان القديم ، والأديب الشَّاعر عبد الحق حامد . جاء جمال الدِّين الأفغاني إلى إستانبول ، ولم أسمح له مرَّةً أخرى بالخروج منها . . .)[١] .

أمَّا رأي جمال الدِّين الأفغاني في السُّلطان عبد الحميد ؛ فإنَّه يقول : (إنَّ السُّلطان عبد الحميد لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر ، لرجحهم ذكاءً ، ودهاءً ، وسياسةً ، خصوصاً في تسخير جليسه ، ولا عجب إذا رأيناه يذلِّل لك ما يقام لملكه من الصِّعاب من دول الغرب ، ويخرج المناوىء له من حضرته راضياً عنه ، وعن سيرته ، وسيره ، مقتنعاً بحجَّته سواءٌ في ذلك : الملك ، والأمير ، والوزير ، والسَّفير . . .)[٢] .

وقال : (ورأيته يعلم دقائق الأمور السِّياسيَّة ، ومرامي الدُّول الغربيَّة ، وهو معدٌّ لكلِّ هوَّةٍ تطرأ على الملك مخرجاً ، وسلماً ، وأعظم ما أدهشني ما أعدَّه من خفيِّ الوسائل ، وأمضى العوامل ، كي لا تتَّفق أوربَّة على عملٍ خطيرٍ في الممالك العثمانيَّة ، ويريها عياناً محسوساً أن تجزئة السَّلطنة العثمانيَّة لا يمكن إلا بخرابٍ يعمُّ الممالك الأوربيَّة بأسرها)[٣] .

ويقول : (أمَّا ما رأيته من يقظة السُّلطان ، ورشده ، وحذره ، وإعداده العدَّة اللازمة لإبطال مكائد أوربَّة ، وحسن نواياه ، واستعداده للنُّهوض بالدَّولة الَّذي فيه نهضة المسلمين عموماً ، فقد دفعني إلى مدِّ يدي له ، فبايعته بالخلافة ، والملك ، عالماً علم اليقين : أنَّ الممالك الإسلاميَّة في الشَّرق لا تسلم من شراك أوربَّة ، ولا من السَّعي وراء إضعافها ، وتجزئتها ، وفي الأخير ازدراؤها واحدةً بعد أخرى إلا بيقظةٍ ، وانتباهٍ عموميٍّ ، وانضواءٍ تحت راية الخليفة الأعظم . . .)[٤] .

---

(١) انظر : مذكَّرات السُّلطان عبد الحميد ، ص (١٤٨) .
(٢) انظر : جمال الدِّين الأفغاني المصلح المفترى عليه ، د . محسن عبد الحميد ، ص(١٣٧) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .
(٤) المصدر السَّابق نفسه .

إنَّ جمال الدِّين الأفغاني أمره محيِّر ، فهناك من يدافع عنه ، وهناك من يتَّهمه بالعمالة والانضمام إلى المحافل الماسونيَّة ، فمثلاً : كتاب « دعوة جمال الدِّين الأفغاني في ميزان الإسلام » للمؤلِّف مصطفى فوزي عبد اللَّطيف غزال يرى : أنَّه كان من عوامل الهدم في الأمَّة في تاريخها الحديث . أمَّا كتاب «جمال الدِّين الأفغاني المصلح المفترى عليه » للدُّكتور محسن عبد الحميد ، فيراه من المصلحين .

ثانياً : الطُّرق الصُّوفيَّة :

استهدف السُّلطان عبد الحميد الطُّرق الصُّوفيَّة في كسب ولائها للدَّولة العثمانيَّة ، والدَّعوة إلى فكرة الجامعة الإسلاميَّة ، واستطاع أن يُكوِّن رابطةً بين مقرِّ الخلافة ـ إستانبول ـ وبين تكايا ، ومراكز تجمُّع الطُّرق الصُّوفيَّة في كلِّ أنحاء العالم الإسلاميِّ ، واتَّخذ من حركة التَّصوُّف في العالم الإسلاميِّ وسيلةً للدِّعاية للجامعة الإسلاميَّة ، كما اتَّخذ من الزُّهَّاد من غير المتصوِّفة وسيلةً أيضاً للدَّعوة لفكر التَّجمُّع الإسلامي ، وتكوَّنت في عاصمة الخلافة لجنةٌ مركزيَّةٌ ، مكوَّنةٌ من العلماء ، وشيوخ الطُّرق الصُّوفيَّة ، حيث عملوا مستشارين للسُّلطان في شؤون الجامعة الإسلاميَّة : الشَّيخ (أحمد أسعد) وكيل الفراشة الشَّريفة في الحجاز ، والشَّيخ (أبو الهدى الصَّيادي) شيخ الطَّريقة الرِّفاعيَّة ، والشَّيخ (محمَّد ظافر الطَّرابلسي) شيخ الطَّريقة المدنيَّة ، وأحد علماء الحرم المكِّي ، كانوا أبرز أعضاء هذه اللِّجنة المركزيَّة للجامعة الإسلاميَّة ، وكان معهم غيرهم .

وكانت الدَّولة العثمانيَّة تنتشر فيها هيئاتٌ فرعيَّةٌ في جميع الأقاليم خاضعةٌ لهذه اللِّجنة ، ومن أهمِّها الَّتي كانت في مكَّة تحت إشراف شريف مكَّة ، ومهمَّتها نشر مفهوم الجامعة الإسلاميَّة في موسم الحجِّ بين الحجَّاج ، وأخرى في بغداد ، وتقوم بنفس المهمَّة بين أتباع الطَّريقة القادريَّة ، الَّذين يأتون بكثرة من الشَّمال الأفريقي لزيارة الشَّيخ عبد القادر الكيلاني مؤسِّس الطَّريقة ، وقد قدِّرت أعداد هؤلاء في إحدى السَّنوات بحوالي (٢٥,٠٠٠٠) نسمة . وكانت لجنة بغداد تعمل على تهيئة القادمين لحمل فكرة الجامعة الإسلاميَّة ، ولمقاومة الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقية ، ووصفت المخابرات الفرنسيَّة ما قام به هؤلاء القادمون من أهل الشَّمال الأفريقي من بغداد من أعمالٍ ضدَّ الفرنسيِّين ، وضدَّ الاستعمار الفرنسي بأنَّها :

(استفزازات بعض رجال الدِّين التَّابعين للطَّريقة القادريَّة)[١] .

وللَّجنة المركزيَّة للجامعة الإسلاميَّة في إستانبول فرعٌ أفريقيٌّ يعمل في شمال أفريقية ، وهو يعمل في سرِّيَّةٍ تامَّةٍ ، مهمَّته تنسيق العمل بين الجماعات الدِّينيَّة هناك ، لمقاومة الاحتلال الفرنسي ، وهذه الجماعات هي : (الشَّاذليَّة ، والقادريَّة ، والمدنيَّة)[٢] .

وبلغ من نفوذ هذه الحركة ، وهيبتها أن وصفتها إدارة المخابرات الفرنسيَّة في شمال أفريقية بقولها : (ويمكن للسُّلطان عبد الحميد ـ بصفته رئيساً للجامعة الإسلاميَّة ـ أن يجمع من خلال ارتباطاته الوثيقة بالجماعات الدِّينيَّة في شمال أفريقية جيشاً محلِّيّاً منظَّماً ، يتمكَّن ـ إذا لزم الأمر ـ أن يقاوم به أيَّ قوَّةٍ أجنبيَّةٍ)[٣] .

ولم تستطع المخابرات الفرنسيَّة أن تكشف وسائل التَّنظيم للطُّرق الصُّوفيَّة التَّابعة للخلافة الإسلاميَّة في شمال أفريقية ، وكلُّ ما استطاعت عمله ، هو محاولتها إضعاف هيبة السُّلطان عبد الحميد في نفوس مسلمي شمال أفريقية ، ومحاولة هذه السُّلطات ضرب سياسة الجامعة الإسلاميَّة . وذلك باتِّباع سياسةٍ فرنسيَّةٍ تقوم على :

١ ـ إغراء بعض شيوخ الطُّرق الصُّوفيَّة بالمال ، وبالمركز للوقوف مع فرنسا ، وسياستها في شمال أفريقية .

٢ ـ منع الحجيج من الحجِّ ، حتَّى لا يلتقوا بدعاة الجامعة الإسلاميَّة بالسُّبل المناسبة . بمعنى : عدم إعلان منع الحجِّ ، واتِّخاذ أسبابٍ صحيَّةٍ لتخويف النَّاس منه ، مثل نشر أخبار عن وجود الكوليرا[٤] . وأرسل السُّلطان عبد الحميد مجموعةً من الزُّهَّاد ، والمتصوِّفة إلى الهند ، لتعمل على القضاء على المحاولات الإنكليزيَّة الدَّاعية إلى سلب الخلافة من العثمانيِّين ، لإعطائها إلى العرب . واتَّصلت هذه

---

(١) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، ص (١٩٦) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٩٧) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .
(٤) المصدر السَّابق نفسه (١٩٨) .

القافلة أيضاً ببعض حكَّام الجزيرة العربيَّة ، لا سيَّما الحجاز[١] .

وهناك اتِّصالاتٌ بين السُّلطان عبد الحميد بوصفه رئيساً للجامعة الإسلاميَّة ، وخليفة المسلمين ، وسلطان الدَّولة العثمانيَّة ، وبين تجمُّعات الطُّرق الصُّوفيَّة ، وشيوخها في تركستان ، وفي جنوب أفريقية ، وفي الصِّين . بعضها كشف عنها النِّقاب ، وأكثرها لم تكشف عنه الوثائق بشكلٍ كافٍ بعد[٢] .

لقد نجح السُّلطان عبد الحميد الثَّاني في جمع الطُّرق الصَّوفيَّة إلاَّ أنَّه فضَّل السُّكوت عن كثيرٍ من انحرافاتها العقديَّة ، بحيث إنَّ الطُّرق الصُّوفيَّة في تلك المرحلة انحرفت عن كتاب الله ، وسنَّة رسول الله ﷺ إلا ما رحم الله ، ولذلك أضعفت الأمَّة ، وساهمت في سقوط الخلافة الإسلاميَّة العثمانيَّة السَّنيَّة ، وسنبيِّن ذلك بإذن الله تعالى في أسباب السُّقوط .

ثالثاً : تعريب الدَّولة :

كان السُّلطان عبد الحميد يرى ـ منذ أن تولَّى الحكم ـ ضرورة اتِّخاذ اللُّغة العربيَّة لغةً رسميَّةً للدَّولة العثمانيَّة . وفي هذا يقول : (اللُّغة العربيَّة لغةٌ جميلةٌ . ليتنا كنَّا اتَّخذناها لغةً رسميَّة للدَّولة من قبل . لقد اقترحت على (خير الدِّين باشا ـ التُّونسي ـ عندما كان صدراً أعظم أن تكون اللُّغة العربيَّة هي اللُّغة الرَّسميَّة ، لكن سعيد باشا كبير أمناء القصر اعترض على اقتراحي هذا . وقال : (إذا عرَّبنا الدَّولة فلن يبقى ـ للعنصر التُّركي ـ شيءٌ بعد ذلك) .

كان (سعيد باشا) رجلاً فارغاً ، وكلامه فارغاً . ما دخل هذه المسألة بالعنصر التُّركي ؟ ! المسألة غير هذا تماماً . هذه مسألة ، وتلك مسألةٌ أخرى اتِّخاذنا للُّغة العربيَّة لغةً رسميَّةً للدَّولة من شأنه ـ على الأقلِّ ـ أن يزيد ارتباطنا بالعرب)[٣] .

إنَّ السُّلطان عبد الحميد الثَّاني كان يشكو وخصوصاً في بداية حكمه من أنَّ الوزراء ، وأمناء القصر السُّلطانيِّ كانوا يختلفون عنه في التَّفكير ، وأنَّهم متأثِّرون

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٩٩) .

بالغرب ، وبالأفكار القوميَّة ، والغربيَّة ، وكانوا يشكِّلون ضغطاً على القصر ، سواءٌ في عهد والده السُّلطان عبد المجيد ، وفي عهد عمِّه السُّلطان عبد العزيز ، أو في عهده هو . لم يقتصر الأمر في معارضة اقتراح السُّلطان عبد الحميد بتعريب الدَّولة العثمانيَّة على الوزراء المتأثِّرين بالغرب فقط ، بل تعدَّاه إِلى معارضةٍ من بعض علماء الدِّين[١] .

إِنَّ من الأخطاء الَّتي وقعت فيها الدَّولة العثمانيَّة عدم تعريب الدَّولة ، وشعبها بلغة القرآن الكريم ، والشَّرع الحكيم .

يقول الأستاذ محمَّد قطب : (ولو تصوَّرنا أنَّ دولة الخلافة قد استعربت ، وتكلَّمت اللُّغة العربيَّة الَّتي نزل بها هذا الدِّين ؛ فلا شكَّ : أنَّ عوامل الوحدة داخل الدَّولة كانت تصبح أقوى ، وأقدر على مقاومة عبث العابثين ، فضلاً عمَّا يتيحه تعلُّم العربيَّة من المعرفة الصَّحيحة بحقائق هذا الدِّين من مصادره المباشرة : كتاب الله ، وسنَّة رسوله ﷺ ، ممَّا كان الحكَّام ، والعامَّة كلاهما في حاجةٍ إِليه ، على الرَّغم من كلِّ ما تُرجم إِلى التُّركيَّة ، وما أُلِّف أصلاً بالتُّركيَّة حول هذا الدِّين)[٢] .

رابعاً : مراقبته للمدارس ونظرته للمرأة وسفور المرأة :

عندما تولَّى السُّلطان عبد الحميد السَّلطنة رأى : أنَّ المدارس ، ونظام التَّعليم أصبح متأثِّراً بالفكر الغربيِّ ، وأنَّ التَّيَّار القوميَّ هو التَّيَّار السَّائد في هذه المدارس ، فتدخَّل في شؤونها ووجَّهها ـ من خلال نظرته السِّياسيَّة ـ إِلى الدِّراسات الإِسلاميَّة ، فأمر بالآتي :

- استبعاد مادَّة الأدب والتَّاريخ العام من البرامج الدِّراسيَّة ؛ لكونها وسيلةً من وسائل الأدب الغربيِّ ، والتَّاريخ القوميِّ للشُّعوب الأخرى ، ممَّا يؤثِّر على أجيال المسلمين سلباً .
- وضع دروس الفقه ، والتَّفسير ، والأخلاق في برامج الدِّراسة .
- الاقتصار فقط على تدريس التَّاريخ الإِسلامي بما فيه العثماني .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢٠٠) .
(٢) انظر : واقعنا المعاصر ، ص (١٥٣) .

وجعل السُّلطان عبد الحميد مدارس الدَّولة تحت رقابته الشَّخصيَّة ، ووجَّهها لخدمة الجامعة الإسلاميَّة[١] .

واهتمَّ بالمرأة ، وجعل للفتيات داراً للمعلِّمات ، ومنع اختلاطهنَّ بالرِّجال ، وفي هذا يذكر السُّلطان في معرض الدِّفاع عن نفسه أمام اتِّهام جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي له بأنَّه عدوُّ العقل ، والعلم بأنَّه : (لو كنت عدوّاً للعقل ، والعلم ؛ فهل كنت أفتح الجامعة ؟ لو كنت هكذا عدوّاً للعلم ، فهل كنت أنشىء لفتياتنا ـ اللَّواتي لا يختلطن بالرِّجال ـ داراً للمعلِّمات ؟ !)[٢] .

وقام بمحاربة سفور المرأة في الدَّولة العثمانيَّة، وهاجم تسرُّب أخلاق الغرب ، إلى بعض النِّساء العثمانيَّات ، ففي صحف إستانبول في ٣ أكتوبر ١٨٨٣ م ، ظهر بيانٌ حكوميٌّ موجَّه إلى الشَّعب يعكس وجهة نظر السُّلطان شخصيَّاً في رداء المرأة .

يقول هذا البيان : (إنَّ بعض النِّساء العثمانيَّات اللائي يخرجن إلى الشَّوارع في الأوقات الأخيرة ، يرتدين ملابس مخالفةً للشَّرع . وإنَّ السُّلطان قد أبلغ الحكومة بضرورة اتِّخاذ التَّدابير اللازمة للقضاء على هذه الظاهرة . كما أبلغ السُّلطان الحكومة أيضاً بضرورة عودة النِّساء إلى ارتداء الحجاب الشَّرعيِّ الكامل بالنِّقاب ؛ إذا خرجن إلى الشَّوارع) . وبناءً على هذا فقد اجتمع مجلس الوزراء ، واتَّخذ القرارات التَّالية :

● (تعطى مهلة شهرٍ واحدٍ يمنع بعده سير النِّساء في الشَّوارع إلا إذا ارتدين الحجاب الإسلاميَّ القديم . وينبغي أن يكون هذا الحجاب خالياً من كلِّ زينةٍ ، ومن كلِّ تطريزٍ .

● يُلغَى ارتداء النِّساء النِّقاب المصنوع من القماش الخفيف ، أو الشَّفَّاف . وبالتَّالي ضرورة العودة إلى النِّقاب الشَّرعي الَّذي لا يبيِّن خطوط الوجه .

● على الشُّرطة ـ بعد مضيِّ شهرٍ على نشر هذا البيان ـ ضمان تطبيق ما جاء فيه من قراراتٍ بشكلٍ حاسمٍ ، وعلى قوَّات الضَّبطيَّة التَّعاون مع الشُّرطة في هذا .

---

(١) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، ص (٢٠١) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٩٩) .

● صدّق السُّلطان على هذا البيان بقراراته الحكوميَّة .

● ينشر هذا البيان في الصُّحف ، ويعلّق في الشَّوارع)[١] .

وفي اليوم التَّالي لنشر هذا البيان ، أي في ٤ أكتوبر قالت جريدة (وَقِتْ) الصَّادرة في إِستانبول : (إِنَّ المجتمع العثمانيَّ عموماً يصوِّب هذا القرار ، ويراه نافعاً)[٢] .

وكان السُّلطان عبد الحميد يرى : (أنَّ المرأة لا تتساوى مع الرَّجل من حيث القوامة) ويقول : (ما دام القرآن يقول بهذا ، فالمسألة منتهيةٌ ، ولا داعي للتَّحدُّث عن مساواة المرأة بالرَّجل) .

ويرى : (إِنَّ فكرة هذه المساواة إِنَّما جاءت من الغرب)[٣] .

كما كان يدافع عن تعدُّد الزَّوجات في وقتٍ كان الإِعلام العثماني يثير هذه القضيَّة معترضاً عليها . ويقول للسُّلطان : (لماذا يعترض بعض المثقَّفين على هذا الأمر ، ولماذا لا يعترضون على وجوده في أماكن أخرى غير الدَّولة العثمانيَّة ، في بعض أماكن أوربَّة ، وأمريكا ؟) ويؤكِّد السُّلطان : إِنَّ مبدأ تعدُّد الزَّوجات مباحٌ في الإِسلام ، فماذا يعني الاعتراض عليه ؟)[٤] .

لقد كان السُّلطان عبد الحميد مع تعليم المرأة ، ولذلك أنشأ داراً للمعلِّمات ؛ لتخريج معلِّماتٍ للبنات ، كما كان ضدَّ الاختلاط بين الرَّجل والمرأة ، وضدَّ سفور المرأة ، ولم يكن في عهده للمرأة رأيٌ في شؤون الدَّولة مهما كانت هذه الشُّؤون ، وإِنَّما دور المرأة في البيت ، وتربية الأجيال ، وكان يعامل المرأة معاملةً كريمةً نادرةً ، فهذه زوجة أبيه الَّتي احتضنته ، وقامت بتربيته عندما تولَّى السُّلطان العرش ، أعلن زوجة أبيه الَّتي ربَّته : والدة السُّلطان ، بمعنى الملكة في المفهوم الحديث ، وكانت الملكة في القصر العثماني ، هي أمُّ السُّلطان ، وليست زوجته ، كما في الدُّول الأخرى . ومع كلِّ هذا ، ففي اليوم التَّالي لتنصيب السُّلطان

---

(١) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، ص (١٠٠) .
(٢) انظر : موسوعة أتاتورك (١/ ٥٩ ، ٦٠) .
(٣) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، ص (١٠٠) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٠١) .

عبد الحميد على عرش الدَّولة العثمانيَّة ، قابل زوجة أبيه ، وهي الَّتي أحبَّها حبّاً بالغاً ، وقبَّل يدها ، وقال لها :

(بحنانك لم أشعر بفقد أمِّي . وأنت في نظري أمِّي لا تفترقين عنها . ولقد جعلتك السُّلطانة الوالدة . يعني : أنَّ الكلمة في هذا القصر لك . لكنِّي أرجوك ـ وأنا مصرٌّ على هذا الرَّجاء ـ ألا تتدخَّلي بأيِّ شكلٍ من الأشكال في أيِّ عملٍ من أعمال الدَّولة ، كَبُرَ أم صَغُرَ)[١] .

خامساً : مدرسة العشائر :

أنشأ السُّلطان عبد الحميد في إستانبول ـ باعتبارها مقر الخلافة ، ومركز السَّلطنة ـ مدرسة العشائر العربيَّة ؛ من أجل تعليم ، وإِعداد أولاد العشائر العربيَّة ، من ولايات حلب ، وسورية ، وبغداد ، والبصرة ، والموصل ، وديار بكر ، وطرابلس الغرب ، واليمن ، والحجاز ، وبنغازي ، والقدس ، ودير الزُّور .

وكانت مدَّة الدِّراسة في مدرسة العشائر العربيَّة في إِستانبول خمس سنوات ، وهي داخليَّة ، تتكفَّل الدَّولة العثمانيَّة بكلِّ مصاريف الطُّلاب ، ولكلِّ طالبٍ « إجازة صلة الرَّحم » وهي إِجازةٌ مرَّةً كل سنتين . وسفر الطَّالب فيها على نفقة الدَّولة .

● **وبرنامج مدرسة العشائر العربيَّة ، في إِستانبول كان كالآتي :**

السَّنة الأولى : القرآن الكريم ـ الأبجديَّة ـ العلوم الدِّينيَّة ـ القراءة التُّركيَّة ـ إملاء ـ تدريبٌ عسكريٌّ .

السَّنة الثَّانية : القرآن الكريم ـ التَّجويد ـ العلوم الدِّينيَّة ـ الإِملاء ـ الحساب ـ القراءة التُّركيَّة ـ تحسين الخطِّ ـ تدريبٌ عسكريٌّ .

السَّنة الثَّالثة : القرآن الكريم ـ التَّجويد ـ العلوم الدِّينيَّة ـ الإملاء ـ حسن الخطِّ ـ الحساب ـ الجغرافيا ـ الفرنسيَّة ـ التَّدريب .

السَّنة الرَّابعة : القرآن الكريم ـ التَّجويد ـ العلوم الدِّينيَّة ـ الصَّرف العربي ـ اللُّغة الفارسيَّة ـ الكتابة ، والنَّحو التُّركي ـ الجغرافيا ـ الحساب ـ حسن الخطِّ الفرنساوي ـ التَّدريب .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٩٨) .

السَّنة الخامسة : القرآن الكريم ـ التَّجويد ـ العلوم الدِّينيَّة ـ النَّحو العربيُّ ـ اللُّغة الفارسيَّة ـ التَّاريخ العثماني ـ القواعد العثمانيَّة ـ الكتابة والقراءة التُّركيَّة ـ المكالمة التُّركيَّة ـ الجغرافيا ـ الحساب ـ الهندسة ـ حسن الخطِّ ـ المعلومات المتنوِّعة ـ حفظ الصحَّة ـ أصول إمساك الدَّفاتر ـ اللُّغة الفرنسيَّة ـ حسن الخطِّ الفرنساوي ـ الرَّسم ـ التَّدريب[(١)] .

وكان المتخرِّجون من هذه المدرسة ، يدخلون المدارس العسكريَّة العالية . ويحصلون بعد ذلك على رتبٍ عاليةٍ . كما يمكنهم كذلك أن يدخلوا المدرسة الملكيَّة ـ وهي مدنيَّةٌ ـ يدرسون فيها سنة ، ويحصلون بعدها على رتبة قائمقام ، ثمَّ يعودون إلى بلادهم[(٢)] .

كما أنشأ السُّلطان عبد الحميد (معهد تدريب الوعَّاظ والمرشدين) الَّذي أقيم لإعداد الدُّعاة للدَّعوة الإسلاميَّة ، وللجامعة الإسلاميَّة ، ثمَّ يتخرَّجون ، فينطلقون إلى مختلف أرجاء العالم الإسلامي يدعون للإسلام ، ويدعون للخلافة ، ويدعون للجامعة الإسلاميَّة[(٣)] .

ولقد كانت نظرة السُّلطان عبد الحميد بعيدةً وثاقبةً ، ولذلك اهتمَّ بمسلمي الصِّين .

خرجت الصَّحافة في إستانبول بخبر مفاده : أنَّ عدداً من مسلمي الصِّين متحمِّسون ، يحبُّون العلم ، ويرغبون بالاستفادة من المعارف الإسلاميَّة ، وأنَّ لديهم مؤسَّساتٍ تعليميَّة ، ومدارس ، وأنَّ في بكِّين وحدها ثمانية وثلاثين مسجداً ، وجامعاً ، يؤدِّي المسلمون فيها الصَّلاة ، ويدعون فيها لخليفة المسلمين السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، وأنَّ خطبة الجمعة في مساجد ، وجوامع بكِّين تُقرأ باللُّغة العربيَّة ، ثمَّ تترجم إلى اللُّغة الصِّينيَّة ، وأنَّ الدُّعاء للسُّلطان عبد الحميد بصفته خليفة المسلمين لا يقتصر على بكِّين فقط ، بل ويمتدُّ إلى كلِّ مساجد

---

(١) انظر : تاريخ التَّربية التُّركيَّة ، عثمان أركين ، ص (٦١٤ ـ ٦١٥ ، ٨٤ ، ١١٨٠ ، ١١٨٢) على التَّوالي .
(٢) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، ص (٢٠٢) .
(٣) انظر : الانقلاب العثماني ، مصطفى طوران ، ص (٣٧) .

الصِّين ، وجوامعها[١] .

تأسَّست في بكِّين ـ عاصمة الصِّين ـ جامعةٌ أطلق عليها المسلمون الصِّينيُّون اسم (دار العلوم الحميديَّة) نسبة إِلى السُّلطان الخليفة عبد الحميد الثَّاني ، أو بتعبير السَّفير الفرنسي في إِستانبول اسم : (الجامعة الحميديَّة في بكِّين) وذلك في تقريرٍ له إِلى وزارة خارجيَّته في باريس .

وقد حضر افتتاح هذه الجامعة الآلافُ من المسلمين الصِّينيِّين . وحضره أيضاً مفتي المسلمين في بكِّين ، والكثير من علماء المسلمين هناك .

وفي مراسم الافتتاح ، ألقيت الخطبة باللُّغة العربيَّة ، ودعا الخطيب للسُّلطان الخليفة عبد الحميد . وقام مفتي بكِّين بترجمة الخطبة ، والدُّعاء إِلى اللُّغة الصِّينيَّة . وبكى أغلب المسلمين الحاضرين بكاءً حارَّاً بدافع فرحتهم ، وإِنَّ مسلمي الصِّين مترابطون فيما بينهم ترابطاً واضحاً برباط الدِّين المتين . وإِنَّ إِيراد الخطبة باللُّغة العربيَّة لغة المسلمين الدِّينيَّة ، ورفع علم الدَّولة العثمانيَّة على باب هذه الجامعة ، قد أثَّر تأثيراً بالغاً في هؤلاء النَّاس الطَّيبي القلب ، وحرَّك الدُّموع في أعينهم[٢] .

سادساً : خطُّ سكَّة حديد الحجاز :

عمل السُّلطان عبد الحميد على كسب الشُّعوب الإِسلاميَّة عن طريق الاهتمام بكلِّ مؤسَّساتها الدِّينيَّة والعلميَّة ، والتَّبرُّع لها بالأموال ، والمنح ، ورصد المبالغ الطَّائلة لإِصلاح الحرمين ، وترميم المساجد ، وزخرفتها ، وأخذ السُّلطان يستميل إِليه مسلمي العرب بكلِّ الوسائل ، فكوَّن له من العرب حرساً خاصَّاً ، وعيَّن بعض الموالين له منهم في وظائف كبرى منهم (عزَّت باشا العابد) ـ من أهل الشَّام ـ الَّذي نجح في أن ينال أكبر حظوةٍ عند السُّلطان عبد الحميد ، وأصبح مستشاره في الشُّؤون العربيَّة . وقد لعب دوراً هامَّاً في مشروع سكَّة حديد الحجاز الممتدَّة من دمشق إِلى المدينة المنوَّرة ، وهو بهذا المشروع الَّذي اعتبره السُّلطان عبد الحميد وسيلةً من

---

(١) انظر : جريدة ترجمان حقيقت ، رسالة من الصِّين ٢٦/ ١٢/ ١٣٢٥ هـ .
(٢) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، ص (٢٠٥) .

الوسائل الَّتي أدَّت لإعلاء شأن الخلافة ، ونشر فكرة الجامعة الإسلاميَّة .

وأبدى السُّلطان عبد الحميد اهتماماً بالغاً بإنشاء الخطوط الحديديَّة في مختلف أنحاء الدَّولة العثمانيَّة مستهدفاً من ورائها تحقيق ثلاثة أغراضٍ ، وهي :

١ ـ ربط أجزاء الدَّولة المتباعدة ، ممَّا ساعد على نجاح فكرة الوحدة العثمانيَّة ، والجامعة الإسلاميَّة ، والسَّيطرة الكاملة على الولايات الَّتي تتطلَّب تقوية قبضة الدَّولة عليها .

٢ ـ إجبار تلك الولايات على الاندماج في الدَّولة، والخضوع للقوانين العسكريَّة؛ الَّتي تنصُّ على وجوب الاشتراك في الدِّفاع عن الخلافة بتقديم المال ، والرِّجال .

٣ ـ تسهيل مهمَّة الدِّفاع عن الدَّولة في أيَّة جبهةٍ من الجبهات الَّتي تتعرَّض للعدوان ؛ لأنَّ مدَّ الخطوط الحديديَّة ساعد على سرعة توزيع القوَّات العثمانيَّة ، وإيصالها إلى الجبهات[١] .

وكانت سكك حديد الحجاز من أهمِّ الخطوط الحديديَّة الَّتي أنشئت في عهد السُّلطان عبد الحميد ، ففي سنة ١٩٠٠ م بدأ بتشييد خطٍّ حديديٍّ من دمشق إلى المدينة للاستعاضة به عن طريق القوافل الَّذي كان يستغرق من المسافرين حوالي أربعين يوماً ، وطريق البحر الَّذي يستغرق حوالي اثني عشر يوماً من ساحل الشَّام إلى الحجاز ، وكان يستغرق من المسافرين أربعة ، أو خمسة أيَّام على الأكثر ، ولم يكن الغرض من إنشاء هذا الخطِّ مجرَّد خدمة حجَّاج بيت الله الحرام ، وتسهيل وصولهم إلى مكَّة ، والمدينة ، وإنَّما كان السُّلطان عبد الحميد يرمي من ورائه أيضاً إلى أهدافٍ سياسيَّةٍ ، وعسكريَّةٍ ، فمن النَّاحية السِّياسيَّة خلق المشروع في أنحاء العالم الإسلامي حماسةً دينيَّةً كبيرةً ؛ إذ نشر السُّلطان على المسلمين في جميع أنحاء الأرض بياناً يناشدهم فيه المساهمة بالتَّبرُّع لإنشاء هذا الخطِّ[٢] ، وقد افتتح السُّلطان عبد الحميد قائمة التَّبرُّعات بمبلغ (خمسين ألفاً ذهباً عثمانيّاً من جيبه الخاصِّ) وتقرَّر دفع (مئة ألفٍ) ذهباً عثمانيّاً من صندوق المنافع ، وأُسِّست الجمعيَّات

---

(١) انظر : صحوة الرَّجل المريض ، د . موفَّق بني المرجة ، ص (١١٣) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١١٣) .

الخيريَّة ، وتسابق المسلمون من كلِّ جهةٍ للإعانة على إنشائها بالأنفس ، والأموال)[١] .

وتبرَّع للمشروع الشَّخصيَّات الهامَّة في الدَّولة ، مثل الصَّدر الأعظم ، ووزير الحربيَّة (حسين باشا) ووزير التِّجارة ، والأشغال (ذهني باشا) ، ورئيس لجنة المشروعات (عزَّت باشا) .

وتبارى موظَّفو الشَّركات في التَّبرُّع ، مثل موظَّفي شركة البواخر العثمانيَّة . وكذلك موظَّفو الدَّولة العموميُّون ، والولايات ، مثل ولاية بيروت ، ودمشق ، وحلب ، وبورصة ، وغيرها .

وشارك القصر الحاكم في مصر في حملة التَّبرُّعات ، وشُكِّلت في مصر لجنة الدِّعاية للمشروع ، وجمع التَّبرُّعات له برئاسة (أحمد باشا المنشاوي) . كما شاركت الصَّحافة المصريَّة في حملة سكَّة حديد الحجاز بحماسٍ ، ومثال على ذلك جريدة المؤيَّد . وجمعت جريدة (اللِّواء) المصريَّة تبرُّعاتٍ للمشروع بلغت ـ حتَّى عام ١٩٠٤ م ـ ثلاثة آلاف ليرة عثمانيَّة . وكان يرأسها مصطفى كامل باشا ، كما جمع (علي كامل) مبلغ (٢٠٠٠) ليرة عثمانيَّة للمشروع حتَّى عام ١٩٠١ م .

وأسهم في هذه الحملة ، جريدة (المنار) وجريدة (الرَّائد المصري) وشُكِّلت لجان تبرُّع للمشروع في كلٍّ من القاهرة ، والإسكندريَّة ، وغيرهما من مدن مصر .

وكان مسلمو الهند أكثر مسلمي العالم حماساً ، وعاطفةً ، وتبرُّعاً للمشروع . وقد تبرَّع امير حيدر أباد بالهند بإنشاء محطَّة المدينة المنوَّرة في المشروع ، كما تبرَّع شاه إيران بمبلغ (٥٠٠٠٠) ليرة عثمانيَّة .

ورغم احتياج المشروع لبعض الفنِّيِّين الأجانب في إقامة الجسور ، والأنفاق ، فإنَّهم لم يُستخدموا إلا إذا اشتدَّت الحاجةُ إليهم ، مع العلم بأنَّ الأجانب لم يشتركوا إطلاقاً في المشروع ، ابتداءً من محطَّة الأخضر ـ على بعد ٧٦٠ كيلو متراً جنوب دمشق ـ وحتَّى نهاية المشروع . ذلك لأنَّ لجنة المشروع استغنت عنهم ، واستبدلتهم بفنِّيِّين مصريِّين .

(١) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، ص (٢٢٢) .

وبلغ عدد العمَّال غير المهرة عام ١٩٠٧ م (٧٥٠٠) عامل . وبلغ إجمالي تكاليف المشروع (٤٢٨٣٠٠٠) ليرة عثمانيَّة . وتمَّ إنشاء المشروع في زمنٍ وتكاليف أقلَّ ممَّا لو تعمله الشَّركات الأجنبيَّة في أراضي الدَّولة العثمانيَّة[١] . وفي أغسطس سنة ١٩٠٨ م وصل الخطُّ الحديديُّ إلى المدينة المنوَّرة ، وكان مفروضاً أن يتمَّ مدُّه بعد ذلك إلى مكَّة ، لكن حدث أن توقَّف العمل فيه لأنَّ شريف مكَّة ـ وهو الحسين بن علي ـ خشي على سلطانه في الحجاز من بطش الدَّولة العثمانيَّة فنهض لعرقلةِ مدِّ المشروع إلى مكَّة ، وكانت مقرَّ إمارته ، وقوَّته . فبقيت نهاية الخطِّ عند المدينة المنوَّرة ، حتَّى إذا قامت الحرب الكبرى الأولى عمل الإنكليز بالتَّحالف مع القوَّات العربيَّة الَّتي انضمَّت إليهم بقيادة فيصل بن الحسين بن عليٍّ على تخريب سكَّة حديد الحجاز ، ولا تزال هذه السِّكَّة معطَّلةً حتَّى اليوم ، والمأمول أن تبذل الجهود لإصلاحها حتَّى تعود إلى العمل في تيسير سفر حجَّاج بيت الله الحرام .

وقد وصف السَّفير البريطانيُّ في القسطنطينيَّة في تقريره السَّنوي[٢] العام ١٩٠٧ م أهمِّيَّة الخطِّ الحجازي ، فقال : (إنَّ بين حوادث السَّنوات العشر الأخيرة عناصر بارزةً في الموقف السِّياسيِّ العامِّ ، أهمُّها خطَّة السَّلطان الماهرة الَّتي استطاع أن يظهر بها أمام ثلاثمئة مليون من المسلمين في ثوب الخليفة الَّذي هو الرَّئيس الرُّوحي للمسلمين ، وأن يقيم لهم البرهان على قوَّة شعوره الدِّينيِّ ، وغيرته الدِّينيَّة ببناء سكَّة حديد الحجاز ؛ الَّتي ستمهِّد الطَّريق في القريب العاجل أمام كلِّ مسلمٍ للقيام بفريضة الحجِّ إلى الأماكن المقدَّسة في مكَّة ، والمدينة) . فلا غرو إذا ما لمسنا حنق الإنكليز على ذلك الخطِّ الحديديِّ ، وافتعالهم الأزمات لإعاقته ، وانتهازهم أوَّل فرصةٍ لتعطيله ، ونسفه ؛ لقطع الطَّريق على القوَّات العثمانيَّة[٣] .

وكان أوَّل قطار قد وصل إلى محطَّة سكَّة الحديد في المدينة المنوَّرة من دمشق الشَّام يوم ٢٢ آب (أغسطس) ١٩٠٨ م ، وكان بمثابة تحقيق حلم من الأحلام بالنِّسبة لمئات الملايين من المسلمين في أنحاء العالم كافَّةً ، فقد اختصر القطار في رحلته الَّتي استغرقت ثلاثة أيَّام ، وقطع فيها ٨١٤ ميلاً مشقَّات رحلةٍ كانت تستغرق

(١) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، ص (٢٢٤) .
(٢) انظر : صحوة الرَّجل المريض ، ص (١١٤) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .

في السَّابق أكثر من خمسة أسابيع ، كما خفقت في ذلك اليوم التَّاريخي قلوب أولئك الَّذين كانوا مشتاقين إلى القيام بأداء فريضة الحجِّ المقدَّسة[(١)] .

كانت سياسة عبد الحميد الإسلاميَّة محصَّنةً ، فأراد أن يجمع قلوب المسلمين حواليه باعتباره خليفة المسلمين جميعاً ، فكان مدُّ خطِّ السِّكَّة الحديدي بين الشَّام ، والحجاز من الوسائل الجميلة في تحقيق هدفه المنشود[(٢)] .

كان كرومر المعتمد البريطانيُّ في مصر (١٣٠١ ـ ١٣٢٥ هـ/ ١٨٨٣ ـ ١٩٠٧ م) من أوائل من ألَّب أوربَّة على الجامعة الإسلاميَّة ، وحرص على أن يتحدَّث في تقاريره السَّنويَّة عن الجامعة الإسلاميَّة ببغضٍ شديدٍ ، وفي الوقت نفسه نشرت جريدة الأهرام (المصريَّة) تصريحاتٍ مثيرةً لوزير فرنسيٍّ هو (هانوتو) هاجم فيها الجامعة الإسلاميَّة . وكانت مهاجمة الجامعة الإسلاميَّة تُستتبع بالتَّالي بمهاجمة الدَّولة العثمانيَّة حتَّى تتفرَّق الوحدة الَّتي تجمع من حولها الدُّول الإسلاميَّة لتواجه النُّفوذ الاستعماريَّ الزَّاحف الَّذي قد رسم مخطَّطه على أساس التهام هذه الوحدات ، والحيلولة دون التقائها مرَّةً أخرى في أيِّ نوعٍ من الوحدة ؛ ليستديم سيطرته عليها[(٣)] ؛ فاتَّخذوا لذلك عدَّة أعمالٍ أساسيَّةٍ :

١ ـ تعميق الدَّعوات الإقليميَّة ، والخاصَّة بالوطنيَّة ، والأرض ، والأمَّة ، والعرق .

٢ ـ خلق جوٍّ فكريٍّ عامٍّ لمحاربة الوحدة الإسلاميَّة ، وتصفيتها .

وكلُّ هذا مقدِّمةٌ لإلغاء الخلافة العثمانيَّة نهائيّاً ، وبالتَّعاون مع الصَّهيونيَّة العالميَّة[(٤)] ، ويهود الدُّونمة ، وأذنابهم من جمعيَّات تركيَّا الفتاة ، والاتِّحاد والتَّرقِّي .

●● سياسة التَّودُّد والاستمالة :

انتهج السُّلطان عبد الحميد الثَّاني سياسة التَّودُّد إلى الشَّخصيَّات ذات النُّفوذ في الأوساط الشَّعبيَّة في مختلف البقاع ، فهو من ناحيةٍ كان يظهر احترامه لأهل العلم ،

---

(١) انظر : صحوة الرَّجل المريض ، ص (١١٤) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١١٤) .
(٣) انظر : حاضر العالم الإسلامي . د . جميل المصري (١/ ١٠١) .
(٤) المصدر السابق نفسه ، ص(١/ ١٠١) .

ويُعلي من قدرهم ، ومن أجل ذلك جعل مجلس المشايخ ، ورتَّب رواتب أعضائه ، وكان حسن النِّيَّة مع مرشديهم ، وكان أرباب العلم ذوي رتبٍ عاليةٍ عنده ، وكان يتودَّد إلى الشَّخصيَّات المهمَّة والَّتي تشجِّع ، وتقف مع فكرة الجامعة الإسلاميَّة ، مثل (مصطفى كامل باشا) في مصر ، ويعفو عن أخطاء البارزين ـ إذا كانوا يحسنون النِّيَّة معه، ما داموا مقتنعين، ومساندين لفكرة الجامعة الإسلاميَّة ـ مثل (نامق كمال) .

وكان يختار بعض طلاب مدرسة العشائر العربيَّة من أبناء العائلات الأصيلة العريقة ذات النُّفوذ ، والسَّطوة ، والسُّمعة الطَّيِّبة من أبناء زعماء العرب . وقد توسَّعت هذه المدرسة فيما بعد وأخذت من أبناء الأكراد ، والألبان ، وحرص على الاتِّصال بزعماء ، وشيوخ ، وأمراء قبائل العرب بواسطة الرَّسائل ، والرُّسل لتقوية روابط الودِّ ، والمحبَّة ، والأخوَّة الإسلاميَّة ، وكان على معرفة تامَّةٍ بعمل الإنجليز الَّذين اتَّصلوا بالشُّيوخ مثل (شريف مكَّة) و(الشَّيخ حميد الدِّين) في اليمن ، وشيخ عسير ، وبعض الشُّيوخ من أجل تحريضهم على الدَّولة العثمانيَّة ، وتشجيعهم بالخروج على طاعة الخليفة ، والانفصال عن الدَّولة العثمانيَّة .

وعمل على إبطال مخطَّطات الإنكليز ، ومؤامراتهم الخبيثة ، ولم يتوانَ عن حجز من يشكُّ في ولائهم للدَّولة العثمانيَّة ويلزمهم بالبقاء تحت رقابة الدَّولة في إستانبول تحت مسمَّيات المناصب والمرتبات ، حتَّى تأمن الدَّولة مؤامراتهم ، كما فعل مع شريف مكَّة عندما عيَّنه عضواً في مجلس شورى الدَّولة في إستانبول ، ليمنعه من العودة إلى مكَّة . وقد عبَّر السُّلطان عبد الحميد عن رأيه في الشريف حسين أثناء حديثه مع الصَّدر الأعظم فريد باشا . قال السُّلطان عبد الحميد : (إنَّ الشَّريف حسين لا يحبُّنا ، إنَّه الآن هادىءٌ ، وساكنٌ ، لكنَّ الله وحده يعلم ماذا يمكن أن يفعله الشَّريف غداً) . لذلك تأخَّر قيام الثَّورة العربيَّة بقيادة الشَّريف حسين إلى ما بعد خلع الاتِّحاديِّين للسُّلطان عبد الحميد .

فلمَّا حكم حزب الاتِّحاد والتَّرقِّي الماسوني ، أعاد الشَّريف حسين إلى مكَّة ، واستطاع بعد ذلك أن يتحالف مع الإنكليز ، ويحدث فجوةً كبيرةً بين مسلمي العرب والأتراك[١] .

---

(١) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، ص (٢٢٧) .

سابعاً : إبطاله مخطَّطات الأعداء :

شرعت بريطانيا منذ الرُّبع الأوَّل من القرن التَّاسع عشر في تحريض الأكراد ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة ، بهدف إيجاد عداءٍ عثمانيٍّ كرديٍّ من ناحيةٍ ، وانفصال الأكراد بدولةٍ تُقتطع من الدَّولة العثمانيَّة من ناحيةٍ أخرى .

وعندما قامت شركة الهند البريطانيَّة ، زاد اهتمام الإنجليز بالعراق ، وقامت على العمل لإيجاد حركةٍ قوميَّةٍ بين الأمراء ، وتجوَّل مندوبون بريطانيُّون بين عشائر الأكراد في العراق في محاولةٍ لتوحيد العشائر الكرديَّة ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة ، وكانت المخابرات العثمانيَّة تتابع الأمور بدقَّةٍ متناهيةٍ ، ووضع السُّلطان عبد الحميد خطَّةً مضادَّةً للعمل التَّدميريِّ الإنجليزيِّ ، فقام بالتَّالي :

- قامت الدَّولة العثمانيَّة بحماية المواطنين الأكراد من هجمات الأرمن الدَّمويَّة ضدَّهم .
- أرسل إلى عشائر الأكراد وفوداً من علماء المسلمين للنُّصح ، والإرشاد ، والدَّعوة إلى الاجتماع تحت دعوة الجامعة الإسلاميَّة ، وأدَّت هذه الوفود دورها في إيقاظ الأكراد تجاه الأطماع الغربيَّة .
- اتَّخذ السُّلطان عبد الحميد إجراءاتٍ يضمن بها ارتباط أمراء الأكراد به ، وبالدَّولة .
- أسَّس الوحدات العسكريَّة الحميديَّة في شرق الأناضول من الأكراد ، للوقوف أمام الاعتداءات الأرمنيَّة .
- كان موقف الدَّولة قويّاً ضدَّ أطماع الأرمن في إقامة دولةٍ تُقتطع من أراضيها ، وبذلك شعر الأكراد المقيمون في نفس المنطقة بالأمان(١) .
- عملت الدَّولة على كشف مخطَّطات الإنجليز الهادفة إلى تفتيت الدَّولة العثمانيَّة تحت مسمَّى حرِّيَّة القوميَّات في تأسيس كلِّ قوميَّةٍ دولةً مختصَّةً بها .

استطاع السُّلطان عبد الحميد أن يضيِّق على النُّفوذ البريطانيِّ في اليمن ، ويحقِّق نجاحاً ظاهراً في صراعه مع الإنجليز في تلك المنطقة ، فقد أنشأ فرقةً

---

(١) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، ص (١٣١ ، ١٣٢) .

عسكريَّةً في اليمن قوامها ثمانية آلاف جنديٍّ ، لإعادة اليمن إلى الدَّولة العثمانيَّة مَرَّةً أخرى ، ووصل اهتمامه باليمن إلى إرسال مشاهير قادته ليقودوا هذه الفرقة مثل (أحمد مختار باشا) و (أحمد فوزي باشا) و(حسين حلمي باشا) و(توفيق باشا) والمشير (عثمان باشا) و(إسماعيل حقّي باشا) وقد حاول الإنجليز إذكاء نيران التَّمرُّد في اليمن ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة ، ولكنَّ السِّياسة الحكيمة الَّتي سار عليها السُّلطان عبد الحميد كفلت له النَّجاح في اليمن[١] .

وكانت العقليَّة العثمانيَّة تسعى لمدِّ خطِّ سكَّة الحديد من الحجاز إلى اليمن ، وهذا ما أثبتته الوثائق الَّتي دلَّت على وجود تخطيطٍ ، ودراسةٍ عميقةٍ لهذا المشروع الكبير[٢] .

ثامناً : الأطماع الإيطاليَّة في ليبيا :

كانت إيطاليا تحلم بضمِّ شمال إفريقية ؛ لأنَّها تراه ميراثاً إيطاليَّاً . هكذا صرَّح رئيس وزرائها (ماتزيني)[٣] . لكنَّ فرنسا احتلَّت تونس ، وإنجلترا احتلَّت مصر ، ولم يبقَ أمام إيطاليا إلا ليبيا .

● **رسمت إيطاليا سياستها في ليبيا على ثلاث مراحل :**

الأولى : الحلول السِّلميَّة ، بإنشاء المدارس ، والبنوك ، وغيرها من « مؤسَّساتٍ خدميَّةٍ » .

الثَّانية : العمل على أن تعترف الدُّول بآمال إيطاليا في احتلال ليبيا بالطُّرق الدِّبلوماسيَّة .

الثَّالثة : إعلان الحرب على الدَّولة العثمانيَّة والاحتلال الفعليِّ .

وكانت السِّياسة الإيطاليَّة لا تلفت النَّظر إلى تحرُّكاتها ، بعكس السِّياسة البريطانيَّة ، أو الفرنسيَّة في ذلك الوقت ، وكان الإيطاليُّون يتحرَّكون « بحكمةٍ » و « هدوءٍ » شديدين دون إثارة حساسيَّة العثمانيِّين .

---

(١) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، ص (٢٢٤) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٢٢١) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٣٨) .

وكان السُّلطان عبد الحميد متيقِّظاً لتلك الأطماع الإيطاليَّة ، وطلب معلوماتٍ من مصادر مختلفةٍ عن نشاط الإيطاليِّين في « ليبيا » وأهدافهم ، فجاءته المعلومات تقول : (إنَّ للإيطاليِّين بمدارسهم ، وبنوكهم ، ومؤسَّساتهم الخيريَّة الَّتي يقيمونها في الولايات العثمانيَّة ، سواءٌ في ليبيا ، أو في ألبانيا ، هدفاً أخيراً هو تحقيق أطماع إيطاليا في الاستيلاء على كلٍّ من :

١ ـ طرابلس الغرب .

٢ ـ ألبانيا .

٣ ـ مناطق الأناضول الواقعة على البحر الأبيض المتوسِّط : أزمير ـ الإسكندرون ـ أنطاكيا) .

قام السُّلطان عبد الحميد الثَّاني باتِّخاذ التَّدابير اللازمة أمام الأطماع الإيطاليَّة ، ولمَّا شعر : أنَّه سيواجه اعتداءً إيطاليّاً مسلَّحاً على ليبيا ، قام بإمداد القوَّات العثمانيَّة في ليبيا بـ (١٥٠٠٠) جنديٍّ لتقويتها ، وظلَّ يقظاً حسَّاساً تجاه التَّحرُّكات الإيطاليَّة ، ويتابعها شخصيَّاً ، وبدقَّةٍ ، ويطالع كلَّ ما يتعلَّق بالشُّؤون اللِّيبيَّة بنفسه بواسطة سفير الدَّولة العثمانيَّة في روما ، ووالي طرابلس ؛ ممَّا جعل الإيطاليِّين يضطرُّون إلى تأجيل احتلال ليبيا ، وتمَّ لهم ذلك في عهد جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي[(١)] ، وسنأتي على ذلك بالتَّفصيل بإذن الله في الكتاب السَّابع الَّذي يتحدَّث عن الحركة السَّنوسيَّة ، وأثرها الدَّعوي ، والجهادي في إفريقية .

إنَّ فكرة الجامعة الإسلاميَّة كان لها صدىً بعيدٌ في العالم الإسلاميِّ لعدَّة أسبابٍ ، منها :

١ ـ كانت الدُّول الأوربيَّة في النِّصف الثَّاني من القرن التَّاسع عشر تنافس على الاستعمار في الشَّرق ، وحدثت سلسلة اعتداءات على الشُّعوب الإسلاميَّة ، فاحتلَّت فرنسا تونس (١٨٨١ م) واحتلَّت إنجلترا مصر (١٨٨٢ م) ، وتدخَّلت فرنسا في شؤون مرَّاكش حتَّى استطاعت أن تعلن عليها الحماية (١٩١٢ م) مقتسمةً أراضيها مع إسبانيا ، وكذلك توغَّل الاستعمار الأوربيُّ في بلادٍ أفريقيَّةٍ إسلاميَّةٍ

---

(١) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، ص (١٣٩) .

كالسُّودان ، ونيجيريا ، وزنجبار ، وغيرها .

٢ ـ تقدَّمت وسائل النَّقل ، والاتِّصالات بين العالم الإسلامي ، وانتشرت الحركة الصَّحافيَّة في مصر ، وتركيَّا ، والجزائر ، والهند ، وفارس ، وأواسط آسيا ، وجاوة (أندونيسيا) ، وكانت الصُّحف تعالج موضوع الاستعمار ، وأطماع الدُّول الأوربيَّة في العالم الإسلاميِّ ، وتنشر أخبار الأوربيِّين المتكرِّرة في الهجوم على ديار الإسلام ، فتتأثَّر القلوب ، وتهيج النُّفوس ، وتتفاعل مشاعر ، وعواطف المسلمين مع إخوانهم المنكوبين .

٣ ـ كانت جهود العلماء ، ودعواتهم في وجوب إحياء مجد الإسلام ، فقد انتشرت في ربوع العالم الإسلاميِّ الدَّعوة إلى وحدة الصَّفِّ ، وازداد الشُّعور بأنَّ العدوان الغربيَّ بغير انقطاعٍ على الشَّعوب الإسلاميَّة ممَّا يزيدها ارتباطاً ، وتماسكاً ، وبأنَّ الوقت قد حان لتلتحم الشُّعوب الإسلاميَّة ، وتنضوي تحت راية الخلافة العثمانيَّة ، وغير ذلك من الأسباب[١] .

إنَّ السُّلطان عبد الحميد الثَّاني نجح في إحياء شعور المسلمين بأهمِّيَّة التَّمسُّك ، والسَّعي لتوحيد صفوف الأمَّة تحت راية الخلافة العثمانيَّة ، وبذلك يستطيع أن يحقِّق هدفين :

الأوَّل : تثبيت دولة الخلافة في الدَّاخل ضدَّ الحملات القوميَّة التَّغريبيَّة ، الماسونيَّة ، اليهوديَّة ، الاستعماريَّة ، النَّصرانيَّة .

الثَّاني : وفي الخارج تلتفُّ حول راية الخلافة جموعُ المسلمين الخاضعين للدُّول الأوربيَّة ، كروسيا ، وبريطانيا ، وفرنسا . وبذلك يستطيع أن يجابه تلك الدُّول ، ويهدِّدها بإثارة المسلمين ، وإعلانه الجهاد عليها في جميع أنحاء العالم الإسلاميِّ[٢] .

* * *

(١) انظر : صحوة الرَّجل المريض ، ص (١١٢) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١١٣) .

المبحث الثَّالث

السُّلطان عبد الحميد واليهود

إنَّ حقيقة الصِّراع بين السُّلطان عبد الحميد الثَّاني واليهود من أهمِّ الأحداث في تاريخ السُّلطان المسلم الغيور عبد الحميد الثَّاني .

إنَّ أمر اليهود ، وعداءهم للإسلام تعود جذوره إلى ظهور الإسلام منذ أن انتصر الإسلام ، وأجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة المنوَّرة لخيانتهم المتكرِّرة ، وعداواتهم الدَّائمة ، ومن ثمَّ عن سائر الجزيرة العربيَّة في عهد الخليفة الرَّاشد عمر ابن الخطَّاب ، وهم يكيدون له(١) ، وقد تظاهر بعضهم بالإسلام ، وبثَّ السُّموم في جسم الأمَّة الإسلاميَّة عبر تاريخها الطَّويل ، وما عبد الله بن سبأ ، والقرامطة ، والحشَّاشون ، والرَّاوونديَّة ، والدَّعوات الهدَّامة الَّتي ظهرت في تاريخ المسلمين عنهم ببعيد .

لقد أهدى تتار بلاد القرم للسُّلطان سليمان القانوني في القرن الخامس عشر الميلادي فتاةً يهوديَّةً روسيَّةً ، كانوا قد سبوها في إحدى غزواتهم فتزوَّجها السُّلطان سليمان القانوني ، وأنجبت له بنتاً ، فما أن كبرت تلك البنت حتَّى سعت أمُّها اليهوديَّة لتزويجها من اللَّقيط الكرواتي رستم باشا ، ثمَّ إمعاناً منها في الغدر تمكَّنت من قتل الصَّدر الأعظم إبراهيم باشا ، ونصَّبت صهرها اللَّقيط بدلاً منه ، ثمَّ قامت بتدبير مؤامرةٍ أخرى ، استطاعت بها أن تتخلَّص من ولي العهد مصطفى بن السُّلطان سليمان من زوجته الأولى ، ونصَّبت ابنها سليماً الثَّاني وليّاً للعهد .

في ذلك الزَّمن كان اليهود قد تعرَّضوا للاضطهاد في الأندلس ، وروسيا ، وتشرَّد الكثير منهم هرباً من محاكم التَّفتيش ، فتقدَّمت تلك اليهوديَّة من السُّلطان وسعت لديه بالحصول على إذن لهم بالهجرة إلى البلاد ، وبالفعل فقد استقرَّ قسمٌ

---

(١) ظهرت عداوة اليهود للمسلمين منذ أن انتصر المسلمون في غزوة بدر على كفَّار قريش ، فكان ما كان منهم من مساعدةٍ لقريش ، وتحدٍّ للمسلمين ، وتحزيبهم الأحزاب على رسول الله ﷺ ، فكانت غزوة الأحزاب ، وغيرها . (انظر سيرة ابن هشام ٣/ ١٦٩) .

منهم في أزمير[١] ومنطقة أدرنة ، ومدينة بورصة والمناطق الشَّماليَّة ، والغربيَّة من الأناضول ، وبعد استقرارهم في الدَّولة العثمانيَّة ، طبَّقت الحكومة عليهم أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة حيث تمتَّعوا في ظلِّها بقدرٍ كبيرٍ من الاستقلال الذَّاتي ، وفي الواقع أنَّ يهود إسبانيا لم يجدوا المأوى فقط من تركيَّا العثمانيَّة ، بل وجدوا الرَّفاهيَّة والحرِّيَّة التَّامَّة بحيث أصبح لهم التَّسلسل الهرمي في الدَّولة ؛ إذ تغلغلوا في المراكز الحسَّاسة منها ، مثل دون جوزيف ناسي ، وغيره ، وتمتَّع يهود إسبانيا بشيءٍ كبيرٍ من الاستقلال ، وأصبح رئيس الحاخامين مخوَّلاً له السُّلطة في الشُّؤون الدِّينيَّة ، والحقوق المدنيَّة ، بحيث إنَّ مراسم وقرارات هذا الحاخام كانت تصدق من قبل الحكومة إلى درجةٍ تحوَّلت إلى قانون يخصُّ اليهود[٢] .

وتجدر الإشارة ـ في هذا المجال ـ إلى أنَّ علي باشا وزير الخارجيَّة ـ أصبح فيما بعد الصَّدر الأعظم ـ قد شارك في بعثته الدُّبلوماسيَّة عددٌ من اليهود في عام ١٨٦٥ م المرسلة إلى الأقطار الأوربيَّة المسيحيَّة[٣] .

إنَّ اليهود تمتَّعوا بكلِّ الامتيازات والحصانات بموجب قوانين رعايا الدَّولة[٤] . ووجدوا السِّلم ، والأمان ، وحرِّيَّة الوجود الكامل في الدَّولة العثمانيَّة[٥] .

أوَّلاً : يهود الدُّونمة :

هناك مفاهيمُ عديدةٌ لكلمة الدُّونمة ؛ إذ أنَّ الكلمة من النَّاحية اللُّغويَّة مشتقَّةٌ من الكلمة التُّركيَّة (دونمك) الَّتي تعني : الرُّجوع ، أو العودة ، أو الارتداد . أمَّا المفهوم الاجتماعي لهذه الكلمة فإنَّه يعني : المرتد ، أو المتذبذب ، بينما تعني هذه الكلمة من النَّاحية الدِّينيَّة مذهباً دينيَّاً جديداً ، دعا إليه الحاخام شبتاي زيفي ، أمَّا المفهوم السِّياسي لهذه الكلمة فإنَّه يعني اليهود المسلمين الَّذين لهم كيانهم الخاصُّ[٦] ، وقد أطلق المعنى الخاصَّ بالدُّونمة منذ القرن السَّابع عشر على اليهود

(١) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، دكتور علي حسون ، ص (٢٤١) .
(٢) انظر : اليهود والدَّولة العثمانيَّة ، د . أحمد النُّعيمي ، ص (٣٧) . .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٣٧) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٣٨) .
(٥) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٣٩) .
(٦) انظر : يهود الدُّونمة ، د . أحمد النُّعيمي ، ص (٨) .

الَّذين يعيشون في المدن الإسلاميَّة ، وخاصَّةً في ولاية سلانيك ، وأطلق العثمانيُّون اسم الدُّونمة على اليهود لغرض بيان وتوضيح العودة من اليهوديَّة إلى الإسلام ، ثمَّ أصبح عَلَماً على فئةٍ من يهود الأندلس الَّذين لجؤوا إلى الدَّولة العثمانيَّة ، وتظاهروا باعتناق العقيدة الإسلاميَّة(١) .

إنَّ مؤسِّس فرقة الدُّونمة هو شبتاي زيفي الَّذي ادَّعى : أنَّه المسيح المنتظر في القرن السَّابع عشر ، حيث انتشرت في تلك الأيَّام شائعةٌ تقول : إنَّ المسيح سيظهر في عام ١٦٤٨ م كي يقود اليهود في صورة المسيح ، وأنَّه سوف يحكم العالم في فلسطين ، ويجعل القدس عاصمة الدَّولة اليهوديَّة المزعومة(٢) ، وكانت فكرة المسيح المنتظر ذائعةً عندئذٍ في المجتمع اليهودي ، وكانت الأوساط اليهوديَّة القديمة تؤمن بقرب ظهور هذا المسيح . ولذلك صادفت دعوة شبتاي تأييداً كبيراً بين يهود فلسطين ، ومصر ، وشرق أوربَّة ، بل أيَّدها كثير من اليهود ، وأصحاب الأموال لأغراضٍ سياسيَّةٍ ، وماليَّةٍ(٣) .

وذاع أمر شبتاي في أوربَّة ، وبولندا ، وألمانيا ، وهولَّندا ، وإنجلترا ، وإيطاليا ، وشمال أفريقية ، وغيرها .

وفي أزمير أخذ يلتقي بالوفود اليهوديَّة الَّتي جاءت من أدرنة ، وصوفيا ، واليونان ، وألمانيا ، حيث قلَّدته هذه الوفود تاج « ملك الملوك » ثمَّ قام شبتاي بتقسيم العالم إلى ثمانيةٍ وثلاثين جزءاً ، وعيَّن لكلٍّ منها ملكاً ، اعتقاداً منه بأنَّه سيحكم العالم كلَّه من فلسطين ، حيث كان يقول في هذا المجال : (أنا سليل سليمان بن داود حاكم البشر ، وأعتبر القدس قصراً لي)(٤) .

وقام شبتاي بشطب اسم السُّلطان محمَّد الرَّابع من الخطب الَّتي كانت تلقىٰ في كنيس اليهود ، وجعل اسمه محلَّ اسم السُّلطان ، وسمَّى نفسه (سلطان السَّلاطين) (سليمان بن داود) ممَّا لفت انتباه الحكومة العثمانيَّة(٥) .

---

(١) انظر : صحوة الرَّجل المريض ، ص (٢٤٢) .
(٢) انظر : يهود الدُّونمة ، ص (١٦) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٢١) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٢٧) .
(٥) المصدر السَّابق نفسه .

وأصبح شبتاي مصدر قلقٍ لكثيرٍ من حاخامي اليهود ، ورفعوا ضدَّه شكوى إلى السُّلطان ، أكَّدوا فيها أنَّ شبتاي ينوي القيام بحركةٍ تمرُّديَّةٍ في سبيل تأسيس دولةٍ يهوديَّةٍ في فلسطين[١] .

ونتيجة لاشتداد فتنة شبتاي زيفي أصدر الوزير القويُّ أحمد كوبرولو أوامره بإلقاء القبض عليه ، وأودعه في السِّجن ، وظلَّ فيه لمدَّة شهرين ، ثمَّ نُقل إلى قلعة جزيرة غاليبولي على الدَّردنيل ، وسمح لزوجته ، وكاتبه الخاصِّ أن يتَّخذا لهما سكناً معه ، وأصبح له مجلسٌ كمجلس الأمراء ، لا يدخل عليه إلا بإذنٍ مسبقٍ ، وينتظر الَّذين يريدون أن يتمتَّعوا برؤيته أيَّاماً من أجل ذلك ، وأخذت زوجته تسلك سلوك الأميرات مع القادمين عليها ، والقادمات ، حيث كانت وفودٌ يهوديَّةٌ من أنحاء العالم تقدم لزيارته[٢] .

حوكم شبتاي في سراي أدرنة ، حيث شكَّل السُّلطان هيئةً علميَّةً إداريَّةً برئاسة نائب الصَّدر الأعظم ، وعضويَّة كلٍّ من (شيخ الإسلام) يحيى أفندي منقري زادة ، وواحدٍ من كبار العلماء ، وهو إمام القصر محمَّد أفندي وانلي ، وقام بدور المترجم من الإسبانيَّة إلى التُّركيَّة الطَّبيب مصطفى حياتي[٣] .

أكَّد قاضي المحكمة : أنَّ المسألة تعدُّ بالنِّسبة للدَّولة العثمانيَّة . وعلى مسمعٍ من السُّلطان الَّذي جلس في غرفةٍ مجاورةٍ (بواسطة التُّرجمان قيل لشبتاي : تدَّعي أنَّك المسيح فأرنا معجزتك ، سنجرِّدك من ثيابك ، ونجعلك هدفاً لسهام المهرة من رجالنا فإن لم تغرز السِّهام في جسمك ، فسيقبل السُّلطان ادِّعاءك . فهم شبتاي ما قيل له ، فأنكر ما أسند إليه ، وقال : إنَّهم تقوَّلوا عليه)[٤] ، فعرض عليه الإسلام ، فدخل فيه تحت اسم محمَّد عزيز أفندي[٥] ، وطلب من السُّلطات العثمانيَّة أن تسمح له بدعوة اليهود إلى الإسلام ، فأذنت له ، وانتهزها فرصةً ،

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٣٤) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٣٦) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٣٦) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٢٤٣) .
(٥) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، د . علي حسُّون ، ص (٢٤٣) .

فانطلق بين اليهود يواصل دعوته إلى الإيمان به ، ويحثُّهم على ضرورة تجمُّعهم معلنين في ظاهرهم الإسلام مبطنين يهوديَّتهم المنحرفة[١] .

وظلَّ شبتاي وأنصاره يتَّبعون دينهم الموسوي سرّاً ، ويمارسون العمل للصَّهيونيَّة في الخفاء ، ويظهرون الإخلاص للإسلام في العلن ، والصَّلاح ، والتَّقوى أمام الأتراك ، وكان يقول لأتباعه : إنَّه كالنَّبيِّ موسى الَّذي اضطرَّ أن يبقى مدَّةً من الزَّمن في قصور الفراعنة[٢] . وفي ظلِّ هذه الظُّروف ألقي القبض على شبتاي مع مجموعة من أتباعه في كنيس (قوري جشمه) الكائنة في داخل المعبد بسبب : أنَّه كان مرتدياً زيّاً يهوديّاً ، وهو محاطٌ بالنِّساء يشربون الخمر ، وينشدون الأناشيد اليهوديَّة ، وقراءة المزامير مع عددٍ من اليهود ، فضلاً عن اتِّهامه بدعوته المسلمين إلى ترك دينهم ، والإيمان به ، ولولا تدخُّل شيخ الإسلام ؛ لقطع رأسه ، حيث اعترض على إعدامه قائلاً : (لو أعدم هذا المحتال سيكون سبباً لحدوث خرافةٍ في الإنسانيَّة ، حيث يدَّعي مريدوه بعروجه إلى السَّماء ، كعيسى عليه السَّلام)[٣] . فاكتفى بنفيه إلى مدينة دولسجنو في ألبانيا ، وذلك في صيف عام ١٦٧٣ م ، وتوفِّي بعد خمس سنوات من نفيه وظلَّت عقيدة الشِّبتائيَّة موجودةً لدى فرق سالونيك ، وتفنَّن أتباعه في ممارسة المكر ، والتَّعصُّب والتَّجرُّد من المبادىء ، والأخلاق[٤] .

وقد نظم شبتاي زيفي عقيدة الدُّونمة في ثماني عشرة مادَّةً ، وفي الحقيقة تعدُّ المادَّة السَّادسة عشرة ، والسَّابعة عشرة أهمَّ سمات الدُّونمة ؛ إذ تشير المادَّة (١٦) : (يجب أن تطبَّق عادات الأتراك بدقَّةٍ لصرف أنظارهم عنكم ، ويجب ألا يُظهر أحدٌ من الأتباع تضايقه من صيام رمضان ، ومن الأضحية ، ولمن ينفِّذ كلَّ شيءٍ يجب تنفيذه أمام الملأ)[٥] . أمَّا المادَّة (١٧) فإنَّها تشير إلى الآتي : (إنَّ

---

(١) انظر : يهود الدونمة ، ص (٣٦) .
(٢) انظر : يهود الدُّونمة ، ص (٤١) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٤٢) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٤٣) .
(٥) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٤٥) .

مناكحتهم (يعني : المسلمين) ممنوعةٌ قطعاً)[١] .

إنَّ شبتاي يعدُّ أوَّل يهوديٍّ بشَّر بعودة بني إسرائيل إلى فلسطين ، وفي حقيقة الأمر ، عدَّت حركة زيفي حركةً سياسيَّةً ضدَّ سلطة الدَّولة العثمانيَّة أكبر من كونها حركةً دينيَّةً[٢] .

لقد أسهمت هذه الطَّائفة في هدم القيم الإسلاميَّة في المجتمع العثماني ، وعملت على نشر الإلحاد ، والأفكار الغربيَّة ، وانتشار الماسونيَّة ، والدَّعوة لهتك حجاب المرأة المسلمة واختلاطها مع الرِّجال ، وخاصَّةً في المدارس ، وكان الكثير من رجال الاتِّحاد والتَّرقِّي يساهم في بعض نشاطاتها ، وأفراحها .

وقام يهود الدُّونمة بدورٍ فعَّالٍ في نصرة القوى المعادية للسُّلطان عبد الحميد ، والَّتي تحرَّكت من سالونيك لعزله ، وهم الذَّين سمَّموا أفكار الضُّبَّاط الشَّباب ، ولا يزالون حتَّى وقتنا الحاضر يسعون لذلك ، ولهم صحفٌ ، ودور نشرٍ ، وتغلغلوا في الاقتصاد العثماني ، وكلِّ مناحي الحياة في الدَّولة العثمانيَّة[٣] .

وقد استطاعوا أن يؤثِّروا في جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي ، وكان السُّلطان عبد الحميد الثَّاني عارفاً بحقيقة الدُّونمة ، ويؤكِّد هذه الحقيقة الجنرال جواد رفعت أتلخان ، حيث يقول في هذا الصَّدد : (إنَّ الشَّخص الوحيد في تاريخ التُّرك جميعه ، الَّذي عرف حقيقة الصَّهيونيَّة والشِّبتائيَّة ، وأضرارهما على التُّرك ، والإسلام ، وخطرهما تماماً ، وكافح معهما مدَّةً طويلةً بصورةٍ جدِّيَّةٍ لتحديد شرورهم هو السُّلطان التُّركيُّ العظيم (أي : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني) كافح هذه المنظَّمات الخطيرة لمدَّة ثلاثٍ وثلاثين سنة بذكاءٍ ، وعزمٍ ، وبإرادةٍ مدهشةٍ جدَّاً كالأبطال)[٤] .

وفي حقيقة الأمر ، اهتمَّ عبد الحميد بإبقاء الدُّونمة في ولاية سالونيك ، وعدم وصولهم إلى الآستانة ؛ بغية عدم السَّيطرة عليها ، والتَّجنُّب من تحرُّكاتهم ، ونتيجة للموقف الجادِّ من عبد الحميد إزاء فرقة الدُّونمة اتَّبعوا استراتيجيَّة مضادَّة له ، حيث

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٤٥) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٤٦) .
(٣) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، د . علي حسُّون ، ص (٤٦) .
(٤) انظر : السُّلطان عبد الحميد ، والخلافة الإسلاميَّة للجندي ، ص (١٠٧) .

تحرَّكوا ضدَّه على مستوى الرَّأي العام العثماني ، والجيش[١] .

ونتيجةً لموقف عبد الحميد من الدُّونمة ، قام يهود الدُّونمة بالتَّعاون مع المحافل الماسونيَّة للإطاحة به ، وقد استخدم هؤلاء شعاراتٍ معيَّنةٍ كالحرِّيَّة ، والدِّيمقراطيَّة ، وإزاحة المستبدِّ عبد الحميد ، وعلى هذا الأساس قاموا بنشر الشِّقاق ، والتَّمرُّد في الدَّولة العثمانيَّة بين صفوف الجيش . وكانت الغاية من هذا هي تحقيق المشروع الاستيطاني الصَّهيوني باستيطان فلسطين . وكان يهود الدُّونمة يشكِّلون اللَّبنة الأولى لتنفيذ المخطَّطات اليهوديَّة العالميَّة[٢] .

ثانياً : السُّلطان عبد الحميد وزعيم اليهوديَّة العالميَّة (هرتزل) :

استطاع زعيم الحركة اليهوديَّة الصَّهيونيَّة العالميَّة (تيودر هرتزل) أن يتحصَّل على تأييدٍ أوربيٍّ للمسألة اليهوديَّة من الدُّول (ألمانيا ، وبريطانيا ، وفرنسا) وجعل من هذه الدُّول قوَّةَ ضغطٍ على الدَّولة العثمانيَّة تمهيداً لمقابلة السُّلطان عبد الحميد ، وطلب فلسطين منه ، وكانت الدَّولة العثمانيَّة تعاني من مشاكل ماليَّةٍ متعدِّدةٍ ؛ إذ كانت الأحوال الاقتصاديَّة في البلاد على درجةٍ من السُّوء ؛ بحيث فرضت الدُّول الأوربيَّة الدَّائنة وجود بعثةٍ ماليَّةٍ أوربيَّةٍ في تركيَّا العثمانيَّة للإشراف على أوضاعها الاقتصاديَّة ضماناً لديونها ، الأمر الَّذي دفع عبد الحميد الثاني أن يجد حلاًّ لهذه المعضلة .

كانت هذه الثَّغرة هي السَّبيل الوحيد أمام هرتزل ، كي يؤثِّر على سياسة عبد الحميد الثَّاني تجاه اليهود . وفي هذا الصَّدد يقول هرتزل في مذكَّراته : (علينا أن ننفق عشرين مليون ليرةً تركيَّةً لإصلاح الأوضاع الماليَّة في تركيَّا . . . مليونان منها ثمناً لفلسطين ، والباقي لتحرير تركيَّا العثمانيَّة بتسديد ديونها تمهيداً للتَّخلُّص من البعثة الأوربيَّة . . . ومن ثمَّ نقوم بتمويل السُّلطان بعد ذلك بأيِّ قروضٍ جديدةٍ يطلبها[٣] .

---

(١) انظر : يهود الدُّونمة ، ص (٨١) .
(٢) انظر : الحركة الإسلاميَّة الحديثة في تركيا لمحمَّد مصطفى ، ص (٦٨ ، ٦٩) .
(٣) انظر : اليهود والدَّولة العثمانيَّة ، ص (١١٦) .

لقد أجرى هرتزل اتِّصالاتٍ مكثَّفةٍ مع المسؤولين في ألمانيا ، والنِّمسا ، وروسيا ، وإِيطاليا ، وإِنجلترا ، وكانت الغاية من هذه الاتِّصالات هي إِجراء حوار مع عبد الحميد الثَّاني . وفي هذا الصَّدد فقد نصح لاندو منذ ٢١ شباط ١٨٦٩ م الصَّديق اليهودي لهرتزل أن يقوم بواسطة صديقه نيولنسكي رئيس تحرير (بريد الشَّرق) . وفي هذا المجال يقول هرتزل : (إِنْ نحن حصلنا على فلسطين ، سندفع لتركيَّا كثيراً ، أو سنقدِّم عطايا كثيرةً . . لكي يتوسَّط لنا . ومقابل هذا نحن مستعدُّون أن نسوِّي أوضاع تركيَّا الماليَّة . سنأخذ الأراضي الَّتي يمتلكها السُّلطان ضمن القانون المدني ، مع أنَّه ربَّما لم يكن هناك فرق بين السُّلطة الملكيَّة والممتلكات الخاصَّة)(١) .

وقام هرتزل بزيارة إِلى القسطنطينيَّة وذلك في حزيران عام ١٨٩٦ م ، ورافقه في هذه الزِّيارة نيولنسكي ، الَّذي كانت له علاقة ودِّيَّةٌ مع السُّلطان عبد الحميد ، ونتيجةً لذلك فقد نقل نيولنسكي آراء هرتزل إِلى قصر يلدز ، وقد دارت محاورةٌ بين نيولنسكي والسُّلطان عبد الحميد ؛ إِذ قال السُّلطان له : (هل بإِمكان اليهود أن يستقرُّوا في مقاطعةٍ أخرىٰ غير فلسطين ؟) أجاب نيولنسكي قائلاً : (تعتبر فلسطين هي المهد الأوَّل لليهود ، وعليه فإِنَّ اليهود لهم الرَّغبة في العودة إِليها) ، وردَّ السُّلطان قائلاً : (إِنَّ فلسطين لا تعتبر مهداً لليهود فقط ، وإِنَّما تعتبر مهداً لكلِّ الأديان الأخرى) . أجاب نيولنسكي قائلاً : (في حالة عدم استرجاع فلسطين من قبل اليهود فإِنَّهم سوف يحاولون الذَّهاب ، وبكلِّ بساطةٍ إِلى الأرجنتين)(٢) .

وقام السُّلطان عبد الحميد بإِرسال رسالة إِلى هرتزل بواسطة صديقه نيولنسكي جاء فيها : (انصح صديقك هرتزل ، ألا يتَّخذ خطواتٍ جديدةً حول هذا الموضوع ، لأنِّي لا أستطيع أن أتنازل عن شبرٍ واحدٍ من الأراضي المقدَّسة ، لأنَّها ليست ملكي ، بل هي ملك شعبي . وقد قاتل أسلافي من أجل هذه الأرض ، وروَّوها بدمائهم ؛ فليحتفظ اليهود بملايينهم ، إِذا مزِّقت دولتي ؛ من الممكن

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١١٧) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٢٠) .

الحصول على فلسطين بدون مقابل ، ولكن لزم أن يبدأ التَّمزيق أوَّلاً في جثَّتنا ، ولكن لا أوافق على تشريح جثَّتي وأنا على قيد الحياة)[١] .

● وفي هذا الصَّدد يقول عبد الحميد في مذكَّراته :

(ومن المناسب أن نقوم باستغلال الأراضي الخالية في الدَّولة ، وهذا يعني من جانب آخر ، أنَّه كان علينا أن ننهج اتِّباع سياسة تهجير خاصَّة ، ولكنَّنا لا نجد أنَّ هجرة اليهود مناسبةٌ ، لأنَّ غايتنا هي استيطان عناصر تنتمي إلى دين أسلافنا ، وتقاليدنا حتى لا يستطيعوا الهيمنة على زمام الأمور في الدَّولة)[٢] .

وبعد إخفاق جهود هرتزل بواسطة نيولنسكي ، اتَّجه هرتزل إلى قصر وليم الثَّاني إمبراطور ألمانيا ، ولا سيَّما أنَّه كان صديقاً لعبد الحميد ، بالإضافة إلى كون وليم الثَّاني هو الحليف الوحيد للعثمانيِّين في أوربَّة[٣] ، إلا أنَّ مساعيه لم تكلَّل بالنَّجاح . يقول المؤرِّخ التُّركي نظام الدِّين نظيف في كتابه (إعلان الحرِّيَّة والسُّلطان عبد الحميد الثَّاني) : (. . عندما ردَّ طلب الوفد اليهوديِّ ـ المسند من قبل الإمبراطور وليم ـ في الحصول على وطنٍ لهم ، أي : عندما خاب هرتزل في مسعاه ، اشتدَّ العداء ضدَّ (يلدز) وهذا ما كان يتوقَّعه عبد الحميد ، لأنَّ اليهود قومٌ يتقنون العمل المنظَّم ، وكانت لديهم قوىً عديدةٌ تضمن لهم النَّجاح في مسعاهم ، فالمال متوفِّرٌ لديهم ، وكانوا يسيطرون على أهمِّ العلاقات التِّجاريَّة الدَّوليَّة ، وكانت صحافة أوربَّة في قبضتهم ، فكان في مقدورهم إطلاق العواصف الَّتي يريدونها لدى الرَّأي العام متَّى شاؤوا . . .)[٤] .

يردف المؤرِّخ التُّركيُّ قائلاً : (بدؤوا أوَّلاً بتحريك الصَّحافة العالميَّة ، ثمَّ أخذوا بتوحيد أعداء عبد الحميد الَّذين نشؤوا في ذلك المجتمع العثماني الخليط ، نجد أنصار المشروطيَّة يتَّخذون طابعاً منظَّماً ، وهجوميَّاً ، علماً بأنَّهم كانوا حتَّى

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٢٠) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٢١) .
(٤) انظر : السُّلطان عبد الحميد ، حياته ، وأحداث عهده ، محمَّد أورخان ، ص (٢٨١ ، ٢٨٢) . .

ذلك الوقت متفرِّقين ، ويعملون دون نظامٍ ، ودون تنسيقٍ ؛ إذ لم يكن صعباً عليهم توحيد أعداء عبد الحميد الَّذين نشؤوا في ذلك المجتمع العثماني الخليط . وقد أخذ (المشرق الأعظم الماسوني الإيطالي) على عاتقه هذه المهمَّة في التَّوحيد والتَّنسيق ؛ لأنَّه كان أقرب مركزٍ ماسونيٍّ للإمبراطوريَّة العثمانيَّة . ولعبت المحافل الإيطاليَّة وخاصَّةً محفل (ريزوتا) في سالونيك دوراً ملحوظاً . . .)[١] .

إزاء هذا الإخفاق قرَّر هرتزل أن يستخدم وسائل أخرى لاستمالة عبد الحميد الثَّاني ، حيث عرض عن طريق نيولنسكي خدمته بواسطة القضيَّة الأرمنيَّة[٢] وفي هذا الصَّدد يقول هرتزل : (طلب منِّي السُّلطان أن أقوم بخدمةٍ له ، وهي أن أؤثِّر على الصُّحف الأوربيَّة ، بغية قيام الأخيرة بالتَّحدُّث عن القضيَّة الأرمنيَّة بلهجةٍ أقلَّ عداءً للأتراك ، أخبرت نيولنسكي حالاً باستعدادي للقيام بهذه المهمَّة ، ولكنِّي أكَّدت على إعطائي فكرةً وافيةً عن الوضع الأرمنيِّ : مَنْ هم الأشخاص في لندن الَّذين يجب أن أقنعهم بما يريدون ، وأيُّ الصُّحف يجب أن نستميلها لجهتنا ، وغير ذلك)[٣] .

وعلى هذا الأساس ، فقد نشطت الدِّبلوماسيَّة الصَّهيونيَّة لإقناع الأرمن بالتَّخلِّي عن ثورتهم . ونتيجةً لذلك فقد اتَّصل هرتزل مع سالزبوري والمسؤولين الإنجليز بغية استخدامهم للضَّغط على الأرمن ، كما نشط اليهود في مدن أوربيَّة أخرى ، مثل فرنسا للقيام بنفس الدَّور . إلا أنَّ دبلوماسيَّة هرتزل قد أخفقت بسبب عدم تحمُّس بريطانيا ؛ لأن ذلك كان يعني تأييد سياسة عبد الحميد ، الأمر الذي يؤدي لإثارة الرَّأي العامِّ البريطانيِّ ضدَّ الحكومة[٤] .

وقد حاول هرتزل لقاء عبد الحميد الثَّاني ، ولا سيَّما أثناء الزِّيارة الثَّانية للإمبراطور وليم الثَّاني إلى القسطنطينيَّة ، إلا أنَّ موظَّفي قصر يلدز منعوه من ذلك . واستمرَّ هرتزل في محاولاته المستمرَّة حتَّى تكلَّلت جهوده بالنَّجاح بعد سنتين

(١) انظر : السُّلطان عبد الحميد ، حياته ، وأحداث عهده ، محمَّد أورخان ، ص(٢٨٢).

(٢) انظر : اليهود والدَّولة العثمانيَّة ، ص (١٣٢) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٣٧) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٣٨) .

(١٨٩٩ ـ ١٩٠١ م) من الاحتكاك المباشر مع الموظَّفين الكبار لقصر يلدز من مقابلة عبد الحميد ، حيث قابل السُّلطان لمدَّة ساعتين ، وقد اقترح هرتزل قيام البنوك اليهوديَّة الغنيَّة في أوربَّة بمساعدة الدَّولة العثمانيَّة لقاء السَّماح بالاستيطان في فلسطين ، بالإضافة إلى ذلك فإنَّه قد أكَّد لعبد الحميد أنَّه سوف يخفِّف الدُّيون العامَّة للدَّولة العثمانيَّة ، وذلك منذ عام ١٨٨١ م ، وقد وعد هرتزل عبد الجميد أن يحتفظ بمناقشاته السِّرِّيَّة معه(١) .

كان السُّلطان عبد الحميد في خلال مقابلته مع هرتزل مستمعاً أكثر منه متكلِّماً ، وكان يرخي لهرتزل في الكلام ؛ كي يدفعه أن يتحدَّث بكلِّ ما يخطر في مخيَّلته من أفكارٍ ، ومشروعاتٍ ، ومطالب . وقد أدَّى هذا الأمر إلى أن يعتقد هرتزل بأنَّه نجح في مهمَّته هذه . ولكنَّه أدرك في نهاية الأمر بأنَّه قد أخفق مع عبد الحميد ، وأنَّه أخذ يسير في طريقٍ مسدودٍ معه(٢) .

وبعد إخفاق جهود هرتزل عند عبد الحميد الثَّاني ، تحدَّث هرتزل قائلاً : (في حالة منح السُّلطان فلسطين لليهود ، سنأخذ على عاتقنا تنظيم الأوضاع الماليَّة ، أمَّا في القارَّة الأوربيَّة ؛ فإنَّنا سنقوم بإيجاد حصنٍ منيعٍ ضدَّ آسيا ، وسوف نبني حضارةً ضدَّ التَّخلُّف ، كما سنبقى في جميع أنحاء أوربَّة بغية ضمان وجودنا(٣) .

وفي الحقيقة كان عبد الحميد يرى : أنَّه من الضَّروري عدم توطين اليهود في فلسطين ، كي يحتفظ العنصر العربيُّ بتفوُّقه الطَّبيعيِّ . وفي هذا الصَّدد يقول : (. . . ولكن لدينا عددٌ كافٍ من اليهود ، فإذا كنَّا نريد أن يبقى العنصر العربيُّ متفوِّقاً ؛ علينا أن نصرف النَّظر عن فكرة توطين المهاجرين في فلسطين ، وإلا فإنَّ اليهود إذا استوطنوا أرضاً تملَّكوا جميع قدراتها خلال وقتٍ قصيرٍ ، ولذا نكون قد حكمنا على إخواننا في الدِّين بالموت المحتَّم)(٤) .

---

(١) انظر : اليهود والدَّولة العثمانيَّة ، ص (١٤١) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٤٣) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .
(٤) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٤٦) .

وكانت الدَّولة العثمانيَّة تسعى في أحيانٍ كثيرةٍ إلى إبعاد اليهود العثمانيِّين عن أفكار هرتزل ، والحركة الصَّهيونيَّة ، ومع ذلك فإنَّها في أحيانٍ أخرى كانت تستخدم لغة التَّهديد معهم . وفي هذا الصَّدد أوضح علي فرُّوخ بك للوسائل الإعلاميَّة الأجنبيَّة ، وبصراحةٍ تامَّةٍ : (إنَّه لبعيدٌ من الصَّواب أن يقوم الصَّهاينة على خلق صعوباتٍ للحكومة العثمانيَّة ، بغية إرغامها على تحقيق مصالحها . ولكنَّ هذه الصُّعوبات سوف تؤدِّي في نهاية الأمر إلى إلحاق الأذى بوجودهم السِّلمي ، والسَّعيد في الدَّولة العثمانيَّة . . . وهذه النُّقطة واضحةٌ بالنِّسبة لعلاقة العثمانيِّين مع رعايا الأرمن ، لأنَّ قلَّةً من المتمرِّدين الَّذين قاموا على ارتكاب الخطأ ، والحماقة معتمدين إلى الإرشاد الميكافلي قد أدَّى في نهاية الأمر أن يندموا على ما فعلوه ، من دون التَّوصُّل إلى أيَّةِ نتيجةٍ)[١] .

وعلى الرَّغم من إخفاق جهود هرتزل عند السُّلطان عبد الحميد ؛ كتب هرتزل ، قائلاً : (يجب تملُّك الأرض بواسطة اليهود بطريقةٍ تدريجيَّةٍ ، دونما حاجةٍ إلى استخدام العنف ، سنحاول أن نشجِّع الفقراء من السُّكَّان الأصليِّين على النُّزوح إلى البلدان المجاورة بتأمين أعمالٍ لهم هناك ، مع حظر تشغيلهم في بلدنا . إنَّ الاستيلاء على الأرض سيتمُّ بواسطة العملاء السِّرِّيِّين للشَّركة اليهوديَّة الَّتي تتولَّى بعد ذلك بيع الأرض لليهود . علاوةً على ذلك تقوم الشَّركة اليهوديَّة بالإشراف على التِّجارة في بيع العقارات ، وشرائها ، على أن يقتصر بيعها على اليهود وحدهم[٢] .

وكتب هرتزل قائلاً : (أقرُّ على ضوء حديثي مع السُّلطان عبد الحميد الثَّاني : أنَّه لا يمكن الاستفادة من تركيَّا إلا إذا تغيَّرت حالتها السِّياسيَّة ، أو عن طريق الزَّجِّ بها في حروب تهزم فيها ، أو عن طريق الزَّجِّ بها في مشكلاتٍ دوليَّةٍ ، أو بالطَّريقتين معاً في آنٍ واحدٍ)[٣] .

إنَّ عبد الحميد كان يعرف أهداف الصَّهيونيَّة ، حيث قال في مذكَّراته

---

(١) انظر : اليهود والدَّولة العثمانيَّة ، ص (١٤١) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٤٨) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٤٧) .

السِّياسيَّة : (لن يستطيع رئيس الصَّهاينة هرتزل أن يقنعني بأفكاره ، وقد يكون قوله : ستحلُّ المشكلة اليهوديَّة يوم يقوى فيها اليهوديُّ على قيادة محراثه بيده ، صحيحاً في رأيه : أنَّه يسعى لتأمين أرضٍ لإخوانه اليهود ، لكنَّه ينسى أن الذَّكاء ليس كافياً لحلِّ جميع المشاكل . . لن يكتفي الصَّهاينة بممارسة الأعمال الزِّراعيَّة في فلسطين بل يريدون أموراً مثل تشكيل حكومةٍ ، وانتخاب ممثِّلين ، إنَّني أدرك أطماعهم جيِّداً ، لكنَّ اليهود سطحيُّون في ظنِّهم أنَّني سأقبل بمحاولاتهم . وكما أنَّني أقدِّر في رعايانا من اليهود خدماتهم لدى الباب العالي ، فإنِّي أعادي أمانيهم ، وأطماعهم في فلسطين)[١] .

وعن القدس يقول عبد الحميد الثَّاني : (لماذا نترك القدس . . إنَّها أرضنا في كلِّ وقتٍ ، وفي كلِّ زمانٍ ، وستبقى كذلك ، فهي من مدننا المقدَّسة ، وتقع في أرضٍ إسلاميَّةٍ ، لا بدَّ أن تظلَّ القدس لنا)[٢] .

لقد كان غرض السُّلطان عبد الحميد في استماعه إلى (تيودور هرتزل) معرفة الآتي :

١ ـ حقيقة الخطط اليهوديَّة .

٢ ـ معرفة قوَّة اليهود العالميَّة ، ومدى قوَّتها .

٣ ـ إنقاذ الدَّولة العثمانيَّة من مخاطر اليهود[٣] .

وشرع السُّلطان عبد الحميد في توجيه أجهزة الاستخبارات الدَّاخليَّة ، والخارجيَّة لمتابعة اليهود ، وكتابة التَّقارير عنهم ، وأصدر إرادتين سنيتين : الأولى في ٢٨ يونيو ١٨٩٠ م ، والأخرى في ٧ يوليو ١٨٩٠ م . في الأولى (رفض قبول اليهود في الممالك الشَّاهسانيَّة) والأخرى : (على مجلس الوزراء دراسة تفرُّعات المسألة ، واتِّخاذ قرارٍ جدِّيٍّ وحاسمٍ في شأنها)[٤] .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٤٨) .

(٢) انظر : العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، ص (٥٧) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٥٦) .

(٤) انظر : اليهود والدَّولة العثمانيَّة ، ص (٨٨) .

واتَّخذ السُّلطان عبد الحميد الثَّاني كلَّ التَّدابير الَّلازمة في سبيل عدم بيع الأراضي إلى اليهود في فلسطين ، وفي سبيل ذلك عمل جاهداً على عدم إعطاء أيِّ امتيازٍ لليهود من شأنه أن يؤدِّي إلى تغلُّب اليهود على أرض فلسطين . ولا بدَّ في هذه الحالة أن تتكاتف جهود المنظَّمات الصَّهيونيَّة بغية إبعاد السُّلطان عبد الحميد الثَّاني من الحكم . ويعزِّز هذا القول هرتزل عندما قال : (إنِّي أفقد الأمل في تحقيق أماني اليهود في فلسطين ، وإنَّ اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة ، ما دام السُّلطان عبد الحميد قائماً في الحكم ، مستمرَّاً فيه)[1] .

وتحرَّكت الصَّهيونيَّة العالميَّة ، لتدعم أعداء السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، وهم المتمرِّدون الأرمن ، والقوميُّون في البلقان ، وحركة حزب الاتِّحاد والتَّرقِّي ، والوقوف مع كلِّ حركةٍ انفصاليَّةٍ عن الدَّولة العثمانيَّة[2] ،

* * *

---

(١) انظر : اليهود والدَّولة العثمانيَّة ، ص (١٥٨) .

(٢) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني لمحمَّد حرب ، ص (٢٣٤) .

المبحث الرَّابع

السُّلطان عبد الحميد وجمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي

كان الشَّباب العثمانيُّ المثقَّف في النِّصف الثَّاني من القرن التَّاسع عشر قد تأثَّر بأفكار الثَّورة الفرنسيَّة ؛ الَّتي حققت حكماً ديمقراطيَّاً في فرنسا ، وأتت بأفكار القوميَّة ، والعلمانيَّة ، والتَّحرُّر من حكم الفرد ، وكذلك تأثَّر بالحركة القوميَّة الإيطاليَّة الَّتي قادها (ماتزيني) بنظمها ، وخلاياها ، وكانت الدَّولة العثمانيَّة قد تعرَّضت لحملاتٍ عسكريَّةٍ ، وإعلاميَّةٍ ، غرضها إضعاف الدَّولة ، ومن ثمَّ العمل على تفتيتها ، وكانت الدُّول الأوربيَّة تتَّخذ من أوضاع النَّصارى في الدَّولة حجَّةً للتَّدخُّل ، وفي هذه الظُّروف وبالضَّبط في عام ١٨٦٥ م كان ستَّةٌ من الشَّباب العثمانيِّين المثقَّفين يُسرُّون عن أنفسهم في حديقة في ضواحي إستانبول تسمَّى (غابة بلغراد) .

تحدَّث هؤلاء الشَّباب في موضوعاتٍ سياسيَّةٍ ، وخرجوا بفكرة تكوين جمعيَّةٍ سرِّيَّةٍ ، على نمط جمعيَّة (إيطاليا الفتاة) الَّتي أسَّسها الزَّعيم الإيطالي (ماتزيني) عام ١٨٣١م ، بهدف الوحدة الإيطاليَّة تحت راية الجمهوريَّة ، أطلق هؤلاء الشَّباب على جمعيَّتهم هذه اسم (اتِّفاق الحميَّة) ومن ضمن هؤلاء الشُّبَّان الشَّاعر الَّذي أصبح فيما بعد واسع الشُّهرة : نامق كمال . ورأوا : أنَّ العمل لا بدَّ أن يكون في شكل تعريف الشَّعب بحقوقه السِّياسيَّة ، وحصوله عليها ، وبالتَّالي فإنَّ رغبة الشُّعوب النَّصرانيَّة في الاستقلال بمناطقها عن الدَّولة ، لن تجد لها ما يبرِّرها من تدخُّلٍ أجنبيٍّ بحجَّة مساندة الأقلِّيَّات الدِّينيَّة ، وكانوا يرون أنَّ إنقاذ الدَّولة من حالة التَّردِّي الَّتي وصلت إليها يكون بإيجاد نظامٍ سياسيٍّ ديمقراطيٍّ .

وكان في فرنسا في تلك الفترة مصطفى باشا الأمير المصري الَّذي نازع فؤاد باشا رغبةً في تولِّي عرش مصر ، وفي فرنسا أعلن الأمير أنَّه ضمن التَّيَّار المنادي بالدُّستور في الدَّولة العثمانيَّة ، وقدَّم نفسه بعبارة ممثِّل حزب تركيَّا الفتاة ، وأعجب هذا الاسم المجتمعات الأوربيَّة المعنيَّة ، فشاع اسم « حزب تركيَّا الفتاة » في أوربَّة .

التحق ثلاثةٌ من الإعلاميِّين الثَّوريِّين العثمانيِّين هم : نامق كمال ، ومحمَّد ضياء ، وعلي سعاوي ، بالأمير المصري مصطفى فاضل في باريس ، وكوَّنوا منظَّمةً أسموها « جمعيَّة العثمانيِّين الجدد » .

وكان أبرز شخصيَّات جمعيَّة العثمانيِّين الجدد إعلاميِّين ، وشعراء ، وأدباء وعلى رأسهم نامق كمال ، وعلي سعاوي . وكان من أشهر تلك الشَّخصيَّات تأثيراً على السَّاحة الأوربيَّة نامق كمال ؛ الَّذي تثقَّف ثقافة إسلاميَّةً ، وكما تأثَّر بفلاسفة الثَّورة الفرنسيَّة ، مثل (روسو) . وله حياةٌ أدبيَّةٌ واسعةٌ ، وكتاباتٌ امتدَّت عبر ربع قرن عبَّر عن أفكاره من خلال الشِّعر ، والإعلام ، والكتابة ، والتَّاريخ ، وكانت كتاباته تسعى للإجابة عن ثلاثة أسئلةٍ هي :

١ ـ ما أسباب انحطاط الدَّولة العثمانيَّة ؟

٢ ـ ما الطُّرق الَّتي يمكن بها أن نوقف هذا الانحطاط ؟

٣ ـ ما الإصلاحات اللازم عملها في هذا السَّبيل ؟

كما يمكن إدراج إجابات نامق كمال في ثلاث نقاطٍ رئيسيَّة ، هي :

١ ـ أسباب انحطاط الدَّولة العثمانيَّة أسبابٌ اقتصاديَّةٌ ، سياسيَّةٌ .

٢ ـ التَّربية : هي الطَّريق الَّتي يمكن أن يوقف بها هذا الانحطاط .

٣ ـ الإصلاح الرَّئيسي الواجب عمله ، هو : البدء بإقامة نظام دولةٍ مركزيَّةٍ دستوريَّةٍ .

وكان نامق كمال يرى : أنَّ حركة التَّنظيمات العثمانيَّة استبدلت بسلطة السَّلاطين سلطة الباب العالي ، أي الصُّدور العظام الوزراء . لذلك فإنَّ النِّظام الَّذي جاءت به التَّنظيمات نظامٌ أقلُّ من النِّظام العثماني القديم . لذلك لم تستطع التَّنظيمات أن تحقِّق نهضةً اقتصاديَّةً في الدَّولة . وفتحت هذه التَّنظيمات الباب على مصراعيه لتدخُّل الدُّول الأوربيَّة في الشُّؤون العثمانيَّة الدَّاخليَّة .

وقد قال نامق كمال بفكرة الحقوق الطَّبيعيَّة الَّتي هي الأساس الفلسفي للحضارة الغربيَّة المعاصرة ، وقدَّم نامق كمال مشروعاً للدُّستور العثماني إلى مدحت باشا ، وكان متأثِّراً بالدُّستور الفرنسي (دستور نابليون الثَّالث عام ١٨٥٢ م) . ورأى نامق كمال : أنَّ هذا هو المناسب تماماً لظروف الدَّولة العثمانيَّة في ذلك الوقت ، وكان

نامق كمال صديقاً لمدحت باشا ، ولذلك تأثَّر بقرار السُّلطان عبد الحميد في عزله وقد تحدَّث السُّلطان عبد الحميد عن نامق كمال في مذكَّراته : (كان كمال بك أكثر مَنْ لفت انتباهي من بين عدَّة أشخاصٍ أطلقوا على أنفسهم « العثمانيُّون الجدد » . كان إِنساناً مضطَّرباً جدَّاً . لا تتوافق حياته العائليَّة مع حياته الخاصَّة ، ولا تتوافق حياته القلميَّة مع حياته الفكريَّة .

يمكن أن تجزم بأنَّ إِنساناً ما ، يستطيع عمل أمرٍ ما ، أو لا يستطيع ، لكنَّك لا تستطيع القطع بهذا بشكلٍ من الأشكال ، وأنت تفكِّر في كمال بك . ذلك لأنَّه هو نفسه لا يعرف نفسه ، تستطيع القول : إِنَّه واحدٌ من الأشخاص النَّادرين ، الَّذين يحيون حياتين مزدوجتين ، كلُّ حياةٍ تختلف عن الأخرى حسب مزاجه . من يعرفونه عن قربٍ يعرفون : أنَّه عندما كان على وئامٍ مع السَّراي كتب (التَّاريخ العثماني) وعندما فسدت هذه العلاقة ، يعرفون : أنَّه قطع رأس التنِّين بقوله : (كلبٌ هو الَّذي يأمن لخدمة صيَّادٍ غير منصف) . إِنَّه إِنسانٌ متقلِّبٌ . ربَّما كان إِنساناً مخلصاً جدَّاً ، يمكنك خلال ساعات أن تجعله يفكِّر مثلك ، ولا يمكنك معرفة عدد السَّاعات ، أو الأيَّام الَّتي سيحمل فيها هذه الأفكار)[١] .

بعد أن وجد السُّلطان عبد الحميد أنَّ جماعة العثمانيِّين الجدد بقيادة مدحت باشا تمارس ضغطاً متواصلاً لقبول أفكارها ، وأجبرته على دخول الحرب العثمانيَّة الرُّوسيَّة ، عمل على تشتيت أعضاء هذه الجمعيَّة ؛ فبدأ بنفي كبيرها وهو الصَّدر الأعظم مدحت باشا . بعد ذلك مباشرةً قامت ضدَّ السُّلطان مؤامرتان لخلعه . واحدةٌ : بقيادة علي سعاوي ، وهو من أعضاء هذه الجمعيَّة . والأخرى : ماسونيَّةٌ قامت بها جمعيَّة كلانتي سكاليري ـ عزيز .

والمؤامرتان مدعومتان من إِنجلترا ، وفشلت كلتاهما ، لكنَّهما جعلتا السُّلطان يتشدَّد في مراقبة الفكر الوافد ، والمتأثِّرين به ، وقامت أثناء ذلك أيضاً خليَّةٌ سرِّيَّةٌ ، من طلاب المدرسة الحربيَّة في إِستانبول من أصحاب الفكر الجديد ، هدفها مقاومة حكم السُّلطان عبد الحميد ، حيث استطاع أحد أعضاء جمعيَّة (كلانتي ـ عزيز بك) الماسونيَّة وهو (علي شفقتي بك) الفرار إِلى نابُولي ، وإِلى جنيف ، حيث أصدر

---

(١) مذكَّرات السُّلطان عبد الحميد ، ص (٤٧) .

بين عامي ١٨٧٩ م و ١٨٨١ م جريدةً مناهضةً للحكم العثمانيِّ ، بعنوان (استقبال) بمعنى المستقبل .

وفي عام ١٨٨٩ م تأسَّست منظَّمةٌ طلابيَّةٌ في المدرسة العسكريَّة الطِّبِّيَّة في إستانبول ، حيث كان بعض الأساتذة هناك يحرِّضون الطُّلاب بشكلٍ ، أو بآخر للقيام بمعارضة الحكم ، ونشر أفكار العثمانيِّين الجدد بين الطُّلاب ، وكان المؤسِّس لهذه المنظَّمة إبراهيم تيمو الرُّوماني الَّذي تأثَّر بالمحافل الماسونيَّة الإيطاليَّة ، وأطلق على هذه المنظَّمة : الاتِّحاد العثماني ، واختاروا يوم الاحتفال بذكرى الثَّورة الفرنسيَّة المئويَّة ، تاريخاً لإنشاء منظَّمتهم ، وجعلوا من أهدافهم مقاومة حكم السُّلطان عبد الحميد ، وتكوين دولةٍ مناسبةٍ لأفكار العصر السِّياسيَّة ، تتَّخذ من الدُّول الغربيَّة نموذجاً لها ، مثل إنجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا ، والمناداة بالدُّستور والحرِّيَّة ، والدِّيمقراطيَّة[١] .

ومن المدرسة العسكريَّة الطِّبِّيَّة سرت أفكار جمعيَّة (الاتِّحاد العثماني) إلى مختلف المدارس العليا الأخرى . وكانت خلايا جمعيَّة الاتِّحاد هذه سرِّيَّةٌ على نظام جمعيَّة (الكاربوناري) الإيطاليَّة .

ولم تكن الجمعيَّة متعجِّلةً ، لا في الدِّعاية لأفكارها ، ولا في الحركة ضدَّ السُّلطان ، حتَّى إنَّ أحمد رضا بك قد وصل إلى منصب مدير إدارة المعارف في منطقة بورصة ، وسافر عام ١٨٨٩ م إلى باريس بحجَّة حضور معرض باريس الدَّولي ، ووصل إلى هناك ، وأعلن أنَّه لن يرجع إلى بلاده . ومكث في فرنسا حوالي ستِّ سنواتٍ ، لم تصدر عنه حركة معارضةٍ جديرةٌ بالتَّسجيل إلى حين أصدر جريدته (مشورات) عام ١٨٩٥ م .

ويذكر مؤسِّس جمعيَّة الاتِّحاد ـ وهو إبراهيم تيمو ـ : أنَّه كان يمضي أوقاته في الخارج ـ حتَّى عام ١٨٩٥ م ـ بمحاولة كسب أعضاء جدد لمنظَّمتهم ، لتربيتهم تربيةً ثوريَّةً ، ويعقد الاجتماعات السِّرِّيَّة ، وقراءة الأعمال الأدبيَّة الَّتي ألَّفها أعضاء جمعيَّة العثمانيِّين الجدد ، مثل نامق كمال ، وضياء باشا ، وقراءة منشورات علي شفقتي بك ـ عضو كلانتي الماسونيَّة ـ وكان فارّاً في أوربَّة[٢] .

---

(١) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، ص (٢٧٩) .
(٢) انظر : مذكَّرات إبراهيم تيمو ، ص (٩) .

ونتيجة للمراسلات السِّرِّيَّة بين أعضاء جمعيَّة الاتِّحاد العثماني السِّرِّيَّة في الدَّاخل ، وفي الخارج تمَّ الاتِّفاق على وحدة العمل العسكريِّ ، والمدنيِّ ضدَّ السُّلطان ، وعلى اعتماد اسم (جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي) للجناحين المعارضين ، العسكري ، والمدني ، اللذين يعملان في إطار الجمعيَّة .

كان اسم الجمعيَّة في الأوساط العسكريَّة هو (الاتِّحاد العثماني) . وكان أحمد رضا بك ـ ممثِّل الجناح المدني ـ متأثِّراً بأفكار الفيلسوف (أوغست كانت) وكان دستور هذا الفيلسوف هو : (الانتظام والتَّرقِّي) . فأخذ أحمد رضا كلمة (التَّرقِّي) استلهاماً من دستور « كانت » واحتفظ العسكريُّون بمسمَّى (الاتِّحاد) ، واتَّفق الجميع أن تكون جمعيَّتهم باسم (الاتِّحاد والتَّرقِّي)(١) .

لقد تغلغلت خلايا (الاتِّحاد والتَّرقِّي) في وحدات الجيش ، وبين موظَّفي الدَّولة من المدنيِّين ، واتَّحدا في العمل الموحَّد بعد اتِّفاق جناحيهما العسكريِّ والمدنيِّ في باريس ، للعمل الفعلي ضدَّ السُّلطان عبد الحميد . واستطاعت الجمعيَّة بالفعل إجبار السُّلطان في ٢٤ يوليو ١٩٠٨ م على إعلان الدُّستور الَّذي كان قد أمر سابقاً عام ١٨٧٧ م بوقف العمل به(٢) .

وكان الفكر السِّياسيُّ لجمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي يؤكِّد على المفاهيم الطُّورانيَّة على المستويين الدَّاخلي ، والخارجي ، والطُّورانيَّة تسمية تشير إلى وطن الأتراك الأصلي ، ونسبته إلى جبل توران الواقع في المنطقة الشَّماليَّة الشَّرقيَّة في إيران(٣) ، وكان داخل حركة الاتِّحاد والتَّرقِّي اتِّجاهٌ قويٌّ يؤكِّد : أنَّ التُّرك هم من أقدم أمم الأرض ، وأعرقها مجداً ، وأسبقها إلى الحضارة ، وأنَّهم هم والجنس المغولي واحدٌ في الأصل ، ويلزم أن يعودوا واحداً ويسمُّون ذلك بالجامعة الطُّورانيَّة ، ولم يقتصروا فيها على التُّرك الَّذين في سيبيريا ، وتركستان ، والصِّين ، وفارس ، والقوقاز ، والأناضول ، وروسيا ، وكان شعارهم عدم التَّديُّن ، وإهمال الجامعة الإسلاميَّة إلا إذا كانت تخدم القوميَّة الطُّورانيَّة ، فتكون عندئذٍ وسيلةً لا غايةً ، وهذا

(١) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، ص (٢٨٠ ، ٢٨١) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٢٨١) .
(٣) انظر : اليهود والدَّولة العثمانيَّة ، ص (١٦٣) .

يعني : أنَّ هذا الاتِّجاه يدعو إِلى إِحياء عقائد التُّرك الوثنيَّة السَّابقة على أسلافهم ، كالوثن التُّركيِّ القديم (بوزقورت) أو الذِّئب الأبيض ـ الأسود الَّذي صوَّروه على طوابع البريد ، ووضعوا له الأناشيد ، وألزموا الجيش أن يصطفَّ لإِنشادها عند كلِّ غروب . وكأنَّهم يحلُّون تحيَّة الذِّئب محلَّ الصَّلاة ، مبالغةً منهم في إِقامة الشُّعور العرقي محلَّ الشُّعور الإِسلامي .

ويستشهد هؤلاء برجالاتهم في التَّاريخ أمثال : أتلاو ، وطغرك ، وجنكيزخان ، وتيمورلنك .

وقد تطرَّف هذا الاتِّجاه في الطُّورانيَّة ؛ إِذ قالوا : (نحن أتراك فكعبتنا طوران) . وهم يتغنَّون بمدائح جنكيز ، ويعجبون بفتوحات المغول ، ولا ينكرون شيئاً من أعمالهم ، وينظِّمون الأناشيد للأحداث في وصف الوقائع الجنكيزيَّة ليطبعوهم على الإِعجاب ، ويرفعوا مستوى نفوسهم بزعيمهم ، ويمثِّل هذا الاتِّجاه كلٌّ مِن : فياكوك ألب[1] يوسف أقثور ، وجلال ساهر ، ويحيى كمال ، وحمد الله صبحي ، ومحمَّد أمين بك الشَّاعر ، وكثيرٌ من الأدباء والمفكِّرين وأكثر الطَّلبة ، والنَّشء الجديد .

وكان تأثير اليهود على الطُّورانيَّة أمراً واضحاً ، وفي هذا الصَّدد يقول نيازي بركس في كتابه (المعاصرة في تركيَّا) :

(إِنَّ لليهود الأوروبيِّين واليهود المحلِّيِّين في الدَّولة العثمانيَّة في القرنين التَّاسع عشر ، والعشرين دوراً ضخماً في إِرساء تيار القوميَّة الطُّورانيَّة ، فالعلماء اليهود في الغرب مثل لومالي دافيد ، وليون كاهون ، وأرمينيوس فاميري تصدَّوا للكتابة عن أصول الفكرة القوميَّة الطُّورانيَّة ، كما أنَّ اليهود المحلِّيِّين في الدَّولة العثمانيَّة ، مثل كراسوا (قراصو) وموئيز كوهين ، وإِبراهام غالانتي ، كان لهم ضلعٌ في جمعيَّة الاتِّحاد ، والتَّرقِّي ، وبمجرَّد أن نجحت هذه الجمعيَّة في الإِطاحة بحكم عبد الحميد ، ومن ثمَّ الاستيلاء على السُّلطة تقدَّم الصَّهاينة إِلى الاتِّحاديِّين برغبتهم في أن تعترف الجمعيَّة بفلسطين وطناً قوميَّاً لليهود . . .)[2] .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٦٥) .

(٢) انظر : العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، ص (١١٩) .

وقد ذكر نيازي بركس في كتابه السَّابق اسم اليهوديّ موئيز كوهين الَّذي وصفه رينيه بيلو قائلاً :

١ ـ إنَّ كوهين هو من مؤسِّسي الفكر القومي الطُّوراني في الدَّولة العثمانيَّة .

٢ ـ إنَّ كتاب موئيز كوهين هو الكتاب المقدَّس للسِّياسة الطُّورانيَّة[١] .

كان اليهوديُّ موئيز كوهين نشطاً جدّاً في التَّعريف بحركة الاتِّحاد والتَّرقِّي في الصُّحف الأوربيَّة ، فقد كان يعرف بجانب العبريَّة ، والتُّركيَّة عدَّة لغاتٍ أوربيَّةٍ ، وبدأ هذا بمقالٍ باللُّغة الفرنسيَّة يحمل عنوان (الأتراك يبحثون عن روحٍ قوميٍّ)[٢] .

لقد أسهم موئيز كوهين في التَّخطيط للسِّياسة العنصريَّة الطُّورانيَّة الَّتي سارت عليها جمعيَّة الاتِّحاد ، والتَّرقِّي ، وهي السِّياسة الَّتي شقَّت شعوب الدَّولة العثمانيَّة ، وأوجدت بينها العداوة ، والبغضاء .

وكان هذا اليهوديُّ لا يكلُّ ، ولا يملُّ في نشر الفكر القوميِّ التُّركي لتفتيت الدَّولة العثمانيَّة . وكتب ثلاثة كتب اعتمدت عند جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي ، وهي : (ماذا يمكن أن يكسب الأتراك من هذه الحرب) و (الطُّوران) و (سياسة التَّتريك) . كما أسهم هذا الكاتب اليهوديُّ في الكتابة للفكر الكمالي بكتابه (الكماليَّة) وكتابه (الرُّوح التُّركيَّة) الَّذي أرَّخ فيه تطوُّر العنصر التُّركي[٣] .

لقد قامت جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي على إثارة المشاعر القوميَّة عند الأتراك ، تحت حلم الطُّورانيَّة ، وقد نادت بمفاهيم جديدة مثل : الوطن ، والدُّستور ، والحرِّيَّة ، وكانت هذه المفاهيم غريبةً على العثمانيِّين ، وقد ضمَّت في صفوفها مجموعةً من الشَّباب المثقَّفين الأتراك ، بالإضافة إلى يهود الدُّونمة ، وكانت الغاية منها الإطاحة بحكم عبد الحميد الثَّاني[٤] .

* * *

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١١٩) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٢٠) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٢٢) .

(٤) انظر : اليهود والدَّولة العثمانيَّة ، ص (١٦٨) .

المبحث الخامس

الإطاحة بحكم السُّلطان عبد الحميد الثَّاني

كان السُّلطان عبد الحميد الثَّاني شديد الحذر من جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي المدعومة باليهود والمحافل الماسونيَّة ، والدُّول الغربيَّة ، واستطاع جهاز مخابرات السُّلطان عبد الحميد أن يتعرَّف على هذه الحركة ، ويجمع المعلومات عنها ؛ إلا أنَّ هذه الحركة كانت قويَّةً ، وقد جاءت مراقبة عبد الحميد لأعضاء هذه الحركة في وقتٍ متأخِّرٍ ، حيث دفعوا الأهالي إلى مظاهراتٍ صاخبةٍ في سلانيك ، ومناستر ، وأسكوب ، وسوسن مطالبين بإعادة الدَّستور ، بالإضافة إلى أنَّ المتظاهرين هدَّدوا بالزَّحف على القسطنطينيَّة . الأمر الَّذي أدَّى بالسُّلطان إلى الخضوع لمطالب المتظاهرين حيث قام بإعلان الدُّستور ، وإحياء البرلمان ، وذلك في ٢٤ تمُّوز ١٩٠٨ م ، وكانت هناك عدَّة أسباب جعلت من جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي تبقي السُّلطان عبد الحميد الثَّاني في تلك الفترة على العرش منها :

١ ـ لم تكن في حوزة الاتِّحاد والتَّرقِّي القوَّة الكافية لعزله في عام ١٩٠٨ م .

٢ ـ اتِّخاذ عبد الحميد الثَّاني سياسة المرونة معهم ، وذلك بتنفيذ رغباتهم بإعادة الدُّستور .

٣ ـ ولاء العثمانيِّين لشخص السُّلطان عبد الحميد . وهذه النُّقطة واضحةٌ ، حيث إن لجنة الاتِّحاد والتَّرقِّي لم تكن لها الجرأة الكافية على نشر دعايتها ضدَّ السُّلطان عبد الحميد الثَّاني بين الجنود ، لأنَّ هؤلاء كانوا يبجِّلون السُّلطان(١) .

إنَّ الصَّهيونيَّة العالميَّة لم تقتصر على الانقلاب الدُّستوري لعام ١٩٠٨ م ، بل تعاونت مع جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي لتحقيق مكاسب أخرى في فلسطين ، وعليه كان لا بدَّ من التَّخلُّص من السُّلطان عبد الحميد الثَّاني نهائيّاً ، ولذلك دبرت أحداث

(١) انظر : اليهود والدَّولة العثمانيَّة ، ص (١٦٨) .

٣١ أبريل ١٩٠٩ م في إستانبول ، وترتَّب على أثرها اضطرابٌ كبيرٌ ، قُتل فيه بعض عسكر جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي ، عرف الحادث في التَّاريخ باسم حادث ٣١ مارت .

وقد حدث هذا الاضطراب الكبير في العاصمة بتخطيطٍ أوربيٍّ يهوديٍّ ، مع رجال الاتِّحاد والتَّرقِّي ، وتحرَّك على أثره عسكر الاتِّحاد والتَّرقِّي من سلانيك ، ودخل إستانبول ، وبهذا تمَّ عزل خليفة المسلمين السُّلطان عبد الحميد الثَّاني من كلِّ سلطاته المدنيَّة والدِّينيَّة . ثمَّ وجَّهت إليه جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي التُّهم التَّالية :

١ ـ تدبير حادث ٣١ مارت .

٢ ـ إحراق المصاحف .

٣ ـ الإسراف .

٤ ـ الظُّلم ، وسفك الدِّماء[١] .

مع أنَّ جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي العثمانيَّة تبنَّت الأفكار الغربيَّة المضادَّة للإسلام ، وللفكر الإسلامي ؛ لكنَّها استغلَّت الدِّين عند مخاطبتها للنَّاس للتَّأثير فيهم ، وكسب أنصارٍ لهم في معركتهم ضدَّ السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، وقد نجحوا في ذلك .

تقول الجمعيَّة في بياناتها إلى العثمانيِّين : (أيُّها العثمانيُّون : إنَّ مقصدنا هو سلامة الدَّولة ، والخلافة ، ولم يعد أحدٌ يجهل هذا)، (وبعون الباري وهمَّة الإخوان) و (أيُّها المسلمون : كفانا أن نقوم بدور المتفرِّج على سلطان جبَّارٍ ، عديم الإيمان ، يسحق القرآن تحت أقدامه ، وكذلك يسحق الضَّمير والإيمان) و (استيقظوا يا أمَّة محمَّد !) و (الشَّجاعة الشَّجاعة يا مسلمون ! الشَّجاعة منَّا والعون من الله ، نصرٌ من الله وفتحٌ قريبٌ) و (أيُّها المسلم الموحِّد ! اقرأ باسم ربِّك) و (انهض أيُّها المسلم الموحِّد ! وأنقذ دينك ، وإيمانك من يد الظَّالمين . وأنقذ بذلك نفسك ! فهنا شيطانٌ جبَّارٌ يحمل فوق رأسه تاجاً . وفي يده دينك ، وإيمانك . فأنقذ دينك منه ، وإيمانك أيُّها الموحِّد) و (يا أيُّها المسلمون ! إنَّ السُّلطان عبد الحميد ـ شرعاً ـ ليس بسلطانٍ ، ولا خليفةٍ ! ومن لا يصدِّق قولنا هذا : فلينظر في الكتَّاب والسُّنَّة . لقد أبرزت جمعيَّتنا بالآيات القرآنيَّة ، والأحاديث

---

(١) انظر : العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، ص (٥٠) .

النَّبويَّة ، وأوامر الله ، وأوامر الرَّسول الموجَّهة إلى الحكومة والأهالي .

لكنَّ السُّلطان عبد الحميد أشاح بوجهه بعيداً عن أوامر الله ، وأوامر الرَّسول . وبالتَّالي : أثبت ظلمه ، ولم يخجل من الاعتراض على الله ؛ لذلك ينبغي على شعبنا أن يلجأ إلى السِّلاح ضدَّه ، وإذا لم يفعل الشَّعب هذا ، فليتحمَّل إذاً وزر ما عليه السُّلطان عبد الحميد من ظلم)[١] .

لقد كان الفكر الحاكم في اتِّجاهات جمعيَّة (الاتِّحاد والتَّرقِّي) ، هو : الماسونيَّة ، وهي لا تعترف بالأديان ، والفلسفة الوضعيَّة (العقلانيَّة ، وهي تنفي الدِّين) والعلمانيَّة (وهي تبعد الدِّين عن الحياة) ، ومع ذلك استخدم الثُّوَّار الاتِّحاديُّون الدِّين لمحاربة السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، وافتروا عليه باسم الدِّين[٢] .

إنَّ التُّهم الَّتي وجِّهت للسُّلطان عبد الحميد الثَّاني لا تثبت أمام البحث العلميِّ ، والحجج والبراهين الدَّالَّة على براءته الكلِّيَّة ممَّا ينسب إليه ، فقد أثبتت الأدلَّة عدم علم السُّلطان عبد الحميد بحادث ٣١ مارت ، كما أنَّه (من المحال إحراق السُّلطان عبد الحميد للمصاحف ، فهو سلطانٌ معروفٌ بتقواه ، ولم يعرف عنه تركه للصَّلاة وإهماله للتَّعبُّد ، كما أنَّه معروفٌ بعدم إسرافه ، ولأنَّه لا يعرف الإسراف فقد كان المال يتوفَّر معه دائماً ، ولذلك فقد أزاح عن كاهل الدَّولة أعباءً كثيرةً من ماله الخاصِّ) . وعن ظلمه وسفكه للدِّماء فلم يعرف عن السُّلطان عبد الحميد هذا ، وسفك الدِّماء لم يكن أبداً ضمن سياسته[٣] .

ولم يغبْ عن بال الانقلابيِّين الضَّغط على مفتي الإسلام محمَّد ضياء الدِّين بإصدار فتوى الخلع ، ففي يوم الثُّلاثاء السَّابع والعشرين من شهر نيسان عام ١٩٠٩ م اجتمع ٢٤٠ عضواً من مجلس الأعيان في جلسةٍ مشتركةٍ قرَّروا بالاتِّفاق خلع السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، وكتب مسوَّدة الفتوى الشَّيخ نائب حمدي أفندي المالي ، لكنَّ أمين الفتوى نوري أفندي الَّذي دعي للاجتماع رفض هذه المسوَّدة ، وهدَّد بالاستقالة من منصبه إن لم يجر تعديلٌ عليها ، وأيَّده في التَّعديل عددٌ من

---

(١) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، ص (٢٨٢ ، ٢٨٣) .
(٢) انظر : المصدر السَّابق ، ص (٢٨٣) .
(٣) انظر : العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، ص (٥٠) .

أنصاره من النُّوَّاب ، فعدَّل القسم الأخير على أن يقرِّر مجلس « المبعوثان » عرض التَّنازل عن العرش ، أو خلعه .

وإليكم نصُّ الفتوى :

(الموقع عليها من شيخ الإسلام محمَّد ضياء الدِّين أفندي ، ووافق عليها مجلس « المبعوثان » بالإجماع « إذا قام إمام المسلمين زيد فجعل ديدنه طيَّ وإخراج المسائل الشَّرعيَّة المهمَّة من الكتب الشَّرعيَّة ، وجمع الكتب المذكورة والتَّبذير ، والإسراف من بيت المال ، واتِّفاقيَّة خلاف المسوِّغات الشَّرعيَّة ، وقتل ، وحبس ، وتغريب الرَّعيَّة بلا سببٍ شرعيٍّ وسائر المظالم الأخرى ، ثمَّ أقسم على الرُّجوع عن غيِّه ، ثمَّ عاد ، فحنث ، وأصرَّ على إحداث فتنةٍ ليخلَّ بها وضع المسلمين كافَّة ، فورد من المسلمين من كلِّ الأقطار الإسلاميَّة بالتَّكرار ما يشعر باعتبار زيدٍ هذا مخلوعاً فلوحظ أنَّ في بقائه ضرراً محقَّقاً ، وفي زواله صلاحاً ، فهل يجب على أهل الحلِّ ، والعقد ، وأولياء الأمور أن يعرضوا على زيدٍ المذكور التَّنازل عن الخلافة ، والسَّلطنة ، أو خلعه من قبلهم . الجواب : نعم يجب)[1] .

قُرئت هذه الفتوى في الاجتماع المشترك للمجلس الملِّي ، فصرخ النُّوَّاب الاتِّحاديُّون : نريد خلعه ، وبعد مداولاتٍ تمَّت الموافقة على خلع السُّلطان عبد الحميد الثَّاني[2] .

وبتكليفٍ من جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي تمَّ تكوين لجنة لإبلاغ خليفة المسلمين ، وسلطان الدَّولة العثمانيَّة عبد الحميد الثَّاني بقرار خلعه . وكانت هذه اللِّجنة تتألَّف من :

١ ـ إيمانويل قراصو : وهو يهوديٌّ إسبانيٌّ ، كان من أوائل المشتركين في حركة تركيَّا الفتاة ، وكان مسؤولاً أمام جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي عن إثارة الشَّغب ، وتحريضه ضدَّ السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، وتأمين التَّخابر بين سلانيك ، وإستانبول فيما يتعلَّق باتِّصالات الحركة . وقراصو هذا محامٍ ، عملت جمعيَّة

---

(١) انظر : صحوة الرَّجل المريض ، ص (٤١٠) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٤١٠) .

الاتِّحاد والتَّرقِّي بنجاحٍ على تعيينه في المجلس النِّيابيِّ العثماني نائباً عن سلانيك مرَّةً ، وعن إستانبول مرَّتين . وصفته المصادر الإنجليزيَّة بأنَّه من قادة الاتِّحاد والتَّرقِّي . عمل أثناء الحرب مفتِّشاً للإعاشة ، واستطاع أثناء وجوده في هذا المنصب أن يجمع أموالاً كثيرةً لحسابه الخاصِّ ، ولعب دوراً هامَّاً في احتلال إيطاليا لليبيا نظير مبلغ من المال دفعته إليه إيطاليا . واضطرَّ نتيجةً لخيانته للدَّولة أن يهرب إلى إيطاليا ويحصل على حقِّ المواطنة الإيطاليَّة ، واستقرَّ في تريسنا حيث مات عام ١٩٣٤ م . وكان أثناء وجوده في الدَّولة العثمانيَّة الأستاذ الأعظم لمحفل مقدونيا يزولتا الماسوني .

٢ ـ آرام : وهو أرمني عضو في مجلس الأعيان العثماني .

٣ـ أسعد طوبطاني : وهو ألباني ، نائب في مجلس المبعوثان عن منطقة دراج .

٤ ـ عارف حكمت: وهو فريق بحري عضو مجلس الأعيان، وهو كرجي العراق[١].

يروي السُّلطان عبد الحميد في مذكَّراته تفاصيل هذه الحادثة ، فيقول : (إنَّ ما يحزنني ليس الإبعاد عن السُّلطة ، ولكنَّها المعاملة غير المحترمة الَّتي ألقاها بعد كلمات أسعد باشا هذه ، والَّتي خرجت عن كلِّ حدود الأدب ، حيث قلت لهم : إنَّني أنحني للشَّرعيَّة ، ولقرار مجلس المبعوثان ، وذلك تقدير العزيز العليم ، سوى أنِّي أوكِّد بأنَّه لم يكن لي أدنىٰ علاقةٍ لا من بعيدٍ ولا من قريبٍ بالأحداث الَّتي تفجَّرت في ٣١ مارت ، ثمَّ أردف قائلاً : (إنَّ المسؤوليَّة الَّتي تحملتموها ثقيلةٌ جدَّاً) . ثمَّ أشار عبد الحميد إلى قرصو قائلاً : (ما هو عمل هذا اليهودي في مقام الخلافة[٢] ؟ وبأيِّ قصدٍ جئتم بهذا الرَّجل أمامي ؟)[٣] .

لقد اعتبر اليهود ، والماسونيُّون هذا اليوم عيداً لهم ، وابتهجوا به ، وساروا بمظاهرةٍ كبيرةٍ في مدينة سلانيك ، ولم يكتفِ الماسونيُّون بذلك بل طبعوا صورة

---

(١) انظر : العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، ص (٥١) .
(٢) انظر : اليهود والدَّولة العثمانيَّة ، ص (٢١٩) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٢٢٠) .

هذه المظاهرات في بطاقاتٍ بريديَّةٍ ، لتباع في أسواق تركيَّا العثمانيَّة ، ولمدَّة طويلةٍ . لقد كان الاتِّحاديُّون يفتخرون دائماً بأنَّهم ماسونيُّون . وقد أدلىٰ رفيق مانياسي زادة بتصريحاتٍ إلى صحيفة تمبس الفرنسيَّة في باريس عقب نجاح انقلاب حركة الاتِّحاد والتَّرقِّي ، حيث جاء فيها : (. . . لقد كانت للمساعدات الماليَّة ، والمعنويَّة الَّتي تلقَّيناها من الجمعيَّة الماسونيَّة الإيطاليَّة الَّتي أمدَّتنا بالعون العظيم نظراً لارتباطنا الوثيق بها)[١] .

إنَّ هذه العلاقة بين الصَّهيونيَّة والماسونيَّة وضَّحها السُّلطان عبد الحميد الثَّاني في الرِّسالة الَّتي وجَّهها إلى الشَّيخ محمود أبي الشَّامات شيخه في الطَّريقة الشَّاذليَّة بعد خلعه ، وذلك في سنة ١٣٢٩ هـ[٢] وقد جاء في هذه الرِّسالة :

(إنَّ هؤلاء الاتِّحاديِّين قد أصرُّوا عليَّ بأن أصادق على تأسيس وطنٍ قوميٍّ لليهود في الأرض المقدَّسة (فلسطين) ورغم إصرارهم ، لم أقبل بصورةٍ قطعيَّةٍ هذا التَّكليف ، وأخيراً وعدوا بتقديم مئةٍ وخمسين مليون ليرة إنكليزيَّة ذهباً ، فرفضت هذا التَّكليف بصورةٍ قطعيَّةٍ أيضاً ، وأجبتهم بهذا الجواب القطعي : (إنَّكم لو دفعتم ملء الدُّنيا ذهباً ، فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجهٍ قطعيٍّ ، لقد خدمت الملَّة الإسلاميَّة ، والأمَّة المحمَّديَّة ما يزيد على ثلاثين سنة فلن أسوِّد صحائف المسلمين) . وبعد جوابي هذا اتَّفقوا على خلعي ، وأبلغوني : أنَّهم سيبعدونني إلى سلانيك ، فقبلت بهذا التَّكليف الأخير . هذا وحمدت المولى ، وأحمده أنَّني لم أقبل بأن ألطِّخ العالم الإسلامي بهذا العار الأبدي النَّاشىء عن تكليفهم بإقامة دولةٍ يهوديَّةٍ في الأراضي المقدَّسة فلسطين)[٣] .

وفي مقالٍ نشر في جريدة (بويوك ضوغو) التُّركيَّة في ٢ مايو عام ١٩٤٧ م العدد ٦١ يقول (محرم فوزي طوغاي) تحت عنوان (فلسطين والمسألة اليهوديَّة) الآتي :

(منع السُّلطان عبد الحميد تحقيق هدف إنشاء دولةٍ يهوديَّةٍ في فلسطين ، وكلَّف هذا المنع السُّلطان عبد الحميد غالياً ، وأودى بعرشه ، وأدَّى هذا فيما بعد

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٢٢١) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٢٢٣) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .

إلى انهيار الدَّولة العثمانيَّة كلِّها) . رغم أنَّه كان يدرك ـ كما قال نظام الدِّين لبه دنخلي أوغلو ـ في دراسته عن دور اليهود في هدم الدَّولة العثمانيَّة : أنَّ (اليهود يمتلكون قوىً كثيرةً تستطيع النَّجاح في العمل المنظَّم ، فالمال كان عندهم ، والعلاقات التِّجاريَّة الدَّوليَّة كانت في أيديهم ، كما كانوا يمتلكون الصَّحافة الأوربيَّة ، والمحافل الماسونيَّة)(١) .

إنَّ بعض أقطاب حركة الاتِّحاد والتَّرقِّي اكتشفوا فيما بعد أنَّهم قد وقعوا تحت تأثير الماسونيَّة والصَّهيونيَّة ، فهذا أنور باشا الَّذي لعب دوراً مهمّاً في انقلاب عام ١٩٠٨م ، يقول في حديثٍ له مع جمال باشا أحد أركان جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي : (أتعرف يا جمال ما هو ذنبنا ؟) وبعد تحسُّرٍ عميقٍ قال : (نحن لم نعرف السُّلطان عبد الحميد ، فأصبحنا آلةً بيد الصَّهيونيَّة ، واستثمرتنا الماسونيَّة العالميَّة ، نحن بذلنا جهودنا للصَّهيونيَّة ، فهذا ذنبنا الحقيقي)(٢) .

وفي هذا المعنى ، يقول أيُّوب صبري قائد الاتِّحاديِّين العسكريِّين : (لقد وقعنا في شرك اليهود ، عندما نفَّذنا رغبات اليهود عن طريق الماسونيِّين لقاء صفيحتين من اللِّيرات الذَّهبيَّة ، في الوقت الَّذي عرض فيه اليهود ثلاثين مليون ليرةً ذهبيَّةً على السُّلطان عبد الحميد لتنفيذ مطالبهم ، إلا إنَّه لم يقبل بذلك)(٣) .

ويقول في هذا الصَّدد برنارد لويس : (لقد تعاون الأخوة الماسونيُّون واليهود بصورةٍ سرِّيَّةٍ على إزالة السُّلطان عبد الحميد ، لأنَّه كان معارضاً قويّاً لليهود ؛ إذ رفض بشدَّةٍ إعطاء أيِّ شبر أرضٍ لليهود في فلسطين)(٤) .

وقد علَّق نجم الدِّين أربكان المجاهد الكبير زعيم حزب الرَّفاه في تركيَّا على هذا الموضوع قائلاً : (إنَّ الحركة الماسونيَّة سعت سعياً شديداً لعزل السُّلطان عبد الحميد ، ونجحت في سعيها ، وإنَّ أوَّل محفلٍ فتح في تركيَّا العثمانيَّة كان على يد أميل قره صو ، وهو صهيونيٌّ ، وقد انضمَّ إليه ضبَّاط منطقة سالونيكا . .)(٥) .

---

(١) انظر : السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، ص (٨٨) .
(٢) انظر : اليهود والدَّولة العثمانيَّة ، ص (٢٢٨) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٢٢٩) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه .
(٥) المصدر السَّابق نفسه .

بعد إبعاد عبد الحميد الثَّاني من السُّلطة ، عبرت الصُّحف اليهوديَّة في سلانيك عن غبطتها في الخلاص من (مضطَّهد إسرائيل) كما وصفته هذه الصُّحف . وفي هذا الصَّدد يقول لوثر : (وبعد إبعاد عبد الحميد من السُّلطة ، عبَّرت الصُّحف اليهوديَّة في سلانيك عن غبطتها ، وأخذت تزفُّ البشائر بالخلاص من (مضطَّهد إسرائيل) الَّذي رفض استجابة طلب هرتزل لمرَّتين ، والَّذي وضع جواز السَّفر الأحمر الَّذي يقابل عندنا قانون الأجانب)(١) .

واستمرَّت الحملات الإعلاميَّة المنظَّمة تشهر تشهيراً عنيفاً بالسُّلطان عبد الحميد الثَّاني . استهدف أعداء الإسلام من تلك الحملات :

١ ـ الدِّفاع عن أعضاء الاتِّحاد والتَّرقِّي ، مبرِّرين تصرُّفهم في إنهاء حكم السُّلطان عبد الحميد كي تستردَّ الدَّولة مكانتها .

٢ ـ تغطية فشل الاتِّحاد والتَّرقِّي في حكم الدَّولة ، فقد لجأ رجال الاتِّحاد والتَّرقِّي إلى القوَّة والاستبداد ، وأثاروا الفرقة بين سكَّان البلاد .

٣ ـ إبراز صورةٍ مشرقةٍ لعهد الطَّاغية الملحد مصطفى كمال أتاتورك ، وأعوانه ، وتبرير تصرُّفات عملاء اليهود ، والإنجليز ، والدُّول الغربيَّة في إلغاء الخلافة والسَّلطنة ، وإعلان الجمهوريَّة التُّركيَّة .

٤ ـ رغبة الصَّهاينة في تدمير سيرة السُّلطان عبد الحميد الثَّاني انتقاماً منه لسياسته المعادية لأهدافهم في فلسطين(٢) .

وحقيقة الأمر أنَّه لولا أصالة الدَّولة العثمانيَّة، وعراقتها، وشموخها؛ لأصبحت هباء منبثَّاً ، وطويت صفحاتها في القرن الثَّامن عشر ، أو القرن التَّاسع عشر ، ولكنَّها ظلَّت تقاوم عوادي الزَّمن أكثر من قرنين نتيجةً للزَّحف الاستعماري ، والكيد اليهودي ، والنَّخر الماسوني ، والضَّعف الشَّديد الَّذي انتاب الدَّولة ، وهو ضعفٌ لم يكن السُّلطان عبد الحميد مسؤولاً عنه ، وغدت ممتلكات الدَّولة نهباً بين الدُّول الأوربيَّة الاستعماريَّة، الَّتي كانت تخطِّط منذ زمنٍ بعيدٍ للقضاء على الدَّولة(٣) .

* * *

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٢٣٠) .
(٢) انظر : الدَّولة العثمانيَّة ، د . الشِّنَّاوي (٢/ ١٠١٨ ـ ١٠٢٣) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه (٢/ ١٠٦١) .

المبحث السَّادس

حكم الاتِّحاديِّين
ونهاية الدَّولة العثمانيَّة

تولَّى السَّلطنة ، والخلافة بعد السُّلطان عبد الحميد الثَّاني أخوه محمَّد رشاد ، إلا أنَّه في الحقيقة لا يملك أيَّ سلطةٍ فعليَّةٍ ، وإنَّما السُّلطة أصبحت بيد جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي ، وغدت الحكومة العثمانيَّة تركيَّة في مضمونها ، قوميَّة في عصبيَّتها ، بينما كانت مِنْ قَبْلُ عثمانيَّةً في مضمونها ، وإسلاميَّةً في رابطتها . فقد تأثَّرت هذه الجمعيَّة بقوَّة الأفكار القوميَّة الطُّورانيَّة الَّتي تدعو إلى تحرير كلِّ الأتراك ، مدَّعين : أنَّ الشُّعوب الإسلاميَّة في الأناضول ، وآسيا الوسطى تشكِّل أمَّة واحدةً ، وفي الأفكار الَّتي تطوَّرت أخيراً بمجهودات بعض كتَّاب الجمعيَّة ، وعلى رأسها موئيز كوهين اليهوديُّ ، والكاتب التُّركيُّ الشَّهير ضيا كوك آلب ؛ فاتَّبعت سياسة التَّتريك ، وذلك بجعل اللُّغة التُّركيَّة هي اللُّغة الرَّسميَّة الوحيدة ، وإن كانت تقف اللُّغة العربيَّة إلى جانبها . فتأجَّجت حركة الدَّعوة إلى القوميَّة العربيَّة في مواجهة حركة التَّتريك .

كوَّن العرب حزب اللامركزيَّة ، وتعني أن تأخذ الولايات غير التُّركيَّة استقلالاً ذاتيّاً ، وتبقى خاضعةً خارجيّاً لإستانبول ، كما كوَّنوا جمعيَّاتٍ سرِّيَّةً مثل الجمعيَّة القحطانيَّة برئاسة عبد الكريم الخليل ، والضَّابط عزيز علي المصري ، والجمعيَّة العربيَّة الفتاة الَّتي تشكَّلت في باريس عام ١٣٢٩ هـ على منهج جمعيَّة تركيَّا الفتاة ، ومن قبل طلاب يدرسون هناك ، تشبَّعوا بالأفكار الغربيَّة وخاصَّةً مبادىء العصبيَّة القوميَّة ، واستعمل بعضهم المصطلحات الماسونيَّة ، وكان قصدهم : استقلال العرب التَّامّ ، وقد نقلوا مقرَّهم من باريس إلى بيروت ، ثمَّ إلى دمشق حيث ازداد عدد الأعضاء ، وخاصَّةً من النَّصارى العرب .

وتكوَّنت الجمعيَّة الاصطلاحيَّة في بيروت عام ١٣٣١ هـ وتعاونت مع جمعيَّة النَّهضة اللُّبنانيَّة في المهجر ، فقدَّمتا رسالةً مشتركةً إلى حكومة فرنسا عام ١٣٣١ هـ

التمستا فيها منها احتلال سورية ، ولبنان ، بينما اتَّجه بعض مثقَّفي العراق نحو الإنجليز ، وأيَّد لبعضهم إقامة إشراف بريطاني على برامج الإصلاح ، بل وحتَّى إلى بسط الحماية البريطانيَّة على البلاد[١] .

ولمَّا بطش الاتِّحاديُّون بأعضاء الجمعيَّات العربيَّة ، قامت العربيَّة الفتاة بعقد مؤتمرٍ عربيٍّ في باريس سنة ١٣٣٢ هـ/ ١٩١٣ م ، وقد هيَّأ الفرنسيُّون المكان المناسب لعقد الاجتماع ، وقرَّر المؤتمرون :

١ ـ ضرورة تنفيذ الإصلاح بسرعة .

٢ ـ إشراك العرب بالإدارة المركزيَّة .

٣ ـ جعل اللُّغة العربيَّة لغةً رسميَّةً في كلِّ الولايات العربيَّة .

٤ ـ جعل الخدمة العسكريَّة محلِّيَّةً بالنِّسبة للعرب إلا حين الضَّرورة .

٥ ـ التَّعاطف مع مطالب الأرمن .

وأكَّد الأعضاء بأنَّ حركتهم لا دينيَّة ، وتعادل عدد النَّصارى مع عدد المسلمين في المؤتمر ، وكان برئاسة عبد الحميد الزَّهراوي[٢] .

وقد علَّقت فرنسا آمالاً كبيرةً على المؤتمر ، وكان لها العديد من الأنصار في داخله ، ثمَّ قامت بنشر مقرَّراته .

ولمَّا قامت الحرب العالميَّة الأولى (١٣٣٣ ـ ١٣٣٧ هـ/ ١٩١٤ ـ ١٩١٨ م) دخلت تركيَّا الحرب إلى جانب دول الوسط « ألمانيا ، والنِّمسا » في حين تمكَّن الإنجليز « بمراسلات الحسين مكماهون » من جرِّ العرب إلى جانب الحلفاء « بريطانيا ، وفرنسا ، وروسيا » فسادت فكرة القوميَّة العربيَّة ، ووقع الصِّدام بين العرب والتُّرك[٣] .

وسقطت تركيَّا بعد هزيمتها في الحرب ، واحتلَّ الحلفاء ، واليونان أجزاء منها ، ووقعت الآستانة تحت سيطرة الإنجليز ، وأصبح الخليفة كالأسير فيها .

---

(١) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، د . علي حسُّون ، ص (٢٤٩) .

(٢) انظر : حاضر العالم الإسلامي . د . جميل المصري (١/ ١٠٩) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه ، (١/ ١١٠) .

إنَّ خلع السُّلطان عبد الحميد ، وقيام جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي في الحكم كانت خطوةً أساسيَّةً نحو تحقيق المخطَّط الَّذي تمَّ أثناء الحرب ، وبعد الحرب في مراحل نلخِّصها فيما يلي :

١ ـ اتِّفاق الحلفاء على تقسيم العالم الإسلامي الخاضع للدَّولة العثمانيَّة بين الحلفاء ، تجلَّى ذلك في معاهدة سايكس بيكو سنة ١٣٣٤ هـ/ ١٩١٦ م السِّرِّيَّة في الوقت الَّذي وُعِدَ فيه العرب بالاستقلال . وأهمُّ ما تضمَّنته هذه المعاهدة :

● أن يكون جنوب العراق لبريطانيا ، وساحل سورية الشَّمالي (لبنان ، والسَّاحل الشَّمالي من سورية) لفرنسا .

● تتكوَّن دولتان عربيَّتان شمال العراق ، وأواسط بلاد الشَّام ، وجنوبها ، يكون النُّفوذ في الأولىٰ الَّتي تشمل شمال العراق ، وشرق الأردن لبريطانيا ، والنُّفوذ في الثَّانية الَّتي تشكِّل أواسط سورية ، والجزيرة الفراتيَّة لفرنسا .

● تكون فلسطين دوليَّةً .

● تكون الآستانة والمضائق (البسفور ، والدَّردنيل) لروسيا[(١)] .

٢ ـ وعد بلفور الَّذي أصدرته بريطانيا للصَّهيونيَّة في ٢/ ١١/ ١٩١٧ م (محرَّم ١٣٢٦ هـ) بأن تكون فلسطين وطناً قوميّاً لليهود .

٣ ـ تسليم تركيَّا لأبشع حركة تغريب وتدمير للقيم الإسلاميَّة بنقلها من دولةٍ ذات طابعٍ إسلاميٍّ إلى دولةٍ غربيَّة الطَّابع ، فيمكن القول بأنَّ الفترة الَّتي بدأت في تركيَّا بخلع السُّلطان عبد الحميد ، وتولِّي الاتِّحاديِّين للحكم هي الفترة الَّتي اجتمعت فيها إرادة الحاكمين والاستعمار على تصفية الدَّولة العثمانيَّة ، وإبراز طابع الجامعة الطُّورانيَّة ، وإبلاغ العلاقة بين التُّرك والعرب أشدَّ مراحلها عنفاً وقسوةً ممَّا مهَّد إلى زوال الدَّولة ، والتهام الغرب للأجزاء العربيَّة ، ومنح اليهود وعد بلفور الَّذي يعطيهم الحقَّ في إقامة دولة فلسطين[(٢)] .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

فقد قام الاتِّحاديُّون بتوجيه الدَّولة وجهةً قوميَّةً لا دينيَّةً ، ولمَّا احتلَّ الإنجليز إستانبول (الآستانة) وأصبح الخليفة شبه أسير في أيديهم ، وأصبح المندوب السَّامي البريطاني والجنرال هازنجتون (القائد العامُّ لقوَّات الحلفاء في إستانبول) هما أصحاب السِّيادة الفعليَّة[١] .

وكانت اللُّعبة العالميَّة للقضاء على الخلافة العثمانيَّة نهائيَّاً تستدعي اصطناع بطل تتراجع أمامه جيوش الحلفاء الجرَّارة وتعلِّق المِلَّة الإسلاميَّة اليائسة فيه أملها الكبير ، وحلمها المنشود ، وفي أوج عظمته وانتفاخه ينقض على الرَّمق الباقي في جسم الأمَّة فينهشه ، ويجهز عليها ، وهذا أفضل قطعاً من كلِّ الـ « مئة مشروع لتقسيم تركيَّا » وهدم الإسلام[٢] .

وتمَّت صناعة البطل بواسطة المخابرات الإنجليزيَّة بنجاحٍ باهرٍ ، وظهر مصطفى كمال بمظهر المنقذ لشرف الدَّولة من الحلفاء ، واليونان الَّذين احتلُّوا أزمير بتمكينٍ من بريطانيا سنة ١٣٣٨ هـ وتوغَّلوا في حقدٍ صليبيٍّ دفينٍ في الأناضول ، فقام مصطفى كمال باستثارة روح الجهاد في الأتراك ، ورفع القرآن ، وردَّ اليونانيِّين على أعقابهم ، وتراجعت أمامه قوَّات الحلفاء بدون أن يستعمل أسلحته ، وأخلت أمامه المواقع ، وبدأ مصطفى كمال يطفو على السَّطح تدريجيَّاً ، فقد ابتهج العالم الإسلامي وأطلق عليه لقب الغازي ، ومدحه الشُّعراء ، وأشاد به الخطباء .

فأحمد شوقي قرنه بخالد بن الوليد في أوَّل بيتٍ من قصيدةٍ مشهورةٍ[٣] :

اللهُ أَكْبَرُ كَمْ فِي الْفَتْحِ مِنْ عَجَبِ ... يَا خَالِدَ التُّرْكِ جَدِّدْ خَالِدَ الْعَرَبِ

ثُمَّ يجعله في مصافِّ صلاح الدِّين الأيُّوبيِّ حين يقول :

حَذَوْتَ حَرْبَ الصَّلاحِيِّينَ في زَمنٍ ... فِيْهِ القِتَالُ بِلا شَرْعٍ وَلا أَدَبِ

وشبَّه انتصاره بانتصار بدرٍ ، فيقول :

يَوْمٌ كَبَدْرٍ فَخَيْلُ الْحَقِّ رَاقِصَةٌ ... عَلَى الصَّعِيْدِ وَخَيْلُ اللهِ في السُّحُبِ

---

(١) المصدر السَّابق نفسه (١/١١١) .
(٢) انظر : العلمانيَّة . د . سفر الحوالي ، ص (٥٦٩) .
(٣) انظر : حاضر العالم الإسلامي (١/١١١) .

تَهْيِئَـــةٌ أَيُّهَـــا الغَـــازِي وَتَهْنِئَـــةٌ بِـآيَـةِ الْفَتْـحِ تَبْقَـى آيَـةُ الحُقُـبِ(١)

فكان النَّاس إذا قارنوا كفاح مصطفى كمال المظفَّر باستسلام الخليفة وحيد الدِّين محمَّد السَّادس القابع في الآستانة مستكيناً لما يجري عليه من الذُّلِّ ؛ كبر في نظرهم الأوَّل بمقدار ما يهون الثَّاني ، وزاد في سخطهم على الخليفة ما تناقلته الصُّحف بإهدار دم مصطفى كمال واعتباره عاصياً متمرِّداً ، ولم يكن مصطفى كمال في نظرهم إلا بطلاً مكافحاً ، يغامر بنفسه لاستعادة مجد الخلافة ؛ الَّذي خيِّل إليهم : أنَّ الخليفة يمرِّغه في التُّراب تحت أقدام الجيوش المحتلَّة .

ولكنَّه لم يلبث غير قليلٍ حتَّى ظهر على حقيقته صنيعةً لأعداء الإسلام من اليهود والنَّصارى ، وخاصَّةً إنجلترا الَّتي رأت أنَّ إلغاء الخلافة ليس بالأمر الهيِّن ، وأنَّ ذلك لا يمكن أن يتمَّ إلا باصطناع بطلٍ ، وإعطائه صورةً عظيمةً ، وإظهار هالةٍ حوله ، وتصويره ، وكأنَّ الكرامات تجري على يديه ، وعندها يمكن توجيه الطَّعنة على يديه بلا ألمٍ عميقٍ ؛ إذ الشُّعور قد تخدَّر من نشوة الانتصارات الزَّائفة ، فالحلفاء أنفسهم هم الَّذين اصطنعوا القلاقل ، وطلبوا من السُّلطان إخمادها ، واقترحوا اسم مصطفى كمال لتلك المهمَّة ليصبح محطَّ آمال النَّاس وموضع تقدير ضبَّاط الجيش ، فتتصاعد مكانته ، وهيبته ، وتتدهور سمعة الخليفة ، وينحطُّ مركز الخلافة في أعين النَّاس ، فالألاعيب الإنجليزيَّة لا تُدرك بسهولةٍ(٢) .

لقد استطاعت المخابرات الإنجليزيَّة أن تجد ضالَّتها المنشودة في شخصيَّة مصطفى كمال وكانت تلك العلاقة بين المخابرات الإنجليزيَّة ومصطفى كمال بواسطة رجل المخابرات الإنجليزي « أرمسترونج » الَّذي تعزَّزت علاقته به في فلسطين ، وسورية ، عندما كان مصطفى كمال قائداً هناك في الجيش العثماني .

نجد أرمسترونج في كتابه عن مصطفى كمال يضع إصبعه بصراحةٍ على بداية العقد النَّفسيَّة عند مصطفى كمال حينما يشير إلى الزَّواج الثَّاني لوالدته من أحد الروديسيِّين الميسورين ، وانقطاعه عن زيارتها ، ولجوئه إلى أصحابه من الرُّهبان

---

(١) انظر : حاضر العالم الإسلامي (١/ ١١١) .
(٢) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، ص (٢٧٧) .

المقدونيِّين الَّذين تلقَّفوه فلقَّنوه مبادىء اللُّغة الفرنسيَّة مع صديقه المقدوني « فتحي » فالتهما كتب فولتير ، وروسُّو ، ومؤلَّفات هوبز ، وجون ستيورات ميل ، وغيرها من الكتب الممنوعة ، حتَّى أصبح ينظم الشِّعر الملتهب بمشاعر القوميَّة ، ويخطب في مَلَئه بالكلِّيَّة العسكريَّة ، فيحدِّثهم عن فساد السُّلطان قبل أن يتجاوز العشرين من العمر ثمَّ انتقل إلى إستانبول ، وانغمس في ملاهيها ، وحاناتها ، وراح يشرب ، ويقامر ، ويغازل قبل أن يسجن لانضمامه إلى « جمعيَّة وطن »[(١)] .

ويشهد أرمسترونج بعلاقة الاتِّحاد والتَّرقِّي بالدُّونمة والماسونيَّة في معرض تأريخه لحياة مصطفى كمال ، فيذكر كيف « دعي لحضور أحد اجتماعاتها في بيوت بعض اليهود المنتمين للجنسيَّة الإيطاليَّة ، والجمعيَّات الماسونيَّة الإيطاليَّة ؛ إذ أنَّ جنسيَّتهم هذه تحميهم بحكم المعاهدات ، والامتيازات الأجنبيَّة ، وقد دأب الاتِّحاديُّون على الاحتماء بحصانة اليهود ، فكانوا يجتمعون في بيوتهم آمنين من كلِّ خطرٍ ، وكان بعضهم كفتحي المقدوني صديق كمال القديم قد انضمَّ إلى جماعة الماسون (البنَّائين الأحرار) ويروي كيف استعانوا على تأليف جمعيَّتهم الثَّوريَّة وتنظيمها باقتباس أساليب المنظَّمات الماسونيَّة ، وصاروا يتلقَّون الإعانات الماليَّة الوافرة من مختلف الجهات ، ويتَّصلون باللاجئين السِّياسيِّين الَّذين نفاهم السُّلطان إلى خارج البلاد .

ويكشف أرمسترونج كيف وقع الاختيار على مصطفى كمال وحده من دون بقيَّة أقرانه ، لتنفيذ آخر خطوةٍ في الخطَّة البريطانيَّة ، فيقول : « إنَّ طبيعته كانت تميل إلى أن يكون الآمر النَّاهي ، فلم يُظْهِر أيَّ احترامٍ لزعماء الاتِّحاديِّين ، وتشاجر مع : أنور ، وجمال ، وجاويد اليهوديِّ الأصل ، ونيازي الألمانيِّ المتوحِّش ، وطلعت الدُّبِّ الكبير الَّذي كان موظَّفاً صغيراً في مصلحة البريد .

وبعد أن تحوَّل مصطفى كمال من مجرَّد ضابطٍ غير ثائرٍ على الأوضاع إلى قائدٍ عسكريٍّ يملك رصيداً من الأمجاد ، والانتصارات لقِّب بـ « الغازي » بفضل نفوذ رجال الاستخبارات البريطانيَّة ، ويذكر أرمسترونج صفحةً جديدةً من حياته الخاصَّة

---

(١) انظر : صحوة الرَّجل المريض ، ص (٢٦٥ ، ٢٦٦) .

بعد كشفه عن مجونه ، وفسقه ، وأهليَّته لنسف الخلافة الإسلاميَّة ، فيتطرَّق إلى زواجه الأسطوري من « لطيفة » تلك الفتاة الأميريَّة الموسرة الَّتي عادت لتوِّها من باريس لتقدِّم خبراتها الإداريَّة ، وثقافتها العصريَّة ، وإجادتها لعدَّة لغاتٍ فضلاً عن أنوثتها ، وسحرها مع قصر أبيها الفاخر في أزمير إلى الغازي مصطفى كمال الَّذي أوقعته في حبائلها بتمنُّعها ، ودلالها فتخلَّص من « فكريَّة » الَّتي أرسلها إلى ميونخ للعلاج من المرض الَّذي نقله إليها ، ثمَّ دبَّر أمر انتحارها ، كما تخلَّص من « صالحة » ليقوم بزواجٍ خاطفٍ من « لطيفة » بعد أن أفسد حياة « سعادت » وعشرات البنات ، والنِّساء ، والغلمان ، وغيرها ، كما تؤكِّد ذلك الوثائق الَّتي تركها أحد زملائه من الضُّبَّاط المتقاعدين(١) .

وقد كانت « لطيفة » نفسها ضحيَّةً من ضحاياه فيما بعد ، حيث طلَّقها بقرارٍ وزاريٍّ ، وتركها فريسةً للأمراض ، والأوجاع بعد تحذيرها للصَّمت عن كلِّ شذوذه ، ولم تبقَ بجانبه إلا « عفَّت » تلك الفنَّانة الَّتي كانت له معلِّمةً ، ومؤرِّخةً حتَّى استطاعت أن تقود ذلك الوحش ـ على حدِّ تعبيره ـ بأسلوب الخضوع ، والعبوديَّة له .

ولكنَّ « لطيفة » هانم أشاكي كيل لم يمنعها قانون حماية مصطفى كمال من أيِّ هجومٍ ، أو نقدٍ من التَّلميح بين سطور مذكَّراتها الَّتي نشرتها صحيفة « الحرِّيَّة » التُّركيَّة في حزيران « يونيو » عام ١٩٧٣ م من تسليط بعض الأضواء على حياة أتاتورك الخاصَّة ، وإفراطه في الشُّرب ، محاولةً إلقاء المسؤوليَّة على أصحابه وزملائه أمثال : « قلج علي » و « نوري جنكر » و « رجب هدى » الَّذين كانوا يتعمَّدون إهدار وقته ، وهم مجموعةٌ من القتلة ، والأشقياء المعروفين الَّذين ضمَّهم إلى حاشيته ، ولحراسته ، وأصبح بعضهم يرفع الكلفة معه إلى أبعد الحدود بعد تنفيذهم للعديد من المهمَّات الإجراميَّة الَّتي كلَّفهم بها للتَّخلُّص من بعض خصومه(٢) .

---

(١) انظر : صحوة الرَّجل المريض ، ص (٢٦٧) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .

إنَّ تلك الأخلاق العفنة الَّتي اشتهر بها مصطفى كمال لا تستغرب منه خصوصاً عندما نعلم أنَّ أصله من يهود الدُّونمة .

فقد جاء في دائرة المعارف اليهوديَّة : « لقد أكَّد الكثير من يهود سلانيك : أنَّ كمال أتاتورك كان أصله من الدُّونمة ، وهذا هو أيضاً رأي الإسلاميِّين المعارضين لكمال أتاتورك ، ولكنَّ الحكومة تنكر ذلك »[1] .

ويعلِّق توينبي على نسب مصطفى كمال قائلاً : « إنَّ دماً يهوديّاً يجري في عروق الأسرة الكماليَّة . فقد كانت سلانيك مهبط اليهود أيَّام محنتهم ، وقد درؤوا عقائدهم باعتناق الإسلام ، ولكنَّ طبائع مصطفى كمال ، ولون عينه ، وتكوينه الجسمي يبعده عن أن يكون متأثِّراً بدماءٍ يهوديَّةٍ »[2] .

ويقول أسامة عيناي : « إنَّ الدُّونمة يعتزُّون كثيراً بأتاتورك ، ويعتقدون اعتقاداً راسخاً : أنَّه منهم ، وحجَّتهم في ذلك ؛ أنَّ أتاتورك أسفر عن نيَّاته ضدَّ الإسلام حين تولَّى الحكم »[3] .

إنَّ أفعال مصطفى كمال دلَّت على بغضه للإسلام فيما بعد ، فبينما كان في عام ١٣٣٧ هـ عندما انتصر على اليونان في أنقرة يعلن أمام الشَّعب : « إنَّ كلَّ التَّدابير الَّتي ستتَّخذ لا يقصد منها غير الاحتفاظ بالسَّلطنة ، والخلافة ، وتحرير السُّلطان ، والبلاد من الرِّقِّ الأجنبيِّ »[4] ، نجده بعد أن تمكَّن من العباد ، والبلاد في عام ١٣٤١ هـ/ ١٩٢٣ م تعلن الجمعيَّة الوطنيَّة التُّركيَّة بزعامته عن قيام الجمهوريَّة التُّركيَّة ، وانتخب مصطفى كمال أوَّل رئيسٍ لها ، وتظاهر بالاحتفاظ مؤقَّتاً بالخلافة فاختير عبد المجيد بن السُّلطان عبد العزيز بدلاً من محمَّد السَّادس الَّذي غادر البلاد على بارجةٍ بريطانيَّةٍ إلى مالطة ، ولم يمارس السُّلطان عبد المجيد أيَّ سلطاتٍ للحكم[5] .

---

(١) انظر : يهود الدُّونمة ، د . النُّعيمي ، ص (٨٧ ـ ٨٩) . .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٩٠) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٩٤) .
(٤) انظر : حاضر العالم الإسلامي (١/ ١١٢) .
(٥) المصدر السَّابق نفسه .

كان الخليفة عبد المجيد رجلاً مهذَّباً مثقَّفاً كما يليق بسلالة بني عثمان ، وقد أصبح في نظر الأتراك الصِّلة الحيَّة بالتُّراث والتَّاريخ العثماني الإسلامي ، وكانت جماهير إستانبول تهرع لإلقاء نظرة عليه ، وتحيَّته كلَّ جمعةٍ ، وهو في طريقه لأداء الفريضة ، وكان الخليفة مدركاً تمام الإدراك مكانة منصبه السَّامية ، وعراقة السُّلالة الَّتي ينتمي إليها ، فكان مرَّةً يرتدي عمامة محمَّد الفاتح ، وثانيةً يتقلَّد سيف السُّلطان سليمان القانوني .

استشاط مصطفى كمال غيظاً ، فما كان ليطيق أن يرى ، أو يسمع عن محبَّة النَّاس ، وتعلُّقهم بآل عثمان ، وبالخلافة ، والسَّلطنة ، فمنع الخليفة من الخروج للصَّلاة ، ثمَّ خفَّض مخصَّصاته للنِّصف ، وحكم مصطفى كمال البلاد بالحديد والنَّار ، وضمن تأييد الدُّول العظمى لسياسته التَّعسُّفيَّة .

دعا مصطفى كمال الجمعيَّة التَّأسيسيَّة إلى اجتماعٍ في ٣ آذار/ مارس ١٩٢٤ م ، وكان على ثقةٍ تامَّةٍ من أن أحداً في الجمعيَّة التَّأسيسيَّة ـ الَّتي لم يبق منها سوى اسمها ـ لن يجرؤ على معارضته ، وطرح على الجمعيَّة مشروع قرار بإلغاء الخلافة الَّتي أسماها « هذا الورم من القرون الوسطى »[١] وقد أجيز القرار الَّذي شمل نفي الخليفة في اليوم التَّالي دون مناقشةٍ ، وانطفأت على يد مصطفى كمال شعلة الخلافة الَّتي كان المسلمون طيلة القرون يستمدُّون من بقائها رمز وحدتهم ، واستمرار كيانهم[٢] .

لقد كان مصطفى كمال ينفِّذ مخطَّطاً مرسوماً له في المعاهدات الَّتي عقدت مع الدُّول الغربيَّة ، فقد فرضت معاهدة لوزان سنة ١٣٤٠ هـ/ ١٩٢٣ م على تركيَّا ، فقبلت شروط الصُّلح والمعروفة بشروط كرزون الأربع « وهو رئيس الوفد الإنجليزي في مؤتمر لوزان » وهي :

١ ـ قطع كلِّ صلةٍ لتركيَّا بالإسلام .

٢ ـ إلغاء الخلافة الإسلاميَّة إلغاءً تامّاً .

---

(١) انظر : التَّاريخ العثماني في شعر أحمد شوقي لمحمَّد أبو غدَّة ، ص (١١٠) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .

٣ ـ إخراج الخليفة ، وأنصار الخلافة ، والإسلام من البلاد ، ومصادرة أموال الخليفة .

٤ ـ اتِّخاذ دستورٍ مدنيٍّ بدلاً من دستور تركيَّا القديم(١) .

وعمَّ الاستياء الشَّديد على العالم الإسلاميِّ فشوقي الَّذي مدحه سابقاً بكى الخلافة ، فقال :

عَادَتْ أَغَانِي العُرْسِ رَجْعَ نُواحِ ... ونُعِيْتِ بَيْنَ مَعَالِمِ الأَفْرَاحِ
كُفِّنْتِ فِي لَيْلِ الزِّفَافِ بِثَوْبِهِ ... فَنِمْتِ عِنْدَ تَبَلُّجِ الإِصْبَاحِ
ضَجَّتْ عَلَيْكِ مَآذِنٌ وَمَنَابِرٌ ... وَبَكَتْ عَلَيْكِ مَمَالِكٌ وَنَواحِ
الْهِنْدُ وَالِهَةٌ ، وَمِصْرُ حَزِيْنَةٌ ... تَبْكِي عَلَيْكِ بِمَدْمَعٍ سَحَّاحِ
وَالشَّامُ تَسْأَلُ ، وَالْعِرَاقُ وَفَارِسٌ ... أَمَحَا مِنَ الأَرْضِ الخِلافَةَ مَاحِ
يَا لِلرِّجَالِ لِحُرَّةٍ مَوْءُودَةٍ ... قُتِلَتْ بِغَيْرِ جَرِيْرَةٍ وَجُنَاحِ

ثمَّ انبرى شوقي يوجه التَّقريع والنَّقد الشَّديد إلى أتاتورك الَّذي يريد بجرَّة قلمٍ ، وبالحديد والنَّار أن ينقل الأتراك رغم أنوفهم من آسيا إلى أوربَّة ، ومن جذورهم العميقة في الشَّرق إلى الانتظار على أبواب الغرب :

بَكَتِ الصَّلاةُ وَتِلْكَ فِتْنَةُ عَابِثٍ ... بِالشَّرْعِ عِرْبِيْدِ القَضَاءِ وَقَاحِ
أَفْتَى خُزَعْبَلَةً وَقَالَ ضَلالَةً ... وَأَتَى بِكُفْرٍ فِي البِلادِ بَوَاحِ
إِنَّ الَّذِيْنَ جَرَى عَلَيْهِمُ فِقْهُهُ ... خُلِقُوا لِفِقْهِ كَتِيْبَةٍ وَسِلاحِ
نَقَلَ الشَّرَائِعَ ، والعَقَائِدَ ، والقُرَى ... والنَّاس نَقْلَ كَتَائِبَ فِي السَّاحِ
تَرَكَتْهُ كَالشَّبَحِ المُوَلَّهِ أُمُّهُ ... لَمْ تَسْلُ بَعْدُ عِبَادَةَ الأَشْبَاحِ
غَرَّتْهُ طَاعَاتُ الجُمُوعِ ودَوْلَةٌ ... وَجَدَ السَّوادُ لَهَا هَوَى المُرْتَاحِ(٢)

ولم يترك شوقي أن يبيِّن سبب ظهور هؤلاء المتسلِّطين إلى جهل الشُّعوب واستسلامها للطُّغاة المستبدِّين فقال :

مَجْدُ الأُمُوْرِ زَوَالُهُ فِي زَلَّةٍ ... لا تَرْجُ لاسْمِكَ بِالأُمُوْرِ خُلُودا

---

(١) انظر : تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، د . علي حسُّون ، ص (٢٨٧) .
(٢) انظر : التَّاريخ العثماني في شعر أحمد شوقي ، ص (١١٢) .

خَلَعَتْـهُ دُوْنُ المُسْلِمِيْـنَ عِصَـابـةٌ ... لَـمْ يَجْعَلُـوا لِلْمُسْلِمِيْـنَ وُجُـودَا
يَقْضُـونَ ذَلِـكَ عَـنْ سَـوَادٍ غَـافِـلٍ ... خُلِـقَ السَّـوادُ مُضَلَّـلاً ومَسُـوْدَا
إِنِّـي نَظَـرْتُ إِلَـى الشُّعُوْبِ فَلَـمْ أَجِـدْ ... كَـالجَهْـلِ دَاءً للشُّعُـوْبِ مُبِيْـدَا
وَإِذَا سَبَـى الْفَـرْدُ المُسَلَّـطُ مَجْلِسـاً ... أَلْفَيْـتَ أَحْـرَارَ الـرِّجَـالِ عَبِيْـدَا[1]

لقد نفَّذ مصطفى كمال المخطَّط كاملاً ، وابتعد عن الخطوط الإِسلاميَّة ، ودخلت تركيَّا لعمليَّات التَّغريب البشعة ؛ فألغيت وزارة الأوقاف سنة ١٣٤٣ هـ/ ١٩٢٤ م ، وعهد بشؤونها إِلى وزارة المعارف ، وفي عام ١٣٤٤ هـ/ ١٩٢٥ م أغلقت المساجد ، وقضت الحكومة في قسوةٍ بالغةٍ على كلِّ تيَّارٍ دينيٍّ ، وواجهت كلَّ نقدٍ دينيٍّ لتدبيرها بالعنف ، وفي عام (١٣٥٠ ـ ١٣٥١ هـ/ ١٩٣١ ـ ١٩٣٢ م) حدَّدت عدد المساجد ، ولم تسمح بغير مسجدٍ واحدٍ في كلِّ دائرةٍ من الأرض يبلغ محيطها ٥٠٠ متر ، وأعلن : أنَّ الرُّوح الإِسلاميَّة تعوق التَّقدُّم .

وتمادى مصطفى كمال في تهجُّمه على المساجد ، فخفَّض عدد الواعظين الَّذين تدفع لهم الدَّولة أجورهم إِلى ثلاثمئة واعظٍ ، وأمرهم أن يفسحوا في خطبة الجمعة مجالاً واسعاً للتَّحدُّث عن الشُّؤون الزِّراعيَّة والصِّناعيَّة ،وسياسة الدَّولة ، وَكَيْل المديح له . وأغلق أشهر جامعين في إِستانبول ، وحوَّل أوَّلهما وهو مسجد آيا صوفيا إِلى متحفٍ ، وحوَّل ثانيهما ، وهو مسجد الفاتح إِلى مستودع .

أمَّا الشَّريعة الإِسلاميَّة فقد استبدلت ، وحلَّ محلَّها قانونٌ مدنيٌّ أخذته حكومة تركيَّا عن القانون السُّويسري عام ١٣٤٥ هـ/ ١٩٢٦ م . وغيَّرت التَّقويم الهجريَّ ، واستخدمت التَّقويم الجريغوري الغربي ، فأصبح عام ١٣٤٢ هـ ملغيَّاً في كلِّ أنحاء تركيَّا ، وحلَّ محلَّه عام ١٩٢٦ م .

● وفي دستور عام ١٣٤٧ هـ/ ١٩٢٨ م أغفل النَّصُّ على أنَّ تركيَّا دولةٌ إِسلاميَّةٌ ، وغيَّر نصَّ القسم الَّذي يقسمه رجال الدَّولة عند توليهم لمناصبهم ، فأصبحوا يقسمون بشرفهم على تأدية الواجب بدلاً من أن يحلفوا بالله ، كما كان عليه الأمر من قبل .

---

(١) انظر : الشَّوقيَّات ديوان أحمد شوقي (١/ ١١٢) .

● وفي عام ١٩٣٥ م غيّرت الحكومة العطلة الرَّسميَّة فلم يعد الجمعة ، بل أصبحت العطلة الرَّسميَّة للدَّولة يوم الأحد ، وأصبحت عطلة نهاية الأسبوع تبدأ منذ ظهر يوم السَّبت وتستمرُّ حتَّى صباح يوم الإثنين .

● وأهملت الحكومة التَّعليم الدِّينيَّ كلِّيَّةً في المدارس الخاصَّة ، ثمَّ تمَّ إلغاؤه ، بل إنَّ كلِّيَّة الشَّريعة في جامعة إستانبول بدأت تقلِّل من أعداد طلابها ، والَّتي أغلقت عام ١٣٥٢ هـ/ ١٩٣٣ م .

● وأمعنت حكومة مصطفى كمال في حركة التَّغريب ، فأصدرت قراراً بإلغاء لبس الطَّربوش ، وأمرت بلبس القبَّعة تشبُّهاً بالدَّولة الأوربيَّة(١) .

وفي عام ١٣٤٨ هـ/ ١٩٢٩ م بدأت الحكومة تفرض إجباريّاً استخدام الأحرف اللاتينيَّة في كتابة اللُّغة التُّركيَّة بدلاً من الأحرف العربيَّة . وبدأت الصُّحف ، والكتب تصدر بالأحرف اللاتينيَّة ، وحذفت من الكلِّيَّات التَّعليم باللُّغة العربيَّة ، واللُّغة الفارسيَّة ، وحرَّم استعمال الحرف العربي لطبع المؤلَّفات التُّركيَّة ، وأمَّا الكتب الَّتي سبق لمطابع إستانبول أن طبعتها في العهود السالفة ؛ فقد صدِّرت إلى مصر ، وفارس ، والهند ، وهكذا قطعت حكومة تركيَّا ما بين تركيَّا وماضيها الإسلامي من ناحيةٍ ، وما بينها وبين المسلمين في سائر البلدان العربيَّة ، والإسلاميَّة من ناحيةٍ أخرى(٢) .

● وأخذ أتاتورك ينفخ في الشَّعب التُّركي روح القوميَّة ، واستغلَّ ما نادى به بعض المؤرِّخين من أنَّ لغة السُّومريِّين أصحاب الحضارة القديمة في بلاد ما بين النَّهرين كانت ذات صلةٍ باللُّغة التُّركيَّة ، فقال : بأنَّ الأتراك هم أصحاب أقدم حضارةٍ في العالم ؛ ليعوِّضهم عمَّا أفقدهم إيَّاه من قِيَمٍ بعد أن حارب كلَّ نشاطٍ إسلاميٍّ ، وخلع مصطفى كمال على نفسه « أتاتورك » ومعناه أبو الأتراك(٣) .

● وعملت حكومته على الاهتمام بكلِّ ما هو أوربيٌّ ، فازدهرت الفنون ،

---

(١) انظر : حاضر العالم الإسلامي (١/ ١١٥) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .

وأقيمت التَّماثيل لأتاتورك في ميادين المدن الكبرى كلِّها ، وزاد الاهتمام بالرَّسم ، والموسيقا ، ووفد إِلى تركيَّا عددٌ كبيرٌ من الفنَّانين أغلبهم من فرنسا ، والنِّمسا[١] .

● وعملت حكومته على إِلغاء حجاب المرأة ، وأمرت بالسُّفور ، وألغت قوامة الرَّجل على المرأة ، وأطلق لها العنان باسم الحرِّيَّة ، والمساواة ، وشجَّع الحفلات الرَّاقصة ، والمسارح المختلطة ، والرَّقص .

● وفي زواجه من « لطيفة » هانم ابنة أحد أغنياء أزمير الَّذين كانوا على صلةٍ كبيرةٍ مع اليهود من سكَّان أزمير ، أجرى مراسم الزَّواج على الطَّريقة الغربيَّة كي يشجِّع على نبذ العادات الإِسلاميَّة ، واصطحبها ، وطاف بها أرجاء البلاد ، وهي بادية المفاتن ، تختلط مع الرِّجال وترتدي أحدث الأزياء المعينة على التَّبرُّج الصَّارخ[٢] .

● وأمر بترجمة القرآن إِلى اللُّغة التُّركيَّة ، ففقد كلَّ معانيه ، ومدلولاته ، وأمر أن يكون الأذان باللُّغة التُّركيَّة[٣] .

● عمل على تغيير المناهج الدِّراسيَّة ، وأعيد كتابة التَّاريخ من أجل إِبراز الماضي التُّركي القومي ، وجرى تنقية اللُّغة التُّركيَّة من الكلمات العربيَّة ، والفارسيَّة ، واستُبدلت بكلماتٍ أوربيَّةٍ لاتينيَّةٍ قديمةٍ .

● وأعلنت الدَّولة عزمها في التَّوجُّه نحو أوربَّة ، وانفصلت عن العالم الإِسلامي ، والعربيِّ ، وأمعنت حكومتها في استدبار الإِسلام حتَّى حاربت بقسوةٍ أيَّ محاولة ترمي إِلى إِحياء المبادىء الإِسلاميَّة[٤] .

وكانت خطوات مصطفى كمال هذه بعيدة الأثر في مصر ، وأفغانستان ، وإِيران ، والهند الإِسلاميَّة ، وتركستان ، وفي كلِّ مكانٍ من العالم الإِسلاميِّ ؛ إِذ أتاحت الفرصة لدُعاة التَّغريب ، وخدَّام الثَّقافة الاستعماريَّة أن ينفذوا إِلى مكان

(١) انظر : المسألة الشَّرقيَّة للدُّسوقي ، ص (٤٢٨ ـ ٤٣٢) .
(٢) انظر : حاضر العالم الإِسلامي (١/١١٦) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .
(٤) انظر : الاتِّجاهات الوطنيَّة لمحمَّد حسين (٢/١٠٠) .

الصَّدارة ، وأن يضربوا المثل بتركيًا في مجال التَّقدُّم ، والنَّهضة المزعومة ، فقد هلَّلت له صحف مصر ـ الأهرام ، والسِّياسة ، والمقطَّم ـ ذات الاتِّجاهات المضادَّة للإسلام ، والمدعومة من النُّفوذ الغربيِّ ، واليهودي ، والماسوني .

لقد برَّرت تلك الصُّحف تصرُّفات كمال أتاتورك ، ووافقت عمَّا ابتدعه ، ونشرت له أقوال : « ليس لتركيًا الجديدة علاقةٌ بالدِّين » وأنَّه ـ أي : مصطفى كمال ـ : « ألقى القرآن ذات يومٍ في يده ، فقال : إنَّ ارتقاء الشُّعوب لا يصلح أن ينفَّذ بقوانين ، وقواعد سُنَّت في العصور الغابرة » .

لقد كانت حكومة تركيًا العلمانيَّة الكماليَّة ـ هي كما وصفها الأمير شكيب أرسلان ـ ليست حكومة دينيَّةً من طراز فرنسا ، وإنجلترا فحسب ، بل هي دولةٌ مضادَّةٌ للدِّين كالحكومة البلشفيَّة في روسيا ، سواءٌ بسواءٍ ؛ إذ أنَّه حتَّى اللادينيَّة في الغرب بثوراتها المعروفة لم تتدخَّل في حروف الأناجيل ، وزيِّ رجال الدِّين ، وطقوسهم الخاصَّة ، وتلغِ الكنائس[١] .

وكان للإعلام اليهوديِّ دورٌ كبيرٌ في التَّرويج لهذه الرِّدَّة ، مثلما كان له دوره البارز في تشجيع أتاتورك على البطش بأيِّ معارضةٍ إسلاميَّةٍ ، وكانت تزيِّن له أنَّ ما يقوم به من المذابح الوحشيَّة ضدَّ المسلمين ليست سوى معارك بطوليَّة ، كما كانت منبراً لكلِّ دعوات التَّشبُّه بالغرب الصَّليبي ، والمناداة بالحرِّيَّة الفاجرة للمرأة التُّركيَّة ، والتَّرويج لفنون الانحلال الخلقي معتبرةً : أنَّ شرب الخمر ، والمقامرة ، والزِّنى ليست إلا مظاهر للتَّمدُّن ، والتَّحضُّر[٢] .

إنَّ الحقيقة المرَّة : أنَّ مصطفى كمال أصبح نموذجاً صارخاً للحكَّام في العالم الإسلاميِّ ، وكان لأسلوبه الاستبداديِّ الفذِّ أثره في سياسات مَنْ جاء بعده منهم ، كما أنَّه أعطى الاستعمار الغربيَّ مبرِّراً كافياً للقضاء على الإسلام ، فإنَّ فرنسا مثلاً برَّرت حرصها على تنصير بلاد الشَّمال الإفريقي ، وإخراجها من دينها ، وعقيدتها ، وإسلامها بأنَّه لا يجب عليها أن تحافظ على الإسلام أكثر من الأتراك المسلمين

(١) انظر : العلمانيَّة ، د . سفر الحوالي ، ص (٥٧٣) .
(٢) انظر : حاضر العالم الإسلامي (١/١١٧) .

أنفسهم[١] .

لقد أصبح مصطفى كمال زعيماً روحيَّاً لكثيرٍ من الحكَّام الَّذين باعوا آخرتهم بدنياهم الزَّائلة .

قاد المسلمون ثوراتٍ مسلَّحةً ضدَّ الحكم العلمانيِّ التُّركيِّ المعادي للإسلام ، وظهرت أهمُّ الثَّورات في المنطقة الجنوبيَّة الشَّرقيَّة عام ١٣٤٤ هـ ، ثمَّ في منيمين عام ١٣٤٩ هـ وقد قمعها الكماليُّون بشدَّةٍ منقطعة النَّظير ، وذهب ضحيَّتها عددٌ كبيرٌ من العلماء ، وأهملت المنطقة اقتصاديَّاً وعلميَّاً .

وقامت حركة النُّور بزعامة الشَّيخ بديع الزَّمان سعيد النَّورسي ، وتلاميذه من بعده ، وقد كتب العديد من الرَّسائل الإسلاميَّة تحت عنوان « رسائل النُّور » في سبيل التَّوعية الإسلاميَّة ومقاومة مبادىء الكماليِّين ، والعلمانيَّة ، ولم تعمد حركته إلى حمل السِّلاح ، واقتصر جهادها على اللِّسان . وقد حاول أتاتورك استمالته ، ونفاه ، واستنكر دعوته النَّاس إلى الصَّلاة مدَّعياً أنَّها تثير الفرقة بين أعضاء المجلس ، فأجابه :

« إنَّ أعظم حقيقةٍ تتجلَّى بعد الإسلام إنَّما هي في الصَّلاة ، وإنَّ الَّذي لا يصلِّي خائنٌ ، وحكم الخائن مردودٌ »[٢] .

فسجنه ، ثمَّ نفاه بعد أن اتَّهمه بمؤامرةٍ لقلب نظام الحكم ، ولكنَّ دعوته استمرَّت في الانتشار سرَّاً بين صفوف الجامعيِّين ، ومعسكرات الجيش ، ودوائر الدَّولة ، ومثل للمحاكمة مرَّةً أخرى بتهمة أتاتورك بالدَّجَّال ، فوقف أمام المحكمة ، وقال :

(إنِّني لأعجب كيف يتَّهم أناسٌ يتبادلون فيما بينهم تحيَّة القرآن ، وبيانه ، ومعجزاته باتِّباعهم للسِّياسة والجمعيَّات السِّرِّيَّة ، على حين يحقُّ للمارقين الافتراء على القرآن ، وحقائقه في وقاحةٍ وإصرارٍ ، ثمَّ يعدُّ ذلك أمراً مقدَّساً ؛ لأنَّه حرِّيَّة . أمَّا نور القرآن الَّذي يأبى إلا أن يشعَّ في أفئدة ملايين المسلمين المرتبطين بدستوره ،

---

(١) انظر : العلمانيَّة ، د . سفر الحوالي ، ص (٥٧٣) .
(٢) انظر : حاضر العالم الإسلامي (١/ ١١٧) .

فهو خطورةٌ ينهال عليها جميع ألفاظ الشَّرِّ ، والخبث ، والسِّياسة .

اسمعوا يا من بعتم دينكم بدنياكم ، وتنكَّستم في الكفر المطلق : إنَّني أقول بمنتهى ما أعطاني الله من قوَّةٍ : افعلوا ما يمكنكم فعله ، فغاية ما نتمنَّاه أن نجعل رؤوسنا فداءً لأصغر حقيقةٍ من حقائق الإسلام . . . »[(١)] .

فأعيد إلى منفاه ، وبقي حتَّى عام ١٣٦٧ هـ حين بدأت الحكومة تضطرُّ للاستجابة لمطالب الشَّعب المسلم بخصوص النَّشاط الدِّيني[(٢)] .

لقد تجلَّت سياسة أتاتورك العلمانيَّة في برنامج حزبه (حزب الشَّعب الجمهوري) لعام ١٣٤٩ هـ مرَّة وعام ١٣٥٥ هـ مرَّةً ثانيةً ، والَّتي نصَّ الدُّستور التُّركيُّ ، وهي المبادىء السِّتَّة الَّتي رسمت بشكل ستَّة أسهم على علم الحزب ، وهي : القوميَّة ، الجمهوريَّة ، الشَّعبيَّة ، العلمانيَّة ، الثَّورة ، سلطة الدَّولة[(٣)] .

توفِّي أتاتورك عام ١٣٥٦ هـ بعد أن حقَّق علمانيَّة تركيًا رغم أنف المسلمين . لقد أصيب مصطفى كمال قبل وفاته بسنين بمرضٍ عضالٍ في الكلية لم يعرف كنهه ، وكان يتعرَّض لآلامٍ مزمنةٍ لا تطاق ، وكان السَّبب : إدمانه شرب الخمر ، ممَّا أدَّى إلى إصابته بتليُّف الكبد ، والتهاب في أعصابه الطَّرفيَّة وتعرُّضه لحالات من الكآبة ، والانطواء ـ وقد تدهور في المستويات العليا للمخِّ ـ لذلك كان هذا الدِّيكتاتور مثلاً فريداً في القسوة ، والتَّنكيل ، والأنانيَّة المدمِّرة[(٤)] .

* * *

(١) انظر : حاضر العالم الإسلامي (١/ ١٢٢) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) المصدر السَّابق نفسه (١/ ١١٦) .
(٤) انظر : المسألة الشَّرقيَّة ، محمَّد ثابت الشَّاذلي ، ص (٢٤٢) .

المبحث السَّابع

بشائر إسلاميَّة
في تركيَّا العلمانيَّة

بعد وفاة أتاتورك عام ١٣٥٦ هـ تولَّى الرِّئاسة رفيقه على الدَّرب العلماني عصمت إينونو ، وسار على نهج سياسة أتاتورك ، وعند نشوب الحرب العالميَّة الثَّانية التزمت تركيَّا الحياد ، ثمَّ دخلت في نهاية الحرب إلى جانب الحلفاء ، وبعد انتهاء الحرب العالميَّة الثَّانية تقاربت تركيَّا من الولايات المتَّحدة ، ودخلت في المعاهدات معها ، وأقامت أمريكا على الأراضي التُّركيَّة قواعد عسكريَّةً ، وظهرت الأزمات الاقتصاديَّة العنيفة الَّتي تزايد خطرها يوماً بعد يومٍ ، وازداد التَّضخُّم المالي .

وسمحت الدَّولة بتشكيل أحزاب علمانيَّةٍ جديدةٍ ، فنشأ الحزب الدِّيمقراطيُّ عام ١٣٦٦ هـ من انشقاق داخل صفوف حزب الشَّعب الجمهوريِّ نفسه ، وفاز في الانتخابات بدغدغة عواطف النَّاس ، وقد تبنَّى السِّياسة الأمريكيَّة ، وأصبح رئيسه جلال بايار رئيساً للجمهوريَّة عام ١٣٧٤ هـ ، كما أصبح عدنان مندريس رئيساً للوزراء ، وأصبح منصب رئيس الوزراء يفوق في الأهمِّيَّة منصب رئيس الجمهوريَّة .

وبقيت الأزمات ، والكوارث الاقتصاديَّة في تردٍّ مستمرٍّ ، وتوجَّهت الانتقادات للحزب الحاكم . فحُلَّ الحزب القوميُّ الَّذي ظهر عام ١٣٦٨ هـ بحجَّة معارضته المبادىء الكماليَّة ، ولكنَّه تشكَّل باسمٍ آخر هو الحزب القوميُّ الجمهوريُّ ، وفرضت غراماتٌ فادحةٌ على الصَّحفيِّين الَّذين يحطُّون من قدر الحكومة ، وضيِّق على أساتذة الجامعات ، والقضاة ، والموظَّفين المدنيِّين بصورةٍ عامَّةٍ ، وفرضت قيودٌ على الاجتماعات عام ١٣٧٦ هـ .

ووجَّه الحزب الدِّيمقراطي التُّهمة إلى كثيرٍ من الأبرياء بالاشتراك بما سمِّي « مؤامرة الضُّبَّاط التِّسعة » واتَّهمهم بالارتداد عن مبادىء العلمانيَّة ، والميل إلى

جانب المنظَّمات الدِّينيَّة الإسلاميَّة ، وقد حصل بالفعل بعض التَّراجع عن بعض العداء ضدَّ الإسلام بفعل الضَّغط الإسلامي(١) .

حتَّى إنَّ حزب الشَّعب الجمهوري بدأ يغيِّر من اتِّجاهاته العلمانيَّة منذ الانتقال إلى ظاهرة التَّعدُّد الحزبي ، حيث وافق الحزب على إنشاء كلِّيَّة الإلهيَّات ، ومعهد العلوم الإسلاميَّة في أنقرة .

واعتمد الحزب الدِّيمقراطيُّ على الجماعات الإسلاميَّة في انتخابات ١٤أيَّار ١٩٥٠ م ، وكان سبباً رئيسيَّاً في فوزه على حزب الشَّعب الجمهوري ، وفضلاً عن ذلك اعتمدت أحزابٌ أخرى على الجماعات السَّالفة الذِّكر ، مثل حزب العدالة في المدَّة الواقعة بين ١٩٦١ ـ ١٩٨٠ م .

وأمَّا حزب الطَّريق المستقيم ؛ فإنَّه استمدَّ قوَّته في الثَّمانينيات من الرَّأي العامِّ الإسلاميِّ .

وركب حزب العمل القومي بزعامة ألب أرسلان توركش الموجة الإسلاميَّة ، وغَيَّر مفهومه عن العلمانيَّة ، وبدأ بالتَّقرُّب من الرَّأي العامِّ الإسلاميِّ ، وكان شعار هذا الحزب في انتخابات عام ١٩٨٧ م (دليلنا القرآن ، وهدفنا الطُّوران)(٢) .

إلاَّ أنَّ العمل الإسلاميَّ المنظَّم الَّذي شقَّ طريقه في تلك الأمواج العلمانيَّة المتلاطمة يظهر جليَّاً مع ظهور حزب السَّلامة الوطني .

● **كانت الحركة الإسلاميَّة في تركيَّا قبل ظهور حزب السَّلامة الوطني تتكوَّن من :**

● المتصوِّفة المناوئة للحركة الكماليَّة ، وهؤلاء حافظوا على التُّراث الإسلامي بمفهومه الخاصِّ بهم ، وواصلوا تحفيظ القرآن سرَّاً ، وكان هدف هذه الحركة هو الحفاظ على العبادات الإسلاميَّة في نفوس الرَّأي العامِّ التُّركي ، وفي هذا المجال قاموا بتكوين جمعيَّاتٍ للإنفاق على طلاب مدارس الأئمَّة ، والخطباء للإكثار منهم ، وتعويض النَّقص الَّذي نتج عن اختفاء الدُّعاة الإسلاميِّين عندما اصطدم بهم

---

(١) انظر : حاضر العالم الإسلامي (١/ ١٢٠) .

(٢) انظر : الحركة الإسلاميَّة الحديثة في تركيا ، د . أحمد النُّعيمي ، ص (١٨٤ ـ ١٨٧) .

الحزب الكمالي .

● حركة الإمام المصلح الكبير سعيد النَّورسي ، والَّتي تُعرف بحركة النُّور ، والَّتي تركَّزت جهودها على الدَّعوة إلى الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، ومحاربة المادِّيَّة الملحدة، والاهتمام بتربية الجيل، وابتعد الكثير من أتباعها عن السِّياسة[١] .

عندما تحصَّلت تركيَّا على نوعٍ من الحرِّيَّات تقدَّم الإسلاميُّون المؤمنون بضرورة خوض المعترك السِّياسي بتأسيس حزب النِّظام الوطني في كانون الثَّاني عام ١٩٧٠ م ، حيث قام على تأسيسه يونس عارف ، وقد جاء دعم هذا الحزب بصورةٍ رئيسيَّةٍ من التُّجَّار الصِّغار ، والحرفيِّين والرِّجال المتديِّنين في الأناضول ، وتوسَّع الحزب في مدَّةٍ قصيرةٍ جدّاً ، وبدأ يشكِّل تهديداً خطيراً للأحزاب العلمانيَّة ، وقد جاء في بيان التَّأسيس ما يلي :

« أمَّا اليوم : فإنَّ أمَّتنا العظيمة الَّتي هي امتداد لأولئك الفاتحين الَّذين قهروا الجيوش الصَّليبيَّة قبل ألف سنة ، والَّذين فتحوا إستانبول قبل ٥٠٠ سنة ، أولئك الذين قرعوا أبواب ڤينا قبل ٤٠٠ سنة ، وخاضوا حرب الاستقلال قبل خمسين سنة . هذه الأمَّة العريقة تحاول اليوم أن تنهض من كبوتها ، تجدِّد عهدها ، وقوَّتها مع حزبها الأصيل (حزب النِّظام الوطني) ، إنَّ حزب النِّظام الوطني سيعيد لأمَّتنا مجدها التَّليد ، الأمَّة الَّتي تملك رصيداً هائلاً من الأخلاق ، والفضائل يضاف إلى رصيدها التَّاريخيِّ ، وإلى رصيدها الَّذي يمثِّل الحاضر المتمثِّل في الشَّباب الواعي المؤمن بقضيَّته ، وقضية وطنه »[٢] .

● وقدَّم حزب النِّظام برنامج عمله في منظومةٍ من الأفكار يمكن إيجازها في الآتي :

١ ـ جميع المؤسَّسات الهامَّة في تركيَّا في أيدٍ غربيَّةٍ غير وطنيَّةٍ ، والأمر الطَّبيعي ، والواجب القومي يقضي بأن تعود هذه المؤسَّسات إلى أصحابها .

---

(١) انظر : المعالم الرَّئيسية التَّاريخيَّة والفكريَّة لحزب السَّلامة ، عبد الحميد حرب ، ص (٤٣٥) ندوة اتِّجاهات الفكر الإسلامي المعاصر ، البحرين (١٩٨٥ م) .

(٢) انظر : الحركة الإسلاميَّة الحديثة في تركيا ، ص (١٢٦) .

٢ ـ عاش النَّاس أربعين سنةً ، والقوى الخارجيَّة المؤثِّرة تحاول إِبعادهم عن محورهم الحقيقي إِلى محورٍ غريبٍ ، فوقع النَّاس في ضيقٍ ، وعنتٍ شديدين ، ولا بدَّ من إِرجاع النَّاس إِلى طبيعتهم ، ومحورهم الأصيل (فطرة الله) حتَّى يستقيم أمرهم ، ويتخلَّصوا من عقائدهم .

٣ ـ إِنَّ التَّسميات المعاصرة مثل اليمين ، واليسار ، والوسط هي من اختراع الماسونيَّة والصَّهيونيَّة ، وكلُّها مؤسَّساتٌ تابعةٌ لغرضٍ واحدٍ ، وهو أن تنحرف تركيَّا عن خطِّها الحضاريِّ الَّذي عمره ألف سنة ، وأنه لا بدَّ من التَّخلُّص من هذه الأسماء الغريبة ، والعودة إِلى الخطِّ الأصيل الَّذي يصل الماضي التَّليد بالغد المشرق .

٤ ـ إِنَّ حزب النِّظام الوطنيَّ لا يشبه الأحزاب الأخرى ، فجميع الأحزاب تقوم على أساس التَّسلُّط ، وشهوة الحكم ، ونحن نقوم على أساسٍ جديدٍ ، يبتغي مرضاة الله ، والعمل في سبيل الوطن .

٥ ـ إِنَّ نظام التَّعليم في تركيَّا فاسدٌ ، وضعته شرذمةٌ من الحاقدين من الصَّليبيِّين ، واليهود بشكلٍ لا يناسب الأمَّة فهو يسقط من حسابه كلَّ قيمةٍ معنويَّةٍ ، أو أخلاقيَّةٍ ، أو دينيَّةٍ ، غايته فصل تركيَّا عن ماضيها الإِسلاميِّ ، وسلخها عن دينها ، وقيمتها ، وبهذه الطَّريقة فقط يستطيعون أن يقتلوا الجيل ، ويدمِّروا البلاد ، لقد مرَّت خمسون سنة ، ونحن نسمع أنَّ تركيَّا جزءٌ من أوربَّة ، وأنَّ النَّهضةَ لا بدَّ أن تقوم على أنقاض الدِّين كما حصل في الغرب متناسين : أنَّ الإِسلام يختلف عن الكنيسة ، ودولة القسِّ .

٦ ـ في الوقت الَّذي تمنع الدَّولة فيه توزيع الكتب على المعاهد الإِسلاميَّة العالية ، وتحاول إِغلاق معاهد الأئمَّة ، والخطابة ، ومدارس تعليم القرآن ، تنفق الملايين على المسارح ، والممثِّلين ، وثمناً للمشروبات الَّتي توزَّع في السَّفارات . وفي الوقت الَّذي تعترض الدَّولة على الطَّالبات اللَّواتي يلبسْنَ الحجاب على رؤوسهنَّ ؛ تدرَّس كتُب اللاهوت في كلِّ مكانٍ دونما رقابةٍ ، أو ضجَّةٍ ، وهذا يعني أنَّ حزب النِّظام الوطني أكَّد العودة إِلى الإِسلام الحقيقيِّ(١) .

---

(١) انظر : الحركة الإسلامية الحديثة في تركيا ، ص (١٢٧) .

إِنَّ اليهود والعلمانيِّين في تركيَّا لم يتحمَّلوا هذا الصَّوت الفتيَّ الَّذي يتدفَّق بالحيويَّة ، والنَّشاط ، ويحرِّكه في قضاياه الإِيمان العميق بالإِسلام ، وبضرورة رجوع الشَّعب التُّركيِّ إِليه ، ولذلك تحرَّك الجيش التُّركيُّ في آذار ١٩٧١ م بسبب نشاط حزب العمَّال ، وأحال قضيَّة حزب النِّظام الوطني إِلى المحكمة الدُّستوريَّة ؛ الَّتي أصدرت قراراً جائراً بحلِّ الحزب في ٢١ مارس ١٩٧١ م[١] .

● **وقد جاء في قرار محكمة أمن الدَّولة العليا ما يلي :**

١ ـ إِنَّ المبادىء الَّتي قام عليها الحزب ، وتصرُّفاته تخالف الدُّستور التُّركيَّ .

٢ ـ العمل على إِلغاء العلمانيَّة في البلاد ، وإِقامة حكومةٍ إِسلاميَّةٍ .

٣ ـ قلب جميع الأسس الاقتصاديَّة ، والاجتماعيَّة ، والحقوقيَّة الَّتي تقوم عليها البلاد .

٤ ـ العمل ضدَّ مبادىء أتاتورك .

٥ ـ القيام ببعض التَّظاهرات الدِّينيَّة .

وجاء في حكم المحكمة أيضاً : أنَّه لا يحقُّ لأيِّ شخصٍ من شخصيَّات الحزب أن يعمل من خلال أيِّ حزبٍ سياسيٍّ آخر ، ولا أن يؤسِّسوا أيَّ حزبٍ جديدٍ ، ولا أن يرشِّحوا أنفسهم لأي انتخاباتٍ قادمةٍ ، ولو بشكلٍ مستقلِّين لمدَّة خمس سنواتٍ . وهذا يعني : أنَّ المدَّة بين نشوء الحزب ، وإِغلاقه كانت ستَّة عشر شهراً فقط[٢] .

وفي تلك الأحداث السَّاخنة ، والمشادَّة العنيفة بين الإِسلام والعلمانيَّة في تركيَّا ظهر المجاهد الكبير نجم الدِّين أربكان يخوض المعارك الفكريَّة مع العلمانيِّين ، ففي ٢ آب عام ١٩٧٢ م وقبل تأسيس حزب السَّلامة الوطني تحدَّث أربكان في المجلس الوطني ، فقال : « في رأينا أنَّ التَّوضيح المهمَّ الأكثر ملاءمةً لجعل الدُّستور دستوراً ديمقراطيَّاً ، لا بدَّ أن تكون هناك موادُّ دستوريَّةٌ مناسبةٌ قبل تحديد الحركات ، وحقوق الفكر ، والمعتقد ، وهكذا من الممكن إِيجاد مناخٍ للتَّطبيقات الحاليَّة ، والَّتي تتعارض مع المبادىء الأساسيَّة للدُّستور ، وفي مثل هذه الحالة ،

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٢٨) .

(٢) انظر : الحركة الإِسلاميَّة الحديثة في تركيا ، ص (١٢٨) .

على المرء أن يتكلَّم عن وجود فكر الحرِّيَّة والمعتقد ، وإنَّ دولتنا لتسعى ، وتنمو ، ومن ثمَّ لتأخذ مكانتها بين الأقطار الحضاريَّة في العالم »[(١)] .

كان أربكان يرى أنَّ النِّظام الدِّيمقراطيَّ لا يعدُّ ديمقراطيّاً بدون الحقوق وحرِّيَّة الفكر والمعتقد ، وكان يقصد من وراء ذلك الحرِّيَّة التَّامَّة لاستخدام نشر الأفكار الإسلاميَّة ، وقد فَسَّرت كلٌّ من صحيفتي « جمهوريت » و « ملليت » العلمانيَّتين تصريحات ، وأقوال أربكان بأنَّها ذريعةٌ لاستخدام الدِّين لأغراضٍ سياسيَّةٍ[(٢)] .

لقد هاجم نجم الدِّين أربكان العلمانيَّة ، واستفاد من الثَّغرات الموجودة في الدُّستور التُّركي ، وردَّ على الحملة الإعلاميَّة العلمانيَّة الموجَّهة ضدَّ أطروحاته ، فقال : « إنَّ مصطلحات القوميَّة ، والدِّيمقراطيَّة ، والعلمانيَّة ، والاجتماعيَّة ، والَّتي تقوم عليها شخصيَّة الدَّولة ، استناداً إلى المادَّة الثَّانية من الدُّستور ، إنَّ هذا من الممكن توضيحه بأنَّ هذه المادَّة لا تسمح باستخدام وتفسير المعارضة في الممارسة ، وفي هذا المجال وبصورةٍ خاصَّةٍ مصطلح القوميَّة بحاجةٍ إلى توضيح ، وهذا يعني : أنَّها بحاجةٍ إلى تحديدها بطريقةٍ تقوم على احترام جميع القيم الرُّوحيَّة لقوميَّتنا من حيث التَّاريخ ، والتَّقاليد »[(٣)] .

وأضاف نجم الدِّين قائلاً : « الدِّين هو معتقدٌ أساسيٌّ ، ونظامٌ فكريٌّ للأفراد ، وهذا يعني الاعتراف بحقِّ الحرِّيَّة ، والوجود ، والاعتراف بحقوق المعتقد للفرد . إنَّ حرمان الشَّخص من هذه الأسس هو ضدُّ الرُّوح والمبادىء الأساسيَّة للدُّستور خاصَّةً الفقرة « ١ » من المادَّة « ١٩ » والمادَّة « ٢٠ » من الدُّستور[(٤)] .

بعد هدوء جوِّ العنف ، والقلق السِّياسي في السِّياسة الدَّاخليَّة التُّركيَّة من جرَّاء الأحكام العرفيَّة ؛ قام أربكان بلمِّ شعث حزب النِّظام الوطني ، وأسَّس حزباً جديداً أطلق عليه « حزب السَّلامة الوطني » .

استطاع حزب السَّلامة الوطني خلال مدَّةٍ قصيرةٍ لا تتجاوز ثمانية أشهر من تنظيم قواعد في ٦٧ محافظة ، وأعلن نجم الدِّين أربكان بأنَّ نجاح حزبه خلال هذه

---

(١) انظر : الحركة الإسلاميَّة في تركيا ، د . النُّعيمي ، ص (١٢٨) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٢٨) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٢٨) .
(٤) انظر : المعالم الرَّئيسيَّة للأسس التَّاريخيَّة لحزب السَّلامة الوطني ، ص (٤٣٥) .

المدَّة يعود إلى تعاطف الرَّأي العام المحلِّي مع الحزب الَّذي ينادي بأهمِّيَّة الأخلاق الدِّينيَّة ، والمواقف المعنويَّة ، وعلى هذا الأساس فقد أكَّد حزب السَّلامة الوطني في برنامجه على ما يأتي :

(قيام تجمُّع يعتمد الفضيلة ، والأخلاق ، ويعطي القيمة المعنويَّة للإنسان مثلما نصَّت عليه المادَّتان العاشرة ، والرَّابعة عشرة من الدُّستور ، والَّتي تؤكِّد على القيمة المعنويَّة للإنسان على أساسٍ من الأخلاق ، والفضيلة)[١] .

●● أهمُّ أعمال حزب السَّلامة :

عندما شعر حزب السَّلامة بقوَّته ، وصار جزءاً من الحياة السِّياسيَّة في تركيَّا شرع منظِّرو الحزب بشنِّ حملةٍ إعلاميَّةٍ منظَّمةٍ على أسس العلمانيَّة في تركيَّا ، وبيَّنوا للنَّاس إنَّ الإطار السِّياسيَّ لتركيَّا الجديدة يناقض المبادىء السِّياسيَّة للإسلام ، ويقضي الإسلام بتوحيد السُّلطات السِّياسيَّة ، والدِّينيَّة تحت سيطرة الدِّين ، وفي هذا المعنى فإنَّ العلمانيَّة ، والنِّظام العلماني ضدَّ الإسلام ، والشَّريعة ، والدِّين وخاصَّةً تطبيقها في تركيَّا ، فإنَّها صُمِّمت لضمان الزَّندقة[٢] .

ويردف هؤلاء : « إنَّ الخونة والكذَّابين هم وحدهم الَّذين يقولون بأنَّ الدِّين والسِّياسة شيئان منفصلان ؛ لأنَّ المسلمين لا يفصلون شؤون الدُّنيا عن شؤون السَّماء . لقد أصبح واضحاً بأنَّ التَّشريع ليس من حقِّ الإنسان . أمَّا إذا وضع القوانين ، أو ادَّعى بأنَّه يفعل ذلك ، فإنَّ علمه هذا يعدُّ خطيئة . . إنَّ خالق القوانين الإسلاميَّة هو نفسه خالق الإنسان ، ولقد خلق الله الإنسان وفق هذه القوانين . إنَّ القوانين الإنسانيَّة لا تتناسب وطبيعة الإنسان . إنَّ الإسلام نظام يصلح لكلِّ زمانٍ ، إنَّه يمثِّل كلاً من الدِّين والدَّولة ، إن القرآن لم ينزل ليقرأ في القبور ، أو يغلق عليه في أماكن العبادة ، لقد أنزل القرآن ؛ ليحكم »[٣] .

إنَّ المجاهد االكبير نجم الدِّين أربكان شقَّ طريقه بصعوبةٍ في محاربته للعلمانيَّة بالحجَّة ، والبرهان ، ولقد عبَّر عن آرائه بصراحةٍ خلال مباحثاته مع ضياء الحقِّ

---

(١) انظر : الحركة الإسلاميَّة الحديثة ، د . النُّعيمي ، ص (١٣٠) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٣١) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .

حاكم باكستان سابقاً ـ رحمه الله ـ مؤكِّداً : أنَّ دخول الإسلام في كلِّ جوانب الحياة هو الشَّرط الوحيد لقيام دولةٍ إسلاميَّةٍ ، وفي هذا المجال قال نجم الدِّين أربكان : « قبل كلِّ شيءٍ يجب أن تكون الدَّولة إسلاميَّةً ، إذا لم يكن الأمر كذلك ؛ فإنَّ الدِّين الإسلاميَّ في خطرٍ »(١) .

إنَّ حزب السَّلامة الوطني لم يحاول أن يتَّخذ موقف الهجوم المباشر على الدِّيمقراطيَّة في انتخابات عام ١٩٧٣ م ، إلا أنَّهم عبَّروا عن مشاعرهم الحقيقيَّة عن ذلك في عام ١٩٨٠ م ، حيث بدؤوا ينتقدون الدِّيمقراطيَّة مؤكِّدين أنَّها تتعارض مع مبادىء الإسلام(٢) .

وفي هذا المجال أكَّد حزب السَّلامة : أنَّ « الدِّيمقراطيَّة مؤامرةٌ غربيَّةٌ لقيادة الجهلة بموجب الأساليب الغربيَّة ، والمسيحيَّة . إنَّه انتصارٌ للمسيحيَّة ضدَّ الإسلام ، لذلك يجب تطبيق القوانين الإلهيَّة ؛ إذ لا يمكن للإنسان تشريع قوانين يمكن تطبيقها »(٣) .

وبالإمكان تلخيص وجهة نظر حزب السَّلامة الوطني عن الرَّأسماليَّة ، والاشتراكية في مقالةٍ لنجيب فاضل ، جاء فيها :

« نحن نقسِّم طريق الخلاص إلى مجموعتين : الأولى : هي طريقة الإسلام في الخلاص ، والثَّانية : يمكن تصنيفها كنظمٍ وراثيَّةٍ ، والَّتي لا توصل إلى الخلاص . إنَّ المجموعة الثَّانية لا تعتمد على التَّعاليم الإلهيَّة ، وتناقض نفسها باعتمادها على قوانين من صنع الإنسان ، مثل : الشُّيوعيَّة ، والرَّأسماليَّة ، والاشتراكيَّة ، والدِّيمقراطيَّة . لقد تمَّ التَّأكيد أيضاً على أنَّ الله قد أمرنا أن نحكم طبقاً لتعاليم القرآن الكريم ، وليس حسب آرائنا الخاصَّة . إذا حكم النَّاس حسب نظام التَّصويت ، فإنَّهم لن يكونوا بحاجة إلى كلام الله . في المجتمعات الَّتي تُحلُّ فيها كلُّ القضايا وفقاً لنظام التَّصويت ، لا ينتشر الإسلام »(٤) .

---

(١) انظر : الحركة الإسلاميَّة الحديثة ، ص (١٣٢) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٣٥) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه .
(٤) المصدر السَّابق نفسه .

أمَّا فيما يتعلَّق بموقف الحزب من الولايات المتَّحدة ؛ فقد عارض الحزب الوجود الأمريكيَّ في الأراضي التُّركيَّة ، كما عارض استخدام الولايات المتَّحدة الأراضي التُّركيَّة في استخدامها ضدَّ دول منطقة الشَّرق الأوسط . ونتيجةً لهذا فقد انتقد الحزب حكومة ديمريل في أواخر عام ١٩٧٩ م بسبب زيادة النَّشاط العسكريِّ الأمريكيِّ في تركيَّا ، حيث قدَّم استجواباً إِلى مجلس النُّواب التُّركي مطالباً فيه محاسبة حكومة ديمريل بسبب هذا النَّشاط الأمريكيِّ ، وقد دلَّل هذا على قيام طائرتين بالهبوط في مطار مالقا ، وهما تحملان ١٨٠ عسكريّاً مع أحدث المعدَّات الحربيَّة ، مؤكِّداً : أنَّ هذا يشكِّل تهديداً لأمن المنطقة .

وفي الحقيقة استطاع الحزب أن يشكِّل رأياً عامَّاً مناهضاً للغرب ، والولايات المتَّحدة عن طريق المشكلة القبرصيَّة ، والَّتي قام فيها أربكان بدورٍ رئيسيٍّ في إِقناع القيادات العسكريَّة بإِنزال قوَّاتها في الجزيرة . فقد تولَّى القيادة مدَّة غياب أجويد في زيارةٍ لدول أوربَّة الشَّماليَّة .

ولقد عمل الحزب بقيادة أربكان على إِفشال جميع الخطط ، والمشاريع اليونانيَّة في بحر إِيجه ، وفي هذا المجال يقول أربكان : « سنتحرَّك وفق أسس العدل ، والحقِّ ، لا وفق الأسس الَّتي تحدِّدها الأقطار الأوربيَّة الكبيرة »[١] .

وفيما يتعلَّق بالسُّوق الأوربيَّة المشتركة يقول أربكان : « إِنَّ تركيَّا يجب ألا تكون في السُّوق الأوربيَّة المشتركة للدُّول الغربيَّة ، وإِنَّما في السُّوق المشتركة للدُّول الشَّرقيَّة ، إِنَّ تركيَّا متخلِّفةٌ بالنِّسبة للغربيِّين ، ولكنَّها متقدِّمةٌ بالنِّسبة للشَّرقيِّين ، إِذا دخلت تركيَّا السُّوق المشتركة في الأوضاع السَّائدة اليوم فإِنَّها ستصبح مستعمرةً »[٢] .

لقد كان لحزب السَّلامة تأثيرٌ كبيرٌ في الشَّارع التُّركي ، وعمل على إِعادة الهويَّة الإِسلاميَّة ، ونازل بحجج الإِسلام ، وبراهينه الأنظمة الاشتراكيَّة ، والرَّأسماليَّة ، وكان زعيمه نجم الدِّين أربكان يتحدَّث بعزَّة الإِسلام ، ويوضِّح للشَّعب التُّركي خطورة الانحراف عن منهج الله ، ويوجِّه صواريخه إِلى أعداء الإِسلام ، وفي هذا

---

(١) انظر : الأحزاب السِّياسيَّة في تركيَّا ، حسين فاضل كاظم ، ص (١٩٢) .
(٢) انظر : الحركة الإِسلاميَّة الحديثة في تركيَّا ، د . النُّعيمي ، ص (١٣٧) .

المجال يقوِّم لنا نجم الدِّين أربكان النِّظامين الاشتراكي ، والرَّأسمالي ، وفيما يتعلَّق بالأوَّل يقول أربكان : « إِنَّه فكرٌ يهدِّد الحرِّيات ، ويضرُّ بالكيان القومي ، ويركِّز على مصادر أجنبيَّة »[١] ، أمَّا فيما يتعلَّق بالثَّاني يقول أربكان : « الفكر الرَّأسماليُّ هو فكرٌ يقوم على الرِّبا ، ومصدره أجنبيٌّ أيضاً ، أمَّا حزب السَّلامة فيمضي في طريقه رافعاً راية الأخلاق ، والأصالة .

إِنَّ النِّظام الرَّأسماليَّ ، والنِّظام الاشتراكي لا يقتصران على ميدان الاقتصاد ، وإِنَّما يمتدُّ تأثيرهما إِلى الميدانين الاجتماعي ، والمعنوي ، ورغم اختلاف النِّظامين في الظَّاهر ، فكلاهما مادِّيٌّ ، وكلاهما يعمل على النُّهوض بالجانب المادِّي في مقابل انحطاط الأخلاق ، والمعنويَّات ، وكلاهما يزداد ارتفاعاً مادِّيّاً مع هبوط الثَّقافة ، والأخلاق »[٢] .

إِنَّ غاية حزب السَّلامة هو الوصول إِلى فهم « تركيَّا الكبرى » وحرص على التَّمسُّك بالماضي العثماني المجيد ، وبيَّن للنَّاس أهمِّيَّة الالتزام بالإِسلام ، واتَّبع سياسةً تؤدِّي في مداها البعيد للقضاء على مبادىء أتاتورك العلمانيِّ ، وهو في نفس الوقت يدعو إِلى عدم التَّعاون مع العناصر غير الإِسلاميَّة في تركيَّا ، وهو في نفس الوقت يعارض الشُّيوعيَّة بعنفٍ ، ويؤكِّد على أنَّ أفضل طريقةٍ لانتشار المبادىء الإِسلاميَّة هو توفير الحياة الحرَّة للمواطن التُّركيِّ .

ودعا أربكان إِلى ضرورة تطوير علاقات تركيَّا مع العالم الإِسلامي في المجالات كافَّةً ، حيث قال : « وألا تظلَّ هذه العلاقات صوريَّةً ، وإِنَّما يجب أن تكون علاقاتٍ فعليَّةً متطوِّرةً ، حيث إِنَّ في العالم ما يقرب من خمسين دولةً إِسلاميَّة ، يبلغ سكَّانها ملياراً ، وهذه الدُّول الإِسلاميَّة سوقٌ طبيعيَّةٌ قويَّةٌ لإِنتاجنا »[٣] .

وعلى هذا الأساس ، فقد انتقد أربكان كلاًّ من الصَّهيونيَّة والماسونيَّة[٤] حيث قال في هذا المجال : « إِنَّ الصَّهيونيَّة ، والماسونيَّة حاولا عزل تركيَّا عن العالم

---

(١) انظر : يقظة الإِسلام في تركيَّا ، أنور الجندي ، ص (٢٩ ، ٣٠) .
(٢) انظر : يقظة الإِسلام في تركيَّا ، ص (٣٠) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٣٠) .
(٤) انظر : الحركة الإِسلاميَّة الحديثة في تركيَّا ، د . النُّعيمي ، ص (١٤١) .

الإسلاميِّ ، ومؤامراتهم مستمرَّةٌ ، ذلك : أنَّ المعركة بين الإسلام في تركيَّا ، والصَّهيونيَّة قد اتَّخذت أشكالاً عدَّةً ، وهي حربٌ طويلة المدى ، ومستمرَّةٌ منذ خمسة قرون ، منذ فتح السُّلطان محمَّد الفاتح القسطنطينيَّة ، وعمل على فتح رومية ، ولكنَّ هذا الصِّراع في المئة سنة الأخيرة ، أخذ شكلاً مخطَّطاً أُعِدَّ له سلفاً ، فاستطاعت بعض القوى عام ١٨٣٩ م أن تؤثِّر في جسم الدَّولة الفكري ، وتدخل القوانين الوضعيَّة البعيدة عن الإسلام بوساطة المنظَّمات اليهوديَّة الماسونيَّة .

وقسَّم العمل اليهوديَّ في تركيَّا إلى ثلاث مراحل مدَّتها ثلاثون سنةً ، وهي عبارةٌ عن تنفيذ فكرة ليتويود ، وهرتزل بإسقاط الدَّولة الإسلاميَّة في تركيَّا ، أمَّا المرحلة الثَّانية فقد استمرَّت عشرين سنةً ، وكانت لإبعاد تركيَّا عن الإسلام ، ثمَّ نشأ حزب الاتِّحاد والتَّرقِّي ، وكانت له علاقةٌ باليهود والماسونيَّة ، ومن ثمَّ استطاع إسقاط السُّلطان عبد الحميد ، وبدأ في إبعاد تركيَّا عن النَّمط الإسلامي ، وتغريبها بطرقٍ عديدةٍ ، أهمُّها العلمانيَّة الَّتي كانت تعني في تركيَّا بالتَّحديد اضطهاد المسلمين[١] .

وقد خاض حزب السَّلامة الوطني الانتخابات العامَّة لعام ١٩٧٣ م حيث حصل على ١١,٩٪ من الأصوات ، أي بواقع ١,٢٤ مليون من أصوات النَّاخبين ، ونتيجةً لذلك فقد مثَّل نفسه في المجلس الوطني التُّركي بواقع ٤٥ مقعداً[٢] .

وقد أعلن أربكان عشيَّة انتخابات ١٩٧٣ م : « إنَّنا سنعيد عهد الرَّسول ﷺ » كما أعلن أربكان بعد الانتخابات : أنَّ شعار حزبه هو ـ المفتاح ـ وهذا ما سيؤهِّل للحزب فتح الطُّرق المغلقة أمامه ، ويكون مفتاح كلِّ الحكومات الائتلافيَّة[٣] .

ونتيجةً لذلك فقد تكوَّنت أوَّل حكومةٍ ائتلافيَّةٍ ، ضمَّت حزب الشَّعب الجمهوري ، وحزب السَّلامة الوطني ، وذلك في ٢٥ كانون الثَّاني ١٩٧٤ م ، حيث ضمَّت الوزارة ثمانية عشر وزيراً من أعضاء حزب الشَّعب الجمهوري ، وسبعة أعضاء من حزب السَّلامة .

وبفضل الله تعالى ، ثمَّ جهود حزب السَّلامة الوطني بقيادة أربكان ، مثَّلت تركيَّا

---

(١) انظر : الصَّحوة الإسلاميَّة منطلق الأصالة وإعادة بناء الأمَّة على طريق الله ، الجندي ، ص (١١٧) .
(٢) انظر : الحركات الإسلاميَّة الحديثة في تركيَّا ، د . النُّعيمي ، ص (١٤٢) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٤٣) .

ولأوّل مرّةٍ في آذار ١٩٧٤ م في مؤتمر القمَّة الإسلامي ، وقد اختير وزير الدَّاخليَّة التُّركي « وهو من حزب السَّلامة الوطني » في هذا المؤتمر .

إنَّ نشاط حزب السَّلامة الوطني خلال السَّبعينيَّات أدَّى إلى خرق المظاهر العلمانيَّة في تركيَّا ، حيث انتشرت بعض المظاهر الإسلاميَّة ، وخاصَّةً في شهر رمضان ، كما تمَّ التَّوسُّع في المدارس الإسلاميَّة ، حيث سمح لها بتدريب الأئمَّة والوعَّاظ ، وأصبحت هذه المدارس تعلِّم حوالي ١٠٪ من الطُّلاب في المدارس الثَّانويَّة بما فيهم ٥٠,٠٠٠ من العنصر النِّسائي في تركيَّا ، وفي الحقيقة وصل التَّصويت الإسلامي بين ١٠٪ ـ ١٥٪ ، وقد اعتبر العلمانيُّون هذه النِّسبة بمثابة خطرٍ على المدنيَّة التُّركيَّة[1] .

وبتأثيرٍ من حزب السَّلامة الوطني ، وطلاب النُّور في تركيَّا خرجت إلى حيِّز الوجود سلسلة « ألف كتاب » الَّتي دعمتها وزارة التَّربية ، وتناولت هذه السِّلسلة الثَّقافة التُّركيَّة بمعيارٍ إسلاميٍّ ، وأخذ حزب السَّلامة يعمِّق المفاهيم الإسلاميَّة في المجلس الوطنيِّ التُّركيِّ الكبير ، وهاجمت الصُّحف الإسلاميَّة في تركيَّا كمال أتاتورك ، وأطلقت عليه اسم « الدَّجَّال » وضغط حزب السَّلامة الوطني على رئاسة الشُّؤون الدِّينيَّة حتَّى أصدرت بياناً في حزيران ١٩٧٣ م أكَّدت فيه على دعوة المرأة التُّركيَّة إلى الحجاب .

وحينما سافر أربكان إلى السُّعوديَّة عام ١٩٧٤ م ـ وكان وقتئذٍ نائباً لرئيس الوزراء ـ بدأ زيارته للكعبة ، وفي الرِّسالة الَّتي كتبها للملك فيصل ـ رحمه الله ـ ذكر ما يلي : « إنَّ معرفة الشَّعب ، والحجَّاج للمشاريع الَّتي ستقام في المناطق الشَّرقيَّة ، والجنوبيَّة الشَّرقيَّة بالقروض الَّتي ستمنحونها لتركيَّا تعدُّ من الأمور الهامَّة ، إنَّ دعمكم لموقفي في تركيَّا سيفتح لتركيَّا مرحلةً جديدةً في العالم الإسلاميِّ ، ومساعدتكم لنا في هذا المجال سوف تدعم هذه المرحلة »[2] .

واستطاع أربكان أن يمرِّر قانوناً في البرلمان يسمح بموجبه للأتراك السَّفر برّاً إلى الحجِّ ، وكان ذلك ممنوعاً[3] .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٤٥) .
(٢) انظر : الحركة الإسلاميَّة الحديثة في تركيَّا ، د . محمَّد مصطفى ، ص (٢٠٧) .
(٣) انظر : الحركة الإسلاميَّة الحديثة في تركيَّا . د . النُّعيمي ، ص (١٤٧) .

لقد كانت خطوات حزب السَّلامة الوطنيِّ جريئةً في المجتمع التُّركيِّ ، ولذلك لم يتحمَّل الجيش التُّركيُّ خادم العلمانيَّة في تركيَّا هذه الأعمال الحميدة ، ولذلك تدخَّل الجيش بانقلابه الَّذي قضى على التَّعدُّديَّة ، والحرِّيَّة السِّياسيَّة في ١٢ أيلول ١٩٨٠ م ، وقد سبق هذا الانقلاب مظاهراتٌ كبيرةٌ في مدينة قونيا يوم ٦ أيلول ، ونادى المتظاهرون بتأسيس دولةٍ إسلاميَّةٍ ، وقام أنصار حزب السَّلامة بالاستهزاء بكلِّ ما يؤمن به أتاتورك ، والمؤسَّسة العسكريَّة . وقد هتف هؤلاء الَّذين جاؤوا من جميع أنحاء البلاد بالشِّعارات الدِّينيَّة ، وطالبوا باستخدام الشَّريعة الإسلاميَّة في التَّعامل السِّياسي الدَّاخلي ، ومنعوا عزف النَّشيد الوطني[(١)] .

واحتجَّ المتظاهرون على ضمِّ القدس ، ونادوا بقطع العلاقات مع إسرائيل ، ودعوة إسرائيل للمناداة بالقدس الحرَّة ، كما دعا أربكان في هذه التَّظاهرة إلى بدء الصِّراع لإنهاء العقليَّة الغربيَّة الزَّائفة والَّتي تحكم تركيَّا ، وقد كتب المتظاهرون الشِّعارات باللُّغة العربيَّة ، وقام هؤلاء بحرق العلم الصَّهيوني ، والأمريكي ، والسُّوفيتي ، ونادى المتظاهرون بشعار « الموت لليهود » ولا سيَّما أنَّ مدينة قونيا تضمُّ أعداداً من طائفة اليهود ، والَّتي يبلغ عددها ٢٠,٠٠٠ يهوديٍّ ونادى المتظاهرون أيضاً : « جاء دور القانون الدِّيني ، وانتهت الهمجيَّة ، الشَّريعة أو الموت ، إنَّ الدَّولة الملحدة يجب أن تدمَّر ، وإنَّ القرآن هو دستورنا ، نريد دولةً إسلاميَّةً بدون الحدود ، والطَّبقات »[(٢)] .

كانت شعبيَّة حزب السَّلامة الوطني ترتقي لأنَّه التزم القضايا الإسلاميَّة علناً خصوصاً في العامين ١٩٧٩ م ، ١٩٨٠ م ، واضطرَّ الحزب الجمهوري ، وحزب العدالة لإرضاء حزب السَّلامة الوطني ، وقدَّما تنازلاتٍ للاتِّجاه الإسلامي ، طمعاً في المساعدات الاقتصاديَّة من الأقطار الإسلاميَّة ، والحاجة الملحَّة إلى بترولها .

لم يستح قادة الجيش التُّركي بعد انقلابهم العسكري أن يقولوا : بأنَّ سبب تدخُّلهم من أجل وقف المدِّ الإسلاميِّ .

اتَّخذ الانقلابيُّون قراراً بحظر جميع الأحزاب السِّياسيَّة ، وحجز قادتها ،

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٥١) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .

وتقديمهم للمحاكمة ، وكان من الطَّبيعي أن يحاكم حزب السَّلامة الوطني ، وأن توجَّه التُّهم لزعيمه أربكان ، وزملائه المجاهدين ، وكانت كلُّ التُّهم تدور حول حرص حزب السَّلامة على إعادة دولة الإسلام لتركيَّا ، والتَّخلُّص من الأفكار العلمانيَّة ، والمبادىء الكماليَّة . إنَّ الغطرسة التُّركيَّة العلمانيَّة أعلنت بكلِّ وقاحةٍ على لسان الجنرال إيفرن رئيس أركان الجيش التُّركي بأنَّ لها من القوَّة بحيث تستطيع أن تقطع لسان كلِّ من يتهجَّم على أتاتورك[١] .

لقد استطاع حزب السَّلامة الوطني أن يُدخل بعض التَّغييرات في السُّلوك السِّياسي الدَّاخلي التُّركي ، من بين ذلك تحقيق الأذان في الجوامع ، وباللُّغة العربيَّة ، وفرض قراءة القرآن الكريم في محطَّات الإذاعة ، والتِّلفزيون ، وكان ذلك محرَّماً منذ مجيء المفسد الكبير مصطفى كمال إلى الحكم .

لقد أصبح أربكان مع حزبه المجاهد مَعْلَماً من معالم الحركة الإسلاميَّة المعاصرة في تركيَّا . ولقد أثَّرت حركة حزب السَّلامة في الأوساط الإسلاميَّة ، والطُّرق الصُّوفيَّة ، والزَّوايا التَّقليديَّة ، ووجدت من التَّيَّار الإسلاميِّ التَّقليديِّ من يناصرها ، ويقف بجانبها ، ويدعمها ، وحكمت المحكمة العسكريَّة الظَّالمة في عام ١٩٨٣ م على المجاهد أربكان بالسِّجن لمدَّة أربعة أعوامٍ ، وعلى ٢٢ عضواً من أعضاء حزب السَّلامة الوطني بالسِّجن لمدَّةٍ تصل إلى ثلاثة أعوامٍ ، ونصف[٢] .

وقام الجيش التُّركيُّ بتسريح كلِّ من تشمُّ منه رائحةً إسلاميَّةً ، وأعلن إيفرن في حملته الَّتي استهدفت الإسلاميِّين داخل القوَّات المسلَّحة بأنَّ هؤلاء المسلمين « كان هدفهم الوصول إلى المراتب العليا في القُوَّات المسلَّحة ، ماذا سيحدث لو أنَّهم أمسكوا بزمام الجيش »[٣] وأضاف قائلاً : « قد يحوِّلون البلاد إلى أيِّ نوعٍ من الأنظمة الَّتي يريدون ، هل هذا نشاطٌ دينيٌّ ، أم خيانةٌ ؟ »[٤] .

وبدأت القيادة العسكريَّة في تركيَّا تبحث عن حلٍّ لمشاكلها السِّياسيَّة ، وإرضاء

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٥٠) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٥٦) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٦٥) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه .

الضُّغوط الأوربيَّة ، الَّتي اتَّهمت تركيَّا بخرق حقوق الإنسان ، ويجب عليها إعادة الدِّيمقراطيَّة من جديد ، فشكَّلت لجاناً جديدةً لصنع دستورٍ للبلاد بحيث يعطي الرَّئيس التُّركيَّ الحقَّ في فرض حالة الطوارىء ، وحلِّ البرلمان ، والدَّعوة إلى انتخاباتٍ جديدةٍ ، وبذلك يكون باستطاعة العلمانيِّين قطع محاولات الإسلاميِّين المستمرَّة للقضاء على الدُّستور العلماني ، وعدَّلت القوانين بحيث تكون للقيادة العسكريَّة حقُّ الاحتفاظ ببعض السَّيطرة على الحياة السِّياسيَّة في تركيَّا .

وبعد إعلان الدُّستور الجديد في عام ١٩٨٢ تكوَّنت أحزابٌ سياسيَّةٌ ، وظهر حزب الرَّفاه ، وهو امتدادٌ طبيعيٌّ لفكر السَّلامة الوطني ، وبدأت العناصر الإسلاميَّة تتوافد على هذا الحزب الجديد ، والَّذي تعرَّض لمعارضة الجيش والضَّغط عليه لمنعه من دخول انتخابات عام ١٩٨٣ م ، إلاَّ أنَّه خاض الانتخابات وحصل على نسبة ٥٪ من الأصوات[١] .

إضافة إلى ذلك ، اشترك حزب الرَّفاه في انتخابات تشرين أوَّل ١٩٨٧ م ، حيث فاز بـ ٧,٠٦٪ من الأصوات[٢] .

وبدأت الجماعات الإسلاميَّة تتمحور حول حزب الرَّفاه ، وشرع حزب الرَّفاه في قيادة الحركة الإسلاميَّة في جميع المدن التُّركيَّة ، وحتَّى المحافظات الكبرى ، والقرى المتباعدة الأطراف ، وانتعشت الحركة الإسلاميَّة مع تسلُّم أوزال السُّلطة ، وهو المتعاطف مع الإسلام في تركيَّا ، خاصَّةً أنَّ أعداداً كبيرةً من قيادة حزبه ـ حزب الوطن الأم ـ من الوجوه الإسلاميَّة المعروفة في تركيَّا ، ودخلت كوادر قياديَّة هامَّة من حزب السَّلامة المنحلّ إلى حزب الوطن الأمِّ الَّذي نجح في انتخابات عام ١٩٨٣ م بأغلبيَّةٍ كبيرةٍ ، وشجَّعت حكومة أوزال نشاط المساجد ، والمدارس الدِّينيَّة ، واهتمَّ وزير الدَّولة المشرف على الشُّؤون الدِّينيَّة « كاظم اكصوى » بدورات تعليم القرآن الكريم ، والَّتي كانت في بداية الثَّمانينيَّات ٢٠٠ دورة رسميَّة ، ووصلت إلى ٣٠٠٠ دورة في عام ١٩٨٧ م ونشطت الطُّرق الدِّينيَّة ، وقام كاظم اكصوى بجعل بعض المؤسَّسات الدِّينيَّة ، والبنوك مثل بنك الأوقاف من أهمِّ المراكز

(١) المصدر السَّابق نفسه ، (١٧٩) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .

الَّتي تغذِّي الحركة الإِسلاميَّة في تركيَّا[١] .

واستمرَّ حزب الرَّفاه في جهاده السِّلمي ، والتَّوغُّل المتَّزن في أعماق الشَّعب المسلم التُّركي ، الَّذي لا تزال أعمال حزب السَّلامة في ذاكرته ، ووجدانه ، والَّتي أعادت للمجتمع التُّركي وجوده ، وحضوره الإِسلاميَّ ، واستطاع حزب الرَّفاه الَّذي هو امتداد لحزب السَّلامة في مارس عام ١٩٩٤ م أن يتحصَّل على أهمٍّ ، وأكبر البلديَّات في تركيَّا ، وعلى فوزه بانتخابات ديسمبر عام ١٩٩٥ م كأكبر حزب في البلاد ، تسلَّم على أثرها السُّلطة في ائتلافٍ حكوميٍّ مع حزب الطَّريق القويم في يونيو ١٩٩٦ م[٢] .

وأصبح المجاهد الكبير نجم الدِّين أربكان رئيس الوزراء ، وقام بإِصلاحاتٍ اقتصاديَّةٍ رائعةٍ ، وارتفعت الرَّواتب في فترةٍ وجيزةٍ ، وتقدَّم مندفعاً كالسَّهم نحو الدَّعوة لإِقامة سوقٍ إِسلاميَّةٍ مشتركةٍ ، ورفض دخول تركيَّا السُّوق الأوربيَّة المشتركة ، فكانت دعوة إِلى قيام أممٍ إِسلاميَّةٍ متَّحدةٍ ، ومجلسٍ إِسلاميٍّ مشتركٍ ، وضرب ممثِّلو حزب الرَّفاه في البلديَّات ، وعلى مستوى الدَّولة أروع الأمثلة في النَّزاهة ، والعفَّة ، وطهارة اليد ، والمقدرة على التَّخطيط ، واهتمَّت مؤسَّسات الحزب بتقديم وتحسين أداء الخدمات للمواطنين . وتعاطف الشَّعب التُّركي مع حزب الرَّفاه حتَّى كثيرٌ من المومسات أعطين أصواتهنَّ لحزب الرَّفاه الَّذي عمل على إِيجاد فرصٍ للعمل الشَّريف لهنَّ ، وترك بيوت الدَّعارة ، والفساد ، والرُّجوع إِلى الله بالتوبة ، والمغفرة .

ولقد عالج ممثِّل الرَّفاه ، والَّذي تولَّى بلديَّة إِستانبول مشاكل العاصمة بكلِّ جدارةٍ ، وتضاعفت ميزانيَّة البلديَّة بعد أن كانت دائماً تشتكي من العجز المالي بسبب الاختلاس .

لم يرضَ اليهود ، والعلمانيُّون عن هذه المكاسب العظيمة الَّتي حقَّقتها الحركة الإِسلاميَّة في تركيَّا ، فدفعوا قادة الجيش لممارسة ضغوطهم على الأحزاب حتَّى قضَوا على التَّحالف بين حزب الطَّريق القويم ، وحزب الرَّفاه ، وتقدَّم حزبٌ علمانيٌّ

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٨٣) .
(٢) انظر : تحدِّياتٌ سياسيَّةٌ تواجه الحركة الإِسلاميَّة ، مصطفى الطَّحَّان ، ص (١١٨) .

متطرِّف مدعومٌ بقوَّة العسكر ، ورجال الاقتصاد العلمانيِّين ، وقدَّموا حزب الرَّفاه إلى المحكمة الدُّستوريَّة الَّتي حكمت بحلِّ حزب الرَّفاه ، ومصادرة أملاكه عام ١٩٩٧ م ، ولا يزال الإسلاميُّون في تركيَّا يديرون صراعهم مع اليهود ، والعلمانيِّين ، وأعداء الإسلام بكلِّ جدارةٍ ، وشجاعةٍ ، وذكاءٍ ، وإنِّي على يقينٍ راسخٍ لا يتزعزع : أنَّ الحركة الإسلاميَّة في تركيَّا ستصل إلى الحكم ، وتطبِّق شرع الله بإذن الله ، لأنَّ كلَّ المؤشِّرات ، والسُّنن تقول ذلك .

وأختم بالتَّجربة الإسلاميَّة في تركيَّا هذا الحوار للأستاذ والمجاهد الكبير الَّذي نخر أعمدة العلمانيَّة في تركيَّا البروفسور نجم الدِّين أربكان . سأله صحفيٌّ مسلمٌ مشهورٌ بقوله : إنَّ المشاركة في العمليَّة الانتخابيَّة أمرٌ لا يجوز من النَّاحية الشَّرعيَّة . . وهي مساهمةٌ في تقوية النِّظام الجاهلي الَّذي يعتمد مثل هذه الأساليب . . فردَّ أربكان : ماذا نفعل إذاً ؟ . . هل كان بإمكاننا أن نحقِّق المكاسب الكبرى على صعيد الحرِّيَّات الشَّخصيَّة والعامَّة . . ونؤسِّس هذه المئات من المدارس الإسلاميَّة . . ونرفع أصواتنا في البرلمان لتعديل المواد الدُّستوريَّة الَّتي تحدُّ من الحرِّيَّات الدِّينيَّة ، ونعيد للنَّاس ثقتهم بأنفسهم ، وبدينهم ، ونحاصر الشَّرَّ بأنواعه حتَّى يكاد ينحسر عن بلادنا بغير هذه الوسائل الَّتي ترفع من مستوى أداء الجميع أفراداً ، وجماعاتٍ ، وتدفع الجميع لتحمُّل مسؤوليَّاتهم في إعادة البناء ؟[1] .

إنَّ التَّيَّار الإسلاميَّ في تركيَّا لا يزال في نموٍّ متصاعدٍ على الرَّغم من ضخامة مخطَّطات الأعداء المحيطين به ، وجسامة الأخطار الَّتي يواجهها من اليمين واليسار على السَّواء ، وإنَّنا لمنتظرون تحقيق وعد الله تعالى في قوله :

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الرَّعد : ١٧] .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس : ٨١] .

وقوله تعالى : ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [التَّوبة : ٣٢] .

* * *

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٨٧) .

المبحث الثَّامن
أسباب سقوط الدَّولة العثمانيَّة

● تمهيد :

إنَّ أسباب سقوط الدَّولة العثمانيَّة كثيرةٌ ، جامعها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى الَّذي جلب للأفراد والأمَّة تعاسةً ، وضنكاً في الدُّنيا ، وإنَّ آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة في وجهتها الدِّينيَّة ، والاجتماعيَّة ، والسِّياسيَّة ، والاقتصاديَّة .

وإنَّ الفتن تظلُّ تتوالى ، وتترى على النَّاس حتَّى تمسَّ جميع شؤون حياتهم .

قال تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣] .

لقد كان في ابتعاد أواخر سلاطين الدَّولة العثمانيَّة عن شرع الله تعالى آثاره على الأمَّة الإسلاميَّة ؛ فتجد الإنسان المنغمس في حياة المادَّة ، والجاهليَّة مصاباً بالقلق، والحيرة ، والخوف ، والجبن ، يحسب كلَّ صيحةٍ عليه ، يخشى من النَّصارى ، ولا يستطيع أن يقف أمامهم وقفة عزٍّ ، وشموخٍ ، واستعلاءٍ ، وإذا تشجَّع في معركة من المعارك ضعف قلبه أمام الأعداء من أثر المعاصي في قلبه ، وأصبح في ضنكٍ من العيش : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه : ١٢٤].

وقد أصيبت الشُّعوب الإسلاميَّة في مراحل الدَّولة العثمانيَّة الأخيرة بالتَّبلُّد ، وفقد الإحساس بالذَّات ، وضعف ضميرها الرُّوحي ، فلا أمرٌ بمعروفٍ ولا نهيٌ عن منكرٍ ، وأصابهم ما أصاب بني إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، قال تعالى :

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة : ٧٨ ، ٧٩] .

فإنَّ أيَّ أمَّةٍ لا تعظِّم شرع الله أمراً ونهياً تسقط كما سقط بنو إسرائيل . قال

رسول الله ﷺ : « كلا والله لَتَأْمُرُنَّ بالمعروف ولتَنْهَوُنَّ عن المنكر ولتأخُذُنَّ على يد الظَّالم ، ولتأطُرُنَّه على الحقِّ أطراً ، ولتقصُرُنَّهُ على الحقِّ قصراً ، أو ليضربَنَّ الله بقلوب بعضكم بعضاً ، ثمَّ لَيَلْعَنَنَّكم كما لعنهم »(١) .

لقد تحقَّقت في الدَّولة العثمانيَّة سنَّة الله في تغيير النُّفوس من الطَّاعة ، والانقياد إلى المخالفة ، والتمرُّد على أحكام الله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال : ٥٣] .

كما أنَّ الشُّعوب الَّتي تخضع للحكَّام الَّذين تباعدوا عن شرع الله تذلُّ ، وتهان حتَّى تقوم أمام من خالف أمر الله تطلب العون على إخوانهم في العقيدة . إنَّ انحراف سلاطين الدَّولة العثمانيَّة المتأخِّرين عن شرع الله ، وتفريط الشُّعوب الإسلاميَّة الخاضعة لهم في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر أثَّر في تلك الشُّعوب ، وكثرت الاعتداءات الدَّاخليَّة بين النَّاس ، وتعرَّضت النُّفوس للهلاك ، والأموال للنَّهب ، والأعراض للاغتصاب بسبب تعطُّل أحكام الله فيما بينهم ، ونشبت حروبٌ وفتنٌ ، وبلايا تولَّدت على أثرها عداوةٌ ، وبغضاء لم تزل عنهم حتَّى بعد زوالهم ، وأصبحت شوكة الأعداء من الرُّوس ، والإنجليز ، والبلغار ، والصِّرب ، وغيرهم تقوى ، وتحصَّلوا على مكاسب كبيرة ، وغاب نصر الله عن السَّلاطين ، والأمَّة العثمانيَّة ، وحرموا التَّمكين ، وأصبحوا في خوفٍ ، وفزعٍ من أعدائهم ، وتوالت المصائب ، وضاعت الدِّيار ، وتسلَّط الكفَّار .

إنَّ من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق الدِّين ، والتَّاريخ : أنَّه إذا عُصي الله تعالى ممَّن يعرفونه سلَّط الله عليهم مَنْ لا يعرفونه ؛ ولذلك سلَّط الله النَّصارى على المسلمين في الدَّولة العثمانيَّة .

إنَّ الذُّنوب الَّتي يهلك الله بها الدَّولة ، ويعذِّب بها الأمم قسمان :

١ ـ معاندة الرُّسل ، والكفر بما جاؤوا به .

٢ ـ كفر النِّعم بالبطر ، والأشر ، وغمط الحقِّ ، واحتقار النَّاس ، وظلم الضُّعفاء ، ومحاباة الأقوياء ، والإسراف في الفسق ، والفجور ، والغرور بالغنى

(١) أبو داود ، كتاب الملاحم ، باب الأمر بالمعروف ، رقم الحديث (٤٦٧٠) .

والثَّروة ، فهذا كلُّه من الكفر بنعمة الله ، واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع النَّاس ، والعدل العامِّ . والنَّوع الثَّاني من الذُّنوب هو الَّذي مارسه أواخر سلاطين الدَّولة العثمانيَّة ، وأمراؤهم[١] .

إِنَّ الدَّولة العثمانيَّة في بداية أمرها كانت تسير على شرع الله في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ ، ملتزمةً بمنهج أهل السُّنَّة في مسيرتها الدَّعويَّة ، والجهاديَّة ، آخذةً بشروط التَّمكين ، وأسبابه كما جاءت في القرآن الكريم ، والسُّنَّة النَّبويَّة الشَّريفة . أمَّا في أواخر عهدها ، فقد انحرفت عن شروط التَّمكين ، وابتعدت عن أسبابه المادِّيَّة والمعنويَّة ، قال تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النُّور : ٥٥ ـ ٥٦] .

فكانت الدَّولة الإِسلاميَّة العثمانيَّة في بداية أمرها مستوعبةً لتلك الشُّروط ، أمَّا في أواخر عهدها ؛ فقد أصاب تلك الشُّروط انحرافٌ عن مفاهيمها الأصليَّة ، فمثلاً :

أوَّلاً : من لوازم الإِيمان الصَّحيح الولاء ، والبراء :

فكانت الدَّولة في عصورها المتقدِّمة عاملةً بقول الله تعالى : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران : ٢٨] .

وقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة : ٥١] .

ويقول رسول الله ﷺ : « أوثق عُرا الإِيمان الموالاة في الله ، والمعاداة في الله ، والحبُّ في الله ، والبغض في الله »[٢] .

أمَّا في عصورها المتأخِّرة وخصوصاً في القرنين الثَّالث عشر ، والرَّابع عشر

(١) انظر : دولة الموحِّدين لعلي محمَّد الصَّلابي ، ص (١٧٠) .
(٢) صحيح الجامع الصَّغير (٢/٣٤٣ ح ٢٥٣٦) .

الهجريِّين ؛ فقد أصيب مفهوم الولاء والبراء بالانحراف ، نتيجةً للجهل الذَّريع ؛ الَّذي خيَّم على أغلب أقاليم الدَّولة العثمانيَّة ، والبلدان الإسلاميَّة ، ولغياب العلماء الرَّبَّانيِّين الَّذين ينيرون للأمَّة دروبها ، ويأخذون بزمامها إلى الطَّريق المستقيم . وكان الحكَّام ، والسَّلاطين يصانعون الأعداء من الكافرين ، ويتولَّونهم من دون المؤمنين ؛ حيث كان هؤلاء الكافرون على جانبٍ عظيمٍ من القوَّة المادِّيَّة ، والمسلمون في المقابل على العكس تماماً من الضَّعف ؛ فقد ساعد الواقع الأليم الَّذي كان يعيشه المسلمون على زعزعة هذه العقيدة[(١)] .

فالواقع المليء بكلِّ صور الانحطاط من فقرٍ ، وضعفٍ ، وجهل ، ومرضٍ ، وخرافةٍ في مقابل الواقع الأوربي مثلاً كان عاملاً من عوامل إضعاف عقيدة الولاء ، والبراء ، ومع ذلك لا يجوز لنا أبداً أن نبرِّر لهؤلاء المنبهرين انبهارهم بواقع الكافرين ؛ إذ لو كان إيمانهم صادقاً ، وعقيدتهم راسخةً ؛ لم تجرفهم أهواء الكافرين ، ولم تتقاذفهم أمواج المادَّة والقوَّة ، كما كان حال الجيل الأوَّل ـ رضي الله عنهم ـ الَّذي استعلى بدينه ، وعقيدته على قوَّة الكافرين ، وجبروتهم حتَّى في وقت الهزيمة ، ولحظة الفشل ، كما قال الله تبارك ، وتعالى : ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٩] .

ومع هذا فإنَّ هذه العقيدة على مستوى شعوب الأمَّة كانت متوهِّجةً في النُّفوس ، مستقرَّةً في العقول ؛ فقد كان المسلم في الشَّمال الإفريقي يحبُّ أخاه المسلم في الشَّام ، ويبغض جاره النَّصرانيَّ ، وهكذا في كلِّ الأقطار ، والبلدان . وكان المسلم يحسُّ بإخوانه في كلِّ مكانٍ ، وبما يقع لإخوانه في الدِّين من اعتداءاتٍ ، ونكباتٍ ، ويشارك بعضهم مع إخوانهم لجهاد المعتدين ، والنَّفير في سبيل الله . فكانوا إلى حدٍّ كبيرٍ كما وصفهم الرَّسول ﷺ : « كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ ؛ تداعى له سائر الجسد بالسَّهر ، والحمَّى »[(٢)] .

وقد بيَّنَّا مناصرة مسلمي الحجاز ، وليبيا لإخوانهم في مصر عندما احتلَّها الفرنسيُّون في عام ١٢١٣ هـ/ ١٧٩٨ م ، وكيف تفاعل المسلمون مع دعوة السُّلطان

---

(١) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلميَّة لعلي الزَّهراني (١/ ١٤٢) .
(٢) البخاري ، كتاب الأدب ، باب رحمة النَّاس والبهائم (١٠/ ٤٣٨) رقم (٦٠١١) .

عبد الحميد الثَّاني إلى فكرة الجامعة الإسلاميَّة ، ودعوته لاتِّحاد المسلمين في العالم في مقابل التَّسلُّط الأوربيِّ والرُّوسي ، وغيرهما ، وقد أثمرت هذه الدَّعوة إلى حدٍّ كبيرٍ ، وتجاوب معها المسلمون في كلِّ مكانٍ على اختلاف لغاتهم ، وألوانهم ، وبلادهم ، وليس أدلَّ على ذلك من تبرُّع المسلمين في أقطار العالم لإنشاء خطٍّ سكَّة حديدٍ بين بغداد والحجاز بثلث نفقات الخطِّ . إنَّ الشُّعور بالتَّرابط الدِّيني بين المسلمين كان قويّاً على الرَّغم من كثرة الانحرافات ؛ الَّتي توحي بالفرقة والاختلاف ، كالمذاهب الكلاميَّة ، والفقهيَّة ، والطُّرق الصُّوفيَّة ، وكانت عقيدة الولاء ، والبراء سليمةً إلى حدٍّ كبيرٍ في نفوس العامَّة ، لذلك كبر على أعداء الإسلام من اليهود ، والنَّصارى أن يرَوا في تلك العقيدة جداراً صلباً ، وحاجزاً قويّاً يقف أمام مخطَّطاتهم ، ومحاولاتهم في القضاء على المسلمين ، ودينهم ، ولذا أخذوا يعملون على تحطيم ذلك الجدار ، وتذويب ذلك الحاجز عن طريق صنائعهم ، وعملائهم في البلاد الإسلاميَّة ، وفي الدَّولة العثمانيَّة ممَّن بأيديهم مقاليد الأمور من السَّلاطين ، والباشوات ، كما حدث مع السُّلطان العثماني محمود الثَّاني المتوفَّى عام ١٨٣٩ م الَّذي تزعَّم حركة الإصلاح المقلِّدة للمنهج الأوربيِّ ، حيث عمل على مسخ عقيدة الولاء ، والبراء ، وحاول طمسها في النُّفوس ، ويتجلَّى هذا الاتِّجاه الخطير في قول السُّلطان نفسه :

(. . إنِّني لا أريد ـ ابتداءً من الآن ـ أن يميَّز المسلمون إلا في المسجد ، والمسيحيُّون إلا في الكنيسة ، واليهود إلا في المعبد ، إنِّي أريد ما دام الجميع يتوجَّه نحوي بالتَّحيَّة أن يتمتَّع الجميع بالمساواة في الحقوق ، وبحماية الأبويَّة ، ومن هنا نعمت المسيحيَّة وغيرها في الدَّولة في ذلك العصر بحرِّيَّةٍ واسعة النِّطاق)[1] .

وفي هذا العصر انتشرت المدارس اليونانيَّة ، والأرمنيَّة ، والكاثوليكيَّة انتشاراً واسعاً بفضل رعاية السُّلطان ، وتشجيعه[2] .

---

(١) انظر : حركة الإصلاح في عصر السُّلطان محمود الثَّاني ، د . البحراوي ، ص (٢١٤) . وهذه الحرِّيَّة الَّتي نعموا بها استغلُّوها في التآمر على الدَّولة وعلى المسلمين .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٢١٤) .

وقد ثار رجال إِحدى الحاميات العثمانيَّة ضدَّ احتمال إِلزامهم أن يضعوا على صدورهم الحزامين المتقاطعين على شكل صليب على النَّسق النِّمساوي ، وطرد الثُّوَّارُ الباشا المرسل من قبل السُّلطان[١] .

وقد سمح السُّلطان لرعاياه المسيحيِّين بارتداء الطَّربوش بدلاً من القلنسوة القديمة ، وبذلك خلَّصهم من الرَّمز المميِّز لهم ، وكان لذلك رنَّة فرحٍ شديدٍ عندهم ، وقد حاول فرض الطَّربوش الأحمر على العلماء بدلاً من العمامة ، فلمَّا أبوا عليه ذلك تراجع مغطِّياً موقفه بإِعلان الجهاد ضدَّ الرُّوس[٢] .

والأدهى من ذلك ما (حدث من استعانة الدَّولة العثمانيَّة بضبَّاط دانوا بالولاء لروسيا من قبل ، وظلَّت الدَّولة غافلةً عن هذه الحقيقة ، وبالتَّالي كان لروسيا عيونٌ في جيش السُّلطان الجديد ، تزوِّدها بأدقِّ المعلومات والخطط)[٣] ، وكم من هزيمةٍ ساحقةٍ تلقَّتها الدَّولة العثمانيَّة من روسيا ، وكان من أسبابها تسرُّب المعلومات الهامَّة عن طريق هؤلاء .

هذا مثالٌ بارزٌ على ضعف عقيدة الولاء ، والبراء لدى بعض السَّلاطين العثمانيِّين ، وعدم الاهتمام بها .

أمَّا الباشا محمَّد علي والي مصر ، فقد فُتن بالغرب ، وتابع سياستهم ، وسار على خطاهم ، وما فتىء خلال حكمه الطَّويل الَّذي بلغ خمسةً وأربعين عاماً تقريباً يتولَّى الكفَّار ، ويصانعهم ، ويعلِّي من شأنهم ، ويقوم باتِّباعهم ، والاقتباس من نظمهم ، وقوانينهم ، والسَّير في ركابهم ، مع شدَّة بطشه ، وتنكيله بالمسلمين ، واستهانته بهم ، فقد تخطَّى عقيدة الولاء ، والبراء ، وضربها في الصَّميم ؛ ليرضي أسياده الصَّليبيِّين ، وليخضع أمَّته ، وشعبه المسلم للمخطَّطات اليهوديَّة ، فقد اعتاد محمَّد علي باشا أن يكون أغلب المحيطين به من النَّصارى ، واليهود ، الَّذين تغلغلوا في حكومته ، وبلاطه ، خصوصاً نصارى الأرمن من أعداء الملَّة الَّذين هم خاصَّته ، وجلساؤه ، وأهل مشورته ، وشركاؤه في اختلاس أموال الدَّولة ، ونهب

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٢٥٨) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٢٦١) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٢٤٧) .

خيراتها[١] .

وفتح البلاد على مصراعيها لأفواج النَّصارى الصَّليبيِّين للبحث ، والتَّنقيب ، واكتشاف الآثار ، ودراسة الأماكن دراسةً دقيقةً ، بل ومساعدته لهم ، وتذليله الصِّعاب في طريقهم[٢] .

لقد قام النَّصارى بدراسة مراكز الثَّروة ، ودراسة المواقع دراسةً تخطيطيَّةً ، ممَّا أفادهم ـ ولا شكَّ ـ في احتلال مصر فيما بعد عام ١٨٨٢ م خصوصاً إذا علمنا : أنَّ كثيراً من هؤلاء المنقِّبين كانوا من الإنجليز ، وكانت هناك أهدافٌ أخرى لم يفطن لها كثيرٌ من الباحثين ، ونترك الحديث لأحد المستشرقين في كتابه (الشَّرق الأدنى ، مجتمعه ، وثقافته) : (إنَّنا في كلِّ بلدٍ إسلاميٍّ دخلناه نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام ، ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتدَّ مسلمٌ إلى عقائد ما قبل الإسلام ، ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الإسلام ، وبين تلك الحضارات . . .)[٣] .

وعلى ضوء ما سبق من أهداف نستطيع أن نفسِّر اهتمامات هؤلاء النَّصارى بشقِّ البلاد طولاً ، وعرضاً ، وإنفاقهم الأموال الطَّائلة في كشف الآثار ، وتعريتها بدءاً بالفرنسيِّين ، ثمَّ الإنجليز الَّذين ساروا على خطٍّ واحدٍ في تنفيذ هذه الأهداف الخبيثة[٤] .

يقول الأستاذ محمَّد قطب : (ولكن المخطَّط الخبيث الَّذي حمله الصَّليبيُّون معهم ، وهم يجوسون خلال الدِّيار كان هو نبش الأرض الإسلاميَّة ؛ لاستخراج الحضارات ، تمهيداً لاقتلاعهم نهائيّاً من الولاء للإسلام)[٥] .

وقدَّم محمَّد علي خدمةً لمخطَّطات الأعداء بضرب الاتِّجاه الإسلاميِّ السَّلفي في الجزيرة العربيَّة تظاهراً بطاعة السُّلطان العثماني ؛ الَّذي فقد السَّيطرة على بلاد

---

(١) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ١٦٥) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، (١/ ١٧٠) .
(٣) انظر : واقعنا المعاصر ، ص (٢٠٢) .
(٤) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ١٧١) .
(٥) انظر : واقعنا المعاصر ، ص (٢٠٢) .

الحرمين الشَّريفين ، واتَّخذ من ذلك ستاراً لتنفيذ مخطَّطات بريطانيا ، وفرنسا اللَّتين رأتا الوجود السُّعوديَّ يشكِّل خطراً على مصالحهما ، خصوصاً في الخليج العربيِّ ، والبحر الأحمر(١) .

وقد كان على رأس تلك الجيوش الَّتي وجَّهها محمَّد علي ضبَّاطٌ فرنسيُّون ، وبعض النَّصارى(٢) .

وقد سُرَّت فرنسا بذلك العمل الحربي المدمِّر ، وكذلك بريطانيا ، وأبلغت فرنسا محمَّد علي عن طريق قنصلها في القاهرة أنَّها ممنونةٌ ممَّا رأته من اقتداره على نشر أعلام التَّمدُّن في البلاد الشَّرقيَّة(٣) .

وضايق محمَّد علي باشا العلماء ، والفقهاء ، والأزهريِّين في لقمة العيش ، وسيطر على الأوقاف التَّابعة للأزهر ، وضمَّها للدَّولة ، وبالتَّالي أحكم السَّيطرة على المشايخ القائمين على التَّعليم من رجال الأزهر(٤) ، وحتَّى الكتاتيب ؛ الَّتي تعلِّم القرآن الكريم ، والعلوم الأوَّليَّة للناشئة من أبناء المسلمين ، لم تنج عن غائلة محمَّد علي ؛ فقد ذكر الجبرتي ـ رحمه الله ـ : أنَّ كثيراً من المكاتب أغلقت بسبب تعطُّل أوقافها ، واستيلاء محمَّد علي عليها(٥) .

وذكر الشَّيخ محمَّد عبده : أنَّ ما أبقاه محمَّد علي من أوقاف الأزهر ، والأوقاف الأخرى لا يساوي جزءاً من الألف من إيرادها ، وأنَّه أخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقي إلى اليوم (في عهد الشَّيخ محمَّد عبده) لكانت غلَّته لا تقلُّ عن نصف مليون جنيه في السَّنة ، وقرَّر له بذلك ما يساوي أربعة آلاف جنيه في السَّنة ، بينما نجده قد اندفع نحو التَّغريب ، وإرسال البعثات كما ذكرنا في البحث .

إنَّ هذه السِّياسة التَّدميريَّة الَّتي نهجها محمَّد علي والَّتي فُرضت قهراً على المسلمين كانت تنفيذاً للمخطَّط الصَّليبي ؛ الَّذي عجزت الحملة الفرنسيَّة عن تنفيذه

---

(١) انظر : قراءةٌ جديدةٌ في تاريخ العثمانيِّين ، ص (١٨٩) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (١٨٧) .
(٣) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ١٧٤) .
(٤) انظر : قراءةٌ جديدةٌ في تاريخ العثمانيِّين ، ص (١٧٩) .
(٥) انظر : عجائب الآثار (٣/ ٤٧٨) .

بسبب اضطرارها للرَّحيل ، وهو أمرٌ أكَّده المؤرِّخ الإنجليزي أرنولد توينبي في قوله : (كان محمَّد علي ديكتاتوراً أمكنه تحويل الآراء النابليونيَّة إلى حقائق فعَّالة في مصر)[١] .

لا شكَّ : أنَّ محمَّد علي باشا كان صنيعةً من صنائع الغرب ، وعميلاً من عملائهم ، سواءٌ كان وصوله إلى سدَّة الحكم نتيجة تخطيطٍ صليبيٍّ ، وعلى الأخصِّ تخطيطٍ فرنسيٍّ ، أو كان نتيجةً لدهاء محمَّد علي ، ومكره ، وثقافته ، أو كان للأمرين معاً ، فإنَّ هذا كلَّه لا يغيِّر من الأمر شيئاً ، ولا ينفي أنَّ محمَّد علي قد احتوته الدُّول الغربيَّة ، وأخذت تقوده في ركابها ، وخصوصاً أنَّ فيه من الصِّفات ، والخلال ، الَّتي ينشدها المستعمرون دائماً ، كجنون العظمة ، وغلظة القلب ، وفظاظة الطَّبع ، ورقَّة الدِّيانة ، أو عدمها[٢] .

وقد عمل محمَّد علي طوال سنوات حكمه على القضاء على عقيدة الولاء ، والبراء ، واستخدم سياسة العسف ، والإرهاب ، والتَّنكيل في أنحاء مملكته ؛ لينتزع هذه العقيدة من قلوب المسلمين ، ويقضي عليها قضاءً مبرماً[٣] .

ومع عظم الهالة الَّتي أحيط بها محمَّد علي من قبل المستشرقين ، ومن اقتفى أثرهم من المؤرِّخين القوميِّين ، والعلمانيِّين حول ما قام به من إصلاحاتٍ في كثيرٍ من المجالات التَّعليميَّة ، والاقتصاديَّة ، والعسكريَّة ، إلا أنَّه من الثَّابت من سيرة محمَّد علي : أنَّه يكره مسلمي مصر ، ويحتقرهم ويزدريهم أيَّما ازدراء ، وليس أدلَّ من ذلك إلاَّ قوله : (ثقوا أنَّ قراري لا ينبع من عاطفةٍ دينيَّةٍ ، فأنتم تعرفونني ، وتعلمون أنَّني متحرِّرٌ من هذه الاعتبارات ؛ الَّتي يتقيَّد بها قومي . . وقد تقولون إنَّ مواطنيَّ حميرٌ ، وثيرانٌ ، وهذه حقيقةٌ أعلمها)[٤] .

وقد كان محمَّد علي باشا متواطئاً مع الفرنسيِّين عند احتلالهم الجزائر ، حتَّى لقد همَّ ـ بعد أن جاءته الأوامر بالطَّبع ـ أن يقوم بنفسه باحتلال الجزائر خدمةً

(١) انظر : قراءةٌ جديدةٌ في تاريخ العثمانيِّين ، ص (١٨٢) .
(٢) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ١٨١) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، (١/ ١٨١) .
(٤) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ١٨٨) .

للفرنسيِّين ، وعملاً لحسابهم الخاصِّ إلا أنَّ أسياده رفضوا تلك الفكرة الَّتي تهيِّج المسلمين ، وتثيرهم بعد أن ينكشف أمر عميلهم ، لذا بادروا إلى إلغائها ، واكتفى محمَّد علي بتزويد الفرنسيِّين في الجزائر بالغلال(١) .

ويذهب الدُّكتور سليمان الغنَّام إلى أنَّ بريطانيا لمَّا علمت بعزم محمَّد علي ؛ ثارت ثائرتها ، وهدَّدته بنسف أسطوله إنْ هو فكَّر في ذلك .

هذه وقفةٌ مع باشا من باشوات الدَّولة العثمانيَّة عمل على إضعاف عقيدة الولاء ، والبراء لدى الأمَّة المسلمة بشكلٍ مباشرٍ ، تمثَّل في سياسة العسف ، والإرهاب ، وبشكلٍ غير مباشرٍ اتَّخذ التَّغريب له مساراً ، لقد استحقَّ محمَّد علي أن يكون رائد التَّغريب في العالم الإسلامي العربيِّ التَّابع للدَّولة العثمانيَّة ، وسار أولاده ، وأحفاده من بعده على نفس السِّياسة ، فقد ظلُّوا يتعهَّدون غراس التَّغريب ، والعلمنة ، ويسيرون في نفس الطُّرق ، ويتسابقون إلى كسب ولاء الغرب ، وخطب ودِّه(٢) .

إنَّ فئة من سلاطين الدَّولة العثمانيَّة وباشواتها أمعنوا في موالاة الكافرين ، وألقوا إليهم بالمودَّة ، وركنوا إليهم ، واتَّخذوهم بطانةً من دون المؤمنين ، وعملوا على إضعاف عقيدة الولاء ، والبراء في الأمَّة ، وأصابوها في الصَّميم ، وبذلك تميَّعت شخصيَّة الدَّولة العثمانيَّة ، وهويَّتها ، وفقدت أبرز مقوِّماتها ، وسهل بعد ذلك على أعدائها أن يحتووها ، ثمَّ مزَّقوها شرَّ ممزَّق .

ثانياً : انحصار مفهوم العبادة :

إنَّ من شروط التَّمكين الَّتي قام بها العثمانيُّون الأوائل تحقيق مفهوم العبوديَّة الشَّامل كما فهموه من القرآن الكريم ، والسُّنَّة النَّبويَّة ، وكما أخذوه عن السَّلف الصَّالح رضوان الله عليهم .

ففهموا : أنَّ الدِّين كلَّه عبادةٌ ، لذا كانت العبادة بمفهومها الواسع هي الغاية الحقيقيَّة الَّتي خلق الله الخلق لأجلها ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات : ٥٦] ، وكانت هي دعوة الرُّسل جميعاً من لدن نوح عليه السَّلام

(١) انظر : الشَّرق الإسلاميُّ ، حسين مؤنس ، ص (٣١١) .
(٢) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ١٨٩) .

إلى نبيِّنا محمَّد ﷺ لأقوامهم : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف : ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النَّحل : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

لقد فهم العثمانيُّون الأوائل العبادة بمفهومها الشَّامل الَّذي أراده الله عزَّ وجلَّ ، وهي أن تشمل كلَّ نشاطٍ في حياة الإنسان : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣] .

فأصبحت حياتهم حافلةً بالأعمال العظيمة من تقوية الدَّولة المسلمة ، وتربيةٍ دائمةٍ لرعاياها ، وتعليم القرآن ، والعلم ، وجهاد الكافرين ، والمنافقين ، وقيامٍ على أمور المسلمين ، وتنفيذٍ لأهداف التَّمكين ، ولذلك نجد العلامة الشَّيخ شمس الدِّين آق يجمع بين دوره في توجيه الأمَّة ، وتعليمها ، وتوظيف علم النَّبات ، والطِّبِّ ، والصَّيدلة لمصلحة المسلمين ، لقد كان هذا الشَّيخ يتعبَّد المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ بالعلم الدِّينيِّ ، والدُّنيويِّ ، وكانت له بحوثه في علم النَّبات ، ومعالجة الأمراض المعدية ، وألَّف في ذلك كتاباً ، واهتمَّ أيضاً بمعالجة مرض السَّرطان ، وكان مجاهداً في صفوف جيش محمَّد الفاتح ، مربِّياً لعوامِّ العثمانيِّين على طاعة الله تعالى ، ومهتمّاً بتزكيتهم ، وآمراً بالمعروف ، وناهياً عن المنكر ، وكان نعم المربِّي ، والنَّاصح لمحمَّد الفاتح ، فبعد أن فتحت القسطنطينيَّة جاء محمَّد الفاتح يدخل في الخلوة مع الشَّيخ ، فمنعه الشَّيخ شمس الدِّين ، وقال لمحمَّد الفاتح : (إنك إذا دخلت الخلوة تجد لذَّةً تسقط عندها السَّلطنة من عينيك ، فتختلُّ أمورها ، فيمقت الله علينا ذلك ، والغرض من الخلوة تحصيل العدالة ، فعليك أن تفعل كذا ، وكذا ، وذكر له شيئاً من النَّصائح) .

إنَّ هذا الفهم الجميل هو الَّذي سارت به الدَّولة العثمانيَّة عندما كان للعلماء الرَّبَّانيِّين صدارة التَّوجيه ، والإرشاد ، والتَّعليم ، ولذلك نجد نهوضاً شاملاً في عصر السُّلطان محمَّد الفاتح في جميع شؤون الحياة التَّربويَّة ، والسِّياسيَّة ،

والاقتصاديَّة ، والعسكريَّة ، والاجتماعيَّة ، والعلميَّة . كلُّ ذلك النُّهوض مستمدٌّ من مفهوم العبوديَّة الشَّامل الَّذي فهموه من الشَّريعة الغرَّاء ، ولذلك نجد في الدَّولة العثمانيَّة في عصر مجدها ، وقوَّتها تفوُّقاً في كلِّ المجالات ، فمثلاً في الجغرافيا يظهر اسم الرَّيِّس بيري في زمن السُّلطانين سليم الأول ، وسليمان القانوني ، وكان الرَّيِّس بيري قائداً للبحريَّة العثمانيَّة ، وعالماً جغرافيَّاً فذّاً (ولد عام ١٤٦٥ م وتوفِّي عام ١٥٥٤ م) .

كان هذا العالم الجغرافي رائداً من روَّاد رسم الخرائط في الأدب الجغرافي العثماني ، وله في هذا المضمار خريطتان هامَّتان ، الأولى لإسبانيا ، وغرب أفريقية ، والمحيط الأطلسي ، والسَّواحل الشَّرقيَّة من الأمريكتين . وهذه قدَّمها إلى السُّلطان سليم الأوَّل في مصر عام ١٥١٧ م ، وموجودة الآن في متحف طوبقبو في إستانبول (٦٠×٨٥ سم) وعليها توقيع الرَّيِّس .

والأخرى لسواحل الأطلسي من جرونلاند إلى فلوريدا (٦٨×٦٩ سم) وموجودة الآن في متحف طوبقبو بإستانبول أيضاً .

والجدير بالذِّكر : أنَّ الخريطة الَّتي رسمها الرَّيِّس بيري لأمريكا هي أقدم خريطةٍ لها .

في ٢٦ أغسطس عام ١٩٥٦ م عقدت في جامعة جورج تاون بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة ندوةٌ إذاعيَّةٌ عن خرائط الرَّيِّس بيري ، اتَّفق كلُّ الجغرافيِّين المشتركين فيها بأنَّ خرائط الرَّيِّس بيري لأمريكا : (اكتشافٌ خارقٌ للعادة) .

وقد كان الرَّيِّس بيري على معرفةٍ بوجود أميركا قبل اكتشافها ، ويقول في كتاب البحريَّة : (إنَّ بحر المغرب ـ يقصد المحيط الأطلسي ـ بحرٌ عظيمٌ ، يمتدُّ بعرض ٢٠٠٠ ميل تجاه الغرب من بوغاز سبته ، وفي طرق هذا البحر العظيم توجد قارَّةٌ هي قارَّة أنتيليا) ، وتعبير قارَّة أنتيليا هي الدُّنيا ، أو أميركا ، وقد كتب الرَّيِّس : أنَّ هذه القارَّة اكتشفت عام (٨٧٠ هـ/ ١٤٦٥ م) أي : قبل اكتشاف كولومبس لأمريكا بحوالي ٢٧ سنة[1] .

---

(١) انظر : العثمانيُّون في التَّاريخ ، والحضارة ، ص (٣٨٢) .

لقد ترك ريِّس بيري كتاباً في البحريَّة أثار بما فيه من معلوماتٍ ، وخرائط دقيقةٍ دهشة المعاصرين من علماء الجغرافية في أميركا ، وأوربَّة . . . معلوماتٌ وخرائط أثبت العالم المعاصر صحَّتها .

وقد ذكر الرَّاهب الجزويتي لاين هام مدير مركز الأرصاد في ويستون ما يدلُّ على عبقريَّة القائد العثماني ريِّس بيري في علم الجغرافيا حيث يقول : (خرائط الرَّيِّس بيري صحيحةٌ بدرجةٍ مذهلةٍ للعقل ، خاصَّة أنَّها تُظْهِرُ بوضوحٍ أماكن لم تكن قد اكتشفت حتَّى أيَّامه في القرن السَّادس عشر الميلادي . . إنَّ الجانب المذهل في مكانة بيري هو رسمه لجبال أنتار كتيكا بتفاصيلها فيما رسمه من خرائط ، مع أنَّ هذه الجبال ، لم يكن أحدٌ قد تمكَّن من اكتشافها إلا في عام ١٩٥٢ م أي : في النِّصف الثَّاني من القرن العشرين ، وكيف ؟ بعد استخدام الأجهزة المتقدِّمة العاكسة للصَّوت ، أمَّا قبل القائد العثماني الرَّيِّس بيري ـ يعني حتَّى القرن السَّادس عشر الميلادي ـ لم يكن أحدٌ يعرف أن أنتار كتيكا موجودةٌ ، إذ كانت مغطَّاةً بالجليد طوال عصور التَّاريخ)[١] .

والمعروف : أنَّ أنتار كتيكا هي القارَّة السَّادسة ، والواقعة في نصف الكرة الأرضيَّة الجنوبي ، لم يقتصر الذُّهول على الرَّاهب لاين هام فقط ، بل تعدَّاه إلى كثيرٍ من العلماء ، والكتَّاب ، لقد قارن بعض العلماء صور الأرض الَّتي تمَّ التقاطها من مركبات الفضاء (في القرن العشرين) بالخرائط الَّتي رسمها القائد البحريُّ العثمانيُّ الرَّيِّس بيري في البدايات المبكِّرة للقرن السَّادس عشر فاتَّضح التَّشابه المذهل بين صور مركبات الفضاء وبين خرائط بيري[٢] .

إنَّ النَّهضة في الدَّولة العثمانيَّة في عصورها الزَّاهية كان في كلِّ المستويات العلميَّة ، والشَّعبيَّة ، والحكوميَّة ، والعسكريَّة ، وكانت حركة الدَّولة ، والأمَّة تعبيراً صادقاً لمفهوم العبوديَّة الشَّامل ، أمَّا في العصور المتأخِّرة للدَّولة العثمانيَّة ؛ فقد انحصر مفهوم العبادة في صور الشَّعائر التَّعبُّديَّة ؛ الَّتي أصبحت تؤدَّى كعادةٍ

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٣٨٣) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص (٣٨٤) .

موروثةٍ ، ليس لها من أثرٍ في حياة ممارسيها ، اللَّهُمَّ إلا ما تستغرقه من زمنٍ لأدائها ، (وتمَّ عزل العبادة عن بقيَّة الإسلام حتَّى كأنَّ الإسلام منحصرٌ فيها ، دون بقيَّة الأجزاء ، كالجهاد مثلاً ، وأحكام المعاملات ، أو العلاقات الماليَّة ، ومع أنَّ أكثر النَّاس ـ إن لم نقل : كلُّهم ـ يعلمون : أنَّ الإسلام ليس هو العبادات المفروضة فحسب ، فإنَّهم أهملوا الجوانب الأخرى ، وغضُّوا النَّظر عنها ، وأنزلوا مرتبتها ، ودعا فريقٌ من المرشدين إلى الإعراض عمَّا سوى هذه العبادات ، فالجهاد ، وإنكار المنكر ، وردُّ الطُّغيان ، والاستعمار ، ومقاومة الظُّلم ، والعمل في جميع ما ينفع المسلمين من الأمور العامَّة ، كلُّ ذلك في نظر هذا الفريق من النَّاس ـ وما أكثرهم في عصور الانحطاط ـ فضولٌ يشغل عن الله ، وعبادته . . وبينما كانت مقاييس الصَّلاح ، والتَّقوى في الإسلام شاملةً لجميع الواجبات ؛ الَّتي أوجبها الإسلام من عبادات خاصَّةٍ ، وجهادٍ ، وعلمٍ ، وعدلٍ ، وعملٍ نافعٍ للناس واستقامةٍ في المعاملة ، وإحسانٍ ، كلُّ ذلك مقروناً بتوحيد الله ، والإخلاص له ، أصبحت مقاييس التَّقوى محصورةً في العبادات)[١] .

وهكذا أعانت هذه الفكرة الَّتي عزلت العبادة عن بقيَّة أجزاء النِّظام الإسلاميِّ الشَّامل على ضعف الوعي السِّياسي ، والاجتماعي ، والأخلاقي .

ولقد تسبَّب هذا الانحصار في مفهوم العبادة في سلبيَّاتٍ من أهمِّها :

ـ صارت الشَّعائر التَّعبُّديَّة تؤدَّى بصورةٍ تقليديَّةٍ ، عديمة الأثر ، والفائدة حين عُزلت عن بقيَّة أمور الإسلام ، فلا تؤدِّي هذه الشَّعائر دورها في حياة الإنسان ، وقد عُزلت عن بقيَّة جوانب العبادة الأخرى ، فالصَّلاة الَّتي يخبر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عنها بقوله : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] ، لم تعد ذات أثرٍ واقعيٍّ في حياة مؤدِّيها من النَّاس حيث لم تعد تنهاهم عن الفحشاء والمنكر ، وما كان لها أن تحدث ذلك الأثر ، وقد حصرت العبادة في أداء الشَّعائر التَّعبُّديَّة فحسب .

ـ تهاون النَّاس في بقيَّة جوانب العبادات الأخرى .

(١) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ١٠٠) .

إِذ هي عندهم ليست من العبادة في شيءٍ حين نرى من المسلمين من يُصلِّي الفروض جماعةً في المسجد ، ثمَّ يخرج ، ويحلف على عتبة المسجد كاذباً ، ويغشُّ في بيعه وشرائه ، ويحتال في معاملاته ، ويأكل الرِّبا أضعافاً مضاعفةً ، ويقع في أعراض النَّاس ، ثمَّ تراه سادراً في ذلك مرتاح الضَّمير ، هادىء الخاطر ، قد أسكت وخزات ضميره ، وتأنيب نفسه بما نقره من ركعاتٍ .

ـ العناية بالجانب الفردي الشَّخصي ، وإِهمال الجوانب الاجتماعيَّة ، فنجد : أنَّ المسلمين قد « عنوا بالآداب الفرديَّة ، والمتعلِّقة بذات الإِنسان أكثر من عنايتهم بالآداب الاجتماعيَّة المتعلِّقة بالآخرين ، فقد يكون المسلم في ذاته نظيفاً ، ولكنَّه لا يبالي أن يلقي القمامة في طريق المسلمين ، ناسياً أنَّ : « إِماطة الأذى عن الطَّريق من شُعَب الإِيمان » كما ورد في الحديث[١] ، وقد يكون المسلم مراعياً لأحكام الطَّهارة ، وشروط النَّظافة في نفسه ، ولكنَّه لا يبالي أن يلوِّث للنَّاس طرقهم ، وأماكن جلوسهم ، وأن يخلَّ بالآداب الاجتماعيَّة الَّتي أمر الإِسلام بها »[٢] .

ونتيجةً لكون مفهوم العبادة انحصر في الشَّعائر وحدها ، وخرجت منها بقيَّة الأعمال ، فاهتمَّ النَّاس بشؤونهم الخاصَّة ، وأهملوا شؤونهم العامَّة ، ونمت روح الفرديَّة على حساب الرُّوح الاجتماعيَّة .

ـ إِقامة العبادة مقام العمل ، والاكتفاء برسومها ، وشعائرها ، وبما أحدث فيها من بدعٍ عن اتِّخاذ الأسباب .

« قراءة القرآن ، وتلاوته لفظاً أصبح بديلاً عن العمل بما فيه ، من آيات الجهاد ، والنَّظر إِلى الكون ، والتَّفكير فيما خلق الله ، وإِقامة العدل والميزان بالقسط ، والحكم بما أنزل الله ، واستثمار ما في الكون من نعم الله مع أنَّ ذلك كلَّه عبادةٌ . . وبينما كان الرَّسول ﷺ يستعدُّ لقتال المشركين كلَّ الاستعداد كما أمره الله ، ويدعو الله ، ويبتهل إِليه لينصره ، إِذا بالمسلمين في هذه العصور الأخيرة ، يجعلون الصَّلاة ، والدُّعاء ـ المأثور منه ، والمبتدع المخترع ـ بديلاً عن الأسباب ،

---

(١) مسلم ، كتاب الإِيمان ، باب بيان عدد شعب الإِيمان (١/ ٦٣) .
(٢) انظر : المجتمع الإِسلامي المعاصر لمحمَّد المبارك ، ص (٦٦) .

فيلتمسون الرِّزق ، والشِّفاء ، والنَّصر ، لا بأسبابها المشروعة الَّتي جعلها الله سبباً وطريقاً إِليها ، بل بأدعيةٍ خاصَّةٍ يقتصرون على تلاوتها ، وربَّما اخترعوا لذلك رقىً ، وتمائم ، وحجباً ، وزياراتٍ لأمكنة خاصَّةٍ ، وأوراداً ابتدعوها . .)[١] .

ولقد نتج عن هذا الانحصار الخطير في مفهوم العبادة أن خرجت جميع الأعمال الأخرى عن دائرة العبادة ، فخرج العمل السِّياسيُّ بما يشتمل عليه من رقابة الأمَّة على أعمال الحاكم ، وتقديم النَّصيحة إِليه ، والسَّهر على تطبيق الشَّريعة ، وإِجراء العدل في حياة النَّاس .

وما أجمل ما قاله سيِّد قطب في توضيحه لحقيقة العبادة ، واستنكاره لمن يحصرها في الشَّعائر التَّعبُّديَّة : (الواقع أنَّه لو كان حقيقة العبادة هي مجرَّد الشَّعائر التَّعبُّديَّة ما استحقَّت كلَّ هذا الموكب الكريم من الرُّسل والرِّسالات ، وما استحقَّت كلَّ هذه الجهود المضنية الَّتي بذلها الرُّسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وما استحقَّت كلَّ هذه العذابات ، والآلام الَّتي تعرَّض لها الدُّعاة ، والمؤمنون على مدار الزَّمان ! إِنَّما استحقَّ كلُّ هذا الثَّمن الباهظ هو إِخراج البشر جملة من الدَّينونة للعباد ، وردُّهم إِلى الدَّينونة لله وحده في كلِّ أمرٍ ، وفي كلِّ شأنٍ ، وفي منهج حياتهم كلِّه للدُّنيا ، وللآخرة سواءً)[٢] . وهذا معنى العبادة الشَّامل الَّذي وعاه العثمانيُّون الأوائل ، فطبَّقوه في حياتهم ، وعملوا به في واقع الأرض ، فدانت لهم الممالك ، وخضعت أمامهم الطَّواغيت ، ومكَّن الله لهم في الأرض ، ورفعوا راية الإِسلام خفَّاقةً فوق بقاع شاسعةٍ من المعمورة ، ويوم تبدَّل ذلك المفهوم ، وانحصر في دائرة الشَّعائر ، فترت الهمم ، وضعفت العزائم عن القيام بأمور الإِسلام كاملةً ، فوقع الضَّعف ثمَّ السُّقوط .

إِنَّ ما حلَّ بالدَّولة العثمانيَّة من هزائم عسكريَّةٍ ، وأزماتٍ اقتصاديَّةٍ ، وانحرافاتٍ خلقيَّةٍ ، ومصائب اجتماعيَّةٍ ، وتلوُّثاتٍ فكريَّةٍ ، وجفافٍ روحيٍّ ، وتأخُّرٍ حضاريٍّ ، كان من أسبابه إِفراغ الإِسلام من محتواه الأصيل ، وضياع مفهوم العبادة الشَّامل .

---

(١) انظر : المصدر السَّابق نفسه ، ص (٦٩) .
(٢) انظر : ظلال القرآن (٤/١٩٣٨) .

« فيوم كانت ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : ٦٠] عبادةً لم يجرؤ أحدٌ على احتلال أراضي المسلمين ، واستلاب خيراتهم . ويوم كان « طلب العلم فريضةً » لم يكن هناك تخلُّفٌ علميٌّ ، بل كانت الأمَّة المسلمة هي أمَّة العلم ، الَّتي تعلَّمت أوربَّة في مدارسها ، وجامعاتها !

ويوم كانت ﴿ فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ [الملك : ١٥] عبادةً ، كانت المجتمعات الإسلاميَّة أغنى مجتمعات الأرض !

ويوم كانت « كلُّكم راعٍ ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته » عبادةً ، وكان وليُّ الأمر يستشعر : أنَّه راعٍ ومسؤولٌ عن رعيَّته ، لم يكن للفقراء في المجتمع الإسلامي قضيَّةٌ ؛ لأنَّ العلاج الرَّبَّانيَّ لمشكلة الفقر كان يطبَّق في المجتمع الإسلاميِّ عبادةً لله . ويوم كانت ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النِّساء : ١٩] عبادةً ، لم تكن للمرأة المسلمة قضيَّةٌ ؛ لأنَّ كلَّ الحقوق والضَّمانات الَّتي أمر الله بها كانت تؤدَّى إليها طاعةً لله ، وعبادةً لله . . »[١] .

لقد كان الانحراف عن مفهوم العبادة الشَّامل من أسباب إفساح المجال في العصور المتأخِّرة للدَّولة العثمانيَّة لشيوع المذهب العلمانيِّ ، وهيمنة الشِّعارات العلمانيَّة على كثيرٍ من الأقاليم التَّابعة للدَّولة العثمانيَّة .

ثالثاً : انتشار مظاهر الشِّرك ، والبدع ، والخرافات :

إنَّ الدَّولة العثمانيَّة في القرنين الأخيرين كانت غارقةً في كثيرٍ من مظاهر الشِّرك ، والبدع ، والخرافات ، وحدث انحرافٌ في توحيد الألوهيَّة انحرافاً رهيباً ، وغشيها موجٌ من الظَّلام ، والجهل حجب عنها حقيقة الدِّين ، وطمس فيها نور التَّوحيد ، وعدل بها عن صراطه المستقيم[٢] .

يوم كانت الدَّولة العثمانيَّة محقِّقةً للتَّوحيد ، وتمارس مفهوم العبادة الشَّامل ، وتحارب الشِّرك كانت في ذروة التَّمكين ، والعزِّ ، والنَّصر من الله تعالى ، فهذا السُّلطان مراد الأوَّل وهو في سكرات الموت بعدما طعنه جنديٌّ صربيٌّ يودِّع الدنيا

---

(١) انظر : مفاهيم يجب أن تصحَّح لمحمَّد قطب ، ص (٢٤٩) .
(٢) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ٢٧١) .

بمعانٍ عميقةٍ في التَّوحيد ، وكلماتٍ جامعةٍ على التَّوحيد المنافي للشِّرك ، فيقول : « لا يسعني حين رحيلي إلا أن أشكر الله ، إنَّه علام الغيوب المتقبِّل دعاء الفقير ، أشهد أنَّ لا إله إلا الله ، وليس يستحقُّ الشُّكر ، والثَّناء إلا هو ، لقد أوشكت حياتي على النِّهاية ، ورأيت نصر جند الإسلام ، أطيعوا ابني يزيد ، ولا تعذِّبوا الأسرى ، ولا تؤذوهم ، ولا تسلبوهم ، وأودِّعكم منذ هذه اللَّحظة ، وأودِّع جيشنا الظَّافر العظيم إلى رحمة الله ، فهو الَّذي يحفظ دولتنا من كلِّ سوءٍ »[١] .

أمَّا السُّلطان مراد الثَّاني فقد ترك وصيَّته : (فليأتِ يومٌ يرى النَّاس فيه ترابي)[٢] لقد كان قلقاً يخشى أن يدفن في قبرٍ ضخمٍ ، وكان يريد ألا يبنى شيءٌ على مكان دفنه .

لقد كان السَّلاطين الأوائل تتفجَّر معاني التَّوحيد في كلماتهم ، وتنعكس على أعمالهم ، وانتشرت تلك المفاهيم في الشَّعب العثمانيِّ قاطبةً ، أمَّا في العصور المتأخِّرة فقد تغيَّر الحال ، ومع تضافر الأدَّلة ، وتواترها ، ووضوحها في النَّهي عن كلِّ السُّبل المفضية إلى الشِّرك ، وتحذير النَّبيِّ ﷺ وتشديده في ذلك قبل وفاته ، كقوله ﷺ في الصَّحيحين : « لعن الله اليهود والنَّصارى اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذِّر مثل ما صنعوا[٣] .

قالت عائشة رضي الله عنها : ولولا ذلك لأُبرز قبره ، ولكن كره أن يتَّخذ مسجداً[٤] ، وقوله ﷺ : « لعن الله زائرات القبور ، والمتَّخذين عليها المساجد ، والسُّرج »[٥] .

وقال ﷺ قبل أن يموت بخمس : « إنَّ من كان قبلكم كانوا يتَّخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتَّخذوا القبور مساجد ! فإنِّي أنهاكم عن ذلك »[٦] .

---

(١) انظر : الفتوح الإسلاميَّة عبر العصور ، ص (٣٩١) .
(٢) انظر : العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، ص (٣٤٦) .
(٣) مسلم ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور ، رقم (٣٧٦) .
(٤) البخاريُّ ، كتاب الجنائز ، باب ما يكره من اتِّخاذ المساجد على القبور رقم (١٣٣٠) .
(٥) التِّرمذيُّ ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء أن يُتَّخذ على القبر مسجدٌ ، رقم (٣٢٠) .
(٦) مسلمٌ ، كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة ، باب النَّهي عن بناء المساجد على القبور ، رقم (٥٣٢) .

وقوله ﷺ : « اللَّهُمَّ لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتدَّ غضب الله على قومٍ اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد »[١] ، وقوله ﷺ : « لا تجلسوا على القبور ، ولا تصلُّوا إليها »[٢] .

وحين ذكرت له بعض نسائه كنيسةً رأينها في أرض الحبشة فيها تصاوير ، قال ﷺ : « إنَّ أولئك إذا مات فيهم الرَّجل الصَّالح بنوا على قبره مسجداً ، ثمَّ صوَّروا فيه تلك الصُّور ، أولئك شرار الخلق عند الله »[٣] .

ونهيه ﷺ أن يجصَّص القبر ، وأن يقعد عليه ، وأن يبنى عليه ، وجاء في روايةٍ أخرى النَّهي عن الكتابة على القبور[٤] . وفي أواخر الدَّولة العثمانيَّة كثر على غير العادة تشييد القباب ، وبناء الأضرحة ، وإقامة المشاهد ، وتحديث المزارات حتَّى لكأنَّ هذه النُّصوص جاءت تأمر بالبناء على القبور ، وتذكر فضله ، وتحثُّ عليه .

وزاد الأمر سوءاً : أنَّ بعض الفقهاء أفتوا بجواز بناء القباب على القبور إذا كان الميِّت فاضلاً ، واحتجُّوا بقولهم : إنَّ بعض السَّلف استحسن ذلك ، وزاد الطِّين بلَّةً : أنَّهم أودعوا تلك الآراء الفاسدة في مصنَّفاتهم ؛ الَّتي يعكف على دراستها الطُّلاب[٥] .

وانتقل هذا الوباء العظيم وبدأ في نخر الدَّولة العثمانيَّة ، وتعاظم شرُّه ، ووقع ما حذَّر منه النَّبيُّ ﷺ من الشِّرك العظيم .

وقد تجلَّت مظاهر الشِّرك ، ووسائله في تلك الفترة في الصُّور التَّالية :

ـ بناء المساجد ، والقباب ، والمشاهد على الأضرحة ، والقبور في أقاليم الدَّولة ، بل انتشر ذلك في العالم الإسلاميِّ كلِّه ، وللأسف الشَّديد نجد الدَّولة العثمانيَّة في العصور المتأخِّرة تشجِّع على تلك المشاهد ، والأضرحة المنتشرة في العالم الإسلامي ، فمثلاً أعفت الدَّولة أهالي البصرة من الرُّسوم ، والتَّكاليف

---

(١) رواه مالكٌ في الموطَّأ (١/ ١٧٢) .
(٢) مسلمٌ ، كتاب الجنائز ، باب النَّهي عن الجلوس على القبور ، رقم (٩٧٢) .
(٣) البخاريُّ : كتاب الصَّلاة ، باب : هل تنبش قبور مشركي الجاهليَّة ؟ رقم (٤٢٧) .
(٤) التِّرمذيُّ ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في كراهيَّة تجصيص القبور ، صحَّحه الألباني رقم (٧٥٧) .
(٥) الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ٢٧٢ ، ٢٧٣) .

احتراماً لصاحب الحضرة الشَّريفة ، يعني : الزُّبير بن العوَّام ـ رضي الله عنه ـ وأنَّ العثمانيِّين بنوا على ضريحه مسجداً ، وقامت والدة السُّلطان عبد العزيز بترميم القباب ، وتكبير المسجد ، وفي سنة ١٢٩٣ هـ ورد أمرٌ من السُّلطان عبد الحميد الثَّاني بتعمير هذه المراقد الشَّريفة على نظارة والي البصرة (ناصر باشا السَّعدون) .

ثمَّ في سنة ١٥٠٣ هـ أمر السُّلطان عبد الحميد أيضاً بتبييض القباب ، وتعمير المسجد ، وأمر أيضاً بكسوتين للضَّريحين (الزُّبير ، وعتبة بن غزوان) من الحرير الأحمر المفتخر المطرَّز بالفضَّة ، وأمر أيضاً بوضع مباخر ، وقماقم من الفضَّة عند الضَّريحين الكريمين(١) . وكانت جميع الأقاليم الإسلاميَّة ، وفي الحجاز ، واليمن ، وإفريقية ، ومصر ، والمغرب العربيِّ ، والعراق ، والشَّام ، وتركيَّا ، وإيران ، وبلاد ما وراء النَّهر ، والهند ، وغيرها تتسابق في بناء الأضرحة ، والقباب ، وتتنافس في تعظيمها ، والاحتفاء بها ؛ إذ البناء على القبور هو ما درج عليه أهل ذلك العصر ، وهو الشَّرف الَّذي يتوق إليه الكثيرون .

لقد أولع العثمانيُّون في عصورهم المتأخِّرة بالبناء على كلِّ ما يعظِّمه النَّاس في ذلك العصر ، سواءٌ أكان ما يعظِّمونه قبوراً ، أو آثاراً لأنبياء ، أو غير ذلك .

وأصبحت تلك المشاهد ، والأضرحة محلاً للاستغاثة ، والاستعانة بأصحابها ، وانتشرت عقائد شركيَّةٌ ، كالذَّبح لغير وجه الله ، والنَّذر للأضرحة ، والاستشفاء ، وطلب البراء من الأضرحة ، والاعتصام بها ، وأصبحت الأضرحة والقبور تهيمن على حياة النَّاس ، وهكذا طغت هذه الأضرحة على حياة النَّاس ، وأصبحت مهيمنةً على شؤونهم ، وشغلت تفكيرهم ، وتبوَّأت في نفوسهم ، وقلوبهم أعلى مكانةٍ ، وكانت رحى تلك الهيمنة تدور على الغلوِّ ، والشِّرك بالأموات ، والتَّعلُّق بهم من دون الله عزَّ وجلَّ ، فلا يبرمون من أمورهم صغيرةً ، ولا كبيرةً إلا بعد الرُّجوع إلى تلك الأضرحة ، ودعاء أصحابها ، واستشارتهم ، وهم لا يملكون لأنفسهم ضرَّاً ، ولا نفعاً ، فكيف لغيرهم ، وقد كان العلماء وللأسف الشَّديد يتقدَّمون العامَّة ، ويسنُّون لهم السُّنن السَّيِّئة في تعظيم الأضرحة ،

---

(١) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ٢٩٤) .

والمقامات ، والولوع بها ، ويزرعون الهيبة في نفوسهم بما كانوا يقومون به .

وقد تمادى النَّاس في الشِّرك ، والضَّلال ، وأمعنوا في الوثنيَّة ، ومحاربة التَّوحيد ، فلم يكتفوا بالمقبورين ، والأحياء ، بل أشركوا بالأشجار ، والأحجار ، ووصل الأمر إلى اعتقاد العامَّة في بغداد في مدفعٍ قديمٍ في ساحة الميدان من بقايا أسلحة السُّلطان مراد العثماني الَّتي استخدمها في حربه مع الفرس ، لإخراجهم من بغداد حيث كانوا يقدِّمون إليه النُّذور ، ويطلبون منه إطلاق ألسنة أطفالهم ، وهو يُعرف عندهم : « طوب أبي خزامة » ممَّا حدا بالعلامة محمود شكري الآلوسي إلى التَّصدِّي لهذه الخرافة الشَّنيعة بكتابة رسالةٍ يزجر بها هؤلاء الجاهلين أسماها بـ (القول الأنفع في الرَّدع عن زيارة المدفع)(١) .

واعتاد النَّاس في أواخر الدَّولة العثمانيَّة أن يحلفوا بغير الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من المخلوقين ، وكان يسهل عليهم الحلف بالله كاذباً ، عامداً ، متعمِّداً ، ولكنَّه لا يجرؤ أبداً أن يحلف بما عظَّمه من المخلوقين إلا صادقاً .

ـ انتشار البدع والخرافات :

كان السَّلاطين الأوائل في الدَّولة العثمانيَّة ينفِّرون من البدع ، وأهلها ، ويحاربونها ، فهذا السُّلطان محمد الفاتح في وصيَّته يقول لمن بعده : « جانب البدع ، وأهلها ، وباعد الَّذين يحرِّضونك عليها » أمَّا في العصور المتأخِّرة من الدَّولة العثمانيَّة فإنَّ البدع انتشرت انتشاراً ذريعاً ، وأصبحت حياة رعايا الدَّولة ممزوجةً بها ، فقلَّما تخلو منها عبادةٌ ، أو عملٌ ، أو شأنٌ من شؤون الحياة ، سواءٌ في الجنائز ، والمآتم ، والأعراس ، والضِّيافات ، والولائم ، وبدع الموالد عند المتصوِّفة المنحرفين ، وهكذا أصبحت البدع ترى في كلِّ مكانٍ ، تكاد تحتلُّ منزلة الصَّدارة من حياة النَّاس ، يعمل بها الجاهلون ، ويؤيِّدها العالمون ، وأصبحت السُّنَّة بدعةً ، والبدعة سنَّةً(٢) ، وتغيَّر مفهوم الدِّين ، والعلم من منهجٍ كاملٍ ، وشاملٍ لجميع مجالات الحياة إلى طقوس غريبةٍ ، ورسومٍ باليةٍ يتشبَّثون بها ،

---

(١) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ٣٦٧) .

(٢) انظر : مشكلات الجيل في ضوء الإسلام ، ص (٣٧٣) .

ويحسبون أنَّهم مهتدون . وتحوَّل صحيح البخاريِّ بما حواه من منهجٍ للنَّبيِّ ﷺ إلى تقليدٍ بالٍ رتيبٍ ، يتلى في الأزمات ، ويقرأ في الحروب ، طلباً للنَّصر ، ودحر الأعداء[١] .

لقد أضحت السُّنَّة في تلك الفترة غريبةً جدَّاً ، بعد أن غمرها طوفان البدع العظيم ، وصار النَّاس متشبِّثين بالبدع على أنَّها من صميم الدِّين ، ويأبون التَّفريط فيها مطلقاً ، في الوقت الَّذي كانوا يفرِّطون فيه في كثيرٍ من أحكام الإسلام ، ويكافحون من أجلها ، ويتعاهد عليها ، ويرون أنَّهم خدموا الدِّين ، ونفعوا المسلمين[٢] .

ـ انتشار الخرافات :

في أواخر الدَّولة العثمانيَّة فشت الخرافات ، والأساطير في جموع المسلمين بشكلٍ منقطع النَّظير ، وأضحت كحقائق مسلَّمةً لا تقبل النِّقاش مطلقاً ، وليس ذلك فحسب ، وإنَّما غدت عند كثيرٍ منهم أموراً مقدَّسةً لا يجوز التَّهاون بها ، فضلاً عن التَّشكيك في صحَّتها .

ومن الخرافات في الآستانة أنَّ جامع خوجة مصطفى باشا محاطٌ بجنزيرٍ مربوطٌ فيه بشجرة سروٍ قديمةٍ ، ولهذا الجنزير خرافةٌ يتناقلها الجهلاء ، مؤدَّاها : أنَّ كلَّ من أنكر شيئاً حقيقيَّاً ، وجلس تحت هذا الجنزير ، فهو يسقط على رأسه ، وإذا كان صادقاً في إنكاره ، فالجنزير لا يتحرَّك[٣] . لقد كانت الأمَّة في تلك الفترة غارقةً في عبادة الأضرحة ، والتَّعلُّق بها من دون الله عزَّ وجلَّ ، ووقعت فريسةً لكثيرٍ من مظاهر الشِّرك ، والغلوِّ ، والبدع ، والخرافات ، الَّتي ملأت حياتها ، وشغلت أوقاتها ، وقتلت طاقاتها ، وصرفت جهودها عن طريقها الصَّحيح ، فعجزت عن النُّهوض من كبوتها ، ولن تستطع أن تعالج أسباب انحطاطها ؟ وانهزمت أمام جيوش الأعداء ، ووهنت عن مقاومة مخطَّطاتهم ، ومؤامراتهم ، وكانت النَّتيجة ضياع الدَّولة العثمانيَّة .

---

(١) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ٣٨٠) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه (١/ ٤٢٨) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه (١/ ٤٣٢) .

رابعاً : الصُّوفيَّة المنحرفة :

إنَّ أعظم انحرافٍ وقع في تاريخ الأمَّة الإسلاميَّة ظهور الصُّوفية المنحرفة ، كقوَّةٍ منظَّمةٍ في المجتمع الإسلامي تحمل عقائد ، وأفكار ، وعبادات بعيدةً عن كتاب الله ، وسنَّة رسوله ﷺ ، وقد قوي عود الصُّوفيَّة المنحرفة ، واشتدَّت شوكتها في أواخر العصر العثماني بسبب عوامل متعدِّدةٍ ، منها :

١ ـ الأحوال السَّيِّئة الَّتي كانت تعيشها الأمَّة الإسلاميَّة ، والواقع المرير الَّذي كان يعيشه المسلمون في تلك الفترة ، من انتشار التخلُّف ، والظُّلم ، والطُّغيان ، والفقر ، والمرض ، والجهل ، كلُّ ذلك جعل النَّاس يرتمون في أحضان الصُّوفية المنحرفة ، الَّتي لا تقوم بأكثر من التَّربيت عليهم ، والتَّحذير لهم ، وجعلهم يعيشون في غير واقعهم الَّذي فرُّوا منه .

٢ ـ كان اضطراب الأمن ، وانعدامه سمةً من سمات العصور المتأخِّرة ، حيث كانت تُزهق الأرواح لأسبابٍ تافهةٍ ، بل دون سببٍ في بعض الأحيان ، وفي هذه الأجواء الحالكة ، والظُّروف العصيبة كان أرباب التصوُّف يحيون حياةً هادئةً يرفرف عليها الأمن والاطمئنان بعيدةً عن المصائب والفتن الَّتي فتكت بالنَّاس .

« قد كان الفقراء أروح بالاً ، وأكثر طمأنينةً من الفلاحين في حقولهم ، والتُّجار في متاجرهم ، والصُّنَّاع في مصانعهم ، فقد كانوا في أمنٍ من تطبيق القوانين . . وكانوا في أغلب فترات الظُّلم الفادح في نجاةٍ من هذه الشُّرور كلِّها ، لأنَّ الجنود كانوا يخافون بأسهم ، ويخشون سلطانهم الرُّوحي ، ويؤمنون باتِّصالهم بالله ، فيتزلَّفون إليهم ، ويطلبون الرِّضا منهم ، فأقبل بعض النَّاس على دخول الطَّريق مدفوعاً بما سيصيبه من رحاب الزَّوايا من اطمئنان البال ، واستقرار الحال »(١) .

٣ ـ التَّرف في معيشة أرباب الفرق : « كان الفقراء فوق النَّجاة من ضغط الحياة يومذاك لا يجهدون أنفسهم في احتراف عملٍ يكسبون قوتهم من ورائه ، بل كانوا يعيشون في الزوايا ، طاعمين ، كاسين على نفقة المحسنين ، والأثرياء بدعوى التَّفرُّغ للذِّكر ، والانقطاع للتهجُّد ، والتجرُّد لعبادة الله . . ومن أطرف مفارقات هذا

(١) انظر : التصوُّف في مصر إبَّان العصر العثماني ، د . الطَّويل ، ص(١٥٢ ، ١٥٤) .

العصر أن يكون هؤلاء الزُّهاد الَّذين يدَّعون التقشُّف ، والقناعة بالتَّافه من شؤون العيش أرغد عيشاً ، وأترف حياةً من الفلاحين ، والتُّجار ، وأرباب الحرف . .[١] .

٤ ـ حبُّ الأتراك العثمانيِّين للدَّروشة ، والتصوُّف : « كان الأتراك يحبُّون التَّصوُّف ، ويميلون إلى تقديس أهل الإيمان بصدق ولايتهم »[٢] .

« لقد كانت الصُّوفيَّة قد أخذت تنتشر في المجتمع العبَّاسي ، ولكنَّها كانت ركناً منعزلاً عن المجتمع ، أمَّا في ظلِّ الدَّولة العثمانيَّة ، وفي تركيا بالذَّات ؛ فقد صارت هي المجتمع ، وصارت هي الدِّين ، وانتشرت ـ في القرنين الأخيرين بصفةٍ خاصَّةٍ ـ تلك القولة العجيبة : من لا شيخ له فشيخه الشَّيطان ! وأصبحت ـ بالنِّسبة للعامَّة بصورةٍ عامَّة ـ هي مدخلهم إلى الدِّين ، وهي مجال ممارستهم للدِّين »[٣] .

وقد كان كثير من سلاطين آل عثمان يقومون برعاية الصُّوفيَّة ، ويفيضون عليها من عطفهم ، وحدبهم ، حتَّى جاء السلطان عبد الحميد إلى السَّلطنة في ظروفٍ عصيبةٍ ، والمؤامرات تحاك للأمَّة ، والكوارث والمحن تحيط بها من كلِّ مكانٍ ، ودعاة القوميَّة يبثُّون دعوتهم في سائر البلاد ، فدعا إلى الجامعة الإسلاميَّة ، والرَّابطة الدِّينيَّة ، وكانت الصُّوفيَّة بجميع أصنافها ، وطرقها تشكِّل ثقلاً في الدَّعوة إلى الجامعة الإسلاميَّة .

لقد كان ذلك العصر ، عصر الصُّوفيَّة الَّتي أطبقت على العالم الإسلامي من أدناه إلى أقصاه ، ولم تبق مدينةٌ ، ولا قريةٌ إلا دخلتها إلا إذا استثنينا نجداً ، وملحقاتها[٤] .

لقد سيطرت الصُّوفيَّة المنحرفة على العالم الإسلامي في تلك الفترة ، ووقع جمهورٌ من المسلمين في أسرها ، وعظم سلطان المتصوِّفة في ذينك القرنين ، وبلغ مبلغاً عظيماً ، لو لم يكن من قوَّته ونفوذه إلا هيمنته على الجماهير الغفيرة في طول البلاد وعرضها ؛ لكفى ، فكيف إذا تبنَّته الدَّولة ، وناصره الحكام[٥] .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٥٤) .
(٢) انظر : التَّصوف في مصر إبَّان العصر العثماني ، ص(١٥٤) .
(٣) انظر : واقعنا المعاصر ، ص(١٥٥) .
(٤) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ٤٤٧) .
(٥) المصدر السَّابق نفسه(١/ ٤٤٨) .

وكانت نظرة المتصوِّفة المنحرفة تحترم البطالة ، وتبيح التَّسوُّل ، وتصطنع الضِّيق ، وتسعى إلى مواطن الذُّلِّ ، وتغتبط بالهوان ، وكانت نظرتهم إلى الأخذ بالأسباب منحرفةً جدّاً « فما أخيب التَّاجر الذي يصرف وقته في تجارته ، والزَّارع الذي ينفق جهده في زراعته ، والصَّانع الَّذي يبذل نشاطه في صناعته ، وما أفشل من سافر منهم طلباً لكسبٍ ، أو رغبةٍ في مالٍ ، فإنَّ الرزق في طلب صاحبه دائرٌ ، والمرزوق في طلب رزقه حائرٌ ، وبسكون أحدهما يتحرَّك الآخر . . » .

وفسدت لدى كثير من المتصوِّفة عقيدة القضاء والقدر ، وأصبحت عندهم عقيدةً سلبيَّةً مخذِّلةً ، لقد كتب أحد المستشرقين الألمان ، وهو يؤرِّخ لحال المسلمين في عصورهم الأخيرة يقول : « طبيعة المسلم التَّسليم لإرادة الله ، والرِّضا بقضائه وقدره ، والخضوع بكلِّ ما يملك للواحد القهَّار ، وكان لهذه الطَّاعة أثران مختلفان : ففي العصر الإسلامي الأوَّل لعبت دوراً كبيراً في الحروب ؛ إذ حقَّقت نصراً متواصلاً ؛ لأنَّها دفعت في الجندي روح الفداء . وفي العصور الأخيرة كانت سبباً في الجمود الَّذي خيَّم على العالم الإسلامي ، فقذف به إلى الانحدار ، وعزله ، وطواه عن تيَّارات الأحداث العالميَّة »[1] .

إنَّ هذا الرَّجل وهو كافر أدرك هذه الحقيقة : حقيقة الفرق بين الإيمان بالقدر كما فهمه السَّلف ، وبين الإيمان الَّذي ابتدعه الخلف متأثِّرين بالمتصوِّفة ، فالذَّنب ليس ذنب العقيدة ، بل ذنب المعتقدين بها ، وقد صاغ ذلك شاعر الإسلام محمَّد إقبال شعراً ، فقال :

مِـنَ القُـرْآنِ قَـدْ تَـرَكُـوا المَسَـاعِـي ... وَبِـالقُـرْآنِ قَـدْ مَلَكُـوا الثُّـرَيَّـا
إِلَـى التَّقْـدِيْـرِ رَدُّوا كُـلَّ سَعْـي ... وَكَـانَ زِمَـاعُهُـمْ قَـدَراً خَفِيَّـا
تَبَـدَّلَـتِ الضَّمَـائِـرُ فِـي إِسَـارٍ ... فَمَـا كَـرِهُـوهُ صَـارَ لَهُـمْ رَضِيَّـا[2]

وقد استغلَّ نابليون بونابرت تلك الفكرة المنحرفة عن القضاء والقدر لمَّا احتلت جيوشه الصَّليبيَّة أرض مصر ، فكان يصدر منشوراته بتذكير المسلمين بأنَّ ما وقع

(١) انظر : الإسلام قوَّة الغد العالميَّة ، باول سمتز ، ص(٧٨) .
(٢) انظر : العلمانيَّة ، سفر الحوالي ، ص(٥١٩) .

لهم من الاحتلال والأسر كان بقدرٍ من الله ، فمن حاول الاعتراض على ما وقع ، فكأنَّما يعترض على القضاء والقدر(١) .

لقد كانت مفاهيم التَّصوُّف المنحرف تنخر في كيان الدَّولة العثمانيَّة ، وكان العالم الصَّليبي ينطلق في مجالات العلم ، وميادين المعرفة آخذاً بأسباب القوَّة ، والتَّقدُّم ، والرُّقيِّ ، ويدير المؤامرات ، والدَّسائس لتفتيت الدَّولة العثمانيَّة ، ومن ثمَّ الهيمنة على العالم الإسلامي .

وكان المتصوِّفة المنحرفون مقبلين على استماع الملاهي ، والمعازف ، ويتعلَّمون الموسيقا ، وكانت مجالسهم مليئةً بالطُّبول ، والنَّايات ، والأعلام ، والرَّايات ، وكانت كثيرٌ من الطُّرق المنحرفة لا تخلو حلقات الذِّكر فيها من الدَّفِّ حتَّى قال أبو الهدى الصَّيَّادي ، وهو من خواصِّ السُّلطان عبد الحميد الثاني ، ومن أنصار الجامعة الإسلاميَّة :

اضْرِبِ الدُّفَّ وَجَانِبْ جَاهِلاً ... حِكْمَةَ الشَّرْعِ لِمَعْنَى مَا دَرَىٰ
كُلُّ مَا حَرَّكَ قَلْبَاً سَاكِنَاً ... وَدَعَا الْعَقْلَ مِنْهُ مُعْتَبِرا
وَأَجَالَ الرُّوْحَ فِي بَرْزَخِهَا ... تَذْكُرُ الله وتَبْغِي مَظْهَرا
فَهُوَ بِرٌّ وَالَّذِي يَفْعَلُهُ ... فَعَلَ الْبِرَّ وَالله يَرَىٰ
إِنَّ فِي الدُّفِّ وَفِي رنَّتِهِ ... نَغْمَةٌ يَعْرِفُهَا مَنْ ذَكَرَا
صَوْتُهُ ذِكْرٌ ، وَفِي بُحَّتِهِ ... أَنَّه تُذْكَرُ أَوْقَاتَ السَّرَىٰ
نَضْرِب الدُّفَّ وَمِنْهُ عِنْدَنَا ... ذَاكِرَاً نَسْمَعُهُ لَنْ يَفْتُرَا(٢)

وقد كان للسماع عند جمهور المتصوِّفة منزلةٌ عظيمةٌ ، يقول أبو الهدى الصَّيادي : « من لم يحركه السَّماع فهو ناقصٌ ، مائلٌ عن لطف الاعتدال ، بعيد عن نور الرُّوحانيَّة ، زائدٌ في غلظة الطَّبع ، وكثافته ، بل هو أبلد من الجماد ، والطُّيور ، وسائر البهايم ، فإنَّ جميعها تتأثَّر بالنَّغمات الموزونة . . وبالجملة فالسَّماع يثمر حالةً في القلب ، وتسمَّى : وَجْدَاً ، ويثمر الوجد تحريك الأطراف ،

(١) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ٤٦٧) .
(٢) انظر : رياضة الأسماع في أحكام الذِّكر والسَّماع ، للصَّيادي ، ص(٤٥) .

إمَّا بحركةٍ غير موزونة ، فتُسمَّى : الاضطراب ، وإمَّا بحركةٍ موزونةٍ فتُسمَّى : التَّصفيق ، والرَّقص »(١) .

ويا ليت أولئك المتصوفة اقتصروا على الولوع بالطَّرب ، والسَّماع ، والغناء ، ولكنَّهم جعلوه إلى الله قربةً ، وعدُّوه طاعةً ، تلين بها القلوب ، وتشفُّ بها الأرواح .

وما أحسن ما قاله العلامة الحافظ ابن قيِّم الجوزيَّة عن هؤلاء المتصوِّفة حيث يقول : « فلو رأيتهم عند ذيَّاك السَّماع ، وقد خشعت منهم الأصوات ، وهدأت منهم الحركات ، وعكفت قلوبهم بكلِّيَّتها عليه ، وانصبَّت انصبابةً واحدةً إليه ، فتمايلوا له كتمايل النَّشوان ، وتكسَّروا في حركاتهم ، ورقصهم ، أرأيت تكسَّر المخانيث ، والنِّسوان ؟ .

ويحقُّ لهم ذلك ، وقد خالط خمرة النُّفوس ، ففعل فيها أعظم ما تفعله حمَّيا الكؤوس فلغير الله ، بل للشيطان ، قلوب هناك تمزَّق ، وأثوابٌ في غير طاعة تنفق ، حتَّى إذا عمل السُّكر فيها عمله ، وبلغ الشَّيطان منهم أمنيته ، وأمله ، واستفزَّهم بصوته ، وحيله ، وأجلب عليهم برجله ، وخيله ، وخز في صدورهم وخزاً ، وأزَّهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أزَّاً ، فطوراً تجعلهم كالحمير حول المدار ، وتارةً كالذُّباب ترقص وسط الدِّيار ، فيا رحمة للسُّقوف والأرض من دكِّ تلك الأقدام ، ويا سوأتا من أشباه الحمير والأنعام ، ويا شماتة أعداء الإسلام بالَّذين يزعمون أنَّهم خواصُّ الإسلام ، قضوا حياتهم لذَّةً ، وطرباً ، واتَّخذوا دينهم لهواً ، ولعباً ، مزامير الشَّيطان أحبُّ إليهم من سماع سور القرآن ، لو سمع أحدهم القرآن من أوَّله إلى آخره لمَّا حرَّك له ساكناً ، ولا أزعج له قاطناً ، ولا أثار فيه وَجْداً ، ولا قدح فيه من لواعج الأشواق إلى الله زِنداً ، حتَّى إذا تلا عليه قرآن الشَّيطان ، وولج مزموره سمعه ؛ تفجَّرت ينابيع الوَجْد من قلبه على عينيه ، فجرت ، وعلى أقدامه ، فرقصت ، وعلى يديه فصفَّقت ، وعلى سائر أعضائه ، فاهتزَّت ، وطربت ، وعلى أنفاسه ، فتصاعدت ، وعلى زفراته ، فتزايدت ، وعلى

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٧٨) .

نيران أشواقه ، فاشتعلت . . ولقد أحسن القائل :

تُلِيَ الْكِتَـابُ فَـأَطْـرَقُـوا لا خِيْفَـةً ... لَكِنَّـــهُ إِطْـــراقُ سَـــاهٍ لاهِـــيْ
وَأَتَـىٰ الغِنَـاءُ فَكَـالْحَمِيْـرِ تَنَـاهَقُـوا ... وَاللهِ مَـــا رَقَصُـــوا لأَجْـــلِ اللهِ
دَفٌّ وَمِـــزْمَـــارٌ وَنَغْمَـــةُ شَـــادِنٍ ... فَمَتَـى رَأَيْـتَ عِبَـادَةً بِمَـلاهِـي
ثَقُـلَ الْكِتَـابُ عَلَيْهِـم لَمَّـا رَأَوا ... تَقْيِيْـــدَهُ بِـــأَوامِـــرٍ وَنَـــوَاهِـــي
سَمِعُـوا لَـهُ رَعْـداً وَبَـرْقـاً إِذْ حَـوَىٰ ... زَجْـراً وَتَخْـوِيْفـاً بِفِعْـلِ مَنَـاهِـي
وَرَأَوه أَعْظَـمَ قَـاطِـعٍ لِلنَّفْـسِ عَـنْ ... شَهَـواتِهَـا يَـا ذَبْحَهَـا المُتَنَـاهِـي
وَأَتَـى السَّمَـاعُ مُـوَافِقـاً أَغْـرَاضَهـا ... فَـلأَجْـلِ ذَاكَ غَـدَا عَظِيْـمَ الْجَـاهِ(١)

وهكذا أصبحت حياة المتصوِّفة المنحرفين في اللَّهو ، والسَّخافة ، وأضاعوا أوقاتهم وأعمارهم في مجالس الذِّكر ، والسَّماع ، والملاهي ، وأصبحت حياتهم من أوَّلها إِلى آخرها تدور حول الذِّكر في صورته المنحرفة ، وضاعت عبادة السَّعي في مناكب الأرض ، وطلب الرِّزق ، والجهاد ، وطلب العلم ، ونشره ، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر ، فكلُّها أمورٌ تشغل عن الذِّكر ، وتصدُّ عنه ، ومن ثمَّ ينبغي على المسلم ألا يشتغل بها ، وأن يعيش حياته على الذِّكر بالسَّماع ، والغناء ، والرَّقص .

ودخل في عالم التصوُّف المنحرف تقديس الأشخاص الأموات منهم ، والأحياء ، ونسبوا إِليهم خوارق العادات ، والكرامات ، وعاشوا في الأوهام عالم الخيال ، وأصيب النَّاس بالوهن والعجز والانحطاط ، واتَّسعت هوة التخلُّف والسُّقوط ، وكانت أوربة الصَّليبيَّة تواصل صعودها في سلَّم الحضارة المادِّيَّة ، وتعدُّ جيوشها للزَّحف على العالم الإِسلامي الغارق أهله في دنيا الخرافات ، والأوهام ، والاتِّكال على الخوارق والكرامات .

في الوقت الَّذي كانت فيه الأمَّة تعاني أشدَّ المعاناة من الضَّعف ، والانحطاط ، وتدور عليها المؤامرات من الأعداء ، وتحاك لها الدَّسائس ، كان كثيرٌ من علمائها طوع مشيئة شيوخهم من المتصوِّفة المنحرفين الَّذين أشاعوا روح الذُّلِّ ، والخنوع

(١) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ٥٠٦) .

في الأمَّة ، والذِّلَّة ، والهوان ، وغير ذلك من الأمراض المنحرفة ، وتركت كثيرٌ من الطُّرق الصُّوفيَّة المنحرفة الجهاد لمقارعة الأعداء ، وأصبح الأولياء في عرف النَّاس هم المجاذيب ، والمجانين ، والمعتوهين ، ولا شكَّ : أنَّ هناك بينهم بنسبة كبيرةٍ من الدَّجَّالين ، والمحترفين ، استغلُّوا ما للمجاذيب من مكانةٍ مقدَّسةٍ في نفوس النَّاس ، فاندسوا في صفوفهم ، ليصبحوا ضمن رابطة الأولياء ، من الَّذين لا لوم عليهم ، ولا عتاب ، مهما ارتكبوا من الموبقات ، وجاهروا بالفواحش ، والآثام ، وكان الكثير منهم يتعامل مع الجنِّ ، فكان طبيعياً أن تنفذ سهام الأعداء ، وتنجح مخطَّطاتهم ، وتحتلَّ جيوشهم أرضنا ، وتستباح بيضتنا .

ولقد حفلت الصُّوفية ببحرٍ زاخر من العقائد المنحرفة ، والضَّالة ، ولعل آخر العقائد ممَّا آمن بها كثيرٌ من المتصوِّفة المنحرفين عقيدة وحدة الوجود ، والحلول ، لقد احتضن المتصوِّفة المنحرفين هذه العقائد ، وعملوا على نشرها ، وألَّفوا مؤلفاتٍ من أجلها ، واعتبروها الحقيقة الَّتي كُشِفَ لهم سرَّها ، وسُتِرَ عن الآخرين .

وكان تدريس كتابي (فصوص الحكم) و(الفتوحات المكِّيَّة) لـ(ابن عربي) وغيرهما من كتب المتصوِّفة الَّتي تطفح بعقيدتي وحدة الوجود والحلول ، هو شعار كبار العلماء من المتصوِّفة ، وغيرهم ، وهو المنزلة العلميَّة الَّتي لا يتبوَّؤها إلا الخاصَّة منهم ، والمستوى العلمي الَّذي لا يرقى إليه إلا فحول العلماء(١) .

لقد لقيت هذه العقائد المنحرفة رواجاً واسعاً بين المتصوِّفة المنحرفين في تلك الفترة الحرجة الَّتي كانت تمرُّ بها الأمَّة الإسلاميَّة ، فكان كثيرٌ منهم يؤمن بعقيدة وحدة الوجود ، الَّتي لا يمكن للحياة في ظلِّها أن تفسد ، ويحيق الدَّمار بالعالم ، وتبطل الأديان بالكلِّيَّة ، فلا يبقى معها دينٌ ، ولا جهادٌ ، ولا عداءٌ بين مسلمٍ ، وكافرٍ ، فالكلُّ واحدٌ ، والوجود واحدٌ ؛ وإن تعددت المظاهر ، نسأل الله السَّلامة في الدِّين .

وكان هناك استخفافٌ كثيرٌ منهم بالشَّرائع ، وإلغاؤهم التَّكاليف أو إسقاطهم

---

(١) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/٥٥٦) .

لها ، واستهانتهم بأوامر الدِّين ونواهيه تحت مسمَّى الولاية ، والحزب ، والجذب ، والشُّهود . ولقد كان واقع الصُّوفيَّة حجَّةً قويَّةً استندت إِليها حركات التَّغريب الَّتي نخرت الدَّولة العثمانيَّة .

خامساً : نشاط الفرق المنحرفة :

كالقاديانيَّة ، والبهائيَّة ، وغيرها من الفرق الضَّالَّة المحسوبة على الإِسلام .

لقد كانت تلك الفرق قد استفحل أمرها ، خصوصاً مع مجيء الاستعمار الصَّليبي الَّذي طوَّق الأمَّة الإِسلاميَّة ، فكانوا على عادتهم دائماً مع أعداء المسلمين عوناً لهم ، وجنداً مخلصين تحت قياداتهم .

ففي الماضي كانوا أكبر عونٍ للتَّتار ، والصَّليبيِّين ضدَّ المسلمين ، وها هم يسيرون على نفس المنهج الممزوج بالخيانة ، والتَّآمر لحساب أعداء الأمَّة ، وقد مرَّ بنا في هذا الكتاب دور الصَّفويَّة الاثني عشريَّة في محاربة الدَّولة العثمانيَّة على مرِّ عصورها ، وحين احتلَّ الفرنسيُّون سوريا ، وانطلقت الحركات الجهاديَّة ضدَّهم كان أعضاء بعض الفرق الضالة يقاتلون جنباً إِلى جنب مع الفرنسيِّين كما فعلوا مع المجاهد (إِبراهيم هنانو) ومن معه من المجاهدين[١] .

وكان الأمير بشير الشِّهابي المتوفى سنة ١٢٦٦هـ يقف بجنوده بجانب جيش محمَّد علي عند احتلاله للشَّام ، ممَّا سهَّل على جيش محمَّد علي هزيمة الجيش العثماني في حمص ، وعبر جبال طوروس ، وأوغلت جيوشه في قلب بلاد التُّرك ، وكان هناك مراسلاتٌ بين نابليُّون، وطائفة الشهابي عند حصار الفرنسيِّين (عكَّا)[٢].

أمَّا البهائيَّة فقد نشأت عام ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م تحت رعاية الاستعمار الرُّوسي ، واليهوديَّة العالميَّة ، والاستعمار الإِنجليزي بهدف إِفساد العقيدة الإِسلاميَّة ، وتفكيك وحدة المسلمين وصرفهم عن قضاياهم الأساسيَّة ، وقد ادَّعى البهاء المهديَّة ، ثمَّ ادَّعى النُّبوَّة ، ثمَّ ادعى الرُّبوبيَّة ، والألوهيَّة[٣] .

---

(١) انظر : الأعلام (١/ ٤٢) .
(٢) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ٥٧٧) .
(٣) المصدر السَّابق نفسه (١/ ٥٨٩) .

إِنَّ من المؤلم حقّاً تهاون الدَّولة العثمانيَّة في القضاء على تلك النِّحلة الخبيثة ، وتطبيق حكم الله ، وشرعه في أمثالهم .

وأمَّا القاديانية فهي نحلةٌ تنسب إِلى (غلام أحمد القادياني) ، ونسبت إِلى قرية قاديان من إِقليم البنجاب في الهند (المتوفى سنة ١٣٢٦هـ) وهي : (حركة نشأت بتخطيطٍ من الاستعمار الإنجليزي في القارة الهنديَّة بهدف إِبعاد المسلمين عن دينهم ، وعن فريضة الجهاد بشكلٍ خاصٍّ ، حتَّى لا يواجهوا المستعمر باسم الإِسلام)[١] .

وقد ادَّعى القادياني النُّبوَّة ، ثمَّ الألوهيَّة ، وقد كان من أبرز ملامح دعوة (غلام أحمد القادياني) (ميله الشَّديد للإِنجليز ، وخدمته لأغراضهم في بلاد الهند ، وإِبطال عقيدة الجهاد لهم ، وثناؤه عليهم ، وحثُّ أتباعه على نصرتهم في كلِّ مكانٍ . .)[٢] .

ويقول القاديانيُّ : (ولا يجوز عندي أن يسلك رعايا الهند من المسلمين البُغاة ، وأن يرفعوا على هذه الدَّولة المحسنة سيوفهم ، أو يعينوا أحداً في هذا الأمر ، ويُعان على شيءٍ أحد من المخالفين بالقول ، أو الفعل ، أو الإِشارة ، أو المال ، أو التَّدابير المفسدة ، بل هذه الأمور حرامٌ قطعيٌّ ، ومن أرادها ؛ فقد عصى الله ، ورسوله ، وضلَّ ضلالاً مبيناً)[٣] .

لقد كانت تلك الفرق مصدراً لإِثارة القلاقل ، والفتن ، وإِحداث الفوضى في داخل الدَّولة العثمانيَّة ، وكذلك في تجمُّعات المسلمين كالهند ، وغيرها ، وكانت تلك الفرق لا تكلُّ ، ولا تملُّ في تآمرها المستمرِّ مع أعداء الإِسلام ، وفي خيانة المسلمين في أحرج الأوقات ، وأحلك الظُّروف ، لقد اكتوت الأمَّة بشرور تلك الفرق عندما ضعفت عقيدة أهل السُّنَّة في كيان الدَّولة القائمة عليها ، وفي نفوس رعاياها من أهل السُّنَّة .

---

(١) انظر : الموسوعة الميسَّرة للأديان ، ص(٣٨٩) .
(٢) انظر : عقيدة ختم النُّبوَّة ، د . عثمان عبد المنعم ، ص(٢٠٩) .
(٣) انظر : عقيدة ختم النُّبوَّة بالنُّبوَّة المحمَّدية ، د . أحمد حمدان ، ص(٢٥٥) .

سادساً : غياب القيادة الربَّانيَّة :

إنَّ القيادة الرَّبَّانيَّة من أسباب نهوض الأمَّة ، والتَّمكين لها ، لأنَّ قادة الأمَّة هم عصب حياتها ، وبمنزلة الرَّأس من جسدها ، فإذا صلح القادة ؛ صلحت الأمَّة ، وإذا فسد القادة ؛ صار هذا الفساد إلى الأمَّة ، ولقد فطن أعداء الإسلام لأهميَّة القيادة الرَّبانيَّة في حياة الأمَّة ، ولذلك حرصوا كلَّ الحرص على ألا يمكِّنوا القيادات الرَّبَّانيَّة من امتلاك نواصي الأمور ، وأزمَّة الحكم في الأمَّة الإسلاميَّة ، ففي خطة لويس التَّاسع أوصى بـ(عدم تمكين البلاد الإسلاميَّة ، والعربيَّة من أن يقوم بها حاكمٌ صالحٌ) كما أوصى بـ(العمل على إفساد أنظمة الحكم في البلاد الإسلاميَّة بالرَّشوة ، والفساد ، والنِّساء ، حتى تنفصل القاعدة عن القمَّة)[1] .

وصرح القائد المستشرق البريطاني (مونتجومري وات) في (جريدة التَّايمز اللَّندنيَّة) قائلاً : (إذا وجد القائد المناسب الَّذي يتكلَّم الكلام المناسب عن الإسلام ، فإنَّ من الممكن لهذا الدِّين أن يظهر كإحدى القوى السِّياسيَّة العظمى في العالم مرَّةً أخرى)[2] .

وقال المستشرق الصَّهيوني (برنارد لويس) تحت عنوان (عودة الإسلام) في دراسةٍ نشرها عام ١٩٧٦م : (إنَّ غياب القيادة العصرية المثقَّفة : القيادة الَّتي تخدم الإسلام بما يقتضيه العصر من علمٍ ، وتنظيمٍ ، إنَّ غياب هذه القيادة قد قيَّدت حركة الإسلام كقوَّةٍ منتصرةٍ ، ومنع غياب هذه القيادات الحركات الإسلاميَّة من أن تكون منافساً خطيراً على السُّلطة في العالم الإسلامي ، لكن هذه الحركات يمكن أن تتحوَّل إلى قوىً سياسيَّةٍ هائلةٍ إذا تهيَّأ لها هذا النَّوع من القيادة)[3] .

إنَّ الباحث في الدَّولة العثمانيَّة يجد أنَّ القيَّادة الرَّبانيَّة كانت موجودةً في عصورها المتقدِّمة ، وخصوصاً عند فتح القسطنطينيَّة ، فنجد القادة الرَّبَّانيِّين في المجال الجهاديِّ ، والمجال المدنيِّ ، ونلاحظ الصِّفات المشتركة بينهم ، كسلامة

---

(١) انظر : قادة الغرب يقولون ، جلال العالم ، ص(٦٣) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه ، ص(٢٥) .
(٣) انظر : التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص(١٨٥) .

المعتقد ، والعلم الشَّرعي ، والثِّقة بالله ، والقدوة ، والصِّدق ، والكفاءة ، والشَّجاعة ، والمروءة ، والزُّهد ، وحبُّ التَّضحية ، وحسن الاختيار للمعاونين ، والتَّواضع ، وقبول التَّضحية ، والحلم ، والصبر ، وعلوّ الهمَّة ، والتَّميُّز بخفَّة الرُّوح ، والدُّعابة ، والحزم ، والإرادة القويَّة ، والعدل ، والاحترام المتبادل ، والقدرة على حلِّ المشكلات ، والقدرة على التَّعليم ، وإعداد القادة ، وغير ذلك من الصِّفات .

لقد قاد محمَّد الفاتح الأمَّة في زمنه قيادة ربَّانيَّةً ، وقد جرى الإيمان في قلبه ، وعروقه ، وانعكست ثماره على جوارحه ، وتفجَّرت صفات التَّقوى في أعماله ، وسكناته ، وأحواله ، وانتقل بدولته ، وشعبه نحو الأهداف المرسومة بخطواتٍ ثابتةٍ ، وكان العلماء الرَّبَّانيُّون هم قلب القيادة في الدَّولة ، وعقلها المفكِّر ، ولذلك سارت الأمَّة والدَّولة العثمانيَّة على بصيرةٍ ، وهدىً ، وعلمٍ[1] ، وأمَّا في العصور المتأخِّرة فإن الباحث يجد انحرافاً خطيراً في القيادة العثمانيَّة على المستوى العسكريِّ ، والعلميِّ ، فمثلاً وصل إلى الصَّدارة العظمى مدحت باشا الماسوني ، وولِّيَ ولايةَ مصر محمَّد علي باشا العلماءُ والفقهاءُ ، وإنَّ المرء ليعجب من اختيار العلماء لرجلٍ مثل (محمَّد علي باشا) ليتولَّى أمورهم ، وإصرارهم عليه في تولي الحكم ، أما كان أحدهم أولى به من عسكريٍّ جاهلٍ مغرورٍ ، ويبدو : أنَّ العلماء فقدوا ثقتهم في علمهم ، وتهيَّبوا النُّزول إلى الميدان ، وتحمُّل المسؤوليَّات العظام ؛ لأنَّهم قد ألفوا الرُّكون إلى حلقات العلم ، وتأليف الكتب ، ولم يعودوا قادرين على القيام بغير ذلك من مهمَّات ومسؤوليَّات .

ومن الأمور المحزنة الَّتي كانت تقع بين العلماء حدوث المنافسات ، والضَّغائن بينهم ، واستعانة بعضهم بالحكَّام ، واستعداء السُّلطة عليهم ، ومتى ما حدث ذلك فإنَّها تسنح الفرصة للطُّغاة لإنزال ضرباتهم الموجعة لتقويض صفِّ العلماء ، كالخلاف الَّذي وقع بين الشَّيخ (عبد الله الشِّرقاوي) شيخ الأزهر ، وبين بعض المشايخ الآخرين حيث ترتَّب على ذلك الخلاف صدور الأمر من محمَّد علي باشا إلى الشِّيخ الشِّرقاوي بلزوم داره ، وعدم الخروج منها ، ولا حتَّى إلى صلاة

---

(١) انظر : فقه التمكين في القرآن الكريم لعلي الصَّلابي ، ص(٣٢٨) .

الجمعة ، وسبب ذلك كما يقول الجبرتي : (أمورٌ ، وضغائن ، ومنافساتٌ بينه وبين إِخوته . . فأغروا به الباشا ، ففعل به ما ذكر ، فامتثل الأمر ، ولم يجد ناصراً ، وأهمل أمره)(١) .

ويصف الشَّيخ مصطفى صبري حال العلماء الَّذين ابتعدوا عن أمور الحكم ، ونصح الحكام ، وما هي نظرة العلمانيِّين للعلماء ، فقال : (والَّذين جرَّدوا الدِّين في ديارنا عن السِّياسة كانوا هم وإِخوانهم لا يرون الاشتغال بالسِّياسة لعلماء الدِّين ، بحجَّة : أنَّه لا ينبغي لهم، وينقص من كرامتهم . ومرادهم حكر السِّياسة ، وحصرها لأنفسهم ، ومخادعة العلماء بتنزيلهم منزلة العجزة ، فيقبِّلون أيديهم ، ويخيِّلون لهم بذلك أنَّهم محترمون عندهم ، ثمَّ يفعلون ما يشاؤون لدين النَّاس ، ودنياهم ، محرَّرين عن احتمال أين يجيء من العلماء أمرٌ بمعروفٍ ، أو نهيٌ عن منكرٍ ، إِلا ما بَعُدَ من فضول اللِّسان ، أو ما يكمن في القلب ، وذلك أضعف الإِيمان .

فالعلماء المعتزلون عن السِّياسة ، كأنَّهم تواطؤوا مع كلِّ السَّاسة ، صالحيهم ، وظالميهم ، على أن يكون الأمر بأيديهم ، ويكون لهم منهم رواتب الإِنعام والاحترام ، كالخليفة المتنازل عن السُّلطة ، وعن كل نفوذٍ سياسيٍّ . .)(٢) .

لقد أخلد العلماء في أواخر الدَّولة العثمانيَّة إِلى الأرض ، واتَّبعوا أهواءهم ، وضعفوا عن القيام بواجباتهم ، فكانوا بذلك قدوةً سيِّئةً للجماهير الَّتي ترمقهم ، وترقبهم عن قربٍ ، ولقد غرق الكثير منهم في متاع الدُّنيا ، وأترفوا فيها ، وكمِّمت أفواههم بدون سيفٍ ، أو سوطٍ ، ولكن بإِغداق العطايا عليهم من قبل الباشوات ، والحكَّام ، ووضعهم في المناصب العالية ذات المرتَّبات الجزيلة ، والمزايا العظيمة ، الَّتي تكون كفيلةً بإِسكات أصواتهم ، وكبح ثورتهم ، واعتراضهم(٣) .

(لقد كان علماء الدِّين دائماً في تاريخ هذه الأمَّة هم قادتُها ، وموجهوها ، هم ملجؤها كذلك إِذا حزبهم أمر ، وملاذها عند الفزع . . تتَّجه إِليهم ؛ لتتلقَّى علم الدِّين منهم ، وتتَّجه إِليهم ؛ ليشيروا عليها في أمورها الهامَّة ، وتتَّجه إِليهم إِذا وقع

---

(١) انظر : عجائب الآثار (٣/ ١٣٤) .
(٢) انظر : الاتِّجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (٢/ ٨٤) .
(٣) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ٦٠٥) .

عليهم ظلمٌ من الحكَّام ، والولاة ؛ ليسعوا إلى رفع الظُّلم عنهم ، بتذكير أولئك الحكَّام ، والولاة بربِّهم ، وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر . . وكان العلماء يُضطهدون من قبل ذوي السُّلطان أحياناً ، ويُلقون في السُّجون أحياناً ، ويُؤذون في أبدانهم ، وأموالهم ، وكراماتهم أحياناً ، ولكنَّهم يصمدون لهذا ، تقديراً لمسؤوليَّاتهم أمام الله .

وكما كان العلماء هم قادة الأمَّة ومرشدوها في الأمور السِّياسيَّة ، والاجتماعيَّة ، والاقتصاديَّة ، والفكريَّة ، والرُّوحيَّة ، وكانوا كذلك دعاتها إلى الجهاد كلَّما حدث على الأمَّة عدوان . . يذكِّرونها بالله ، واليوم الآخر ، وبالجنَّة الَّتي تنتظر المجاهدين الصَّادقين ، وكانوا يشاركون في الجهاد بأنفسهم ، بل يقودون الجيوش بأنفسهم في بعض الأحيان .

تلك كانت مهمَّة علماء الدِّين ، والدِّين حيٌّ في النُّفوس . . وفي التَّاريخ نماذج عديدةٌ لعلماء أرضوا ربَّهم ، وأدَّوا أمانتهم ، وجاهدوا في الله حقَّ جهاده ، وصبروا على ما أصابهم في سبيل الله ، فما ضعفوا ، وما استكانوا . . فأين كان العلماء في تلك الفترة الَّتي نحن بصددها من التَّاريخ ؟

هل كانوا في مكان القيادة الَّذي عهدتهم الأمَّة فيه إلى عهد ليس ببعيدٍ . . ؟

هل كانوا حماة الأمَّة من العدوان ؟ وحماتها من الظُّلم الواقع عليهم من ذوي السُّلطان ؟

هل كانوا هم الَّذين يطالبون للأمَّة بحقوقها السِّياسيَّة ، وحقوقها الاجتماعيَّة ، وحقوقها الاقتصاديَّة ؟

هل كانوا هم الَّذين يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويقومون إلى الإمام الجائر ، فيأمرونه ، وينهونه ، فيقتلهم ، أم لم يقتلهم ؟

أم كان كثيرٌ منهم قد استعبدوا أنفسهم للسُّلطان ، ومشوا في ركابه ، يتملَّقونه ، ويباركون مظالمه ، فيمدُّونه في الغيِّ ، بينما البقيَّة الصَّالحة منهم قد قبعت في بيوتها ، أو انزوت في الدَّرس ، والكتاب ، تحسب أنَّ مهمَّتها قد انتهت إذا لقنت النَّاس العلم . . وما نريد أن نظلمهم ، فقد كان منهم ـ ولا شكَّ ـ من صدع بكلمة

الحقِّ ، ومنهم من ألقى بالمنصب تحت قدميه حين أحسَّ : أنَّه يستعبده لأولي السُّلطان ، أو يلجمه عن كلمة الحق . . ولكنَّهم قلَّةٌ قليلةٌ بين الكثرة الغالبة الَّتي راحت تلهث وراء المتاع الأرضيِّ ، أو تقبع داخل الدَّرس ، والكتاب ، على ما فيها من جوانب القصور . .)[١] .

وكان من الطَّبيعيِّ أن تصاب العلوم الدِّينيَّة في هذه الفترة بالجمود ، والتحجُّر نتيجةً لعدَّة عوامل أعطت أثرها عبر القرون المتواليَّة ، ومن هذه العوامل :

١ ـ الاهتمام بالمختصرات :

قام بعض العلماء باختصار المؤلَّفات الطَّويلة بغية تسهيل حفظها لطلبة العلم ، حيث غدا الحفظ هو الغاية عند العلماء ، والطلاَّب ، حيث ضعفت ملكة الفهم ، والاستنباط عندهم ، (فأصبح الفقهاء ينقلون أقوال من قبلهم ، ويختصرون مؤلَّفاتهم في متونٍ موجزةٍ ، ويأخذون هذه الأقوال مجرَّدةً من أدلَّتها من الكتاب ، والسُّنَّة ، مكتفين بنسبتها إِلى أصحابها)[٢] .

يقول الشَّيخ عبد الحميد بن باديس ناقداً للطَّريقة في تدريس الفقه : (واقتصرنا على قراءة الفروع الفقهيَّة مجرَّدةً بلا نظرٍ ، جافةً بلا حكمةٍ ، وراء أسوارٍ من الألفاظ المختصرة تفني الأعمار قبل الوصول إِليها)[٣] .

ويذكر الإِمام الشَّوكاني اهتمام النَّاس في عصره بهذه المختصرات ، والخطورة الَّتي تنطوي على ذلك ، فيقول : (قد جعلوا غاية مطالبهم ، ونهاية مقاصدهم العلم بمختصرٍ من مختصرات الفقه الَّتي هي مشتملةٌ على ما هو من علم الرَّأي والرِّواية ، والرأي أغلب ، ولم يرفعوا إِلى غير ذلك رأساً من جميع أنواع العلوم ، فصاروا جاهلين بالكتاب ، والسُّنَّة ، وعلمهما جهلاً شديداً ، لأنَّه تقرَّر عندهم : أنَّ حكم الشَّريعة منحصرٌ في ذلك المختصر ، وأنَّ ما عداه فضلةٌ ، أو فضول ، فاشتدَّ شغفهم به ، وتكالبهم عليه ، ورغبوا عمَّا عداه ، وزهدوا فيه زهداً شديداً)[٤] .

---

(١) انظر : واقعنا المعاصر ، ص(٣٢٧) .
(٢) انظر : المجتمع الإِسلامي المعاصر ، ص(٥٦) .
(٣) انظر : ابن باديس . . حياته آثاره (١/١٠٨) .
(٤) انظر : أدب الطَّلب ، ص(٥٩) .

٢ ـ الشُّروح ، والحواشي ، والتَّقريرات :

يقول الشَّوكاني ـ رحمه الله ـ الَّذي درس ، ودرَّس الكثير من هذه الشُّروح ، والحواشي في مختلف العلوم الدِّينيَّة واللُّغويَّة منتقداً لها : (مع أنَّ فيها جميعاً ما لا تدعو إليه الحاجة بل غالبها كذلك ، ولا سيَّما تلك التَّدقيقات الَّتي في شروحها ، وحواشيها ، فإنَّها عن علم الكتاب ، والسُّنَّة بمعزلٍ)[١] .

لقد كانت المؤلَّفات على كثرتها من شروحٍ ، وحواشٍ وغير ذلك من الأغلال الَّتي كبَّلت العقول ، وأدَّت إلى جمود العلوم عبر قرون عديدةٍ ، وكانت توجد بعض الحواشي ، والشُّروح المفيدة ، ولكنَّها لا تكاد تذكر ، وكانت مناهج التَّعليم في تلك الفترة بعيدةً كلَّ البعد عن منهج أهل السُّنَّة والجماعة ، وكانت المعاهد الإسلاميَّة كلُّها تقريباً ـ بعيدةً عن ذلك المنهج الإسلاميِّ الأصيل .

فالأزهر مثلاً ـ وهو المعهد الإسلاميُّ الكبير ، والجامعة العتيقة ـ كان مركزاً لعلوم المتكلِّمين البعيدة عن روح الإسلام ، ومبادئه ، يقول أحد الدَّارسين في الأزهر عن علم الكلام :

(من العلوم الَّتي لم أنتفع بدراستها في الأزهر على الإطلاق علم الكلام ، فقد درسته بالأزهر عدَّة سنواتٍ ، ولكنِّي لم أعرف منه شيئاً عن الله ذا بالٍ ، وإنَّما انغمست في اصطلاحاتٍ زادت تفكيري غموضاً ، واضطراباً حتَّى تمنَّيت إيمان العوام)[٢] .

لقد أصاب المناهج الإسلاميَّة في تلك الفترة بالإضافة إلى الجمود موجةٌ من الجفاف حيث : (إنَّ العصور المتأخِّرة بَعُدت بعداً كبيراً عن روح الإسلام ، واهتمَّت بالجسم ، والمادَّة حتَّى أصبحت الدراسات الإسلاميَّة دراسةً لا حياة فيها ، ولا روح ، وجرت عدوى هذه الدِّراسات إلى جميع أبواب الفقه ، حتَّى الأبواب الَّتي كانت يجب أن تكون دراسة الرُّوح أهمَّ عنصرٍ فيها)[٣] .

---

(١) انظر : البدر الطَّالع بمحاسن ما بعد القرن السَّابع (١/ ٨٦) .
(٢) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (٢/ ٤٢ و٤٣) .
(٣) انظر : المجتمع الإسلاميُّ المعاصر ، ص(٢١٠) .

٣ ـ الإجازات :

من عوامل تدهور الحياة العلميَّة في تلك الفترة التَّساهل في منح الإجازات ؛ فكانت تُعطى في العصر المتأخِّر للدولة العثمانيَّة جزافاً ؛ إذ كان يكفي أن يقرأ الطَّالب أوائل كتاب ، أو كتابين ممَّا يدرِّسه الأستاذ حتَّى ينال إجازة بجميع مرويَّاته ، وكثيراً ما أُعطيت لمن طلبوها من أهل البلاد القاصية عن طريق المراسلة . فكان العالم في القاهرة يبعث إلى طالب في مكَّة بالإجازة دون أن يراه ، أو يختبره[١] .

فكان ذلك التَّساهل من الأمور الَّتي شغلت المسلمين عن تحصيل العلوم كما كان ينبغي ، وهكذا كان التَّساهل في منح الإجازات عاملاً مهمّاً من عوامل انحدار المستوى التَّعليمي ، وضعف العلوم الشَّرعيَّة ، حيث أضحى الهدف عند كثيرٍ من المنتسبين إلى العلم حيازة أكبر عددٍ من هذه الإجازات الصُّوريَّة الَّتي لم يكن لها في كثيرٍ من الأحيان أيُّ رصيدٍ علميٍّ في الواقع[٢] .

٤ ـ وراثة المنصب العلمي :

أصبحت المناصب العلميَّة في أواخر الدَّولة العثمانيَّة بالوراثة في الأمور العلميَّة المهمَّة كالتَّدريس ، والفتوى ، والإمامة ، وحتَّى القضاء ، فقد صارت تلك المناصب تورث بموت من كانوا يتولَّونها ، تماماً كما تورث الدُّور ، والضِّياع ، والأموال ، فكثيراً ما كان يحدث أن يموت شيخٌ يدرِّس عليه ، فلا يوارى التراب حتَّى ينتقل منصبه ، وكرسيُّه إلى ولده ، أو أخيه ، أو أحد أقاربه ، وقد يكون الوارث قليل الفهم مُزْجَى البضاعة في العلم ، ولكن لا بدَّ للتَّصدر للإقراء والتَّدريس ، وعدم إخلاء الكرسيِّ ؛ الَّذي قد يتربَّع عليه غريبٌ عن أهل المتوفَّى ، حتَّى ولو كان جديراً بخلافته في منصبه الَّذي رحل عنه[٣] .

يقول المؤرِّخ التُّركيُّ أحمد جودت المتوفَّى عام ١٣١٢هـ[٤] متحدِّثاً عن تلك

---

(١) انظر : الانحرافات العقديّة والعلميّة (٢/ ٥٩) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه (٢/ ٦٤) .
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) كان وزيراً في البلاط العثماني ، وكتب تاريخ جودت بالتُّركيَّة في ١٢ مجلداً .

الظَّاهرة السَّيِّئة في الدَّولة العثمانيَّة : (وصار أبناء الصُّدور ، والقضاة ينالون وظيفة التَّدريس ، وهم أحداثٌ ، وأطفالٌ ، ويترقَّون لذلك في الوظائف ، حتَّى إنَّ الواحد منهم لتأتيه نوبته في المولويَّة[1] وما طرَّ شاربه ، ولا اخضرَّ عِذاره . وكان ينال التَّدريس أيضاً كلُّ ذي وجاهةٍ واعتبارٍ ، حتَّى صارت المراتب ، والمناصب العلميَّة تؤخذ بالإرث ، فسهل على الوزراء ، ورجال الدَّولة تقليدها لأبنائهم ، وغيرهم ، فازدحم عليها الغوغاء ، وصار الجهَّال يموج بعضهم في بعضٍ ، والتبس الأمر ، وفسد أيَّ فساد)[2] .

ويقول (محمَّد كرد علي) في حديثه عن الأحوال العلميَّة في الشَّام وتردِّيها في العصر العثماني : (وقد قويت في هذا العصر قاعدة خير الأب للابن ، وكان المفتي (أبو السُّعود) من مشايخ الإسلام في الآستانة أوَّل من ابتدعها ، وأخرجها للنَّاس ، فأصبح التَّدريس ، والتَّولية ، والخطابة ، والإمامة ، وغيرها من المسالك الدِّينية توسد إلى الجهلة بدعوى أنَّ آباءهم كانوا علماء ، وهم يجب أن يرثوا وظائفهم ، ومناصبهم ، وإن كانوا جهلةً ، كما ورثوا حوانيتهم ، وعقارهم ، وفرشهم ، وكتبهم ، بل بلغت الحال بالدَّولة إذ ذاك أن كانت تولِّي القضاء الأميِّين ، وكم من أميٍّ غدا في (دمشق) و(حلب) و(القدس) و(بيروت) قاضي القضاة ، أمَّا في الأقاليم ، فربما كان الأميُّون أكثر من غيرهم . .)[3] .

لقد كانت لتلك العادة السَّيِّئة آثارٌ وخيمةٌ في انحدار مستوى التَّعليم ، وضعف الحياة العلميَّة عند المسلمين ، وذلك بتوارث تلك المناصب الدِّينية ، وحكرها في أسرٍ معيَّنةٍ ، وبالتَّالي أثَّرت تلك العادة في إيجاد علماء ربَّانيِّين متجرِّدين لدين الله تعالى همُّهم إحقاق العدل ، ونصرة المظلوم ، وإعزاز الدِّين .

سابعاً : رفض فتح باب الاجتهاد :

في أواخر الدَّولة العثمانيَّة أصبحت الدَّعوى بفتح باب الاجتهاد تهمةً كبيرةً تصل

---

(١) المولويَّة : ثاني رتبةٍ في القضاء العثماني بعد رتبة قاضي العسكر .
(٢) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلمية (٢/ ٦٨) .
(٣) انظر : خطط الشَّام (٣/ ٧٠) .

إلى الرَّمي بالكبائر ، وتصل عند بعض المقلِّدين ، والجامدين إلى حدِّ الكفر ، وكان من التُّهم الَّتي وجَّهها خصوم الدَّعوة السَّلفيَّة إلى علمائها دعوى الاجتهاد ، وكانت تهمةً شديدةً في ذلك الزَّمن ، مع أنَّ أحداً منهم لم يقل بذلك ، وكانت الدَّعوة إلى قفل باب الاجتهاد توارثها المتعصِّبون على مرِّ العصور ، وأصبح حرصهم في أواخر الدَّولة العثمانيَّة ظاهراً ، ونافحوا من أجل عدم فتحه ، ومقاومة كلِّ من يحوم حوله ، ممَّا شجع المتغرِّبين بالسَّعي الدَّؤوب لاستيراد المبادئ والنُّظم من أوربة ، ولقد ترتَّب على إغلاق باب الاجتهاد آثارٌ خطيرةٌ لا تزال أضرارها تنخر في حياة المسلمين إلى يومنا هذا .

فحين يتوقف الاجتهاد مع وجود دواعيه ومتطلباته . . فماذا يحدث ؟

يحدث أحد أمرين : إما أن تجمد الحياة وتتوقف عن النمو ؛ لأنها محكومة بقوالب لم تعد تلائمها . وإما أن تخرج على القوالب المصبوبة ، تخرج في ذات الوقت من ظل الشريعة ، لأن هذا الظل لم يمد بالاجتهاد حتى يعطيها .

وقد حدث الأمران معاً ، الواحد تلو الآخر . . الجمود أوَّلاً ، ثمَّ الخروج بعد ذلك من دائرة الشَّريعة(١) .

لقد عانت الأمَّة من قفل باب الاجتهاد ، وكانت الدَّولة العثمانيَّة في أواخر عهدها لم تعط هذا الباب حقَّه ، وكانت عجلة الحياة أسرع ، وأقوى من الجامدين والمقلِّدين الَّذين ردُّوا كلَّ جديدٍ ، وخرج الأمر من أيديهم ، (وهكذا توقَّفت الحركة العقليَّة عند المسلمين إزاء كلِّ جديدٍ تلده الحياة ، والحياة ولودٌ لا تتوقَّف عن الولادة أبداً ، فهي تلد كلَّ يومٍ جديداً لم تكن تعرفه الإنسانيَّة من قبل . . وكان من هذا أن مضى النَّاس ـ من غير المسلمين ـ يواجهون كلَّ جديدٍ ، ويتعاملون معه ، ويستولدون منه جديداً . . وهكذا سار النَّاس ـ من غير المسلمين ـ قدماً في الحياة ، ووقف المسلمون حيث هم لا يبرحون مكانهم ؛ الَّذي كان عليه الآباء ، والأجداد من بضعة قرون)(٢) . واستمرَّ التَّعصُّب المذهبي في إضعاف المستوى التَّعليميِّ ،

---

(١) انظر : واقعنا المعاصر ، ص(١٥٩) .

(٢) انظر : سد باب الاجتهاد وما ترتَّب عليه ، د . عبد الكريم الخطيب ، ص(١٤٤) .

وانحدار العلوم ، وجمودها ، وتكبيل العقول ، والأفهام ، والحجر عليها . بالإضافة إلى ما تسبَّب فيه من تفريق كلمة المسلمين ، وإفساد ذات بينهم ، وزرع العداء ، والشِّقاق بين أفرادهم ، وجماعاتهم ، وبعد أن تحزَّبوا طوائف وجماعاتٍ ، كلُّ طائفةٍ تناصر مذهبها ، وتعادي غيرها من أجله ، وفي تلك الفترة تفاقم هذا التعصُّب ، وعمَّ الأقطار الإسلاميَّة ، ولم يسلم منه قطرٌ ، ولا مصر ؛ فالجامع الأزهر كان ميداناً رحباً للصِّراعات المذهبيَّة خصوصاً بين الشَّوافع ، والأحناف ، وذلك من أجل التَّنافس الشَّديد على مشيخة الأزهر[١] .

إنَّ العصبية المذهبيَّة أوجدت حواجز كثيفةً بين المسلمين في القرون الأخيرة ، فأضعفت شعورهم بوحدتهم الإسلاميَّة اجتماعيّاً وسياسيّاً ، وأورثت فيما بينهم من العداوات ما شغلهم عن أعداء الإسلام على اختلاف أنواعهم ، وعن الأخطار المحدقة بالمسلمين ، والإسلام[٢] .

لقد كان التعصُّب المذهبي منحرفاً عن منهج الله تعالى ، وزاد هذا الانحراف عمقاً في حجر العقول ، وجمود العلوم ، وتفتيت الصَّفِّ الإسلامي ممَّا كان له أعظم الأثر في ضعف الدَّولة العثمانيَّة ، وانحطاطها ، وانشغالها بمشاكلها الدَّاخلية في الوقت الَّذي كانت المؤامرات قد أحاطت بها ، وشرع الصَّليبيُّون في الإجهاز على الرَّجل المريض .

ثامناً : انتشار الظُّلم في الدَّولة :

إنَّ الظُّلم في الدَّولة كالمرض في الإنسان يعجِّل في موته بعد أن يقضي المدَّة المقدَّرة له وهو مريضٌ ، وبانتهاء هذه المدَّة يحين أجل موته ، فكذلك الظُّلم في الدَّولة يعجِّل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثارٍ مدمِّرةٍ تؤدِّي إلى هلاكها ، واضمحلالها خلال مدَّةٍ معيَّنةٍ يعلمها الله هي الأجل المقدَّر لها ، أي : الَّذي قدَّره الله لها بموجب سنَّته العامَّة الَّتي وضعها لآجال الأمم بناءً على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل ، أو من عوامل الهلاك كالظُّلم ؛ الَّتي يظهر أثرها ، وهو هلاكها بعد

---

(١) انظر : عجائب الآثار (٢/ ٢٤٢) .
(٢) انظر : الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (٢/ ٨٦) .

مضيِّ مدَّةٍ محدَّدةٍ يعلمها الله[١] . قال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٤] . قال الآلوسي في تفسيره لهذه الآية : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أي : ولكلِّ أمَّةٍ من الأمم الهالكة أجلٌ ؛ أي : وقتٌ معيَّنٌ مضروبٌ لاستئصالهم[٢] . ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئاً مؤكَّداً ، ولكن وقت حلوله مجهولٌ لنا ؛ أي : أنَّنا نعلم يقيناً : أنَّ الأمَّة الظَّالمة تهلك حتماً بسبب ظلمها حسب سنَّة الله تعالى في الظُّلم ، والظَّالمين ، ولكنَّنا لا نعرف وقت هلاكها بالضَّبط ، فلا يمكن لأحدٍ أن يحدِّد الأيَّام ولا السِّنين ، وهو محدَّدٌ عند الله تعالى[٣] .

إنَّ سُنَّة الله مطَّردةٌ في هلاك الأمم الظَّالمة ، قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ۝ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٠ ـ ١٠٢] .

إنَّ الآية الكريمة تبيِّن : أنَّ عذاب الله ليس مقتصراً على من تقدَّم من الأمم الظَّالمة ، بل إنَّ سنَّته تعالى في أخذ كلِّ الظَّالمين سنَّةٌ واحدةٌ ، فلا ينبغي أن يظنَّ أحدٌ : أنَّ هذا الهلاك مقصورٌ على أولئك الظَّلمة السَّابقين ؛ لأنَّ الله تعالى لمَّا حكى أحوالهم قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ . فبيَّن الله تعالى : أنَّ كلَّ من شارك أولئك المتقدِّمين في أفعالهم ؛ الَّتي أدَّت إلى هلاكهم ؛ فلا بدَّ أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشَّديد ؛ فالآية تحذِّر من وخامة الظُّلم . إنَّ الدَّولة الكافرة قد تكون عادلةً بمعنى : أنَّ حكامها لا يظلمون النَّاس ، والنَّاس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم ، فهذه الدَّولة مع كفرها تبقى ؛ إذ ليس من سنَّته تعالى إهلاك الدَّولة بكفرها فقط ، ولكن إذا انضمَّ إلى كفرها ظلم حكَّامها للرَّعيَّة ، وتظالم النَّاس فيما بينهم[٤] قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود : ١١٧] .

قال الإمام الرَّازي في تفسيره : (إنَّ المراد من الظُّلم في هذه الآية الشِّرك .

---

(١) انظر : السُّنن الإلهية ، د . عبد الكريم زيدان ، ص(١٢١) .
(٢) انظر : تفسير الآلوسي (٨/ ١١٢) .
(٣) انظر : السُّنن الإلهيَّة ، ص (١٢١) .
(٤) انظر : السُّنن الإلهية ، ص(١٢٢) .

والمعنى : أنَّ الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين ؛ إذ كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم ، يعامل بعضهم بعضاً على الصَّلاح ، وعدم الفساد)[١] .

وفي تفسير القرطبي قوله تعالى ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أي : بشركٍ ، وكفرٍ ﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ أي : فيما بينهم في تعاطي الحقوق . ومعنى الآية : إنَّ الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد ، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال ، والميزان ، وقوم لوطٍ باللِّواط[٢] .

قال ابن تيميَّة في هلاك الدَّولة الظَّالمة وإن كانت مسلمة : (وأمور النَّاس إنَّما تستقيم مع العدل ؛ الَّذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر ممَّا تستقيم مع الظلم في الحقوق ، وإن لم تشترك في إثمٍ ، ولهذا قيل : إنَّ الله يقيم الدَّولة العادلة وإن كانت كافرةً ، ولا يقيم الظَّالمة وإن كانت مسلمةً ، ويقال : الدُّنيا تدوم مع العدل ، والكفر ، ولا تدوم مع الظلم والإسلام . وذلك : أنَّ العدل نظام كلِّ شيءٍ ، فإذا أقيم أمر الدُّنيا بالعدل ؛ قامت ، وإن لم تقم بالعدل ؛ لم تقم ، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة)[٣] .

لقد قام بعض الباشوات بأفعالٍ قبيحةٍ ، وسفكوا الدِّماء ، واغتصبوا الأموال ؛ فهذا إبراهيم باشا المعروف بدالي أحد وزراء السُّلطان مراد الثَّالث ، وكان أمير الأمراء في ديار بكرٍ بأسرها ؛ ففتك فيها ، وظلم أهلها ، وأظهر من أنواع الظُّلم أشياء مستكرهةً جدّاً ، منها الاعتداء على الأعراض ، ونهب الأموال ، وفعل الأفاعيل العظيمة ، ولمَّا وصل الأمر للسُّلطان ، وعقد مجلس القضاء ، وهاب النَّاس أن يشهدوا عليه ، لم يستطع القاضي أن يدقِّق في الدَّعوة ، لأنَّ أخته كانت عند السُّلطان مراد مقبولةٌ جدّاً ، وانصرف خصماؤه ، وقرَّره السُّلطان في ديار بكرٍ ، فذهب إليها ناوياً على إهلاك كلِّ من اشتكى عليه ، وأهلك منهم خلقاً تحت العذاب ، ووصل الأمر إلى أن ثار عليه أهل البلد ، وقاموا عليه قومة رجلٍ واحدٍ ،

---

(١) انظر : تفسير الرازي (١٨/١٦) .
(٢) انظر : تفسير القرطبي (٩/١١٤) .
(٣) انظر : رسالة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر لابن تيميَّة ، ص(٤٠) .

فتحصَّن في القلعة ، وصار يقذف القذائف بالمدافع على أهل المدينة حتَّى قتل منهم خلقاً كثيراً(١) .

وما قام به الباشا محمَّد علي من ظلم أهل مصر ، وأهل الشَّام ، والحجاز معروفٌ ، وقد ذكرناه في هذا الكتاب ، وقد اشتدَّ ظلم الأتراك للعرب ، والأكراد ، والألبان مع مجيء الاتِّحاد والتَّرقي للحكم ، بل قامت تلك العصابة بظلم النَّاس في داخل تركيا ، وخارجها ، وقد ذكرنا ما تعرَّض له السُّلطان عبد الحميد الثاني من ظلمهم ، وعسفهم ، وجورهم ؛ فجرت فيهم سنَّة الله الَّتي لا تتبدَّل ، ولا تتغيَّر ، ولا تجامل ، فانتقم من الظَّالمين ، وجعل بأسهم فيما بينهم ، وزالت دولة الخلافة العثمانيَّة من الوجود .

تاسعاً : التَّرف والانغماس في الشَّهوات :

قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود : ١١٦] . وقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ ﴾ . أراد بالَّذين ظلموا : تاركي النَّهي عن المنكرات ، أي : لم يهتمُّوا بما هو ركنٌ عظيمٌ من أركان الدِّين ، وهو الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر ، وإنَّما اهتمُّوا بالتَّنعُّم ، والتَّرف ، والانغماس في الشَّهوات ، والتَّطلُّع إلى الزَّعامة ، والحفاظ عليها والسَّعي لها ، وطلب أسباب العيش الهنيء(٢) .

وقد مضت سنَّة الله في المترفين الَّذين أبطرتهم النِّعمة ، وابتعدوا عن شرع الله تعالى بالهلاك ، والعذاب .

قال تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء : ١١ ـ ١٣] .

ومن سنَّة الله تعالى جعل هلاك الأمَّة بفسق مترفيها ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء : ١٦] .

---

(١) انظر : المختار المصون من أعلام القرون (٢/٩١٦ ، ٩١٧) .
(٢) انظر : السُّنن الإلهيَّة في الأمم ، والجماعات ، والأفراد ، ص (١٨٦) .

وجاء في تفسيرها : (وإذا دنا وقت هلاكها ؛ أمرنا بالطَّاعة مترفيها ، أي : متنعميها ، وجبَّاريها ، وملوكها ، ففسقوا فيها ، فحقَّ عليها القول ، فأهلكناها . وإنَّما خصَّ الله تعالى المترفين بالذِّكر مع توجُّه الأمر بالطَّاعة إلى الجميع ؛ لأنَّهم أئمَّة الفسق ، ورؤساء الضَّلال ، وما وقع من سوئهم إنَّما وقع باتِّباعهم ، وإغوائهم ، فكان توجُّه الأمر إليهم آكد)[١] .

وحدث في زمن السُّلطان محمَّد بن إبراهيم : (زيِّنت دار الخلافة ثلاثة أيَّام ، وكان السلطان محمَّد ؛ إذ ذاك ببلدة سلستره بروم إيلي فكتب إلى قائمقام الوزير بالقسطنطينيَّة عبدي باشا النيشاني : إنه يريد القدوم إلى دار المملكة ، وإنَّه لم يتَّفق له رؤية زينةٍ بها مدَّة عمره وأمره بالنِّداء لتهيئة زينةٍ أخرى إذا قدم ، فوقع النِّداء قبل قدوم السُّلطان بأربعين يوماً وتهيَّأ النَّاس للزِّينة ، ثمَّ قدم السُّلطان ، فشرعوا في التَّزيين ، وبذلوا جهدهم في التأنُّق فيها ، واتَّفق أهل العصر على أنَّه لم يقع مثل هذه الزِّينة في دورٍ من الأدوار ، وكنت الفقير إذ ذاك بقسطنطينيَّة وشاهدتها ، ولم يبق شيءٌ من دواعي الطَّرب إلا صُرفت إليه الهمم ، ووجِّهت إليه البواعث ، واستغرق النَّاس في اللَّذة والسُّرور ، واستوعب جميع آلات النَّشاط ، والحبور ، وفشت المناهي ، وعلمت العقلاء : أنَّ هذا الأمر كان غلطاً ، وأن ارتكابه كان جرماً عظيماً ، وما أحسب ذلك إلا نهاية السَّلطنة ، وخاتمة كتاب السَّعادة ، والميمنة ، ثمَّ طرأ الانحطاط ، وشوهد النُّقصان ، وتبدل الرِّبح بعدها بالخسران . .)[٢] .

وفي سنة تسعين وتسعمئة للهجرة احتفل السُّلطان مراد بن سليم الثَّاني بختان ولده السُّلطان محمَّد ، ووضع لذلك فرحاً لم يقع في زمن أحدٍ من الخلفاء ، والملوك ، وامتدَّت الولائم ، والفرحة ، واللَّهو والطَّرب مدَّة خمسةٍ وأربعين يوماً ، وجلس للفرجة في دار إبراهيم باشا بمحلَّة آت ميدان ، وأغدق النِّعم العظيمة ، ورأيت في تاريخ الكبريِّ أنَّه جعل صواني صغاراً من ذهبٍ وفضَّةٍ ، وملأ الذَّهب بالفضَّة، والفضَّة بالذَّهب ، وألقى ذلك لأرباب الملاهي ، وغيرهم من طالبي الإحسان[٣] .

وهذا انحرافٌ خطيرٌ عن المنهج الَّذي سارت عليه الدَّولة في زمن قوَّتها ،

---

(١) انظر تفسير الآلوسي (١٥/ ٤٢) .

(٢) انظر : المختار المصون من أعلام القرون (٢/ ١١٦٣ ، ١١٦٤) .

(٣) المصدر السَّابق نفسه (٢/ ١١٥٤ ، ١١٥٥) .

وصولتها ، وتمكينها ، وكانت من وصايا محمَّد الفاتح لولي عهده (واحرس أموال بيت المال من أن تتبدَّد) ، (ولا تصرف أموال الدَّولة في ترفٍ ، أو لهوٍ ، وأكثر من قدر اللُّزوم ؛ فإنَّ ذلك من أعظم أسباب الهلاك) ، فكان من الطَّبيعي بعد هذا الانحراف الخطير ، والانغماس في التَّرف ، واللَّهو والشَّهوات أن تزول الدَّولة بعد ضياع مقوِّمات بقائها .

عاشراً : الاختلاف والفرقة :

إنَّ سنَّة الله تعالى ماضيةٌ في الأمم ، والشُّعوب لا تتبدَّل ، ولا تتغيَّر ، ولا تجامل ، وجعل الله سبحانه وتعالى من أسباب هلاك الأمم الاختلاف ، وقال ﷺ : (فإنَّ من كان قبلكم اختلفوا ، فهلكوا) وفي رواية : (فأهلكوا)[(١)] .

وعند ابن حبَّان، والحاكم عن ابن مسعودٍ: فإنَّما أهلك من كان قبلكم الاختلاف .

قال ابن حجر العسقلانيُّ : وفي الحديث والَّذي قبله الحضُّ على الجماعة ، والألفة ، والتَّحذير من الفرقة والاختلاف[(٢)] .

وقال ابن تيميَّة ـ رحمه الله ـ : (وأمرنا الله تعالى بالاجتماع ، والائتلاف ، ونهانا عن التفرُّق ، والاختلاف)[(٣)] .

والاختلاف المهلك للأمَّة هو الاختلاف المذموم ، وهو الَّذي يؤدِّي إلى تفريقها ، وتشتُّتها وانعدام التناصر فيما بين المختلفين كلَّ طرفٍ يعتقد ببطلان ما عند الطَّرف الآخر ، وقد يؤول الأمر إلى استباحة قتال بعضهم بعضاً[(٤)] .

(وإنَّما كان الاختلاف علَّةً لهلاك الأمَّة كما جاء في حديث رسول الله ﷺ ؛ لأنَّ الاختلاف المذموم الذي ذكرنا بعض أوصافه يجعل الأمة فرقاً شتى مما يضعف الأمة ؛ لأنَّ قوَّتها ، وهي مجتمعةٌ أكبر من قوَّتها وهي متفرِّقةٌ ، وهذا الضَّعف العامُّ الَّذي يصيب الأمَّة بمجموعها يجرِّئ العدوَّ عليها ، فيطمع فيها جميعها ، ويحتلُّ

---

(١) انظر : صحيح البخاريِّ بشرح العسقلاني (٩/ ١٠١ ، ١٠٢) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه (٩/ ١٠٢) .
(٣) انظر : مجموع الفتاوى (١٩/ ١١٦) .
(٤) انظر : السُّنن الإلهية ، ص(١٣٩) .

أراضيها ، ويستولي عليها ، ويستعبدها ، ويمسخ شخصيَّتها ، وفي ذلك انقراضها ، وهلاكها)[١] .

إنَّ من الدُّروس المهمَّة في هذه الدِّراسة التَّاريخيَّة : أنَّ توقي الهلاك بتوقي الاختلاف المذموم ؛ لأنَّ الاختلاف كان سبباً من الأسباب في ضياع الدَّولة العثمانيَّة ، وهلاكها ، واندثارها . وإنَّ من أخطر ما نعاني منه الآن الخلاف في صفوف الإسلاميِّين القائمين بواجب الدَّعوة إلى الله تعالى ، وهذا الخلاف يؤدِّي إلى ضعف الأمَّة ؛ إذا لم تأخذ بسبل الوقاية منه .

يقول الشَّيخ عبد الكريم زيدان : (والاختلاف كما يُضعف الأمَّة ، ويهلكها يُضعف الجماعة المسلمة الَّتي تنهض بواجب الدَّعوة إلى الله ، ثمَّ يهلكها ، لهذا كان شرُّ ما تُبتلى به الجماعة المسلمة وقوع الاختلاف المذموم فيما بينها ، بحيث يجعلها فرقاً شتَّى ، بحيث ترى كلُّ فرقةٍ أنَّها على حقٍّ وصوابٍ ، وأنَّ غيرها على خطأٍ وضلالٍ ، وتعتقد كلُّ فرقةٍ : أنَّها هي الَّتي تعمل لمصلحة الدَّعوة . وهيهات أن تكون الفرقة ، والتَّشتُّت ، والاختلاف المذموم في مصلحة الدَّعوة ، أو أن مصلحة الدَّعوة تأتي عن طريق التَّفريق ، ولكنَّ الشَّيطان هو الَّذي يزيِّن الفرقة والتَّفريق في أعين المتفرِّقين المختلفين ، فيجعلهم يعتقدون : أنَّ اختلافهم ، وتفرُّقهم في مصلحة الدَّعوة .

والاختلاف في الجماعة لا يقف تأثيره عند حدِّ إضعاف الجماعة ، وإنَّما يضعف تأثيرها في النَّاس ، وتجعل المعرضين ينفثون باطلهم في النَّاس ، ويقولون : جماعة سوء تأمر النَّاس بأحكام الإسلام ، والإسلام يدعو إلى الألفة ، والاجتماع ، وينهى عن الاختلاف ، وهي تخالفه ؛ إذ هي متفرقةٌ مختلفةٌ فيما بينها ، كلُّ فرقةٍ تعيب الأخرى ، وتدَّعي أنَّها وحدها على الحقِّ . ثمَّ يؤول الأمر إلى انحسار تأثير الجماعة في المجتمع ، ثمَّ اضمحلالها ، واندثارها ، وقيام جماعاتٍ جديدةٍ مكانها هي فرق المنفصلين عنها . ووقائع التَّاريخ البعيد ، والقريب تؤيِّد ما نقول)[٢] .

لقد ابتليت الدَّولة العثمانيَّة خصوصاً في أواخر عهدها بالاختلاف ، والتَّفريق بين الزُّعماء والسَّلاطين ، فقد حاول بعض الحكَّام المحلِّيِّين الاستقلال الذَّاتي عن

---

(١) المصدر السَّابق نفسه ، ص(١٣٩) .
(٢) انظر : السُّنن الإلهيَّة ، ص(١٤٠ ، ١٤١) .

الحكومة المركزيَّة ، بإطالة فترة حكمهم ، ومحاولة تأسيس أسرٍ محلِّيَّة (المماليك في العراق ، آل العظم في سورية ، المعنيُّون والشِّهابيُّون في لبنان ، ومحمَّد علي في مصر ، ظاهر العمر في فلسطين ، أحمد الجزَّار في عكا ، علي بك الكبير في مصر ، القراملِيُّون في ليبيا)[١] وهذا الصِّراع بين الحكَّام المحلِّيِّين ، والدَّولة العثمانيَّة ساهم في إضعافها ثمَّ زوالها ، وسقوطها . ولقد ذكر بعض المؤرِّخين أسباب السُّقوط ، وحدث لهم تخليط بين الأسباب في السُّقوط وبين الآثار المترتِّبة على الابتعاد عن شرع الله تعالى .

إنَّ الحديث عن الضَّعف السِّياسيِّ ، والحربيِّ ، والاقتصاديِّ ، والعلميِّ ، والأخلاقيِّ ، والاجتماعيِّ ، وكيفية القضاء على هذا الضَّعف ، والحديث عن الاستعمار ، والغزو الفكري ، والتَّنصير ، وكيفيَّة مقاومتها لا يزيد على محاولة القضاء على تلك الأعراض المزعجة ، ولكن لا يمكنه أبداً أن ينهض بالأمَّة الَّتي أصيبت بالخواء العقديِّ ، وما لم يتمَّ محاربة الأسباب الحقيقيَّة ، والقضاء عليها ؛ فإنَّه لا يمكن بحالٍ من الأحوال القضاء على تلك الآثار الخطيرة .

إنَّ الآثار كانت متشابكةً ، ومتداخلةً ، يؤثِّر كلٌّ منها في الآخر تأثيراً عكسيّاً ، فالضَّعف السِّياسيُّ مثلاً يؤثِّر في الضَّعف الاقتصاديِّ ، ويتأثَّر به ، وهكذا .

إنَّ كثيراً من المحاولات الَّتي بذلت في العالم الإسلامي من أجل إعادة دولة الإسلام ، وعزَّته ، وقوَّته ركَّزت على الآثار ، ولم تعالج الأسباب الحقيقيَّة الَّتي كانت خلف ضياع الدَّولة العثمانيَّة ، وضعف الأمَّة ، وانحطاطها .

إنَّ جهود النَّصارى ، واليهود ، والعلمانيَّة ما كانت لتؤثِّر في الدَّولة العثمانيَّة إلا بعد أن انحرفت عن شرع الله ، وفقدت شروط التَّمكين ، وأهملت أسبابه المادِّيَّة ، والمعنويَّة ، قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف : ١١١] .

* * *

(١) انظر : العالم العربي في التَّاريخ الحديث ، د . إسماعيل ياغي ، ص(٩٤) .

نتائج البحث

١ ـ تعرَّض التَّاريخ العثماني لحملات التَّشويه ، والتَّزوير ، والتَّشكيك من قبل اليهود ، والنَّصارى ، والعلمانيِّين .

٢ ـ سار مؤرِّخو العرب ، والأتراك في ركب الاتِّجاه المعادي لفترة الخلافة العثمانيَّة .

٣ ـ احتضنت القوى الأوربيَّة الاتجاه المناهض للخلافة الإسلاميَّة ، وقامت بدعم المؤرِّخين في مصر ، والشَّام إلى تأصيل الإطار القومي ، وتعميقه من أمثال البستاني ، واليازجي ، وجرجي زيدان ، وأديب إسحاق ، وسليم نقَّاش ، وشبلي شميل ، وسلامة موسى ، وغيرهم .

٤ ـ استطاعت المحافل الماسونيَّة أن تهيمن على عقول زعماء التَّوجُّه القومي في داخل الشُّعوب الإسلاميَّة ، وخضع أولئك الزُّعماء لتوجيه المحافل الماسونيَّة أكثر من خضوعهم لمطالب شعوبهم وبخاصَّةٍ موقفها من الدِّين الإسلامي .

٥ ـ اعتمد المؤرِّخون الَّذين عملوا على تشويه الدَّولة العثمانيَّة على تزوير الحقائق ، والكذب ، والبهتان ، والتَّشكيك ، والدَّسِّ . ولقد غلب على تلك الكتب والدِّراسات طابع الحقد الأعمى ، والدَّوافع المنحرفة ، بعيدةً كلَّ البعد عن الموضوعيَّة .

٦ ـ قامت مجموعةٌ من علماء التَّاريخ العثمانيِّ من أبناء الأمَّة بالرُّدود على تلك الاتِّهامات ، والدِّفاع عن الدَّولة العثمانيَّة ، من أهمِّها وأبرزها تلك الكتابة الَّتي قام بها الدكتور عبد العزيز الشِّنَّاوي في ثلاثة مجلَّدات ضخمة تحت عنوان الدَّولة العثمانيَّة دولةٌ إسلاميَّةٌ مفترى عليها ، وما قدَّمه الدكتور محمد حرب من كتب مهمَّة مثل : العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، والسُّلطان محمَّد الفاتح فاتح القسطنطينيَّة وقاهر الرُّوم ، وما كتبه الدُّكتور موفق بني المرجة : صحوة الرَّجل المريض .

٧ ـ ترجع أصول الأتراك إلى منطقة ما وراء النَّهر والَّتي تسمَّى اليوم تركستان ،

والَّتي تمتدُّ من هضبة منغوليا وشمال الصِّين شرقاً إلى بحر قزوين غرباً ، ومن السُّهول السِّيبريَّة شمالاً إلى شبه القارة الهندية وفارس جنوباً ، استوطنت عشائر الغز ، وقبائلها الكبرى في تلك المناطق ، وعرفوا بالتُّرك ، أو الأتراك .

٨ ـ دخل الأتراك في الإسلام في عام ٢٢هـ في زمن عثمان بن عفَّان رضي الله عنه .

٩ ـ أصبحت قبائل الأتراك بعد دخولها في الإسلام ضمن رعايا الدَّولة الإسلاميَّة ، وازداد عددهم في بلاط الخلفاء ، والأمراء العبَّاسيِّين ، وشرعوا في تولِّي المناصب القياديَّة ، والإداريَّة في الدَّولة ؛ فكان منهم الجند ، والقادة ، والكتَّاب .

١٠ ـ استطاع السَّلاجقة (وهم أتراك) أن يقوموا بتأسيس دولةٍ تركيَّة كبرى ضمَّت خراسان وما وراء النَّهر ، وإيران ، والعراق ، وبلاد الشام ، وآسيا الصُّغرى .

١١ ـ ساند السَّلاجقة الخلافة العباسيَّة في بغداد ، ونصروا مذهبها السُّنِّيَّ بعد أن أوشكت على الانهيار بين النُّفوذ البويهي الشِّيعي في إيران ، والعراق ، والنُّفوذ العبيدي (الفاطمي) في مصر ، والشَّام ، فقضى السَّلاجقة على النُّفوذ البويهي تماماً ، وتصدَّوا للخلافة العبيديَّة (الفاطميَّة) .

١٢ ـ استطاع طغرل بك الزَّعيم السَّلجوقي أن يسقط الدَّولة البويهيَّة في عام ٤٤٧هـ في بغداد وأن يقضي على الفتن وأزال من على أبواب المساجد سبَّ الصَّحابة ، وقَتلَ شيخ الرَّوافض أبا عبد الله الجلاب لغلوِّه في الرَّفض .

١٣ ـ تولَّى زعامة السَّلاجقة ألب أرسلان بعد وفاة عمه طغرل بك ، وكان قائداً ماهراً مقداماً ، وهو الَّذي انتصر على جيوش إمبراطور الرُّوم في معركة ملاذكرد في عام ٤٦٣هـ ، وكان ذلك الانتصار نقطة تحوُّلٍ في التَّاريخ الإسلامي ؛ لأنَّها سهَّلت إضعاف نفوذ الرُّوم في معظم أقاليم آسيا الصُّغرى ، وهي المناطق المهمَّة الَّتي كانت ترتكز عليها الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة .

١٤ ـ تولَّى زعامة السَّلاجقة بعد ألب أرسلان ابنه ملكشاه ، واتَّسعت الدَّولة

السَّلجوقيَّة في عهده ، لتبلغ أقصى امتدادٍ لها من أفغانستان شرقاً إلى آسيا الصُّغرى غرباً ، وبلاد الشَّام جنوباً .

١٥ ـ يعتبر نظام الملك من أعظم وزراء السَّلاجقة ، واشتهر بضبطه لأمور الدَّولة ، وحبّه للعلم ، والعلماء ، وكثرة إنفاقه ، وأعماله في الخير ، وبناء المدارس لتعليم المسلمين .

١٦ ـ تضافرت عوامل عديدةٌ في سقوط السلطنة السَّلجوقية مهَّدت بدورها لسقوط الخلافة العبَّاسيَّة منها ؛ الصِّراع داخل البيت السَّلجوقي ، تدخُّل النِّساء في شؤون الحكم ، ضعف الخلفاء العباسيِّين ، المكر الباطني الَّذي تمثَّل في اغتيال سلاطين السَّلاجقة ، وزعمائهم وقادتهم .

١٧ ـ قدَّمت دولة السَّلاجقة أعمالاً جليلةً للإسلام منها ؛ كان لهم دورٌ في تأخير زوال الدَّولة العباسيَّة حوالي قرنين من الزَّمان ، منعت الدَّولة العبيديَّة في مصر من تحقيق أغراضها التَّوسعيَّة ، كانت جهود السَّلاجقة تمهيداً لتوحيد المشرق الإسلامي ، والَّذي تمَّ على يد صلاح الدِّين الأيوبي تحت راية الخلافة العباسيَّة السُّنِّيَّة ، قاموا بنشر العلم ، والأمن ، والاستقرار في الأقاليم الَّتي تحت نفوذهم ، وقفوا في وجه التَّحرُّكات الصَّليبيَّة من جانب الإمبراطورية البيزنطيَّة ، وحاولوا صدَّ الخطر المغولي إلى حدٍّ كبير ، ورفعوا من شأن المذهب السُّنِّي ، وعلمائه .

١٨ ـ ينتسب العثمانيُّون إلى قبيلة تركمانيَّة ، كانت تعيش في كردستان ، وتزاول حرفة الرَّعي .

١٩ ـ هاجر سليمان جدُّ عثمان في عام ٦١٧هـ مع قبيلته من كردستان إلى بلاد الأناضول فاستقرَّ في مدينة أخلاط في شرق تركيَّا حالياً .

٢٠ ـ تولَّى زعامة قبيلة سليمان بعد وفاته ابنه أرطغرل الَّذي واصل تحركه نحو الشَّمال الغربي من الأناضول ، وفي طريقه وجد صراعاً مسلَّحاً بين السَّلاجقة المسلمين ، والرُّوم النَّصارى ، فانضمَّ إلى المسلمين ، وكان تدخله في الوقت المناسب سبباً في تحقيق نصر السَّلاجقة .

٢١ ـ اقتطع القائد الإسلامي السَّلجوقي أرطغرل ومجموعته أرضاً من الحدود

الغربيَّة للأناضول بجوار الثُّغور في الرُّوم ، وأتاح لهم فرصة توسيعها على حساب الرُّوم .

٢٢ ـ تولَّى عثمان الأول قيادة قومه بعد وفاة أبيه ، وسار على نهج سياسة أبيه السَّابقة في التوسُّع في أراضي الرُّوم .

٢٣ ـ كان عثمان الأوَّل يتميَّز بصفاتٍ رفيعةٍ ، منها : الشَّجاعة ، والحكمة ، والإخلاص ، والصَّبر ، والجاذبيَّة الإيمانيَّة ، والعدل ، والوفاء ، والتجرُّد لله في فتوحاته ، وحبُّه للعلم ، والعلماء .

٢٤ ـ كانت حياة عثمان الأوَّل مؤسس الدَّولة العثمانيَّة جهاداً ، ودعوةً في سبيل الله ، وكان علماء الدِّين يحيطون به ، ويشرفون على التَّخطيط الإداري والتَّنفيذ الشَّرعي في الإمامة . ولقد حفظ لنا التَّاريخ وصيَّة عثمان لابنه أورخان وهو على فراش الموت ، وكانت تلك الوصيَّة فيها دلالةٌ حضاريَّةٌ ومنهجيَّةٌ شرعيَّةٌ ، سارت عليها الدَّولة العثمانيَّة فيما بعد .

٢٥ ـ تولَّى السُّلطان أورخان الحكم بعد وفاة والده عام ٧٢٦هـ وسار على نفس سياسة والده في الحكم ، والفتوحات ، وحرص على تحقيق بشارة رسول الله ﷺ في فتح القسطنطينيَّة ، ووضع خطَّةً استراتيجيَّةً تستهدف محاصرة العاصمة البيزنطيَّة من الغرب ، والشَّرق في آنٍ واحدٍ .

٢٦ ـ إنَّ من أهمِّ الأعمال الَّتي ترتبط بحياة السُّلطان أورخان تأسيسه للجيش الإسلاميِّ ، وحرصه على إدخال نظامٍ خاصٍّ للجيش ، فقام بتقسيم الجيش إلى وحدات تتكوَّن كلُّ وحدة من عشرة أشخاص ، أو مئة شخصٍ ، أو ألف شخصٍ ، وخصَّص خمس الغنائم للإنفاق منها على الجيش ، وجعله جيشاً دائماً بعد أن كان لا يجتمع إلا وقت الحرب ، وأنشأ له مراكز خاصَّةً يتمُّ تدريبه فيها .

٢٧ ـ اهتمَّ أورخان بتوطيد أركان دولته ، فوالى الأعمال الإصلاحيَّة ، والعمرانيَّة ، ونظَّم شؤون الإدارة ، وقوَّى الجيش ، وبنى المساجد ، وأنشأ المعاهد العلميَّة ، وأشرف عليها خيرة العلماء ، والمعلِّمين ، وكانوا يحظون بقدرٍ كبيرٍ من الاحترام في الدَّولة .

٢٨ ـ تولَّى الحكم بعد السُّلطان أورخان السُّلطان مراد الأوَّل عام ٧٦١هـ وكان مراد الأوَّل شجاعاً ، مجاهداً ، كريماً ، متديِّناً ، وكان محبّاً للنِّظام متمسِّكاً به ، عادلاً مع رعاياه وجنوده ، شغوفاً بالغزوات ، وبناء المساجد ، والمدارس ، والملاجئ ، وكان بجانبه مجموعةٌ من خيرة القادة والخبراء والعسكريِّين ، شكَّل منهم مجلساً لشورته ، وتوسَّع في آسيا الصُّغرى ، وأوربة في وقتٍ واحد .

٢٩ ـ استطاع مراد الأوَّل أن يفتح أدرنة في عام ٧٦٢هـ ، واتَّخذ من هذه المدينة عاصمةً للدَّولة العثمانيَّة من عام ٧٦٢هـ ، وبذلك انتقلت العاصمة إلى أوربة ، وأصبحت أدرنة عاصمةً إسلاميَّة .

٣٠ ـ كان السُّلطان مراد الأوَّل يعلم أنَّه يقاتل في سبيل الله ، وأنَّ النَّصر من عنده ، ولذلك كان كثير الدُّعاء ، والإلحاح على الله ، والتَّضرُّع إليه والتَّوكُّل عليه ، ومن دعائه الخاشع نستدلُّ على معرفة السُّلطان مراد لربِّه ، وتحقيقه لمعاني العبوديَّة ، واستشهد في معركة قوصوة ضدَّ الصِّرب .

٣١ ـ قاد السُّلطان مراد الشَّعب العثماني ثلاثين سنةً بكلِّ حكمةٍ ، ومهارةٍ لا يضاهيه فيها أحدٌ من ساسة عصره .

٣٢ ـ تولى بايزيد الحكم بعد أبيه مراد عام ٧٩١هـ وكان شجاعاً ، شهماً ، كريماً ، متحمِّساً للفتوحات الإسلاميَّة ، ولذلك اهتمَّ اهتماماً كبيراً بالشؤون العسكريَّة ، واستهدف الإمارات المسيحيَّة في الأناضول ، وخلال عام أصبحت تابعةً للدَّولة العثمانيَّة ، وكان بايزيد مثل البرق في تحرُّكاته بين الجبهتين البلقانيَّة ، والأناضوليَّة ، ولذلك أطلق عليه لقب : (الصَّاعقة) .

٣٣ ـ انهزم بايزيد أمام جيوش تيمورلنك بسبب اندفاعه ، وعجلته ، وعدم إحسانه لاختيار المكان الَّذي نزل به جيشه .

٣٤ ـ تعرَّضت الدَّولة العثمانيَّة لخطرٍ داخليٍّ ، ونشبت الحرب الأهليَّة في الدولة بين أبناء بايزيد على العرش ، واستمرَّت هذه الحرب عشر سنوات ، وكانت هذه المرحلة في تاريخ الدَّولة العثمانيَّة مرحلة اختبارٍ ، وابتلاءٍ سبقت التَّمكين الفعلي المتمثِّل في فتح القسطنطينيَّة .

٣٥ ـ استطاع السُّلطان محمد جلبي أن يقضي على الحرب الأهليَّة بسبب ما أوتي من الحزم ، والكياسة ، وبعد النَّظر ، وتغلَّب على إخوته واحداً واحداً حتَّى خلص له الأمر ، وتفرَّد بالسُّلطان ، وقضى سنيَّ حكمه العثماني في إعادة بناء الدَّولة ، وتوطيد أركانها ، ويعتبره بعض المؤرِّخين المؤسِّس الثَّاني للدَّولة العثمانيَّة .

٣٦ ـ استطاع السُّلطان محمد جلبي أن يقضي على حركة الشَّيخ بدر الدِّين الَّذي كان يدعو إلى المساواة في الأموال ، والأمتعة ، والأديان ، ولا يفرِّق بين مسلمٍ ، وغير مسلمٍ في العقيدة .

٣٧ ـ كان السُّلطان محمَّد جلبي محبَّاً للشِّعر ، والأدب ، والفنون ، وقيل هو أوَّل سلطانٍ عثمانيٍّ أرسل الهديَّة السَّنويَّة إلى أمير مكَّة .

٣٨ ـ تولَّى أمر السَّلطنة مراد الثاني عام ٨٢٤هـ بعد وفاة أبيه محمَّد جلبي ، وكان محبَّاً للجهاد ، والدَّعوة إلى الإسلام ، وكان شاعراً ، ومحبّاً للعلماء ، والشُّعراء .

٣٩ ـ تولَّى محمَّد الفاتح حكم الدَّولة العثمانيَّة بعد وفاة والده في عام ٨٥٥هـ وكان عمره آنذاك ٢٢ سنة . وقد تميَّز بشخصيَّةٍ فذَّةٍ ، جمعت بين القوَّة ، والعدل ، كما فاق أقرانه منذ حداثته في كثيرٍ من العلوم الَّتي كان يتلقَّاها في مدرسة الأمراء وخاصَّةً معرفته لكثيرٍ من لغات عصره ، وميله الشَّديد لدراسة كتب التَّاريخ .

٤٠ ـ كانت من أهمِّ أعمال السُّلطان محمَّد الثَّاني فتحه للقسطنطينيَّة ، وكان لذلك الفتح أثرٌ عظيمٌ على العالم الإسلاميِّ ، والأوربيِّ ، وكان لفتح القسطنطينيَّة أسبابٌ مادِّيَّةٌ ، ومعنويَّةٌ ، وشروطٌ أُخذ بها .

٤١ ـ حرص العثمانيُّون على تحكيم شرع الله ، وظهرت آثاره الدُّنيويَّة ، والأخرويَّة على المجتمع العثماني ، منها : الاستخلاف والتَّمكين ، الأمن والاستقرار ، النَّصر والفتح ، العزّ والشَّرف ، انتشار الفضائل وانزواء الرَّذائل ، وغير ذلك من الآثار .

٤٢ ـ من أهمِّ الصِّفات القياديَّة في شخصية محمَّد الفاتح : الحزم ،

والشَّجاعة ، والذَّكاء ، والعزيمة ، والإصرار ، والعدالة وعدم الاغترار بقوَّة النَّفس ، وكثرة الجند ، وسعة السُّلطان ، والإخلاص ، والعلم .

٤٣ ـ من أعمال محمَّد الفاتح الحضاريَّة ؛ بناؤه للمدارس ، والمعاهد ، واهتمامه بالعلماء ، والشُّعراء ، والأدباء ، والتَّرجمة ، والعُمران ، والبناء ، والمستشفيات ، واهتمامه بالتِّجارة والصِّناعة ، والتَّنظيمات الإداريَّة ، والجيش ، والبحريَّة ، والعدل .

٤٤ ـ ترك محمَّد الفاتح وصيَّةً عبَّرت أصدق التَّعبير عن منهجه في الحياة ، وقيمه ، ومبادئه الَّتي آمن بها .

٤٥ ـ يعتبر الشَّيخان محمد بن حمزة المشهور بـ(آق شمس الدِّين) ، وأحمد الكوراني من الشُّيوخ الَّذين كان لهم أثرٌ على محمَّد الفاتح .

٤٦ ـ بعد وفاة السُّلطان محمَّد الفاتح تولَّى ابنه بايزيد الثاني (٨٨٦هـ) وكان سلطاناً وديعاً ، نشأ محبّاً للأدب ، متفقِّهاً في علوم الشَّريعة الإسلاميَّة ، شغوفاً بعلم الفلك .

٤٧ ـ دخل بايزيد الثَّاني في صراع مع أخيه جم ، واشتبك مع المماليك في معارك على الحدود الشَّاميَّة ، وحاول أن يساعد مسلمي الأندلس في محنتهم الشَّديدة .

٤٨ ـ تولَّى الحكم السُّلطان سليم الأول بعد بايزيد الثاني ، وكان يحبُّ الأدب ، والشِّعر الفارسيِّ ، والتَّاريخ ، ورغم قسوته فإنَّه كان يميل إلى صحبة رجال العلم ، وكان يصطحب المؤرِّخين ، والشُّعراء إلى ميدان القتال ؛ ليسجِّلوا تطوُّرات المعارك ، وينشدوا القصائد الَّتي تحكي أمجاد الماضي .

٤٩ ـ كان للسُّلطان سليم الأوَّل الفضل بعد الله في إضعاف النُّفوذ الشِّيعي في العراق ، وبلاد فارس ، وحقَّق على الصَّفويِّين الشِّيعة الرَّوافض انتصاراً عظيماً في معركة جالديران .

٥٠ ـ كانت نتيجة الصِّراع بين الدَّولة العثمانيَّة ، والصَّفويَّة ضمَّ شمال العراق ، وديار بكر إلى الدَّولة العثمانيَّة ، أمَّن العثمانيُّون حدود دولتهم الشَّرقية ، وسيطرة

المذهب السُّنِّي في آسيا الصُّغرى بعد أن قضى على أتباع ، وأعوان إسماعيل الصَّفوي .

٥١ ـ استفاد البرتغاليُّون من صراع الصَّفويِّين مع الدَّولة العثمانيَّة ، وحاولوا أن يفرضوا على البحار الشَّرقية حصاراً عامّاً على كلِّ الطُّرق القديمة بين الشَّرق ، والغرب .

٥٢ ـ دخل السُّرور على الأوربيِّين بسبب الحروب بين العثمانيِّين ، والصَّفويِّين ، وعمل الأوربيُّون على الوقوف مع الشِّيعة الصَّفويَّة ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة لإرباكها حتَّى لا تستطيع أن تستمرَّ في زحفها على أوربة .

٥٣ ـ استطاع العثمانيُّون أن يحقِّقوا انتصاراً ساحقاً على المماليك في معركة غزَّة ، ثمَّ معركة الرَّيدانيَّة ، وأزاحوا دولة المماليك بعد ذلك من الوجود .

٥٤ ـ بعد مقتل السُّلطان الغوري ، ونائبه طومان باي بادر شريف مكَّة (بركات بن محمَّد) إلى تقديم السَّمع ، والطَّاعة إلى السُّلطان سليم الأوَّل ، وسلَّمه مفاتيح الكعبة ، وبذلك أصبح السُّلطان سليم خادماً للحرمين الشَّريفين .

٥٥ ـ دخلت اليمن تحت النُّفوذ العثماني بعد سقوط دولة المماليك ، وكانت تمثِّل بعداً استراتيجيّاً ، وتُعتبر مفتاح البحر الأحمر ، وفي سلامتها سلامةٌ للأماكن المقدَّسة في الحجاز ، واستفاد العثمانيُّون من وجودهم في اليمن ، فقاموا بحملاتٍ بحريَّةٍ إلى الخليج بقصد تخليصه من الضَّغط البرتغالي .

٥٦ ـ بعد أن ضمَّ العثمانيُّون بلاد مصر ، والشَّام ، ودخلت البلاد العربيَّة تحت نطاق الحكم العثماني ، واجهت الدَّولة العثمانيَّة البرتغاليِّين بشجاعةٍ نادرةٍ ، فتمكَّنت من استرداد بعض الموانئ الإسلاميَّة في البحر الأحمر ، مثل : مصوَّع ، وزيلع ، كما تمكَّنت من إرسال قوَّةٍ بحريَّةٍ بقيادة مير علي بك إلى السَّاحل الأفريقي فتمَّ تحرير مقديشو ، وممبسة ، ومنيت الجيوش البرتغاليَّة بخسائر عظيمةٍ .

٥٧ ـ في عهد السُّلطان سليمان القانوني (٩٢٧ ـ ٩٧٤هـ) تمكَّنت الدَّولة العثمانيَّة من إبعاد البرتغاليِّين عن البحر الأحمر ، ومهاجمتهم في المراكز الَّتي استقرُّوا بها في الخليج العربيِّ .

٥٨ ـ تمكَّن العثمانيُّون من صدِّ البرتغال ، وإِيقافهم بعيداً عن الممالك الإِسلاميَّة ، والحدِّ من نشاطهم ، ونجحت الدَّولة العثمانيَّة في تأمين البحر الأحمر ، وحماية الأماكن المقدَّسة من التوسُّع البرتغالي المبني على أهدافٍ استعماريَّةٍ ، وغاياتٍ دنيئةٍ ، ومحاولاتٍ للتَّأثير على الإِسلام ، والمسلمين بطرقٍ مختلفةٍ .

٥٩ ـ كانت نتيجة الصِّراع العثماني البرتغاليِّ أن احتفظ العثمانيُّون بالأماكن المقدَّسة ، وطريق الحج ، وحماية الحدود البرِّيَّة من هجمات البرتغاليِّين طيلة القرن السَّادس عشر ، واستمرار الطُّرق التِّجارية التي تربط الهند ، وأندونيسيا بالشَّرق الأدنى عبر الخليج العربيِّ ، والبحر الأحمر .

٦٠ ـ فتحت رودس في زمن السُّلطان سليمان القانوني ، واستطاع سليمان القانوني أن يحاصر فينَّا ، ودخل في سياسة التَّقارب مع فرنسا .

٦١ ـ اهتمَّت الدَّولة العثمانيَّة بالشَّمال الأفريقي ، ووقفت مع حركة الجهاد البحري ، وقدَّمت لهم جميع المساعدات المادِّيَّة والمعنويَّة .

٦٢ ـ دخلت الجزائر تحت نفوذ الدَّولة العثمانيَّة منذ زمن السُّلطان سليم الأوَّل ، وظهر في ساحة الجهاد في الشَّمال الأفريقي قائدان عظيمان ، هما الأخوان : عُروج ، وخير الدِّين بربروسا .

٦٣ ـ نجح خير الدِّين في وضع دعاماتٍ قويَّةٍ لدولةٍ فتيَّةٍ في الجزائر ، وكانت المساعدات العثمانيَّة تصله باستمرارٍ من السُّلطان سليمان القانوني ، واستطاع خير الدِّين أن يوجه ضرباته القويَّة للسَّواحل الإسبانيَّة ، وكانت جهوده مثمرةً في إِنقاذ آلاف المسلمين من إِسبانيا .

٦٤ ـ كان للوجود العثماني في الجزائر أثرٌ على موقف الملك البرتغالي في المغرب ؛ إِذ تراجع عن القيام بعمليَّات عسكريَّةٍ فيه .

٦٥ ـ بعد أن أصبح خير الدِّين بربروسا قائداً للأسطول العثماني اهتمَّ بالحوض الشَّرقي للبحر المتوسط ، وتولَّى حكم الجزائر القائد حسن آغا الطُّوشي الَّذي انهمك في توطيد الأمن ، ووضع الأسس للإِدارة المستقرَّة ، وحاول جمع أطراف البلاد

حول السُّلطة المركزيَّة الجزائريَّة .

٦٦ ـ استطاع حسن آغا الطُّوشي أن يهزم الجيوش الصَّليبيَّة بقيادة شارل الخامس على أراضي الجزائر ، وكانت لتلك الهزيمة أثرها على الإمبراطورية الإسبانيَّة ، وعلى ملكها شارلكان ، وعلى مستوى الأحداث العالميَّة .

٦٧ ـ نزلت أنباء هزيمة شارلكان نزول الصَّاعقة على أوربَّة ، وتطورت الأحداث بسرعةٍ على المستوى الأوربيِّ .

٦٨ ـ لم يعد شارل الخامس قادراً على التَّفكير في حملةٍ أخرى ضدَّ الجزائر ، وطغى شبح خير الدِّين ، وحسن آغا على العامَّة والخاصَّة .

٦٩ ـ ظهر في الشَّمال الإفريقي قادةٌ عظامٌ ، ساهموا في حركة الجهاد ضدَّ الإسبان ، والنَّصارى في البحر المتوسِّط من أشهرهم ؛ حسن خير الدِّين بربروسا ، وصالح رايس ، وقلج علي .

٧٠ ـ حاولت الدَّولة العثمانيَّة أن تكوِّن علاقات استراتيجيَّة مع الدَّولة السَّعديَّة إلا أنَّها فشلت في بعض الأحيان ، وخصوصاً في زمن السُّلطان محمَّد الشَّيخ السَّعدي ، ومحمَّد المتوكِّل .

٧١ ـ إنَّ من الأعمال العظيمة الَّتي قامت بها الدَّولة السَّعديَّة في زمن السُّلطان عبد الملك انتصارهم الرَّائع ، والعظيم على نصارى البرتغال في معركة الملوك الثَّلاثة ، والَّتي تسمَّى في كتب التَّاريخ معركة القصر الكبير ، أو معركة وادي المخازن .

٧٢ ـ كان انتصار المغاربة في معركة وادي المخازن بسبب عدَّة أمورٍ ، منها ؛ القيادة الحكيمة الَّتي تمثَّلت في قيادة السُّلطان عبد الملك ، وأخيه أبي العبَّاس ، والتفاف الشَّعب المغربي حول قيادته ، ورغبة المسلمين في الذَّود عن دينهم ، وعقيدتهم ، وأعراضهم ، والعمل على تضميد الجراح بسبب سقوط غرناطة ، وضياع الأندلس ، واشتراك خبراء من العثمانيِّين ، تميَّزوا بالمهارة في الرَّمي بالمدفعيَّة ممَّا جعل المدفعيَّة المغربيَّة تتفوَّق على المدفعيَّة الغربيَّة النَّصرانيَّة .

٧٣ ـ تولَّى حكم الدَّولة السَّعديَّة السُّلطان أحمد المنصور بعد استشهاد أخيه

عبد الملك في معركة وادي المخازن .

٧٤ ـ بوفاة قلج علي في الجزائر انتهى نظام البليربيك الَّذي جعل من حكام الجزائر ملوكاً واسعي السُّلطة ، والنُّفوذ ، واستعيض عنه بنظام الباشوية ، مثّلها في ذلك : تونس ، وطرابلس .

٧٥ ـ لم تستطع الدَّولة العثمانيَّة أن تضمَّ المغرب الأقصى بسبب ظهور الجزائر في محاولاتهم لضمِّ المغرب الأقصى .

٧٦ ـ كان العثمانيُّون لديهم رغبةٌ جامحةٌ في استرداد الأندلس إلا أنَّهم لم يحقِّقوا هدفهم المنشود بسبب موقف الدَّولة السَّعديَّة من جهةٍ ، وتصرُّف بعض الإنكشاريِّين من جهةٍ أخرى ، وجبهات المشرق من جهةٍ ثالثةٍ .

٧٧ ـ اتَّفق المؤرِّخون على أنَّ عظمة الدَّولة العثمانيَّة قد انتهت بوفاة السُّلطان العثماني سليمان القانوني عام (٩٧٤هـ) وكانت مقدِّمات ضعف الدَّولة قد اتَّضحت في عهد السُّلطان سليمان .

٧٨ ـ تولَّى الحكم بعد سليمان القانوني سليم الثَّاني الَّذي لم يكن مؤهَّلاً لحفظ فتوحات والده السُّلطان سليمان ، ولولا وجود الوزير الفذِّ ، والمجاهد الكبير ، والسِّياسيِّ القدير محمَّد باشا الصُّوقلِّلي ؛ لانهارت الدَّولة . وكان ذلك من فضل الله على الأمَّة .

٧٩ ـ انهزم العثمانيُّون في معركة ليبانتو عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م ، وكانت النَّتيجة لتلك المعركة مخيبةً لآمال العثمانيِّين ، فقد زال خطر السِّيادة العثمانيَّة في البحر المتوسط ، وكان ذلك الانكسار نقطة تحوُّلٍ نحو توقُّف عصر الازدهار لقوَّة الدَّولة البحريَّة .

٨٠ ـ كانت معركة ليبانتو فرصةً مواتيةً لإظهار طمع فرنسا نحو المغرب الإسلامي ؛ إذ بمجرَّد انتشار خبر هزيمة الأسطول العثمانيِّ في تلك المعركة قدَّم ملك فرنسا شارل التَّاسع مشروعاً إلى السُّلطان العثماني ، وذلك بواسطة سفيره في إستانبول ، يتضمَّن طلب التَّرخيص لحكومته في بسط نفوذها على الجزائر ، بدعوة الدِّفاع عن حمى الإسلام والمسلمين بها .

٨١ ـ عمل السُّلطان سليم الثَّاني على تخليص تونس من هيمنة الإسبان ، واستطاع العثمانيُّون بقيادة قلج علي ، وسنان باشا أن يفتحوا تونس في عام ٩٨٢هـ .

٨٢ ـ قضى ضياع تونس من الإسبان على آمالهم في أفريقية وضعفت سيطرتها تدريجيّاً حتَّى اقتصرت على بعض الموانئ مثل : مليلة ، ووهران ، والمرسى الكبير ، وتبدَّد حلم الإسبان نحو إِقامة دولةٍ إسبانيَّةٍ في شمال أفريقية ، وضاع بين الرِّمال .

٨٣ ـ أرسل السلطان سليم الثاني حملةً كبرى إِلى اليمن ، واستطاعت أن تخلِّص عدن ، وصنعاء من هيمنة الزُّيود .

٨٤ ـ تحوَّلت سياسة الدَّولة العثمانيَّة بعد معركة ليبانتو ٩٧٩هـ إِلى أن تكون الأولويَّة للمحافظة على الأماكن المقدَّسة الإِسلاميَّة أوّلاً ، ثمَّ البحر الأحمر ، والخليج العربي كحزام أمنيٍّ حول هذه الأماكن ، وتطلب ذلك منها أسطولاً قادراً على أن يقاوم البرتغاليِّين .

٨٥ ـ استطاعت الدَّولة العثمانيَّة أن تبني درعاً قويَّةً ، حمت الأماكن المقدَّسة الإِسلاميَّة من الهجمات المسيحيَّة ، ومع تلك الدِّرع فقط احتفظ السُّلطان بحرسٍ عثمانيٍّ خاصٍّ في مكَّة المكرَّمة ، والمدينة المنوَّرة ، وينبع .

٨٦ ـ تولَّى الحكم بعد وفاة سليم الثَّاني ابنه مراد الثَّالث ، وكان مهتمّاً بفنون العلم ، والأدب ، والشِّعر ، وكان يتقن اللُّغات الثَّلاثة التُّركيَّة ، والعربيَّة ، والفارسيَّة ، وحاول منع الخمور إلا أنَّ الإِنكشاريِّين اضطرُّوه لرفع أمره ، وهذا يدلُّ على ظهور ضعف الدَّولة .

٨٧ ـ تولَّى الحكم بعد مراد الثَّالث محمَّد الثالث ، ورغم حالة الضَّعف والتَّدهور الَّتي كانت قد بدأت تعتري الدَّولة إِلا أنَّ راية الجهاد ظلَّت مرفوعةً ، وقام السُّلطان بدخول ميادين الوغى بنفسه ، وكان الشَّيخ سعد الدِّين أفندي ممَّن شجعه على الخروج بنفسه لقيادة الجيوش ، وقال للسُّلطان : (أنا معك أسير حتَّى أخلِّص نفسي من الذُّنوب ، فإِنِّي بها أسير) .

٨٨ ـ تولَّى الحكم بعد محمَّد الثَّالث ابنه أحمد الأوَّل ، وكان عمره ١٤ سنة ، ولم يجلس أحدٌ قبله من السَّلاطين العثمانيِّين في هذه السِّنِّ على العرش ، وكانت أحوال الدَّولة مرتبكةً جدّاً لانشغالها بحروب النِّمسا في أوربَّة ، وحرب إيران ، والثَّورات الدَّاخلية في آسيا ، فأتمَّ ما بدأ به أبوه من تجهيزاتٍ حربيَّةٍ ، وكان في غاية التَّقوى ، وكان رجلاً مثابراً على الطَّاعات ، ويباشر أمور الدَّولة بنفسه ، وكان متواضعاً في ملابسه ، وكان كثير الاستشارة لأهل العلم ، والمعرفة ، والقيادة ، وكان شديد الحبِّ للنَّبيِّ ﷺ .

٨٩ ـ بعد وفاة السُّلطان أحمد الأوَّل تولَّى الحكم سلاطينُ ضعافٌ ، منهم : مصطفى الأوَّل ، وعثمان الأوَّل ، ومراد الرَّابع ، وإبراهيم بن أحمد ، ومحمَّد الرَّابع ، وسليمان الثَّاني ، وأحمد الثَّاني ، ومصطفى الثَّاني ، وأحمد الثَّالث ، ومحمود الأوَّل ، وعثمان الثَّالث ، ومصطفى الثَّالث ، وعبد الحميد الأوَّل .

٩٠ ـ تولَّى السُّلطان سليم الثَّالث الحكم بعد وفاة عمِّه عبد الحميد الأوَّل عام ١٢٠٣هـ ، وبدأت مرحلةٌ جديدةٌ من مراحل الحرب بين الدَّولة العثمانيَّة وأعدائها ، وشرع في إحياء الرُّوح المعنويَّة في نفوس جنده .

٩١ ـ استطاعت الجيوش الرُّوسيَّة والنِّمساويَّة أن تهزم الجيش العثماني ، فكان لتلك الهزيمة آثارها على الدَّولة العثمانيَّة ، وتوالت الهزائم على العثمانيِّين ، وتزحزحت القوَّات العثمانيَّة إلى الوراء باتجاه شرق الدَّانوب ، وأعطت النِّمساويين الفرصة لفكِّ حصار بلغراد ، وفتح الطَّريق لقوَّات الحلفاء ، وطرد العثمانيِّين من أوربة .

٩٢ ـ بعد هدوء القتال انصرف سليم الثَّالث للإصلاحات الدَّاخلية ، فبدأ بتنظيم الجيش للتخلُّص من الإنكشارية الَّذين أصبحوا سبب كلِّ فتنةٍ ، واتَّجه نحو تقليد أوربة ، إلا أنَّه عزل من السَّلطنة .

٩٣ ـ انتهز الفرنسيُّون تدهور الدَّولة العثمانيَّة ، وضعفها ، فأرسلت حملتها المشهورة بقيادة القائد المشهور نابليون بونابرت ، وكانت تلك الحملة صدىً للثَّورة الفرنسيَّة ، ومتأثِّرةً بأفكارها الثَّوريَّة .

٩٤ ـ سعى رجال الحملة الفرنسيَّة إِلى زعزعة الدِّين في نفوس الشُّيوخ ، والعلماء ، وعوامِّ المسلمين بعرض نماذج من الحضارة الغربيَّة عليهم .

٩٥ ـ نجح الفرنسيُّون في استثارة العناصر القبطيَّة المسيحيَّة لمعاونة الحملة بمختلف الوسائل .

٩٦ ـ كان الهجوم الفرنسيُّ على مصر يعتبر أوَّل هجومٍ صليبيٍّ على ولايةٍ عربيَّة من ولايات الدَّولة العثمانيَّة في التَّاريخ الحديث ، وعلى الفور أعلن السُّلطان سليم الثالث الجهاد على الفرنسيِّين الصَّليبيِّين ، واستجاب لدعوته المسلمون في الحجاز ، والشَّام ، وشمال أفريقية .

٩٧ ـ كانت بريطانيا تتابع الأطماع الفرنسيَّة في مصر ، وغيرها بدقَّةٍ متناهيةٍ ، وعندما تحرَّكت الحملة الفرنسيَّة ، ووصلت إِلى مصر أرسلت أسطولاً بقيادة الأميرال نيلسون لتعقب الحملة الفرنسيَّة ، واستطاع الأسطول الإِنجليزي أن يدمِّر الأسطول الفرنسي في معركة أبي قير البحريَّة .

٩٨ ـ كانت هزيمة الأسطول الفرنسي في موقعة أبي قير البحريَّة قد شجَّعت الدَّولة العثمانيَّة على مهاجمة الحملة الفرنسيَّة في مصر ، فأعلن السُّلطان سليم الثالث الحرب على فرنسا ، وأصدر أوامره بإِلقاء القبض على القائم بأعمال السَّفارة الفرنسيَّة ، وجميع رعايا فرنسا في إِستانبول ، وإِلقائهم في السُّجون .

٩٩ ـ اضطرت الحملة الفرنسيَّة إِلى مغادرة مصر بسبب الهجوم المشترك الَّذي قام به الإِنجليز والعثمانيُّون على الفرنسيين في مصر ، وقد تضافرت عوامل عدَّةٌ أرغمت المحتلِّين الفرنسيين على الخروج من مصر في النِّهاية ، منها : تحطيم أسطولهم في معركة أبي قير البحريَّة ، وسيطرة الإِنجليز البحريَّة في البحر المتوسِّط ، وتشديدهم الحصار على الشَّواطئ المصريَّة ، ممَّا أعجز الحكومة الفرنسيَّة عن إِرسال النَّجدات ، والإِمدادات إِلى فرنسا في مصر .

١٠٠ ـ كان للحملة الفرنسيَّة أثرٌ بالغ في مصر خصوصاً ، والشَّرق عموماً ، واستطاعت المحافل الماسونيَّة اليهوديَّة الفرنسيَّة أن تشقَّ طريقها لطعن الإِسلام بخنجرها المسموم ، واستطاع الفرنسيُّون أن يزرعوا أفكارهم ويجدوا لهم عملاء في

المنطقة ، واستفادوا بعد خروجهم العسكريِّ من الدَّور الخطير الَّذي قام به محمَّد علي باشا حاكم مصر فيما بعد .

١٠١ ـ تولَّى الحكم السُّلطان محمود الثَّاني في عام ١٢٢٣هـ واستطاع أن يتخلَّص من الإنكشاريَّة وأزالها من الوجود ، وأصبح بعد ذلك حرَّاً في تطوير جيشه ، فترسَّم خطى الحضارة الغربيَّة ، واستبدل الطَّربوش الرُّوميَّ بالعمامة ، وتزيَّا بالزِّيِّ الأوربيِّ ، وأمر أن يكون هو الزِّيَّ الرَّسميَّ لكلِّ موظفي الدَّولة .

١٠٢ ـ في تلك الفترة الحرجة من التَّاريخ العثماني انتشرت المحافل الماسونيَّة في مصر ، والشَّام ، وتركيَّا ، وكانت تعمل ليلاً ونهاراً من أجل تفتيت ، وإِضعاف الدَّولة العثمانيَّة بمعاولها الفاسدة الَّتي لا تكلُّ ، ولا تملُّ .

١٠٣ ـ كانت المحافل الفرنسيَّة ترى دعم محمَّد علي ليتحقَّق لها أطماعها المستقبليَّة في حفظ ، وتقوية محافلها الماسونيَّة ، وإِضعاف الدَّولة العليَّة العثمانيَّة ، وزرع خنجرها المسموم في قلب الدَّولة العثمانيَّة ، ولذلك أنشأت لمحمَّد علي أسطولاً بحريّاً متقدِّماً متطوِّراً ، وترسانةً بحريَّةً في دمياط .

١٠٤ ـ قام محمَّد علي بدورٍ مشبوهٍ في نقل مصر من انتمائها الإِسلاميِّ الشَّامل إِلى شيءٍ آخر يؤدِّي بها في النِّهاية إِلى الخروج عن شريعة الله ، وكانت تجربة محمَّد علي قدوةً لمن بعده من أمثال مصطفى كمال أتاتورك .

١٠٥ ـ قام محمَّد علي نيابةً عن فرنسا ، وبريطانيا ، وروسيا ، والنِّمسا ، وغيرها من الدُّول الأوربيَّة بتوجيه ضرباتٍ موجعةٍ للاتِّجاه الإِسلاميِّ في كلٍّ من مصر ، والجزيرة العربيَّة ، والشَّام ، والخلافة العثمانيَّة ممَّا كان لها الأثر في تهيئة العالم الإِسلاميِّ للأطماع الغربيَّة .

١٠٦ ـ كان محمَّد علي مخلباً وخنجراً مسموماً استعمله الأعداء في تنفيذ مخطَّطاتهم ، ولذلك وقفوا معه في نهضته العلميَّة ، والاقتصاديَّة ، والعسكريَّة بعد أن أيقنوا بضعف الجانب العقدي ، والإِسلامي لديه ، ولدى أعوانه ، وجنوده .

١٠٧ ـ ترتَّب على دور محمَّد علي في المنطقة بأسرها أن تنبَّهت الدُّول الأوربيَّة إِلى مدى الضَّعف الَّذي أصبحت عليه الدَّولة العثمانيَّة ، وبالتَّالي استعدادها لتقسيم

أراضيها حينما تتهيَّأ الظُّروف السِّياسيَّة .

١٠٨ ـ تولَّى الحكم في الدَّولة العثمانيَّة بعد وفاة السلطان محمود الثَّاني ابنه عبد المجيد الأوَّل ، وكان ضعيف البنية ، شديد الذَّكاء ، واقعياً ، ورحيماً ، وهو من أجلِّ سلاطين آل عثمان قدراً .

١٠٩ ـ كان السُّلطان عبد المجيد خاضعاً لتأثير وزيره رشيد باشا ؛ الَّذي وجد في الغرب مُثُلَه ، وفي الماسونيَّة فلسفته ، ورشيد باشا هو الذي أعدَّ الجيل التَّالي له من الوزراء ، ورجال الدَّولة ، وبمساعدته أسهم هؤلاء في دفع عجلة التَّغريب الَّتي بدأها هو .

١١٠ ـ كانت حركة الإصلاح والتَّجديد العثمانيِّ تدور حول نقاطٍ ثلاثةٍ هامَّة : الاقتباس من الغرب فيما يتعلَّق بتنظيم الجيش ، وتسليحه في نظم الحكم والإدارة ، والاتِّجاه بالمجتمع العثماني نحو التَّشكيل العلماني ، والاتجّاه نحو مركزيَّة السُّلطة في إستانبول ، والولايات .

١١١ ـ تكلَّل خَطَّا كلخانة ، وهمايون بدستور مدحت باشا عام ١٨٧٦م ولأوَّل مرَّةٍ في تاريخ الإسلام ، ودوله ؛ يجري العمل بدستورٍ مأخوذٍ عن الدُّستور الفرنسي ، والبلجيكي ، والسُّويسري ، وهي دساتير وضعيَّةٌ علمانيَّةٌ .

١١٢ ـ وضعت حركة التَّنظيمات الدَّولة العثمانيَّة رسمياً على طريق نهايتها كدولةٍ إسلاميَّةٍ ، فعلمنت القوانين ، ووضعت مؤسَّساتٍ تعمل بقوانين وضعيَّةٍ ، وابتعدت عن التَّشريع الإسلاميِّ في مجالات التِّجارة ، والسِّياسة ، والاقتصاد . لقد سُحبت من الدَّولة العثمانيَّة شرعيَّتها في أنظار المسلمين .

١١٣ ـ إنَّ النَّظرة الفاحصة في تاريخ الأمم ، واستقراء أحوالها تبين لنا : أنَّ التَّقليد بين أمَّةٍ ، وأمَّةٍ ، وبين قومٍ ، وقومٍ يحدث بينهما من التَّشابه ، والتَّفاعل ، والانصهار ما يضعف التَّمايز والاستقلال في الأمَّة المقلِّدة ، ويجعلها مهتزَّة الشَّخصيَّة .

١١٤ ـ اقتضت سنَّة الله في خلقه : أنَّ الأمَّة الضَّعيفة المغلوبة تعجب بالأمَّة القوية المهيمنة الغالبة ، ومن ثمَّ تقلدها . فتكسب من أخلاقها ، وسلوكها ،

وأساليب حياتها إلى أن يصل الأمر إلى تقليدها في عقائدها ، وأفكارها ، وثقافتها ، وأدبها ، وفنونها ، وبهذا تفقد الأمَّة المقلِّدة مقوِّماتها الذَّاتية ، وحضاراتها ـ إن كانت ذات حضارة ـ وتعيش عالةً على غيرها .

١١٥ ـ تولَّى الحكم في الدَّولة العثمانيَّة السلطان عبد العزيز بن محمود الثَّاني عام ١٢٧٧هـ ، وكانت الدُّول الأوربيَّة عازمةً على الضَّغط على الحكومة العثمانيَّة للاستمرار في خطوات الإصلاح ، والنُّهوض المزعوم على النَّهج الغربي ، والفكر الأوربيِّ ، والمبادئ العلمانيَّة ، وكان السُّلطان عبد العزيز يرفض الدَّساتير الغربيَّة ، والعادات البعيدة عن البيئة الإسلاميَّة ، وحاول النُّهوض بالمجتمع الإسلامي العثمانيِّ ، فدبِّرت مؤامرةٌ لقتله بواسطة القناصل ، وممثلي الدُّول الأوربيَّة في العاصمة ، وقاموا بتنفيذها عن طريق عملائهم ممَّن تشرَّبوا بأفكارهم من رجال الدَّولة ، وعلى رأسهم صنيعة الماسونيَّة المدعو مدحت باشا .

١١٦ ـ تولَّى الحكم بعد السُّلطان عبد العزيز ابن أخيه مراد الخامس ؛ الَّذي كان منخرطاً في سلك الماسونيَّة ، وكان ميَّالاً إلى الدُّستور ، والليبراليَّة ، والعلمانيَّة ، وكانت الحركة الماسونيَّة هي التي دفعت به إلى السَّلطنة ، ولكنَّه أصيب باضطرابٍ عقليٍّ بعد أن أصابته الدَّهشة ، والفزع بسبب مقتل عمِّه عبد العزيز ، وظهرت عليه اضطراباتٌ عصبيَّةٌ أثَّرت على جهازه الهضميِّ ، وكانت صحَّته في تدهورٍ مستمرٍّ ، فكان لا بدَّ من خلعه ، وأعلن ذلك من قبل شيخ الإسلام .

١١٧ ـ تولَّى حكم الدَّولة العثمانيَّة بعد مراد الخامس السُّلطان عبد الحميد الثَّاني في عام ١٢٩٣هـ ، وضغط عليه من قبل مدحت باشا ، فأعلن الدُّستور ، ومارس الوزراء استبدادهم ، واشتدَّت سياستهم التغريبيَّة بقيادة جمعية العثمانيِّين الجدد ، والَّتي كانت تضمُّ النُّخبة المثقَّفة الَّتي تأثَّرت بالغرب ، وعندما حانت الفرصة للسُّلطان عبد الحميد ألغى الدُّستور ، وشرَّد زعماء التَّغريب ، وعمل على إضعاف سلطاتهم ، وشرع في إصلاح الدَّولة وفق التَّعاليم الإسلاميَّة ، وحرص على تطبيق الشَّريعة الإسلاميَّة .

١١٨ ـ عمل السُّلطان عبد الحميد على تشكيل جهازٍ استخباراتيٍّ قويٍّ لحماية الدَّولة من الدَّاخل ، وجمع معلومات عن أعدائه من الخارج ، وأخمد ثوراتٍ في

البلقان ، وتمرُّداتٍ داخليَّةٍ . وكان جهاز الاستخبارات من الوسائل المهمَّة عند السُّلطان في القضاء على التمرُّدات الدَّاخلية في حينها .

١١٩ ـ دخلت الدَّولة العثمانيَّة في حربٍ ضروسٍ مع روسيا ، وانهزمت أمامها واضطرت لعقد معاهدة سان ستفانو معها ، ثمَّ بعد ذلك كان مؤتمر برلين في ألمانيا .

١٢٠ ـ ظهرت فكرة الجامعة الإسلاميَّة في معترك السِّياسة في زمن السُّلطان عبد الحميد الَّذي اهتمَّ بهذه الفكرة لدعم أواصر الأخوَّة بين المسلمين في كلِّ مكانٍ ؛ حتّى تستطيع الأمَّة أن تقف ضدَّ الأطماع الصَّليبيَّة .

١٢١ ـ شرع السُّلطان عبد الحميد في تنفيذ مخطَّطه للوصول إلى الجامعة الإسلاميَّة بواسطة وسائل متعددةٍ ، منها : الاتِّصال بالدُّعاة ، وتنظيم الطُّرق الصُّوفيَّة ، والعمل على تعريب الدَّولة ، وإقامة مدرسة العشائر ، وإقامة خطٍّ سكة حديد الحجاز ، وإبطال مخطَّطات الأعداء .

١٢٢ ـ حاول السُّلطان عبد الحميد التَّضييق على يهود الدُّونمة عندما علم قوَّتهم ، ومؤامراتهم ضدَّ الإسلام ، ولذلك قام يهود الدُّونمة بوضع خطَّةٍ استراتيجيَّةٍ مضادَّةٍ له ، حيث تحركوا ضدَّه على مستوى الرأي العامِّ العثماني ، والجيش ، وقاموا بدعم المحافل الماسونيَّة للإطاحة به ، واستخدموا شعارات الحرِّيَّة ، والديمقراطيَّة ، وإزاحة المستبد ، وعلى هذا الأساس قاموا بنشر الشِّقاق والتَّمرُّد في الدَّولة ، وبين صفوف الجيش ، وكان يهود الدُّونمة يشكِّلون اللَّبنة الأولى لتنفيذ المخطَّطات اليهوديَّة العالميَّة ؛ الَّتي تعمل على تحقيق المشروع الاستيطانيِّ الصَّهيونيِّ في فلسطين .

١٢٣ ـ كان السُّلطان عبد الحميد العائق القويَّ أمام مخطَّطات حكماء صهيون ، فعملوا على ترغيبه بالمال ، فلم يستطيعوا ، وكان يتَّخذ التَّدابير اللازمة في سبيل عدم بيع الأراضي إلى اليهود في فلسطين ، ولم يعط اليهود أيَّ امتيازٍ من شأنه أن يؤدِّي إلى تغلب اليهود على أراضي فلسطين .

١٢٤ ـ تحرَّكت الصَّهيونيَّة العالمية لتدعيم أعداء السُّلطان عبد الحميد ، وهم

المتمرِّدون الأرمن ، والقوميُّون البلقان ، وحركة حزب الاتِّحاد والتَّرقِّي ، والوقوف مع كلِّ حركةٍ انفصاليَّةٍ عن الدَّولة العثمانيَّة .

١٢٥ ـ استطاعت جمعية الاتِّحاد والتَّرقي أن تعزل السُّلطان عبد الحميد الثَّاني عن الحكم ، وقد تحصَّلت على دعم من الدُّول الأوربيَّة ، واليهود ، والمحافل الماسونيَّة للوصول إلى هذا الهدف .

١٢٦ ـ كانت جميعة الاتِّحاد والتَّرقي لا تستطيع مقاومة الحلفاء بعد هزيمتها في الحرب العالميَّة الثانية ، واضطرَّ زعماؤها إلى الفرار إلى ألمانيا ، وروسيا .

١٢٧ ـ استطاع الإنجليز ، واليهود أن يدفعوا بمصطفى كمال نحو زعامة الدَّولة العثمانيَّة ، وقام الأخير بتنفيذ مخطَّطٍ مرسومٍ ، انتهى بتحقيق شروط كرزون الأربع ، وهي : قطع كل صلة لتركيا بالإسلام ، إلغاء الخلافة الإسلاميَّة إلغاءً تامّاً ، إخراج الخليفة وأنصار الخلافة والإسلام من البلاد ، ومصادرة أموال الخليفة ، واتِّخاذ دستور مدني بدلاً من دستور تركيا القديم .

١٢٨ ـ عمل مصطفى كمال على سلخ تركيا من عقيدتها ، وإسلامها ، وحارب التَّديُّن ، وضيق على الدُّعاة ، ودعا إلى السُّفور ، والاختلاط ، إلا أنَّ صوت الحقِّ في تركيا قاوم العلمانيَّة بشدَّةٍ ، وظهرت حركة سعيد النَّورسي ، وحزب السَّلامة الَّذي أصبح فيما بعد حزب الرَّفاه ، وما زال الصِّراع بين الحقِّ والباطل ، والهدى والضلال ، والرُّشد والغيِّ ، على أشدِّه في تركيَا .

١٢٩ ـ إنَّ أسباب سقوط الدَّولة العثمانيَّة كثيرةٌ ، جامعها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى الَّذي جلب للأفراد ، والأمَّة تعاسةً ، وضنكاً في الدُّنيا ، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله ظهرت في وجهتها الدِّينيَّة ، والاجتماعيَّة ، والسَّياسيَّة ، والاقتصاديَّة .

١٣٠ ـ إن انحراف سلاطين الدَّولة العثمانيَّة المتأخِّرين عن شرع الله ، وتفريط الشُّعوب الإسلاميَّة الخاضعة لهم في الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر أثَّر في تلك الشُّعوب ، وكثرت الاعتداءات الداخليَّة بين الناس ، وتعرَّضت النُّفوس للهلاك ، والأموال للنَّهب ، والأراضي للاغتصاب بسبب تعطُّل أحكام الله فيما

بينهم ، ونشبت حروبٌ ، وفتنٌ ، وبلايا تولدت على أثرها عداوةٌ وبغضاء لم تزل عنهم حتَّى بعد زوالهم .

١٣١ ـ إنَّ من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق التَّاريخ : أنَّه إذا عُصي الله تعالى ممَّن يعرفونه سلَّط الله عليهم من لا يعرفونه ، ولذلك سلَّط النَّصارى على المسلمين ، وغاب النَّصر عن الأمَّة ، وحرمت من التَّمكين ، وأصبحت في فزعٍ ، وخوفٍ ، وتوالت عليها المصائب ، وضاعت الدِّيار ، وتسلَّط الكفار .

١٣٢ ـ لقد أصيبت الأمَّة بانحرافٍ شديدٍ في مفاهيم دينها ، كعقيدة الولاء ، والبراء ، ومفهوم العبادة ، وانتشرت مظاهر الشِّرك ، والبدع ، والخرافات .

١٣٣ ـ إنَّ من أعظم الانحرافات التي وقعت في تاريخ الأمَّة الإسلاميَّة ظهور الصُّوفيَّة المنحرفة كقوَّةٍ منظَّمةٍ في المجتمع الإسلامي ، تحمل عقائد ، وأفكاراً ، وعباداتٍ بعيدةً عن كتاب الله ، وسنَّة رسوله ﷺ ، وقد قوي عود الصُّوفيَّة المنحرفة ، واشتدَّت شوكتها في أواخر العصر العثماني .

١٣٤ ـ أصبح كثيرٌ من العلماء ألعوبةً بيد الحكَّام الجائرين ، وتسابقوا للحصول على الوظائف ، والمراتب ، وغاب دورهم المطلوب منهم ، وكان من الطَّبيعي أن تصاب العلوم الدِّينيَّة في نهاية الدَّولة العثمانيَّة بالجمود والتحجُّر ، واهتمَّ العلماء بالمختصرات ، والشُّروح ، والحواشي ، والتقريرات ، وتباعدوا عن روح الإسلام الحقيقيَّة المستمدَّة من كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ ، ورفض كثيرٌ من العلماء فتح باب الاجتهاد ، وأصبحت الدَّعوة لفتح بابه تهمةً كبيرةً تصل إلى الرَّمي بالكبائر ، وتصل عند بعض المقلِّدين ، والجامدين إلى حدِّ الكفر .

١٣٥ ـ انتشر الظُّلم في الدولة العثمانيَّة ، والظُّلم كالمرض في الإنسان يعجِّل بموته بعد أن يقضي المدَّة المقدَّرة له وهو مريضٌ ، وبانتهاء هذه المدة يحين أجلُ موته ، فكذلك الظلم في الأمة يُعجِّل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثارٍ مدمِّرةٍ تؤدِّي إلى هلاكها ، واضمحلالها خلال مدَّةٍ معيَّنةٍ يعلمها الله هي الأجل المقدَّر لها ، ولذلك زالت الدَّولة العثمانيَّة من الوجود ، وكذلك ممَّا يعجِّل بزوال الدُّول انْغماسُها في الشَّهوات ، والتَّرف ، وشدَّة الاختلاف ، والتَّفرُّق .

١٣٦ ـ لقد ترتَّب عن ابتعاد الأمَّة عن شرع ربِّها آثارٌ خطيرةٌ ، كالضَّعف السِّياسيِّ ، والحربيِّ ، والاقتصاديِّ ، والعلميِّ ، والأخلاقيِّ ، والاجتماعيِّ . وفقدت الأمّة قدرتها على المقاومة ، والقضاء على أعدائها ، فاستعمرت ، وغزيت فكريّاً ، نتيجة لفقدها لشروط التَّمكين ، وابتعادها عن أسبابه المادِّيَّة ، والمعنويَّة ، وجهلها بسنن الله في نهوض الأمم ، وسقوطها .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

١٣٧ ـ إنَّ هذا المجهود المتواضع قابلٌ للنَّقد ، والتوجيه ، وما هي إلا محاولةٌ متواضعةٌ هدفها إبراز عوامل نهوض الأمَّة ، وأسباب سقوطها ، وبيني وبين النَّاقد قول الشاعر :

إِنْ تَجِـدْ عَيْبَـاً فَسُـدَّ الخَلَـلا ... جَـلَّ مَـنْ لا عَيْـبَ فِيْـهِ وَعَـلا

أسأل الله العليَّ العظيم ربَّ العرش الكريم أن يتقبَّل هذا الجهد قبولاً حسناً ، وأن يبارك فيه ، وأن يجعله من أعمالي الصَّالحة الَّتي أتقرَّب بها إليه ، وأن لا يحرم إخواني الَّذين أعانوني على إكماله من الأجر والمثوبة ، وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] .

وبقول الشَّاعر :

أَنَـا الْفَقِيْـرُ إِلَـىٰ رَبِّ البَـرِيَّـاتِ ... أَنَـا الْمِسْكِيْـنُ فِـي مَجْمُـوْعِ حَـالاتِـي
أَنَـا الظَّلُـومُ لِنَفْسِـي وَهِـيَ ظَـالِمَتِـي ... وَالْخَيْـرُ إِنْ يَـأْتِيْنَـا مِـنْ عِنْـدِهِ يـاتـي
لا أَسْتَطِيْـعُ لِنَفْسِـي جَلْـبَ مَنْفَعَـةٍ ... وَلا عَـنِ النَّفْـسِ لِـيْ دَفْـعُ المضَـرَّاتِ
وَالْفَقِيْـرُ لِـي وَصْـفُ ذَاتٍ لازِمٌ أَبَـداً ... كَمَـا الغَنِـيُّ أَبَـداً وَصْـفٌ لـه ذَاتِـي
وَهَـذِهِ الْحَـالُ حَـالُ الْخَلْـقِ أَجْمَعِهِـمْ ... وَكُلُّهُـمْ عِنْـدَهُ عَبْـدٌ لَـهُ آتِـي

« سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك ، وأتوب إليك »

« وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين »

المصادر والمراجع

(أ)

١ ـ أخبار الأمراء والملوك السَّلجوقيَّة ، د . محمَّد نور الدِّين .

٢ ـ أيعيد التَّاريخ نفسه ، محمَّد العبده ، المنتدى الإسلامي ، طبعة ١٤١١هـ .

٣ ـ إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين ، الإمام ابن القيِّم ، مراجعة وتعليق طه عبد الرؤوف سعد ، دار الجيل ، بيروت ـ لبنان .

٤ ـ أوربة في العصور الوسطى ، سعيد عاشور ، الطَّبعة السَّادسة ، مكتبة الأنجلو المصريَّة ١٩٧٥م .

٥ ـ اقتصاديَّات الحرب في الإسلام ، د . غازي التَّمام ، مكتبة الرُّشد ، الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م .

٦ ـ أطوار العلاقات المغربيَّة العثمانيَّة ، إبراهيم شحاتة ، منشأة المعارف ، الإسكندريَّة ، الطَّبعة الأولى ١٩٨٠م .

٧ ـ إمام التَّوحيد محمَّد بن عبد الوهاب ، أحمد القطَّان ، مكتبة السُّندس ، الكويت ، الطَّبعة الثانية ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م .

٨ ـ استمرارية الدَّعوة ، محمد السَّيد الوكيل ، دار المجتمع ، المدينة ، السُّعودية ، الطَّبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م .

٩ ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، لمحمَّد الإمام الشنقيطي ، مطبعة المدني عام ١٣٨٤هـ ـ الطَّبعة الأولى .

١٠ ـ اقتضاء الصِّراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيميَّة ، تحقيق محمَّد حامد الفقي الطَّبعة الثَّانية عام ١٣٦٩هـ ، مطبعة السُّنَّة المحمَّديَّة .

١١ ـ ابن باديس حياته ، وآثاره : د . عمَّار الطَّالبي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت الطَّبعة الثَّانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

(ب)

١٢ ـ البداية والنِّهاية ، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدِّمشقي ، دار الرَّيان ، الطَّبعة

الأولى ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

١٣ ـ البطولة والفداء عند الصُّوفيَّة ، أسعد الخطيب ، دار الفكر ، سورية ـ دمشق .

١٤ ـ البدر الطَّالع بمحاسن مَنْ بعد القرن السَّابع ، لمحمَّد بن علي الشَّوكاني ، دار المعرفة ، بيروت .

١٥ ـ بدر التَّمام في اختصار الاعتصام ، اختصره أبو عبد الفتاح محمَّد السَّعيد الجزائري ، دار الحنان الإسلاميَّة ، الطَّبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م ، الإمارات العربيَّة المتَّحدة .

١٦ ـ بدائع الزُّهور في وقائع الدُّهور ، محمَّد بن أحمد بن إياس ، القاهرة مطابع الشَّعب ، ١٩٦٠م .

١٧ ـ بداية الحكم المغربي من السُّودان الغربي ، محمَّد الغربي ، الدَّار الوطنيَّة للتَّوزيع والنَّشر ، طبعة عام ١٩٨٢م .

١٨ ـ البرق اليماني في الفتح العثماني ، دار اليمامة ، الرِّياض ، قطب الدِّين محمَّد بن أحمد المكِّي ، الطَّبعة الأولى ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م .

١٩ ـ البلاد العربيَّة والدَّولة العثمانيَّة ، ساطع الحصري ، بيروت ١٩٦٠م .

(ت)

٢٠ ـ تاريخ التُّرك في آسيا الوسطى ، بارتولد ، ترجمة أحمد السَّعيد ، القاهرة ، مطبعة الأنجلو المصريَّة ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م .

٢١ ـ تاريخ الأمم والملوك ، محمَّد بن جرير الطَّبري ، دمشق ، دار الفكر ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

٢٢ ـ تاريخ الدَّولة العليَّة العثمانيَّة ، محمَّد فريد بك ، تحقيق الدُّكتور إحسان حقِّي ، دار النَّفائس ، الطَّبعة السَّادسة ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

٢٣ ـ تاريخ الإسلام ، شمس الدِّين محمَّد بن أحمد الذَّهبي ، دار الكتاب العربي ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م .

٢٤ ـ تاريخ دول آل سلجوق ، لمحمَّد الأصبهاني ، القاهرة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت الطَّبعة الثَّانية ١٩٧٨م .

٢٥ ـ تاريخ سلاطين آل عثمان ، تأليف يوسف آصاف ، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي ، دار البصائر ، الطَّبعة الثَّالثة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

٢٦ ـ تاريخ العرب الحديث ، رأفت الشَّيخ ، العين للدِّراسات والبحوث الإنسانيَّة والاجتماعيَّة .

٢٧ ـ تاريخ العرب الحديث ، تأليف د . جميل بيفون ، د . شحادة النَّاظور ، الأستاذ عكاشة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م ، دار الأمل للنَّشر والتوزيع .

٢٨ ـ التَّقليد ، والتَّبعيَّة ، وأثرها في كيان الأمَّة الإسلاميَّة ، ناصر العقل ، دار المسلم ، الطَّبعة الثَّانية ١٤١٤هـ .

٢٩ ـ تاريخ الدَّولة العثمانيَّة ، د . علي حسُّون ، المكتب الإسلامي ، الطَّبعة الثَّالثة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م .

٣٠ ـ التَّاريخ العثماني في شعر أحمد شوقي بقلم محمَّد زاهد عبد الفتاح أبو غدَّة ، دار الرَّائد كندا ، الطَّبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م .

٣١ ـ تاريخ سلاطين آل عثمان ، للقرماني ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ، دار البصائر ، دمشق ، سوريَّة .

٣٢ ـ تاريخ المشرق العربي ، عمر عبد العزيز عمر ، دار المعرفة الجامعيَّة ، الإسكندريَّة .

٣٣ ـ تجربة محمَّد علي الكبير ، دروسٌ في التَّغيير والنُّهوض ، منير شفيق ، دار الفلاح للنَّشر ، بيروت ، لبنان ، الطَّبعة الأولى ١٩٩٧م ـ ١٤١٨هـ .

٣٤ ـ التَّراجع الحضاريُّ في العالم الإسلاميِّ ، د . علي عبد الحليم ، دار الوفاء ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م .

٣٥ ـ تفسير المنار ، محمَّد رشيد رضا ، دار المعرفة ، الطَّبعة الثَّانية ، بيروت .

٣٦ ـ تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير أبو الفداء إسماعيل ، تحقيق : عبد العزيز غنيم ، وحمد أحمد عاشور ، ومحمَّد إبراهيم البنَّاء ، مطبعة الشَّعب القاهرة ـ مصر .

٣٧ ـ تفسير الطَّبري المسمَّى : جامع البيان عن تأويل القرآن ، لابن جرير الطَّبري ، دار الفكر ، بيروت ـ لبنان ١٤٠٥هـ .

٣٨ ـ تفسير السَّعدي ، المسمَّى : تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان ، للشَّيخ عبد الرَّحمن بن ناصر السَّعدي ، المؤسَّسة السَّعدية بالرِّياض ١٩٧٧م .

٣٩ ـ تركيا والسِّياسة العربيَّة : أمين شاكر ، وسعيد العريان ، ومحمد عطا .

٤٠ ـ تفسير القرطبي ، لأبي عبد الله القرطبيِّ .

٤١ ـ تفسير النَّسفي ، مدارك التَّنزيل ، وحقائق التَّأويل للإمام أبي البركات

عبد الله بن أحمد بن محمود النَّسفي .

٤٢ ـ تاريخ الدولة العثمانيَّة ، يلماز أوزنتونا ، ترجمه إلى العربيَّة عدنان محمود سلمان ، د . محمود الأنصاري ، المجلَّد الأوَّل ، منشورات مؤسَّسة فيصل للتَّمويل ، تركيا ، إستانبول ١٩٨٨م .

٤٣ ـ تطبيق الشَّريعة الإسلاميَّة ، د . عبد الله الطَّريقي ، مؤسسة الرِّسالة ، بيروت ـ لبنان ، الطَّبعة الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .

٤٤ ـ التَّيارات السِّياسيَّة في الخليج العربي ، صلاح العقَّاد ، القاهرة ، المطبعة الفنِّيَّة الحديثة ، ١٩٧٤م .

٤٥ ـ تاريخ الجزائر الحديث ، محمد خير فارس ، دار الشُّروق ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٩٧٩م .

٤٦ ـ الأتراك العثمانيُّون في أفريقية ، عزيز سامح ، دار النَّهضة العربيَّة ، ترجمة محمود عامر ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م .

٤٧ ـ تاريخ الجزائر العام ، عبد الرَّحمن الجيلالي ، دار الثَّقافة بيروت ، الطَّبعة الرَّابعة ١٩٨٠م .

٤٨ ـ تاريخ أفريقية الشَّمالية ، شارل إندري جوليان ، الدَّار التونسيَّة للنَّشر ، تونس ١٩٧٨م ، تعريب محمَّد مزالي .

٤٩ ـ تاريخ المغرب ، لمحمَّد عبود ، دار الطِّباعة المغربيَّة ، الطَّبعة الثَّانية .

٥٠ ـ تاريخ الفكر المصري الحديث ـ لويس عوض ، ط١ القاهرة سنة ١٩٧٩م .

٥١ ـ التَّيارات السِّياسيَّة الاجتماعيَّة بين المجدِّدين ، والمحافظين ، د . زكريا سليمان موسى ، دراسة فكر الشَّيخ محمد عبده ، القاهرة سنة ١٩٨٣م .

٥٢ ـ تاريخ الأحساء السِّياسي ، د . محمَّد عرابي ، منشورات ذات السَّلاسل ، الكويت ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .

٥٣ ـ التُّحفة الحليميَّة في تاريخ الدَّولة العليَّة ، إبراهيم حلمي بك .

٥٤ ـ الاتِّجاهات الوطنية ، لمحمد حسين ، بيروت ١٩٧٢م .

٥٥ ـ التَّصوُّف في مصر إبَّان العصر العثماني ، د . توفيق الطَّويل . مطبعة الاعتماد بمصر ، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م .

(ج)

٥٦ ـ جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيِّين ، زيادة أبو غنيمة ، دار الفرقان ، الطَّبعة

الأولى ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣م .

٥٧ ـ جمال الدِّين الأفغاني المصلح المفترى عليه ، د . محسن عبد الحميد ، مؤسَّسة الرِّسالة ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

٥٨ ـ جهود العثمانيِّين لإنقاذ الأندلس في مطلع العصر الحديث ، د . نبيل عبد الحي رضوان ، مكتبة الطَّالب الجامعي ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

٥٩ ـ الجبرتي ، والفرنسيس ، د . صلاح العقَّاد ، ندوة الجبرتي القاهرة ١٩٧٦م .

(ح)

٦٠ ـ حاضر العالم الإسلامي ، د . جميل عبد الله محمَّد المصري ، جامعة المدينة المنوَّرة .

٦١ ـ حروب البلقان ، والحركة العربيَّة في المشرق العربي العثماني د . عايض بن خزَّام الرُّوقي ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م .

٦٢ ـ حروب محمَّد علي في الشَّام ، وأثرها في شبه الجزيرة العربيَّة ، د . عايض بن خزَّام الرُّوقي ، ١٤١٤هـ ، مركز بحوث الدِّراسات الإسلاميَّة ، مكَّة المكَّرمة .

٦٣ ـ حركة الجامعة الإسلاميَّة ، أحمد فهد بركات ، مكتبة المنار ، الأردن ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

٦٤ ـ الحكم ، والتحاكم في خطاب الوحي ، عبد العزيز مصطفى كامل ، دار طيبة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .

٦٥ ـ الحكومة الإسلاميَّة للمودودي ، ترجمة أحمد إدريس ، نشر المختار الإسلامي للطباعة والنشر ، القاهرة ، الطَّبعة الأولى ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م .

٦٦ ـ الحسبة في العصر المملوكي د . حيدر الصَّافح ، دار الإعلام الدَّولي ، الطَّبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م ، القاهرة .

٦٧ ـ حرب الثلاثمئة سنة بين الجزائر وإسبانيا ، أحمد توفيق مدني ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٩٨٤م .

٦٨ ـ حقائق الأخبار عن دول البحار ، إسماعيل سرهنك ، المطبعة الأميرية ، ببولاق ، مصر الطَّبعة الأولى ١٣١٢هـ .

٦٩ ـ الحروب الصَّليبيَّة في المشرق والمغرب ، محمد العمروسي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٩٨٢م .

٧٠ ـ حقيقة الماسونيَّة لمحمَّد الزعبي ، دار العربيَّة ، بيروت ١٩٧٤م .

٧١ ـ الحركة الإسلاميَّة الحديثة في تركيا د . أحمد النُّعيمي ، دار البشير ، عمَّان ، الأردن ، الطَّبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م .

٧٢ ـ حركة الإصلاح في عصر السُّلطان محمود الثَّاني ، د . البحراوي ، دار التُّراث ، القاهرة ، الطَّبعة الأولى ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .

(خ)

٧٣ ـ خراسان ، محمود شاكر ، الطَّبعة الأولى ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .

٧٤ ـ خير الدِّين بربروسة ، بسام العسلي ، دار النَّفائس ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

٧٥ ـ الخلافة والملك ، للمودودي ، تعريب أحمد إدريس ، دار القلم ، الطَّبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .

٧٦ ـ خليفة بن خيَّاط ، تاريخه ، تحقيق د . أكرم ضياء العمري ، الطَّبعة الثَّانية ، دار القلم ، بيروت ومؤسَّسة الرِّسالة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م .

٧٧ ـ خلاصة تاريخ الأندلس ، شكيب أرسلان ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .

٧٨ ـ خطط الشَّام ، محمَّد كرد علي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٣٩٠هـ .

(د)

٧٩ ـ الدَّولة العثمانيَّة والشَّرق العربي ، محمَّد أنيس ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية .

٨٠ ـ دور الكنيسة في هدم الدَّولة العثمانيَّة ، تأليف ثريَّا شاهين ، ترجمة الدُّكتور محمَّد حرب ، دار المنار للنشر والتَّوزيع ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م .

٨١ ـ دعوة جمال الدِّين الأفغاني في ميزان الإسلام ، مصطفى فوزي عبد اللطيف غزال ، دار طيبة ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

٨٢ ـ الدَّولة العثمانيَّة ، دولةٌ إسلاميَّةٌ مفترى عليها ، د . عبد العزيز الشِّنَّاوي ، مكتبة الأنجلو المصريَّة ، مطابع جامعة القاهرة ، عام ١٩٨٠م .

٨٣ ـ الدَّولة العثمانيَّة في التاريخ الإسلامي الحديث ، د . إسماعيل ياغي مكتبة

العبيكان ، الطَّبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م .

٨٤ ـ الدَّولة العثمانيَّة قراءةٌ جديدةٌ لعوامل الانحطاط ، قيس جواد العزاوي ، مركز دراسات الإسلام والعالم ، الطَّبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م .

٨٥ ـ الدَّولة العثمانيَّة ، أخطاء يجب أن تصحَّح في التاريخ ، د . جمال عبد الهادي ، د . وفاء محمد رفعت جمعة ، علي أحمد لبن ، دار الوفاء ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م .

٨٦ ـ دراساتٌ متميِّزةٌ في العلاقات بين الشَّرق والغرب على مرِّ العصور ، يوسف الثَّقفي ، دار الثِّقة ، الطَّبعة الثَّانيَّة ، ١٤١١هـ .

٨٧ ـ دراساتٌ في التَّاريخ المصري ، أحمد سيِّد د . أ ـ ج ، والسَّيِّد رجب حراز ، القاهرة ، دار النَّهضة ، ١٩٧٦م .

٨٨ ـ الدَّولة السُّعوديَّة الأولى ، عبد الرَّحيم عبد الرَّحمن .

٨٩ ـ دولة الموحِّدين ، علي محمَّد الصَّلابي ، دار البيارق ، عمَّان ـ الأردن ، ١٩٩٨م ، الطبعة الأولى .

(ر)

٩٠ ـ الرسالة الخالدة ، عبد الرَّحمن عزَّام ، القاهرة ١٩٤٦م .

٩١ ـ رسائل البنَّا ، حسن البنَّا ، دار الأندلس .

٩٢ ـ رياضة الإسماع في أحكام الذِّكر والسَّماع ، محمَّد أبو الهدى الصَّيادي ، مطبعة التمدُّن بمصر ١٩٠٣م .

(ز)

٩٣ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد ، لابن قيِّم الجوزيَّة .

(س)

٩٤ ـ السُّلوك ، أحمد بن علي المقريزي ، الطَّبعة الثَّانية ، القاهرة ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م .

٩٥ ـ السَّلاطين في المشرق العربي ، د . عصام محمَّد شبارو ، طبعة ١٩٩٤م ، دار النَّهضة العربيَّة ، بيروت ـ لبنان .

٩٦ ـ سير أعلام النُّبلاء ، الذَّهبي ، مؤسَّسة الرِّسالة ، الطَّبعة السَّابعة ، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م .

٩٧ ـ السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، د . محمَّد حرب ، دار القلم دمشق ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م .

٩٨ ـ الإسلام في آسيا منذ الغزو المغولي ، د . محمَّد نصر مهنَّا ، الطَّبعة الأولى ، ١٩٩٠/ ١٩٩١ ، المكتب الجامعي الحديث ، طبعة أولى ، ١٩٩٠م .

٩٩ ـ السُّلطان محمَّد الفاتح ، فاتح القسطنطينيَّة ، وقاهر الرُّوم ، عبد السَّلام عبد العزيز فهمي ، دار القلم ، دمشق ، الطَّبعة الرَّابعة ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م .

١٠٠ ـ السَّلاطين العثمانيُّون ، كتاب مصوَّر ، طبع في تونس .

١٠١ ـ الإسلام وأوضاعنا القانونيَّة ، عبد القادر عودة ، النَّاشر : المختار الإسلامي ، القاهرة ، الطَّبعة الخامسة سنة ١٣٩٧هـ .

١٠٢ ـ سنن أبي داود ، سليمان بن الأشعث ، تحقيق ، عزَّت عبيد الدَّعاس ، حمص ، النَّاشر : محمَّد السَّيد .

١٠٣ ـ سنن التِّرمذي ، لأبي عيسى التِّرمذي ، تحقيق أحمد شاكر ، مصطفى الحلبي ، القاهرة .

١٠٤ ـ الإسلام في مواجهة التَّحدِّيات : أبو الأعلى المودودي ، الطَّبعة الأولى ، عام ١٣٩١هـ ، دار القلم .

١٠٥ ـ سدُّ باب الاجتهاد ، وما ترتَّب عليه ، عبد الكريم الخطيب ، دار الأصالة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٥/ ١٩٨٤م .

١٠٦ ـ السُّنن الإلهيَّة في الأمم ، والجماعات ، والأفراد ، عبد الكريم زيدان .

(ش)

١٠٧ ـ الشعوب الإسلاميَّة ، الأتراك العثمانيُّون ، الفرس ، مسلمو الهند ، د . عبد العزيز سليمان نوار ، دار النَّهضة العربيَّة ، طبعة ١٤١١هـ/ ١٩٩١م .

١٠٨ ـ شذرات الذَّهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلي ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت .

١٠٩ ـ الشَّرق الإسلامي في العصر الحديث ، حسين مؤنس ، مطبعة حجازي ، القاهرة ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٩٣٨م .

١١٠ ـ الشَّوقيَّات ، ديوان أحمد شوقي ، دار العودة ، بيروت ١٩٨٦م .

(ص)

١١١ ـ صحوة الرَّجل المريض ، د . موفق بني المرجة ، دار البيارق ، الطَّبعة الثَّامنة ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م .

١١٢ ـ صحيح البخاري ، للإمام محمَّد بن إسماعيل .

١١٣ ـ صحيح مسلم ، للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجَّاج القشيري النَّيسابوري ، دار الحديث ، القاهرة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م .

١١٤ ـ صراع المسلمين مع البرتغال في البحر الأحمر ، غسَّان علي الرَّمال ، جدَّة ، دار العلم ، ١٤٠٦هـ .

١١٥ ـ الصِّراع الفكري بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث ، كما صوَّره الجبرتي ، د . أحمد العدوي ، أبحاث ندوة الجبرتي ، القاهرة ، سنة ١٩٧٦م .

(ط)

١١٦ ـ طبقات الشَّافعية الكبرى ، لتاج الدِّين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السِّبكي ، تحقيق عبد الفتاح محمَّد ، محمود محمَّد الطَّناحي ، دار إحياء الكتب العربيَّة .

(ع)

١١٧ ـ العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة ، د . محمَّد حرب ، دار القلم ، دمشق ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م .

١١٨ ـ العالم العربي في التَّاريخ الحديث ، د . إسماعيل أحمد ياغي ، مكتبة العبيكان ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م .

١١٩ ـ العلمانيَّة ، نشأتها ، تطورها ، وآثارها في الحياة الإسلاميَّة المعاصرة ، سفر عبد الرَّحمن الحوالي ، طبعة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م .

١٢٠ ـ العثمانيُّون والرُّوس ، د . علي حسُّون ، المكتب الإسلامي ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .

١٢١ ـ العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، عبد الرَّحمن بن خلدون .

١٢٢ ـ علاقات بين الشَّرق ، والغرب بين القرنين الحادي عشر ، والخامس عشر ، المكتبة العصريَّة ، صيدا ـ لبنان ، ط١٩٦٩م . عبد القادر أحمد اليوسف .

١٢٣ ـ علاقة ساحل عمان ببريطانيا ، دراسة وثائقيّة ، عبد العزيز عبد الغني إبراهيم ، الرِّياض ، مطبوعات دار الملك عبد العزيز ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .

١٢٤ ـ عجائب الآثار في التَّراجم ، والأخبار ، دار فاس ـ بيروت ، لعبد الرحمن الجبرتي .

١٢٥ ـ عقيدة ختم النُّبوَّة المحمَّدية ، د . أحمد سعدان حمدان ، دار طيبة ، الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

١٢٦ ـ عقيدة ختم النُّبوَّة بالنُّبوَّة المحمَّدية ، د . عثمان عبد المنعم ، مكتبة الأزهر ١٩٧٨م .

(ف)

١٢٧ ـ فتوح البلدان ، أحمد يحيى البلاذري .

١٢٨ ـ الفتوح الإسلاميَّة عبر العصور ، د . عبد العزيز العمري ، دار إشبيلية ، الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م .

١٢٩ ـ الأفعى اليهوديَّة في معاقل الإسلام ، عبد الله التَّل ، المكتب الإسلامي .

١٣٠ ـ في أصول التَّاريخ العثماني ، أحمد عبد الرَّحيم مصطفى ، دار الشُّروق ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٩٨٦م ـ ١٤٠٦هـ .

١٣١ ـ في ظلال القرآن الكريم ، سيِّد قطب ، دار الشُّروق .

١٣٢ ـ الفوائد لابن القيِّم .

١٣٣ ـ فتح القسطنطينيَّة ، وسيرة السُّلطان محمَّد الفاتح ، محمَّد مصطفى .

١٣٤ ـ فتح القسطنطينيَّة وسيرة السُّلطان محمَّد الفاتح ، محمَّد صفوت ، منشورات الفاخرية ، الرِّياض ، ودار الكتاب العربي ، ببيروت بدون تاريخ .

١٣٥ ـ فقه التَّمكين في القرآن الكريم ، لعلي محمَّد الصَّلابي ، رسالة دكتوراه لم تطبع بعد .

١٣٦ ـ فقه التَّمكين عند دولة المرابطين ، علي محمَّد الصَّلابي ، دار البيارق عمَّان ، بيروت ، طبعة أولى ١٩٩٨م .

١٣٧ ـ فتح العثمانيِّين عدن ، وانتقال التَّوازن الدَّولي من البرِّ إلى البحر ، محمَّد عبد اللَّطيف البحراوي ، دار التُّراث ، القاهرة ، الطَّبعة الأولى ، ١٩٧٩م .

١٣٨ ـ فلسفة التَّاريخ العثماني ، محمَّد جميل بيهم ، أسباب انحطاط الإمبراطوريَّة العثمانيَّة ، وزوالها ـ شركة فرج الله للمطبوعات ، بيروت ، ١٩٥٤م .

(ق)

١٣٩ ـ قراءة جديدة في تاريخ العثمانيِّين ، د . زكريَّا سليمان بيُّومي ، الطَّبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م ، عالم المعرفة .

١٤٠ ـ قيام الدَّولة العثمانيَّة ، د . عبد اللَّطيف عبد الله دهيش ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م ، مكتبة ومطبعة النَّهضة الحديثة ، مكَّة المكرَّمة .

(ك)

١٤١ ـ الكامل في التَّاريخ علي بن محمَّد بن أبي الكرم بن عبد الكريم ، القاهرة .

١٤٢ ـ الكشوف الجغرافيَّة البرتغاليَّة والإسبانيَّة ، مقالة في كتاب الصِّراع بين العرب والاستعمار ، شوقي عبد الله الجمل ، القاهرة ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .

(ل)

١٤٣ ـ ليبيا بين الماضي والحاضر ، حسن سليمان محمود ، مؤسَّسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٢م .

١٤٤ ـ ليبيا منذ الفتح العثماني ، أتوري ، روسي ، تعريب خليفة التَّليسي ، دار الثَّقافة ، الطَّبعة الأولى ١٩٧٤م .

(م)

١٤٥ ـ معركة نهاوند ، شوقي أبو خليل .

١٤٦ ـ مرآة الزَّمان لسبط ابن الجوزي .

١٤٧ ـ الموسوعة العامَّة لتاريخ المغرب والأندلس ، نجيب زبيب ، دار الأمير ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .

١٤٨ ـ مذكَّرات السُّلطان عبد الحميد ، تقديم د . محمَّد حرب ، دار القلم ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م .

١٤٩ ـ موقف الدَّولة العثمانيَّة من الحركة الصهيونيَّة د . حسَّان علي حلاق ، دار الجامعة ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٩٨٦م .

١٥٠ ـ موقف أوربة من الدَّولة العثمانيَّة ، د . يوسف علي الثَّقفي ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٧هـ .

١٥١ ـ المختار المصون من أعلام القرون ، محمَّد بن حسن بن عقيل موسى دار الأندلس الخضراء للنَّشر والتَّوزيع ، جدَّة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .

١٥٢ ـ المسألة الشَّرقيَّة ، دراسةٌ وثائقيَّةٌ عن الخلافة العثمانيَّة ، محمود ثابت الشَّاذلي ، مكتبة وهبة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م .

٢٥٣ ـ محمَّد الفاتح ، د . سالم الرَّشيدي ، الإرشاد ، جدَّة ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٩٨٩م/ ١٤١٠هـ .

١٥٤ ـ معجم المؤلِّفين ، تراجم مصنفي الكتب العربيَّة ، تأليف عمر رضا كحالة ، إحياء التُّراث العربي .

١٥٥ ـ المشرق العربي ، والمغرب العربي ، د . عبد العزيز قائد المسعودي ، جامعة صنعاء ، دار الكتب الثَّقافيَّة ، صنعاء ، الطَّبعة الأولى ١٩٩٣م .

١٥٦ ـ مجموع الفتاوى ، جمع ، وترتيب عبد الرَّحمن القاسم .

١٥٧ ـ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر ، خالد السَّبت ، المنتدى الإسلامي .

١٥٨ ـ معارج القبول شرح سلَّم الوصول إلى علم الأصول ، في التَّوحيد ، تأليف الشَّيخ الحافظ أحمد حكمي رحمه الله ، تعليق عمر محمود ، دار ابن القيِّم للنَّشر والتَّوزيع ، الطَّبعة الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م .

١٥٩ ـ مسند الإمام أحمد ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

١٦٠ ـ المجتمع المدني في عهد النُّبوَّة ، « الجهاد ضدَّ المشركين » ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٤هـ .

١٦١ ـ مواقف حاسمة ، محمَّد عبد الله عنان .

١٦٢ ـ منهج الرَّسول في غرس الرُّوح الجهاديَّة في نفوس أصحابه ، د . السَّيد محمَّد السَّيِّد نوح ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م ، نشرته جامعة الإمارات العربيَّة .

١٦٣ ـ المغرب العربي في بداية العصور الحديثة ، صلاح العقَّاد ، مكتبة الأنجلو المصريَّة ، القاهرة ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٩٦٩م .

١٦٤ ـ المغرب العربيُّ الكبير ، شوقي عطا الله الجمل ، طبعة أولى ، ١٩٧٧م ، مكتبة الأنجلو المصريَّة ، القاهرة .

١٦٥ ـ المجتمع الإسلاميُّ المعاصر ، محمَّد المبارك ، دار الفكر ، بيروت ، ط

١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م .

١٦٦ ـ مشكلات الجيل في ضوء الإسلام ، محمَّد المجذوب ، ط ١٣٩٠هـ .

١٦٧ ـ المغرب في عهد الدَّولة السَّعديَّة ، عبد الكريم كريم ، شركة الطَّبع والنَّشر ، الدَّار البيضاء ، المغرب ، ١٩٧٧م .

١٦٨ ـ المغرب العربيُّ الكبير ، جلال يحيى .

١٦٩ ـ محنة المورسيكوس في إسبانيا ، لمحمَّد قشتيلو ، مطبعة الشُّويخ ، تطوان ، ١٩٨٠م .

١٧٠ ـ الموسوعة الميسَّرة في الأديان ، لندوة الشَّباب العالميِّ ، جدَّة .

١٧١ ـ المسلمون وظاهرة الهزيمة النَّفسيَّة ، عبد الله بن حمد الشَّبانة ، دار طيبة ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م .

١٧٢ ـ مصر في مطلع القرن التَّاسع عشر ، د . محمَّد فؤاد شكري ، القاهرة سنة ١٩٥٨م .

١٧٣ ـ الماسونيَّة وموقف الإسلام منها ، د . حمُّود أحمد الرَّحيلي ، دار العاصمة ، السُّعودية ، طبعة أولى ١٤١٥هـ .

١٧٤ ـ من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي ، محمَّد أديب غالي ، دار اليمامة السُّعودية ، ط١ سنة ١٩٧٥م .

١٧٥ ـ المعالم الرَّئيسيَّة التَّاريخيَّة والفكريَّة لحزب السَّلامة ، محمَّد عبد الحميد حرب ، ندوة اتِّجاهات الفكر الإسلامي المعاصر ، البحرين .

١٧٦ ـ مفاهيم يجب أن تصحَّح ، لمحمَّد قطب ، دار الشُّروق ، القاهرة ، الطَّبعة السَّابعة ، ١٤١٢هـ/ ١٩٢٢م .

١٧٧ ـ المجتمع الإسلاميُّ المعاصر ، محمَّد المبارك ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م .

(ن)

١٧٨ ـ الانحرافات العقديَّة ، والعلميَّة في القرنين الثَّالث عشر ، والرَّابع عشر الهجريِّين ، وآثارهما في حياة الأمَّة ، تأليف علي بن نجيب الزَّهراني ، دار طيبة مكَّة ، دار آل عمَّار ، الشَّارقة ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م .

١٧٩ ـ النِّظام السِّياسيُّ في الإسلام ، د . محمَّد أبو فارس ، دار الفرقان ، عمَّان ، الأردن ، الطَّبعة الثَّانية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م .

١٨٠ ـ النُّجوم الزَّاهرة ، لجمال الدِّين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي ، الهيئة المصريَّة العامَّة للتَّأليف والنَّشر ، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م .

١٨١ ـ النُّفوذ البرتغاليُّ في الخليج العربي ، نوال صيرفي ، الرِّياض ، مطبوعات دار الملك عبد العزيز ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

١٨٢ ـ نشوة المدام في العودة إلى مدينة السَّلام ، أبو الثَّناء الآلوسي ، مطبعة ولاية بغداد ، ١٢٩٣هـ .

(و)

١٨٣ ـ واقعنا المعاصر ، محمَّد قطب ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م ، مؤسَّسة المدينة المنوَّرة .

١٨٤ ـ الولاء والبراء في الإسلام ، محمَّد سعيد القحطاني ، دار طيبة ، مكَّة ، الرِّياض ، الطَّبعة السَّادسة ، ١٤١٣هـ .

١٨٥ ـ وادي المخازن ، شوقي أبو خليل .

١٨٦ ـ وحي القلم ، مصطفى صادق الرَّافعي ، دار الكتاب العربيِّ ، الطَّبعة الثَّانية .

١٨٧ ـ والدي السُّلطان عبد الحميد ، مذكَّرات الأميرة عائشة ، دار البشير ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م .

(ي)

١٨٨ ـ اليهوديَّة ، والماسونيَّة ، عبد الرَّحمن الدُّوسري ، دار السُّنَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م ، السُّعوديَّة .

١٨٩ ـ اليهود والدَّولة العثمانيَّة ، د . أحمد نوري النُّعيمي ، مؤسَّسة الرِّسالة ، دار البشير ، الطَّبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م .

١٩٠ ـ يهود الدُّونمة ، دراسةٌ في الأصول ، والعقائد ، والمواقف ، د . أحمد نوري النُّعيمي ، مؤسَّسة الرِّسالة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .

* * *

فهرس الكتاب

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**